فضيلة الشيخ
عطية صقر

موسوعة
الأسرة تحت رعاية الإسلام

الحجاب

بين التشريع والاجتماع

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت : ٣٩١٧٤٧٠

اسم الكتاب:
موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام
الحجاب بين التشريع والاجتماع
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
اسم المؤلف:
فضيلة الشيخ عطية صقر
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ١١٨١٩ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-225 - 169- 8

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد كان من مقتضى الترتيب فى بحث قضايا الأسرة أن أعرض فى الجزء الثانى حقوق الزوجية، فهى الخطوة التالية للزفاف والدخول الذى أنهيت به الجزء الأول.

ولكن عرضت لى نقطة تتصل بالعورة وحكم كشفها والنظر إليها عند الحديث عن خطبة الزوج لزوجته، وستعرض بعد ذلك عند بيان حقوق الزوجية نقط أخرى تتصل بالعرض والشرف وما يجب على الزوجين حيالهما، وكذلك ما يتصل بهما عند قيام المرأة بنشاطها خارج بيتها، فرأيت أن أجمع بين هذه النقط وأضعها كلها فى جزء خاص بها، يفيد منه الباحث فى أى جزء من أجزاء بحث الأسرة، بل فى وضع المرأة فى المجتمع بوجه عام. ملتزما فيه أسلوب البحث الذى التزمته فى الجزء الأول، والذى يجب الرجوع إليه عند قراءة كل جزء من أجزاء هذه الموسوعة.

وقد اخترت لهذا الجزء عنوان «الحجاب بين التشريع والاجتماع» تحدثت فيه عن الحد الشرعى للحجاب الذى يستر العورة، وعن صلته بنشاط المرأة فى المجتمع، وما أثير حوله من شبهات، وأنهيت ذلك بإلقاء بعض الأضواء على النشاط النسوى[1] فى العالم الإسلامى، والمطالب التى تركز عليها اهتمامها فى هذا النشاط، وما قاله العلماء فى هذا الموضوع.

ورتبت هذا الجزء على مقدمة وخمسة أبواب، تحدثت فى المقدمة عن علاقة الرجل بالمرأة، وأهمية الغريزة الجنسية ، وخطر الفتنة على الجنسين، وما وضع من تنظيمات لعلاقة بعضهما ببعض.

وجعلت الباب الأول فصولا تحدثت فيها عن قدم فكرة التنظيم للاتصال بين الجنسين، موردا بعض الصور لهذا التنظيم عند القبائل والمدنيات القديمة

---

(١) النسوى نسبة إلى النسوة، والنسوة اسم جمع لا واحد له من لفظه، فمفرده امرأة. ولما كانت النسبة هى للمفرد لا للجمع، وليس للنسوة مفرد من لفظه، عومل اسم الجمع معاملة المفرد، فجاءت النسبة إليه: «نسوى» كما يجوز النسب إلى «نساء» لأنه اسم جمع أيضا، فيقال «نسائى».

السابقة على الإسلام، وعن الحجاب فى الأديان السماوية، وما وضعته المدنيات الحديثة من إجراءات حيال هذا الموضوع.

وجعلت الباب الثانى فصولا قدمت لها بنظرة الإسلام إلى الفتنة بين الجنسين، ومعنى الحجاب ومقوماته، ثم تحدثت بعد المقدمة عن تحديد العورة وحكم سترها، وعن مواصفات الساتر الشرعى لها، وحكم النظر إليها وآداب الزيارة وعن الخلوة بين الرجل والمرأة، وحكم المصافحة وما يشبهها، والكلام والسلام وما يشاكلهما من أنواع الاتصال بين الجنسين. ثم تحدثت عن الوقت الذى شرع فيه الحجاب، والأسباب المباشرة لتشريعه، وعن حكمة مشروعيته، وهل هو خاص بنساء النبى ﷺ أو عام لجميع النساء.

وتحدثت فى الباب الثالث عن نشاط المرأة خارج المنزل، مقدما لفصوله بكلمة عن حكمة توزيع الأعمال بين الجنسين، ثم تحدثت عن الترغيب فى استقرار المرأة فى بيتها، وعن الاحتياطات التى شرعها الدين لخروجها، وعن صور من نشاطها الثقافى والدينى والاجتماعى الذى تباشره خارج المنزل.

وجعلت الباب الرابع خاصا بالسفور، تحدثت فى فصوله عن تاريخ الدعوة إليه، وأهم الحاملين للواء هذه الدعوة، وعن أسبابها وآثارها وعن علاج السفور، ورد الشبه الواردة على الحجاب.

أما الباب الخامس فخصصته لحركات التحرر النسوية، قدمت لفصوله بكلمة عن مركز المرأة بالنسبة إلى الرجل، وعن وضعها فى القبائل والبيئات البدائية والمدنيات القديمة السابقة على الإسلام، وعند اليهود والنصارى، وكذلك عند البيئات الحديثة والتشريعات المعاصرة، ثم بينت مركز المرأة فى ظل الإسلام، ومطالبها التى تنادى بها، ورأى العلماء فيها، وأتممت الباب بنظرة خاطفة على النشاط النسوى فى العالم.

ثم ختمت هذا البحث بصور تبين حرص الأولين على الحجاب، وتبين موقف الناس اليوم منه، مع التوجيه الى الطريق السوى الذى خطه الدين لحماية الأعراض، واستقرار الأسر وسلامة المجتمع.

والله هو المسئول أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يفيد منه الباحثون والمصلحون وأن يوفق الامة الإسلامية للعمل بما جاء به الدين الحنيف. إنه سميع مجيب.

عطية صقر

المقـــدمة

١ – المرأة هى المخلوق البشرى الثانى بعد آدم عليه السلام .

لقد ورد فى خلق حواء من آدم آيات وأحاديث . وإليك خلاصة ما قاله المفسرون والشراح فيها :

قال تعالى فى أول سورة النساء : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ وقال : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ [الأعراف : ١٨٩] وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ﴾ [الروم : ٢١] .

● **أولاً : أقوال المفسرين :**

(١) قال الطبرى فى تفسيره « ج١ ص ١٨٢ » : عن السُّدِّى . . . عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر ليسكن إليها . ولم يحكم على هذا النقل .

(٢) وقال الفخر الرازى فى تفسير أول النساء : وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان ، الأول – وهو الذى عليه الأكثرون – أنه لما خلق الله آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى . . . واحتجوا بحديث مسلم « أن المرأة خلقت من ضلع أعوج » ، الثانى – وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى – أن المراد من قوله « وخلق منها زوجها » أى من جنسها ، وهو كقوله : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ وقوله : ﴿ **بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ . . . وقال القاضى : والقول الأول أقوى لكى يصح قوله : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة . ويمكن أن يجاب عنه بأن كلمة « من » لابتداء الغاية ، فلما كان ابتداء التخليق

والإيجاد وقع بآدم صح أن يقال : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ . وأيضاً لما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادرا أيضاً على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك فأى فائدة فى خلقها من ضلع من أضلاع آدم .

(٣) وقال القرطبى فى أول سورة البقرة : قال ابن عباس وابن مسعود : لما أسكن الله آدم (ونقل ما ذكره الطبرى عن السدى) ولم يذكر سندا ولا حكما، ثم أورد حديث مسلم المذكور .

(٤) وابن كثير ذكر خبر ابن عباس المذكور، وهو عن أهل الكتاب .

(٥) وقال رشيد رضا فى تفسير المنار : ليس فى القرآن نص فيها . أى فى خلق حواء لكن فى سفر التكوين .

● **ثانياً : أقوال شراح الحديث :**

(١) قال النووى فى شرح صحيح مسلم « ج ١٠ ص ٥٧ » : قوله : « **من ضلع** » فيه دليل لما يقول الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم، قال الله تعالى : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ .

(٢) جاء فى فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر « ج٩ ص٢٠٧ » : أخرج ابن اسحق فى المبتدأ عن ابن عباس أن حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم، وكذا أخرجه ابن أبى حازم وغيره من حديث مجاهد، وأغرب النووى فعزاه للفقهاء أو بعضهم .

والخلاصة أن خلق حواء ليس فيه دليل قاطع يعتمد عليه فى بيان ما خلقت منه، ومن رجح أنها من ضلع آدم لم يسلم دليله، والمرويات فى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود طريقها أهل الكتاب، وقد نعى رشيد رضا على من يؤولون الآيات والأحاديث حتى تتفق مع مرويات أهل الكتاب، وحديث مسلم فى خلقها من ضلع آدم ليس نصا فى ذلك، لاحتمال أن يكون المراد أن خلقها فيه عوج طبيعى كالضلع، وقد صرح بالتشبيه فى رواية أخرى .

هذا، وقد جاء فى سفر التكوين الأصحاح الثانى ٢١ – ٢٤ : فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدا من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم . فقال آدم : هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا ، ومن العبارات الأدبية فى هذا المعنى : عندما نام آدم خرجت حواء من ضلعه، لتحرمه من النوم بعد ذلك .

بغض النظر عن كيفية خلق حواء من نفس آدم، هل المراد أنها خلقت من المادة التى خلق منها وهى التراب، فلم يخلقها الله من النور مثلا كما خلق الملائكة . ولا من النار كما خلق الجن، بل جعلها من طبيعة آدم ليكون ذلك أدعى للأنس وأتم للانسجام، أو المراد أنها مخلوقة من جسم آدم نفسه، من أحد أضلاعه ولا شك أن الكل يأنس بجزئه أكثر مما يأنس بغيره .

وبغض النظر أيضاً عن كونها خلقت قبل دخول آدم الجنة، أو بعد دخوله، لأنه لم يرد نص صريح ببيانه يحسم اختلاف العلماء فيه – بغض النظر عن كل هذا فان وجود المرأة ضرورى لعمارة الأرض بالوسيلة الأولى وهى التناسل .

ولضمان التعاون بين الجنسين على تحقيق حكمة الله فى جعل آدم خليفة فى الأرض، ربط الله بينهما برباط قوى هو الشهوة الجنسية، التى يشعر فيها كل طرف بانه لا يستغنى أبدا عن الطرف الآخر .

فالرجل محتاج إلى المرأة احتياج الكل إلى جزئه الذى يعتمد عليه، وكان من قبل متصلا به على نحو من الانحاء قبل تسويته بشرا من الطين، أو بعد تسويته إنسانا أخذ منه جزؤه ليكون زوجا له، والمرأة محتاجة إليه احتياج الجزء إلى الكل ليقوى به ويشتد أزره، واحتياج الغريب الشارد التائه إلى وطنه الذى يحقق له أمنه وسكنه .

ولعل هذا يوضح قوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة :

١٨٧]، وجاء فى الحكم : إن الله قرن ثلاثة بثلاثة، فلولا الشهوة ما تزوج أحد، ولولا الرياسة ما طلب أحد العلم، ولولا الآمال ما عمرت الدنيا « مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ٢٠٦ ».

(٢) الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز :

إن لم تكن أقواها – وضوحا وأثرا فى حياة البشر، وقد حاول بعض الباحثين أن يرد إليها كل الغرائز الأخرى، وهى إذا تركت بغير تنظيم كانت لها أخطارها الجسيمة، التى من أهمها فوضى الأنساب وعدم الاستقرار فى بيئة جماعية. تحقق الراحة والسكن الجسمى والنفسى، ويدبر فيها الإنسان أموره فى أمن وسلام.

وعمارة الكون تحتاج إلى طاقة كبيرة قائمة على تنظيم دقيق وتدبير حكيم. والبشر إن لم تنظمهم علاقات مستقرة عاشوا فرديين لا يأبهون لواجب الجماعة، التى هى العامل الأساسى فى النهوض بتبعات الحياة.

ومن هنا نظم الله علاقة الرجل بالمرأة تنظيما دقيقا كان من مظاهره تكوين الأسر بالزواج الذى تتضح حكمته فيما ذكرنا.. فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وقد اقتضت حكمة الله أن يظل نشاط الغريزة الجنسية مستمرا حتى بعد تكوين الأسرة بالزواج، فما يزال كل جنس يميل إلى الجنس الآخر، لا يخمد فيه هذا الميل إلا لعلة تتصل بالتركيب العضوى، أو لمانع أدبى قوى كما سبق بيانه فى الجزء الأول عند الحديث عمن انصرفوا عن الزواج.

ويقول الخبراء، كما ذكره ابن القيم فى أعلام الموقعين ج٢ ص ٢٠٦ : إن الميل الجنسى عند الرجل أقوى وأدوم منه عند المرأة، وإن كانت هموم الحياة وشواغلها الكثيرة تضعف منه بمقدار ضغطها على حسه وفكره.

وأما ما روى من أن شهوة المرأة تفوق شهوة الرجل فهو خبر لم يصح، وإن صح حمل على الوقت الذى تكون فيه المرأة مشتاقة إلى الرجل عند انطلاق

البويضة واستعدادها للتلقيح، روى أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة، وابن عدى والخطيب عن عائشة قول النبى ﷺ : « أربع لا يشبعن من أربع، عين من نظر، وأرض من مطر، وأنثى من ذكر، وعالم من علم » وهو حديث ضعيف، بل قال بعض العلماء : إنه موضوع[1]، على أن عدم شبعها منه غير مسلم فى كل حال، فإنها قد تنفر منه فى فترات معينة كفترة الإرضاع[2].

إن المشاهد أن إناث الحيوانات تدافع ذكورها ولا تستجيب إذا لم يكن عندها استعداد للتلقيح، يقول الدكتور « أحمد حماد الحسينى » عن سلوك خنزير غينيا : إن الذكر مستجيب للأنثى الراغبة، كما أن له غددا ملحقة بالغدد التناسلية تفرز إفرازا يتجمد فى داخل الأنثى . وهذا يؤمن حيواناته المنوية من ناحية، ويضع سلوك الأنثى الجنسى عند حد[3].

وقد جاء مثل هذا الكلام عن البويضة فى المرأة، فان الحيوان المنوى الذى يسبق الآلاف من الحيوانات ويلقح البويضة، يجعلها تفرز مادة تنفر منها بقية الحيوانات، وتعود خائبة على الرغم من تسابقها لتلقيح البويضة .

وإذا كان امتناع أنثى الحيوان عن ذكر بعد التلقيح واضحا . فان المرأة يكون عندها استعداد للاتصال الجنسى بدرجة ما، فى غير فترة التلقيح التى تحددها الدورة الحيضية الشهرية، حتى بعد الحمل تظل مستعدة . والحكمة فى هذا أنها لو نفرت من الرجل نفور الحيوانات الحاملة، لساعد ذلك على محاولة اتصاله بغيرها عن طريق حلال أو حرام . وهذا النفور فى كثير من الأحيان من أسباب اضطراب العلاقة الزوجية، أما فى عالم الحيوان فان الأنثى إذا نفرت من الذكر فانه سيجد غيرها دون حدود موضوعة تمنعه، لأنه لا يختص بأنثى معينة، على الرغم من أن بعض الأنواع الراقية يكون عندها نوع اختصاص فى الحياة الجنسية .

---

(١) انظر تخريج الألبانى لأحاديث الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) انظر ص ٥٤ من كتاب « مارى ستوبس » عن « المسألة الجنسية فى حياتك الزوجية » وسيأتى توضيح ذلك فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة، الباب الأول، الفصل الثامن .

(٣) سلوك الحيوان ص ٥٤ للمؤلف . نشر المكتبة الثقافية بوزارة الارشاد رقم ٨٤ .

إن الرجل الذى لا يعانى علة عضوية أو نفسية يكون فى كل أوقاته أو غالبها قوى الميل إلى الأنثى، وذلك، كما يقول المختصون، لاستمرار إفراز «هرمون» الذكورة عنده على وتيرة واحدة دون فترات هدوء كما يحدث فى المرأة[1].

ومن هنا نرى أن الرجل فى أغلب أحواله، إن لم يكن فى جميعها، هو الطالب للمرأة والملاحق لها، وأن المرأة على العكس من ذلك فى أغلب أحوالها هى المطلوبة الملاحقة.

وهذا المعنى قد يكون سببا فى حيائها الشديد بالنظر إلى الناحية الجنسية ومع وجود الجنس الآخر بالذات، وعلله بعض الباحثين بشعورها بالنقص الذى يحمل الناقص غالبا على الاستحياء ممن هو أكمل منه، وليس شرطا أن يكون النقص لعامل مادى فى كل أحواله، فقد يكون على أساس أدبى. وقد يشهد لهذا المعنى الطبيعى الواقعى هذا الأثر الذى ذكره الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ١٧ هـ «٦٣٩م»، «الحياء عشرة أجزاء، فتسعة فى النساء، وواحد فى الرجال». ورواه الديلمى مرفوعا إلى النبى ﷺ وهو ضعيف «فيض القدير ج٣ ص ٤٢٩، جمع الجوامع رقم ١٠٥٥٤ وقد جاءت هذه الفقرة ضمن حديث ذكره الطبرى يقول فيه:

قسم الحفظ عشرة أجزاء، فتسعة فى الترك وجزء فى سائر الناس. وقسم البخل عشرة أجزاء، فتسعة فى فارس وجزء فى سائر الناس، وقسم السخاء عشرة أجزاء فتسعة فى السودان وجزء فى سائر الناس، وقسم الحياء عشرة أجزاء، فتسعة فى النساء وجزء فى سائر الناس، وقسم الشبق – الرغبة فى الجماع – عشرة أجزاء، فتسعة فى الهند وجزء فى سائر الناس، وقسم الحسد عشرة أجزاء، فتسعة فى العرب وجزء فى سائر الناس، وقسم الكبر عشرة أجزاء، فتسعة فى الروم وجزء فى سائر الناس.

---

(١) مجلة الدكتور عدد ١٨٥، ١٨٧ ص ٤٣٦، عدد ١٨٨ ص ٥٠٦.

« تنبيه » ذكرت هذا كنوع من الفكرة المأخوذة عن هذه الشعوب، وصدقها أو كذبها تقع تبعته على من ذكروه.

وقل أن تشذ المرأة عن هذا إلا إذا كانت هناك عوامل قوية تساعدها على الخروج عن هذا الحد. فالمغريات كثيرة تبعث الراقد وتنبه الغافل، وتقوى الضعيف، والانسان بشر وليس ملكا. والواقع يشهد أن هناك شواذ من النساء فى هذه الناحية، ومن مأثور التاريخ العربى فى أمثالهم أشبق من حُبَّى » وهى امرأة مدنية كانت مزواجا يسميها النساء « حواء أم البشر » لأنها علمتهن ضروبا من هيئات الجماع، جعلت لكل منها اسما خاصا « أعلام النساء لعمر كحالة »[1].

ولا يغيب عن أذهاننا حادث « زليخا » امرأة عزيز مصر مع « يوسف »، التى يقول القرآن فيها ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ** ﴾ [يوسف: ٢٣]، وعلى الرغم من عدم نجاحها فى هذه المحاولة، وافتضاح أمرها بعد، فإنها مازالت مصرة على استجابته لها مهددة له بكل أنواع التهديد التى تظن أنها سترغمه على الاستجابة ﴿ **قَالَتْ: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف: ٣٢].

إن الذى حملها على أن تبدأه بالمراودة أمور كثيرة. فقد كانت فى كامل قوتها الطبيعية وسلطانها الأدبى، وهو شاب وسيم قوى جميل أعزب، وهى ملازمة له وهو ملازم لها، وهى آمنة من الفضيحة لأنها فى ستر كامل عن عيون الناس وأسماعهم « غلقت الأبواب »، وهو لن يجرؤ على إفشاء السر لضعفه فى

---

(١) ويضرب المثل بامرأة كثر زناها فى العرب تسمى « ظلمة » وهى من هديل، زنت أربعين سنة، وقادت أربعين سنة، فلما عجزت عن الزنى والقيادة اتخذت تيسا وعنزا، فكانت تنزى التيس على العنز، فقيل لها: لم تفعلين ذلك؟ قالت: لأسمع أنفاس الجماع بينهما (حياة الحيوان الكبرى للدميرى « اليمام » نقلا عن كتاب: ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار).

غربته ووضعه الاجتماعي ووقوعه تحت سلطانها وسلطان زوجها، كل ذلك مع أملها القوى فى سرعة استجابته لها، فهى جميلة وهو شاب غير متزوج، وهو تحت سلطانها تعتقد أنه لن يعصى أمرها. وقد هيأت له كل المغريات من الزينة وإغلاق الأبواب، ومبادرتها هى بالطلب، واطمئنانها إلى أن الغيرة عند زوجها ضعيفة، وقد تبين ذلك عندما علق على الحادثة بعد علمه بها بقوله له: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ وقوله لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٩].

وكانت النتيجة لمراودتها له مع توفر هذه الدواعى، نتيجة فاشلة ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

إن الذى منعه من ارتكاب الفاحشة مع توفر الدواعي إليها معنى أدبى، فهو لا يحب أن يخون ربه أى سيده الذى أحسن إقامته، فذلك كفر بالنعمة وظلم لهذا المنعم عليه، وإلى جانب هذا المعنى الأدبى النابع من قرارة نفسه وحسن تأمله، كان هناك معنى دينى منعه من الاستجابة إلى ضغط الحس، وهو الخوف من الله الذى نجاه من البئر وجعل نهايته فى بيت عز ينعم فيه بأرغد عيش، فمن لم يشكر هذه النعمة فهو ظالم بعصيانه لله تعالى، وقد اكتمل عنده السمو الأدبى والدينى، وكان من الممكن أن يتوازى الإحساس الأدبى ولو لحظة، ولا يكون هناك إلا هاجس أو خاطر تدفع إليه الغريزة، لكن الإحساس الدينى كان متيقظا وقويا[١].

● **تنبيه:**

قال بعض العلماء إن يوسف هم أن يأتى الفاحشة بدافع من طبيعته البشرية، ولكنه رأى برهان ربه فامتنع. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا

---

(١) انظر الجواب الكافى لابن القيم فى هذا الموقف وتعداد الدواعى لوقوع الفاحشة ثم عصمة الله ليوسف.

أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٢٤] . وقالوا كلاما كثيرا فى تفسير البرهان، وأورد السيوطى فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » روايات كثيرة ليست مرفوعة الى النبى ﷺ، بل لابن عباس وغيره، وهى تثبت أنه هم بالسوء وكاد يتمكن من الفاحشة لولا أن رأى برهان ربه، والبرهان قيل : هو جبريل الذى ظهر له فى صورة أبيه يعقوب، صاح به أو ضربه على صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل : هو إدراك رؤية الله له عندما قامت هى وغطت صنمها استحياء. وجاء عن كعب القرظى أن البرهان ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠، ١٢]، ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١]، ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] . وهذا القول يرجع إلى إدراك رؤية الله، وقيل : رأى مكتوبا على الجدار ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء : ٣٢] . وقيل رأى تمثال الملك فاستحيا منه .

وهذه كلها أقوال لا يسندها دليل صحيح، وهى تتفق على أن الهم بفعل الفاحشة قد حصل منه، ولولا البرهان لوقعت .

وفسر الهم هنا بالعزم على الفعل . والعزم على الفعل يؤاخذ به الانسان . فإن كانت رؤية البرهان قبل الهم لكان يوسف بريئا من المؤاخذة . وإن كانت بعد الهم كان مؤاخذا . وتحدثوا عن عصمة الأنبياء قبل البعثة وغيرها من الصغائر أو الكبائر كلاما كثيرا لا مجال لذكره .

وأراد جماعة أن يبرئوا يوسف من المعصية التى هى « الهم » ففسروه بما يشبه الهاجس .والخاطر وما هو حركة للنفس نحو شىء ما لم تصل إلى درجة الهم والعزم . وذلك معفو عنه لأن الناس جميعا معرضون له، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ولكنى لا أرى داعيا لكل هذه المعركة لتبرئة يوسف من الزنى أو الهم به، فهو برىء براءة الذئب من دمه، ذلك لأنه صرح برفض رغبتها عندما راودته، وعلل ذلك الرفض بما يقويه ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ثم بين لها منطق الشكر للمعروف الذى أملى عليه موقفه منها بقوله: ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ كان مجرد مراودتها له مع الجو المهيأ كافيا فى الهم، بل كافيا أيضاً للفعل، لكنه أبى. فهو برىء.

جاء فى تفسير الفخر الرازى أن الذين لهم تعلق بهذا الواقعة سبعة وكلهم قالوا ببراءة يوسف:

(١) يوسف، وقد قال: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾، ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾.

(٢) المرأة، وقد قالت ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾، ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

(٣) زوجها، وقد قال: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

(٤) النسوة، وقولهن ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾، ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾.

(٥) الشهود، قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾.

(٦) رب العالمين، وقد قال: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

(٧) إبليس، وقد قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وقد أقر الله بأن يوسف من عباده المخلصين، فلم يتسلط عليه.

فمن لم يؤمن بكلام الله فى براءة يوسف فليؤمن بكلام الشيطان، وقد أقر الشيطان بأن يوسف ممنوع منه، فلا مفر من اعتقاد براءته.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فهو يبين مرحلة تالية للرفض والاعتصام، فزليخا لما عجزت عن نيل غرضها منه بالطريق السلمى، وهو المراودة اللينة المغرية، لجأت إلى العنف وقهره على الاستجابة، فهمت به لتقهره على الفعل، أو همت به تضربه وتعاقبه على كسر كبريائها وعصيان أمرها، فهم هو بها دفاعا عن نفسه أن يقع فى المعصية، أو دفاعا عن نفسه من انتقامها، والمعتدى عليه لا يستسلم للاعتداء بل يقاومه، وكاد لغيرته على شرفه وخوفه من ربه أن يقابل شدتها بشدة توقفها عند حدها، فهو شاب قوى أمام امرأة ضعيفة بدنيا ونفسيا فى هذه الحالة، وكاد أن يقتلها لولا خوفه من الله أن تتطور القضية من فاحشة سرية كان يمكن ألا يعلم بها أحد ولا يدان عليها من قبل السلطات الدنيوية، إلى جريمة قتل لا يمكن سترها وسيكون عقابها شديدا.

وقد وفقه الله لهذين الموقفين، وهما: رفض المراودة وعدم قتل نفس بغير نفس. ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

ولما رأى يوسف أنه فى مأزق حرج لم يجد مخلصا إلا أن يهرب من هذا المكان فجرى بسرعة إلى الباب ليخرج فأسرعت هى أيضاً تمنعه من الخروج إما لإصرارها على نيل غرضها منه، وإما خشية أن يفشى السر. وإما لإيقاع عقابها به، وعند ملاحقتها له جذبته من قميصه وهو هارب منها. فقدته من دبر، أى من خلفه ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ إلى آخر القصة المذكورة بالتفصيل فى سورة يوسف.

وعلى هذا تكون الآيتان منفصلتين، بمعنى أن إحداهما تصور موقفا غير الذى تصوره الأخرى، فالأولى كانت عن المراودة وقد عصم الله منها يوسف، والثانية عن المرحلة التالية للرفض، وقد عصم الله منها يوسف أيضاً ليصرف عنه الجريمتين: السوء والفحشاء.

وبفصل الآيتين عن الموضوع الواحد لا نحتاج إلى التأويلات فى معنى الهم وتفسير البرهان. هذا ويساعد على فصل الهم بالزنى عن رؤية البرهان ما ذكره

محمد بن نظام الدين الأنصارى فى كتابه « مسلم الثبوت » فى باب الأصل الثانى السنة، حيث قال : إنها همت بقتله وهم بقتلها، وبرهان ربه هو طريق الخلاص بإلهام ربه بدون ارتكاب جريمة القتل . وهو الفرار من وجهها .

بعد هذا نعود إلى الحديث عن علاقة الرجل بالمرأة جنسيا . يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يخلون رجل بمغيبة . « فإن النساء لحم على وَضَم إلا ما ذُبَّ عنه » والمغيبة (بضم الميم وكسر الغين هى التى غاب عنها زوجها . « كشف الغمة للشعرانى ج٢ ص ٧٣ » .

والوضم هو الخشبة التى يوضع عليها اللحم لتقيه من الأرض، أراد أنهن من الضعف مثل ذلك اللحم الذى لا يمتنع على أحد إلا أن يذب عنه ويدفع . قال الأزهرى : إنما خص اللحم على الوضم وشبه به النساء لأن من عادة العرب إذا نحر بعير الجماعة يقتسمون لحمه أن يقلعوا شجرا، ويوضم بعضه على بعض، ويعضّى اللحم، أى يجزأ، ويوضع عليه، ثم يلقى لحمه عن عُراقه، أى عظمه، ويقطع على الوضم هَبْرًا للقسم، وتؤجج النار، فإذا سقط جمرها اشتوى من حضر شيئا بعد شىء على ذلك الجمر، لا يمنع منه أحد، فإذا وقعت المقاسم حول كل واحد قسمه عن الوضم الى بيته، ولم يعرض له أحد . فشبه عمر النساء وسهولة الاتصال بهن باللحم مادام على الوضم «نهاية ابن الأثير — مادة : وضم» .

٣ — إن كلا من الجنسين فتنة للآخر، على الرغم من التفاوت فى ذلك، ولا ينجو من خطر هذه الفتنة إلا الحذر اليقظ الذى يعصمه دينه وخلقه . والواقع يؤيد هذه الحقيقة التى هى فى غنى عن الأدلة النقلية، ومما أثر من الأشعار فى ذلك قول كثير عزة فيها :

رهبان مكة والذين رأيتهم ... يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعا وسجودا[1]

(١) المنخَّل اليشكرى شاعر جاهلى مقل وكان جميلا، ونادم النعمان بن المنذر، واتهم =

وقول جميل بثينة :

لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد

وقول مسكين الدارمى :

قل للمليحة فى الخمار الأسود ... ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه ... حتى عرضت له بباب المسجد

ردى عليه صلاته وصيامه ... لا تفتنيه بحق دين محمد

وقول النابغة الذبيانى يصف «المتجردة»[١] امرأة النعمان كطلبه[٢] :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... يخشى الاله صرورةٍ متعبد

لرنا للهجتها وطيب حديثها ... ولخاله رشداً وان لم يرشد

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السليم إلى وجوه العوَّد

السليم : المريض[٣]

ومن مأثور الحوادث فى فتنة العباد، مارواه الأصبهانى[٤] قال : خاصمت

= بحب «المتجردة» امرأة النعمان (وكان النعمان دميما قصيرا أبرش) وتشبب بهند أخت عمرو الملك وبغيرها، ولذلك قتله عمرو بن هند سنة ٥٩٧م، ومن شعره :

يا هند هل من نائل ... يا هند للعانى الأسير

وأحبها وتحبنى ... ويحب ناقتها بعيرى

«البلاغ الكويتية ١٧ / ٤ / ١٩٧٧» .

(١) العقد الفريد ج١ ص ١١٠ .

(٢) وذلك أنها مرت فى مجلس فسقط نصيفها – أى برقعها – فسترت وجهها بذراعها وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى، فطلب النعمان من النابغة وصف هذه الحادثة فكان فيما قال :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مُزَوَّد

إلى أن قال :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

(٣) زهر الآداب للحصرى ج١ ص ١٦ طبعة الحلبى، تحقيق على محمد البجاوى .

(٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ج١ ص ١٢٧ .

امرأة جميلة زوجها إلى الشعبى، فقضى لها، ولما مرت بالمتوكل الليثى[1] وعلم بالحكم قال:

فُتِنَ الشعبى لما رفع الطرف إليها فتنته ببنان
وبخطى حاجبيها فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها نحرها أو ساعديها لصبا حتى تراه
ساجداً بين يديها[2]

أما عبد الرحمن بن أبى عماد الجشمى من قراء مكة الملقب بالقس. لكثرة عبادته، فإنه قد شغف حبا بسلاَّمة فغلب عليها اسمه «سلامة القس» كما أنها هى أيضاً شغفت به. وفى خلوة حاولت أن تأخذ منه قبلة فأبى، وقرأ عليها قوله تعالى: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧] وانصرف عنها وعاد إلى نسكه وقال على الفور:

إن الذى طرقتك بين ركائب — تمشى بمزهرها وأنت حرام
باتت تعللنا وتحسب أننا — فى ذاك أيقاظ، ونحن نيام
حتى إذا سطع الضياء لناظر — فإذا، وذلك بيننا أحلام
قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها — فاعجب لما تأتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما — سبل الضلالة والهدى أقسام[3]

---

(١) فى العقد الفريد ج١ ص ٧٣ أنها لهذيل الأشجعى، والمرأة هى أم جعفر بنت عيسى ابن جراد.

(٢) أمثال هذه الأخبار التى تروى عن العباد والقضاة والمتصلين بالدين أكثر من غيرهم لا ينبغى أن نصدقها على علاتها، صحيح أن الانسان ليس بمعصوم، ولكن لماذا لا نحسن الظن بهؤلاء الذين يتولون الريادة والقيادة فى الخلق والحكم. ونحمل أمثال هذه الطرف والاخبار على أنها قد تكون صادرة من موتور، حكم القاضى عليه مثلا فلم يرضه الحكم فشنع بمثل ما قيل فى الشعبى هذا، وعلى كل حال فنحن نذكرها لأنها من التراث الأدبى، ولأنها تصور الطبيعة الانسانية بصرف النظر عمن نسبت إليه.

(٣) محاضرات الأدباء ج٢ ص ١٣٤.

ومن طريف ما يحكى لبيان افتنان المرأة بالرجل كافتتانه بها ما رواه الأصفهاني[1] في كتابه الأغاني عند الحديث عن الدلال المخنث :

أن سليمان بن عبد الملك كان يسمر ليلة . فلما انتهى دعا بوضوئه – أي الماء الذي يتوضأ به – فجاءته الجارية به، وأومأ إليها أن تصب عليه، وأشار مرتين فلم تسمع، أو ثلاثا، فأنكر ذلك منها، ورفع بصره فإذا هي مصغية إلى ناحية العسكر، لتسمع مغنيا يقول :

محجوبة سمعت صوتي فأرقها ... من آخر الليل حتى شفها السهر
تدني على الخد منها من معصفرة ... والحلي باد على لبساتها حصر
لم يحجب الصوت حراس ولا غلق ... فدمعها بأعالي الخد منحدر
في ليلة البدر ما يدري مضاجعها ... أوجهها ما يرى أم وجهها القمر
لو خليت لمشت نحوي على قدم ... تكاد من رقة للمشي تنفطر

حصر : بارد[2].

فأنصتت له حتى استوعبت الشعر .

وفي الصباح بعث في معرفة الرجل، ودعا بحجام ليخصيه، فدخل عليه عمر بن عبد العزيز ليشفع فيه فقال لعمر : اسكت، إن الفرس لَيَصْهل فتستودق الحجر له، وإن الجمل لَيُحْضر فتضع له الناقة، وإن التيس لَيَنبُّ فتستَحْرِم له العنز، وإن الحمام ليَهْدِل فتَزَوف له الحمامة، وان الرجل ليغني فَتشْبَق له المرأة[3] .

---

(١) يقال أن الاصبهاني المتوفي حوالي ٣٥٦هـ « ١٤ من ذي الحجة = ٢١ من نوفمبر ٩٦٧ » أحب أن يشوه في كتابه « الأغاني » سمعة امراء بني أمية على الرغم من صلة نسبه بهم وأخفاه لينجو من اضطهاد العلويين لهم، وكذلك شوه سمعة العباسيين لأنهم أعداؤه، فروى عنهم من مجالس اللهو والغناء شيئا كثيرا فيه افتراء يريد نزع ثقة الناس بهم .

وعلى الرغم من ذلك فان ما جاء في كتابه، وان كان يصور اتجاهه الشخصي، يعطي صورة، ولو غير محددة، عن الواقع الذي كان يعيشه الناس إذ ذاك، على أن كثيرا من هذه الصور ورد بعضه في كتب أخرى، وقد جئت بها هنا لا لأجل الاستدلال على قضية تحتاج إلى دليل، ولكن لتوضيح أمر غني عن الدليل، فوقائع الأحوال أكبر دليل .

(٢) هـذه الأبيات مزيج من رواية الاصبهاني، والجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد ج٢ ص ٧٠، ٧١ .

(٣) ذكر الأصبهاني في محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء أن مسلمة بن عبد الملك =

تستودق: تشتهى الفحل. الحجر: أنثى الخيل. يحضر: يعدو، أو يحصر بمعنى يبكى، أو يحصر بمعنى يوضع عليه مثل الرحل ويهيأ للركوب. تضع له الناقة: تسرع وتعدو. ينب مأخوذ من النبيب وهو صوت التيس عند السفاد، أى الاتصال بالعنز. تستحرم: تشتاق للجماع، مأخوذ من الحرمة وهى الغُلْمة واشتهاء الجماع، وهى بالحيوانات أخص يقال: استحرمت الشاة إذا طلبت الفحل[1].

وقال رجل: إياك أن تترك حرمتك تصغى إلى قول ابن أبى ربيعة:

أمن آل نُعْم أنت غاد فمبكر　　　غداة غد أم رائح فمهـــــجر

فانه يحل السراويلات ويطرب الغانيات[2].

ومن الفكاهات الحديثة المعبرة: أن فتاة تأخرت عن موعد الحضور إلى عملها، فلما سألها الرئيس السبب قالت: تأخرت فى الطريق لأن شابا كان يمشى ورائي، فتعجب الرئيس وقال لها: وهل هذا يؤخرك؟ قالت: نعم لأنه كان يمشى ببطء.

٤ – وفى غمرة افتنان أحد الجنسين بالآخر يستطيع كل أن ينتهز الفرصة، ويملى إرادته. أو ينال من الرغائب ما كان مستعصيا، وقل أن يخيب فى هذه الحالة رجاء، أو يرفض طلب.

ولما كانت فتنة الرجل بالأنثى أقوى استطاعت أن تبتز من البخيل ماله وهو العزيز عليه، وأن تثير الحماس فى نفس الجبان فيلقى حتفه على كره منه، وأن تجعل الوقور الرزين يتصرف كالصبية والحمقى، وأن تفتن العابد فتصرفه عن نسكه، بل تأمره بالقتل فيقتل، وبالخمر فيشرب[3].

= هو الذى ذكر هذه الكلمات لسليمان أخيه «ج١ ص ٤٤١» وذكرها الجاحظ بشكل آخر. فى كتابه «المحاسن والأضداد» ج٢ ص ٧٠، ٧١ وكذلك ذكرها الثعالبى فى اللطائف ص ٨٥.

(١) انظر نهاية ابن الاثير ومختار الصحاح.

(٢) محاضرات الأدباء ج٢ ص ١٢٦.

ومن الأقوال الحكيمة فى تصوير هذه الحالة: أضعف لحظة يكون فيها الرجل عندما تقول له المرأة: ما أعظم قوتك!! أى إذا مدحته معجبة به مال قلبه إليها وضعفت إرادته. ومنها: المرأة تمساح فى بحر من دموع[1].

وفى الجزء الأول فى باب اختيار الزوجين خبر حب خالد بن يزيد بن معاوية «المتوفى سنة ٧٠٤م» لرملة بنت الزبير[2] وما أثر عن الاسكندر المقدونى، وادوارد الثامن ملك انجلترا فى ذلك.

ومن الأمثلة أيضاً:

(أ) أن زبيدة بنت أبى جعفر المنصور «توفيت سنة ٢١٦هـ» ضغطت على زوجها هارون الرشيد أن يطأ أقبح جارية فى المطبخ، فكان منها المأمون الذى قتل فيما بعد ابنها الأمين.

ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلى عن أبيه: دخلت على الرشيد، فلما رأيته قد أخذ فى حديث الجوارى وغلبتهن على الرجل غنيته بأبياته التى يقول فيها:

ملك الثلاث الانثيات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ، وبه قوين أعز من سلطانى

فارتاح وطرب وأجازه.

= ذلك. ويقال: أن حواء هى التى أغرت آدم بالأكل من الشجرة، وجاء فى ذلك حديث موقوف على ابن عباس بسند صحيح (فهو ليس حديثا مرفوعا إلى النبى ﷺ) ذكره ابن حجر فى «المطالب العالية» ج١ ص ٥٩ وأخرجه أحمد بن منيع، ونصه: قال الله تعالى لآدم: يا آدم ما حملك على أن أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها؟ قال: فاعتل آدم.، فقال: يا رب زينته لى حواء. قال: فإنى عاقبتها بألا تحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها، ودمّيتها فى كل شهر مرتين. قال: فرنَّت «حاضت» حواء عند ذلك، فقيل لها: عليك الرَّنة وعلى بناتك. وسيأتى فى الجزء الثالث عن أنس أن حيضها كان بسبب أنها قطعت من الشجرة وأدمتها.

(١) وما أقوى مثل هذه العبارة فى ضعف الرجل أمام المرأة، عندما قال على بن الجهم لجاريته: نجعل مجلسنا الليلة فى القمر، حيث قالت: ما أولعك بالجمع بين الضرائر! فهى تصف نفسها بالحسن الذى يجعلها كالقمر، فيكون على بن الجهم متمتعا بقمرين معا «الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا ص ٢٢٠».

(٢) والخبر والشعر فى وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ج٢ ص ٢٢٤.

(ب) ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد « ج٣ ص ١٨٢ » أن يزيد بن عبد الملك لما كلف بحبابة[١] وشغل بها وأضاع الرعية دخل عليه أخوه مسلمة فقال : يا أمير المؤمنين، تركت الظهور للعامة وشهود الجمعة وأحتجبت مع هذه الأمة . فارعوى قليلا وظهر للناس، فأوحت حبابة الى الأحوص أن يقول أبياتا يهون فيها على يزيد ما قال مسلمة، فقال هذه الأبيات وغنتها حبابة :

بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى ... ومن شاء آسى فى البكاء وأسعدا
ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا ... فقد منع المحزون أن يتجلدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدرما الهوى ... فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
هل العيش الا ما تلذ وتشتهى ... وان لام فيه ذو الشنان وفندا[٢]

فلما سمعها ضرب بخيزرانه الأرض وقال : صدقت صدقت، على مسلمة لعنة الله، ثم عاد سيرته الأولى . وزاد فى النجوم الزاهرة أنها شرقت وماتت، فحزن عليها ولم يدفنها ثلاثة أيام ينظر إليها، ثم دفنها خمسة أيام فلم يطق فراقها، فنبشها وأخرجها وأخذ يبكى، فاشتد حزنه حتى مات بعد سبعة عشر يوما سنة ١٠٥هـ.

(جـ) وذكر ابن عبد ربه أيضاً « ج٣ ص ١٤، ١٥ » أن الحجاج بن يوسف الثقفى قدم على الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى . فدخل عليه، وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية وكنانة، فبعثت إليه زوجته أم البنين[٣] بنت عبد العزيز بن مروان : من هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك وأنت فى غلالة؟

---

(١) ضبطها بفتح الحاء المبرد فى الكامل والأصفهانى فى الأغانى، وكذلك صاحب النجوم الزاهرة « ج١ ص ٢٥٥ » — والباء مخففة وليست مشددة « انظر مجلة العربى عدد سبتمبر ١٩٧٥ » .

(٢) أسعد، الاسعاد هو مشاركة الغير فى حزنه، والشنان هو البغض، ومعنى فند كذب .

(٣) أم البنين كلمة أطلقت على كثير من النساء للمدح، منهن : آمنة بنت عتيبة الشاعرة الجاهلية، ومنهن أم البنين الكلابية من زوجات الأمام على « امامة على بين العقل والقرآن لمحمد جواد مغنية ص ٥٦ » . ومنهن فاطمة بنت محمد بن عبد الله، التى بنت جامع عدوة القرويين فى=

فبعث إليها: هذا الحجاج بن يوسف، فأعادت الرسول إليه تقول: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلى من أن يخلو بك الحجاج. فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه فقال: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرك ومكايدة عدوك. فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج، فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتى أن تأمره غدا يأتينى مسلما. ففعل ذلك. فأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائما. ثم قالت له: أيه يا حجاج. أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة وقتل ابن ذات النطاقين، أول مولود ولد فى الإسلام، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره منهن فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك!! وإن كن ينفرجن عن مثله فغير قابل لقولك. أما والله لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن، بعثك فى أعطية أهل الشام حتى كنت فى أضيق من الفرق. قد أظلتك رماحهم، وأثخنك كفاحهم، وحتى كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه. ولله در عمران بن حطّان القائل إذ نظر إليك وسنان «غزالة» بين كتفيك.

أسد علىّ وفى الحروب نعامة　　رَبْداء تَجْفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى!　　بل كان قلبك فى مخالب طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر　　تركت كتائبه كأمس الدابر

ثم قالت: اخرج. فخرج مذموما مدحورا.

(د) جاء فى «أُسْد الغابة» فى ترجمة «الأعشى المازنى» أنه خرج يمير أهله

= «فاس» بالمغرب، شرعت فى حفر أساسه يوم السبت غرة رمضان ٢٤٥هـ، وكان أول خطيب به الشيخ أبو عبدالله محمد بن على الفاسى، «أعلام النساء لعمر كحالة» وأم البنين بنت عامر بن عمرو، زوج مالك بن جعفر، أنجبت له: ملاعب الأسنة، وطفيل الخيل، وربيع المقترين، ونزال الضيف، ومعود الحكماء.

من « هجَر » فهربت امرأته « معاذة » وعاذت برجل يقال له « مطرف بن نهصل » . فلما قدم الأعشى لم يجدها فى بيته، ولما علم بخبرها طلبها من مطرف فأبى، وكان أعز منه، فسار إلى النبى ﷺ شاكيا، وقال :

يا مالك الناس وديان العرب   إنى لقيت ذِربة من الذرب
غدوت أبغيها الطعام فى رجب   فخلفتنى فى نزاع وهرب
أخلفت العهد ولطت بالذنب   وهُنَّ شر غالب لمن غلب[1]

فجعل النبى ﷺ يقول « وهى شر غالب لمن غلب » . فكتب إلى مطرف برد أمرأته، فردها بعد أن أخذ منه ضمانا بعدم إيذائها، كما طلبت هى ذلك، فأعطاه العهد، وأنشأ يقول :

لعمرك ما حبى معاذة بالذى   يغيره الواشى ولا قدم العهد
ولا سوء ما جاءت به إذ أزلها   غواة رجال إذ ينادونها بعدى[2]

ه — إن التسليم بهذه الحقيقة وهى خطورة الفتنة بين الجنسين جعلت الناس يستغلونها على نطاق واسع، وافتتحت مدارس بتخصصات فرعية من أجل هذا الاستغلال، فهناك مدرسة مثلا للابتسامات، تدرس فيها أنواعها بمنهاج صعب، وذلك ليرغب الرجال فى النساء إما للزواج، وإما للتعامل فى التجارات وغيرها. ويقول محمد ثابت فى كتابه « بنات حواء » : هناك مدرسة فى باريس للابتسامات، كما توجد مدارس للرشاقة فى الملبس والمشى والجلوس وتناول الأشياء . .[3] .

ولو أن هذه الظاهرة أستغلت فى الخير لما كان بها بأس، ولا يقوى على ذلك

---

(١) لطت بالذنب : منعته من الاتصال بها، كما تغطى الناقة فرجها بذنبها امتناعا من الفحل .

(٢) لم أعثر على سند صحيح لهذه الواقعة، وهل اتصل مطرف بمعاذة وهى فى حوزته، أم أنها كانت مستجيرة فقط؟ ان النبى لم يسأل عن هذا، فهل آثر الستر ولم يرد إثارة الفضيحة؟ هذه تساؤلات تحتاج إلى إجابة على فرض أنها واقعة صحيحة تدخل فيها النبى ﷺ . وذكرها الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » — ذئب .

(٣) فى أهرام ١٥ / ٨ / ١٩٧٤ « أخبار الصباح » : =

إلا العقلاء، ولقد مر فى بحث اختيار الزوجين استغلال بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى لحب زوجها لها، وهو الحارث بن عوف المرى، فى الإصلاح بين الفئتين المتقاتلتين فى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان والحب سلاح ذو حدين، يثمر خيرا ويثمر شرا.

جاء فى زهر الآداب للحصرى « ج٢ ص ٩٥١ طبعة الحلبى » وفى محاضرات الأدباء للأصبهانى « ج٢ ص ٢٣ » أن « بهرام جور » كان له ولد ساقط الهمة ردىء النفس سيىء الخلق، فاغتم لذلك وكان يحاول أن يؤهله للملك من بعده فلم يفلح على الرغم من إحضار مؤدبين له.

وفى يوم قال معلمه لوالده: كنا نرجوه على كل حال فحدث ما أيأسنا منه. لقد عشق بنت المرزبان، فقال: الآن رجوت فلاحه. ثم دعا أبا الجارية وأسر إليه أن ابنه عشق بنته، ويريد أن يزوجه منها، وأمره أن يجعلها تطمع ولده فى ذلك من غير أن يراها، فإذا استحكم طمعه فيها أعلمته أنها لا ترغب فيه لأنه غير متعلم. ثم قال للمعلم: خوفه بى وشجعه على مراسلة الجارية. فلما نفذت الخطة أكب الولد على العلم ليصل الى غرضه منها، وتعلم الشجاعة. ثم قال بهرام للمعلم: مر ولدى يطلب الزواج منها، ففعل وتم الزواج. ثم قال لولده بعد ذلك: لا تزدرين بها، فإنى كنت أمرتها بذلك، وإن من صار سببا لعقلك فهو أعظم الناس بركة عليك، وذكر الأبيات الآتية:

من عاش فى الدنيا بغير حبيب ... فحياته فيها حياة غريب
ما تنظر العينان أحسن منظرا ... من طالب إلفا ومن مطلوب
ما كان فى حور الجنان لآدم ... لو لم تكن حواء من مرغوب
قد كان فى الفردوس يشكو وحدة ... فيها ولم يأنس لغير حبيب

= افتتح فى مقاطعة « هارتل بول » فى انجلترا ناد مهمته إعطاء الرجال والنساء دروسا فى فن التقبيل. النادى محافظ جدا، حيث إنه يعطى دروسه إلى الجنسين كل على حدة. بلغ عدد اللاتى انضممن إليه من النساء فور افتتاحه ٤٠ سيدة وفتاة!!

والإسلام لا يرضى أبدا أن يستغل الافتتان بالمرأة فى اللهو والعبث والفساد، وكل ذلك جاءت به النصوص التى تصادف كثيرا منها فى هذا الكتاب.

وكان أولو الأمر السابقون يقفون موقفا حازما من العابثين اللاهين بالمرأة بأى نوع من أنواع العبث حتى ولو لم يكن انتهاك العرض، ويحضرنى الآن، الى جانب الصور الكثيرة الموجودة فى بحث الأسرة، ما جاء فى «المطالب العالية ج٢ ص ١٢١» أن جعدة «من سليم» كان يأخذ المرأة فيعقلها - أى يقيدها - ثم يأمرها أن تمشى فتعثر فتقع فتنكشف فيتضاحك النساء عليها. ولما أقر بذلك عند عمر ضربه مائة.

٦ - هذا، وقد جاء فى الحديث أن مرور المرأة أمام المصلى يقطع صلاته، وذلك لانشغال قلبه بها، كما يشغل بأشياء أخرى ذكرت فى الحديث نفسه، وسيأتى توضيح ذلك إن شاء الله.

ولما كان الافتتان بالجنسين حقيقة مسلمة، نابعة من طبيعة النفس البشرية، ومعترفا بها من كل العقول وجميع الأديان، كان لابد من وضع تنظيمات تمنع شر هذه الفتنة، وفى الوقت نفسه توجه هذه الطاقة وجهة الخير، وهذه التنظيمات تختلف من بيئة الى بيئة، ومن عصر الى عصر، وكان من ضمن هذه التنظيمات ما يعرف بالحجاب، الذى وضع من أجله هذا الجزء من موسوعة الأسرة.

وفى أهرام ١٧ / ٣ / ١٩٩٨ بعنوان مواقف: حوادث من فتنة الرجال بالنساء، حتى الملوك والرهبان.

* * *

البــــاب الأول

سيكون الحديث في هذا الباب عن الحجاب في الشرائع السابقة على الإسلام، وفي التنظيمات التي اتخذت بشأنه في المدنيات الحديثة.

والحق أن فكرة الفصل بين الجنسين، أو تنظيم اتصال بعضهما بالبعض الآخر ومراقبته، فكرة قديمة معروفة منذ أحس كل طرف منهما بما أودع فيه من قوة جاذبة.

وقد وضعت كل جماعة من الجماعات البشرية لنفسها تنظيما رأته محققا لعدم الفوضى في التجاذب الجنسي، وسواء أكانت فكرة الحجاب قد نبتت في أول بيئة دينية عرفها المؤمنون بأنها أسرة آدم، التي هي أول حلقة في سلسلة المجموعة البشرية، أم عرفت بالتجارب العملية والأحداث الجارية، وذلك على مذهب القائلين بالنشوء والارتقاء، فإنها على كل حال فكرة عريقة في القدم، معروفة تقريبا عند كل جماعة، وإن اختلفت الصور والتطبيقات وفي الفصول التالية بعض من هذه الصور.

* * *

الفصل الأول
الحجاب فى التشريعات الوضعية القديمة

● **أولا - القبائل البدائية :**

من كلام الباحثين والمؤرخين يبدو أن الحجاب فى البيئات البدائية لم يكن معتنى به، فان الحاجة الملحة إلى طلب العيش، عن طريق الصيد أو الرعى، كانت تسوق المرأة الى أن تتعاون مع الرجل وتشاركه كفاحه ونشاطه، وذلك ملاحظ فى قبائل « كالموك »[1] وقبائل القرغيز، فاختلاط الجنسين موجود عندهم منذ الصغر، وإن كانوا عند الكبر ينصرف الفتى لمساعدة والده، والفتاة لمساعدة أمها.

ومع هذا كانت هناك فرص للاختلاط وهم كبار، كحفلات الزواج والرقص، ومثل قضاء المصالح من الأسواق. ولم يضيق على الاختلاط إلا فى حالات معينة، كما بين الرجل وحماته، والمرأة وحماها، وذلك معروف أيضاً عند قبائل الباجندا فى أوغندة، حيث يحرم على أم الزوجة دخول بيت بنتها والحديث مع زوجها، وإذا تقابلا فى الطريق تنحت وغطت رأسها بثوبها، فان لم يكن الثوب كافيا جلست القرفصاء، وأخفت عينيها وجزءا من وجهها براحتيها.

وكذلك يوجد مثل هذا التقليد فى « الهوتنتوت » بجنوبى أفريقا، حيث يحرم اختلاط الأخ بأخته، وإذا حدث حديث بينهما يتم بوساطة رجل آخر نيابة عنه، فان الخجل يحول دون مواجهة أحدهما للآخر. ومثله ختان البنات يستحيا منه. وعند الولادة يستحيا من دخول كوخ الوالدة. وقد يحرم ذلك على زوجها نفسه لمدة شهر أو أكثر، وفى حالة الحيض تتجنب المرأة من زوجها وغيره.

---

(١) قبيلة تركية تقطن جبال « التاى » شرقى آسيا الوسطى، تقول دائرة المعارف الإسلامية فى مادة « التاى » : ان هذه القبيلة ظلت بعيدة عن الإسلام وحضارته، وان تأثر أهلها تأثرا غير مباشر بحضارة الإسلام، ففى كلامهم كلمة « خداى » بمعنى « الله » . ولاتزال هذه القبيلة تعتنق إلى اليوم المذهب الشامانى، وتحول بعضهم إلى المسيحية على يد دعاة من الروس.

● **ثانياً – المدنيات القديمة:**

الغالب في المجتمعات المدنية هو الحجاب، وذلك لضمان عفة النساء، وشرعية النسل، ووسائل الحجاب متعددة، ففي بعض الشعوب ابتكر الرجل حزاما يسمونه «حزام العفة» له قفل صمم على أساس السماح للمرأة بقضاء حاجتها دون الاتصال الجنسي، وقد شاع في أوروبا في العصر الوسيط كما كان معروفا في اليابان.

وإليك الحديث عنه في أهم البيئات المدنية القديمة.

(١) بابل وأشور:

كان الحجاب موجودا في بابل والمملكة الكلدانية قبل ألفي سنة من الميلاد، كما يدل عليه قانون حمورابي[١] الذي كان قبل موسى بخمسة قرون أو ثمانية. وظل يعمل به بعد موته بنحو عشرة قرون في عهد الملك «أسوربانيبال» ملك نينوى. ففي لوحات طينية اكتشفت في آشور القديمة ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد وجد نظام للحجاب مطبق على الحرائر دون الاماء والعواهر. بل كانت توقع عقوبات شديدة على الاماء والعواهر إذا تحجبن، وذلك بثلم أذن الأمة وجلد العاهر خمسين، وصب القطران على رأسها، ويكافأ الرجل الذي يقبض على المخالفات، ويعاقب إذا قصر في التبليغ عنهن، وذلك بجلده أو ثقب أذنيه وربطهما بخيط يعقد عند ظهره،

ومع ذلك كانت الأمة تتحجب إذا خرجت مع سيدتها، وكذلك العاهرة إذا تزوجت.

وتبين فقرة أخرى على اللوحة الأولى أن الرجل إذا أراد أن يعطى أمته صفة الزوجة يضع عليها حجابا أمام شهود ويقول أنها زوجتي[٢].

---

(١) مختلف في عصره. ففي موسوعة «المعرفة» ج١١ ص ١٦٢ أنه أول ملك لمملكة بابل حوالي ١٨٠٠ق. م، وحكم ٤٣ سنة. وفي بحث للدكتور محمود سلام زناتي بمجلة العربي «نوفمبر ١٩٧٣» أنه حكم من ١٧٢٨ – ١٦٨٦ق.م. وفي المجلة نفسها «عدد أغسطس ١٩٧٠» أنه حكم من ١٧٩٢ – ١٧٥٠ق.م. وانظر مجلة «العلم للجميع» ج٣ ص ١٣٤ – وهناك نبذة عنه في بحث الطلاق.

(٢) مجلة العربي مارس ١٩٦٩.

(٢) **مصر** :

كان المصريون القدماء يحرصون على عفاف المرأة، لدرجة أنهم كانوا يحكمون على الزانى بقطع أعضائه التناسلية، وعلى المرأة بقطع أنفها إن كان الزنى برضاها . وفى المحاكمة الأخروية تكون البراءة من الزنى، ولكن مع هذا لم يوجبوا حجب المرأة عند الظهور فى المجتمعات كالحقول والأسواق، بدليل صورهم المنقوشة على الآثار، وقد ظهرت فيها المرأة سافرة مع الرجال .

ويصف ذلك « هيرودوت » عند زيارته لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد فى كتابه « تاريخ العالم » فيقول : إن المصريين نظروا إلى مناخ بلادهم الخاص، وإلى أن نهرهم له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة سائر الأنهار، فأتخذوا لأنفسهم عادات وسننا مخالفة من كل الوجوه تقريباً لما يتخذه سائر الشعوب، فالنساء عند المصريين يذهبن إلى الأسواق، ويمارسن التجارة . أما الرجال فيبقون فى البيوت وينسجون « محمود سلام زناتى » .

ولم يشدد على الحجاب إلا فى أيام الفتن الداخلية، أو الخضوع لغزو خارجى، حيث كانت المرأة لا تأمن على نفسها عند الخروج . بدليل نقوش فى عهد رمسيس الثالث يفخر فيها بالانتصار على الأعداء وإقرار الأمن، جاء فيها : لقد أمكن لكل امرأة أن تسير خارج منزلها رافعة قناعها بلا خوف، لأنه لم يعد أحد يتعرض لها . . « المصدر السابق » .

(٣) **الهند** :

يقول الدكتور زناتى أيضاً « مجلة العربى، مارس ١٩٦٩ » : ذهب جماعة إلى أن الحجاب لم يكن معروفا عند الهنود قبل الفتح الإسلامى . ولكن من دراسة الآثار الأدبية فى القرن الثالث والرابع قبل الميلاد، عرفنا تقييد حرية اتصال المرأة بالرجل عند تحدثهم عن القرابين التى لا تقبل إلا من الولد الحقيقى، وفى وصيتهم بحراسة المرأة من الشر الجنسى، وذلك بشغلها بالواجبات المنزلية والمالية والدينية .

وفى كتاب لفقيه هندى اسمه «منو» أو «مانو»: لا ينبغى للمرء أن يجلس فى مكان منعزل مع أمه أو أخته أو بنته، فالشهوات غلابة، وهى تتسلط على الرجل العالم.

وفى أحد الآثار الأدبية: أن الملك «راما» خرج يوما من قصره مع زوجته «سيا» فوجد رعاياه ينتظرون بفارغ الصبر عند باب القصر، لإلقاء نظرة عليهما. وعندما وجد الملك هذا الجمهور المتلهف حوله أمر زوجته بقوله: يا سيدة «ميثيلا» ارفعى نقابك. ثم التفت إلى الناس وقال لهم: تطلعوا دون غضاضة إلى زوجتى، ولتسل الدموع على وجوهكم مدرارا، فلا إثم فى النظر إلى النساء عند التضحية وفى الزفاف وعند الكارثة وفى الغابة.

(٤) فارس:

ويقول الدكتور سلام أيضاً: كان الحجاب مفروضاً على نساء فارس. ففى الرسوم والنقوش الفارسية القديمة لا تجد أثرا للمرأة، كما يروى عن أحد ملوكهم أنه أقام مأدبة للرجال فى مقصورته الخاصة، بينما كانت زوجته تستقبل النساء فى مقصورة أخرى، وعندما دعا الملك الملكة إلى القدوم عليه رفضت الظهور أمام الرجال.

(٥) اليونان:

لما كانت حضارة اليونان أساس الحضارات الأوروبية بالذات، وكانت لها عدة جوانب مشرقة اهتم الباحثون بدراستها وكثرت الكتابات عنها، وتوافرت المصادر المتصلة بها.

نقل محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه عن دائرة معارف «لاروس»: أنه كان من عادة نساء اليونان القدماء أن يحجبن وجوههن بطرف مآزرهن، أو بحجاب خاص كان يصنع فى جزائر «كرسى وأمرجوس» وغيرها، وكان شفافا جميل الصنعة. وقد تكلم عن الحجاب أقدم مؤلفى اليونان، حتى يروى أن امرأة الملك «عوليس» ملك جزيرة «ايتاك» كانت تظهر محتجبة. وكان نساء مدينة

« ثيب » يحتجبن بحجاب خاص، وهو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه، وله ثقبان أمام العينين لتنظر منهما المرأة. أهـ.

وفى أثينا حجبت المرأة الحرة ولازمت البيت الذى كان يحكم إغلاقه، وتمنع كل صلة توصل إليه عند غياب الرجل، وأعفيت منه الإماء والبغايا. ومن عاداتهم عدم رؤية الزوجين أحدهما للآخر إلا ليلة الزفاف، ولم يكن زواج المرأة مخولا لاختلاطها بالرجال أو خروجها من المنزل، فهى لا تستقبل فى بيتها إلا النساء أو الأقارب، وكان مجرد حضور الزوج مصحوبا بأحد أصدقائه سببا فى اختفائها واحتمائها بالغرف الخاصة بالنساء، ولا يسمح بخروجها من المنزل إلا لسبب وجيه كزيارة قريبة أو عيادة مريض. وعند الخروج يوضع عليها حجاب ثقيل يخفى معالم وجهها، كما وصف « ديكايرش » نساء طيبة «إحدى مدن اليونان» بقوله: كن يلبس ثوبهن حول وجههن بطريقة يبدو معها هذا الأخير وكأنه قد غطى بقناع، فلم يكن يرى سوى العينين، وكان يرافقها حتما أحد أقاربها الذكور أو أحد الأرقاء. وكان بعض الأزواج يضعون مع ذلك أختامهم على أبواب دورهم عند غيابهم، وذلك لزيادة الإطمئنان على النساء.

ولم يرفض بعض كتابهم هذه القسوة، فيقول « ميناتور » : على الزوج ألا يمنع زوجته من رؤية متع الخارج، فكلنا نتمنى ذلك لتشبع حب استطلاعها، فالمحجوب يهيج الرغبة فيها، فالزوج الذى يبقى زوجته وراء المزاليج ووراء قفل مغلق ثلاثا ليس بحكيم، بل هو مجنون.

ورأى أفلاطون حرية تعليم المرأة واختلاط الجنسين فى المدارس، وذلك ليقل الإحساس بالتعارض منذ الصغر، ويمنع المشاكل بعد الزواج « العربى، مارس ١٩٦٩ ».

أما نساء اسبرطة فكن على العكس من نساء أثينا. فإن أزواجهن لم يحجبوهن، وذلك لضعف ميلهم الجنسى، بسبب انصرافهم إلى الرياضة والاستعداد الدائم للحرب. يقول محمد فريد وجدى نقلا عن « لاروس » : وفى

اسبرطة كان الفتيات يظهرن أمام الناس سافرات، ولكنهن متى تزوجن احتجبن عن الأعين، وقد كان النساء حصلن على شيء من الرخصة، فقد دلت النقوش على أنهن كن يغطين رءوسهن ويكشفن وجوههن فقط، ولكنهن متى خرجن إلى الأسواق وجب عليهن الاحتجاب، سواء كن عذارى أم متزوجات. وكان الحجاب موجودا عند نساء الشعوب النازلة فى آسيا الصغرى، وعند الميديين والفرس. .أهـ.

يقول «ركورنيليوس نيبوس»، وهو مؤرخ رومانى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد عندما زار بلاد اليونان: كثير من الأشياء التى نظمها الرومان بلباقة يرى فيها اليونان منافاة لحسن الآداب، فأى رومانى يستشعر العار من اصطحابه زوجته إلى مأدبة، والرومانيات يشغلن عادة الحجرات الأولى من المنزل والأكثر تعرضا للرؤية، حيث يستقبلن معارفهن كثيرا. أما عند اليونان فالأمر على النقيض، فنساؤهم لا يشتركن فى مأدبة إلا إذا كانت لدى أقاربهن. وهن يشغلن دائما الجزء الأكثر انزواء من المنزل. والذى يحرم دخوله على كل رجل غير قريب «د. زناتى».

ويقول المودودى: كان الحجاب شائعا فى البيوت اليونانية العالية، وما كان النساء يشاركن فى المجالس المختلطة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها من أمارات الشرف. وبهذا كانوا يمقتون العهر والدعارة، مع ممارسة المرأة لها فى أحياء البغايا، وإذا كانت هناك مفاسد فهى من الرجال مع أنهم يطلبون عفة المرأة.

ويقول: ولما تطور المجتمع اليونانى تغلبت المرأة، وغلت العاهرات بشكل لا نظير له، وكانت بيوتهن يؤمها عظماء الدولة، وكلمتهن مسموعة فى السياسة، وبلغ حبهم للجمال أن تفوقوا فى صنع التماثيل العارية وغيرها. ومن هنا جعل فلاسفتهم الزنى لا يعاب عليه، وعقد الزواج لا أهمية له.

لقد عبدوا أفرُوْديت» التى تقول أساطيرهم: إنها خانت ثلاثة آلهة، مع كونها زوجة لإله، وكان من إخوانها رجل من عامة البشر، علاوة على تلك الآلهة. ومن بطنها تولد «كيوبيد» إله الحب، نتيجة اتصالها بهذا الخدن البشرى.

ولما انتشرت عبادة أفروديت كانت المواخير بيوتا للعبادة، وأصبحت العاهرات خادمات للمعابد، وعظم شأن الزنى حتى ألبسوه كساء دينيا. وبلغ العهر بالرجال أن انتشر فيهم اللواط، حتى كان من لوازم الصداقة. وقد خلد اثنان من كبرائهم بالتماثيل، لأن الحب الذى جمع بينهما كان عن هذا الطريق المنكر، وهما هرموديس، أرستوجيتان. أهـ.

ويقول محمد فريد وجدى فى تاريخ الحجاب: كانت حضارة اليونان لا ترى بأسا أن يقدم الرجل زوجته للضيف يستمتع بها، ولا حرج فى اشتراك أزواج عدة فى زوجة واحدة، وكان هذا ثمرة فلسفتهم، فأفلاطون يوجب فى جمهوريته أن يكون النساء دولة بين الرجال، ككل شيء آخر يتداولونه، وسقراط يستصوب تقارض الأصدقاء لزوجاتهم[1].

(٦) الرومان:

كان الرومان فى عهودهم الأولى يحجبون النساء ويلزموهن البيوت كما ذكرت دائرة معارف وجدى نقلا عن « لاروس ». وبلغ من تشددهم فى حجبها أن القابلة « الداية المولدة » كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ووجهها ملثم بعناية بالغة، وعليها رداء طويل يلامس الكعبين، وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها.

فلما أثرى الرومان فى عهد الامبراطورية أخرجوا النساء لحضور مجالس الأنس، فأسرفن فى الزينة والخلاعة، وتدخلن فى السياسة، وساءت أحوال الدولة بسببهن، فقامت صيحات ضدهن، أشهرها حملة « كاتو »[2] ولكنه لم يفلح،

---

(١) وقد أعار هو نفسه زوجته جزانتيب إلى صديقه أليسياب « الأسرة والمجتمع » لعلى وافى ص ٦٣، ٦٤.

(٢) هو « ماركوس بوركيوس كاتو » ولد فى احدى مدن ايطاليا « توسكولوم » وعاش خمسا وثمانين سنة، نشأ أنانيا محبا لنفسه، ماهرا فى الجندية والسياسة، اتجه إلى اصلاح الأخلاق، وبخاصة تبرج النساء، ووصل إلى درجة رقيب « سنسور » طرد « مانليوس » من مجلس السناتور لأنه قبل زوجته نهارا بمرأى من ابنتهما، ولما طعن فى السن صار داعرا منحرف الاخلاق، ومات وهو موضع احترام الناس. وكان ذلك فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد « كتاب معالم تاريخ الانسانية »: تأليف هـ، ج. ولز ج ٢ ص ٤٤٦، ٤٤٧.

فكانت معارضتهن ومعارضة أنصارهن قوية، تريد حمايتها فى التمتع بكامل حريتها فى التزين والتبرج.

ففى سنة ٢١٥ ق. م خطب «كاتو» فى «التربيون»، وقال: لو أن الرجال احتفظوا بحقوقهم ومهابتهم فى منازلهم الخاصة ما خرج النساء بين الجماهير يضطربن فى هذا الأمر، ولو أن للنساء شعورا سليما من الخفر لعلمن أنه لم يكن من المناسب أن يبدين هذا الاهتمام بالموافقة على القوانين أو الاهتمام بإلغائها.

وقد ذكرت دائرة معارف القرن التاسع عشر أنه قال: أتتوهمون يا معشر الرجال أنه يسهل عليكم احتمال النساء إذا مكنتموهن من فصم الروابط التى تقيد استقلالهن وتخضعهن لأزواجهن؟ ألم يصعب علينا - حتى مع وجود هذه القيود - إلجاؤهن الى أداء واجبهن؟ أما ترون أنهن سيصرن مساويات لنا، وسيوقعننا تحت نيرهن؟ لقد قالت إحداهن: إننا نريد أن نكون متلألئات فى الذهب والأقمشة القرمزية، وأن نتمشى فى طرق المدينة أيام الأعياد والأيام الأخرى... وأن نتمتع بحرية انتخابكم، وألا تضعوا حدا لمصاريفنا وبذخنا، البَذَخ هو الترف.

وقد عارضه «لوسيس فْلارْبَس» وشجع حريتهن وتمتعهن كما يشاء. وقد صدر فى هذه الفترة قانون يحد من حريتهن، يسمى قانون «أوبيا» ولم يفلح «كاتو» فى معارضته، وتحقق ما كان يتوقعه، فانتهى أمر الإباحية بانحطاط الإمبراطورية، وعرف الرومان أخيرا أن سبب ذلك هو المرأة وخلاعتها وتدخلها فيما لا يعنيها، وعاقبوها على ذلك أسوأ العقاب، فأسرفوا فى هضم حقوق النساء والحط من تغاليهن، حتى حرموا عليهن أكل اللحم والضحك، وغالوا فى هذا فوضعوا فى أفواههن أقفالا تسمى «موزلبير».

وكان من أساليب تعذيبهن أن يصب القطران على أجسادهن، أو تربط أرجلهن فى خيول متخالفة وتترك لتركض حتى تمزق النساء، أو تربط جماعة منهن فى سارية تحتها نار هادئة عدة أيام ليمتن كذلك بتساقط لحومهن.

ويقـول المودودى: عندمـا خـرج الرومـان من دور الهـمـجيـة كـان الرجل رب الأسرة وصاحب السلطان، حتى كان له أن يقتل زوجته أحيانا. ولما تقدموا فى الرقى استوت كفة المعاملة بين الرجل والمرأة، وهؤلاء لم يكن الحجاب معمولا به عندهم كاليونان فى أيام مجد الجمهورية، لكنهم قيدوا المرأة والشباب عامة بقيود شديدة من نظام الأسرة، فالعفاف كان مكرما، ولاسيما فى النساء. وقد استنكروا من الرجل أن يقبل زوجته أمام ابنته، وعدوا الاتصال الجنسى بغير الزواج منكرا، والعاهرات، وإن كن موجودات، إلا أن الرومان كانوا يحتقروهن. ثم تغيرت نظرة الرومان للمرأة بعد تقدمهم ورقيهم، فلم يحترم عقد الزواج ولا حقوق الزوجية، وتحررت المرأة من سلطة الأب والزوج، ثم أثرت المرأة وأغتنت، وسهلوا أمر الطلاق، فكان يتم لأتفه الأسباب. فهذا « سنيكا » الفيلسوف الرومانى « ٤ق.م - ٦٥م » نعى على كثرة الطلاق بين قومه، وقال: إن النساء جعلن يعددن أعمارهن بأعدادأزواجهن. وقد تتزوج المرأة رجلا بعد آخر دون حياء.

ويقول ذكر « مارشل » « ٤٣ - ١٠٤م » امرأة تزوجت عشرة رجال. وكتب « جرونيل » « ٦٠ - ١٤٠م » أن امرأة تزوجت ثمانية رجال فى خمس سنوات. وذكر القديس « جروم » « ٣٤٠ - ٤٢٠ » امرأة تزوجت فى المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هى الزوجة الحادية والعشرين لزوجها.

وتطور أمرهم فجعلوا الزنى شيئاً عادياً. ورأينا « كاتو » الذى أسندت إليه الحسبة الخلقية « أى الرقابة على الأخلاق » سنة ١٨٤ ق. م يجيز الفحشاء للشباب. كما يطلق العنان للشبان المصلح « شيشرون ». ويجىء « ايبيكتتيوس » الفيلسوف الرواقى فيقول لتلاميذه: تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ما استطعتم، ولكنه لا ينبغى أن تلوموا أحدا وتؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته. فلما تفاقم أمر الفساد والفجور. وراجت مهنة المومسات وكثر الأدب المكشوف اضطر القوم إلى منع احتراف مهنة البغاء، وذلك فى عهد القيصر « تائى بيريس » « ١٤ - ٣٧م ».

(٧) الجزيرة العربية[١]:

لقد كانت المرأة العربية فى الأعم الأغلب فى أيامها الأولى لا تعرف الحجاب بكل مقوماته الإسلامية، وإن كان للعفاف عند العرب قيمة كبيرة، اللهم إلا فى حالات شاذة لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، حيث كان الإماء يتخذن من الدعارة وسيلة للكسب، وذلك لصالح سادتهن، كما كانت هناك بعض النظم لاتصال الرجل بالمرأة كالاستبضاع وافتضاض كبير القوم لكل عروس، كما كان بعضهم يقاتل البعض الآخر ليفوز برضا إحدى البغايا، كالحكاية التى ذكرها الجاحظ فى كتابه «المحاسن والأضداد ج٢ ص ٦٤» وخلاصتها: أن الخنيفس بن خُشْرُم كان أغير أهل زمانه وأشجعهم، وكان يحب امرأة نافسه فى حبها عبيدة بن المُقْشَعِرّ الضَّبِّى، وكان عزيزا أيضاً فى قومه. فقتله الخنيفس، وأخذ عاصم أخو عبيدة منه بثأره، فقتله فى آخر يوم من جمادى الثانية قبل حلول رجب[٢].

وتقدم فى الجزء الأول صورة من نكاح الجاهلية.

ومما يدل على عدم حجاب المرأة مغامرات امرىء القيس وأشعار الغزل لكبار الشعراء وقول الله سبحانه ﴿ **وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والتبرج قيل: هو المشى مع تبختر وتكسر، وقيل: أن تلقى المرأة خمارها على رأسها ولا تشده فتنكشف قلائدها وقرطها وعنقها وقيل: أن تبدى من محاسنها ما يجب ستره.

---

(١) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن الشعر الجاهلى يدل على أن سنة الحجاب بمعنى تغطية الرأس والوجه كانت معروفة من قبل مجيء النبى ﷺ، ذلك ان الحجاب كان ميزة النساء من درجة خاصة، وكان يشار إليه بأسماء «نصيف»، «ستر»، «سجف» وغير ذلك. ومع أن آيات الحجاب نزلت فى السنة الخامسة للهجرة إلا أنه يقال أن عائشة لبست الحجاب لما تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام فى شوال من السنة الأولى للهجرة، وتغطية الرأس والوجه استخدم لها اللثام والقناع والبرقع.

والحجاب لم يكن مرعيا فى المدينة إلا فى القليل النادر، ولما شرع واتسعت رقعة الدولة الإسلامية التزمه كل نساء الحضر، وتهاون فيه بعض نساء البدو.

(٢) وفى هذه الحادثة قيل: العجب كل العجب بين جمادى ورجب.

وهو مأخوذ من البرج «بفتح الباء» وهو السعة، كما توصف العين الحسنة بالسعة، وكما يقال: في أسنانه برج إذا كانت متفرقة. وقيل: هو من البرج أى القصر العالى، ومعنى تبرجت المرأة ظهرت من برجها. وهو بهذا المعنى يجعل الجملة كالتأكيد لما قبلها «وقرن في بيوتكن».

والجاهلية الأولى مختلف في تحديد وقتها، وملخص ما قيل فيها، مأخوذا من تفسير القرطبى «ج١٤ ص ١٧٩» وغيره ما يأتى:

١ – ما بين آدم ونوح، وهو ثمانمائة سنة. قاله الحكم بين عيينة.

٢ – ما بين نوح وإدريس، كما قاله ابن عباس.

٣ – ما بين نوح وإبراهيم، كما قاله الكلبى.

٤ – ما بين موسى وعيسى، كما قاله جماعة.

٥ – ما بين داود وسليمان. كما قاله أبو العالية.

٦ – ما بين عيسى ومحمد، كما قاله الشعبى.

وكلها أقوال لا يسندها دليل صحيح. فالقدر المتفق عليه أنها قبل بعثة النبى ﷺ بزمن طويل يشعر بأن فيه جاهلية ثانية أتت بعدها، وهى أقرب منها إلى البعثة.

وكانت المرأة في الجاهلية الأولى تلبس الدرع من اللؤلؤ، أو القميص من الدر، غير مخيط الجانبين، وتلبس الرقاق من الثياب ولا توارى بدنها، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال.

وكانت، كما قال أبو العالية، تجلس مع زوجها وخلِّها، فينفرد خلها بما فوق الإزار، وينفرد زوجها بما دون الازار إلى أسفل. وربما سأل أحدها البدل من صاحبه[1].

---

(١) الانسان يعجب كيف تحدث هذه الحالة التى يشترك فيها اثنان، كل منهما بنصف مع أنها زوجة احدهما، هل ماتت الغيرة إلى هذا الحد، يرى المنكر على زوجته فيقره ولا يرى به بأسا؟ يغلب على ظنى أن المبالغة في ذم الجاهلية الأولى أغرت باختراع هذه الصور الشاذة.

وبمثل هذا التصوير للمرأة في الجاهلية الأولى يغلب على الظن أنها كانت في أيام عاد وثمود، حيث جاء في القرآن ما يدل على ما كانوا ينعمون به من قوة وبطش ومصانع وأنعام وبنين وجنات وعيون، وبيوت منحوتة في الصخر... والجاهلية الثانية هي التي جاء بعدها مباشرة سيدنا محمد ﷺ، والعرب فيها، وبخاصة في أرض الحجاز، ماكانوا بالثراء الواسع الذي تلبس فيه نساؤهم ما كانت تلبسه المرأة في الجاهلية الأولى على النحو الذي صورته أقوال المفسرين.

ذكر مسلم في كتاب التفسير من صحيحه: أن المرأة كانت تطوف بالبيت وهي عريانة – في لسان العرب: إلا أنها كانت تلبس رهطا من سيور – فتقول: من يعيرني تطوافا – فتح التاء وكسرها – تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فـــلا أُحلُّه

فنزلت هذه الآية: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف: ٣١] وكان إعطاء المرأة ما تطوف به يعد من البر[(١)].

ذكر السهيلي في كتابه «الروض الأنف» ج١ ص ١٧٤، أن قائلة البيت المذكور عند الطواف هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة، ثم من بني سلمة ابن قشير. وذكر محمد بن حبيب أن رسول الله ﷺ كان قد خطبها، فذكرت له عنها كبرة، فتركها، فقيل: إنها ماتت كمدا وحزنا على ذلك. والكَبْرَة هي كبر السن.

ونسبها الكامل هو: ضُباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ثم من بني سلمة بن قشير.

وجاء في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية «ج٣ ص ٢٧٠» أنها كانت

---

(١) وقد ذكرت بعض المصادر بيتا قبل هذا البيت وهو:

اخثم مثـــل القعب بـاد ظله كـأن حمـــى خيبر تملُّـــــه

اخثم = عريض كبير، والمراد به الفرج، يقول النابغة الذبياني – كما في أساس البلاغة:

وإذا لمست لمست اخثم جاثما متميزا بمكـــانـــه مـــلء اليـــد

والقعب بفتح القاف = الاناء الذي يوضع فيه السائل كاللبن. تمله = ترده في الملة هي الرماد المحرق، وذلك كناية عن حرارته «بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٨٦».

من أجمل نساء العرب وأعظمهن خلقا، وإذا جلست على الأرض أخذت منها شيئاً كثيرا، وتغطى جسدها، مع عظمه، بشعرها.

وذكر أن عبدالله بن جُدْعان تزوجها بعد هوذة بن على الحنفى الذى توفى عنها، فسألته طلاقها ففعل بعد أن حلفها أنها إن تزوجت هشام بن المغيرة المخزومى تنحر مائة ناقة سود الحدق، وتغزل خيطا يمد بين أخشبى مكة - هما جبلان حول مكة - وتطوف بالبيت عريانة. فتزوجها هشام، ونحر عنها مائة ناقة، وأمر نساء بنى المغيرة بغزل خيط ومده بين الأخشبين. وأمر قريشا فأخلوا البيت.

قال المطلب بن أبى وداعة السهمى، وكان لدة رسول الله ﷺ، أى فى مثل سنة: فخرجت أنا ومحمد ونحن غلامان، واستصغرونا فلم نمنع. فنظرنا إليها، فخلعت ثوبا ثوبا وهى تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله　　وما بدا منه فلا أحله

حتى نزعت ثيابها، ثم نشرت شعرها على ظهرها وبطنها، فما ظهر من جسدها شىء، وطافت وهى تقول: الشعر....

فلما مات هشام - والد أبى جهل - وأسلمت وهاجرت خطبها النبى ﷺ فقبلت، ولكن الصحابة أخبروه بكبر سنها وذهاب جمالها وسقوط أسنانها، فسكت عنها.

وجاء فى الروض الأنف «ج١ ص ١٣٤»: ان الله صرف رسوله عنها. لما يعلم من غيرته، والله أغير منه. فكان ذلك تكرمة له[١]. وذكر أيضاً ان رجلا انضم إلى امرأة تطوف عريانة بقصد التلذذ، فلصق عضده بعضدها، ففزعا وخرجا من المسجد على هذا الحال، ولم يستطع أحد فكهما إلا بعد أن قيل لهما: توبا مما كان فى ضميركما، وأخلصا لله. ففعلا، فانحل أحدهما من الآخر.

---

(١) انظر تكملة قصة زواجها فى الجزء الخاص بتعدد زوجات النبى، وما قيل عن شهوانية الرسول عليه الصلاة والسلام.

جاء فى سيرة ابن هشام بشرح السهيلى « ج١ ص ١٣٣ » : أن الحمس - وهم المتشددون فى التدين - قالوا : لا ينبغى لأهل الحلّ إذا جاءوا حجاجا أو عمارا أن يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة . فاذا تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا. وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللّقى » فحملوا على ذلك العرب فدانت به، وطافوا بالبيت عراة . أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها، إلا درعا مفرجا عليها، ثم تطوف به .

ويعلق النووى على الحديث الذى رواه مسلم فى التفسير فيقول عن التطواف : إنه ثوب تلبسه المرأة تطوف به . وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبدا . ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى « اللّقاء » حتى جاء الإسلام، فأمر الله بستر العورة فقال تعالى : ﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ وقال النبى ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » مسلم شرح النووى ج ١٨ ص ١٦٢ .

ولئن كان العرب فى الجاهلية يعرفون شريعة إبراهيم الذى مارسوا طقوسه فى الحج، وكانوا على صلة باليهود والنصارى فى أماكن متفرقة من الجزيرة، والحجاب مشروع فى اليهود والنصرانية، إلا أن ما أخذه العرب من هذه الشرائع لم يكن مطابقا للأصول الأولى للدين الذى جاء به إبراهيم بل دخله كثير من التشويه بالتبديل والتحريف[١] .

* * *

(١) هذا عند عامة الجزيرة، أما الكبار والأشراف فكانوا يعرفون البرقع، كما تقدم فى سقوط برقع المتجردة امرأة النعمان وشعر النابغة فى ذلك .

الفصل الثانى
الحجاب فى الأديان السماوية

١ - فى اليهودية :

لقد حذرت الأديان كلها من الفتنة بالمرأة، ومن أجل ذلك فرض الحجاب. وأقدم كتاب سماوى معروف بعد صحف إبراهيم هو التوراة التى نزلت على سيدنا موسى، وقد حرفت وبدلت عندما نزل القرآن الذى قرر أنه جاء مهيمنا على ما سبقه من الكتب. وما يوجد الآن عند اليهود مما يسمونه التوراة وعند النصارى ما يسمونه الانجيل، إنما هو وضع من أحبارهم مطعم ببعض ما كان فى الكتاب الحقيقى الذى أنزله الله من السماء. ولكنهم يدينون بما لديهم، فإذا نقلنا من هذه الكتب نصوصا فهى تدل على ما لديهم من فكرة عن الحجاب، وهى تؤكد الأصل المقرر الذى لا ينكر وهو أن النساء فتنة، ولابد من تنظيم علاقتهن بالرجال، بمثل فرض الحجاب.

جاء فى الإصحاح الخامس من أمثال سليمان: أن شفتى المرأة الأجنبية تقطران عسلا، وحنكها أنعم من الزيت، لكن عاقبتها مرة كالأفسنتين، حادة كسيف ذى حدين، قدماها تنحدران إلى الموت، خطواتها تتمسك بالهاوية.

لقد عرف اليهود هذا السلاح الخطير فى المرأة، فاستغلوه أسوأ استغلال، لتحقيق الخير لهم، ولإفساد غيرهم من الناس، جمعوا عن طريقه الأموال، ودبروا المؤامرات، وأشعلوا نيران الحروب. ومن أصدق ما يعبر عن سلوكهم هذا خطاب اليهودى «رانجهون» سنة ١٨٦٩م أمام قبر الحاخام «بن يهوذا» فى «براغ» عاصمة تشيكوسلوفاكيا، المنشور بجريدة فرنسية فى باريس بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٤٢ [١] فقد جاء فيه:

يجب علينا أن نمزق وحدة الأحزاب المصطنعة والتطاحن السياسى والأفكار

---

(١) من كتاب «جهاد ناطق» للسيد / عمر مفتى زاده، الداعية الإسلامى بالمغرب نقلته مجلة الاعتصام، عدد اكتوبر ١٩٦٣م.

الثورية التخريبية بواسطة عملائنا الذين سينظرون إلينا نظرة العابد للمعبود، ما دمنا نملك أكبر كمية من الرصيد الذهبي، وما دمنا لن نحجز بناتنا ونساءنا عن أعدائنا الخوارج الملاعين.

يقول «سرجي نيلوس» معقبا على بروتوكولات حكماء صهيون «ترجمة محمد خليفة التونسي» ص ١٧٠، ١٧١:

إن عودة رأس الأفعى إلى صهيون لا يمكن أن تتم إلا بعد تحطيم كل ملوك أوروبا، أي حينما تكون الأزمات الاقتصادية ودمار تجارة الجملة. قد أثرا في كل مكان، وهناك ستمهد السبيل لافساد الروح المعنوي والانحلال الخلقي، وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتنكرات في صورة الفرنسيات والايطاليات ومن إليهن.

إن هؤلاء النساء أصبحن ناشرات للخلاعة والتهتك في حياة المتزعمين على رءوس الأمم، والنساء في خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يفضلهن في حاجة إلى المال على الدوام، فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال. وهذا المال ليس إلا مقترضا من اليهود، لأنه سرعان ما يعود عن طريق هؤلاء النسوة أنفسهن إلى أيدي الراشين. ولكن بعد أن اشترى عبيدا لهدف صهيون عن طريق هذه المعاملات المالية.

وقد قرر مؤتمر اليهود العاشر سنة ١٩١٢م: أنه ليس من بأس أن نضحي بالفتيات في سبيل الوطن القومي، وأن تكون هذه التضحية قاسية مستنكرة، لكنها في الوقت نفسه كفيلة بأن توصل إلى أحسن النتائج. وماذا عسى أن نفعل مع شعب يؤثر البنات ويتهافت عليهن؟[١].

وهذا الكلام يعطي صورة واضحة عن خطر الفتنة بالنساء، وكيف استغلها اليهود أسوأ استغلال وستأتي صور أخرى تبين خطر هذه الفتنة عند الحديث عن آثار السفور.

ومما يدل على أن الحجاب موجود في اليهودية التي لم يشوهها اليهود ما حكاه القرآن الكريم عن قصة ابنتي شعيب، وكيف ابتعدتا عن مزاحمة الرجال على البئر، وقالتا «لا نسقي حتى يصدر الرعاء» وقد جاءت إحداهما إلى موسى

(١) مجلة التضامن الإسلامي التي تصدر بمكة «محرم ١٣٩٢ هـ - مارس ١٩٧٢م».

تمشي على استحياء تبلغه دعوة أبيها إليه ليكافئه على معونته لهما في سقي الماشية، وقد شهدت له بالعفة والأمانة ضمنا حيث قالت عنه ﴿ **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٦].

وكذلك ما قصة علينا رسول الله ﷺ من أن بنى إسرائيل كانت نساؤهم يجتمعن مع الرجال فى المعابد متزينات، فلعنهن الله، وحرم عليهن دخول المعابد، كما سيأتى فى بيان شروط خروج المرأة من منزلها.

كما أنه قد وضعت تشريعات رادعة لمن يجرؤ على اقتحام الحمى وتلويث الشرف بالزنى، من الرجم والجلد، بل بالحرق إن كان الزنى بين المحارم. وقصة احتكام اليهود إلى النبى فى حادثة زنى تثبت ذلك، وقد أشار إليها القرآن الكريم فى قوله ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ [المائدة: ٤٣].

ويوجد فى أسفار نص على أن البرقع - وهو غطاء الوجه - كان موجودا عندهم. ففى سفر التكوين إصحاح ٢٤ عن «رفقة» أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق، فنزلت عن الجمل وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى؟ فقال العبد: هو سيد. فأخذت البرقع وتغطت.

وفى إصحاح ٣٨: أن «تامارا» قامت ومضت، وقعدت فى بيت أبيها، ولما طال الزمان خلعت عنها برقعها، ولبست ثياب ترملها(١).

وفى الاصحاح الثالث من سفر أشعياء: ١٦ - ٢٤ أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخلهن، بأن ينزع عنهن زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب. فقال: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق، وغامزات بعيونهن، خاطرات فى مشيهن، يخشخشن بأرجلهن - يصلع السيد هامة بنات صهيون، ويعرى الرب عورتهن، وينزع السيد فى اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والاساور والبراقع والعصائب والسلاسل وخناجر الشمامات والأحراز والخواتم وخزائم الأنف.

---

(١) المرأة فى القرآن للعقاد ص ٢٠١.

وبهذا يعرف أن الله فرض الحجاب على نساء اليهود ولكنهم خالفوه لغايات خبيثة كما تقدم.

(٢) فى المسيحية:

الشريعة المسيحية أو النصرانية امتداد لشريعة اليهود فى كثير من الأحكام، وكان الحجاب من بين ما أقرته المسيحية، وجاء فى كتبهم التى يتداولونها الآن ما يدل عليه.

ففيها الأمر بغض النظر عن المرأة، جاء فى إنجيل متى.. الإصحاح الخامس: ٢٨: وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. ونبه بشدة على مراعاة ذلك - ففى فقرة ٢٥ فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها، وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يلقى جسدك كله فى جهنم.

ويؤكد بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الأولى أن النقاب شرف للمرأة، ففيها: فإن كانت ترخى شعرها فهو مجد لها، لأن الشعر بديل من البرقع. إصحاح ١١: ١٥ من رسائل بولس الأولى إلى تيموثواس ٢: ١١ - ١٤: إن النساء يزيِّن ذواتهن بلباس الحشمة مع درع وتعقُّل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء، بل بما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله لأعمال صالحة.

وهذه النصوص تدل على اعتراف المسيحية بضرورة الحجاب، وكانت الكنيسة فى القرون الوسطى تخصص جانبا منها للنساء، حتى لا يختلطن بالرجال.

ومن صحيفة الأسبوع بتاريخ ١٦/ ١٢/ ٢٠٠٢ بقلم د. هبة مصطفى - بجامعة عين شمس: أنه فى كتاب «المرأة اليهودية فى الأدب الحاخامى - للحاخام أ. د. برايز أستاذ الأدب اليهودى فى جامعة يشوفا: كانت عادة المرأة اليهودية أن تظهر فى العلن برأسها مغطاة، وكانت أحيانا تغطى الوجه كله تاركة عينا واحدة فقط. وحتى القرن التاسع عشر كانت اليهوديات يرتدين الحجاب حتى تأثرن بالثقافات الدنيوية فتركن الحجاب.

* * *

الفصل الثالث

الحجاب فى المدنيات الحديثة

عندما أطلت المسيحية على العالم وبدأت دعوتها فى الشرق، وانتقلت بعوامل لا مجال لذكرها الآن إلى أوروبا وفرضها حكام الرومان على رعاياها، كانت القوانين الرومانية والفلسفات اليونانية قد صبغت التعاليم الدينية بصبغتها، فتحور جزء كبير من أصولها، حتى كان دنيويا محضا تابعا لأهواء كبرائهم وكهانهم. فلم تعد المرأة عونا للشيطان ولها المكان الأدنى، بل أصبحت فى عهد تحكم المادية واحتقار الروحية متاعا متداولا، لا يحجبهن عن الرجال شىء، وأشتد ذلك الفساد فى القرون الأخيرة، حتى جاء عصر النهضة الأوروبية فرأينا صيحات المصلحين تنادى بوقف النساء عند حدودهن إلى مكانهن الأول.

وأخبار هنرى الثامن وشارل الخامس ولويس الرابع عشر، فى تعدد الزوجات وفى اتخاذ العشيقات وفى كثرة الطلاق معروفة. وكذلك حركات « سافونارولا » بايطاليا لإلزام المرأة حدودها، وإجراءات « كروموبل » بانجلترا بإغلاق المسارح والحد من ترف المرأة وزينتها، وتقرير أنها عون للشيطان، كما وصفتها الفكرة المسيحية الأولى، كل ذلك يبين أن المرأة خرجت على تعاليم المسيحية الحقيقية، وانطلقت من عقالها، على ما نراه اليوم.

وجاءت الثورة الفرنسية، ففتحت الباب على مصراعيه، وسرت عدوى التحرر العام فى جميع أنحاء الدنيا، واستهان النساء بالعفاف، لدرجة أنه صار من أقبح ما تعاب به المرأة، وحتى كانت له فلسفة منظمة، حمل لواءها الوجوديون والمتحللون، وتكونت جمعيات ونواد للعراة، على ما سيأتى تفصيله بعد.

يقول المودودى : إن الدافع لأوروبا لإزالة الحجاب هو الحرية التى جاءت على أنقاض ما قبل الثورة، فأسرفوا فيها. وكانت « جورج صاند » من أكثر النساء تحررا فى اتخاذ الأزواج والأخدان. وزعيمة للتحلل والكتابة الرومانتيكية.

كما جاء بعدها طائفة من الرجال على شاكلتها، منهم «الكسندر دوما» و«الفريد ناكيه».

وفى أواخر القرن التاسع عشر جاء كتاب بروزا الحرية بمبررات عقلية، بعد أن كانت المبررات عاطفية، منهم «بول آدم» و«هنرى باتاى» و«بيبر لوى».

الذى أعلن بملء فيه أن القيود الأخلاقية معوقة لنمو الذهن ونشوء مداركه، وتقرر ذلك فى كتابه «أفروديت» وقال: إن بابل والاسكندرية واثينا وروما والبندقية وغيرها ازدهرت عندما كانت الإباحية على أشدها، لكن عندما جاءت قيود الأخلاق تقيدت روح الانسان.

وكذلك فى أوائل القرن العشرين جاء كتاب آخرون يمجدون الإباحية. وزادت الحرب العالمية الأولى حركة التحرر. فمن ذلك أن فرنسا - وكانت تتزعم حملة تحديد النسل منذ أربعين سنة - رأت أن الحرب قد تأتى على شبابها وهم قليلون، فلئن نجوا هذه المرة فقد تباغتهم الحرب مرة أخرى، فلابد من زيادة النسل، فشجعوا كل اتصال جنسى أيا كان طريقه، حتى إن بعض رجال الدين مجدوا ذلك وقالوا: العذراء التى تتبرع برحمها من أجل التوليد خدمة للوطن تستحق التكريم. فكان ذلك مقويا لدعوة التحلل.

ثم قال: فى آخر القرن التاسع عشر كان الاتجاه فى أوروبا لقضاء الشهوة بحرية تامة، ومنع النتيجة «الحمل» بالوسائل العلمية، فشجع ذلك على المباشرة الجنسية المحرمة، وساعدت عليه الثورة الصناعية واختلاط العمال، واضطرار المرأة إلى العمل لارتفاع مستوى المعيشة، وإتاحة الفرصة للعلاقة الجنسية، ورضا الرأى العام عنه، لأنه ضرورة اقتصادية، وهو عين المدنية. كما أن الرأسماليين سعوا إلى جمع المال بكل وسيلة، واستغلوا فتنة المرأة فى الكسب فى المسارح وغيرها كالبغاء والأزياء الفاتنة والصور، كما أن الديمقراطية حمت الحرية، وصارت الأخلاق والقوانين بيد الناس، يغيرونها كيف يشاعون.

ولقد حدث قبل العصر النازى أن قرر المجلس التشريعى الألمانى بالأكثرية،

عدم جريمة اللواط مادام برضا الجانبين، وإن كان المفعول به دون البلوغ فبرضا وليه، وذلك على أثر نشاط الدكتور « ماغنوس هرشفيلد » وكان من قبل رئيسا لرابطة الإصلاح الجنسي العالمية.

ويقول المودودى أيضاً: أمريكا مثل فرنسا فى العهر، تحمل فيها البنات فى سن مبكرة فى المدارس، وفى المدارس الخاصة بالذكور يكثر اللواط، والمدارس المختلطة يكثر فيها الزنى، ويساعد على ذلك الأدب المكشوف والأفلام وسوء خلق النساء بالتبرج والتدخين... وللبغاء هناك سوق رائجة، كما توجد دور للمقابلات الخاصة. ومن هنا كثرت الأمراض السرية والطلاق، وقل الزواج وانعدمت عاطف الأمومة. انتهى بتصرف.

الواقع أن فكرة فصل الجنسين بعضهما عن بعض، والحيطة من افتتان أحدهما بالآخر موجودة عند أكثر الأمم والمجتمعات، حاضرها وماضيها.

يذكر الرحالة محمد ثابت فى كتابه « بنات حواء » أن الحجاب فى الشرق مرده الغيرة أو علو المنزلة، أى منزلة الرجل على المرأة، فهى خاضعة له، وكان من آثار ذلك فى القرون الوسطى تخصيص جانب من الكنيسة للنساء. ولايزال هذا النظام قائما إلى اليوم، وهو سبب دفع كثيرا من النساء إلى الرهبنة، ومن آثاره عدم قبول المرأة عضوا فى بعض الجمعيات كالماسونية.

والعزلة واجبة عند الشعوب التى تعدد الزوجات، فلكل زوجة جانب من البيت، وحتى الرجل لابد أن تكون له غرفة خاصة به، كما هو عند الشعوب المتأخرة أيضاً، فعند شعوب الماساى بأوغند يعتزل المقاتلون من الشبان النساء كلية، حتى يحل أجل الزواج، وعند ذلك يباح لهم مقابلة النساء، حتى خصصت شعوب ميلانيزيا وغانا الجديدة بيوتا للعزاب من الرجال، ولا يقربها النساء قط.

وفى « فيجى » يحسن أن يبيت الرجل فى منزل العزاب، ولا ينام فى بيت زوجاته إلا نادارا، وإلا حط ذلك من هيبته. وفى جزائر « ساندوتش » و« هونولولو »

تخصص بيوت للذكور وأخرى للاناث لأجل النوم، وتخصص بيوت منفصلة عنها للطعام، وذلك إمعانا فى الفصل بين الجنسين.

وتختلف السن التى يتحتم عندها الانفصال، ففى جزر «هبريدة الجديدة» بالمحيط الهادى يكون الفصل بمجرد الميلاد، حين يحمل الولد إلى بيت الرجال، ويتعهده أبوه بالتربية والرعاية، ويحرم على النساء أن يقربن جهة الرجال، وإلا كان الموت نصيبهن.

أما الأطفال البنات فيتسلمهن النساء، وإذا دخل الولد بيت أبيه ليأكل حرم عليه ذلك إذا كانت أخته هناك، ولا يصح لأمه أن تناوله الطعام بيدها، بل تتركه له عند قدميه يتناوله وحده. وإذا لاقى أخته فى الطريق وجب عليها أن تجرى بعيدا عنه لتختبىء، وإن لاحظ وقع أقدامها على الرمال وجب عليه أن يغير طريقه، لكيلا يظن أنه يتعقبها.

ويقول أيضاً فى كتب رحلاته: إن مدينة «سيول» فى كوريا يوجد فيها الفصل بين الجنسين. فهناك ناقوس موجود منذ ٤٥٠ عاما فى أحد الطرق كان يدق صباحا لفتح أبواب المدينة، ومساء لتغلق. ويدق الساعة التاسعة مساء ليسرع الرجال إلى إخلاء الطرق للنساء كى يتريضن، والويل لمن تخلف منهم.

كما يقول: كانت بنات الصين من الطبقة الراقية محجبات قبل الغزو الشيوعى.

وفى «بولينزيا» وهى جزر بالمحيط الهادى، لا يصح أن يأكل الذكر مع الأنثى، حتى إنه لا يجوز أن تطبخ الزوجة على نار زوجها، ويا للعار لمن يفعل ذلك، فعندئذ يعيره الناس فى الطريق بقولهم: أأنت إناء تستخدم فى تقديم الماء لأمك، وهل تقبل أن تشوى لحما لتطعم والدتك؟

ولا يصح للمرأة عند قبائل «الزولو» بأفريقيا، أن تذكر اسم زوجها، بل تقول عندما تتحدث عنه: أبو فلان وفلانة من الأولاد.

وعند الهنود الحمر فى كاليفورنيا لا يجوز ضم السيدات مع الرجال فى النوادى والمجتمعات. أهـ.

وفى أمريكا الجنوبية يلاحظ الطابع العربى فى كثير من البلاد، تقول « مدام برتكمان » قرينة السكرتير الثانى فى مفوضية الأرجنتين بمصر سنة ١٩٥١م، وهى حاصلة على دكتوراه الفسلفة والآداب من جامعة « بيونس إيرس » : إن البيوت مبنية على طراز المشربيات المحكمة التغطية، وقل أن توجد امرأة فى أحد الشرفات. وغالب النساء يرخى الطرحة على الرأس، وهى سوداء فوق تاج من العاج كأنه شبه حجاب، ولا يجوز للغادة أن تحضر مجالس الرجال عارية الأذرع، ولا يباح للصديق زيارة منزل ما إلا فى حضرة صاحبه. وإذا رقصت النساء كان ذلك وحدهن لا مع الرجال. أهـ، لكن هناك صورا أخرى تدل على تغير كل ذلك أو كثير منه، والمهم أن فكرة الحجاب كانت موجودة لشعورهم بفائدتها(١).

ونشر فى جريدة « المقطم » بتاريخ ٩ / ٤ / ١٩٣٢م الموافق ٣ من ذى الحجة ١٣٥٠هـ: أن الشابة فى صقلية لا تخرج وحدها، ولا تنفرد بمن ليس من أهلها.

كما نشر فى أهرام ٣٠/٧/١٩٦٣ تحت عنوان « أخبار العالم » أن جماعة من الرجال فى « دربان » بجنوب أفريقيا هجموا على مئات من النساء وحلقوا لهن شعورهن وقالوا: إن هذا الاجراء سوف يرغم النساء المستهترات، وخصوصا اللاتى يضعن أحمر الشفاه ويطلقن شعورهن – على عدم الظهور فى الشوارع.

يقول الرحالة محمد ثابت: يقال إن سبب الحجاب عامة هو عامل اقتصادى، كما عند الشعوب التى تعتمد على الصيد برا أو بحرا، كذلك تقصى المرأة عند قبائل « تودا » بالهند عن الرعى وحلب البقر، فهو من عمل الرجل. أما الزراعة فمهنة المرأة عند الشعوب المتأخرة، إذ يحتقرها الرجال. والرعى شرف لا يناله الرجال، ويقال: إن ألبانيا لا يأكل الرجال مع النساء، إلا إن كن عذارى قد آلين على أنفسهن أن يلبثن كذلك طوال حياتهن.

وفى سيبيريا لا تأكل الزوجة مع زوجها من طبق واحد، وإلا وقع النزاع بينهما لا محالة. والبعض لا يتناول طعاما أعدته المرأة، خوفا من أن تكون نجسة.

---

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٨٨، ٨٩.

وبعض قبائل شرقى أفريقيا يحتم على البنات أن يلبسن بُرُداً غليظة تغطيهن من القمة إلى الأَخْمُص، خوف نظر الرجال، ويعلل ذلك بالخوف من القوى الخفية التى ترقب ذلك وتحرمه. وتلحق بالمخالفة أضراراً جسيمة. ويظهر أن النساء جميعاً ينفرن بطبيعتهن من الرجال إذ ذاك، أى فى حالة فترة الحيض.

وفى المجر اليوم يحرم اختلاط الفتيات بالشبان بين قبائل « ماتيوك » ولهن فى الكنائس مقاصير خاصة لا يراهن الشبان.

وفى بعض مساجد تركستان يحرم عليهن الدخول، خوف تدنيس قدسيتها.

هذا ما نقله الرحالة والكاتبون والناشرون عن هذه المجتمعات، وأعتقد أن الزمن قد طورها وغير كثيرا من عاداتها، وإذا كانت هذه مظاهر تدل على نظرة الناس إلى قيمة العفاف وإلى الحجاب فى أية صورة من صوره، فإن هناك صوراً أخرى من التفريط والاستهانة به، خرج بها الناس عن منطق الطبيعة النقية، وعادوا بها إلى الجاهلية الأولى، وسيأتى كثير منها عند الحديث عن السفور.

* * *

الباب الثانى

سيكون الحديث فى هذا الباب عن الحجاب فى الإسلام، مقدما ببيان خطر الفتنة بين الجنسين وموقف الإسلام منها، وعن تحديد العورة فى الرجال والنساء، وحكم سترها ومواصفات الساتر الشرعى، وحكم النظر إليها، وكذلك التلامس بين الجنسين بوسائله المختلفة، والكلام بمظاهره المتنوعة، وكذلك عن الخلوة واحتياطاتها وأخطارها، ثم عن الوقت الذى شرع فيه الحجاب، والأسباب المباشرة لفرضه، ومدى تطبيقه وشموله للنساء عامة، ثم عن حكمة مشروعيته.

المقـــــدمـة

رأينا من العرض السابق مبلغ إدراك الناس لخطر الفتنة الجنسية والاحتياطات أو الإجراءات التى اتخذتها كل جماعة حيال هذا الموضوع، فما هو موقف الإسلام منها؟

ليكن معلوما أن الإسلام دين الفطرة الصحيحة يحترم العقل ولا يحتقر الغرائز، فلكل مجاله والحاجة إليه، إنه لا يحارب الغرائز أبدا، كما يظن كثير من الناس فى الأديان عامة، فإن الله قد وضع هذه الغرائز وما يتصل بها من عواطف وأحاسيس لحاجة الاجتماع البشرى إليها، ومن هنا لا نراه يعمل للقضاء عليها أو شن الحرب الطاحنة نحوها، بل هو يعمل لتنظيمها واستغلال نشاطها لخير الإنسانية.

ولو أن الإسلام حارب الغرائز للقضاء عليها تماما لكان دينا غير واقعى، متناقضا مع نفسه، ولجرفته الطبيعة أمامها وقضت عليه قبل أن يقضى عليها[1]، والأمثلة الحية خير شاهد على ذلك، ينطق بها موقف بعض الكنائس من دعاتها فى تحريم الزواج عليهم، أو استهجانه منهم، وما كان له من رد فعل تقدمت الاشارة إليه «ص/ : » من الجزء الأول من هذه الموسوعة.

ولقد عبر بعض الكاتبين عن قوة الغريزة الجنسية بالذات. لأنها كما يقال أخطر الغرائز فى حياة الانسان، فذكر أن ملكا فصل بين الجنسين، فجعل كلا منهما فى جزيرة مستقلة بعيدة عن الأخرى، حتى لا يفكر جنس فى آخر، وينصرف كل إلى عمل مفيد لا صلة له بالجنس. فقال له الحكيم، وقد ظن الملك أنه جاء بخطة محكمة لا ينفذ إليها الخلل: أخشى يا مولاى أن يكون عملك هذا مساعدا لهم على عمل غير مفيد أبدا، قال: وما هو؟ قال صنع القوارب يا مولاى[2].

---

(١) انظر توضيح ذلك فى الفصل الخامس من الباب الرابع فى الشبه الواردة على الحجاب.
(٢) د. حسين مؤنس. جريدة القبس الكويتية فى ٨/٤/١٩٧٤.

لقد نظر الإسلام إلى المرأة نظرة عادلة، مقدرا نواحى الخير والضعف، ونواحى الشر والقوة فيها، كما قدر ذلك فى كل مخلوق. وناظرا إلى رسالتها الأصيلة فى الحياة، وإلى الأسلحة التى سلحها الله بها من عواطف وأحاسيس وأجهزة خاصة.

ثم أمر الرجال أن يفطنوا إلى ناحية الشر والقوة فيها ومن أشدها الفتنة بها، فيكون ميلهم إليها بقدر ما تصلح به حال الجماعة، كما قدر ناحية الخير والضعف فيها فأمر بالاحسان إليها وأوصى بها كثيرا.

وفى ضوء هذه النظرة يمكن فهم النصوص الواردة بالعطف عليها. والنصوص الواردة فى التحذير منها، ومن نبع هذه النظرة قال حكيم: الرجل الذى يمدح المرأة لم يعرفها على حقيقتها، والذى يذمها لا يعرف شيئا عنها. وسيأتى توضيح لهذه النقطة فى الباب الأخير.

(١) لقد أطلقت الفتنة فى القرآن على عدة معان، أكثرها يفيد معنى الامتحان أو ما يؤدى إليه أو ينجم عنه، ويؤول الى مجانبة الصواب أو الوقوع فى المكروه، فقد عرف بعض العلماء الفتنة بالنساء بأنها الاتصال الجنسى، وقال غيرهم، إنها مقدماته كالخلوة، وقال آخرون، إنها قصد الاتصال الجنسى، أى ميل القلب وتحديث النفس.

لكن إذا رجعنا إلى تحديد درجة الميل القلبى والحديث النفسى لم نصل إلى جواب مقنع، على أن بعضهم يسمى ميل القلب وتحديث النفس شهوة، كما جاء فى حاشية ابن عابدين، وسببها النظر أو اللمس أو الحديث أو الفكر أو الاختلاط وما أشبه ذلك. وكثيرا ما يتساهل فى التعبير بالشهوة عن الفتنة، من باب إطلاق اسم السبب على المسبب. وقال علماء الحنابلة: إن الشهوة هى التلذذ بالنظر. كما جاء ذلك أيضاً فى كتب الشافعية[١].

٢ – والإسلام قرر، كما قررت الأديان الأخرى، أن فى المرأة فتنة، وحذر من

---

(١) غذاء الألباب للسفارينى ج١ ص ٧٩.

الوقوع فيها، فذكر القرآن الكريم أن المرأة من أولى المتع التى تنصرف إليها رغبات الرجال. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. وجاء فى الحديث الصحيح «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء» رواه البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد.

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن، فإنى أريتكن أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل»؟ قلن: بلى يا رسول الله. قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم»؟ قلن: بلى يا رسول الله. قال: «فذاك من نقصان دينها»[١].

وقال ﷺ: «اتقو فتنة النساء، فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء» رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

ولعل مما يوضح هذه الفتنة التى كانت فى بنى إسرائيل قول عائشة: لو أن رسول الله ﷺ رأى من النساء ما رأينا لمنعهن من المساجد، كما منعت بنو إسرائيل نساءها. رواه البخارى ومسلم عن عمرة. وقولها فى حديث آخر: كن نساء بنى إسرائيل يتخذن أرجلا من خشب يتشرفن - يتطلعن - للرجال فى المساجد، فحرم الله تعالى عليهن المساجد، وسلطت عليهن الحيضة. أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح.. نيل الأوطار ج٣ ص ١٤٠، ١٤١».

---

(١) ج١ ص ٨٣ صحيح البخارى طبعة دار الشعب والقرطبى ج٣ ص ٨٢، ورواه مسلم أيضاً عن أبى سعيد الخدرى، وعن ابن عمر أيضاً «الاحياء للغزالى».

ومما ورد فى بيان الفتنة بهن أيضاً حديث « إن المرأة تُقْبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة شيطان. فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه » رواه مسلم عن جابر. وفى رواية الخطيب عن عمر تعليل ذلك بقوله: « فإن البُضْع واحد، معها مثل الذى معها »(١).

وجاء فى الجامع الصغير حديث « إن المرأة إذا أقبلت أقبلت فى صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن الذى معها مثل الذى معها » رواه الترمذى وابن حبان عن جابر. وقال الألبانى: أنه صحيح(٢).

وجاء فى المواهب اللدنية للقسطلانى حديث « النساء حبائل الشيطان »(٣). وفى مسند الفردوس عن معاذ مرفوعا إلى النبى ﷺ: « اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلاع رصاد. وما هو بشىء من فخوخه بأوثق لصيده فى الأتقياء من النساء » أخرجه فى الجامع الصغير ورمز إليه بالضعف، وقال الألبانى: إنه موضوع.

إن النبى ﷺ بالحديث الذى رواه جابر يعالج الغريزة، ويحول نشاطها من دائرة الحرام إلى دائرة الحلال، وسلطان الغريزة غالب لابد له من منفذ، وكَبْتُها قد يؤدى إلى ضرر كبير، وما حرم الله شيئا إلا جعل له بديلا من الحلال والرجل فى رجولته لا يسلم أبدا من سلطان الغريزة وشدة ضغطها عليه، فليكن نشاطها فى مجال الحلال والخير والمنفعة.

وقد قال النبى ﷺ هذا الحديث بعد واقعة حدثت. وهى تعليم منه لأمته، وتنبيه لهم إلى أن الغريزة الجنسية مسلطة، وإلى أن الطريق الأمثل لتفريغ طاقتها هو فى إعلائها لا فى كبتها. وذاك بتوجيهها إلى الخير والحلال من التصرفات،

---

(١) حكم عليه الألبانى بأنه موضوع.

(٢) ما هو الفرق الجوهرى الهام بين هذه الرواية وبين الرواية المروية عن عمر؟ إن الذى جعل هذه صحيحة والأخرى ضعيفة هو السند فقط، أما المتن فواحد فيهما. فتنبه إلى مثل هذه الأحكام على الأحاديث، وارجع الى مقدمة الموسوعة عند الكلام على المنهج.

(٣) ج ١ ص ٢٦٣.

فقد رأى النبى ﷺ امرأة فأتى زوجته زينب، وهى تمعس منيئة - تدبغ جلدا - فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال لهم هذا الحديث.

وسواء أكانت الغريزة الجنسية قد استيقظت فى النبى ﷺ عند رؤية المرأة - بحكم طبيعته البشرية - وهذا لا يعيبه، إنما العيب فى تعلق القلب والعزم على السوء، أم أن ما فى قلب النبى ﷺ من تعلق بغير هذا الموضوع جعل أثر النظر معدوما أو خفيفا، لكنه أحس أن بقية أصحابه ليسوا مثله فى التأثر ورد الفعل للنظر، فبين لهم العلاج الصحيح بصورة عملية، وبين أنه لا حياء فيه ولا حرج. فليرد الانسان ما فى نفسه بقربان زوجته، فإن لها مثل ما لمن رآها وأعجب بها. والجذوة تنطفىء هنا كما تنطفىء هناك. وإن كان هناك فرق فى النتيجة يجد المؤمن أثره عندما يتنبه ضميره.

ومما ورد من الأحاديث الدالة على خطورة المرأة أن عمرو بن العاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران فاذا بغربان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار، فقال: «لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب فى هذا الغربان» رواه أحمد باسناد صحيح. وهو فى السنن الكبرى للنسائى[1].

وروى أن إبليس لما أهبط من الجنة قال: يا رب أنزلتنى إلى الأرض، وجعلتنى رجيما، فاجعل لى بيتا، قال: الحمام. قال: اجعل لى مجلسا. قال: الأسواق ومجامع الطرق. قال: اجعل لى طعاما. قال: طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه. قال: اجعل لى شرابا. قال: كل مسكر. قال: اجعل لى مؤذنا. قال: المزامير. قال: اجعل لى قرآنا. قال: الشعر. قال: اجعل لى كتابا. قال: الوشم. قال: اجعل لى حديثا. قال: الكذب. قال: اجعل لى مصايد. قال: النساء» رواه الطبرانى فى المعجم الكبير، وابن أبى الدنيا عن أبى أمامة. وقال ابن القيم[2]: المعروف وقف هذا الحديث، وشواهده كثيرة. وقال العراقى[3]: إسناده ضعيف جدا، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس باسناد ضعيف أيضاً.

---

(١) الاحياء ج ٢ ص ٤١. (٢) إغاثة اللهفان ص ٣٥. (٣) الإحياء ج ٣ ص ٣٠.

وكثرت في هذا المعنى أقوال الحكماء والأدباء. وفي الجزء الخاص بحقوق الزوجين كثير منها، وقيل: إن لقمان أوصى ابنه فقال: اتق المرأة السوء، فإنها تشيبك قبل المشيب، واتق شرار النساء، فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر[١]. وقال عمر بن الخطاب: استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر»[٢].

ولما سمع عمر قول القائل:

إن النساء رياحين خلقن لنا ... وكلنا يشتهي شم الرياحين

قال:

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين[٣]

وقال علي بن أبي طالب: لا تطلعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال، إن تركن وما يردن أوردن المهالك، وأفسدن الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهافتن في البهتان، ويتمادين في الطغيان[٤].

ويقول معن بن زائدة[٥]:

نحن قوم تذيبنا الحَدَق النُّجْـ ... ـل على أننا نذيب الحديدا

وترانا عند الكريهة أحرا ... را وفي السلم للغواني عبيدا[٦]

---

(١) الإحياء ج ٢ ص ٤١.

(٢) الاحياء ج ٢ ص ٤١ والمستطرف ج٢ ص ١٩٠.

(٣) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب للألوسي ج ٢ ص ١٣ وجاء في اللطائف والطرائف للثعالبي «ص ٦٦» بيت ثان هو:

فهن أصل البليات التي ظهرت ... بين البرية في الدنيا وفي الدين

(٤) المستطرف ج ٢ ص ١٩٠.

(٥) توفي سنة ١٥٢ هـ (٧٦٩م) أو ١٧٣هـ (٧٩٤م) وسنه ٨٨ سنة وقيل: قتله الخوارج.

(٦) هز القحوف شرح أبي شادوف.

وسيق فى المقدمة كثير مما يدل على خطر الفتنة بالنساء. والشواهد فى عصرنا وفى كل العصور كثيرة فلا تحتاج إلى دليل منصوص. يقول « رونالد رولان » : المرأة إذا بكت تصدعت لها الأفئدة، وإذا ابتسمت سلبت العقول، فهى دائماً سبب تعكير راحتنا. ويقول حكيم : المرأة خزانة فولاذية، مفتاحها مع كل الرجال، ولكن قليلا منهم من يعرف الرقم الذى بفتحها.

والمشاهد بالتجربة أن الجنس إذا كان بعيدا عن جنسه قل تفكيره فيه وميله إليه، وإن لم ينعدم ذلك، لأصالة الغريزة الجنسية فى عالمى الإنسان والحيوان. فإذا قرب الجنس من الجنس، أو اتصل به بأية وسيلة تحركت الغريزة بانفعالها القوى، وتحركت معها الإرادة إلى تحقيق ما تريد. فالجنسان أشبه بقطبى المغناطيس، السالب والموجب، كلما قرب أحدهما من مجال الآخر تحركت المشاعر كما تتحرك برادة الحديد بالمغناطيس، وترتبت الأحاسيس فى وضع معين، تبعا لمدى القرب وقوة الجاذبية، فالقرب بين الذكر والانثى يؤثر فى الأعصاب، وبالتالى فى الدورة الدموية والأجهزة الأخرى، تأثيرا يتفاوت تبعا لتفاوت عوامل كثيرة وظروف مختلفة.

ومن هنا وضع الله لتنظيم نشاط هذه الغريزة. وضبط الجاذبية الجنسية — شأنه فى ذلك شأنه فى الغرائز الأخرى — آدابا توجهها وجهة الخير، وتمنعها أن تتعدى الحدود، وتنتهك الحرمات — ومن هذه الآداب مجموعة تعرف بالحجاب، الذى تخف به حدَّة الجاذبية، وتستتر إلى حين. بحيث لا يكون قاضيا عليها تماما، فالحياة فى حاجة إليها، بل يكون عمله كعمل العازل بين القطبين، يمنع التحامهما على الوجه الذى لا يقيم أسرة مستقرة متماسكة منتجة.

(٣) وقد وردت مادة الحجاب فى القرآن الكريم فى ثمانية مواضع، يدور معناها فيها جميعا بين الستر والمنع. ولم يذكر فى الموضوع الذى نتحدث فيه، وهو الصلة بين الجنسين، إلا فى موضعين، أحدهما فى قوله سبحانه عن مريم ﴿ **فَاتَّخَذَتْ من دُونهمْ حجَابًا** ﴾ [مريم : ١٧]، أى ساترا يحجبها عنهم، وثانيهما

في قوله تعالى عن نساء النبي ﷺ ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب : ٥٣]، أى ساتر يحول بينكم وبين رؤيتهن.

وكذلك مادة الحجاب التى وردت فى السنة تؤول إلى هذا المعنى.

وقد وردت للحجاب عدة تعريفات شرعية، أكثرها يصور جانباً من جوانبه، غير جامع لكل أركانه ومقوماته، كقول بعضهم: هو ساتر يستر الجسم فلا يشف، ولا يبين التقاطيع.

والذى يساعد على وضع تعريف جامع له هو معرفة الغرض منه. والغرض الحقيقى هو منع الفتنة بين الجنسين. وعلى هذا يمكن تعريف الحجاب الشرعى بأنه: ما يمنع الفتنة بين الرجال والنساء من الناحية الجنسية.

وأهم أسباب الفتنة: كشف العورة، والنظر إليها، والخلوة بين الجنسين، والكلام واللمس وما أشبه ذلك. ولهذا يقتضينا البحث عن موقف الإسلام من الحجاب أن نتحدث عن كل هذه الأمور فى الفصول التالية.

* * *

الفصل الأول

تحديد العورة

العورة فى الأصل الخلل ومنه الأعور لخلل فى عينه، ومنه قوله تعالى: ﴿**ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ**﴾ أى ثلاث أوقات يختل فيها ستر الإنسان، فالأصل ستر هذه الأعضاء وكشفها عورة أى خلل، وكل ما يستحيا منه يسمى عورة فى اللغة، ومنها القبل والدبر.

وتحديد العورة يختلف فى المرأة عن الرجل، وفى الأمة عن الحرة، كما يختلف بالقرابة بين الجنسين وعدمها.

والعورة فى الصلاة حق خالص لله وحده لا يعنينا الكلام عنها هنا، فالصلاة بين العبد وربه، وأوامره فى العورة لا يراعى فيها كلها الفتنة، فقد تؤدى الصلاة فى خلوة تامة لا يرى فيها جنس جنسا[1]. إنما الذى يعنينا منها هنا ما يتصل بالناحية الاجتماعية فى الصلة بين الرجل والمرأة.

● **أولا - عورة المرأة:**

تختلف عورة المرأة باختلاف من ينظر إليها. وهو إما أن يكون من بنات جنسها، أى امرأة مثلها، وإما أن يكون من الجنس الآخر، أى رجلا. والرجل إما أن يكون زوجا وإما أن يكون غير زوج، وغير الزوج إما أن يكون محرما وإما أن يكون غير محرم، ولكل حكمه.

(١) فعورة المرأة بالنسبة للمرأة هى ما بين سرتها وركبتها، مثل عورة الرجل بالنسبة إلى الرجل، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَوْ نِسَائِهِنَّ** ﴾ [النور: ٣١]. حيث جعل حكم إبداء المرأة للزينة معهن كحكمه مع أقاربها، كما سيأتى بيانه.

---

(١) ومع ذلك لابد من ستر أجزاء معينة من الجسم قد تشمله كله كما فى عورة النساء.

(٢) وعورتها بالنسبة إلى زوجها غير موجودة، فليس بين الزوجين حجاب، فقد حددت العورة وأمر بسترها لمنع الفتنة التى تنتهى إلى الاتصال الجنسى، والاتصال الجنسى فى الزواج هو مقتضى الحياة الزوجية، فكل ما يؤدى إليه ليس ممنوعا، بل قد يطلب. قال تعالى: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ويدل على عدم وجود عورة بين الزوجين الاستثناء فى حديث النهى عن التعرى. روى الترمذى عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «إياكم والتعرى، فإن معكم من لا يفارقكم، إلا عند الغائط، وحين يفضى الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وكرموهم»[١].

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» قلت: فإذا كان القوم بعضهم فى بعض؟ قال: «إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها» قلت: فإذا كان أحدنا خاليا؟ قال «فالله تبارك وتعالى أحق أن يستحيا منه» رواه الترمذى وغيره. وقال: حديث حسن»[٢].

ومهما يكن من شيء فان عدم وجود عورة بين الرجل وزوجته لا ينفى استحباب سترها، كما سيأتى مزيد بيان لذلك.

(٣) وعورتها بالنسبة إلى المحارم ما بين سرتها وركبتها. والمحارم هم من يحرم عليهم زواجها على التأبيد، كالأب والابن والعم والخال. وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ **وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** ﴾ [النور: ٣١] وفى قوله تعالى أيضاً ﴿ **لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي**

---

(١) نيل الأوطار. قال الألبانى على الجامع الصغير: إنه ضعيف.

(٢) نيل الأوطار ج٢ ص ٦٣.

آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٥] .

فالمحارم المذكورون فى هاتين الآيتين هم : الأب، أب الزوج، الابن، ابن الزوج، الأخ، ابن الأخ، ابن الأخت، ومثلهم زوج الأم وزوج البنت وقد تقدم ذلك واضحا فى الجزء الأول فى شروط الزواج .

وقد ألحقت الآيتان السابقتان جماعة غير الأقارب يعطون حكمهم فى إبداء الزينة أمامهم، أو فى تحديد عورة المرأة بالنسبة إليهم، وهم :

(أ) ما ملكت أيمانهن . وهم الأرقاء، فعورتها معهم كعورتها مع المحارم، على أن يكون هذا الرقيق مملوكا لها، وإلا كان أجنبيا له حكمه . روى أبو داود عن أنس أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا غطت به رأسها لم يبلغ إلى رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ إلى رأسها . فلما رأى النبى ما تلقى من ذلك قال : « إنه لا بأس عليك، إنما هو أبوك وغلامك »[1] .

غير أن سعيد بن المسيب علامة التابعين لا يرى هذا الرأى، فقد روى عنه أنه قال : لا تغرنكم هذه الآية ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ إنما عنى بها الإماء، ولم يعن بها العبيد . وكان الشعبى يكره أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته . وهو قول مجاهد وعطاء اهـ . لكن مايقول هؤلاء فى حديث أبى داود السابق؟ إن رأيهم مرجوح والأئمة على خلافه .

(ب) التابعون غير أولى الإربة من الرجال . وهم الذين يتبعون النساء ليصيبوا من الطعام، والذين انقطع أربهم – حاجتهم – من النساء لمرض أو كبر مثلا .

وقد أورد الطبرى فى تفسيره لهذه الآية أقوالا فيهم . فقيل عن هذا التابع :

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٣٤ .

إنه الأحمق الذى لا حاجة به إلى النساء. وقيل: هو الأبله. وقيل: الرجل يتبع القوم فيأكل معهم، ويرتفق بهم، وهو ضعيف لا يكترث للنساء ولا يشتهيهن. وقيل: العنين. وقيل: الخصى. وقيل: المخنث[1]. وقيل: الشيخ الكبير والصبى الذى لم يدرك.

وكل ذلك متقارب المعنى، ويجتمع كله فيمن لأنهَمَ له ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء. قال الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين: وعبارة الروضة: قلت المختار فى تفسير غير أولى الأربة أنه المغفل فى عقله، الذى لا يكترث بالنساء ولا يشتهيهن. أما المجبوب الذى بقى أنثياه، والخصى الذى بقى ذكره، والعنين والمخنث وهو المتشبه بالنساء، والشيخ الهرم فكالفحل. كذا أطلق الكثيرون.

وبمناسبة ذكر المخنث كان فى زمن النبى ﷺ مخنث أسمه «هيت»[2]. وكان مولى لعبد الله بن أبى أمية المخزومى، أخى أم سلمة لأبيها. قال «هيت» له، وهو فى بيت أخته أم سلمة ورسول الله ﷺ يسمع: إن فتح الله عليكم الطائف عليك ببادية – وقيل: بادنة – بنت غيلان بن سلمة الثقفى، فانها تقبل بأربع، وتدبر بثمان، مع ثغر كالأقحوان، إن جلست تبنت، وإن تكلمت تغنت، بين رجليها كالاناء المكفوء، وهى كما قال قيس بن الخطيم[3]:

تغتـرق الطرف وهى لاهيـة ... كـأنما شَفَّ وجـهـهـا نُزُف
بين شكول النسـاء خلقـتـهـا ... قـصـد، فلا جَـبْلة ولا قَـضَف
تنام عن كُـبْـر شـأنهـا فـإذا ... قـامت رويدا تكاد تنقـصف

---

(١) المخنث بفتح النون المشددة وكسرها هو من فيه انخناث، وهو التكسر والتثنى كما يفعله النساء، وليس هو الذى يأتى الفاحشة الكبرى «الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٣٦». وسيأتى تفسير النووى له.

(٢) وقيل: اسمه «هنب» يعنى الأحمق. وقيل: اسمه «ماتع» بالتاء، مولى فاختة المخزومية.

(٣) شاعر وفد على النبى ﷺ بمكة، وسمع منه القرآن، فأعجب به. فلما دعاه إلى الإسلام قال: سأنظر عامى هذا ثم أعود إليك. فمات قبل الحول. «الزرقانى على المواهب ج٣ ص ٢٦٧» وكانت أخته ليلى قد وهبت نفسها للنبى ﷺ ثم استقالته لشدة غيرتها فأقالها.

فقال له النبي ﷺ : « لقد غلغلت النظر إليها يا عدو الله » ثم أجلاه عن المدينة إلى الحمى . فلما افتتحت الطائف تزوجها عبد الرحمن بن عوف، فولدت له « بُرَيْهة » . ذكرها الواقدى والكلبى[١] .

ولم يزل « هيت » بذلك المكان حتى قبض النبى ﷺ . فلما ولى أبو بكر كلم فيه، فأبى أن يرده . فلما ولى عمر كلم فيه فأبى . ثم كلم فيه عثمان بعد . وقيل : إنه كبر واحتاج، فأذن له أن يدخل كل جمعة، فيسأل ويرجع إلى مكانه .

يروى حديثه مسلم « ج١٤ ص ١٦٢ » عن هشام عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة . ويرويه أبو داود ومالك فى الموطأ، وغيرهم عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة وعن أم سلمة، وأن النبى ﷺ أمر بالاحتجاب منه .

ونص حديث مسلم : إن فتح الله عليك الطائف غدا فإنى أدلك على بنت غيلان، فانها تقبل بأربع، وتدبر بثمان، فسمعه رسول الله ﷺ فقال : « لا يدخل هؤلاء عليكم » . وفى رواية : كان يدخل على أزواج النبى مخنث، فكانوا يعدونه من غير أولى الإربة، فدخل النبى يوما، وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة، قال : إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبى ﷺ : « ألا أرى هذا يعرف ما ههنا، لا يدخلن عليكن » قالت : فحجبوه، كما رواه البخارى أيضاً .

يقول النووى : يقال بفتح النون وكسرها، أى المخنث، وهو الذى يشبه النساء فى أخلاقه وكلامه وحركاته . وتارة يكون هذا خلقه من الأصل، وتارة يتكلف . وذكر أنهن سمحن بدخوله لأنهم كانوا يظنونه من غير أولى الأربة . فلما سمع منه هذا الكلام علم أنه من أولى الإربة فمنعه . وذكر أن حكمه حكم الخصى والمجبوب ذكره، وأن له حكم الرجال الفحول الراغبين فى النساء .

قال النووى : وكان نفيه لأمور ثلاث :

(١) أنه كان يظن أنه من غير أولى الإربة، ثم ظهر أنه منهم، ويتكتم ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٣٥ .

(٢) وصفه النساء ومحاسنهن وعوراتهن بحضرة الرجال . وقد نهى أن تصف المرأة المرأة لزوجها، فكيف إذا وصفها الرجل للرجال[١]؟

(٣) أنه ظهر له منه أنه كان يطلع من النساء وأجسامهن وعوراتهن على ما لا يطلع عليه كثير من النساء، فكيف الرجال؟ لاسيما على ما جاء في غير صحيح مسلم أنه وصفها حتى وصف ما بين رجليها، أى فرجها وحواليه .

وقال العلماء : المخنث ضربان، أحدهما مَنْ خُلق كذلك، ولم يتكلف التخلق بأخلاق النساء وزيهن وكلامهن وحركاتهن، بل هو خلقة خلقه الله عليها . فهذا لا ذم عليه ولا عتْب، ولا إثم ولا عقوبة، لانه معذور لا صنع له فى ذلك . ولهذا لم ينكر النبى أو لا دخوله على النساء، ولا خلقه الذى هو عليه حين كان من أصل خلقته، وإنما أنكر عليه بعد ذلك معرفته لأوصاف النساء، ولم ينكر صفته وكونه مخنثا .

الضرب الثانى من المخنث هو من لم يكن له ذلك خلقة، بل يتكلف أخلاق النساء، وحركاتهن وهيأتهن وكلامهن، ويتزيا بزيهن . فهذا هو المذموم الذى جاء فى الأحاديث الصحيحة لعنه . وهو بمعنى الحديث الآخر « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين بالنساء من الرجال » . وأما الضرب الأول فليس بملعون، ولو كان معلونا لما أقره أولا . « صحيح مسلم بشرح النووى ١٤ ص ١٦٣ ، ١٦٤ » . وروى البخارى وأحمد عن ابن عباس، والبخارى وأبو داود وابن ماجه عن أم سلمة « أخرجوا المخنثين من بيوتكم » .

(شرح ألفاظ هيت)

تبنت = صارت كالمبناة من سمنها . قال ابن الأثير : أى فرجت رجليها لضخم ركبها، أى فرجها . كأنه شبهها بالقبة من الادم . وهو يقارب وصفه لما بين رجليها بالاناء المكفوء . تغترق الطرف = تستولى على النظر وتستغرقه . لاهية = غير محتفلة . نزف « بضم فسكون، وتحرك للضرورة » = خروج الدم، يريد : لونها

---

(١) يقول النبي ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه يراها » رواه البخارى وأحمد والنسائى وأبو داود عن ابن مسعود .

أبيض مع صفرة . الشكول = الضروب والنظائر . القصد = المتوسطة . جبلة = غليظة . قضف = دقة ونحافة . تقبل بأربع، وتدبر بثمان = أربع عكن وثمان عكن . والعكنة = ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . فالمرأة إذا أقبلت عكنتان فى كل جانب . ولكل عكنة طرفان يظهران من الخلف، فيكون لها أربع عكن فى كل جانب إذا أدبرت . فمجموعه ثمانية . أهـ. بتصرف من شرح النووى لمسلم ج١٤ ص ١٦٣ .

(جـ) مما يلحق بالمحارم أيضاً الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، أى مبلغ الرجال .

(د) النساء . يقول القرطبى « ج١٢ ص ٢٣٣ » : المراد بهن المسلمات . ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم، فلا يحل للمؤمنة أن تكشف شيئا من بدنها لهن إلا أن تكون أمة لها .

وكان ابن جريج وعبادة بن نُسَىّ وهشام القارىء يكرهون أن تقبل النصرانية المسلمة أو ترى عورتها . قال ابن عباس : لا يحل للمسلمة أن تراها يهودية أو نصرانية، لئلا تصفها لزوجها . أهـ. وسيأتى فى كتاب عمر إلى أبى عبيدة فى منع دخول النساء المسلمات الحمام مع النساء الكافرات والمسألة فيها خلاف للفقهاء لاداعى للتطويل بذكره . وقد كان الشيخ الشربينى من مشايخ الإسلام بالأزهر متمسكا بعدم رؤية المرأة الكافرة للمرأة المسلمة، فلم يسمح لزوجة « كرومر » أن تسلم على زوجته[١] .

فعورة المرأة بالنسبة لهؤلاء الأربعة كعورتها مع المحارم . وهى المنطقة الواقعة بين السرة والركبة . وقيل : كل بدنها ماعدا ما يظهر حال الخدمة والتصرف« شرح النووى لصحيح مسلم ج٤ ص ٣١ » . وقال ابن حزم فى المحلى « ج ١٠ ص ٣٢ » : المسألة ١٨٧٨ – إن للمحرم أن ينظر إلى جسم حريمته، ماعدا الدبر والفرج . وكذا النساء بعضهن من بعض .

---

(١) مجلة النذير عدد ٢٢٦ وفى الخطيب على أبى شجاع ج٢ ص ١٢٢ : حرمة نظر الكافرة إلى المسلمة وهذا ما فى المنهاج، والأشبه – كما فى الروضة وأصلها – أنه يجوز أن ترى منها ما يبدو عند المهنة .

والتوسع فيما يرى من المرأة بالنسبة للأقارب ومن فى حكمهم يعلله الزمخشرى، فيقول: وإنما سومح فى الزينة الخفية أولئك المذكورون «الأقارب» لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم. ولما فى الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم فى الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك[1].

(٤) وعورة المرأة بالنسبة إلى الرجال الأجانب، أى غير المحارم. وهم الذين يحل لهم نكاحها. فقد اختلف الفقهاء فى تحديدها. وكان اختلافهم راجعا إلى الاختلاف فى تحديد الزينة الظاهرة، وكيفية الضرب بالخمار على الجيوب وإدناء الجلاليب. وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ وقوله أيضاً ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ** ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(أ) فالزينة قيل: هى ما يتزين به. وقيل: هى مواضع ما يتزين به. قال القرطبى: الزينة قسمان، خلقية ومكتسبة، فالخلقية وجهها، والمكتسبة كالثياب والحلى والخضاب والكحل. ومنه قوله تعالى: ﴿ **خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف: ٣١]. أهـ.

والذى يتزين به كثير، يختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والأزمان والعصور. وقال العلماء: أنه ينقسم إلى قسمين، ظاهر وباطن.

والظاهر قال عنه ابن مسعود: أنه هو الثياب. وقال ابن عباس وقتادة والمسوربن مَخْرمة: هو الكحل والفَتَخ وهى الخواتم الكبار فى الأيدى، والخضاب إلى نصف الذراع.

ومثل الخضاب جميع الأصباغ التى فى الوجه واليدين بأسمائها الحديثة، ومثل الفتخ والخواتم الشّناف فى الأنف.

---

(١) المرأة فى القرآن للعقاد ص ١٠٤.

والباطن منه الإكليل في الرأس، والقلادة فى العنق، والدُّملّج فى العضد، والخلخال فى الرجل. ومن أكليل الرأس التيجان الحديثة والزهور والأشرطة بكل أنواعها. أهـ. والسوار فى المعصم، والقرطة فى الأذن فيها خلاف، فقد عدها ابن عباس وقتادة والمسور فى الزينة الظاهرة، وعدها غيرهم فى الزينة الباطنة.

والزينة الظاهرة، على الخلاف فى تحديد أنواعها، يباح للمرأة ان تبديها لكل من دخل عليها، أو رآها من الناس عامة، لآية ﴿ **إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾.

أما الزينة الباطنة فيحرم كشفها لغير المحارم ومن ألحق بهم، لآية ﴿ **إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ....** ﴾ على أن بعض العلماء استثنى من الزينة الباطنة ما لا يجوز كشفه لهؤلاء المحارم، بل للزوج فقط. وذلك لشدة حساسيتها فى مواضعها، وذلك مثل الخلخال والدملج والقلادة. لقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ** ﴾ وهو نصوص فى الخلخال، وغيره بمثابته، فلهذا النوع نهى خاص غير إبداء الزينة للبعولة ومن بعدها.

وهذا الزينة بقسميها لها مواضع، ومنها ظاهر ومنها باطن. فمن المواضع الظاهرة: الوجه والكفان إلى نصف الذراع. ذكر الطبرى عن قتادة، وذكر غيره عن عائشة أن النبى ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت، أى حاضت، وبلغت سن التكليف، أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هنا» وقبض على نصف الذراع «تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٢٨».

ومن المواضع الباطنة: الرجل التى يوضع فيها الخلخال، والنحر الذى توضع عليه القلادة، والأذن التى يوضع فيها القرط، على ما تقدم فيه من خلاف.

ولكن، هل النهى عن الابداء منصب على الزينة فقط أو على مواضعها فقط، أو عليهما معا؟ رأى بعض العلماء أن النهى منصب على الزينة نفسها. ومواضعها تبع لها. وقد يترتب على هذا الرأى أن يكون إبداء الزينة للأجانب، ولو فى غير هذه المواضع ممنوعا. وقد رأينا بعضهم يمثل للزينة الظاهرة بما يوضع فوق الملابس ويظهر للناس، بل نقل عن ابن مسعود. كما تقدم، أن الزينة الظاهرة

هي الثياب فقط، استنادا إلى قوله تعالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ لأن الآية، كما سبق ذكره. نزلت فيمن كانوا يطوفون عراة قائلين : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها. مع أنه لا خلاف فى حل النظر إلى الملابس. فالحق أن الخلاف لفظى.

ورأى البعض أن النهى منصب على مواضع الزينة، حتى لو لم يكن فيها زينة، فان الفتنة بها واضحة. وقالوا فى حكمة النهى عن الزينة لا عن مواضعها : ذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة فى الأمر بالتصون. والستر، لأن هذه الزينة واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء، وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن. فنهى عن إبداء الزينة نفسها ليعلم أن النظر إليها – إذا لم يحل لملامستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها من غير ملامسة لها لا مقال فى حله – كان النظر إلى المواقع نفسها متمكنا فى الحظر، ثابت القدم فى الحرمة، شاهدا على أن النساء حقهن أن يحتطن فى سترها. ويتقين الله فى الكشف عنها. نقله الشوكانى عن الزمخشرى فى الكشاف « نيل الأوطار ج٦ ص ١٢١ ».

ورأى البعض الثالث أن النهى منصب أصلا على الزينة ومواضعها معا، وظهر ذلك من تمثيلهم للزينة الظاهرة بأنها الثياب والوجه، كما قاله ابن جبير، وبأنها الثياب والوجه والكفان. كما قاله عطاء والأوزاعى.

وابن جبير أيضاً فى رواية عنه « تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٢٨ ».

قال القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن « ج ١٢ ص ٢٢٩ » : قال ابن عطية : ويظهر لى، بحكم ألفاظ الآية، أن المرأة مأمورة بألا تبدى وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة . ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك. « فما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء، فهو معفو عنه.

قال القرطبى : قلت : هذا قول حسن، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه

والكفين ظهورهما عادة وعبادة، وذلك فى الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعا إليها. يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها: أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما دخلت على رسول الله ﷺ، وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها: «يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. أهـ. وسيأتى كلام عن هذا الحديث.

(ب) أما قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ فقال بعضهم عند تفسيره: إن ضرب الخمار، وهو ما يستر الرأس، على الجيب، وهو فتحة القميص عند الصدر، وكان النساء فى الجاهلية يتركنها عارية، فتظهر منها جذوع الثديين وما بينهما، وهو فى المرأة عورة شديدة الإغراء يجب سترها خوف الفتنة – قالوا: إن ضرب الخمار على الجيب يستلزم ستر الوجه، لأنه طريق الخمار إلى الجيب. وعلى هذا يكون الوجه عورة يجب ستره، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقال آخرون: إن ضرب الخمار على الجيب لا يستلزم ستر الوجه، إذ يمكن ستر الجيب بلف طرف الخمار تحت العنق ورميه على الصدر، دون أن يغطى الوجه. وبهذا لا يكون الوجه عورة.

(جـ) وأما قوله تعالى: ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ فقد قال فيه المفسرون: إن المرأة فى الجاهلية كانت تسفر عن محاسنها، على ما سبق ذكره، وكان ذلك شائعا فى الإماء بنوع خاص. فإن بعضهن كان يستعمله للاتجار بالعرض، والتبرج وسيلة لإغراء الرجال بهن. وكان الفساق يتعرضون للمتبرجات، ولا يفرقون بين حرة وأمة. فأمرت الحرائر بإدناء الجلابيب عليهن، ليتميزن عن الإماء، ولا يتعرض لهن أحد. وبقى الأمر فى الإماء على ما كان عليه. وقد قيل فى ذلك: إن عمر رضى الله عنه اجتذب خمارا من فوق رأس أمة، لأنها تشبهت بالحرائر فى الستر. كما ذكره فى بدائع الفوائد ص ١٤١». وانظر كلام ابن عقيل فيما بعد.

غير أن ابن حزم قال: إن الحرة والأمة فى عورة المرأة سواء، فلا نص على الفرق بينهما. وما زعمه البعض من أن إدناء الجلابيب فى قوله تعالى: ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، كان للحرائر حتى لا يتعرض لهن الفساق فهو زلة عالم، أو وهلة فاضل، لأن فيه إطلاق الفساق على أعراض الإماء دون الحرائر، ومع أن الله حرم الزنى بأى امرأة كانت «مسألة ٣٤٩ ج ٣ ص ٢١٠ المحلى».

وإلى هذا أميل. إذ كيف يحول عمر بين الأمة وبين الستر والصيانة وتشبهها بالحرائر فى ذلك، مع أن الحفاظ على العرض مطلوب لكل منهما على السواء. وعمر معروف بغيرته الشديدة على الأعراض، وسيأتى أن غيرته صادفت اعتماد تشريع الحجاب من الله.

ويتلطف بعض العلماء، فيحمل صنيع عمر، على صحة روايته، على أنه رأى رآه سياسة لا دينا، وليس ذلك بشىء. فهل هناك فرق بين السياسية والدين فى الحلال والحرام.

أخرج حادثة جذب عمر لخمار الأمة الزيلعى فى «نصب الراية» وابن أبى شيبة، والبيهقى من بعض الطرق. ثم قال: والآثار عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك صحيحة. أهـ.

لكن ابن حزم قال: لا حجة فى أحد دون رسول الله ﷺ، ويشهد له ما أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف عن عائشة أن النبى ﷺ دخل عليها، فاختبأت مولاة لهم، فقال النبى ﷺ «حاضت»؟ فقالوا: نعم. فشق لها من عمامته، فقال «اختمرى بهذا». ذكره الألبانى فى كتاب «الحجاب» ص ٤٥، وابن تيمية يؤيد الفرق بين حجاب الحرة والأمة «ص ٤٦ فى المصدر السابق».

والذى يبدو لى أن المرأة المسلمة أمرت بالحجاب، سواء أكانت حرة أم أمة، على وضع قد يوجد اختلاف يسير فى تحديد ما يتحقق به الحجاب، وذلك ليفرق بين المسلمة والكافرة التى لم تؤمن ولم تستجب للحجاب. فالمحتجبة يعرف أنها مسلمة، ولا يطمع فيها الفاسق، الذى يولى وجهه نحو الكافرات السافرات.

وإدناء الجلابيب المذكور في الآية معناه: الإرخاء والسدل والجلابيب جمع جلباب، وفي تفسيره سبعة أقوال، أوردها الحافظ ابن حجر في «الفتح». أصحها أنه رداء الجسم كله من فوق إلى أسفل. بهذا فسره ابن عباس. وقيل: إنه المقنعة، وهو ما تقنع به المرأة رأسها. وقيل: هو الملحفة، وهو اللباس، كما قاله ابن كثير.

وإدناء الجلابيب بأي معنى ليس نصا في لزوم تغطية الوجه، إذ يمكن أن يستر الجسم بدون داع إلى ستر الوجه، كما يمكن أن يغطى به الوجه أيضاً. ومن هنا اختلف العلماء في كيفية التستر به.

فروى عن محمد بن محمد بن سيرين أنه سأل أبا عبيدة السلماني عن هذه الآية، فرفع ملحفة كانت عليه، فتقنع بها، وغطى رأسه حتى بلغ الحاجبين، وغطى وجهه، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر. وقال السدى: تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين. وعن ابن عباس وقتادة: تلوى الحجاب فوق الجبين، وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكن تستر الصدر ومعظم الوجه.

وقد رويت عن عبيدة السلماني صفة أخرى، فيها أن العين اليمنى هي التي تظهر، كما روى عن ابن عباس إبداء عين واحدة.

وإذا كانت النقول عن ابن عباس وغيره متخالفة، وتفاسير العلماء للإدناء غير متفق عليها كان لزوم ستر الوجه غير مقطوع به. وتوضيح هذه الكيفيات مذكور في تفسير القرطبي «ج ١٤ ص ٢٤٣».

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين فيؤذيهن، فإذا قيل له، قال: كنت أحسبها أمة، فأمرهن الله بأن يخالفن زى الاماء، ويدنين عليهن من جلابيبهن، وتخمر وجهها إلا إحدى عينيها.

وعلى ضوء ما ورد من تفسير هذه النصوص اختلف الفقهاء في تحديد

عورة المرأة بالنسبة إلى الرجل الأجنبى . والخلاف محصور فى الوجه والكفين فقط وفيما حولهما . أما باقى جسمها فمتفق على أنه عورة، وإليك البيان :

(١) قال الحنفية :

إن جسم المرأة كله عورة بالنسبة إلى الرجل الأجنبى، ما عدا الوجه والكفين . غير أن النظر إليهما بشهوة حرام . فلا تلازم بين كونهما غير عورة وبين جواز النظر إليهما . فعدم عورتهما لا يلزمها هى بسترهما، وإن ألزم الرجل بغض النظر عنهما . لقول النبى ﷺ «العينان تزنيان» وليس زناهما إلا النظر بشهوة، ولأن النظر سبب الوقوع فى الحرام فيكون حراما، إلا فى حالات الضرورة كالشهادة والخطبة .

وقد ورد فى كتاب «المبسوط» روايات عن الذراع هل هو عورة أولاً . والأصح أنه عورة . وصحح بعضهم أنه عورة فى الصلاة لا فى خارجها .

وورد حديث يجيز كشف قبضة بعد الكف من الذراع، وقد سبق فى ص ٧١ . وجاء فى الطبرى رواية أخرى « ج ١٨ ص ٩٣ » عن عائشة قالت : دخلت على ابنة أخى لأمى، عبد الله بن الطفيل، مزينة . فدخل النبى ﷺ فأعرض . فقالت عائشة : يا رسول الله إنها ابنة أخى وجارية، أى فتاة لم تتزوج، فقال : «إذا عركت المرأة، أى حاضت وبلغت، لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها، وإلا ما دون هذا» وقبض على ذراع نفسه، فترك بين معصمه وبين الكف مثل قبضة اخرى .

ونقل المودودى فى كتاب «الحجاب» هذا الحديث بلفظ : خرجت لابن أخى عبدالله بن الطفيل مزينة فكرهه النبى ﷺ فقلت . إنه ابن أخى يا رسول الله، فقال : «إذا عركت . . . وهو منقطع معضل»[١] .

---

(١) الحديث المنقطع كل ما لا يتصل إسناده برسول الله ﷺ أو بمن يروى عنه . والمعضل ما سقط من سنده راويان فأكثر . فهذا الحديث منقطع بالاعضال .

هذا الحديث رواه أبو داود عن عائشة ورواه ابن مردويه والبيهقى عن خالد بن دريك، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب والشوكانى فى نيل الأوطار، قال أبو داود : إنه مرسل، لأن خالدا لم يدرك عائشة . وفى إسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصرى نزيل دمشق مولى (ابن نصر) وقد تكلم فيه غير واحد، لكن تؤيده أحاديث أخرى .

وكما جاء الخلاف في الوجه والكفين جاء في المسترسل من الشعر. والأصح أنه عورة. وفي «التنوير» وشرحه: تمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين رجال، لا لأنه عورة، بل لخوف الفتنة أهـ!.

والحق أن البعض لا يهضم هـذا التعبير، فان النتيجة أنه يمنع كشـفه سـواء أكان عـورة أم غيـر عـورة. وكمـا في الكتب من خـلافات لفظيـة لا أثر لهـا في النتيجة المتفق عليهـا، وعلى حد تعبيرهم: إن الخلاف اللفظي يفيد في الأيمان والتعـاليق. كمن حلف أنه لا ينظر إلى عـورة، فهل يحنث إن نظر إلى وجه امـرأة أجنبيـة؟ فعلى رأي من قـال: إنه عـورة يحنث، وعلى رأي من لا يعـده عـورة لا يحنث.

(٢) أما الشافعية:

فقال بعضـهم: إن جسم المرأة كله عورة، حتى وجههـا وكفيهـا. وأما قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا**﴾ فيراد به، كما أراد الحنابلة بعد، ما كشفته الريح من الصدر والساقين. ولم يسعفهم الاستدلال بالآية للاحتمال، بل قالوا: إن الدليل هو اتفـاق المسلمين على منع النسـاء من الخروج سـافـرات الوجوه، فـالدليل هو الإجماع. ولأنه مظنة الفتنة، واللائق بمحاسن الشريعة سد الباب، والإعراض عن تفاصيل الأحوال كالخلوة بالأجنبية، فكأن الدليل عندهم أيضًا بعد الإجماع، أن ما يؤدي إلى المحظور فهو محظور. وكشف الوجه يؤدي إلى الفتنة وهي محظورة فيكون هو أيضاً محظورا. ونقل الرافعي والنووي هذا الاتفاق، وأقراه.

وجاء في «المهمات»: أن الجمهور قالوا: إن الوجه والكفين ليسا بعورة، اعتمادا على آية ﴿**إلا ما ظهر منها**﴾ وهو مفسر بالوجه والكفين. وقال البلقيني: إن الترجيح بين الرأيين بقوة المدرك، والفتوى على ما في المنهاج من كونهما عورة، ويحرم النظر إليهما ولو عند أمن الفتنة.

(٣) وقال المالكية:

ليس الوجه واليدان عورة، بمعنى أنه يجوز النظر إليهما، بشرط عدم خشية

الفتنة، وبغير قصد لذة. أما سترهما فقيل: يجب، وهو مشهور المذهب، وقيل: لا يجب، بل على الرجل أن يغض بصره. وقيل: يفصل بين الجميلة فيجب، وبين غيرها فيستحب. جاء فى صحيح مسلم أن جابرا ذكر أن امرأة سفعاء الخدين سألت النبى ﷺ عن كثرة النساء فى النار حيث رآها كاشفة وجهها وعرف أنها سفعاء، وروى أحمد أن أبا السنابل رأى سبيعة وهى متزينة بالكحل عقب ولادتها بعد وفاة زوجها سعد بن خولة فى حجة الوداع.

وجاء فى « خليل » وشرحه ومحشيه، فى باب مكروهات الصلاة: كراهة انتقاب المرأة، أى تغطية وجهها بالنقاب، وهو ما يصل إلى العيون، فى الصلاة وغيرها، لأنه من الغلو فى الدين. إذ لم ترد به السمحة. ما لم يكن من عادتهم ذلك.

وفى الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذى رحم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. قال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبى، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا وقد أبقاه الباجى على ظاهره.

وقال ابن محرز: وجه المرأة عند مالك وغيره من العلماء ليس بعورة. قال عياض: فى هذا كله عند العلماء حجة أنه ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها دائماً، فذلك استحباب وسنة لها، وعلى الرجل غض بصره. وبعد كلام قال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبى ﷺ. وقد نقل النووى فى شرح مسلم مثل ذلك عن القاضى عياض[1].

جاء فى صحيح البخارى[2]: باب قيام المرأة على الرجال فى العرس وخدمتهم بالنفس. روى عن سهل بن سعد قال لما عرَّس أبو أُسَيِّد الساعدى دعا رسول الله وأصحابه، فما صنع لهم طعاما، ولا قَرَّبَه إليهم إلا امرأته أم أسيد، بلت

---

(١) مذكرات التفسير للسنة الرابعة بكلية الشريعة بالأزهر، تأليف الشيخ العسكرى.

(٢) ج ٧ ص ٣٣ طبعة دار الشعب.

تمرات فى تور من حجارة – التور إناء يشرب فيه – بالليل، فلما فرغ النبى من الطعام أماثته – أى خلطته بالماء – له، فسقته، تتحفه بذلك.

ذكر الطبرى أن سلمة بن قيس كان أمير جيش، فأرسل رسوله إلى عمر، فوجده يطعم الناس ويرعاهم، ثم دخل بيته ومعه رسول سلمة، فطلب طعاما من أم كلثوم، وبينهما ستر، فأخرجت خبزا بزيت ومعه ملح، فقال: ألا تخرجين لتأكلى معنا؟ قالت: أسمع حس رجل، لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتنى كما كسا ابن جعفر امرأته، وكما كسا ابن الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته. قال عمر: أو ما يكفيك أن يقال: أم كلثوم بنت على، وامرأة أمير المؤمنين عمر؟ أهـ. لو صح هذا لكان مؤيدا لمذهب مالك[1].

(٤) والحنابلة:

قالوا: إن الوجه والكفين من المرأة عورة خارج الصلاة، باعتبار النظر لبقية يديها، لقوله ﷺ «المرأة عورة» رواه الترمذى، وقال: حسن صحيح. ويرون أن المراد بقوله ﴿**إلاَّ مَا ظَهَرَ منْهَا**﴾ بعد قوله ﴿**وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**﴾ استثناء ما ينكشف عن غير تعمد من المرأة، كأن تكشف الريح عن صدرها أو ساقيها، فإنه لا أثم عليها فى ذلك ولا حرج. أهـ. لكن يقال: إن النهى عن الإبداء موجه إلى المرأة، فهل ما تبديه الريح من عملها؟ يبدو أن الاستثناء منقطع على هذا الرأى، وإلا فكيف يستثنى من عملها ما ليس منه؟

هذا، وقد قال العلماء: إن عورة الأمة بالنسبة إلى الأجانب هى ما بين السرة والركبة، كعورة الرجل، ولا تطالب بستر ما عدا ذلك من جسمها. وعلى هذا يحمل ما جاء من عمر من إنكاره على الأمة التستر، وقد تقدم ذلك ورأى ابن حزم فيه ص ٧٤.

---

(١) أورد هذه الحكاية محمد حسين هيكل فى كتابه «الفاروق عمر» ناقلاً لها عن الطبرى: وفيها أن الذى حضر عند عمر هو «سارية». وأنها ردت عليه أخيراً بعد قوله: أو ما يكفيك.... فقالت: ما أقل غناء ذلك عنى. فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: ادن فكل، فلو كانت راضية لكان غذاؤنا أطيب مما ترى.

وقال ابن حزم فى المحلى « ج ١٠ مسألة ١٨٧٨ » بتحريم النظر بتعمد إلى شىء من المرأة، الوجه وغيره، إلا لضرورة تدعو إلى ذلك، لا يقصد منها منكر بقلب أو عين. وذكر حديثا من رواية الليث عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله أن أم عطية – أم المؤمنين[١] – أستاذنت رسول الله ﷺ فى الحجامة، فأذن لها، فأمر رسول الله أبا طيبة أن يحجمها. وكذب الزيادة التى جاءت من بعض الرواة، وهى: حيث إنه كان أخاها من الرضاعة، أو غلاما لم يحتلم.

وظهر قدم المرأة من العورة، بدليل أن النبى ﷺ لما نهى عن جر الذيول خيلاء، قالت أم سلمة: وكيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال « يرخين شبرا. فقلت: إذن تتكشف أقدامهن » . قال: « يرخينه ذراعا لا يزدن عليه » أخرجه الترمذى، وقال: حسن صحيح[٢].

وفى الحديث رخصة لجر النساء لذيولهن لتمام الستر. قال البيهقى: فى هذا دليل على وجوب ستر قدميها. وذكر الشوكانى نحوه فى نيل الأوطار. وجرى العمل على ذلك فى عهد النبى وبعده.

أخرج مالك وغيره عن أم ولد لابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنها سألت أم سلمة زوج الرسول ﷺ، فقالت: إنى امرأة أطيل ذيلى، وأمشى فى المكان القذر. قالت أم سلمة: قال رسول الله ﷺ « يطهره ما بعده » .

وعن امرأة من بنى عبد الأشهل قالت: قلت: يا رسول الله إن لنا طريقا إلى المسجد منتنة، فكيف نفعل إذا مطرنا، قال: « أليس بعدها طريق هو أطيب منها »؟ قالت: بلى. قال: « فهذه بهذه » . أخرج هذين الحديثين أبو داود فى سننه، الثانى باسناد صحيح، وصححه المنذرى، والأول صحيح لغيره، وصححه ابن العربى، وحسنه ابن حجر الهيثمى.

---

(١) عبر عنها بعد بأم سلمة، وليست هى أم عطية الأنصارية المعروفة. وأم سلمة هى أم المؤمنين. كما تكنى أسماء بنت يزيد بن السكن بأم سلمة « الزرقانى على المواهب ج ٥ ص ٥ » .

(٢) ورواه أيضاً النسائى « المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٢٥ » .

يقول الألبانى فى كتابه « حجاب المرأة المسلمة ص ٣٧ » : ومن أجل ذلك كان من شروط المسلمين الأولين على أهل الذمة أن تكشف نساؤهم عن سوقهن وأرجلهن، لكيلا يتشبهن بالمسلمات، كما جاء فى « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لابن تيمية ص ٥٩ . أهـ.

هل يفهم من هذا أن النظر إلى هذه الأجزاء من المرأة غير المسلمة جائز، وأن حرمة النظر خاصة بالمرأة المسلمة، مع أن حكمة تحريم النظر إلى العورة متحققة فى كل امرأة، لذات الجنس، لا لأجل العقيدة؟

نحن لا يعنينا الرأى فى الكافرة فى كشف عورتها بمقدار ما يهمنا نحن المسلمين من الحفاظ على أنفسنا من كل ما يسبب الفتنة والفساد. حتى لو جاز لها أن تكشف بعض عورتها فلنا أن ننهاها عن ذلك. من أجل مصلحتنا، لا أن نأمرها بالكشف الذى يشجعها أو يشجع غيرها على الفساد، كما نمنع الذمى من إظهار الخمر للناس، وإن جاز له أن يشربها بعيدا عن أعين المسلمين.

إن هذه النقطة تحتاج إلى تحرير أكثر. فإن الفتنة بنساء الكفار قوية طاغية فى هذه الأيام، وسفورها شجع نساء المسلمين على تقليدها فى كثير مما يأباه الشرف والدين.

وبعد، فهذا ما جاء فى عورة المرأة. وإذا كانت الروايات والتفاسير لم تتفق على كيفية الستر فى الآيتين، وإذا كان الفقهاء لم يتفقوا على تحديد العورة والزينة الظاهرة، وبخاصة فى الذراع، فهل يمكن أن نقول : يرجع فى ذلك إلى مقصود الشرع من هذه الأحكام، وهو ما سيذكر فى حكمة تشريع الحجاب، وتدور التفصيلات حول محوره؟

وهل يمكن أن يستفتى العرف فى هذه التفصيلات التى لم يقطع فيها برأى؟ على أن يراعى فى ذلك ظروف البيئة والعمل والظروف الأخرى، بشرط ألا يعارض ذلك نصا صريحا ثابتا، وأن يكون عرفا عاما تطرد به العادة أو تغلب، ولا يؤدى إلى فساد محقق يستوجب الحكم عليه تبعا له، إلى غير ذلك مما قالوه فى اعتبار العرف فى التشريع.

إن الأقوال تكاد تجمع على أن الفتنة هى مناط الحكم، ولكن ما هو حد الفتنة؟ لقد تقدم أنهم مختلفون فيه على أن المتفق عليه أن خروج المرأة وبروزها للرجال الأجانب بحالتها الراهنة محرم، لأنه فساد أو يجر إلى فساد كبير. وخلاف العلماء السابق إنما هو فى العورة إذا كانت المرأة بحالتها الطبيعية الخالية من كل المغريات.

● **ثانياً - عورة الرجل :**

لم يأت نص فى القرآن الكريم بتحديد عورة الرجل، ولا بالأمر بسترها، وإن كان يفهم من أمر النساء بغض أبصارهن أن فى جسم الرجل موضعا لا يجوز نظرهن إليه، وهو المصطلح على تسميته بالعورة، والاعتماد فى ذلك على الأحاديث. ومعلوم أن قوة الاعتماد على الأحاديث مستمدة من قول الله سبحانه : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧]. إلى جانب الأحاديث الواردة فى الأعتماد عليها فى التشريع، ولا مجال لإيرادها فى هذا المقام.

حد عورة الرجل يختلف باختلاف من ينظرون إليها، فهم إما رجال، وإما زوجته، وإما محارمه، وإما نساء أجنبيات.

(١) فعورة الرجل بالنسبة إلى الرجال هى المنطقة الواقعة بين السرة والركبة، على ما رآه الامام الشافعى وأبو حنيفة. مستدلين بمثل قوله ﷺ « عورة الرجل ما بين سرته إلى ركبته » رواه الدارقطنى والبيهقى عن أبى أيوب وورد مثله عن أبى سعيد فى مسند الحارث بن أسامة، وعن عبد الله بن جعفر عند الحاكم.

والمراد ببيان حد العورة فى الحديث سترها وعدم النظر إليها. ففى حديث آخر « لا تبرز فخذك، ولا تنظر إلى فخذ حى ولا ميت » رواه أبو داود وابن ماجه عن على. وعن محمد بن جحش قال : مر رسول الله ﷺ على معمر، وفخذاه مكشوفتان، فقال : « يا معمر غط فخذيك، فإن الفخذين عورة » رواه أحمد، ورواه البخارى فى تاريخه.

وقال النبى ﷺ مثل ذلك أو قريبا منه لرجل آخر، كما رواه، عن ابن عباس، الترمذى وأحمد، وحدث لجرهد الأسلمى، كما رواه مالك وأحمد وأبو داود والترمذى، وقال: حسن. وذكره البخارى فى صحيحه معلقا(١).

وقال أحمد ومالك فى رواية: إن العورة هى القبل والدبر فقط وقال بذلك أهل الظاهر. وعلى هذا لا تكون الفخذ عورة. وجحتهم فى ذلك كشف النبى لفخذه فى بعض الأحيان، ونص عليه ابن حزم فى المسألة ٣٤٩ من كتابه «المحلى» ج ٣ ص ٢١٩. فعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان جالسا كاشفا عن فخذه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له، وهو على حاله. ثم أستأذن عمر، فأذن له، وهو على حاله. ثم استأذن عثمان، فأرخى عليه ثيابه. فلما قاموا قلت: يا رسول الله أستأذنك أبو بكر وعمر، فأذنت لهما وأنت على حالك. فلما استأذن عثمان أرخيت عليك ثيابك. فقال: «يا عائشة ألا أستحى من رجل والله إن الملائكة لتستحى منه» رواه أحمد. ورواه أيضاً من حديث حفصة بنحو ذلك.

ولفظه: دخل على رسول الله ﷺ ذات يوم، فوضع ثوبه بين فخذيه... وفيه: فلما استأذن عثمان تجلل بثوبه.

ورواه مسلم عن عائشة بلفظ: كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيتى كاشفا عن فخذيه أو ساقيه... وفيه: فلما أستأذن عثمان جلس.

وعن أنس أن النبى ﷺ يوم خيبر حسر الإزار عن فخذه، حتى أنى لأنظر إلى بياض فخذه. رواه البخارى «ج١ ص ١٦٦» وأحمد. وضبط لفظ «حسر» بالبناء للفاعل، والبناء للمفعول. وجاء فى بعض الروايات: وإن ركبتى لتمس فخذ نبى الله، وإنى لأرى بياض فخذيه.

---

(١) الإمامية «الجعفرية» قالوا: يجب على الرجل فى الصلاة ستر السوأتين، والأفضل ستر ما بين السرة والركبة، وكذلك فى غير الصلاة لا يجب على الرجل الا ستر القبل والدبر، ولكن يجب على الاجنبيات حبس أنظارهن عما عدا الوجه والكفين.

وعندهم يجوز للرجل أن ينظر إلى بدن امرأة محرم ما عدا القبل والدبر، وكذلك تنظر المرأة الى المحرم ما عدا السوأتين، وذلك كله بدون ريبة «الفقه على المذاهب الخمسة – محمد جواد مغنية».

ورد أصحاب الرأى الأول على ذلك بأن ستر الفخذ ثبت بأمر النبى ﷺ. أما كشفه فعن طريق حكاية حال. والاستدلال بالقول مقدم على الاستدلال بالفعل. كما أن القائلين بالأول أكثر من القائلين بالثانى. على أن رواية مسلم لم يرد فيها كشف الفخذ، بل ترددت الرواية بين الفخذ والساق. ومعلوم أن الساق ليست بعورة. وكشف فخذ البنى قد يكون واقعة خاصة به ليست للاتباع.

أما الركبة نفسها فقال الشافعى، فى قول: إنها ليست عورة، وقال أبو حنيفة: إنها عورة. وهو قول للشافعى أيضاً. وخلافهما مبنى على الخلاف فى فهم الأحاديث الآتية:

(أ) عن أبى موسى الأشعرى ان النبى ﷺ كان قاعدا فى مكان فيه ماء. فكشف عن ركبتيه، أو ركبته، فلما دخل عثمان غطاها. رواه البخارى. فكشفها يدل على أنها ليست بعورة، وتغطيتها يفيد أنها عورة. فالحديث صالح للاستدلال به على كلا الرأيين، على أنه ربما يقال: إن النبى كان كاشفا ركبته لضرورة وجود الماء خوفا من بلل الثوب، فلما حضر عثمان غطاها. أو يقال: كان كشفها عند عدم وجود أحد. لكن يعكر على هذه الرواية ما جاء فى رواية أخرى أن أبا بكر كان حاضرا، وكذلك حضر عمر وهو لم يزل كاشفا لها.

(ب) ورد عن عبد الله بن عمر أنه قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرجع من رجع، وعقب من عقب، أى أقام فى مصلاه بعد انتهاء الصلاة، فجاء رسول الله ﷺ مسرعا قد حفزه النفس، قد حسر عن ركبتيه، فقال «أبشروا، هذا ربكم قد فتح بابا من أبواب السماء، يباهى بكم يقول، انظروا إلى عبادى قد صلوا فريضة وهم ينتظرون أخرى» رواه ابن ماجه. فكشفها يدل على أنها ليست بعورة.

(جـ) عن أبى الدرداء قال: كنت جالسا عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبتيه. فقال النبى ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر، فسلم» وذكر الحديث، رواه البخارى. ومعنى «غامر» وقع فى الغمر وهو

الحقد والبغض. فإقرار النبى أبا بكر على كشف ركبتيه دليل على أنها ليست بعورة. أهـ.

وأما السرة نفسها فيرى الشافعى أنها عورة، ولا يراها عورة أبو حنيفة، ومثله ابن حزم. لأن حمزة نظر إلى سرة النبى ﷺ يوم بدر، كما رواه مسلم « ج٢ ص ١٢٣ ». ولكن تحديد العورة قد لا يكون فى أيام بدر، بل بعدها.

وقد ورد فى ذلك حديث عمير بن إسحق الذى يقول: كنت مع الحسن بن على، فلقينا أبو هريرة فقال: أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله ﷺ يقبل. فقال بقميصه، أى رفعه، فقبل سرته. رواه أحمد. وهو دليل على أن السرة غير عورة. ولكن رد عليه بأن تقبيلها من فعل أبى هريرة، وهو ليس تشريعا. أو بأن النبى ﷺ قبل الحسن وهو طفل. وفرق بين عورة الصغير والكبير.

(٢) وأما عورة الرجل بالنسبة لزوجته فقد تقدم أنه لا عورة بين الزوجين فيرجع إليه. ومما يدل عليه حديث الصحيحين عن عائشة. كنت أغتسل أنا ورسوله الله ﷺ من إناء بينى وبينه واحد، تختلف أيدينا فيه، فيبادرنى حتى أقول: دع لى، دع لى. قالت: وهما جنبان. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: واستدل به الداودى على جواز نظر الرجل إلى عورة امرأته وعكسه. ويؤيده ما رواه ابن حبان من طريق سليمان بن موسى أنه سئل عن الرجل ينظر إلى فرج امرأته، فقال: سألت عطاء فقال: سألت عائشة. فذكرت هذا الحديث بمعناه. وهو نص فى المسألة.

(٣) أما عورته بالنسبة إلى المحارم، وهن من يحرم عليه نكاحهن على التأبيد، بنسب أو رضاع أو مصاهرة، وهن المذكورات فى الجزء الأول من هذه الموسوعة. فهى كعورته بالنسبة إلى الرجال، أى ما بين السرة والركبة.

(٤) وعورته بالنسبة إلى النساء الأجنبيات قيل: إنها كعورته مع المحارم، ودليل ذلك حديث البيهقى «إذا زوج أحدكم أمته عبده أو أجيره فلا تنظر — أى الأمة — إلى عورته، والعورة ما بين السرة والركبة»[1]. وقد تقدم أن النبى ﷺ أمر بستر عورته حتى لا يراها أحد من الجنسين، وسترها عن النساء أولى.

---

(١) شرح الخطيب على متن أبى شجاع ج ١ ص ١٠٦.

وقال أصحاب هذا الرأي: إن الله لم يجعل عورة الرجل بالنسبة إلى المرأة كعورتها بالنسبة إليه، أى الجسم كله، أو ماعدا الوجه والكفين، لأن الرجل مضطر إلى الخروج والعمل لكسب العيش وللمهام الأخرى، وهى رسالته الأساسية، وذلك ميدانه الطبيعي الأصلى الذى لا ينبغى أن يزاحمه فيه جنس آخر إلا من ضرورة. فنفقة زوجته وأهله عليه، وهو مضطر فى سبيل الكدح إلى كشف جزء كبير من جسمه، خصوصا إذا كانت مهنته تقتضى ذلك. فلو كانت عورته كعورة المرأة لكان في ذلك حرج كبير. والشريعة بعيدة عن الحرج ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨].

أما المرأة فعملها الأساسى فى المنزل، وخروجها للكفاح نادر أو قليل. فجعل الشرع من تمام صيانتها أن يكون جسمها كله أو أكثره مستورا.

يقول الأمام الغزالى «الاحياء ٢ ص ٤٣»: ولسنا نقول: إن وجه الرجل فى حقها عورة كوجه المرأة فى حقه، بل هو كوجه الصبى الأمرد فى حق الرجل، فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط. فان لم تكن فتنة فلا، إذ لم يزل الرجال على مر الزمان مكشوفى الوجوه، والنساء يخرجن منتقبات، ولو كان وجوه الرجال عورة فى حق النساء لأمروا بالتنقب، أو منعوا من الخروج الا لضرورة. ومعناه أن المرأة لا تخرج لمهم عند كشف وجوه الرجال، بل تخرج لضرورة فقط.

هذا، والمرأة يحرم عليها نظر عورة الرجل بنص قوله تعالى: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ ولحديث البيهقى المتقدم. أما نظرها إلى غير هذه العورة فجائز. وذلك بغير شهوة باتفاق العلماء. وسيأتى توضيح حكم النظر.

وقال جماعة: «جسم الرجل كله عورة بالنسبة إلى المرأة، بمعنى أنه يحرم عليها أن تنظر إليه، وان كان لا يجب عليه ستر جسمه، للحكمة السابق ذكرها فى الرأى الأول.

ويشهد لأصحاب هذا القول أن النبى ﷺ أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد فى بيت أم شريك، بعد أن طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص ثلاثا، ثم قال: «تلك امرأة يغشاها أصحابى، اعتدى عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك ولا يراك» قال القرطبى[1]: قد استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجال على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة، كالرأس ومعلق القرط. وأما العورة فلا.

ويؤيد هذا قول النبى ﷺ لأم سلمة وميمونة بنت الحارث عندما دخل عليهما ابن أم مكتوم. وذلك بعد أن أمر بالحجاب، «احتجبا منه» فقالت أم سلمة: إنه أعمى لا يبصرنا. فقال ﷺ: «أفعميا وان أنتما، ألستما تبصرانه»؟ رواه أبو داود وأحمد والترمذى عن أم سلمة وصححه. ورواه النسائى وابن حبان[2].

جاء فى القرطبى أن هذا الحديث معلول بأن راويه عن أم سلمة «نبهان» وهو ممن لا يحتج بحديثه. ثم قال: وعلى تقدير صحته فذلك من النبى ﷺ تغليظ على أزواجه لحقهن، كما غلظ عليهن فى الحجاب.

ومحل الاستشهاد أن ابن أم مكتوم كان ساترا لما بين سرته وركبته بالطبع، والمكشوف منه أجزاء وراء ذلك.

وسيأتى فى حكم النظر ما اعترض به من سماح النبى لعائشة بالنظر إلى الحبشة وهم يلعبون.

ونقل عن ابن العربى ما يفيد أن المرأة لا تطلع من الرجل على شىء منه، معللا إيثار اعتدادها فى بيت ابن أم مكتوم على بيت أم شريك، بأن الثانية يكثر

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٢٨.

(٢) الجامع الكبير للسيوطى، حديث رقم ١٨٨ / ٣٨٥٥ عدد ١ ج ١ طبع مجمع البحوث.

دخول الرجال عليها، فيكثر الرائى لفاطمة، وفى بيت الأول لا يراها أحد، فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى، فرخص لها فى ذلك، أى أن نظر الرجال إليها، ونظرها إلى الرجال كله حرام، لكن الثانى يمكن التحرز منه، أو يقل التعب فى مراعاته عند ابن أم مكتوم.

وجاء فى أسد الغابة فى ترجمة « جُمهان » الأعمى أن أم سلمة كانت عند رسول الله ﷺ، فجاء جمهان الأعمى، فقال رسول الله ﷺ « استترى » منه » قالت: يا رسول الله، جمهان الأعمى؟ قال: « إنه يكره للنساء أن ينظرن إلى الرجال، كما يكره للرجال أن ينظروا إلى النساء » .. لم يخرج هذا الحديث.

* * *

الفصل الثانى

ستـــر العـــورة

ستر العورة مطلوب شرعاً أو عقلا حتى لو كان الانسان خاليا ليس معه أحد[1]، وقد أدرك سيدنا آدم بفطرته شناعة كشفها، فلما بدت له سوأته بعد أن أكل من الشجرة استحيا أن يتركها مشكوفة، فأخذ هو وحواء يخصفان عليهما من ورق الجنة، كما حكاه القرآن الكريم.

والأحاديث التى مرت تدل على أن سترها مطلوب، وكذلك غيرها من الأحاديث.

وقد شدد الإسلام فى ستر العورة، وحذر من الأهمال فيه، وعد ذلك رجوعا بالمجتمع إلى الوراء، والإسلام، وهو دين التقدم والارتقاء بالبشرية، يأخذ بالمجتمع فى تشريعاته وآدابه إلى المستوى الرفيع، ولا يجارى الأوضاع الفاسدة، أو يقر الرواسب العفنة المتخلفة عن الجاهلية.

وإلى جانب النصوص التى سبقت قال النبى ﷺ للمِسْور بن مَخْرمة، لما انحلَّ إزاره، وهو يحمل الحجر «ارجع إلى ثوبك فخذه، ولا تمشوا عراة» رواه مسلم «ج٤ ص ٣٤». وهو أمر عام للرجال والنساء. وإذا حمل على الرجال فقط، فيكون الأمر للنساء من باب أولى. كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾. والتعبير بالجاهلية الأولى يشعر بالذم الشديد. قال تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٠].

وعن فَضَالة بن عبيد عن النبى ﷺ «ثلاثة لا يُسأل عنهم، رجل فارق الجماعة، ورجل عصى إمامه فمات عاصيا، فلا يسأل عنهما. وامرأة غاب عنها

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٣٦٠، ٣٦١.

زوجها وقد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده، فلا يسأل عنها رواه الطبراني والحاكم وصححه[1]. والسؤال المنفى هو سؤال الرحمة. أو المراد بهذا التعبير أن نهايتهم وهى النار معروفة، فلا فائدة من سؤالهم، ولكن مع ذلك سيسألون، فالسؤال عام للجميع.

وهل الأمر بستر العورة للوجوب أو الندب؟

قال جماعة بالوجوب، وقال آخرون بالندب، وحجة الآخرين حديث «فان استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها» وقد تقدم فى ص ٦٤، حيث ان الأمر بالستر معلق على الاستطاعة، وهى قرينة رأوا أنها تصرف الأمر عن الوجوب إلى الندب.

ورد عليه بأن الشرط، وهو الاستطاعة، ذكر للتهييج والإلهاب، أى الحض الشديد، والستر مستطاع لكل أحد، فإذا كان هناك من يعجز عنه، وذلك نادر، فلا يكلف.

وإذا كان ستر العورة مطلوبا فإن هناك حالات استثنائية يجوز فيها كشفها، منها:

(١) ما نص عليه فى الحديث المذكور فيما سبق وهو قضاء الحاجة، أى البول والغائط.

(٢) المباشرة الجنسية، كما جاء فى الحديث المذكور أيضاً، وإن كان الستر مرغبا فيه فى هذه الحالة، لحديث «إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجردن تجرد العَيْرين» والعَيْر هو الحمار. رواه ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد السلمى. ورواه البزار من حديث أبى هريرة عنه، والطبرانى من حديث عبد الله بن مسعود. وروى النسائى فى عشرة النساء من حديث عبد الله بن سرجس أن النبى ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم أهله فَلْيُلْقِ على نفسه ثوبا، ولا يتجردن تجرد العيرين»[2] ضعفه العراقى[3].

---

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٩٧.   (٢) انظر «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى. مادة: عير.
(٣) الجامع الكبير طبعة مجمع البحوث ج ١ ص ٣٠٣.

والنظر إلى الفرج نفسه قيل : إنه مكروه، يدل عليه حديث عائشة « ما رأيت ذلك منه، ولا رأى ذلك منى » ذكره القرطبى « ج١٢ ص ٢٣٢ » بغير إسناد ولا تخريج . وعلق عليه البعض بأنه ليس صريحا فى الكراهة، لجواز أن يكون ذلك حياء وهيبة فقط، فهو أمر يرجع إلى الطبيعة ليس من وحى التدين . وجاء فى حديث آخر مرفوع أن النظر إلى الفرج يورث الطمس » أى العمى . ذكره القرطبى أيضاً بدون إسناد . لكن ابن الصلاح صحح إسناده، مخالفا بذلك حكم ابن حبان وغيره عليه بالضعف وابن الجوزى بالوضع، وقول ابن عدى : إنه منكر[١] .

ومهما يكن من شىء فإن الأولى التنزه عنه، ما لم تكن هناك حاجة إليه . وابن حزم، فى المسألة ١٨٧٨ ج١ من المحلى، جوز للزوجين نظر فرج أحدهما دون كراهة أصلا، بل جوز غيره أكثر من النظر . وذلك أن أمهات المؤمنين كن يغتسلن مع رسول الله ﷺ من الجنابة من إناء واحد، وكان النبى ﷺ بغير مئزر ، كما فى رواية ميمونة . ويعجب ابن حزم من جواز وطء الفرج ومنع النظر إليه، وسخف الأثر المروى عن مجهولة أن أم المؤمنين قالت : ما رأيت فرج رسول الله قط . وعن رواة آخرين ساقطين .

(٣) كما يجوز كشف العورة عند الحاجة إلى العلاج والتمريض . على أن يقتصر منها على قدر الضرورة، وأن تؤمن الفتنة، ولا تكون خلوة، ولا يوجد معالج من جنسه ولو غير مسلم . ودليل ذلك أن النبى ﷺ أذن لأم سَلَمَة، أو أم عطية – كما تقدم فى ص ٨٠ – أن يحجمها أبو طيبة وكذلك ما ورد من مصاحبة النساء للجيش لمداواة المرضى، على ما سيأتى توضيحه .

(٤) ويجوز كشفها للشهادة، ليتحملها الجنس الآخر فيما يدخل فى اختصاصه ففى كتب الفقه الشافعى أنه يجوز للنسوة أن ينظرن إلى ذكر الرجل

(١) انظر الجامع الكبير ج١ ص ٤٩٢ .

إذا ادعت المرأة عبالته أى طوله، وامتنعت عن التمكين[١]. وفى كتب الحنابلة أنه يجوز تحقيق ذلك عند اجتماع الزوجين[٢].

(٥) ويجوز كشفها لتحقيق جناية مثلا، وإصدار حكم يتوقف على ذلك. فكشف العورة فى هذه الحالة وسيلة لإحقاق الحق، ولهذا كان جائزا غير ممنوع.

(٦) وقال العلماء فى النساء العجائز اللاتى لا مطمع فيهن ويلزمن البيوت غالبا: إنه يجوز لهن التخفف من بعض الساتر وهو الخمار الموضوع على الرأس. فإذا تركته وبدا بعض شعرهن فلا حرج فى ذلك عند رؤية أجنبى له. فإن الفتنة مأمونة، بل النفور هو الشعور الأول غالبا عند رؤية الشيب فى العجائز. قال تعالى: ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٠].

وفسرت القاعد – مفرد القواعد – بالعجوز التى قعدت عن التصرف من أجل كبر السن، وقعدت عن الولد والمحيض. قال ربيعة: هى التى إذا رأيتها تستقذر من كبرها.

وإذا جاز لها وضع الخمار، أى كشف شعرها، فإن ستره أفضل ﴿ **وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ** ﴾. وشرط الجواز ألا يكون هناك تبرج بزينة كوضع أصباغ وغيرها، لفتا[٣] للأنظار على الرغم من كبر السن، فإن ذلك حرام.

وقال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿ **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ ليس قيدا، بل هو وصف لواقع الحال. فإن القواعد اللاتى لا يرجون نكاحا من شأنهن ألا يتبرجن بزينة.

---

(١) شرح الخطيب على أبى شجاع ج ٢ ص ١٢١.
(٢) غذاء الألباب للسفارينى ج ٢ ص ٢٠.
(٣) الفعل: لفت ثلاثى، يأتى مضارعه على وزن يلفت، بفتح الياء، لا بضمها كما يقول العامة قال تعالى ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ [يونس: ٧٨] والمصدر «لفت لا «إلفات». واسم الفاعل لافت لا مَلفت. فليتنبه.

لكن ذهب بعض العلماء إلى أن العجوز كالشابة فى ستر شعرها، ومعنى الآية إذن هو إباحة وضع الجلباب الذى يكون فوق الدرع والخمار لكمال الصيانة، فالعجوز يجوز لها أن تضعه، أى لا تلبسه. قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما[1].

(٧) ومن الحالات التى يجوز فيها كشف العورة الحج، فللمرأة أن تكشف وجهها، بل جعله بعضهم واجبا، وخلاصة ما قالوه فى هذا الموضوع تعرف مما يلى:

موسم الحج يجتمع فيه الرجال والنساء فى زحام شديد. ومن أشد ما يكون الزحام عند الطواف ورمى الجمرات.

وقد تنبه عمر رضى الله عنه إلى خطورة هذا الزحام، فأرشد إلى تخصيص وقت لطواف النساء، منعا لما عساه يخل بالشرف أو يبعث الفتنة. وبعد عهد عمر ضعفت رقابة الحكام للسلوك العام للناس، كما ضعف الوازع الدينى فى النفوس، فكان بعض الماجنين يعمد إلى شهود موسم الحج من أجل العبث والتفرس فى وجوه الحسان أو الحديث إليهن. وأمر عمر بن أبى ربيعة فى ذلك مشهور[2].

ومن نوادره فى ذلك أنه تعرض لامرأة أبى الأسود الدؤلى « توفى ٦٩هـ وكانت جميلة فاتنة. فشكته إلى زوجها، فلما عاتبه على ذلك أنكر تعرضه لها، ثم عاد إلى التحرش بها، فأخبرت زوجها، فجاءه وهو جالس فى جماعة من القوم وقال له:

وإنى ليثنينى عن الجهل والخنا	**وعن شتم أقوام خلائق أربع**
حياء وإسلام وتقيا وأننى	**كريم ومثلى قد يضر وينفع**
فشتان ما بينى وبينك إننى	**على كل حال استقيم وتظلع**

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٣٠٩ .

(٢) توفى سنة ٩٣هـ.

تظلع = تعرج، والمراد يعوج سلوكك.

فخجل عمر، وقال: لن أعود إلى كلامها، ولكنه لم يطق صبراً، فأخبرت زوجها محتدة، فجاءه وقال له:

لأنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسـيـدنا لولا خـلائق أربع
نُكول على الجُلَّى وقُـرْبٌ من الخنا وبخل عن الجـدوى وأنك تُـبَّع

ثم خرجت ومعها زوجها مشتملا سيفه. فلما رآها أعرض عنها. فأخذ الدؤلي يردد قول جرير:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الحامي(١)

وإذا كان بعض الماجنين ينتهز فرصة موسم الحج للعبث، فإن بعض النساء كن يردن من شهود الموسم ترفيها عن النفس وتعرضا لمدح الشعراء بعرض جمالهن، وإن كان ذلك نادرا، وجاء في سياق بعض القصص عنهن فتنة الرجال بهن، وتصرفهم تصرفا لا يقره الدين.

ذكر الحصرى القيرواني في كتابه زهر الآداب «ج ١ ص ١٦٨ طبعة الحلبي» أن أبا حازم خرج يوما يرمي الجمار، فإذا هو بامرأة حاسر، قد فتنت الناس بحسن وجهها، وألهتهن بجمالها، فقال لها: يا هذه إنك بمشعر حرام، وقد فتنت الناس، وشغلتهم عن مناسكهم، فاتقى الله واستترى. فإن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ فقالت: إني من اللاتي قيل فيهن:

أماطت كساء الخز عن حر وجهها وأرخت على المتنين بردا مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

والشعر للحارث بن خالد المخزومي. فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله

---

(١) في تاريخ ابن خلكان أن هذا البيت للزبرقان بن بدر السعدي «حياة الحيوان الكبرى للدميري — ذئب» ونسب الى النابغة الذبياني، كما في عيون الأخبار لابن قتيبة «ج٤ ص ١٠٩ هامش». وليس في هذه الحكاية ذكر لأبي الأسود الدؤلي، كما في ابن خلكان وعيون الأخبار.

لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمّنون(١) .

ومن حوادث النساء فى الحج ما جاء فى المختار من شعر بشار . . أن سعيد بن المسيب الفقيه التابعى المشهور سمع منشدا يقول فى وصف النساء العفيفات فى الحج :

فلم تر عينى مثل سرب رأيته ... خرجن من التنعيم معتمرات
مررن بفخ ثم رحن عشية ... يلبين للرحمن مؤتجرات
ولما رأت ركب النميرى أعرضت ... وكن من أن يلقينه حذرات
دعت نسوة شم العرانين بُزّلا ... نواعم لاشعثا ولا غبرات
فأبرزن لمّا قمن يحججن دونها ... حجابا من القسِّى والحبرات
تضوّع طيبا بطن نعمان إذ مشت ... به زينب فى نسوة عطرات
يُخَبِّئن أطراف البَنَان من التقى ... ويخْرجن شطر الليل معتجرات

فقال سعيد : هذا والله مما يلذ سماعه . ثم قال :

وليست كأخرى وسَّعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات
وغالت ببَان المسك وحْفًا مرجلا ... على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت تَرَاءى بين جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات

---

(١) لقد فتن أبو حازم واستهواه كلامها فتصرف تصرفا خطأ وتابعه على ذلك أشياعه، والدين بأبى هذا الانهزام أمام الهوى . كما فتن الحارث بن خالد المخزومى بعائشة . وكان الحارث أميرا على مكة من قبل عن الملك بن مروان . وفى إحدى حجات عائشة بنت طلحة المتوفاة سنة ١٠١هـ على قول، أرسلت إليه أن يؤخر الصلاة حتى تفرغ من طوافها، فأمر المؤذن بتأخير الأذان حتى فرغت، ثم صلى بالناس . فأنكر أهل الموسم ذلك، فعزله عبد الملك، وأرسل إليه كتابا يؤنبه فيه، فلم يهتم به، لأنه كان يحب عائشة وقال فيها شعرا منه هذان البيتان، وقال : والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة إلى الليل .

وكانت عائشة تحب الخروج كثيرا للحج فى موكب من زميلاتها، وتباهى بحسنها، وتطرب للشعر يقال فيها كشعر عمر بن أبى ربيعة . وقد سألها ابن أبى ذؤيب عندما رآها تطوف وقال لها : من أنت؟ فقالت :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال لها : صان الله ذلك الوجه من النار . وبقية خبرها فى آخر الكتاب .

الشعر الأول لمحمد بن عبدالله بن نمير الثقفي، قاله في زينب بنت يوسف أخت الحجاج « زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ».

التنعيم = مكان في الحل للاحرام منه بالعمرة. فخ = موضع بمكة دفن فيه ابن عمر. مؤتجرات = طالبات للاجر. شم العرانين = مرتفعات الانوف حسا أو معنى. بزلا = بُدْنا أوَانس، القسى = ثياب منسوبة إلى « قس » موضع بين العريش والفرما في مصر. الوحف = الشعر الكثيف الأسود.

بعد هذا نعرض آراء الفقهاء في كشف وجه المرأة في الإحرام.

اختلف الفقهاء في جوازه ومنعه. فرأي بعضهم أن لها أن تكشفه، بل جعل الشافعية ذلك شعار إحرامها، ويحرم عليها أن تغطيه. ومما احتجوا به على ذلك حديث البخاري قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه وجعل النبي ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة، أفحج عنه؟ قال « نعم ».

وجه الاستشهاد أن النبي ﷺ لم يأمرها بستر وجهها، بل صرف عنه وجه الفضل، وهو حجة لمن قال: إن ستر وجه المرأة غير واجب، وعلى الرجل غض بصره. وجاء في رواية الترمذي أن العباس قال: يا رسول الله لويت عنق ابن عمك، فقال له « رأيت شابا وشابة، فلم آمن عليهما الشيطان » وكان الفضل رديف رسول الله، وكان حسن الشعر أبيض وسيما.

وهذا هو رأى ابن عقيل من علماء الحنابلة، فقد سئل عن كشف المرأة وجهها في الإحرام مع كثرة الفساد اليوم، أهو أولى أم التغطية مع الفدية؟ فأجاب بأن الكشف شعار إحرامها، ورفع حكم ثبت شرعا بحوادث البدع لا يجوز، لأنه يكون نسخا بالحوادث، ويفضي إلى رفع الشرع رأسا.

وجاء في جوابه: أن عمر جبذ السترة عن الأمة وقال: لا تشبهي بالحرائر، ومعلوم أن من الإماء من تفتن، لكنه لما وضع كشف رأسها للفرق بين الحرائر والإماء جعله فرضا. فما ظنك بكشف وضع للفرق بين النسك والإحلال؟ وقد

ندب الشرع إلى النظر إلى المرأة قبل النكاح، وأجاز للشهود النظر، فليس بدعا أن يأمرها بالكشف، ويأمر الرجل بالغض، ليكون أعظم للابتلاء، كما قرب الصيد إلى الأيدى فى الإحرام ونهى عنه.

ورأى آخرون أن كشف وجه المرأة ليس واجبا فى الإحرام ولا جائزا مع وجود رجال أجانب. ومن هؤلاء ابن القيم، كما جاء فى بدائع الفوائد، حيث قال:

إن النبى ﷺ لم يشرع لها كشف الوجه فى الإحرام ولا غيره وإنما جاء النص بالنهى عن النقاب خاصة. كما جاء بالنهى عن القفازين ولبس القميص والسراويل. وقال:

إن وجه المرأة يحرم شده بالمفصَّل على قده، كالنقاب والبرقع، كما يحرم عليها ستر يدها بالمفصل عليها كالقفاز. أما ستر اليد بالكم، وستر الوجه بالملاءة والخمار والثوب فلم ينه عنه البتة أهـ.

واستدل هؤلاء بما ورد أن أم سلمة قالت: كنا نكون مع النبى ﷺ ونحن محرمات، فيمر بنا الركب فتُسْدِل[1] إحدانا الثوب على وجهها من فوق رأسها. وربما قالت من فوق الخمار. رواه الطبرانى فى المعجم الكبير. وفيه يزيد بن أبى زياد، وثقه ابن المبارك وغيره. وروى عن عائشة نحوه، وجاء فيه: فإذا استقبلنا قوم أسْدَلْنا من غير أن يصيب وجوهنا. رواه أبو داود والأثرم وأحمد وابن ماجه.

وفسر هؤلاء كلامهم فى جعل وجه المرأة عورة فى الحج وغيره بأنه غير معقول أن يأمرها الله بستره فى جمع صغير، ويأمرها بكشفه فى الجمع الأكبر، وليس فى نصوص الأمر بالستر استثناء للمحرمة.

ونقل العينى عن ابن المنذر أنه قال: أجمعوا على أن المرأة تلبس المخيط كله، والخفاف، وأن لها أن تغطى رأسها، وتستر شعرها إلا وجهها تسدل عليه الثوب سدلا خفيفا تستتر به عن نظر الرجال ولا تخمِّره، وماروى عن فاطمة بنت المنذر

---

(١) سَدَل وأسدل، والثلاثى من باب نصر.

أنها قالت: كنا نخمر وجوهنا ونحن مُحْرِمات مع أسماء بنت أبى بكر، وهى جدتها، فمحمول على أن التخمير هو السدل، كما جاء عن عائشة.

وقال ابن قدامة فى المغنى «ج٣ ص ٣٠٥»: فأما إذا احتاجت إلى ستر وجهها لمرور الرجال قريبا منها فإنها تسدل الثوب من فوق رأسها على وجهها، روى ذلك عن عثمان وعائشة. وبه قال عطاء ومالك والثورى والشافعى وإسحاق ومحمد بن الحسن. ولا نعلم فيه خلافا.

ورد هؤلاء على حديث الخثعمية بأن العينى نقل عن ابن التين أنها سدلت ثوباً على وجهها، لكن رد هذا بأنه لم يصح عند من قال بكشف الوجه.

ورد الموجبون للكشف على استشهاد هؤلاء بحديث أم سلمة، بأن الحجاب فى الحج خاص بأمهات المؤمنين،لوجوب سترهن دائماً، وبأن ما حدثت به فاطمة بنت المنذر مع أسماء لا يحتج به أمام وقائع الرسول الثابتة. كما ردوا بأنه إذا لم يسلم بأن الستر خاص بأمهات المؤمنين فمن الجائز أن الساتر غير ملامس للوجه، بل كان فيه فاصل بينهما. وقد استبعد ذلك المانعون لكشف الوجه.

هذه هى المواضع التى يجوز فيها كشف العورة أمام الأجانب. وقد تحدث العلماء عن الإنسان إذا كان يغتسل فى مكان خال هل يقيم ساترا يمنع رؤية الناس له عند احتمال مرورهم به؟ فقالوا: إذا كان معرضا لأن يراه أحد طلب منه الاستتار، فقد ورد أن النبى ﷺ رأى رجلا يغتسل بالبراز، أى الفضاء، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن الله عز وجل حَيِىٌّ سِتِّير فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» رواه أبو داود والنسائى عن يعلى بن أمية. وأخرج النسائى عن أبى السمح قال: كنت أخدم النبى ﷺ فكان إذا أراد أن يغتسل قال «ولنى» فأوليه قفاى فأستره، ستير على وزن فعيل بمعنى فاعل، كما فى نهاية ابن الأثير، وفى شروح الجامع الصغير «ستير» بكسر السين وتشديد التاء، ومعناه يحب الحياء والستر.

وأخرج مسلم عن أم هانىء قالت : ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة تستره بثوبه. وروى أحمد عن أنس أن النبى ﷺ قال : «إن موسى بن عمران عليه السلام كان إذا أراد أن يدخل الماء لم يلق ثوبه حتى يوارى عورته فى الماء» وذلك مع أنه كان يغتسل وحده. فقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، أى منتفخ الخصية،، قال : فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه. قال فجمع موسى عليه السلام بأثره، أى أسرع، يقول : ثوبى حجر، ثوبى حجر. حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى عليه السلام، فقالوا : والله ما بموسى بأس. قال : فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربا.

وقد ذكر أن الحسن والحسين رضى الله عنهما، كانا يدخلان الماء وعليهما بردان. ولما سئلا عن ذلك قالا : إن للماء سكانا «نيل الأوطار ج١ ص ٢٢٧». ولا يعنينا هذا التعليل إلى جانب حرصهما على الستر.

وظاهر حديث اغتسال موسى وحده أن كشف العورة عند اليهود كان جائزا، وإلا ما أقرهم عليه موسى. وكان اغتساله وحده أخذا بالأفضل. قال الحافظ : وأغرب ابن بطال فقال : هذا يدل على أنهم كانوا عصاة له. وتبعه على ذلك القرطبى فأطال فى ذلك «نيل الأوطار ج١ ص ٢٧٦»، «إغاثة اللهفان ص ٤١٠».

والحديث عن الاغتسال واستحباب الستر يجرنا إلى الحديث عن الحمامات المبنية والحمامات المكشوفة، الصناعية منها والطبيعية، فتقول :

● **الحمامات :**

الحمامات أمكنة خاصة للاستحمام، وكانت للبيوت الموسرة حمامات خاصة بها، ثم أقيمت حمامات عامة للناس. وهى قديمة موجودة قبل الإسلام.

يقول المقريزى فى خططه « ج٣ ص ١٢٩ » : قال محمد بن إسحق فى كتاب « المبتدى » : إن أول من أتخذ الحمامات والطلاء بالنورة سليمان وإنه لما دخله ووجد حميمه قال : أواه من عذاب الله أواه! . وذكر المسبحى فى تاريخه أن أول من بنى الحمامات فى القاهرة « العزيز بالله نزار بن المعز » وكان بها ثمانون حماما فى سنة ٦٨٥هـ. وأقل حمامات كانت ببغداد زمن الناصر أحمد بن المستنصر ألفا حمام . أهـ.

ولهذه الحمامات آثار باقية إلى الآن بالشام، وهى آخذه فى الانقراض وقد ألف الحافظ ابن كثير كتابا فى الحمام، ووردت عنه أحاديث كثيرة لم يتفق على صحة شىء منها . قال المنذرى : وأحاديث الحمام كلها معلولة . وإن ما يصح منها فهو عن الصحابة « نيل الأوطار ج١ ص ٢٢٧ » .

ومن هذه الأحاديث ما يأتى :

(١) روى أبو داود وابن ماجه عن ابن عمرو أن النبى ﷺ قال : « إنها ستفتح لكم أرض العجم، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات . فلا يدخلنها الرجال إلا بالازار، وامنعوا النساء، إلا مريضة أو نفساء « نيل الأوطار ج١ ص ١٧٨ والترغيب ج١ ص ٦٥ » وقد تكلم فى هذا الحديث بما يضعف حجيته .

(٢) وأخرج المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » ج١ ص ٦٦ أن نساء من أهل حمص، أو من أهل الشام دخلن على عائشة، فقالت : أنتم اللائى تدخلن نساءكن الحمامات؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرأة تضع ثيابها فى غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها » رواه الترمذى وقال : حديث حسن . وأبو داود وابن ماجه والحاكم، وقال : صحيح على شرطهما . وروى معنى هذا الحديث عن أم سلمة حين دخل عليها نساء حمص . رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى والحاكم .

(٣) وعن طاووس عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « أحذروا بيتا يقال له

الحمام » قالوا : يا رسول الله ينقى الوسخ . قال « فاستتروا » رواه البزار وقال : رواه الناس عن طاووس مرسلا . قال الحافظ المنذرى : رواته كلهم محتج بهم فى الصحيح، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم، ورواه الطبرانى فى الكبير بنحوما رواه الحاكم « الترغيب ج١ ص ٦٥ » وصححه الألبانى .

(٤) عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحمام حرام على نساء أمتى » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد « الترغيب ج١ ص ٦٥ » .

(٥) وعن جابر قال، قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » رواه النسائى والحاكم وصححه . وحسنه الترمذى « المرجع السابق » وفى ص ٦٦ روى مثله عن طريق أبى سعيد الخدرى .

قال القرطبى فى تفسيره « ج١٢ ص ٢٢٤ » : حرم العلماء دخول الحمام بغير مئزر . وصح عن ابن عباس أنه دخل الحمام وهو محرم بالجحفة . فدخوله للرجال بالمآزر جائز، وكذلك للنساء للضرورة، والأولى بهن البيوت إن أمكن . وذكر حديثا لم يصح : أن النبى ﷺ لقى أم الدرداء عندما خرجت من الحمام فقال لها « والذى نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمهاتها إلا وهى هاتكة كل ستر بينها وبين الرحمن عز وجل » . وذكر حديثا هو أصح إسنادا عن طاووس عن ابن عباس، « تقدم تحت رقم ٣ » .

ثم يقول القرطبى : دخول الحمام فى زماننا حرام على أهل الفضل والدين، لعدم مراعاة الآداب فى ستر العورة، لاسيما بالديار المصرية ثم ذكر أن العلماء اشترطوا لدخوله عشرة شروط :

(١) أن يدخل بنية التداوى، أو التطهر من العرق أثر الحمى .

(٢) أن يتعمد أوقات الخلوة أو قلة الناس .

(٣) أن يستر عورته بإزار صفيق.

(٤) أن يكون نظره إلى الأرض أو الحائط، لئلا يقع على محظور.

(٥) أن يغير ما يرى من منكر برفق، نحو: استتر سترك الله.

(٦) إن دلكه أحد فلا يمكنه من عورته، من سرته إلى ركبته.

(٧) أن يدخل بأجرة معلومة بشرط أو بعادة الناس.

(٨) عدم الإسراف فى الماء.

(٩) إن لم يقدر على دخوله وحده اتفق مع أمناء على الدين على كرائه.

(١٠) أن يتذكر به جهنم.

وذكر حديثا فيه مدح دخول الحمام، لأنه يذكر الانسان بالنار، فيستعيذ منها ويسأل الجنة، وفيه ذم دخول بيت العروس، لأنه يرغبه فى الدنيا وينسيه الآخرة. ولكن الحديث ليس صحيحا.

وجاء فى القرطبى أيضاً أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة: أنه بلغنى أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين، فامنع من ذلك، وحُلْ دونه. فانه لا يجوز أن ترى الذمية عِرْية المسلمة. فقام أبو عبيدة وابتهل وقال: أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر لا تريد إلا أن تبيض وجهها فسود الله وجهها يوم تبيض الوجوه. أهـ « ج١٢ ص ٢٢٤ ».

وفى الشوكانى « ج١ ص ١٤٥ » أن رسول الله كان يدخل الحمام ويتنور، أى يستعمل النورة لإزالة الشعر. ولم يبين درجة هذا الحديث، مع أن الحمام لم يكن معروفا ببلاد العرب، أو لم يكن شائعا على الأقل. ويبدو، إن صح هذا الحديث، أن المراد به مكان منعزل يستحم فيه الشخص. وليس حماما عاما بالمعنى المعروف.

وإذا كانت الحمامات المبنية لا يرغب فى دخولها فما بالك بالحمامات

المكشوفة فى النوادى والساحات، وعلى الشواطىء التى لا يتلزم فيها حجاب بستر العورة ولا بعزل الجنسين بعضهما عن بعض؟ إنها أشد نكرا، على ما سيأتى الحديث عنها.

ومما تقدم يعرف أيضاً حرمة كشف المرأة عورتها وهى تزاول الألعاب الرياضية كالتنس وغيرها مما يحتم العرف فيها ارتداء ملابس قصيرة بمقاييس خاصة. وبالأولى يحرم رقص المرأة للرجال، وبخاصة بملابسها التقليدية المعروفة.

هذا، وإذا حرم على المرأة أن تكشف عورتها، وهى فى حالة طبيعية، فإن الحرمة أشد إذا كانت مع السفور زينة، ففى الحديث عن عائشة: بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ دخلت امرأة من مزينة تَرْفُل فى زينة لها فى المسجد، فقال ﷺ: « يأيها الناس إنْهَوْا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد، فان بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا بها فى المساجد » رواه ابن ماجه.. سيأتى مزيد توضيح لخطر السفور بعد.

ولا يقال: أن التبرج صغيرة من الصغائر، فإن الصغيرة مع الأصرار تكون كبيرة. خصوصاً إذا تبجحت المتبرجة وقالت: إنه غير حرام.

كما لا يقال: إن التبرج أصبح شيئا عادياً فلا تخشى منه فتنة، فإن هذا القول كذب واضح، لأن الجنس هو الجنس فى كل وقت، كما سيأتى توضيحه عند الحديث عن السفور.

إن المرأة التى لا تبالى بستر عورتها، خصوصاً إذا كانت ذات جمال وثراء، هى امرأة رقيقة الدين، لا ينبغى، وهى المستببة، أن تلوم من يعاكسها أو يعتدى عليها، وهى لن تسلم من ذلك أبداً، خصوصا فى أماكن الزحام.

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى: إذا كنت أعاقب من يغازل الفتاة مرة فأنا أعاقب الفتاة مرتين، لأنها كشفت اللحم للقط.

عن على رضى الله عنه قال : كنت ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقال : « أى شيء خير للمرأة »؟ فسكتنا جميعاً . ولما رجعت سألت فاطمة، فقالت : هو ألا ترى رجلا ولا يراها رجل . ثم أخبرت بذلك رسول الله ﷺ فقال : « فاطمة بضعة منى » أخرجه الأربعة، وقال الترمذى : حسن صحيح، وصححه ابن حبان . ورواه البزار عن على . وهوضعيف كما فى تخريج العراقى لأحاديث « الإحياء ج٢ ص٤٣ » وذكر أن أبا نعيم رواه فى الحلية من حديث أنس، وانظر أيضاً « الصبان على هامش مشارق الأنوار للعدوى ص ١٦٢ » .

وسيأتى النهى عن خروج المرأة متعطرة، ومنه حديث « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية . وكل عين زانية » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه الحاكم وصححه .

* * *

الفصل الثالث

مواصفات الساتر

المتعارف على الشيء الذى يستر العورة ليحفظ لها حرمتها ويمنع الفتنة بها هو اللباس أو الملابس التى اتخذت أشكالا وأنواعاً مختلفة فى مادتها أو هيئتها على مدى التاريخ، وتحكمت ظروف البيئة والعمل فى اختيار النوع الملائم للملابس. قال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٦] فالملابس نعمة من الله لأمرين، الأول مواراة السوأة أى العورة، والثانى التزين وحسن المنظر الذى فسر به «الريش» وأعظم لباس يحفظ للانسان كرامته كآدمى ويرفع شأنه كمتدين هو تقوى الله «يراجع أدب الدنيا والدين ص ٣٦٠».

والملابس التى يتحقق بها ستر العورة عن الأعين لابد أن تحقق فيها ثلاثة شروط أساسية.. إلى جانب شروط أخرى تبيح استعمالها من أجل منع الفتنة عامة.

(١) الشرط الأول أن تكون الملابس سابغة، بمعنى أن تكون ساترة لجميع العورة، على النحو الذى حدد من قبل، فلا تكون قصيرة مثلا تكشف عن ساق المرأة أو ذراعها، أو فخذ الرجل مثلا، ولا تكون فتحاتها واسعة تكشف بعض العورة، كفتحة العنق المسماة بالجيب فى اللغة العربية، ولا تبتدع فيها فتحات أو شقوق تكشف عن المفاتن.

ودليله الحديث المتقدم فى النهى عن إسبال الإزار، وما قالته أم سلمة للنبى إن نفذت المرأة ذلك فسينكشف بعض جسمها.

(٢) الشرط الثانى أن تكون الملابس سميكة بمعنى ألا تشف عما تحتها، فإذا رؤى الجسم من خلالها لا تعد ساترا شرعيا، كالملابس الرقيقة الشفافة التى تشيع بين النساء على وجه الخصوص، والتى تكون فيها كاسية عارية فى وقت واحد، وقد جاء النهى عنها فى عدة أحاديث منها:

(أ) « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد، نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، على رؤسهن أمثال أسنمة البخت المائلة، لا يرين الجنة، ولا يجدن ريحها . . ورجال معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس » رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة « ج١٣ ص ١٠٩ » قال النووى فى التعليق عليه : كاسيات من نعمة الله عاريات من شكرها، وقيل : معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه، إظهاراً بحالها ونحوه، وقيل : معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف لون بدنها . وأما مائلات فقيل : معناه عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه، مميلات أى يعلمن غيرهن فعلهن المذموم، وقيل : مائلات يمشين متبخترات، مميلات لأكتافهن، وقيل : مائلات يمشطن المشطة المائلة، وهى مشطة البغايا، مميلات يمشطن غير هن تلك المشطة . ومعنى رءوسهن كأسنمة البخت أن يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها[١] .

(٢) كانت السيدة عائشة إذا رأت على أحد النساء خماراً رقيقاً وضعته عنها، وأمرتها باتخاذ الكثيف، وتقول : الخمار ما وارى البشر والشعر[٢] . فرأت على حفصة بنت أخيها عبد الرحمن بن أبى بكر خماراً رقيقاً يشف عن جبينها، فشقته عائشة عليها وقالت : أما تعلمين ما أنزل الله فى سورة النور؟ ثم دعت بخمار فكستها . أخرجه ابن سعد، وسنده على شرط الشيخين، إلا أم علقمة واسمها مرجانة، ذكرها ابن حبان فى الثقات، وقال الذهبى لا تعرف . وقال مرة أخرى فى مختصره : إسناده قوى[٣] .

---

(١) وجاء فى هذا الحديث برواية أخرى . فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال :
سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سرج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف . العنوهن فإنهن ملعونات . لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمنهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم » رواه ابن حبان فى صحيحه واللفظ له . والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم « الترغيب ج٣ ص ٣٢ » .

(٢) كشف الغمة ص ٢٧٤ .

(٣) الحجاب للألبانى ص ٥٧ .

(جـ) تقدم فى ص ٧٣ حديث أسماء وقد دخلت على النبى وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها .... روى هذا الحديث أبو داود وابن مردويه والبيهقى عن خالد بن دريك عن عائشة وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ج٣ ص ٣٣ . والشوكانى فى نيل الأوطار ج٦ ص ١٢٢ . قال القرطبى فى تفسيره : إنه منقطع، أى لم يتصل سنده، وقال أبو داود : مرسل، أى سقط منه الصحابى، خالد لم يسمع من عائشة . وقال صاحب المغنى : إن صح فيكون قبل نزول آية الحجاب .

وفى تفسير القرطبى « ج١٢ ص ٢٣٠ » عند تفسير « وليضربن بخمرهن » دخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن، وقد اختمرت بشىء يشف عن عنقها وما هنالك، فشقته عليها وقالت : إنما يضرب بالكثيف الذى يستر . وقد ذكرت هذه الحادثة فى فقرة (ب) .

(٣) الشرط الثالث فى الساتر الشرعى أن يكون ثوب المرأة فضفاضا، بمعنى ألا يكون ضيقاً جداً بحيث يصف عظامها وتقاطيع جسمها، كما هو شائع الآن بين الكثير من النساء . وفى بعض الأحيان يفصل الثوب لاصقا بالجسم كأنه طبقة من دهان، لو رأى الإنسان لابسته من بعد، بل حتى من قرب لقال : إنها عارية لا تلبس شيئاً .

وهذا النوع من الملابس لا يصلح ساترا للعورة، لأنه ينم عنها ويدل عليها، وذلك بالنسبة إلى الرجال الأجانب، أما فى الصلاة فإنه يصلح ساترا للعورة على ما رآه الشافعية . وقد نهى الله المرأة عن الضرب بالأرجل ليعلم ما تخفى من زينتها وهو الخلخال، فكذلك ينهى عن كل ما يدل على الزينة المخفية، وعن البدن بتفاصيله التى هى أشد فتنة وإغراء .

وقد وردت فى النهى عما يصف نصوص كما وردت فى النهى عما يشف نصوص تقدمت . فمن النصوص التى تنهى عما يصف ما يأتى :

(أ) عن أسامة بن زيد قال : كسانى رسول الله ﷺ قُبطية كثيفة كانت مما أهدى له دِحْية الكلبى فكسوتها امرأتى، فقال : « مرها أن تجعل تحتها غلالة، فإنى

أخـاف أن تصف حـجم عظامـهـا » رواه أحـمـد . والغـلالة شـعـار يلبس تحت الثوب[١] . وأخرج نحوه أبو داود عن دحية بن خليفة . جاء فى القرطبى « ج١٤ ص ٢٤٤ » أن النبى ﷺ أعطى دحية الكلبى قبطية، فقال « اجعل صديعا — نصفا — لك قميصا، وأعط صاحبتك صديعا تختمر به » ثم قال له : « مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف » .

(ب) عن عبدالله بن أبى سلمة أن عمر بن الخطاب كسا الناس القباطى، ثم قال : « لا تَدَّرعها نساؤكم » فقال رجل : يا أمير المؤمنين قد ألبستها امرأتى، فاقبلت فى البيت وأدبرت، فلم أره يشف، فقال عمر : إن لم يشف فإنه يصف . أخرجه البيهقى، وقال : إنه مرسل، يعنى منقطع بين عبد الله بن أبى سلمة وعمر، لكن رجاله ثقات « الحجاب للألبانى ص ٥٨ » .

(جـ) وأخرج ابن سعد بإسناد صحيح إلى المنذر، وهو ثقة، وهو ابن الزبير، أنه قدم من العراق فأرسل إلى أسماء بنت أبى بكر بكسوة من ثياب مروية، أى من مرو، بلد بفارس، وقوهية، أى من قوهستان رقاق وعتاق، بعد ما كف بصرها . قال : فلما لمستها بيدها قالت : أف، ردوا عليه كسوته . قال : فشق ذلك عليه وقال : يا أمه، إنه لا يشف . قالت : إنها إن لم تشف فإنها تصف « الحجاب للألبانى ص ٥٧ » .

هـذه هى المواصفات اللازمة لتكون الملابس ساترا شرعياً للعورة لا تشف ولا تصف، وزاد العلماء شروطا فى الملابس لجواز لبسها لا لتحقيق سترها للعورة، منها :

(أ) ألا تكون الملابس معطرة لأنها تجذب الانتباه إليها، وتفتن الرجال

---

(١) وأخرجه أيضاً الضياء المقدسى فى الأحاديث المختارة، والبيهقى بسند حسن . وله شاهد من حديث دحية نفسه .

وروى ابن عمر أن النبى ﷺ قال لأسامة : « فمرها فلتلبس تحته ثوباً سفيقا لا يصف حجم عظامها للرجال » وهو حديث حسن، أو ضعيف « المطالب العالية ج٢ ص ٢٦٤ » . والسفيق هو الصفيق أى الغليظ الذى لا يشف .

بالمرأة، والدين يحذر من ذلك كما سيأتى النص عليه فى شروط خروج المرأة من بيتها .

(ب) ألا يكون اللباس للشهرة ولفت الأنظار، كالثياب المطرزة، لأنها تدعو إلى الفتنة، وفى الوقت نفسه يقصد بها الفخر والخيلاء، والإسلام نهى عن ذلك . ففى الحديث « من لبس ثوب شهرة فى الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارا » رواه ابن ماجه بإسناد حسن عن ابن عمر [1] .

وكالملابس الطويلة التى كان يلبسها كبار القوم ويُجَرُّ ذيلُها خلفهم دليلا على الغنى والجاه، وقد أمر النبى ﷺ بتقصير الثياب ونهى عن تطويلها . أخرج أبو داود والترمذى وصححه من حديث جابر بن سليم، فى حديث طويل جاء فيه « وارفع إزارك، وهو ما يستر أسفل البدن، إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة » . وفى حديث أبى هريرة عند البخارى وأحمد « ما أسفل من الكعبين من الإزار فى النار » . والمرأة لا تطيل الثوب الا بمقدار ما يستر عورتها، وقد مر فى ص ٨٠ حديث أم سلمة مع النبى ﷺ فى ذلك .

وإطالة المرأة العربية لثوبها تقليد متوارث عن هاجر أم إسماعيل، كما قاله ابن عباس، فإنها أول من أرخت ذيلها عندما جرت من « سارة » لتعفى أثرها « كشف الغمة ص ١٥٦ » .

(جـ) ألا يكون الساتر للعورة زينة فى نفسه، كالتاج الذى يوضع على الرأس، وكذلك « الباروكة » فإن ذلك وإن ستر الرأس يدعو إلى الفتنة بمن تلبسه، والنبى ﷺ نهى عن لبس الزينة لغير الأزواج، وحذر أن تكون المسلمة كاليهودية فى جذب انتباه الرجال بزينتها : وقد مر الحديث فى ذلك عندما رأى امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد .

(د) ألا يكون ثوب المرأة مشبها لثوب المرأة الكافرة، للنهى عن التشبه

---

(١) الترغيب ج ٣ ص ٤٢ .

بهم، فإن من تشبه بقوم فهو منهم[1]. وقد صح فى ذلك حديث «لَتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن غيرهم»[2]؟ وأعتقد أن هذا الشرط مهمل غاية الإهمال فى الأوساط الإسلامية، لأن المرأة المسلمة تحاول بكل ما أمكنها من جهد أن تتزيا بالأزياء الغربية مهما كلفها من ثمن، وقد استغل الكفار، واليهود بالذات، هذه الفرصة فتفننوا فى إبداع نماذج جديدة مغرية تكشف عن مفاتن المرأة قبل كل شىء، حتى يدوم الإقبال عليها، فكل جديد مرغوب فيه. ونحن نأسف لهذه المبالغ الطائلة التى تنفق على الأزياء، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى كل درهم للنهوض بالمجتمع الإسلامى وحماية وطنه وتحرير مقدساته.

(هـ) ألا يكون الثوب الذى تلبسه المرأة مشبها للثوب الخاص بالرجال. والعرف هو الذى يحدد ما يخص كلا من الجنسين. ففى الحديث «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال» رواه البخارى عن ابن عباس «الترغيب ج٣ ص ٣٦». وهذا فى التشبه بوجه عام، وجاء فى خصوص التشبه فى الملابس حديث «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لِبْسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل» رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه، وصححه الحاكم عن أبى هريرة «المصدر السابق». واللعن منصب على التشبه المقصود لا على مطلق الموافقة، كما سيأتى توضيحه فى بحث حقوق الزوجين.

هذا، وقد ورد النهى عن بعض أنواع من الملابس كانت موجودة فى عصر النبى ﷺ، أو أخبر أنها ستوجد، كما عمد كثير من نساء العصر إلى ابتكار

---

(١) كما ورد فى الحديث المرفوع، رواه أبو داود وأحمد عن ابن عمر. وحديث «ليس منا من تشبه بغيرنا» رواه الترمذى.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى «تقدمت هذه الأحاديث الثلاثة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة».

ملابس وأزياء جديدة نريد أن نعرف حكم الشرع فيها، مع التسليم بأن كل زى يستر العورة كلها بحيث لا يشف ولا يصف، وتحققت فيه المواصفات المذكورة من قبل فهو غير ممنوع.

(١) السروال «البنطلون» الذى يلبس فى الرجلين مشكوفاً لا يواريه رداء أو لباس آخر. لقد كان «البنطلون» الطويل معروفاً فى المجتمع العربى القديم ويسمى السروال، ويقال: إن أول من لبسه سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام. وروى أن النبى ﷺ لبسه، واشتراه، وأهدى إليه. كما أنه أمر بلبسه، وبخاصة للنساء، ففى الحديث «اتخذوا السراويلات، فإنها من أستر ثيابكم، وحصنوا بها نساءكم إذا خرجن» رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى عن على، وهو ضعيف «الجامع الصغير للسيوطى». وسئل الإمام أحمد عن السراويل فقال: «إنها أستر من الأُزُر».

الحق أن السراويل أستر للعورة فى الرجال والنساء، ولا عيب فيما يلبس منها الآن إلا أنها تحدد أعضاء المرأة وتبرز عجيزتها إبرازا مغرياً، مع انتقاء الألوان اللافتة للنظر، ولو أنها جعلتها من ألوان أخرى ولبست فوقها قطعة أخرى تستر المفاتن وتمنع تحديد الأعضاء ما كان بها بأس. لكن «الموضة» تأبى ذلك، فإن «البنطلون» عندما ابتدع حمل معه، ككل زى آخر مبتكر، خاصية إبراز مفاتن المرأة، وما أكثر مفاتنها فى كل ما يتفنن فيه الغربيون من أزياء، فلا: المينى ولا المكسى، ولا التايور، ولا البنطلون يتخلى أبداً عن إظهار فتنة فى المرأة، فهى القصد الأول لبيوت الأزياء.

أما البنطلون القصير «الشورت» فكان معروفاً عند العرب أيضاً ويسمونه التُّبَّان»[١] وكان قصيرا لا يستر إلا السوأتين. روى وكيع بإسناده أن عائشة كانت تأمر غلمانها بلبسها وهم محرمون «غذاء الألباب ج٢ ص ٢٠٢» لكنه لا يصح أن يكون سائرا للعورة التى حددت فيما سبق. لأنه قصير، فإن وارى الركبة صح

---

(١) ويجمع على تبابين.

للرجال لبسه، ولم يصح للمرأة أن تلبسه، كما تشاهد فى ممارسة بعض الألعاب الرياضية. فإنه قد قصر جداً حتى اكتفى بتغطيته للسوأتين فقط.

(٢) غطاء الرأس، له أشكال مبتكرة منها القبعة، ومنها العمامة أو العصابة، ومنها الباروكة، ومنها » الإيشارب.......... وللتقليد كما للبيئة دخل فى اختيار نوع من الأنواع. فإن تحقق فيها الستر الكامل للشعر كله وللرأس بكاملها وما يتصل بها، وانتفى فيها التشبه بالرجال والاغراء والفتنة وما إلى ذلك مما أشير إليه فلا بأس بها(١).

ولما كانت عصابة الرأس أو العمامة من خواص الرجال ورد الحديث بذمها، كما تقدم فى حديث « صنفان من الناس... ». وجاء فى كشف الغمة للشعرانى « ج١ ص ٢٠٠ » أن تميما الدارى كان يقول: سمعت النبى ﷺ ينهى النساء عن لبس القلانس — جمع قلنسوة — والنعال والجلوس فى المجالس، والخط بالقضيب، ولبس الإزار والرداء من غير درع.

تقول سميحة طاهر « أخبار اليوم ٦ / ١٠ / ١٩٧٣م »: عمامة الرأس للمرأة « التيربون » ظهرت فى العصر العباسى. ولبستها المرأة المصرية فى أوائل القرن التاسع عشر، وظهر تطريز الملابس بالأحجار الكريمة، وكذلك الحزام المطرز، فى العصر العباسى، كما ظهر فيه تقليعة « السيرتيت »(٢) التى تزين الجبهة وتلتف حول العمامة. وكانت من ابتكار أخت هارون الرشيد لإخفاء عيب فى جبهتها فأصبحت « موضة ».

وتقول أيضاً: أن زبيدة زوجة الرشيد كانت أول من ابتدع الأحذية المرصعة بالجواهر، والأحذية الحريرية. وكذلك من ابتداع العباسيين تطريز الأشعار على الأقمشة وأكمام الفساتين والمناديل وعلى ضفائر الشعر.

وكان ذلك كله فى البيت، أما المرأة فى الخارج فكانت تلبس فوق كل ذلك

---

(١) سيذكر حكم الباروكة عند بيان تجمل الزوجة لزوجها فى بحث حقوق الزوجين.

(٢) كلمة فرنسية معناها الحرفى: على الرأس.

العباءة والبرقع الشفاف على وجهها لحضور مجالس الخير. وكانت المرأة فى مصر أيام المماليك والفاطميين تحاكم إذا ظهر شيء من شعرها أو عنقها أو ساقها. ويغرم زوجها غرامة تتناسب مع ما ظهر من جسم امرأته.

(٣) الملابس العسكرية: مرت فترة على النساء أحببن فيها أن يحتلن على الظهور فى المجتمع بشكل أقوى تَعْرِضُ فيه المرأة ما عندها من مواهب أنثوية تحت ستار عمل خيرى أو وطنى. ففكرن فى الاشتراك فى خدمة الجيش، وبخاصة عند دخوله المعركة، ليؤدين الواجب الوطنى فى شكل خدمات طبية ونحوها، وكان من الممكن أن يتم ذلك، كما حدث بعد، وهى لابسة ملابسها العادية، لكنها طالبت بارتداء الزى العسكرى الخاص بالضباط، وحلينه بالنجوم والشارات وغيرها، وشعرت فى الاستعراضات بأنوثتها الطاغية، التى أنستها الخدمة التى تطوعت من أجلها، وأصبح همها الأكبر فى عرض مفاتنها فى ثوبها الجديد. وأغراها ذلك بعمل اتصالات والقيام بأنشطة أخرى لإشباع رغبتها أولا وقبل كل شيء، دون الاهتمام بالنتيجة العملية والوطنية من وراء ذلك كله.

وهذا تشبه واضح بالرجال، وعمل مقصود قصدا تاما لغزو المرأة لميادين الرجال. والدين لا يوافق على هذا أبداً، وقد ورد أن عبدالله بن عمرو بن العاص رأي أم سعيد بنت أبى جهل متقلدة سيفا، وهى تمشى مشية الرجل فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من تشبه بالرجال من النساء، ولا من تشبه بالنساء من الرجال» رواه أحمد والطبرانى «الترغيب ج٣ ص ٣٦». والمرأة فى زى الضباط لا تفترق عن الرجل أبدا فى شكلها العام، والنبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً، الديوث والرجلة من النساء ومدمن الخمر» رواه الطبرانى عن عمار بن ياسر[١].

* * *

(١) الترغيب ج٣ ص ١٠٤ والمنذرى ضبط لفظ «الرجلة» بكسر الجيم، أى المتشبهة بالرجل، ونص على ذلك فى ص ١٣٥ ج٣. وضبطها غيره بضم الجيم على أنها مؤنث رجل.

الفصل الرابع

النظر إلى العورة

● **أولاً- خطر النظر:**

يقول ابن القيم في الداء والدواء: النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل:

كل الحوادث مبْداها من النظر ... ومُعْظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فَتْكَ السهام بلا قوس ولا وتر

والعبد ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين الغيد موقوف على خطر

يَسُرُّ ناظرَه ما ضَرَّ خاطرَه ... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

والنظر إلى المحرمات يورث القلب حسرة، لأنه يتطاول إلى ما لا يدركه ولا صبر عنه.

ويقول ابن القيم أيضاً من قصيدة ذكرها في بدائع الفوائد:

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا ... أنت القتيل بما ترمي فلا تُصَبِ

وباعثَ الطَّرْف ترتاد الشفاء له ... تَوقَّه إنه يرتد بالعطب

ترجو الشفاء بأحداق بها مرض ... فهل سمعت ببُرْءٍ جاء من عطب؟

وبائعا طيبَ عيش ما له خطر ... بطيف عيش من الأيام منتهَب

غُبِنْتَ والله غبنا فاحشا فلو اسـ ... ترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب

شابَ الصبا والتصابي لم يشب سفَهاً ... وضاع وقتك بين اللهو واللعب

وشمس عمرك قد حان الغروب لها ... والفيء في الأفق الشرقي لم يغب

وفي الأقوال الحديثة: عينا المرأة بحيرتان تغرق فيهما وأنت على الشاطىء

وقال جرير:

إن العيون التي في طرفها حَوَر — قتلننا ثم لم يُحْيين قتلانا
يَصْرَعْن ذا اللب حتى لا حراك به — وهن أضعفُ خلق الله إنساناً

وتقدم قول معن بن زائدة:

نحن قوم تذيبنا الحَدَق النُّجْـ — ....لُ على أننا نذيب الحديدا
وترانا عند الكريهة أحرا — را وفي السلم للغواني عبيدا

ويقول أحمد بن صالح بن أبي فنن:

دعا طرفه طرفي فأقبل مسرعا — فأثر في خديه فاقتص من قلبي
شكوت إليه ما ألاقي من الهوى — فقال: على رَغْمٍ فُتِنْتَ فما ذنبي؟

ولغة العيون معترف بها من قديم الزمان، وللعرب في ذلك باع طويل في مأثوراتهم الشعرية والنثرية يقول الشاعر محمود الوراق العباسي:

إن العيون على القلوب شواهد — فبغيضها لك بين وحبيبها
وإذا تلاحظت العيون تفاوضت — وتحدثت عما تجن قلوبها
ينطقن والأفواه صامتة فما — يخفى عليك بريئها ومريبها

● ثانياً- النهي عن النظر:

لما كان النظر إلى النساء أحد الأسباب التي تهيج الشهوة الجنسية، فهو بريدها كما يقولون، وفي الوقت نفسه لا يستغني الإنسان عن استعمال حاسة البصر في كسب عيشه وتحصيل كماله المادي والأدبي ليحقق الخلافة في الأرض، لم يكن من الحكمة أن يؤمر الانسان بغض بصره غضا تاماً،بحيث لا يرى الجنس الآخر الذي يباشر هو أيضاً نشاطه في كل مرافق الحياة. فهو معرض، طوعا أو كرها، لرؤية عورة الجنس الآخر، ولهذا جاء الإرشاد الإلهي الكريم بغض البصر

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج٤ ص ٨٦.

بصيغة تشعر بأن المراد هو التقليل منه بقدر الإمكان، وعدم التمادى فيه، قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ [النور: ٣٠] وقال: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ [النور: ٣١]

يقول ابن القيم فى كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» فى الأمرين السابقين:

لما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارض مصلحة أرجح من تلك المفسدة – لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا، بل أمر بالغض منه. وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه، وقد جعل الله العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته. وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته أهـ[١].

من أجل هذا تجاوز الدين عن نظر الفجاءة[٢]، وهو الذى يقع من غير قصد ولا يكون معه استرسال. وقد ورد فى ذلك حديث عن جرير بن عبدالله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فقال «اصرف بصرك» رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى. وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلى: «يا على لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة» رواه أحمد وأبو داود والترمذى[٣]. قال الألبانى فى هذا الحديث: وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبى، ورواه البيهقى وأحمد من طريق شريك عن أبى ربيعة عن ابن بريدة عن أبيه رفعه. وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شريك[٤]. ومعنى «غريب» رواه راو واحد. ولا يدل ذلك على رفضه، فقد يكون الغريب حسنا بل قد يكون صحيحا.

---

(١) غذاء الألباب ج ١ ص ٨٢.
(٢) يقال: فجئه الأمر، وفجأه فُجاءة، بالضم والمد. وقيل: فَجْأة «نهاية ابن الأثير».
(٣) نيل الأوطار ج ٦ ص ١١٩. (٤) الحجاب للألبانى ص ٣٤.

ومما جاء في النهي عن النظر بغير حاجة :

(١) حديث « العينان زناهما النظر » رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة. ويتأكد ذلك عند غفلة النساء، واطمئنانهن على أن أحدا لا ينظر إليهن، كاختلاس النظرات من نوافذ البيوت . كما يدل عليه الحديثان التاليان :

(٢) حديث : أن رجلا اطلع في حجرة من حجر النبي ﷺ فقام إليه بمشقص — مقص — وجعل يختله ليطعنه . رواه البخاري ومسلم .

(٣) حديث « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقأوا عينه » رواه مسلم عن أبي هريرة . ويعلل ذلك بقوله : « إنما جعل الله الإذن من أجل البصر » رواه مسلم عن سهل بن سعد الأنصاري . ومعنى يختله يداوره ويطلبه من حيث لا يشعر « نهاية ابن الأثير » .

وذهب إلى هذا الحكم أحمد والشافعي، ولم يقل به أبو حنيفة ومالك « زاد المعاد ج٤ ص ٢٠٤ » .

(٤) حديث « إياكم والجلوس في الطرقات » قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال : « غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري .

(٥) قال رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل « النظرة سهم من سهام إبليس . من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » ورواه الطبراني والحاكم، من حديث حذيفة وعبدالله بن مسعود وقال : صحيح الإسناد .

(٦) حديث « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه » رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة . إلا أنه قال : « ينظر إلى امرأة أول رمقه » ورواه البيهقي وقال : إنما أراد، إن صح والله أعلم، أن يقع بصره عليها من غير قصد، فينصرف بصره عنها تورعا .

(٧) حديث « ثلاثة لا ترى أعينهم النار، عين حرست فى سبيل الله، وعين بكت من خشية الله . . وعين كفَّت عن محارم الله » رواه الطبرانى عن معاوية بن حَيْدة .

(٨) حديث « اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا أؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت .

(٩) حديث كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، فهو مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يَهْوَى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرجُ أو يكذبه » رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة . وفى رواية لمسلم وأبى داود « والفم يزنى فزناه القُبل » .

(١٠) حديث « لَتغضُّنَّ أبصاركم، ولتحفظُنَّ فروجكم، أو ليكسِفَنَّ الله وجوهكم » رواه الطبرانى عن أبى أمامة .

(١١) حديث « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفْضى الرجل إلى الرجل فى الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد » رواه مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدرى . قال الشوكانى فى نيل الأوطار ج٦ ص ١٢٩ : المراد بها هنا العورة المغلظة .

إلى غير ذلك من الأحاديث التى تقدم منها لَىُّ النبى لعنق الفضل عند نظره إلى الخثعمية .

● ثالثاً - حكم النظر :

إزاء هذه النصوص قال الفقهاء : إن النظر إلى الأجنبى أو الأجنبية محرم بالاتفاق إذا كان بشهوة، وهى هنا : التلذذ بالنظر ولو أمنت الفتنة وهى الزنى . وإن كان بغير شهوة فهو حرام أيضاً فى غير الوجه واليدين أما فيهما فقد أجازه

الأحناف، ومنعه الشافعية على الصحيح. قال النووى فى شرح صحيح مسلم « ج٦ ص ١٨٤ » : وأما نظر المرأة إلى وجه الرجل الأجنبى فإن كان بشهوة فحرام بالاتفاق، وإن كان بغير شهوة ولا مخافة فتنة ففى جوازه وجهان لأصحابنا، أصحهما تحريمه. أهـ.

وقد نقل فى كتاب البحر أن الإمام يحيى ومن معه يجيزون النظر ولو بشهوة، أى إلى الوجه واليدين. «نيل الأوطار ج٦ ص ١٢١».

وحرمة النظر من الصغائر إن لم يكن هناك إصرار عليها كما سبق بيانه. ومن العجيب أنه ذكر فى كتب الحنابلة أن شيخ الإسلام قال: ومن استحله لشهوة كفر إجماعا. «غذاء الألباب ج١ ص ٧٩».

● رابعاً - حكمة التشريع:

مما سبق ذكره عن ابن القيم وغيره فى خطر النظر يمكن تلخيص الحكمة فى تشريع حرمته لغير ضرورة أو حاجة فيما يأتى:

(١) غض البصر عن المحرمات يحول دون الوقوع فى الزنى وما يجر إليه أيضاً، فالنظر بريد الزنى أو ما يؤدى إليه، كما سبق توضيحه فى الخطوات التى تليه، يقول شوقى:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(٢) غض البصر يخلص القلب من الحسرة على ما لا سبيل إليه، وهنا يطمئن مادام ما يثيره غير موجود.

(٣) غض البصر دليل على مجاهدة النفس وانتصار الإنسان على هواه، وتخلصه من أسر الشهوة، وهو بهذا يسد عنه باب النار من أثر المعاصى التى يجر إليها النظر. وكذلك يظل القلب يقظا إلى مسالك الشيطان فيتجنبها.

(٤) غض البصر يورث القلب نورا يكمل به الإيمان، كما سبق فى الحديث رقم٥، كما أنه يورث صحة الفراسة من أجل ذلك النور، ويفيد صاحبه التمرن على الموازنة بين الخير والشر، ثم الانتهاء منها إلى عمل الخير.

● **خامساً – استثناءات :**

هناك حالات استثنائية يجوز فيها النظر إلى العورة، أى النظر المقصود المتعمد، ليخرج بذلك نظر الفجاءة، فإنه لا حرمة فيه على ما سبق بيانه، ومن هذه الحالات :

(١) العلاج، أى علاج الرجل للمرأة أو العكس إذا لم يوجد المعالج من الجنس نفسه، ففى فتح القدير « ج٨ ص ٩٨ » أن عبد الله بن الزبير استأجر عجوزا لتمريضه، وكانت تغمز رجليه وتفلى رأسه. وقال ابن مفلح فى كتابه « الآداب الشرعية » : فإن مرضت امرأة ولم يوجد من يطبها غير رجل جاز له منها نظر ما تدعو الحاجة إلى نظره منها حتى الفرجين، وكذا الرجل مع المرأة، ونقل عن ابن حمدان وغيره مثل هذا الكلام.

والدليل على الجواز ما سبق من الإذن بحجامة أبى طيبة لإحدى النساء. وما كان من مداواة النساء للجرحى فى الغزوات. فإذا توفر المعالج من الجنس نفسه حرم أن يكون من الجنس الآخر لعدم الضرورة أو الحاجة. ومن المؤسف أن كثيرا من المستشفيات فى البلاد الإسلامية ملئت بالممرضات اللاتى يشرفن على خدمة المرضى من الرجال، على الرغم من توافر الرجال الذين يقومون بهذه الخدمة. وحجتهم فى هذا العبث أن المرأة أرق وأخلص فى الخدمة بعامل اختلاف الجنس، والمريض يحتاج إلى الرقة والإخلاص، وهما ضعيفان، إن لم يكونا مفقودين فى الرجال عند تمريضهم للرجال. ولكن هذا لا يبرر أبدا ذلك التقليد الذى نقلوه عن الغرب، وله عواقب خلقية لا تحتاج إلى ذكر أو تفصيل[١].

---

(١) فى حاشية عوض على الخطيب ج٢ ص ١٢٠ : رتب البلقينى المعالج للمرأة بأن يقدم أولا المرأة المسلمة فى مسلمة، ثم صبى مسلم غير مراهق ثم كافر غير مراهق ثم مراهق مسلم ثم مراهق كافر ثم المحرم المسلم ثم المحرم الكافر ثم الممسوح المسلم ثم المرأة الكافرة ثم الممسوح الكافر ثم المسلم الأجنبى ثم الكافر الأجنبى. وفيه لو لم نجد لعلاج المرأة إلا كافرة ومسلما فالظاهر أن الكافرة تقدم، لأن نظرها ومسها أخف من الرجل، بل الأشبه عند الشيخين أنها تنظر منها ما يبدو عند المهنة بخلاف الرجل.

(٢) ومن استثناءات النظر، الشهادة، وقد سبق بيانها فى مبررات كشف العورة.

(٣) كذلك من الاستثناءات تحقيق الجناية إذا لم يمكن مع اتحاد الجنس، كما مر أيضاً.

(٤) ضرورة أو مصلحة أخرى، كما حدث أن النبى ﷺ لما حاصر أهل الطائف أشرفت امرأة، فكشفت عن قبلها. فقال النبى ﷺ: «ها، دونكم فارموها» فرماها رجل من المسلمين فما أخطأ ذلك منها. «غذاء الألباب ج٢ ص٢٠».

(٥) ومن الحالات التى يجوز فيها النظر الخطبة. ولتوضيح الحقيقة فيها نقول:

● النظر للخطبة:

سيكون الحديث فى هذا الموضوع فى عدة نقاط، الدليل على جوازه، القدر الذى يجوز النظر إليه، شروط جوازه، هل يكون بعلم المخطوبة وإذنها؟ حكم نظر المخطوبة إلى خاطبها.

● أولاً - دليل الجواز:

الدليل على مشروعية نظر الخاطب إلى خطيبته، كان يكفى أن يكون عقليا لكن جاء الشرع يؤيده ويؤكده. فلا ينبغى للإنسان أن يقدم على مشروع إلا إذا درسه وعرف الكثير عنه، والزواج من أهم المشروعات فى حياة الإنسان، إن لم يكن أهمها، ومعلوم أن الجمال والصلاحية من النواحى المختلفة من أهم الأسس التى ينجح بها مشروع الزواج، هذا هو منطق الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وأما ما جرى عليه بعض الناس قديما من إمضاء الزواج دون رؤية أحد الطرفين للآخر، بل كان يتم التعاقد عليه والعروس أو العريس فى بطن الأم، فذلك شاذ لا يقاس عليه كما يقولون، وهو ينتهى بالفشل غالبا، بدليل أن الدول التى كانت تمارس ذلك النوع عدلت عنه ووضعت له نظما معقولة.

أما الدليل الشرعى فهو من فعل النبى ﷺ وقوله.

(١) أما فعله فتدل عليه هاتان الروايتان :

(أ) روى البخارى « ج٧ ص ١٨ » ومسلم « ج١٥ ص ٢٠٢ » عن عائشة قالت : قال لى رسول الله ﷺ : رأيتك فى المنام يجىء بك الملك فى سرقة من حرير. فقال لى : هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هى. فقلت : إن يك هذا من عند الله يُمْضِه.

هذا ما ساقه العلماء كدليل على جواز نظر المخطوبة، لكن لى ملاحظة عليه، فإن زواج النبى ﷺ بعائشة كان قبل أن يفرض الحجاب، والرجال والنساء يرى بعضهم بعضا. فإن الآيات التى نزل فيها الغض من البصر وهى من سورة النور آيات مدنية. لأن سورة النور نزلت بعد سورة الحشر التى تتحدث عن حرب النبى ﷺ لليهود فى المدينة. وكان ذلك بعد خطبة النبى لعائشة فى مكة ودخوله بها فى المدينة.

على أن رؤية صورتها فى المنام وإن كانت رؤيا الأنبياء حقا ليست كرؤية شخصها عيانا حتى يتفقا فى الحكم. وعلى فرض أن الحجاب كان قد نزل قبل زواج النبى من عائشة – وذلك الفرض مرفوض – فإن العلماء جعلوا من خصوصيات النبى ﷺ جواز النظر إلى الأجنبية والخلوة بها، وذلك لأمن الفتنة، وهو بمنزلة الوالد للجميع، فى الوقت الذى هو مشرع للناس جميعا. « المواهب اللدنية ج١ ص ٣٩٢ ».

والسَّرَقة هى الشقة البيضاء من الحرير، وجمعها : سَرَقٌ. وفى رواية مسلم لهذا المنام : أنه جاءه بصورتها ثلاث ليال.

(ب) وكذلك من فعله ﷺ حديث الواهبة نفسها له. وقد اختلف فى اسمها، هل هى أم شريك، أو خولة بنت حكيم، أو ليلى بنت الخطيم، وسيأتى ذلك فى بحث تعدد الزوجات. فإن النبى ﷺ صعد النظر فيها وصوبه.

روى البخارى « ج٧ ص ١٩ » عن سهل بن سعد أن امرأة جاءت رسول الله

ﷺ فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي. فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر إليها، وصوبه. ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست... إلى آخر الحديث الذى جاء فيه أن بعض الحاضرين تزوجها على ما معه من القرآن.

وكذلك روى هذا الخبر مسلم « ج٩ ص ٢١١ ». ومعنى: صعد رفع. ومعنى: صوب خفض. قال النووى: وفى الحديث دليل لجواز النظر إن أراد أن يتزوج امرأة وتأمله إياها. وفيه استحباب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح ليتزوجها.

(٢) وأما قول النبى ﷺ فى جواز نظر الخاطب إلى مخطوبته فيرويه مسلم وغيره: أنه أمر عدة رجال بالنظر إلى من يريدون الزواج منها، منهم المغيرة بن شعبة، ومنهم محمد بن مسلمة حين خطب ثُبَيْتَة بنت الضحاك، كما فى الروض الأنف « ج٢ ص ٢١٩ ».

ففى مسلم عن أبى هريرة قال: كنت عند النبى ﷺ، فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ « أنظرت إليها »؟ قال: لا، قال: « فاذهب فانظر إليها، فإن فى أعين الأنصار شيئا » ج٩ ص ٢٠٩، ٢١٠، والشىء الذى فى أعينهن هو الصغر، وقيل الزرقة. قال النووى: وفيه دليل على جواز ذكر مثل هذا للنصيحة. وروى شيناً (بالنون) بدل شيئا (بالهمزة).

وروى الترمذى وحسَّنه، والنسائى وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبة: أنه خطب امرأة. فقال له النبى ﷺ: « انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ». « نيل الأوطار ج٦ ص ١١٧ ». ومعنى يؤدم بينكما تحصل الموافقة والملاءمة بينكما، مأخوذ من الأدمة وهى الجلد، وهو كناية عن التلاصق والتوافق.

وفى أعلام الموقعين « ج٣ ص ٢٥٣ » نقلا عن أحمد وأهل السنن أن النبى ﷺ لما أمر الرجل بأن ينظر إلى من خطبها ذهب لأهلها وذكر لهم ذلك. فكأنهما كرها. فسمعت المرأة ذلك، وهى فى خدرها، فقالت: إن كان النبى أمرك فانظر.

وإلا فإني أنشدك. كأنها عظمت ذلك عليه. قال: فنظرت إليها فتزوجتها. فذكر من موافقتها له.

هذا هو حكم النظر إلى المخطوبة وهو الجواز. وحكى القاضي عياض عن قوم كراهته. وهو خطأ مخالف لهذه الأحاديث، وللإجماع على جواز النظر للحاجة عند البيع والشراء والشهادة ونحوها «النووى على مسلم ج٩ ص٢١٠».

وإذا جاز النظر فقد قال العلماء: إنه يجوز له مداومته وتكراره، حتى لا يندم بعد. ولا يحدد ذلك بثلاث مرات، بل بقدر الحاجة.

كما قالوا: يجوز أن يكون هذا النظر بشهوة، كما ذهب إليه الروياني وإن قال الأوزاعي: في نظره بشهوة نظر.

● **ثانياً – القدر الذى يجوز النظر إليه:**

أما ما يجوز نظره من المخطوبة فمختلف فيه على ثلاثة أقوال:

(١) قال الأكثرون: إنه الوجه والكفان فقط. وعللوا ذلك بأن الوجه يعرف منه فى الغالب جمال الجسم أو عدمه. واليدان كذلك يعرف منهما خصوبة البدن أو عدمها. ودليلهم فى هذا أن النظر إلى المرأة الأجنبية فى أصله محرم، فلا يباح منه إلا بقدر الضرورة، ولا ضرورة بعد معرفة الجمال والخصوبة من الوجه والكفين، للنظر إلى ما سواهما.

(٢) وقال الأوزاعي: ينظر الرجل إلى مواضع اللحم، وهى قدر أكبر من الوجه واليدين، وهو مذهب الإمام أحمد، كما سيجيء بعد. والدليل حديث جابر، حيث جاء فيه: فخطبت جارية من بنى سلمة، فكنت أختبىء لها تحت الكرب، أى جريد النخل، حتى رأيت منها بعض ما دعانى إلى نكاحها، فتزوجتها، رواه أبو داود والبيهقى، والحاكم وغيرهم. وصححه الحاكم «الفتح الربانى ج١٦ ص١٥٣».

ووجه الاستدلال بفعل جابر أنه يطبق الحديث الذى يقول: «إذا خطب

أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل» رواه أحمد. فقد فهم جابر من هذا أنه يجوز له أن ينظر أكثر من الوجه واليدين، وهذا الرأى له وجاهته، ذلك أن الوجه والكفين ليسا عورة كما قال كثير من العلماء على ما سبق بيانه، فلو أن النظر للمخطوبة لا يتجاوزهما ما كان هناك إغراء من النبى بالنظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها من جسمها أى فى مواضع غير المكشوفة المعتادة.

ويؤيد هذا الرأى ما روى عن محمد بن الحنفية عند عبد الرزاق وسعيد ابن منصور أن عمر بن الخطاب خطب إلى على ابنته أم كلثوم، فذكر له صغرها. فقال: أبعث بها إليك، فإن رضيت فهى امرأتك، فأرسل إليه، فكشف عن ساقها. فقالت: لولا أنك أمير المؤمنين لصككت عينيك «نيل الأوطار ج٦ ص ١١٨» ومشارق الأنوار للعدوى ص ١٠١ والزرقانى على المواهب اللدنية ج٣ ص ٢٠٧ عن محمد بن أبى عمر العربى شيخ مسلم فى مسنده.

وجاء فى بعض الروايات أن عليا اعتذر بحبسها على ولد جعفر أخيه، فتمسك عمر بها، واعدا أنه سيكون أحسن عشرة لها. فقال له: إنى سأرسلها إليك بطبق من التمر لترى: هل تعجب أم لا. وفى النهاية قال لها: قولى لأبيك: قد أعجبتنا البضاعة.

وفى رواية أنه أرسل بها إليه ببرد، فرضيها ورجعت قائلة لأبيها: نشر البرد وما نظر إلا إلىّ. «راجع قصة هذه الخطبة فى سيرة عمر، لابن الجوزى ص١٦٥».

(٣) وقال داود الظاهرى: يجوز النظر إلى جميع بدنها. قال النووى فى شرح صحيح مسلم «ج٩ ص ٢١٠»: وهذا خطأ ظاهر، منابذ لأصول السنة والإجماع.

وقال ابن الجوزى فى كتابه «صيد الخاطر»: ومن قدر على مناطقة المرأة أو مكالمتها بما يوجب التنبيه، ثم ليرى ذلك منها، فإن الحسن فى الفم والعينين،

فليفعل. قال: وقد نص الإمام أحمد على جواز أن ينظر الرجل من المرأة التى يريد نكاحها ما هو عورة. يشير إلى ما يزيد عن الوجه «غذاء الألباب ج٢ ص ٣٤١».

● ثالثاً - شرط جواز النظر:

اشترط العلماء لجواز هذا النظر: أن يكون الرجل صحيح العزم على الزواج. ويريد من النظر معرفة الصحة والجمال لهذا الغرض. كما يشترط أن يرجو رجاء ظاهرا موافقة وليها على الزواج.

وتطبيقا لذلك لا يجوز أن يتخذ بعض الشبان هذه الأدلة ذريعة للنظر إلى النساء والتفرس فى وجوه الحسان فى الطرقات أو من الشرفات، متعللين بأنهم يريدون الزواج. مع أن عزمهم غير صادق.

كما لا يجوز أن يعمد أحدهم، وهو متوسط الحال، إلى النظر إلى بنات الطبقات الراقية التى لا يتناسب معها فى المنزلة الاجتماعية، أو فيما تراعى فيه الكفاءة على النحو المذكور فى الجزء الأول، وهو يعلم بالتأكيد أنه لو تقدم إليهم بطلب المصاهرة لرفضوه.

هذا، وقد استحسن العلماء أن يكون النظر بعد العزم على الزواج وقبل الخطبة، لأنه قبل العزم لا حاجة إليه، كما ذكر، وبعد الخطبة قد يفضى الحال إلى الترك فيشق عليها «النووى على مسلم ج٩ ص ٢١١».

● رابعاً - هل جواز النظر يتوقف على علمها أو إذنها؟

قال العلماء: إن نظر المخطوبة جائز، سواء أكان بإذنها أم بغير إذنها. فله أن يغافلها بالنظر، لأن ذلك أبعد عن تكلفها وتصنعها، وأقرب إلى معرفة ما يخفيه زيف البهرج والأصباغ. فيراها على الطبيعة المبسطة الصادقة.

لكن الإمام مالكا قال: أكره نظره فى غفلتها، مخافة وقوع نظره على عورة. وفى رواية عنه أنه لا ينظر إليها إلا بإذنها. وهو ضعيف، لأن النبى ﷺ أذن فى النظر مطلقا، ولم يشترط أن تستأذن. ودليله تطبيق جابر باختفائه تحت الكرب لينظر إلى المخطوبة. وكذلك فعل عمر مع أم كلثوم إن صحت الرواية.

قال النووى فى تعليل عدم استئذانها : ولأنها تستحى غالبا من الإذن، ولأن فى ذلك تغريرا . فربما رآها فلم تعجبه، فيتركها فتنكسر وتتأذى « شرح مسلم ج٩ ص ٢١٠ »[١].

● خامساً – هل تنظر المخطوبة إلى خطيبها ؟

كما جاز للرجل أن ينظر إلى المرأة التى يريد خطبتها، أجاز العلماء للمرأة أيضاً أن تنظر إلى من تقدم لخطبتها، بل يسن لها ذلك . فيما عدا العورة منه، لأنه يعجبها منه ما يعجبه منها . ولها أن تستوصف كما يستوصف هو . فذلك مقتضى العدل والحكمة .

أما التعرف الصحيح على المخطوبة فمذكور فى الجزء الأول من هذه الموسوعة « الباب الثالث » .

هذه هى أهم الأمور المستثناة من حرمة النظر إلى عورة الأجنبى . فالأصل فيه هو الحرمة، ولا يحل إلا لضرورة أو حاجة . وبهذا يعلم خطأ الماجنين الذين يروجون الأقوال الكاذبة والأشعار المتحللة، وينسبونها إلى كبار الرجال دليلا على حل النظر والتمتع بجمال الله فى خلقه، كما قال بعضهم فى ذلك :

خلقت الجمال لنا فتنة   وقلت لنا : يا عبادى اتقون
وأنت جميل تحب الجمال   فكيف عبادك لا يعشقون ؟

ذكر ابن القيم فى كتابه « روضة المحبين » أن هؤلاء الماجنين زوروا على أبى حنيفة والشافعى ومالك وغيرهم أقوالا لم تصدر عنهم .

فمما زوروا على الشافعى :

يقولون : لا تنظر وتلك بلية   ألا كل ذى عينين لا شك ناظر
وليس اكتحال العين بالعين ريبة   إذا عف فيما بين ذاك الضمائر

---

(١) فى أهرام ٢٩ / ٨ / ١٩٦٨ تحت عنوان : منذ ٧٥ سنة ما يأتى :
فى الصين لا يرى أحد الزوجين الآخر إلا ليلة الزفاف . حيث تذهب إليه منتقبة، وعند باب بيته يكشف وجهها . فإن أعجبته أدخلها، وإلا أعادها لأهلها . ويدفع أهلها نقودا فى مقابل رفضها .

وزوروا على أبى حنيفة فقالوا:

كتبنا إلى النعمان يوما رسالة نسائله عن لثم حبٍّ مُمَنَّع
فقال لنا: لا إثم فيه وإنه شهيٌّ إذا كانت لعشر وأربع

وكذلك زوروا على مالك فقالوا:

إنا سألنا مالكا وقريبه لَيْثَ بن سعد عن لثام الوامق
أيجوز؟ قالا: والذى خلق الورى ما حرم الرحمن قبلة عاشق

وزوروا على أحمد بن حنبل فقالوا:

سألت إمام الناس نجل ابن حنبل عن الضم والتقبيل هل فيه من باس؟
فقال: إذا حل الغرام فواجب لأنك قد أحييت عبدا من الناس

ومن شعر الماجنين الناقمين على الحجاب:

جزى الله البراقع من ثياب عن الفتيان شرا ما بقينا
يوارين المِلاَح فلا نراها ويُزْهين القِبَاح فيزدهينا[1]

وبعد، فهل اطلع شاعر الغناء الحديث على هذه الأقوال المزورة على كبار الفقهاء، فوضع أغنية أفتى بها عن سؤال عن القبلة هل هى حرام أو حلال، فقرر بصورة مغرية أنها حلال لا ملام ولا عقاب فيها، لأن الله رب القلوب الرحيم بما تعانيه من حب ولوعة. ويشدو الغناء المشهور بهذه الأغنية تحت سمع المسلمين، وكثر طلب المغرمين لإذاعتها، حتى صارت شيئاً مألوفا وقر فى نفوس الصغار والشبان أن القبلة حلال للعاشقين.

القبلة ان كانت للملهوف اللى على ورد الخد يطوف
ياخدها بدال الواحدة ألوف ولا يخشى للناس ملام..؟

الأمر يحتاج إلى غيرة على الدين وحماية للأخلاق، يحتاج إلى صرخة فى وجوه العابثين تقفهم عند حدهم، وفى أسماع المسئولين تنبههم إلى أداء

(١) هذا الشعر لذى الرُّمة الذى كان يهيم بمَيَّة ذات البراقع.

واجبهم، يحتاج إلى دفعة لعلماء الدين أن يتنبهوا إلى ما يراد بهم وبدينهم، لقد زحزحوا عن مقاعد الفتوى وتصدر لها العابثون . فإلى متى يسكتون؟

هذا، وقد أثار بعض الناس سؤالا عن حكم النظر إلى المرأة من خلال صورتها في المرآة أو على شاشة السينما أو التليفزيون، أو في الصحف والمجلات، أو في البطاقات التي راجت سوقها بين الشبان، وزينوا بها جدران بيوتهم ومكاتبهم . . .

والجواب على ذلك أن النظر إلى هذه الصور إن أثار فتنة كان حراما بلا شك، سدا لباب الفساد، أما إن لم يثر فتنة فلا حرمة في النظر إليها . والصور جمادات فيها شيء يثير كما يثير غيرها من الأحياء، فإذا كانت الإثارة لمحرم حرم النظر « مجلة الأزهر - المجلد الثالث ص ٤٩٢ ، غذاء الألباب للسفاريني ج١ ص٦٥ - ٧٩ » .

● **سادساً - دفع اعتراضات :**

بعد بيان حكم النظر إلى العورة، وما يستثنى منه وردت اعتراضات لابد من دفعها .

(أ) كيف يسمح النبي ﷺ لعائشة بالنظر إلى الرجال الأجانب وهم الحبشة الذين كانوا يلعبون؟

فقد ورد في الحديث الصحيح عن عائشة أنها قالت : والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لعبهم . ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف . فاقْدُروا قدر الجارية الحديثة السن، حريصة على اللهو . رواه مسلم « ج٦ ص ١٨٤ » .

وقد أجاب النووي على ذلك بجوابين : أولهما أنها نظرت إلى لعبهم وحرابهم، ولم تنظر إلى وجوهم وأجسامهم عن تعمد . وثانيهما : لعل هذا كان قبل نزول الآية التي حرمت النظر، وأنها كانت صغيرة قبل بلوغها، فلم تكن مكلفة، على قول من يقول : إن للصغير المراهق النظر . لكن قال الحافظ : إن في بعض طرق الحديث أن ذلك كان بعد قدوم وفد الحبشة، وأن قدومهم كان سنة سبع، ولعائشة يومئذ ست عشرة سنة . أهـ.

وخلاصة جواب النووى أنه إما أن يسلم بأنها لم تنظر إلى أجسام اللاعبين، بل إلى حرابهم ولعبهم. وإما إن يسلم بأنها نظرت إلى أجسامهم، ويدفع الحرج بأنها كانت صغيرة، أو أن الحجاب لم يكن قد فرض.

وأرى أن الجواب الأول متكلف ، فكيف نعرف أنها كانت تنظر إلى حرابهم ولم تنظر إلى أجسامهم؟ هل ورد إقرار منها بذلك حتى نسلم به؟ وهل يعقل فى المعتاد أن يكون هناك فاصل تام بين اللعبة وبين الجسم الذى يلعب بها؟

كما أن الجواب الثانى لم يسلم من المناقشة، والذى أميل إليه أنها نظرت إلى أجسامهم كما نظرت إلى حرابهم، وأن الجزء الذى يعد عورة فى الرجل كان مستورا وهو ما بين السرة والركبة، على رأي من يقول إن هذا هو العورة فى الرجل بالنسبة إلى المرأة الأجنبية، وبعيد أن تكون هذه المنطقة مكشوفة فيهم ويقرها النبى ﷺ.

وعلى التسليم بأن جسم الرجل الأجنبى كله عورة بالنسبة إلى المرأة، كما رآه بعض الفقهاء، فإن نظر عائشة الى الأحباش لم يكن بشهوة، على الاستنتاج الراجح، فأى إغراء فى أجسام الأحباش، ونحن نعلم أن ألوانها وتقاطيعها ليس فيها ما يغرى أبداً، حتى يكون هناك نظر بشهوة إليها.

(ب) واعترض كذلك على حرمة نظر المرأة إلى الرجل الأجنبى بحديث فاطمة بنت قيس المتفق عليه، ففيه أن النبى ﷺ أمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم وقال: «إنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده».

والجواب أن فاطمة تستطيع أن تعتد فى بيته مع وجوده، وهى تغض بصرها عنه، فلا تلازم بين وجودها فى بيته والنظر إليه، وعلى فرض أنها نظرت إليه فإنه نظر بدون شهوة، على الاستنتاج الراجح، إن كان جسمه كله عورة على رأى بعض الفقهاء، أو كان نظرها إلى غير عورة منه، فهو ساتر لما بين سرته وركبته، على الرأى القائل بأن هذه هى عورته.

(جـ) واعترض أيضاً بنظر النبى وبلال إلى النسوة يوم العيد وهو يأمرهن بالصدقة، كما ورد فى الحديث الصحيح، وبنظرهن أيضاً إليهما وإلى الرجال الحاضرين.

والجواب أن حديثه معهن لا يستلزم النظر الى عورة فيهن، فقد كن حاضرات للصلاة وشهود اجتماع العيد بستر كامل لا تكشف فيه عورة. كما أن الرجال كانوا ساترين لعوراتهم.

هذا، وقد أجاب أبو داود على هذه الاعتراضات ليجمع بين الأحاديث التى تمنع نظر المرأة إلى الرجل والتى تجيزه، فقال: إنَّ منع نظرها إياه خاص بنساء النبى لكمالهن، وجواز النظر هو لغيرهن، وهو ما يشهد له حديث فاطمة بنت قيس. وقال ابن حجر فى الفتح: إن أمر النبى بالاحتجاب من ابن أم مكتوم لعله لكون الأعمى مظنة أن ينكشف منه شيء ولا يشعر به، فلا يستلزم عدم جواز النظر مطلقا. قال: ويؤيد هذا استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منتقبات لئلا يراهن الرجال، ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء، فدل على مغايرة الحكم بين الطائفتين، وبهذا قال الغزالى.

● **سابعاً - تكملة:**

جاء فى حياة الحيوان للجاحظ «ج١ ص ٧٩» وكذلك فى المحاسن والأضداد له «ج٢ ص ٥٦»: أن سعيد بن مسلم قال: لأن يرى حرمتى ألف رجل على حال تكشف منها وهى لا تراهم، أحب إلى من أن ترى حرمتى رجلا واحدا غير متكشف.

وفى كتاب «فتوح مصر» لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ عند الكلام على خطط الفسطاط: أن أول من بنى غرفة، أى طابقا علويا، خارجة بن حذافة، وهو الذى ضربه الخارجى بدل عمرو بن العاص حين اعتزم الخوارج اغتيال على ومعاوية وعمرو. فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فكتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة. ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه.. فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله. والسلام[١].

والمشاهد أن هندسة البناء فى المدن وتخطيط شوارعها يتيح للسكان نظر بعضهم إلى بعض، والاطلاع على ما ينبغى ستره. وقد جر ذلك إلى نكبات كثيرة حيث لا دين ولا أخلاق.

(١) تراث الإنسانية ج١ ص ٦٢٦.

الفصل الخامس

آداب الزيارة

لقد وضعت هذا الفصل فى هذا الباب لصلته الوثيقة بالنظر إلى العورة، وقد مر فى الفصل السابق فى صفحة ١١٧ قول النبى ﷺ: «إنما جعل الله الإذن من أجل البصر». أى أن الله سبحانه شرع الاستئذان عند دخول البيوت حتى لا يقع النظر على مكروه من عورة ونحوها. وسأتحدث عن ذلك بشىء من التفصيل.

لقد وردت مجموعتان من الآيات فى سورة النور التى تحدثت عن الأعراض حديثا شافيا وافيا، هاتان المجموعتان فيهما آداب تساعد على ما ترمى إليه السورة من حماية الأعراض.

● **المجموعة الأولى:**

فالمجموعة الأولى تتحدث عن آداب الزيارة، والمجموعة الثانية تتحدث عن أدب الدخول على الرجل أو المرأة مخدعهما الخاص. الأولى تنظم زيارة الناس بعضهم لبعض فى بيوتهم، يستوى فى ذلك الأقارب وغير الأقارب. والثانية تنظم الدخول لمن يكثر اتصالهم بهم كالأولاد والخدم.

(١) قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**﴾ [النور: ٢٧- ٢٩].

نزلت هذه الآيات تهذيبا لعادات الناس فى زيارة بعضهم البعض. قال مقاتل بن حيان: كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه، ويقول:

حييت صباحاً، وحييت مساء. وكان ذلك تحية القوم بينهم. وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: دخلت، ونحو ذلك. فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله. فغير الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا** .... ﴾ قال ابن كثير: وهذا الذى قاله مقاتل حسن.

والاستئناس الوارد فى الآية هو الاستئذان كما قاله ابن عباس وغيره. فجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ الآية « **حَتَّىٰ تَسْتَأْذنوا وَتُسَلِّمُوا** .... ».

(٢) حكم الاستئذان :

للعلماء رأيان فى حكم الاستئذان، فذهب بعضهم إلى أنه سنة، وقال آخرون: إنه واجب. ذكره ابن الجوزى، كما ذكره السفارينى الحنبلى وقال: إن ابن أبى موسى والسامرى وابن تميم قطعوا بوجوب الاستئذان. قال ابن مفلح فى كتابه « الآداب الكبرى »: ولا وجه لحكاية الخلاف. فيجب فى الجملة، على غير زوجه وأمه. ويستوى فى ذلك الأجانب، كما فى عموم هذه الآية، والأقارب كما نصت عليه الآية الثانية، وهى ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ... ﴾.

(٢) صيغته :

وردت نصوص تبين صيغة الاستئذان، الذى هو طلب الإذن بالدخول، فقد روى أحمد وأبو داود وغيرهما بإسناد صحيح: أن رجلا من بنى عامر استأذن على النبى ﷺ، وهو فى بيته، فقال: ألج؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه[١]: « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان » فقال له: « قل: السلام عليكم، أأدخل؟ » فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبى ﷺ . فدخل.

كما روى أحمد أيضاً عن كلدة بن الجنيد – أخى صفوان لأمه – أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح، أى فتح مكة، بلبأ وجداية وضغابيس، والنبى

(١) لفظ الخادم يطلق على الذكر وعلى الأنثى. وقيل إن الخادم الذى ذكر فى هذا الحديث كان ذكراً، وقيل: كان أنثى كما فى رواية أخرى. ولايهمنا ذلك فى بيان ما نحن فيه.

بأعلى الوادى، قال: فدخلت على النبى ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن. فقال ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل»؟ وذلك بعدما أسلم صفوان. ورواه أبو داود والترمذى والنسائى. واللَّبَأُ هو اللبن، والجداية بفتح الجيم وكسرها من ولد الظبى، والضغابيس صغار القثاء.

فيفهم من هذين الحديثين أن صيغة الاستئذان هى أأدخل. لكن قد يكون الاستئذان بشىء آخر يشعر أهل البيت بالقادم، كالتنحنح والكلام وحك النعل فى الأرض ونحو ذلك. جاء فى حديث غريب(١) عن أبى أيوب قال: قلت: يا رسول الله، هذا السلام(٢)، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة أو يتنحنح، فيؤذن أهل البيت» رواه ابن ماجه «تفسير ابن كثير، وأعلام الموقعين ج٣ ص ٥٦٨».

(٤) آدابه:

من آداب الاستئذان ما يأتى:

(أ) أن يكون ثلاث مرات، إلا أن يجاب قبلها. ولا يزيد على ثلاث إن سمع أحد صوته، وإلا زاد حتى يعلم أو يظن أنه سمع. فإن أذن له وإلا رجع.

وقال العلماء فى حكمة الثلاث: أن التسليمة الأولى ليسمع الحس. والثانية ليأخذوا حذرهم، والثالثة إن شاءوا أذنوا، وإن شاءوا ردوا.

ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك:

أن أبا موسى الأشعرى حين استأذن على عمر ثلاثا ولم يؤذن له انصرف. ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب. فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إنى استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف» فقال عمر: لتأتينى على هذا ببينة، وإلا أوجعتك ضربا.

---

(١) أى رواه راو واحد.

(٢) أى فهمنا من الآية معنى السلام وبم يكون. فما معنى الاستئناس وبم يكون؟

فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر. فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا. فقام معه أبو سعيد الخدرى. فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهانى عنه الصفق بالأسواق « تفسير ابن كثير. سورة النور».

وروى أحمد عن أنس أو غيره أن النبى ﷺ استأذن على سعد بن عبادة، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. وجاء فى رواية أبى داود والنسائى عن قيس بن سعيد أن سعدا رد ردا خفيا، وأن قيسا قال له: ألا تأذن لرسول الله ﷺ فى منزلنا؟ فقال: دعه يكثر علينا من السلام. فقال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله. فرد سعد ردا خفيا. ثم قال رسول الله ﷺ: السلام عليكم ورحمة الله. ثم رجع رسول الله، واتبعه سعد، فقال: يا رسول الله إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام. قال: فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس، فاشتمل بها. ثم رفع رسول الله ﷺ يديه، وهو يقول: « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » قال: ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام. فلما أراد الانصراف قرَّب إليه سعد حمارا قد وُطِّيء عليه بقطيفة. فركب رسول الله ﷺ. فقال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ « اركب » فأبيت. فقال « إما أن تركب، وإما أن تنصرف » قال: فانصرفت.

وجاء فى رواية لأحمد أن النبى ﷺ بعد أن أكل قال: « أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون ». قال ابن كثير: روى هذا الحديث بوجوه أخر، فهو حديث جيد قوى.

(ب) ومن الآداب أن يكون الاستئذان بعد السلام، وذلك للحديث السابق، ولما رواه أحمد وأبو داود وغيرهما بإسناد صحيح عن رجل من بنى عامر علمه النبى كيفية الاستئذان، وقد تقدم هذا الحديث، وكذلك حديث صفوان.

(جـ) ألا يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر. روى أبو داود عند عبدالله بن بسر (بشر) قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب

قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور. وهو حديث حسن.

وقد استأذن رجل على النبى ﷺ فقام مستقبل الباب، فقال عليه السلام: «هكذا عنك أو هكذا، فإنما الاستئذان من النظر». وفى حديث أبى هريرة: «إذا دخل البصر فلا إذن» وهما حديثان حسنان رواهما أبو داود.

وروى الطبرانى أن النبى ﷺ سئل عن الاستئذان فى البيوت، فقال: «من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فلا إذن له، وقد عصى ربه» قال المنذرى: رواته ثقات.

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «لو أن أمرا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح» وفى رواية النسائى «فلا دية له ولا قصاص»، وفى رواية أبى داود «فقد هَدَرَتْ».

ومثل الباب الكوة والخصاصة. وهى الثقب فى الباب. فقد ثبت أن أعرابيا أتى باب النبى ﷺ، فألقم عينه خصاصة الباب، فبصر به النبى ﷺ فتوخاه بحديدة أو عود ليفقأ عينه. فلما أبصره انقمع. فقال له النبى ﷺ: «أما إنك لو ثبت لفقأت عينك».

وفى الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدى أن رجلا اطلع على رسول الله ﷺ من جحر فى حجرة النبى ﷺ، ومع النبى مدْراة يحك بها رأسه، فقال النبى ﷺ: «لو علمت أنك تنظر لطعنت بها فى عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر». وقد تقدم.

(د) ومن الآداب أن يرجع إذا لم يؤذن له، وألا يجد غضاضة فى نفسه عند ذلك. سواء علم أن بالبيت أحدا ولا يحب أن يأذن له، أو لم يعلم، أو لم يكن به أحد. كما قال تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾. وقد يكون هناك عذر قوى حال دون الإذن، فليقدر المستأذن ذلك، وليضع نفسه مكان من لم يأذن له.

(هـ) من الآداب أنه إذا قيل له : من أنت، أو من الطارق؟ أن يقول : أنا فلان، ويسمى نفسه. ولا يكتفى بقوله : أنا. كما رد جبريل عندما استفتح وهو صاعد إلى السموات ليلة المعراج، حيث قال : أنا جبريل. جاء فى الصحيحين عن جابر : أتيت رسول الله ﷺ فى دَيْن كان على أبى، فدققت الباب. فقال : من ذا؟ فقلت : أنا، فقال « أنا أنا »؟ كأنه كرهه.

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف بها صاحبها حتى يفصح عن اسمه أو كنيته أو ما يعرف به، ليأنس صاحب البيت ويأذن له، كما أن كلمة « أنا » يغلب، فى العرف، أن تقال فى مقام الفخر، والإسلام يكره ذلك. وإن قالها النبى ﷺ وبعض الصحابة أحيانا، لكن ذلك كان بدون قصد الفخر.

(و) ومن الآداب عدم دق الباب بعنف، فالذوق يأباه، لاسيما عند الشخصيات المحترمة، ولذا كانوا يقرعون بيوت الأشياخ بالأظافر. أخرج البخارى فى الأدب المفرد من حديث أنس أن أبواب الرسول كانت تقرع بالأظافر. وهذا حسن لمن كان محله قريباً من الباب، بحيث يسمع الطرق الخفيف، أما من بعد عن الباب فليكن القرع بكيفية يسمع بها.

(ز) ومما يتصل بأدب الزيارة، فوق الاستئذان، أن يجلس الزائر حيث يرشده رب المنزل، ولا ينبغى له أن يتحول عن مكان عيَّنه له، فقد يتأذى منه لأنه يكشف عورة فى المنزل مثلا. وإذا تَرك له صاحب المنزل الحرية فى الجلوس فليتخذ مكانا لا يَطَّلع فيه على ما لا يحب أن يُطَّلع عليه، وهذا أدب تنبغى مراعاته، فإن للبيوت حرمة، والغرف فى المساكن الحديثة متقاربة.

(ح) كما أن مما يتصل بالزيارة، وإن كان يعم غيرها فى المجالس المختلفة، ألا يجلس وسط الحلقة، فإن النبى ﷺ لعن ذلك. كما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه. لأن جلوسه وسطها يجعله يستدبر بعض الجالسين، فيؤذى شعورهم. وكذلك يسن له ألا يفرق بين اثنين فيجلس بينهما إلا بإذنهما.

(ط) هذا وينبغى عند الزيارة تخير الأوقات المناسبة، والاتفاق على الموعد سابقا، حتى يكون هناك استعداد للمقابلة يتناسب مع الزائر.

ومن البداوة أو التأخر التفريط فى هذا الأدب. وإذا كانت هناك حوادث فى أيام الصحابة خولف فيها تخير الوقت فلعل ذلك كان عرفا سائغا عندهم، أو عرف الزائرون أن المَزُور لا يتأذى بذلك. فقد روى مسلم « ج٦ ص ١٠٦ » أن جماعة استأذنوا على ابن مسعود بعد الفجر. (يراجع العقد الفريد ج١ ص٢٠).

(ى) ومن آداب الزيارة ألا يزار إنسان فى بيت لا استعداد فيه لمقابلة أحد، كأن يكون فى حجرة واحدة ومعه أهله، أو ليست مهيأة للاستقبال. فلتكن زيارته فى محل عمله مثلا، أو يتفق على زيارته فى مكان آخر. ولعل مما يشير إلى هذا الأدب، فوق أن العقل والعرف يقضيان به، تسفيه القرآن لجماعة أتوا إلى النبى ﷺ وهو فى بيت من بيوت زوجاته، وطلبوا منه الخروج اليهم أو مقابلته، وهم يعلمون أن حجره مخصصة لزوجاته، وليس فيها استعداد لمقابلة الوفود، إنما المكان المخصص لذلك هو المسجد إذ ذاك، والنبى يخرج إلى المسلمين فى أوقات الصلاة، وله وقت يستريح فيه مع أهله، كوقت القيلولة، وفى الليل، فكان الأليق ألا يزعجوه بندائه وهو فى حجرته، وأن ينتظروا حتى يخرج إليهم فى الأوقات المعتادة، أو باختياره هو لا بضغط منهم.

أخرج الإمام أحمد أن الأقرع بن حابس التميمى نادى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد يا محمد، فلم يجبه. وفى رواية أنه ناداه بقوله: يا رسول الله. قال: إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين. يريد بهذا أنه إن مدح أحدا زانه المدح، وإن ذمه شانه. فرد عليه النبى ﷺ « ذاك الله عز وجل » ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٤، ٥]. وجاء فى بعض الروايات عن ابن أبى حاتم أن جماعة من العرب قالوا لأنفسهم: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكا نَعش بجناحه، فذهبوا وجعلوا ينادونه وهو فى حجرته: يا محمد يا محمد، فأنزل الله « ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ . . .** ﴾ ورواه ابن جرير. « انظر تفسير ابن كثير ».

● المجموعة الثانية:

(١) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٨، ٥٩].

هاتان الآيتان تنظمان زيارة الأقارب بعضهم لبعض، وبخاصة من يعيشون فى مسكن واحد ويكثر تقابلهم واتصالاتهم، وعلى الأخص منهم الخدم والأطفال الذين يكثر دخولهم ولا يبالون بالاستئذان لكثرة اختلاطهم.

وقد جعل الله لاستئذان هؤلاء – وبالأولى غيرهم – أوقاتا يغلب فيها النوم والإخلاد إلى الراحة، بما يتبع ذلك من تخفف الملابس وتعرض العورات إلى الانكشاف، وهذه الأوقات هى:

(١) قبل صلاة الفجر، لأنه وقت النوم المستغرق غالبا.

(٢) وقت الظهيرة، وتغلب فيه القيلولة والتخفف من الملابس، وطلب الراحة بالنوم أو غيره.

(٣) بعد صلاة العشاء، لأنه وقت الاستعداد للنوم.

فهذه الأوقات يكون فيها الإذن مطلوبا، وذلك لغلبة التعرض لكشف العورات واطلاع الغير عليها. أما غير هذه الأوقات فيغلب فيها التحفظ، ويقل الحرج. وقد ورد عن ابن عباس أن الناس فرطوا فى هذا الأدب، وعلله بأنهم أولا كانوا لا يضعون ستورا على أبوابهم وحجالهم، فربما يفاجىء الخادم أو الطفل الرجل مع أهله، لكن لما أثْروا واتخذوا الستور والمخادع الخاصة تهاونوا فى الإذن، ظنا أنه لا حاجة إليه.

قال مقاتل بن حيان: بلغنا والله أعلم أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبى ﷺ طعاما، فجعل الناس يدخلون بغير إذن. فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا!! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن. فأنزل الله هذه الآية «تفسير ابن كثير».

وقيل: إن النبى ﷺ أرسل مُدْلج بن عمرو (الغلام) إلى عمر وقت الظهيرة، فرآه نائما منكشفا. فقال عمر: لوددت أن الله نهى عن ذلك، فنزلت الآية.

قال المحققون: هذه الآية محكمة لم تنسخ بآية ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ منكُمُ الْحُلُمَ....** ﴾ لأن البالغ يستأذن فى كل وقت. أما الأطفال ففى هذه العورات الثلاث.

ولا يجوز أن يستهين أحد بالاستئذان على أمه مثلا، فقد قال ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. وعن عطاء بن أبى رباح أنه سأل ابن عباس: أستأذن على أختى أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد؟ قال: نعم. فرددت عليه ليرخص لى، فأبى. فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: فاستأذن.

وسأل رجل أبا موسى عن الاستئذان على أبويه. قال: استأذن. أيسرك أن ترى منها عورة؟ وكذلك سأل رجل حذيفة عن الاستئذان على أمه، فقال: إنك إن لم تستأذن عليها رأيت منها ما يسوءك «المطالب العالية ج ٢ ص ٤١٩»، والأثران صحيحان.

والدخول على الزوجة والمملوكة لا يجب له الاستئذان، بل يستحب، وبخاصة إذا كان قادما من سفر. وسيأتى فى بحث حقوق الزوجين - الجزء الثالث من هذه الموسوعة - تفصيل لهذا الأدب وعدم الطروق على الأهل ليلا.

* * *

الفصل السادس

الملامسة

قد تطلق الملامسة ويراد بها الجماع، كما قاله بعض المفسرين فى سورة المائدة فى قوله تعالى ﴿ **أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾[النساء: ٤٣]. وأقصد بها هنا أن يمس جسم أحد الجنسين جسم الجنس الآخر على أى نحو من الأنحاء، وبأى عضو من الأعضاء.

والتلامس بين جسم الذكر والأنثى قيل حكمه حكم النظر. فما حل منه. فهو حلال، وما حرم فهو حرام، بل إن الحرمة فيه أشد، لأن فيه اتصالا مباشراً بين الجنسين، أو تلاقيا للقطبين، فالفتنة معه أقوى وأقرب.

ولهذا لا يباح إلا لمثل ما يباح له النظر، أي للضرورة أو الحاجة الملحة كالتمريض، والإنقاذ من خطر ونحوهما. نقل المودودى فى كتابه «الحجاب» عن تكملة «فتح القدير ج٨ ص ٩٨» أن عبدالله بن الزبير استأجر عجوزا لتمرضه، وكانت تغمز رجليه وتَفْلى رأسه، وتقدم ذلك فى ص ١٢٠، كما تقدم إذن النبى لأحد السيدات بأن تحتجم عند أبى طيبة، والإشارة إلى مهمة النساء فى الغزوات التى منها مداواة الجرحى، وبالطبع لا يتم ذلك إلا بالملامسة.

ومما ورد فى النهى عنه:

(١) حديث «لا يُفْضِى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ......» وقال النووى معلقا عليه: إن النهى للتحريم إذا كان بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأى موضع من بدنه كان. وهذا متفق عليه أهـ.

(٢) عن أبى الحصين الهيثم قال: سمعت أبا ريحانة يقول: نهى رسول الله ﷺ عن عشرة....... وعن مكامعة المرأة المرأة بغير شعار. رواه أبو داود والنسائى، والمكامعة أن يجتمع الرجلان أو المرأتان فى إزار واحد لا حاجز بينهما «حسن الأسوة».

وإذا كان التلامس بين الأنواع المتجانسة، أو بين أفراد النوع الواحد، حراما فهو حرام من باب أولى بين الأنواع المختلفة.

(٣) حديث « لأن يَزْحَم رجل خنزيرا متلطخا بطين أو حَمْأة خير له من أن يزحم مَنْكبه منكب امرأة لا تحل له » رواه الطبراني عن أبى أمامة وقال: غريب.

والحمأة هى الطين الأسود المنتن. وظاهر الحديث أن المزاحمة بالمناكب مع سترها، فكيف إذا كانت غير مستورة؟

(٤) حديث « أنْ يُطْعَن فى رأس أحدكم بمخْيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له » رواه الطبرانى والبيهقى عن معقل بن يسار. ورجال الطبرانى ثقات رجال الصحيح. وروى: « من مس امرأة ليس منها بسبيل وضع على كفه جمرة يوم القيامة ».

وإطلاق الحديث يدل على حرمة المس سواء أكان بحائل أم بغير حائل، وفى أى موضع من الجسم.

(٥) حديث « إذا استقبلتك المرأتان فلا تمر بينهما، خذ يمنة أو يسرة » رواه البيهقى عن ابن عمر بسند ضعيف « الجامع الصغير ».

ولخطورة التلامس فى الفتنة أمر الإسلام أولياء الأمور بتدريب الصغار على تجنبه، وذلك بالتفريق بينهم فى المضاجع. ففى الحديث « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع » رواه أحمد وأبو داود، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وروى نحوه ابن الجوزى فى « آداب النساء ».

وقد قال العلماء فى ذلك: نوم الأطفال فى فراش واحد إن كانوا ذكورا فقط، أو إناثاً فقط، وأُمنَ ثوران الشهوة جاز. وقد تحتمل الكراهة لاحتمال حدوثها أى الشهوة، وإن خيف ثورانها حرم. وإن كان الأولاد ذكرا وأنثى وهم أخوة محارم كان الحكم كذلك، أما إذا لم تكن بينهم محرمية فهو حرام. وقد

أطلق الإمام جعفر الصادق القول بجواز نومهم فى فراش واحد إذا كانوا ذكوراً فقط، أو إناثا فقط، أى بدون شرط الأمن على ثوران الشهوة، ولا يكون التفريق عنده إلا بين الجنسين[1].

والتلامس قد يأخذ أشكالا خاصة بعضها فى نهاية الخطورة، منها:

(١) المصافحة:

والمصافحة باليد بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة ليست مباحة فقط، بل هى مستحبة بوجه عام لأثرها الكبير فى تقوية الروح الجماعية بين المسلمين بوجه خاص. وجاءت فى ذلك عدة أحاديث، منها:

(أ) حديث «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا» رواه أبو داود والترمذى عن البراء. وحسنه.

(ب) حديث «إن المؤمن إذا لقى المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر» رواه الطبرانى بإسناد جيد عن حذيفة ابن اليمان.

(جـ) حديث «إن المسلم إذا لقى أخاه فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر» رواه الطبرانى عن سلمان بإسناد حسن.

أما المصافحة بين الجنسين، فإن كانت بحائل فلا حرمة فيها، وإن كانت بغير حائل فهى محرمة، وهى ليست كالمزاحمة بالمناكب حيث حرمت ولو كانت المناكب مستورة، لأن المزاحمة يقصد بها الشر، أما المصافحة فغالب استعمالها هو الخير، ومع ذلك احتاط الإسلام لها فمنعها بدون حائل. وفى الخطيب ج٢ ص١٢٢: حيث حرم النظر حرم المس. لأنه أبلغ منه فى اللذة وإثارة الشهوة. وفى

---

(١) فى الخطيب وعوض ج٢ ص ١٢٢: ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين فى ثوب واحد إذا كانا عاريين وإن كان كل منهما فى جانب من الفراش، ولو كانا محارم كأب وابنه وأم وبنتها وأخ وأخيه وأخت وأختها. فإذا كان مع اتحاد الجنس حراما فمع عدم الاتحاد أولى.

حاشية عوض: وتسن مصافحة عند اتحاد الجنس. فإن اختلف فإن كان مع محرمية أو زوجته أو صغير لا يشتهى أو مع كبير بحائل جازت من غير شهوة ولا فتنة.

ومدار الحكم فى المصافحة بالذات على الأحاديث الواردة فى بيعه النبى ﷺ للنساء. فقد وردت فيها عدة أحاديث، منها:

(أ) قوله ﷺ: «قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة» وذلك ضمن حديث طويل رواه مالك والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أميمة بنت رقيقة (رقيقة بنت خويلد أخت السيدة خديجة) أنها جاءت رسول الله ﷺ فى نسوة من الأنصار، فقلن: نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك فى معروف. فقال: «فيما استطعتن وأطقتن» فقلن: الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا، هلم نبايعك. قال سفيان رحمه الله: تعنى: صافحنا. فقال: «إنى لا أصافح النساء. إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة»[1]. وفى رواية أحمد «أنى لا أصافح النساء، إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة».

(ب) قالت عائشة: والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام «رواه مسلم ج١٣ ص١٠» وفى البخارى زيادة: والله ما أخذ رسول الله على النساء إلا بما أمره الله، يقول لهن إذا أخذ عليهن: قد بايعتكن كلاما «ج٧ ص ٦٤».

(جـ) جاء فى رواية البخارى فى حديث المبايعة الذى روته أم عطية، نسيبة بنت الحرث، قولها: فقبضت امرأة يدها. «الزبيدى ج٣ ص ٢١٣».

(د) روى ابن خُزيمة وابن حِبان والبزار قصة المبايعة عن أم عطية، وجاء فيها: فمد يده من خارج البيت، ومددنا أيدينا من داخل البيت.

(هـ) وروى أبو داود فى مراسيله عن الشعبى أنه ﷺ حين بايع الناس أتى ببرد قطرى، فوضعه على يده، وقال «لا أصافح النساء».

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى بشرح العزيزى ج٢ ص ٥٦.

(و) وروى أيضاً : أن النبى ﷺ دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسن أيديهن .

(ز) قالت أسماء بنت يزيد : دعا رسول الله ﷺ نساء المؤمنين إلى البيعة . فقالت أسماء يا رسول الله ألا تَحْسِرُ لنا عن يدك ؟ فقال : « إنى لا أصافح النساء » وإسناده حسن . « المطالب العالية ج٢ ص ٢٠٨ » .

أكثر الروايات تدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يصافح النساء فى المبايعة . وأما ما يفهم من بعضها أنه صافحهن ، كقول أم عطية : فقبضت امرأة يدها « أى لم تبايع » وقولها : فمد يده من خارج البيت ، ومددنا أيدينا من داخل البيت . فقد أوله بعضهم على أن معنى القبض هو عدم الموافقة على البيعة ، وهو لا يستلزم أن تكون هناك مصافحة سابقة . وأن مد يده ومد أيديهن لا يلزم منه المصافحة أيضاً ، بل كانت البيعة بالإشارة .

وللجمع بين الروايات ، ولقوة أحاديث عدم اللمس ، يقال : إن النبى ﷺ حدثت منه عدة مرات فى المبايعة ، بايع فى بعضها بالمصافحة ، وكان ذلك بحائل ، وفى بعضها الآخر بغير مصافحة ، فروى كل ما رآه[1] .

وسيأتى مزيد لهذه النقطة فى الجزء الثالث إن شاء الله عن حقوق الزوجين « التجمل » .

وإذا كانت المصافحة فى هذا الأمر الهام ، وهو البيعة ، ممنوعة بغير حائل ، بل بحائل على بعض الروايات ، فإنها بدون حاجة وبدون حائل تكون أشد منعاً . وبخاصة إذا كانت هناك ريبة فى المصافحة .

---

(١) فى كتاب الفقه على المذاهب الخمسة لمحمد جواد مغنية : أنه لا تلازم بين جواز النظر وجواز اللمس فيحرم لمس وجه المرأة وكفيها وإن جاز النظر إليهما ، وقال الحنفية كما فى حاشية ابن عابدين (ج١ ص ٢٨٤) : الشابة لا يجوز مس وجهها وكفيها وإن جاز النظر إليهما ، أما العجوز لا تشتهى فلا بأس بمصافحتها ومس يدها أن أمن الشهوة ، وأجاز الحنفية والامامية مس جسد المحارم بغير شهوة وتلذذ . ومنع الشافعية مس كل ما يجوز النظر إليه من المحارم حتى أنه لا يجوز للرجل عندهم أن يمس بطن أمه ولا ظهرها ، ولا يغمز ساقها ورجلها ، ولا يقبل وجهها ، وكذا لا يجوز للرجل أن يأمر ابنته أو أخته أن تغمز رجله (تذكرة العلامة الحلى ج٢ أول باب الزواج) .

ولا يستثنى من هذا المنع إلا المحارم والعجائز. أما الشواب الأجنبيات فمصافحتهن ممنوعة بغير حائل. بل قال بعضهم: ولو بحائل. وذلك منعا للفتنة، واحتياطا لدرء الخطر، وقد يرجع فى ذلك إلى شعور المتصافحين، وهم به أدرى. قال بعض العلماء بكراهة المصافحة مستدلا بأن النبى ﷺ لما امتنع عن مصافحة النساء في البيعة أذن لهن أن يذهبن إلى عمر ليبايعهن، فالإذن دليل على عدم الحرمة، ذكره القرطبى في سورة الممتحنة.. وروى بصيغة التمريض. وقال ابن العربى: إنه ضعيف والمعول على الصحيح. وما ذكر من أن عدم مصافحة النبى للنساء من خصائصه لا دليل عليه.

وسيأتى الحديث عن المرأة التى قال فيها زوجها «إن امرأتى لا ترد يد لامس»، وذلك فى الجزء الثالث إن شاء الله[١].

(٢) التقبيل:

التقبيل لون من ألوان الملامسة، وهو وضع الشفتين على موضع من الجسم بما يشبه محاولة أخذ شيء منه.

وهو تقليد قديم منتشر بين الأمم والشعوب، وله دلالات وأغراض مختلفة، فقد يكون للتحية، وقد يكون للاستحسان، وقد يكون للتكريم، وقد يكون للرحمة، وقد يكون لغير ذلك.

والقبلة قد تطبع على اليد، أو على الخد، أو الشفة، أو الرأس، أو أى عضو آخر من أعضاء الجسم. وقد تكون بين جنس واحد، وبين جنسين مختلفين. بل قد تكون بين الإنسان والحيوان أو الجماد كمن يقبل فرساً عزيزاً عليه، أو يقبل مصحفا أو كتابا واردا من حبيب، أو أثرا من الآثار.

وقد استعمل التقبيل كثيرا فى التحية، وإن كانت بعض الشعوب تستهجنه، كما يقول الرحالة محمد ثابت فى كتابه «بنات حواء» واستبدلوا به عادات أخرى، هى فى نظر من يستعملون القبلة مستهجنة، وللناس فيما

(١) قال العراقى: إنه مرسل، وقيل موضوع «الإحياء ج٢ ص ٣٤».

يعشقون مذاهب، فتحية اليابانيين وسكان المحيط الهادى، بل عند العرب فى الجزيرة هى مس أنوف بعضهم ببعض، وعند همج استراليا يوضع الوجه بأكمله على الوجه، وفى الصين ومنغوليا يضعون الأنف والفم على الخد، ويستنشقون الهواد بشهقة تسترعى النظر.

وقد جاء الإسلام والعرب تشيع بينهم القبلة لأغراض مختلفة، منها تقبيل القادم من السفر، وتقبيل الوالدين للولد، وتقبيل الصغير للكبير احتراماً وتوقيراً.

وتعرف القبلة عند الفرس باسم «البوس»[1] وتشيع فى العامية العربية باسم «بوسة» واللفظ الفرنسى قريب منها «بيزيه». وألف بعض العلماء كتابا خاصا فى أحكام التقبيل، منهم: إبراهيم بن سليمان بين محمد بن عبد العزيز الحنفى الجنينى، من جنين وسكن دمشق، وتوفى سنة ١١٠٨هـ ألف رسالة باسم «رحيق الفردوس فى حكم الريق والبوس» ومنهم: الصديق الغمارى الحسنى المغربى، ألف رسالة باسم «إعلام النبيل بجواز التقبيل». وستأتى معلومات عن القبلة فى نهاية الحديث عنها.

تقدم أن التقبيل له أغراض مختلفة قديما وحديثا وله أشكال متعددة، ومن مأثور الإمام على كرم الله وجهه: قبلة الوالد عبادة، وقبلة الولد رحمة، وقبلة المرأة شهوة، وقبلة الرجل أخاه دين[2].

فإذا كانت القبلة بين الرجل والرجل، أو بين المرأة والمرأة للتحية والتكريم، مع أمن الشهوة فلا مانع منها شرعا، وهى تكون غالبا فى اليد أو الرأس لأنهما موضع التكريم. ومحل الجواز إذا لم يقصد بالقبلة دنيا ينالها، ولولاها ما كانت القبلة التى لا يبررها شىء آخر، فتقبيل يد الفاسق لتكريمه ممنوعة لأنه لا يستحق التكريم، وتقبيلها لغرض دنيوى حتى لو لم يكن فاسقا غير محمود أيضاً.

---

(١) غذاء الألباب للسفارينى ج ١ ص ٢٨٦.
(٢) غذاء الألباب ج ٢ ص ٣٨٨.

أما تقبيل يد الفاسق خوفاً من بطشه مع امتعاض النفس منه فلا مانع، وذلك للضرورة.

والقبلة للجنس الواحد فى فمه مستهجنة، لأن الفم ليس موضع التكريم، فالقبلة فيه للتلذذ غالباً، وقد قال العلماء: إنها مكروهة إن كانت بغير شهوة، وحرام إن كانت هناك شهوة، كتقبيل المرد. على أن الطب يستهجن قبلة الفم بأى حال ولأى غرض، اتقاء للعدوى.

ومما يدل على جواز التقبيل فى غير الفم للتحية والتكريم بين أفراد الجنس الواحد: أن النبى ﷺ تلقى جعفر بن أبى طالب عند عودته من الحبشة، فالتزمه وقبل ما بين عينيه.

وقبل أيضاً زيد بن حارثة عندما دخل عليه فى بيت عائشة، حيث قام إليه النبى ﷺ عريانا يجر ثوبه، كما تقول عائشة: والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبله.

والنبى ﷺ كما أجاز القبلة بفعله أجازها بإقراره، حيث سمح لغيره أن يقبله، فقبل الصحابة العائدون من « مؤتة » يده. ذكر ابن عمر حديثهم وهم عائدون من الغزوة ليلا، حتى لا يراهم أحد، ومقابلتهم للنبى ﷺ وقولهم له: نحن الفرارون. فقال لهم « أنتم العكارون » أى الكرارون. فقبلوا يده. ذكره البخارى فى الأدب المفرد. وكذلك سمح لوفد عبد القيس أن يقبلوا يده. روى أبو داود عن أم أبان بنت الوازع بن زارع عن جدها زارع، وكان فى وفد عبد القيس، قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد رسول الله ورجله. وكذلك قبله أسيد بن حضير فى كشحه تبركا، حين طلب أن يكشف عنه ليأخذ بالقصاص من طعنة النبى له بعود. رواه البيهقى بإسناد رجاله ثقات « غذاء الألباب ج١ ص ٢٨٨، ٢٨٩ » والكشح هو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. وفى شرح البخارى لابن حجر أن الذين تاب الله عليهم لتخلفهم عن تبوك قبلوا يده حين تاب الله عليهم. وروى أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم، بأسانيد

صحيحة: أن يهوديين سألا رسول الله ﷺ عن تسع آيات بينات . . . . فقبلا يده ورجله وأسلما . « رياض الصالحين – استحباب المصافحة » والمرجع السابق .

والصحابة أيضاً كان يقبل بعضهم بعضاً، وإن كانوا يتعففون أن يقبلوا للتكريم، تواضعاً ودفعاً للكبر . لما قدم عمر رضى الله عنه الشام قبل أبو عبيدة يده « غذاء الألباب ج١ ص ٢٨٧ » وجاء فى ص ٢٢٨ : أن عمر قبض يده منه فتناول أبو عبيدة رجله . وجاء فى رواية أنه قبل رأسه « كشف الغمة ج٢ ص٧٦ » .

وقبل زيد بن ثابت يد عبد الله بن عباس حين أخذ ابن عباس بركابه . قال ابن عبد البر : صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه، فقربت له بغلته ليركب، فأخذ ابن عباس بركابه، فقال زيد : خل عنها يابن عم رسول الله . فقال ابن عباس : هكذا نفعل بالعلماء . لأنه كان يأخذ عنه العلم . فقبل زيد يده، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا . وجاء فى الأدب المفرد للبخارى أن الناس قبلوا يد سلمة بن الأكوع لما علموا أنه بايع النبى ﷺ بها .

والموضوع طويل يمكن استيفاؤه من غذاء الألباب للسفارينى « ج١ ص٢٨٨ » .

والذى رخص فى التقبيل للتكريم والتدين هو أحمد وغيره من الأئمة . أما مالك وجماعة آخرون فقد كرهوه، وقالوا : إن مد اليد ليقبلها الغير ممنوع بلا نزاع، لأنه يشعر بالعجب والكبرياء . وقد يقال لهؤلاء : هذا فى مد اليد للتقبيل، لكن لو تقدم إنسان مختاراً بدون أن يطلب منه بلسان الحال أو المقال، وقبل إنسانا فى يده أو رأسه فلا مانع منه ولا حرج على المقبل وإن كان الحرج على المقبل على مذهبهم، الذى تعارضه الأدلة السابقة .

هذا هو حكم القبلة بين الجنس الواحد، أما القبلة بين الجنسين فإن حكمها يتحدد بسبب الغرض منها، وبحسب موضع التقبيل .

(أ) فقد تكون القبلة للعطف والحنو، كتقبيل الوالد لبنته، والوالدة

لابنها، وكتقبيل الأخ لأخته والأخت لأخيها. وهذه لا مانع منها ما لم يكن ذلك بشهوة فقد قبل النبى ﷺ بنته فاطمة، روى النسائى والترمذى، وقال: حسن صحيح عن عائشة أنها قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمتا وهديا ودلا برسول الله ﷺ من فاطمة، كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها وقبلها، وأجلسها فى مجلسه. «غذاء الألباب ج١ ص ٢٧٨». وجاء فى المواهب اللدنية للقسطلانى «ج١ ص ١٩٨» أن النبى ﷺ كان يقبلها فى فيها «فمها» ويمصها لسانه. وذكر البخارى فى الأدب المفرد حديث عائشة فى تقبيل النبى لفاطمة وهو فى مرضه الأخير

كذلك ثبت أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قبل بنته عائشة، ففى البخارى فى حديث الهجرة: أن أبا بكر اشترى من عازب رحلا، فحمله معه ابنه البراء. قال البراء: فدخلت مع أبى بكر على أهله، فإذا عائشة بنته مضطجعة قد أصابتها حمى، فرأيت أباها يقبل خدها. وقال: كيف أنت يا بنية؟ رواه مسلم وأحمد «غذاء الألباب ج١ ص ٢٩٢». كما ورد أن خالد بن الوليد قبل أخته «المصدر السابق».

(ب) وقد تكون القبلة بين الجنسين للبر والتكريم، كتقبيل الولد لأمه، والبنت لأبيها، وكتقبيل الرجل لمن يكبره من محارمه كعماته وخالاته، أو المرأة لمن يكبرها من أعمامها وأخوالها مثلا، والتقبيل بين هؤلاء،يكون غالباً فى الرأس أو اليد، ولا مانع منه. لكنه يكره فى المواضع الحساسة كالخد والفم إن كان بغير شهوة، أما إن كان بشهوة فهو حرام.

(جـ) وقد تكون القبلة بين الجنسين للذة. ويغلب أن تكون بين الزوجين وبين الأجانب. وإن جاز أن تكون للتكريم.

فالقبلة بين الزوجين جائزة فى أى موضع من المواضع، وذلك لا يحتاج إلى دليل، فإن ما هو أشد من القبلة جائز بحكم الرباط الزوجى، على أنها قد تستحب لتمام المتعة وتقوية أواصر المحبة.

أما قبلة اللذة بين الأجانب، سواء أكانت بين حبيبين أم لا فإنها محرمة أشد التحريم، لأنها أقوى في الفتنة من مجرد الملامسة التي حرمها الشرع كما سبق بيانه. وتشتد الحرمة أكثر إذا كانت في المواضع الحساسة كالخد والفم، فإنه ليس بعد ذلك إلا الخطر الأكبر في غالب الأحوال.

وقد كانت هذه القبلة منية العاشقين، وللشعراء في ذلك آثار كثيرة.

ومن طريف ما يحكى في الأدب العربي أن أم البنين[1]، أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك بن مروان، قالت لعزة بنت جميل الضمرية، التي كان يهيم بها كثير بن عبد الرحمن: ما معنى قول كثير؟

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعــزة ممطــول مُـعَنًّى غريمهــا

ما كان هذا الدين؟ قالت: وعدته قبلة ثم رجعت عنها. فقالت أم البنين: أنجزيها وعليَّ إثمها. فأنجزتها. فأعتقت أم البنين أربعين عبدا عند الكعبة، وقالت: اللهم إني أبرأ إليك مما قلته لعزة. «النجوم الزاهرة ج١ ص ٢٥٦»[2].

وحدث أن رجلا اختلس قبلة من امرأة، فأخبر النبي ﷺ بذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٤]. روى مسلم وغيره عن أبي هريرة «الترغيب ج٣ ص ٢٥». وفي رياض الصالحين «باب الرجاء» عن ابن مسعود: إن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» متفق عليه.

وجاءت في هذه الحادثة عدة روايات اختلف فيها اسم هذا الرجل، فقيل:

---

(١) انظر لقبها في العقد الفريد ج٢ ص ٢٣٨ في أخبار الوليد بن عبد الملك، وانظر خبر الولادة امرأة عبد الملك بن مروان في تاريخ السيوطي ص ١٨٦.

(٢) قيل: إن التي قالت لعزة ذلك هي عاتكة بنت يزيد زوجة عبد الملك بن مروان، وأنها قالت لها: هلا كنت قضيتها له وعلى اثمها؟ ثم ندمت عاتكة على قولها وأعتقت أربعين رقبة. فهي هنا ندمت على تحريضها لعزة، وعزة لم تفعل. ثمرات الأوراق لابن حجة على هامش المستطرف ج ١ ص ٥٠.

اسمه أبو اليسر بن عمرو . وقيل : عباد . وقيل : نبهان وكنيته أبو مقبل . وقيل اسمه عمر أو عمرو بن غزية ، كما فى أسد الغابة لابن الأثير . وقيل غير ذلك . وإليك بعضا من هذه الروايات :

روى الترمذى أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا ، فاقض فىَّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ، لو سترت على نفسك ! ! فلم يرد الرسول ﷺ عليه شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله رجلا ، فدعاه ، فتلا عليه ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ . . .** ﴾ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ قال : « لا ، بل للناس كافة » قال الترمذى : حسن صحيح . وفى رواية أيضاً : فقال الرجل : ألى هذه يا رسول الله ؟ فقال « لك ولمن عمل بها من أمتى »[1] .

وجاءت رواية أن أبا اليسر أتته امرأة تبتاع تمرا ، وكان زوجها غائبا فى الجهاد ، فأخبرها أن فى البيت تمرا أطيب ، فلما دخلت بيته قبلها ، فذكر ذلك لأبى بكر ، فنصحه بستر ذلك وعدم إخبار أحد ، لكنه لم يطق صبرا ، فأخبر عمر ، فنصحه بمثل ذلك ، فلم يطق صبرا ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك ، فأنبه قائلا « أخلفت غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا » ؟ حتى تمنى أن لم يكن أسلم إلا هذه الساعة . حتى ظن أنه من أهل النار . وأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاَةَ . . .** ﴾ فقرأها على أبى اليسر . فقال أصحابه : ألهذا خاصة ؟ أم للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » وقال الترمذى : حسن صحيح .

وروى أن النبى ﷺ أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر ، فلما فرغ منها نزل جبريل بالآية ، فدعاه ، فقال له « أشهدت معنا الصلاة » ؟ قال : نعم . قال « اذهب

---

(١) فى تفسير ابن كثير أن هذه الرواية ليس سندها متصلا . وأخرجها النسائى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا . أو منقطعا ، فان ابن أبى ليلى لم يلق معاذا ، انظر تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **أو لا مستم النساء** ﴾ سورة النساء ص ٢٧٧ « طبعة الشعب » .

فإنها كفارة لما فعلت» . وفى رواية: لما تلا عليه هذه الآية قال له «قم فصل أربع ركعات»(١) .

وجاء فى ص ٢٠٩ ج٤ من تفسير القرطبى: أن نبهان التمار – وكنيته أبو مقبل – أتته امرأة حسناء وباع منها تمرا، فضمها إلى نفسه وقبلها. فندم على ذلك، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له. فنزلت هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران ١٣٥] .

وفى أسد الغابة« ترجمة نبهان التمار» أنه ضرب على عجيزتها، فقالت: والله ما حفظت غيبة أخيك، ولا نلت حاجتك. فسقط فى يده. فذهب إلى رسول الله ﷺ فأعلمه فقال له رسول الله: إياك أن تكون امرأة غاز»؟ فذهب يبكى. فقام ثلاثة أيام يصوم النهار، ويقوم الليل، فلما كان اليوم الرابع أنزل الله هذه الآية. وهى ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** . . . ﴾.

وفى القرطبى أيضاً: أن سبب نزول هذه الآية أن ثقفيا خرج فى غزاة، وخلف صاحبا له أنصاريا على أهله. فخانه فيها، بأن اقتحم عليها، فدفعت عن نفسها، فقبل يدها. فندم على ذلك فخرج يسيح فى الأرض نادما تائبا. فجاء الثقفى فأخبرته زوجته بفعل صاحبه، فخرج فى طلبه، فأتى به إلى أبى بكر وعمر، رجاء أن يجد عندهما فرجا، فوبخاه. فأتى النبى ﷺ فأخبره بفعله، فنزلت هذه الآية.

ولا بأس من تعدد الأسباب لنزول آية واحدة، أو من نزول أكثر من آية فى سبب واحد.

هذا هو حكم القبلة بين المكلفين، أما تقبيل أحد الجنسين لصغير من الجنس الآخر، فالغالب أنه للعطف والحنو، وهو غير ممنوع، أما إن كان

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ١١١، ١١٢.

للجاذبية الجنسية كجمال الصغير أو الصغيرة فإنه يكون ممنوعا . والإنسان أدرى بحاله إذ ذاك .

هذه هى القبلة التى كثرت فى زماننا، نقلا عن المدنيات الأخرى التى جعلت لها نظماً وآدابا، ضمن النظم والآداب العامة فى الحياة الاجتماعية والمقابلات والزيارات، وأصبحت تقع تحت سمع الأزواج والآباء والأمهات، وتحت بصرهم، وتتم فى سخاء نفس وبرود يدلان على ضعف الغيرة وعلى روح التحلل، وبخاصة إذا طبعت القبلة على الأفواه والخدود والأماكن الحساسة بين الجنسين، وكثرت كتحية بين كل جنس بدل المصافحة أو معها، وهى عادة لها ضررها الصحى كما يقول المختصون إلى جانب ضررها الأخلاقى . هذا، وقد جاء فى الخطيب وحاشية عوض ج٢ ص ٢٢ : كراهة المعانقة والتقبيل فى الرأس إلا لقادم من سفر أو تباعد لقاء عرفا فسنة للاتباع، وذلك عند اتحاد الجنس، فإن اختلفا فإن كان بحائل جاز مع الكراهة إن كانت من غير شهوة ولا فتنة، فإن كانت من غير حائل حرمت مطلقا، وتكره مع المحارم من غير شهوة مع الحائل . وهذا فى غير الشابة المشتهاة، أما هى فحرام مطلقا .

وتزويدا للقارىء بالثقافة عن القبلة أخص له بعض المعلومات التى كتبها « سمير بساط » فى مجلة الحوادث التى تصدر فى بيروت بتاريخ ٢٤/٥/١٩٧٤ والتى قال : إن لها مسابقات تعقد لمعرفة أيهم أتقن تقبيلا وأطول نفسا . يقول والعهدة عليه فيما يقول :

ليس للقبلة أول معروف كعلامة للحب[١]، وأجمع المؤرخون على أن عام ٥٠٠م هو العام الذى أخذت فيه القبلة معناها الشائع الآن . وقبل ذلك كانت للاحترام والخضوع للزعماء الدنيويين أو الروحيين .

---

(١) يقول المؤرخ اليونانى « بلوتارك » الذى عاش ما بين عامى ٤٥، ١٢٥ : أن البشر عرفوا القبلة بعد أن أصدر الرومان قانونا يمنع النساء من شرب الخمر، ولكى يتأكد الأزواج من عدم مخالفة زوجاتهم للقانون أخذوا يشمون زوجاتهم، ويبدو أن الأزواج أعجبوا بالشم فتطورت العادة إلى التقبيل « مجلة أكتوبر ٣٠/٧/١٩٧٨ » .

ومن الأشكال المختلفة للتقبيل عرف أقدم شيء منها في امبراطورية « انكا » في « البيرو » واكتشف ذلك منذ ٥٠٠ سنة، فكان العاشق يمضغ قطعة من مادة الكوكا التي يصنع منها الكوكايين، ثم يضعها في فم عشيقته لتكمل مضغها، فتتم القبلة بينهما في جو النشوة من هذه المادة. ولعل صورته الحالية هي تبادل قطع الحلوى بين العشاق.

وفي الاسكيمو حاليا، تكون القبلة بحك الأنوف، كما يشاهد ذلك في بعض دول الخليج وأيضاً في أندونيسيا. وفي جزيرة « ساموا » يقبلون بالشم، فالعاشق يشم رائحة فتاته في كل مكان، والمغوليون يضعون أنوفهم برفق فوق جبين المحبوبة، ثم يتنفسون بعمق وهدوء. والأحباش لا يقبلون الفتاة، بل يسجدون ويقبلون الأرض التي مشت عليها.

وفي انجلترا، حتى اليوم، توجد قبلة شجرة « الميسلتو » — شجيرة عيد الميلاد — فالفتاة التي تقف تحت هذه الشجيرة تمنح القبلة لكل من يطلبها، والاعتقاد السائد هناك أن قبلة هذه الفتاة تجلب الحظ طول السنة. ثم فشت في انجلترا قبلة العريس لعروسه كجزء من تقاليد الزواج. وبعض المهتمين بالقبلة يرون أنها أحسن ما تكون في الفم، وآخرون يرون ذلك في الرقبة، أو فوق العينين.

ثم يقول : وللقبلات أغراض، منها الحب كالقبلة بين الحبيبين. وقبلة « المافيا » تعني الموت، ومنها قبلة الوداع للميت، وقبلة البروتوكول بتقبيل يد المرأة وهي منتشرة في فرنسا وفي انجلترا، والمرأة التي تسمح لرجل بتقبيل يدها تعني موافقتها على صداقته، أو معاشرته كزوج. ومن قبلات البروتوكول عادة تقبيل السيوف لدى ضباط الحربية. ومنها قبلة العلم تكريماً وحباً للوطن. ومنها قبلة المكر والخداع، كقبلة يهوذا للسيد المسيح وقبلة الحنان من الأهل للأطفال، وقبلة الصداقة للجنس الواحد.

ونظرا لأن في القبلة أخطاراً صحية واجتماعية وضعت بعض الدول لها قوانين.

ففي اليونان القديمة كان القانون يمنع التقبيل في الشارع، ومخالفة ذلك جريمة كالقتل العمد.

وفى اليونان أيضاً، من قبيل التأمين على الزوجات فى الشوارع كان الزوج يفرض على زوجته قبل الخروج أن تأكل كميات كبيرة من البصل لينفر منها الرجال إذا أرادوا تقبيلها. وحديثا فى ولاية «كونتكت» بأمريكا يحرم القانون تقبيل الزوج لزوجته نهار الأحد، لأنه مقدس، ويحال المخالفون إلى المحاكمة.

هذه معلومات عن القبلة وتاريخها وأغراضها وأنواعها، كان يكفى منها بيان الحكم الشرعى، ولكن – كما ذكرت فى منهج البحث – أحببت أن أتحف القارىء بما يذهب عنه الملل، فأخذته فى سياحة فى عالم من هذه العوالم التى بلغ من أهميتها عند بعض الناس أن وضعوا فيها كتبًا وأعدوا فيها بحوثاً ودراسات.

وأزيدك أيها القارىء إتحافا فأضع بين يديك هذه الصورة البلاغية الرقيقة للمرحوم الشاعر محمد الأسمر يصف فيها قبلته لحبيبته، لا ينتقده فيها عرف ولا يؤاخذه عليها قانون ولا دين:

عـــــــذراء مـن أرض قـنـا	شـــــــريفـــــــة المحـلـة
قـبلتـهـا فـقـهـقـهـقت	ضـــاحكـة من قــــبلـتى
ولـم أزل ألـثـــمـــهـــا	حـــــتى رويـت غـلـتـى
حـبـيـبـتى تلك ومـا	عنيت غـيـــر «قلتى»[1]

(١) إنها صورة بديعة يصور بها قبلته للقلة التى شبهها بالعذراء البكر المأخوذة من أرض «قنا» حيث الخامة الجيدة لصنع القلل، وهى شريفة من الأشراف الذين يسكنون هذه المنطقة، فحبيبته عذراء وشريفة النسب، قبلها فوضع فمه على فمها، فقهقهت، صار لها صوت يشبه صوت القهقهة من تدفق الماء من خروقها التى تشبه «اللهاة» بين جسمها وعنقها، حيث يخرج صوت القهقهة، فرحة ضاحكة بقبلته لها.

ولعطشه الشديد وشوقه الغامر لما يطفىء غلته من حبيبته استمر يلثمها ويقبلها لا يرفع فمه عن فمها حتى روى غلته وشبع. والقلة الجديدة العذراء ماؤها أسرع برودة ورائحتها أطيب، وكذلك البكر من النساء أنها حبيبته التى أثلجت صدره، ونقعت غلته، وهدأت نفسه، وإذا كانت القبلة بين المحبين من البشر تؤدى هذه الرسالة، فإن حبيبتى الأثيرة عندى ليست من البشر، بل من الطين الذى هو أصل البشر، إنها قلتى. أهـ.

نقع = سكن، والغلة = حرارة العطش.

غسل الميت :

مما يتصل بموضوع الملامسة بين الجنسين غسل الميت ودفنه .

ففى غسل الزوج لزوجته وردت أحاديث وآثار منها :

(أ) روى أحمد وابن ماجه عن عائشة أنها قالت : رجع إلى رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع ، وأنا أجد صداعا فى رأسى وأقول ، وارأساه ! ! فقال : « بل أنا وارأساه ، وما ضرك لو مت قبلى فغسلتك وكفنتك ، ثم صليت عليك ودفنتك » وأصل الحديث عند البخارى وليس فيه « غسلتك » نيل الأوطار جـ٤ ص ٢٩[١] .

(ب) روى الدارقطنى والبيهقى بإسناد حسن أن عليا غسل فاطمة « كشف الغمة ج١ ص ٢٠٦ » .

(جـ) أوصت فاطمة بنت عميس أن يغسلها على بن أبى طالب وأسماء ، فغسلاها[٢] . وغسل ابن مسعود امرأته حين ماتت . « المصدر السابق » .

وفى غسل الزوجة لزوجها وردت أيضاً أحاديث وآثار منها :

(أ) روى أحمد وأبو داود والحاكم وصححه عن عائشة أنها كانت تقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسل النبى ﷺ إلا نساؤه .

(ب) أخرج البيهقى من طريق الواقد عن ابن أخى الزهرى عن عروة عن عائشة أن أبا بكر أوصى أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس ، فغسلته ولم

---

(١) أدب لطيف من النبى ﷺ فى معاشرة أزواجه ، شاركها المها فقال : بل أنا وارأساه ، كأنه يقول - على عاداتنا الآن - ليت الألم الذى بك يكون بى . أو كأنه يقول : إن شكواك من رأسك جعلتنى أحس بالألم فى راسى . ثم تابع لطفه معها ومداعبته إياها بأنها لو ماتت قبله لنالها شرف غسله لها وصلاته عليها . لكنها ، كما فى رواية البخارى ومسلم فهمت من كلامه لها أنه يحب موتها ليتزوج غيرها أو ليخلو ببعض نسائه فى يوم موتها ولا يحزن لفراقها ، ولكنه أشعرها بأنه هو الذى يشكو الألم وقد قربت نهاية حياته ، وهم أن يعهد إلى أبى بكر من بعده « انظر بحث تعدد الزوجات » .

(٢) وأخرجه الشافعى أيضاً . وأخرجه ابن عبد البر ، كما فى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج٣ ص ٢٠٦ ، حيث أوصت بذلك . ولم ينكر أحد من الصحابة على على وأسماء فكان إجماعا « نيل الأوطارج٤ ص ٢٩ » .

يخالف ذلك أحد من الصحابة « نيل الأوطار ج١ ص ٢٦٠ » . وروى مالك فى الموطأ أنها غسلته وكان اليوم شديد البرد وهى صائمة فلم تغتسل من غسله « نيل الأوطار ج١ ص ٢٦٠ » . وأخرج هذا الخبر أيضاً ابن أبى الدنيا عن ابن أبى مليكة « تاريخ السيوطى ص ٥٧ »[١] .

إزاء هذه المأثورات اختلف الفقهاء فى غسل أحد الزوجين للآخر، فجاء فى كتاب نيل الأوطار للشوكانى « ج٤ ص ٢٩ » : قال أحمد : لا تغسله لبطلان النكاح، ويجوز العكس عنده كالجمهور . وقال أبو حنيفة وأصحابه والشعبى والثورى : لا يجوز أن يغسلها، لمثل ما ذكر أحمد . ويجوز العكس عندهم كالجمهور، قالوا : لأنه لا عدة عليه، بخلافها .

وجاء فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة « طبعة وزارة الأوقاف المصرية » ما يلى :

لو مات الزوج فإن للزوجة أن تغسله، وذلك بالاتفاق، حتى لو كانت مطلقة . لكن أبا حنيفة وأحمد قالا : إذا كانت بائنا فليس لها أن تغسله ولو كانت فى العدة .

وإذا ماتت الزوجة غسلها زوجها، إلا أن أبا حنيفة منع ذلك، لأنها صارت أجنبية عنه . أهـ .

أما إذا مات رجل وليس هناك رجل يغسله، أو ماتت امرأة وليس هناك امرأة تغسلها، فقيل : يجوز غسل أحد الجنسين للآخر، وذلك للضرورة، وهو قول الحسن وعطاء . ويكون الغسل بصب الماء من فوق الثياب، وقيل : بل يكتفى بالتيمم، وهو مروى عن على « كشف الغمة ج١ ص ٢٠٦ » . وجاء فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ما يأتى :

---

(١) أسماء بنت عميس تزوجها جعفر بن أبى طالب، فلما استشهد تزوجها أبو بكر، وبعد موته تزوجها على بن أبى طالب « النجوم الزاهرة ج١ ص ١١٧ ونور البصائر للشبلنجى ص ٥٨ » توفيت سنة ٣٨هـ .

قال المالكية : إذا ماتت المرأة وليس معها زوجها ولا أحد من النساء، فإن كان معها محرم لها غسلها وجوبا، ولف على يديه خرقة غليظة، مع ستارة بينه وبينها . فإن لم يوجد محرم يممها واحد لكوعيها فقط . وإذا مات رجل ولم توجد زوجته غسلته محرمه بخرقة مع ستر عورته، فإن لم توجد محرمة يممته الأجنبية إلى المرفقين .

وقال الحنفية : إذا ماتت المرأة ولم تكن هناك نساء يممها المحارم إلى المرفق، ويممها الأجنبى مع وضع خرقة على يده وغض بصره . والزوج كالأجنبى، إلا أنه لا يكلف غض البصر . وإذا مات الرجل بين نساء ليس فيهن زوجته غسلته القاصرة، فإن لم توجد يممته إلى المرفقين، مع غض البصر .

وقال الشافعية : إذا ماتت بين رجال ليس فيهم زوج ولا محرم يممها الأجنبى إلى المرفقين مع غض البصر وعدم اللمس . أما الزوج فيغسلها، وكذلك المحرم إن لم يوجد الزوج . وإذا مات الرجل بين نساء ليس فيهن زوجته ولا محرم يممته الأجنبية بحائل، يمنع اللمس، مع غض البصر . أما الزوجة فتغسله وجوبا . وكذلك المحرم عند عدم الزوجة .

وقال الحنابلة : إذا ماتت المرأة ولم يوجد زوج يممها المحرم، وإلا يممها الأجنبى بحائل، وإذا مات الرجل ولم توجد زوجته يممته الأجنبية بحائل . أما المحرم فلا يشترط الحائل فى تيمم الرجل أو المرأة .

هذا هو حكم الغسل للميت بين الجنسين، أما الدفن والإنزال إلى القبر . فقد جاء فى : « كشف الغمة ج٢ ص ٣٠١ » لما ماتت زينب بنت جحش أراد عمر أن يدخل قبرها . فأرسل إليه أزواج النبى ﷺ : لا يحل لك أن تدخل القبر، بل يدخل من كان يحل له النظر إليها وهى حية . رواه البزار برجال ثقات . وجاء أيضاً فى الزرقانى على المواهب « ج٣ ص ٢٤٥ » وفى الزرقانى أيضاً « ص ٣٠٠ » أن النبى ﷺ أمر أن يبسط على قبر المرأة ثوب عند إدلائها من فوق السرير .

وذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد « ج٢ ص ١٨٥ » أن نائلة وأم البنين دلتا عثمان فى قبره . لكن عمل هاتين لا يعتبر تشريعا .

وإذا لم يوجد من كان يحل له نظرها دلاها الأجنبى للضرورة.

وبعد، فقد أفضنا فى حكم التلامس بين الجنسين بمظاهره المختلفة، ومن هذا العرض يعرف حكم بعض الرياضات التى يشترك فيها الجنسان كالمصارعة التى تنتهى بأن يصرع أحدهما الآخر بعد المعالجة والتماسك من مواضع حساسة، على الرغم من أنه يكون أحيانا من فوق الملابس التى يرتدونها، تلك الملابس التى تكشف عن أكثر الجسم، حتى لو كانت ساترة له كله فإن إمساك الأجنبى للأجنبية ممنوع. وكيف يكون شعور أحدهما وهو ملق للآخر على الأرض فى وضع له إيحاءاته الجنسية الكثيرة. بل كيف يكون شعور المتفرجين أيضاً وهم يشاهدون هذه المعارك الحامية بين الجنسين؟ إن ذلك بلاء عظيم.

وأولى بالإنكار الرقص المشترك بين الجنسين والتلامس الشديد، الذى يكون أحيانا فى مواضع حساسة، والمرأة بملابس الرقص الكاشفة، بل حتى لو كانت ساترة فإن التلاصق والإمساك ممنوعان.

كما يعرف حكم تعليم الرجل للفتيات السباحة، فإلى جانب النظر المحرم إلى جسم المرأة، فيه لمس لها كما تقضى أصول التعليم، وكذلك يحرم تصفيف أحد الجنسين لشعر الآخر «كوافير» فإن ذلك أمر لا تدعو إليه ضرورة، ويمكن للنساء أن يباشرنه مع بنات جنسهن، وكلنا يعلم خطورة هذه «الصالونات» على الأخلاق. فهل من غيرة للرجال على أزواجهم وبناتهم، وهل من غيرة فى الناس على الأخلاق والآداب؟

* * *

الفصل السابع

الكــــلام

الكلام من الوسائل التى يتم بها الاتصال بين الناس للتعاون على مشكلات الحياة. وليس من منطق الطبيعة أو العقل أن يمنع كل كلام بين الرجال والنساء، فهو ضرورة من ضرورات العيش الذى لا يتم إلا بمعونة الجنسين. وإنما الممنوع هو استغلال الكلام فى الشر عامة وفى إثارة الفتنة بين الجنسين بنوع خاص. فالكلام فى حد ذاته غير ممنوع. وإنما الممنوع ما يعرض له من نحو لين واحتواء على معان غير كريمة.

والرجل والمرأة فى هذا المنع سواء، غير أن النهى عنه ورد صريحاً فى حق المرأة، لأن لها من طبيعة الصوت ما تثور معه الفتنة، فالأغلب فى أصوات النساء هو الرقة، والرقة ذاتها تبعث على الفتنة عند ذوى القلوب المريضة، الذين لا يخلو منهم مجتمع. فكيف إذا انضم إلى هذه الرقة الطبيعية ما يزيدها تأثيراً وسحراً، من نحو نبرات خاصة ولحن مؤثر، كما تصطنعه بعض الممثلات فى الضحك مثلاً، ومن معان مثيرة كأغانى الحب والغرام.

إن الكلام عامل من عوامل الفتنة بين الجنسين كالنظر والملامسة، لأنه وسيلة اتصال ويترجم عن الأحاسيس والانفعالات ومكنونات الصدور. وهذا أمر طبيعى لا يحتاج إلى دليل من القرآن أو السنة. فأثره واضح فى حياتنا نحن البشر على مر العصور. ومما أثر من ذلك فى الأدب العربى: أن بشار بن برد «الأعمى»[1] أحب امرأة اسمها «عبدة» كانت تحضر مجلسه، وماغزا الحب قلبه إلا بكلامها، قال فيها:

قالوا: بمن لا ترى تهذى، فقلت لهم ... الأذن كالعين تُوفى القلب ما كانا

ما كنتُ أول مشغوف بجارية ... يلقى بلقيانها روحاً وريحانا

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(١) ولد بشار حوالى سنة ٩٨هـ وتوفى سنة ١٦٨هـ.

وقال فيها أيضاً :

يزهّدني في حب «عبدة» معشر — قلوبهم فيها مخالفةٌ قلبي
فقلت : دعوا قلبي وما اختار وارتضى — فبالقلب لا بالعين يبصّر ذو اللب
وما تبصر العينان في موضع الهوى — ولا تسمع الأذنان إلا من القلب[1]

أما الرجل فطبيعة صوته الخشونة، وهو لا يحمل أية فتنة في الأداء الطبيعي غالباً . وإنما فتنته في التصنع الرخيص الذي يتسفل به بعض الرجال فينزلون إلى مستوى النساء .

وفي الكلام اللين المثير قال تعالى في حق نساء النبي ﷺ : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

والمراد بالمرض هنا الفساد . والقول المعروف هو الذي يبيحه الشرع ولا ينكره العرف السليم . ولا يحمل ريبة أو شبهة . وقد قال العلماء : إن المطلوب من المرأة أن تكون خشنة الصوت عند مخاطبة الأجانب، حتى لا تكون فتنة . وهو معنى كلام «الخازن» في تفسيره لهذه الآية .

إن صوت المرأة في حد ذاته ليس بعورة، فكثيراً ما سألت الصحابيات رسول الله ﷺ عن أحكام الدين، كأسماء بنت يزيد بن السكن وافدة النساء، وكالمبايعات له الوارد في حقهن قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ...** ﴾ [الممتحنة : ١٢] . وكان الصحابة يكلمون النساء، وهن يكلمنهم . وثبت في صحيح مسلم أن أبا بكر الصديق وعمر الفاروق زارا أم أيمن بعد وفاة النبي ﷺ . وعلق النووي على ذلك بجواز زيارة الرجل للمرأة وسماع كلامها . وقد ردت المرأة على عمر وهو يخطب في المسجد الجامع في غلاء المهور ولم ينكر عليها .

ومازال نساء السلف أيضاً يروين الأحاديث، ويعلمن الناس، ويفتين في

---

(١) زهر الآداب للحصري ج١ ص ١٥٢ طبعة الحلبي .

الدين. وإنما عورة صوت المرأة تكون في لينه وإغرائه. أما حديثها العادي مع الرجال وحديثهم معها فلا حرمة فيه، إلا إذا صاحب ذلك خلوة. أو نظر محرم أو أية فتنة أخرى. وقد نص النووي على أنه ليس بعورة «شرح صحيح مسلم ج٣ ص ١٠».

على أن الحديث العادي إذا جاز بين الجنسين فمن المستحسن أن يكون في أضيق الحدود. وفي أمور لا تجر إلى فساد. يقول الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين «ج٢ ص ٥٤»: وإذا استأذن صديق زوجها على الباب، وليس البعل حاضراً، لم تستفهم، ولم تعاوده في الكلام، غيرة على نفسها وبعلها.

والإسلام حريص على ألا تسمع المرأة صوتها للرجال الأجانب، ومن ضمن تشريعاته في ذلك أنه لا يجيز لها الأذان لغير النساء الخلص. فإذا كانت تؤذن للنساء فقط كان الأذان بدون رفع صوتها أكثر مما يسمعهن. كما أنه كره لها رفع الصوت بالقرآن. وقرر العلماء أنه إذا نابها، أي اعتراها، شيء في الصلاة، كتنبيه الإمام إلى خطأ أو إذن بالدخول، أو تحذير من خطر - فلا تتحدث بما شرع للرجال في مثل هذه الأحوال من التسبيح، ولكن تصفق ففي الحديث «من نابه شيء في صلاته فليسبح، وإنما التصفيق للنساء» رواه البخاري ومسلم عن سهل ابن سعد[1].

وكما يمنع الكلام المباشر يمنع أيضاً بالوساطة كالهاتف[2] «التليفون» والأشرطة المسجلة وغيرها.

---

(١) نيل الأوطار ج٢ ص ٢٧٧.

(٢) أول فكرة للتليفون الاتصال بخيط وكان ذلك سنة ١٦٦٧م بفضل «روبرت هتوك» وفي سنة ١٨٦١» نجح «فيليب ريس» الألماني في نقل أنغام موسيقية وغيرها بواسطة الكهرباء، ثم توصل أمريكي أسمه «ر. ى. هوس» سنة ١٨٦٨م إلى اختراع السماعة المغناطيسية الكهربية. وفي ١٨٧٢ تمكن جراهام بل من استعمال الشوكة الرنانة. وتدرج سنة ١٨٧٣م إلى استعمال رق يتذبذب بدل الشوكة. غير أن أول مجهود جدي ظهر سنة ١٨٧٥م حيث توصل «جراهام بل» مصادفة إلى أن تأثير الصوت على قرص مصنوع من مادة خاصة يحدث تغييرات في التيار الكهربي المار في مغناطيس. وأول تليفون حقيقي اخترعه جراهام بل سنة ١٨٧٧م كان يحتوي =

ومن هذا يعلم أنه يحرم على المرأة الغناء بالألحان المثيرة، أو المعانى المحركة للشهوة، أو المغرية على ارتكاب حظور. وهى فى ذلك كالرجل إذا فتن به النساء أو كان غناؤه يغرى بسوء فهو حرام. وقد تقدمت صورة من هذه الفتنة، حيث غفلت الجارية عن صب ماء الوضوء على يدى سليمان بن عبد الملك، تأثرا بصوت مغن وصل إليها من العسكر.

وهذا ما قاله أصحاب الشافعى، كما نقله القرطبى عن أبى الطيب الطبرى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ** ﴾ [لقمان: ٦]. ويمكن استكمال موضوع «الغناء» من إحياء علوم الدين للغزالى «ج٢ ص ٢٣٦»[1] ومن «إغاثة اللهفان» لابن القيم، ومن كف الرعاع لابن حجر الهيتمى وسيأتى فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة طرف من أحكامه عند بحث حقوق الزوجين.

وصلة الكلام بين الجنسين لها عدة أشكال سنتحدث عن طرف منها فيما يأتى:

(١) التحيـة:

تحدث الإسلام عن حكم سلام الرجل على المرأة وسلامها عليه. فمنعه جماعة مطلقا، مستندين فى ذلك إلى ما رواه ابن الجوزى عن الزبيدى عن عطاء الخراسانى مرفوعاً «ليس للنساء سلام ولا عليهن سلام»[2]. وعللوا ذلك بأن التحية بالسلام وغيره مظهر يدل على ميل ما بين الجنسين. وقد تستغل الخلق علاقة غير طيبة عند كثير من الناس، خصوصا عند فساد الزمان.

= على رق معدنى موضوع فى مجال مغناطيسى لمغناطيس كهربى. ثم توصل فى سنة ١٨٧٧م العالم «توماس ألفا أديسون» إلى اكتشاف الناقل الكربونى الحديث.

وأول تليفون فى مصر كان سنة ١٨٨١ حيث مد خط بين القاهرة والاسكندرية. «كتاب كيف نعيش اليوم» «جراهام بل» ولد ١٨٤٧م وتوفى ١٩٢٢م.

(١) وشرحه للزبيدى ج٦ ص ٥٠٠.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ج١.

لكن جمهور العلماء قالوا: إن كانت هناك فتنة بالسلام لا يجوز الابتداء ولا الرد.

فالمرأة الجميلة لا يجوز إلقاء السلام عليها، ولو سلم عليها الرجل لا يجب بل لا يجوز لها الرد. وليس لها أن تسلم عليه ابتداء، فإن سلمت لا تستحق الرد. فإن أجابها كره له ذلك. أما إذا لم تخش الفتنة بالسلام فيجوز، كالسلام على العجائز وذوات المحارم. ودليل ذلك حديث أم هانيء بنت أبى طالب قالت: أتيت النبى ﷺ يوم الفتح، وهو يغتسل، وفاطمة تستره، فسلمت... وذكرت الحديث. رواه مسلم[1].

هذا هو الحكم بين رجل واحد وامرأة واحدة، أما سلام الرجل على جمع من النساء فهو جائز، بل قيل بندبه. ويجب عليهن الرد. وعلله العلماء - كما فى التحفة لابن حجر - بأنه لا يخشى منه فتنة حينئذ. ومن ثم حلت الخلوة بأمرأتين «الأذكار للنووى ص ٢٠٤». واستدلوا بحديث أسماء بنت يزيد، أن النبى ﷺ مر فى المسجد على عصبة من النساء قعود، فألوى بيده - أي أشار بها بأن أمالها من جانب إلى جانب - بالتسليم. رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذى «الأذكار ص ٢٥٢» و«الآداب لابن مفلح ج١».

وأما سلام الرجال على المرأة الواحدة فلا يجوز إلا عند أمن الفتنة كأن تكون عجوزا مثلا. ودليله حديث سهل بن سعد: أن الصحابة كانوا ينصرفون من الجمعة فيمرون على عجوز فى طريقهم، فيسلمون عليها، فتقدم لهم طعاما من أصول السلق والشعير. رواه البخارى «ج٨ ص ٦٨ طبعة دار الشعب». وأورده النووى فى كتاب «الأذكار» ص ٢٥٢. ونص الحديث:

كنا نفرح يوم الجمعة. قلت: ولم؟ قال: كانت لنا عجوز ترسل إلى بضاعة - قال ابن سلمة: نخل بالمدينة - فتأخذ من أصول السلق، فتطرحه فى قدر، وتكركر، أى تطحن، حبات من شعير. فإذا صلينا الجمعة انصرفنا، ونسلم

---

(١) كتاب الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار للنووى ص ٢٥٢.

عليها، فتقدمه إلينا، فنفرح من أجله، وما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة « تفسير القرطبى جـ٥ ص ٣٠٢ » .

ومثل إلقاء السلام مباشرة بين الجنسين إرساله أو تحميله لمن يبلغه، فلا بأس به للمصلحة وعدم المحظور . وقد قال النبى ﷺ لعائشة « إن جبريل يقرأ عليك السلام » . وعلق عليه النووى فى شرح مسلم بجوازه إذا لم يخف ترتب مفسدة « انظر تفسير القرطبى » « وخرُّوا له سجدا » من سورة يوسف ففيه كلام عن التحية بالإشارة والمصافحة والمعانقة .

(٢) تشميت العاطس :

إذا عطس الإنسان يسن له أن يحمد الله، ويسن للمسلم أن يشمته عند حمد الله، أى يقول له كلمة عطف ورجاء طيب، مثل : يرحمك الله . والعاطس يرد على من شمته بكلمة طيبة، مثل « يهديكم الله ويصلح بالكم » .

والتشميت كالتحية يعطى حكمها، إذا كان بين الجنسين على النحو المتقدم ذكره، وقد روى مسلم أن أبا موسى الأشعرى شمت أم الفضل بن العباس عندما عطست وحمدت الله . ذكره البخارى فى كتابه « الأدب المفرد » .

(٣) عيادة المرضى :

تحدث العلماء عن عيادة النساء للرجال المرضى، وعقد البخارى لها بابا فى صحيحه، ومما جاء فيه :

وعادت أم الدرداء رجلا من أهل المسجد من الأنصار . وورد عن عائشة أنها قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال رضى الله عنهما . قالت : فدخلت عليهما، فقلت : يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت . وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة   وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟

قالت عائشة : فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته . فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم وصححها ، وبارك لنا فى مدها وصاعها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة »(١) .

وقد ترد حادثة عائشة بأنها كانت قبل فرض الحجاب ، لأنها كانت عقب الهجرة . وجاء فى كتاب الأدب المفرد للبخارى : قال الحارث بن عبيد الله الأنصارى : رأيت أم الدرداء – على رحالها أعواد ليس عليها غشاء – عائدة لرجل من أهل المسجد من الأنصار .

ومهما يكن من شيء فإن العيادة لا تعدو أن تكون نظرا وكلاما وملامسة أحيانا ، ويعلم حكمها من أحكام هذه الأمور فى مواضعها المذكورة من قبل .

(٤) المكاتبات :

الكلام بين الجنسين كما يكون شفويا يكون تحريرياً عن طريق المراسلات ، وهى الوسيلة الشائعة لنقل الكلام بين الطرفين إذا تعذرت الوسائل الأخرى .

والمراسلة تعطى حكم الكلام من حيث موضوعها وما تؤدى إليه من آثار ونحن نعلم كم للخطابات من آثار سيئة ، خصوصاً إذا لم يكن هناك عاصم من خلق أو دين ، أو من مراقبة دقيقة .

وقد بلغ من ممارسة البنت لحريتها أن تمنع والديها أو أقاربها أو أولياء أمورها من التجسس عليها بفتح خطاباتها المرسلة إليها بالذات ، وقد استجاب بعض الرجال لهذه الرغبة التحررية ، فكانت نكبات ونكبات .

والكتابة ذاتها لا مانع منها إذا كان موضوعها جائزا كالأخبار العادية وكالاستفتاء ونحوه . ذكر البخارى فى « الأدب المفرد » عن عائشة بنت طلحة أنها كانت فى حجر عائشة أم المؤمنين(٢) ، وكان الناس يكتبون إليها ،

---

(١) رواه البخارى .

(٢) لأنها بنت أختها أم كلثوم بنت أبى بكر . (انظر المطالب العالية ج٤ ص ٣٦ لمعرفة هذه النسبة) .

ويهدون. واستشارت عائشة فى ذلك، فقالت لها: أجيبيهم على كتبهم وأثيبيهم. فكانت إذا لم تجد ما تثيبهم به أعطتها عائشة ما يساعدها على ذلك. وعائشة أم المؤمنين لا تقر عائشة بنت طلحة على هذا إلا إذا كانت تعلم أن موضوع الكتابة لا ضرر فيه.

أما إذا كان موضوع الرسالة بث الغرام، وضرب المواعيد واللقاءات وما أشبهه فحرام.

هذا، وإذا كان الكلام العادى وبالتحية الشرعية ممنوعاً عند الفتنة، فإن تحريم الابتسامة أشد. لأنها تعبير عملى عما فى القلوب قد يعجز عن الوفاء به بليغ الكلام. ومثل الابتسامة إشارة الطرف والحركات الأخرى التى لها دلالات خاصة، فإن خطرها لا يخفى على أحد. وهى فى لغة الهوى أبلغ من فصيح الكلام. كما يصور ذلك قول الشاعر:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عينى فـــى لغة الهوى عيناك

وإذا كانت الفتنة حاصلة بالعين وهى فى طبيعتها، فكيف بها مع الغمز والإشارة؟

وقد تقدم قول جرير فى العيون التى فى طرفها حور، وقول معن فى الحدق النجل النُّجْل.

* * *

الفصل الثامن

الخلـــوة

سيكون الحديث عنها في عدة نقاط، في بيان خطرها، وفي حكمها وما ورد من التحذير منها، وفي حكم المبيت عند الأجنبية، وفيما تتحقق به. ومتى تجوز وصور محظورة، ودفع شبه واردة.

(١) خطرها :

الخلوة هي أشد وسائل الاتصال بين الجنسين خطرا، وأدناها إلى الوقوع في المحظور، وهي آخر ما ينتهي إليه المطاف بدءا من النظر إلى العورة والتلامس والكلام اللين. إنها عون كبير على الفساد، تحرك الساكن، وتبعث النشاط في الخامل. والواقع خير دليل على هذه الحقيقة الفسيولوجية والنفسية. ولولا خطرها وقوتها ما رسم بائع التمر خطته مع من وقع حبها في قلبه، حتى إذا انفرد بها في بيته هم بالسوء ونال منه بعض ما كان يريد، وقد تقدم ذلك.

وحدث في أيام النبي ﷺ أن رجلا من الأنصار اشتكى حتى أُضْنِي، أي أثقله المرض، فعاد جلدةً على عظم. فدخلت عليه جارية لبعضهم، فهش لها، فوقع عليها، فدخل عليه رجال من قومه يعودونه، فأخبرهم بذلك، وقال: استفتوا لي رسول الله ﷺ، فإني وقعت على جارية دخلت عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا بأحد من الضر مثل الذي هو به، ولو حملناه إليك لتفسخت عظامه، ما هو إلا جلد على عظم، فأمر رسول الله أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة. أخرجه أبو داود والنسائي عن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار[١].

وفرص الخلوة كثيرة، فقد تكون في البيوت والفنادق والمكاتب ودواوين

---

(١) حسن الأسوة ص ١٣٩.

القطارات المغلقة، والسيارات الخاصة والمصاعد الكهربائية، حتى فى الأماكن الخلوية البعيدة عن الأنظار، وفى الطرق التى لا تكثر بها المارة.

(٢) حكمها :

والخلوة بين الجنسين فى حد ذاتها محرمة حتى لو لم يكن معها نظر إلى العورة، أو كلام مثير للفتنة، لأنها هى وحدها أقوى منهما، فالاجتماع نفسه يوحى بالشر، وقد جاء تحريمها فى عدة أحاديث منها ما يأتى :

(أ) حديث « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس. أى لا يجتمعن رجل مع امرأة فى مكان خال إلا إذا كان معها قريب ممن يحرم عليه زواجها، كالأب والابن والأخ.

(ب) حديث « .... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم » رواه الطبرانى عن ابن عباس.

(جـ) حديث « إياك والخلوة بالنساء، فوالذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما » رواه الطبرانى عن أبى أمامة، وقال : حديث غريب، أى رواه راو واحد فقط. فهذا الحديث يبين علة النهى عن الخلوة، وهى إغراء الشيطان بالفساد. ويشتد النهى إذا كانت هناك صلة من قرابة غير محرمة أو صداقة، أو أية صلة قد تتخذ ذريعة للسوء فى لباس برىء. وقد جاء فى ذلك قول النبى ﷺ :

(د) « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال : « الحمو الموت » رواه مسلم عن عقبة بن عامر « ج١٤ ص١٥٣ ». والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه، أو قريب الزوجة كابن عمها وابن خالها وغيرهم ممن لا يحرم عليهم زواجها[١].

---

(١) الحمو فيه أربع لغات ذكرها النووى فى شرح صحيح مسلم « ج١٤ ص ١٥٣ » :

١ - هذا حموك، على أن يعرب كالأسماء الخمسة، أى بالواو فى حالة الرفع وبالياء فى حالة الجر، وبالألف فى حالة النصب : انظر إلى حميك، ورأيت حماك. =

وكذلك يكون النهى عن الخلوة أشد إذا كان الزوج غائبا عن المنزل فى سفر أو غيره، فإن الداعى إلى السوء يكون أقوى، وذلك لغيبة الرقيب الذى يخشى أو يستحيا منه، ولترقب استجابة الزوجة لبعد عهدها بالزوج المسافر.

حدث أن نفراً من بنى هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس زوجة أبى بكر، وقد كانت من قبل زوجة قريبهم جعفر بن أبى طالب، فرآهم أبو بكر، فكره ذلك. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: لم أر إلا خيرا. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد برأها من ذلك» ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر وقال:

(هـ) «لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مُغيبَةٍ إلا ومعه رجل أو أثنان» رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص «مسلم ج١٤ ص ١٥٥».

ويفسر هذا الحديث قول عمر: لا يخلون رجل بمغيبة، فإن النساء لحم على وضم، إلا ما ذُبَّ عنه، وقد تقدم شرح هذا القول. وكان عمر يضرب بالدرة من يدخل على الأجنبيات من أقارب الزوج أو الزوجة، ويقول. لا تدخل، وقم على الباب، وقل: ألكم حاجة، أتريدون شيئاً؟ «كشف الغمة ج٢ ص ٧٣».

يقول السمعانى:

لا تأمنن على النساء ولو أخا ... ما فى الرجال على النساء أمين
إن الأمين وإن تحفظ جهده ... لابد أنَّ بنظرة سيخون

(و) حديث «مثل الذى يجلس على فراش مغيبة كمثل الذى ينهشه الأسود يوم القيامة» رواه أبو يعلى عن عبدالله بن عمرو. ورواه الطبرانى برجال ثقات «المطالب العالية ج٢ ص ١٢٠».

= ٢ – هذا حمؤك، باسكان الميم وهمزة مرفوعة، أو منصوبة أو مجرورة حسب العوامل: رأيت حمأك، ونظرت إلى حمئك.

٣ – هذا حماك، ورأيت حماك، ونظرت إلى حماك. أى بلزوم الألف المقصورة مثل «فتى» وحركة الاعراب مقدرة على الألف.

٤ – هذا حم، ورأيت حما، ونظرت إلى حم، وأصله حمو ولكن حذفت الواو، وصار الإعراب على الميم مثل «أب».

٥ – جاء فى لسان العرب أنهم قالوا أيضاً «حمو». أهـ. بسكون الميم.

وإذا دعت الضرورة إلى الدخول على المغيبات جاز ذلك عند أمن الفتنة، فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف لما سمع النهى عن ذلك قال : يا رسول الله، إنا لنغيب وتكون لنا أضياف . قال : « ليس أولئك عنيت » فقال رجل آخر : يا رسول الله، إنا ندخل عليهن ليطعمننا . فقال « ليدخل أحدكم، وليعلم أن الله يراه »[1] . ويعنى هذا أن الدخول عليهن يكون للضرورة، والضرورة تقدر بقدرها . مع التحذير من التفكير فى السوء فإن الله مطلع على كل شىء .

وإذا كان الرجل مطالبا بعدم الدخول على الأجنبيات، فإن المرأة كذلك مطالبة بعدم تمكين الأجنبى من الدخول عليها . ففى الحديث « لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة . وفى الحديث أيضاً « فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن فى بيوتكم لمن تكرهون » رواه ابن ماجه والترمذى عن عمرو ابن الأحوص الجُشَمى، وهو حديث حسن صحيح .

وقد جعل بعض شراح الحديث جملة « ولا يأذن . . . » تفسيرا لجملة « لا يوطئن . . . » وأراد « بمن تكرهون » الأجانب . وكان ذلك من عادة العرب لا يعدونه ريبة، ولا يرون به بأسا، فلما نزلت آية الحجاب نهوا عن ذلك .

والمراد بالفرش الزوجة وبالوطء الجماع، نهيت عن أن يتصل بها من يكرهه الزوج . ومثله فى ذلك من لا يكرهه . لكنه سيكون مكروها حتما إذا أراد سوءا أو فعله . وقيل : المراد بالفرش الحجرة الخاصة بنوم الرجل مع زوجته، والرجل فى الغالب لا يحب أن يدخلها أحد، إلا إذا كان قريب الصلة جداً، به أو بها ويطمئن على دخوله من أجل هذه الصلة الوثيقة .

وقد يكون الداخل قريبا للزوج أو الزوجة، ولكن الزوج لا يحب أن يدخل حجرته الخاصة به، لأنه يحس أن شرفه قد مس . وهذا شعور يختلف فيه الناس . أما البيت الواسع، ويطلق عليه اسم « الدار » فهو أوسع من حجرة النوم التى يطلق عليها اسم البيت لأن فيه حجرا أخرى وفناء ومرافق وغير ذلك .

---

(١) كشف الغمة ج٢ ص ٧٢ .

وقد نهيت الزوجة أن تأذن بدخول الحجرة الخاصة، لأى أحد، حتى لو كان دخوله لغير سوء، فإن مجرد وجوده مظنة ذلك، خصوصاً عند الكراهية، بخلافه عند عدم وجودها.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وقد عبر عن دخول الرجل بوطء الفرش، لأن من عادة العرب أن يفرشوا حجرهم ببساط أو نحوه، فالذى يدخلها سيطأ الفراش[1].

وتظهر أهمية هذا الأدب بوضوح، وهو عدم إذن المرأة لأجنبى بدخول بيتها، عند غياب الزوج عن المنزل. دخل النبى ﷺ على عائشة، وعندها رجل قاعد، فاشتد عليه ذلك، رؤى الغضب فى وجهه. فقالت: إنه أخى من الرضاعة. فقال «أنظر إخوتكن، فإنما الرضاعة من المجاعة» رواه مسلم «ج١٠ ص ٣٤». وشرح الحديث من جهة حكم الرضاعة، سبق فى الجزء الأول من هذه الموسوعة. وكان سالم مولى أبى حذيفة وحليفه يدخل على سهلة بنت سهيل زوجته، فلما كبر سالم لم يسترح أبو حذيفة لدخوله عليها، فلما أرضعته بأمر النبى ﷺ سكن قلبه لأنه صار محرما عليها. وسبق هذا أيضاً فى الجزء الأول.

(٣) المبيت:

وإذا كان الدخول على الأجنبية محرما حتى لو كان بالنهار ولمدة قصيرة، أو لقضاء مصلحة يمكن قضاؤها بغير الدخول، فما بالك بالمبيت، وهو يكون غالباً بالليل ولمدة طويلة؟ إنه أشد تحريماً وأعظم نكرا، لأنه أدعى إلى السوء بقوة، وأقوى فى القيل والقال عن الطرفين معا. ولذلك جاء النص على المبيت فوق النص على الدخول، فى قوله ﷺ، «لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون

---

(١) ومن المأثور عن على كرم الله وجهه فى هذه النقطة قوله:

إياك ومشاورة النساء، فان رأيهن إلى أفن - ضعف - وعزمهن إلى وهن. اكفف أبصارهن بالحجاب، فإنَّ شَدَّ الحجاب خير لهن من الارتياب. وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن. فان استطعن ألا يعرفن غيرك فافعل «المستطرف ج٢ ص ١٩٠».

ناكحا أو ذا محرم» رواه مسلم عن جابر «ج١٤ ص ١٥٣»، أى إلا أن يكون الذى يبيت عندها زوجها أو قريباً محرما عليه زواجها.

وخص الحديث «الثيب» بالذكر، وإن كانت البكر كذلك، لأن الثيب لا يتحرج من الدخول عليها غالباً، حيث سبق لها ممارسة الاتصال بالرجال، والمرأة إذا تزوجت لأول مرة قل الحياء الذى كان عندها وهى بكر، وهذا أمر طبيعى يشهد به الواقع، فحياء البكر غالب لعدم تجربتها لمعاشرة الرجال. كما أن الثيب لو فرض أنها وقعت فى خطأ من جراء مبيت أجنبى عندها قد يستتر أمرها، أما البكر فإن الحرص على سلامة بكارتها يمنع من ارتكاب الخطأ ويقلل إلى حد كبير دخول الرجال عليها والمبيت عندها، لأن خطأها يعسر ستره. ومن هنا كان ذكر الثيب فى الحديث تنبيها من باب أولى على النهى عن المبيت عند البكر.

وإذا حرم على الأجنبى أن يبيت عند المرأة فيحرم عليها أيضاً أن تسمح له بالمبيت، قياسا أولوياً على عدم سماحها بدخول الأجنبى كما سبق.

وكان الصحابة يطبقون هذا الأدب تطبيقاً دقيقاً، ويعاقبون على مخالفته أشد العقاب، حتى لو لم يكن معه جريمة توجب الحد. قال نافع: جاء رجل إلى عمر، فقال: وجدت مع امرأتى رجلا، وقد أغلقا عليهما الباب، وأرخيا عليهما الأستار، فجلدهما عمر مائة مائة. ورفع إليه أيضاً رجل وجد ملفوفاً فى حصير فى بيت أجنبية، فضربه مائة سوط. وأتى ابن مسعود برجل وجد رجلا مع امرأة فى لحاف واحد، فضرب كل واحد منهما أربعين سوطا، وأقامهما للناس. فشكا أهل المرأة وأهل الرجل إلى عمر. فقال لابن مسعود: ما يقول هولاء؟ قال: قد فعلت ذلك. قال: أو رأيت ذلك؟ قال: نعم. قال: نعم ما رأيت. فقالوا: أتيناه نستأذنه فإذا هو يسأله. «كشف الغمة ج٢ ص ٧٤».

وواضح من هذه الحوادث أن العقاب عليها كان لانتهاك حرمة المنزل بالدخول والمبيت فيه، ولم يكن لجريمة الزنى، فإنها لم تثبت، ولذا كان العقاب مختلفا ما بين أربعين سوطا ومائة، مع أن إحدى الحوادث كانت المرأة فيها متزوجة

أى محصنة وعقابها على جريمة الزنى ليس ضربا بالسوط مائة، بل هو الرجم. وهذا العقاب يسمى تعزيرا يترك تحديده لتقدير القاضى.

هذا، ومن تمام البعد عن الريبة التى من أجلها حرم على المرأة أن تدخل بيتها أجنبيا، ألا تسمح له أيضاً بالاقتراب من البيت، إذا كان الاقتراب مدعاة لقالة سوء، ولا تسمح نفس زوجها به.

ومما أثر فى هذا أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما جاءها رجل، وقال لها: «يا أم عبد الله إنى رجل فقير، وأردت أن أبيع فى ظل دارك – فقالت له: إن رخصت لك أبى الزبير، من شدة غيرته. ولكن تعال اسألنى ذلك والزبير حاضر عندنا، وأنا أقول لك: ما وجدت لك في المدينة ظل جدار غير جدارنا؟ فجاء الرجل فسألها، فقالت له ذلك. فقال الزبير: ائذنى له. فإنه رجل فقير.. فصار الرجل يبيع تحت جدارها حتى كثر ماله «المرجع السابق».

«تنبيه» ذكر بعض الكاتبين[1] سؤالاً، وهو: إذا حرم على المرأة أن تأذن بدخول من يكرهه الزوج، فلماذا لا يجب على الرجل منع دخول من تكرهه الزوجة مثل الحماة والأقارب؟ وأجاب: إن موقفها فى هذه الحالة ليس منطقيا بل عاطفيا، تدعو إليه الغيرة، ولا شيء وراءها، وإن كان من المعاشرة بالمعروف أن يراعى ذلك، لكنه مكلف أيضاً بصلة أمه وهى حماتها، وصلة أقاربه أيضاً، ومن البر والصلة زيارتهم له فى بيته وإكرامهم فيه، والإقامة معه أحيانا، فليس لها أن تضغط عليه بمنع هؤلاء من الدخول عليها، كما يمنعها هى من إدخال من يكرهه، سواء أكان قريبها أم أجنبياً عليها.

(٤) ما تتحقق به الخلوة:

الخلوة المنهى عنها بين الأجانب من الجنسين لا تتحقق إلا باجتماع اثنين أو أكثر فى مكان واحد، لا يراهما فيه أحد. أما الاجتماع فى الطريق والأماكن العامة كالأسواق والحفلات ودور العلم ووسائل المواصلات فلا تتحقق به الخلوة المحرمة، وإن تحقق به محظور آخر كالسفور والنظر إلى العورة والكلام والملامسة ونحوها. ومحصل ما قاله العلماء فى اجتماع الجنسين هو:

---

(١) محمد قطب فى كتابه «شبهات حول الإسلام».

(أ) إذا كان الاجتماع ثنائياً، أى بين رجل وامرأة فقط، فإن كان الرجل زوجاً أو محرماً جاز، وإن كان أجنبياً حرم.

(ب) وإذا كان الاجتماع ثلاثيا، فإما أن يكون بين امرأة ورجلين، وإما أن يكون بين امرأتين ورجل، فان كان الأول جاز إن كان أحدهما زوجا أو محرماً، وإلا حرم «النووى على مسلم ج٩ ص ١٠٩»، وإن كان الثانى فإن كانت إحداهما محرما جاز، وإلا ففيه قولان. وقد ذكر النووى فى شرح المهذب، والخطيب على متن أبى شجاع «ج٢ ص ١٢٠» جواز الخلوة بامرأتين.

(جـ) وإن كان الاجتماع رباعيا فأكثر، فإن كان رجل مع نساء جاز، وكذلك إن تساوى العدد فى الطرفين، وإن كانت امرأة مع رجال جاز إن أمن تواطؤهم على الفاحشة، كمن دخلوا على زوجة أبى بكر، أسماء بنت عميس. وإلا حرم.

ويشترط فى المحرم الذى تجوز الخلوة بالأجنبى مع حضوره ألا يكون صغيرا لا يستحيا منه، كابن سنة أو سنتين، وقال بعض العلماء، تجوز الخلوة بالأجنبية إذا كانت عجوزاً لا تراد. ولكن مع الكراهة. أما الشابة مع كبير السن من غير أولى الأربة فقيل: لا تجوز الخلوة به، وقيل: تجوز مع الكراهة.

وكان الصحابة يدخلون على القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا، ويخلون بهن، ويتحدثون إليهن، ويأكلون عندهن ولا يعيب بعضهم بعضا، وذلك لأمن الفتنة من جهتهم ومن جهتهن. ولكنهم ما كانوا يدخلون على غير القواعد حتى يستأذنوا أزواجهن أو ذويهن.

روى مسلم أن أبا بكر وعمر زارا أم أيمن بعد وفاة النبى ﷺ(١) فلما رأتهما بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ؟ فقالت لا أبكى أنى لا أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكى أن

---

(١) قيل: إنها توفيت بعد موت النبى بخمسة أشهر أو ستة، كما ذكره الزرقانى على المواهب ج١ ص ١٦٣.

الوحى قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها «رياض الصالحين».

وسبق أن الصحابة كانوا يمرون على عجوز بعد الصلاة الجمعة ويأكلون عندها السلق والشعير.

(٥) متى تجوز؟

هذا هو حكم الخلوة من التحريم، إن فقدت الاحتياطات، فهى لا تجوز إلا لضرورة، كما لو وجد الرجل امرأة أجنبية فى الطريق ضالة أو يخشى أن تضل أو تؤذى لو تركها وحدها، فيلزمه توصيلها حتى تأمن، كما فعل صفوان بن المعطل مع السيدة عائشة، حين تركها الركب عند العودة من غزوة بنى المصطلق إلى المدينة، وجاء فى ذلك حديث الإفك المشهور، والمسجل فى سورة النور.

وإذا جازت الخلوة للضرورة، أو كانت لغير ضرورة، وهى طبعا لا تجوز، يجب مع ذلك ستر العورة ويحرم النظر إليها، كما يحرم كل قول أو فعل قبيح، فلا تلازم بين حل الخلوة وحل غيرها مما حرم الله بين الرجال والنساء.

فلو كانت هناك اجتماعات مختلطة لسماع محاضرة مثلا: أو لحفل أو مأدبة أو أية مناسبة مشروعة، وكان الاجتماع مع من يؤمن تواطؤهم على الفاحشة، إما لأن أخلاقهم طيبة، وإما حياء من غيرهم، وإما خوفاً من ضرر يقع عليهم، لزم ستر العورات وغض الأبصار والبعد عن كل ما يثير الفتنة.

ولو أن النساء لزمن هذه الآداب ما كانت هناك شكوى من الاختلاط فى دور التعليم وغيرها. فالذى يحدث الآن هو أن هذه الاجتماعات تنتهز فرصة ليعمل كل جنس ما يلفت إليه نظر الجنس الآخر، وليكسب صداقات وينشىء علاقات. وكان هذا الاهتمام الجنسى صارفا لكثير من الحاضرين عن الغرض الرئيسى الذى من أجله عقد الاجتماع، وهنا تضيع الفائدة منه أولاً، وتوجد الشكوك ثانياً، إن لم ينته الاجتماع بأخطر من ذلك ثالثاً. والواقع خير دليل على ذلك.

(٦) صور محظورة :

هناك بعض صور من الخلوة يتهاون فيها الناس إلى حد يظنون أو يعتقدون أنها غير محرمة . منها :

(أ) خلوة المدرس الخصوصى بالمتعلمة فى المنازل أو فى مكان آخر . فإن تعليمها لا يجيز خلوة المعلم بها ، خصوصاً فى المراحل الأولى من العمر حيث يكون فيها المدرس مكتمل الرجولة ، والمتعلمة فى ريعان شبابها ، فالخطر قريب جداً ، ولا يظن أن العلم يعصم صاحبه من السوء أو التفكير فيه على الأقل فى هذا الجو ، فلا ينبغى أن تغلق حجرة عليهما ، ولا أن يترك الأهل منزلهم ويدعوا فيه المدرس مع الفتاة ، بل ينبغى أن تفتح الأبواب حتى يكونا تحت سمع الغير وبصرهم ، وحتى يستحى أى منهما أن يقع منه ما يؤخذ عليه . أو ينبغى أن يكون معهما ثالث يعتبر صمام أمن حتى ينتهى الدرس . ووقائع الأحداث تشهد بخطورة هذه الخلوة . ومن مأثور السلف فى ذلك قول عمر بن عبد العزيز : لا تخلو بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن « المستطرف ج٢ ص ٨ » .

(ب) خلوة المرأة بخادمها ، يتهاون فيها كثيرا ، ولا عبرة بما يقال . من أن الفارق الاجتماعى بين الخادم والمخدوم يمنع الخادم أن يفكر فى السوء نحو مخدومته ، أو يمنع المخدوم أن يفكر فى السوء نحو خادمته . فالرجل رجل والمرأة مرأة . والتهاون فى ذلك يؤدى – بل أدى إلى كوارث منكرة .

إن هذه الخلوة حرام لأن الخادم أجنبى عن المخدوم والمخدومة ، والجو مهيأ لوقوع الخطر ، فدوام وجود الخادم فى المنزل ، وتغيب الرجل عن بيته كثيراً ، ورضا المخدومة بذلك ، وتعرضها لكشف مفاتنها أمام الخادم أحيانا كثيرة ، ورؤيته لها فى أوضاع قد لا تحب أن يراها فيها ، ولكن لا تتنبه هى إليها . . . وغير ذلك من العوامل كله يغرى بالسوء ، وأشهر حادثة تاريخية تدل على ذلك هى حادثة امرأة العزيز مع يوسف ، وقد تقدمت .

إن خدم اليوم ليسوا مملوكين ملك اليمين ، حتى يكون لهم مع سادتهم

وضع خاص من حيث تحديد العورات والنظر إليها، بل هم أجانب بعد الاتفاق الدولى على إلغاء الرق، وإذا كان المماليك فى الأزمنة السحيقة مظنة فتنة للنساء فكيف بخدم اليوم وهم أحرار لا عبيد؟

روت الأخبار أن إسحاق بن مسلم العقيلى كان عند المنصور العباسى. فمر به خادم وضىء الوجه، فقال: أى ابنيك هذا؟ قال: هذا خادم فى دار النساء. قال: أتشك أن شم هذا وضمه أحب إلى المرأة من شمك وضمك؟ فأتاه من ذلك أمر عظيم، ومنعه بعدها من الدخول إلى الحريم «محاضرات الأدباء ج١ ص ١٣٦».

يقول أبو العلاء المعرى:

إذا بلغ الوليد لديك عشرا ... فلا يدخل على الحرم الوليد
وإن خالفتنى وأضعت نصحى ... فأنت، وإن رزقت حجى، بليد
ألا إن النساء حبال غىٍّ ... بهن يضيع الشرف التليد

وذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان «ج١ ص ٧٨» وكتاب المحاسن والأضداد» ج٢ ص ٥٧»: أنه قيل لهند بنت الخس الإيادية[١]، وكانت من حكيمات العرب: لم زنيت بعبدك. ولم تزنى بحر؟ فقالت طول السواد. وقرب الوساد. تعنى طول محادثته لها، وقرب مضجعها منه. والسواد بكسر السين، وقد تضم، معناه المسارة، وقيل: المراودة، وقيل: الجماع، كما فى لسان العرب. والوساد= الوسادة[٢].

---

(١) ضبط أسمها فى عيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص ٧٣ بضم الخاء.

(٢) نسب إلى هند بنت الخس، وقد استشيرت فى أى الزوجات أحسن أنها قالت: انظر رمكاء جسيمة، أو بيضاء وسيمة، فى بيت حد، أو بيت جد، أو بيت عز، شر النساء الممراض، والحميراء المحياض، الكثيرة المظاظ، واسوأ النساء التى تقعد بالفناء، وتملأ الأناء، وتمذق ما فى السقاء. وأفشل النساء التى إذا مشت أغبرت، وإذا نطقت صرصرت، متوركة جارية، تتبعها جارية، وفى بطنها جارية، أى هى مئناثة. «كنز الحفاظ فى كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت».

وذكر الجاحظ أيضاً « المحاسن والأضداد ج٢ ص ٦٥ » : أن « فائرة » امرأة « مُرَّة » الأسدى كانت من أجمل نساء زمانها، وكان زوجها غائبا عنها أعواما، فهويت عبدا له حبشيا يرعى إبلها، فمكنته من نفسها، وعقب انتهاء حاجتها دهمها زوجها، الذى يقال : إن غراباً نعق ففهم منه أن زوجته خانته . فأسرع عائداً إليها . فلما أحست به قالت : خير قليل وفضحت نفسى . . ولما علمت أنه عرف أمرها شهقت وماتت . وقتل هو العبد .

على أن العبد نفسه قد يطمع فى مولاته، بدل أن تطمع هى فيه . وفى الغالب لا يظفر بما يريد، فإنها تأبى كل الإباء، وتعاقبه أشد العقاب، ذلك لأنها لو كانت تريد الاستجابة لبدأت هى بطلب الاتصال، فإن حرصها على ستر عرضها لا يساعدها على طلب ذلك إلا بندرة . اللهم إلا إذا أمنت الفضيحة كغياب زوج، أو مع رغبة شديدة . وكذلك خوف الخادم على مستقبله وبطش سيده به يجعله لا يقدم على هذه الخطوة ابتداء إلا فيما ندر .

ومع ذلك فلكل قاعدة شواذ، والحديث دائماً عن أغلب الأحوال .

ذكروا أن « يسار الكواعب » وكان عبداً، تعرض لبنت مولاه . فقالت له : إن صبرت على بخورى صرت إلى ما تريد . فعمدت إلى مجمر فادخلته تحته، واشتملت على سكين حديد، فجبَّت بها مذاكيره . فقال : صبرا على مجامر الكرام . فأرسلها مثلا لكل جان على نفسه .

قال الفرزدق :

وإنى لأخشى إن خطبت إليهم عليك الذى لاقى يسار الكواعب[1]

وكان « سحيم » الحشاش الشاعر يسب بنات مواليه، ويصرح بالفاحشة، فيقول :

وأشهد بالرحمن أنى تركتها وعشرين منها أصبعا من ورائيا

(١) مفيد العلوم للخوارزمى ص ٢٥٤ .

فهددته بالقتل، فقال في ذلك :

فإن تقتليني فاقتليني فقد جرى　　لنا عرَقٌ فوق الفراش وطيب

ولما عرض على السيف ضحكت إحداهن فقال :

فإن تضحكي مني فيارُبَّ ليلة　　تركتك فيها كالقباء المفرَّج(١)

هذا، وفى حكم الخدم، من جهة الحذر من التساهل معهم، سائقو السيارات الخاصة، ومن يترددون على النساء كثيراً في البيوت، وكم روت الأخبار من مصائب يندى لها الجبين، كان سببها تعللات تلبس لبوس البراءة، وهي في حقيقتها ستار للجرائم .

(٧) دفع شبه :

لا يعترض على تحريم الخلوة بين الأجانب بما كان يحدث أحياناً من النبي ﷺ .

(أ) فقد ورد أنه كان إذا ذهب إلى « قُباء » يدخل على أم حَرَام بنت ملْحان . فتطعمه، وتفلى رأسه، ثم ينام . كما رواه البخارى عن أنس « الزرقاني على المواهب جـ٥ ص ٢٢٩ »، وليس بينهما محرمية، لأن ما قيل من أنها كانت قد أرضعته هي أو أختها أم سليم لم تثبت صحته، كما قال الدمياطي .

لا يعترض بذلك لأن الفتنة في خلوته مأمونة، لعصمته ﷺ . وقال بعض العلماء في الجواب : إن النظر إلى الأجنبية والخلوة بها من خصائصه عليه الصلاة والسلام، نظراً لظروف الدعوة وحاجته إلى الاتصال بكل إنسان مع الجنسين . ولا يحل ذلك لغيره من الدعاة أو من عامة الناس، كما ذكره ابن حجر في الفتح .

لكن القاضي عياضا نازع في هذه الخصوصية، لأنها، أي الخصائص، لا تثبت بالاحتمال، فلابد فيها من نص يعينها، وإن كان ثبوت العصمة للنبي ﷺ مسلماً به، لكن الأصل عدم الخصوصية .

---

(١) المصدر السابق .

وقد يجاب بأن ذلك كان قبل فرض الحجاب وتنظيمه.

(ب) وروى البخارى ومسلم أن امرأة فى عقلها شىء جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لى إليك حاجة. فقال: « يا أم فلان » انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك » فخلا معها فى بعض الطريق، حتى فرغت من حاجتها « المواهب اللدنية – تواضع النبى).

والجواب أن الخلوة الشرعية هنا غير محققة، لأنها فى الطريق المكشوف، والشأن فى الطريق أن يتعرض الواقف فيه لأنظار الناس. ومعنى « خلا بها » وقف معها فى ناحية من الطريق، بحيث لا يسمع حديثهما أحد غيرهما.

ومثله ما روى أن عمر بن الخطاب نادته خولة بنت ثعلبة صاحبة حادثة الظهار التى نزلت فيها سورة « المجادلة » وكان سائرا مع أصحابه فتركهم وذهب إليها. وأخذت تحدثه حتى انتهت[١].

وجاء فى كشف الغمة « ص ٩٥ » أن عمر كان إذا كلمته امرأة فى الطريق وقف معها يستمع، وربما وضع يده على كتفها والناس واقفون ينظرون ومثل ذلك لا يعد خلوة. وقد سئل أحمد بن حنبل عن الكحال، الذى يداوى عيون الناس بالكحل، يخلو بالمرأة وقد انصرف من عنده النساء. فقال: أليس هو على الطريق؟ إنما الخلوة فى البيوت[٢].

* * *

(١) حكايتها مع عمر ونصيحتها له مذكورة فى « الزرقانى على المواهب ج٢ ص ٢١٢ » وكان زوجها أوس بن الصامت قد ظاهر منها فى عام الحديبية. وقال ابن عبد البر: روينا من عدة وجوه مرور عمر بها ووقوفه معها.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ج١.

الفصل التاسع

متى شرع الحجاب

إن معرفة الوقت الذى شرع فيه الحجاب يساعدنا على فهم نصوص كثيرة يبدو بعضها متعارضاً مع بعض، ففى حادثة مثلا كانت المرأة المسلمة فيها بغير حجاب، وفى حادثة أخرى كانت بحجاب، والناظر الى الحادثتين يحتار فى أيتهما تكون الدليل على أن الحجاب مفروض أو غير مفروض، وتذهب هذه الحيرة، ويرفع هذا التعارض إذا علمنا أن إحدى الحادثتين كانت قبل فرض الحجاب والأخرى بعد فرضه. ومن هنا كانت الحاجة ماسة الى معرفة تاريخ فرض الحجاب. كالحاجة أيضاً إلى معرفة التاريخ الخاص بأى تشريع من التشريعات لبيان الناسخ من المنسوخ فى أمر واحد اختلف حكمه بين الطلب والنهى مثلا.

وقد تكون معرفة جزئية من الجزئيات التى يقوم عليها الحجاب المتكامل ميسورة، ولكن الجزئيات الأخرى يصعب العثور لها على تاريخ معين. فستر العورة وعدم النظر إليها قد يكون تاريخهما معروفاً أو ميسر المعرفة لأن آيات القرآن عنى بكتابتها وتدوينها أيام الرسول ﷺ، وهذا يعين على معرفة أى السور وأى الآيات نزلت قبل الأخرى، لكن بقية مقومات الحجاب كالخلوة مثلا، وليس فيها نص قرآنى، بل الوارد فيها أحاديث، والأحاديث لم يعن بكتابتها وتدوينها أيام الرسول ﷺ كما كان الشائع مع القرآن، بل إنه قد ورد النهى عن كتابتها - من الصعب معرفة التاريخ الذى بين فيه الرسول ﷺ أن الخلوة ممنوعة.

وقد حاولت كما حاول غيرى من الكتاب والمهتمين بشئون الحجاب. أن أصل إلى تاريخ مضبوط لمثل هذا الأمر فلم أتمكن، والأمر لا يعدو أن يكون اجتهادا قد يخطىء ويصيب.

فيبدو لى أن تشريع الحجاب بمقوماته الأساسية، وأركانه الكاملة لم يحدث

دفعة واحدة، بل كان على درجات وفى فترات متفاوتة، وكانت ظروف تكوين المجتمع الجديد تقضى بعدم تشريعه تشريعاً متكاملا مرة واحدة وفى وقت مبكر.

والمعروف أن العرب الذين كانوا يدينون ببقايا من دين إبراهيم لهم معرفة إلى حد ما بالحجاب فى بعض جزئياته، وعلى صورة من الصور التى توارثوها عن الأولين الذين تناسلوا منهم أو جاوروهم وتعاملوا معهم. والحجاب، كما قدمنا، كان معروفا فى الأديان السماوية السابقة، وإن تهاون أتباعه فيه. وفرط المتأخرون فى التزامه، والعرب كان يعيش معهم فى الجزيرة العربية بعض من اليهود والنصارى. ويتأثرون بما عندهم من أفكار وتقاليد.

ومن هنا نقول: إن بعض نساء العرب كن يغطين وجوههن قبل أن تنزل الآيات التى فرضت ستر العورة ومنعت الكلام المباشر بين الصحابة ونساء النبى ﷺ على وجه الخصوص. ومما يشهد لذلك أن امرأة من الأنصار كانت فى سوق اليهود «بنى قينقاع» فأرادها يهودى أن تكشف وجهها فأبت، فربط ذيل ثوبها بشكل بدت فيه مثيرة للضحك عندما قامت من جلستها. وعد هذا العمل نقضا للعهد الذى أخذه الرسول ﷺ عليهم، فغزاهم. وكان ذلك قبل السنة الخامسة التى فرض فيها الحجاب «سيرة ابن هشام بشرح السهيلى ج٢ ص ١٢١».

وكان كرام العرب منذ البعثة النبوية، وربما قبلها، يحرص نساؤهم على الحشمة وعدم التبذل بكشف مفاتنهن وقد تقدم ذكر نصيف المخدرة زوجة النعمان. ذكر ابن الأثير فى «أسد الغابة» عند ترجمة «الحارث بن الحرث الغامدى»[(١)]: أنه قال: قلت لأبى، ونحن بمنى[(٢)]: ما هذه الجماعة؟ قال: هولاء قوم اجتمعوا على صابىء لهم. قال: فأشرفنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله والإيمان به، وهم يؤذونه. حتى ارتفع النهار، وانتبذ عنه الناس. فأقبلت امرأة تحمل قدحاً ومنديلاً قد بدا نحرها تبكى، فتناول القدح، فشرب. ثم

---

(١) وكذلك عند ترجمة «مدرك بن الحارث».

(٢) هذه الزيادة من كتاب «حجاب المرأة المسلمة» للألبانى ص ٢٥.

توضأ، ثم رفع رأسه إليها، فقال : يابنية، خمرى عليك نحرك، أى غطيه بالخمار، ولا تخافى على أبيك غامة ولا ذلا . فقلت : من هذه؟ فقالوا : هذه ابنته زينب . أهـ[1] .

فهذه الحادثة كانت فى مكة قبل الهجرة، لأنها هى الفترة التى كان فيها إيذاء القوم للنبى ﷺ، ولم يثبت أنه ذهب إلى منى لدعوة الناس بعد الهجرة، فإن حجته الوحيدة بعد الهجرة كانت حجة الوداع، حيث كان الإسلام فى قوته، ولا يستطيع أحد أن يخلص إلى النبى ﷺ بأذى وهو فى منى . وهذا الأذى كان يناله عند عرض نفسه على القبائل فى موسم الحج وهم ضاربون فى منى وغيرها . وعمرة القضية كانت فى داخل مكة ولم تكن فى حاجة إلى ذهابه إلى منى، ولم تكن معه زينب فيها، ومن هنا نطمئن إلى أن هذه الحادثة كانت قبل الهجرة، وقد أمر النبى زينب أن تستر نحرها بالخمار ولا تبديه للناس، وهو مرحلة من مراحل تشريع الحجاب أو العزم على تشريعه على الأقل عندما تتهيأ الظروف .

كانت أولى الخطوات المنظمة لتشريع الحجاب أن أمر الله النساء عامة، بما فيهن نساء النبى ﷺ، بإدناء الجلابيب عليهن لستر محاسنهن التى تغرى بهن الفساق، وليعرفن بعفتهن فلا يؤذين . ذلك أن سببه، على ما سيأتى بيانه، وهو خروج النساء للتبرز، وتعرض الفساق لهن، أمر قديم تعوده العرب، وقضت به ظروف البيئة، لعدم وجود كنف فى البيوت، فهو موجود قبل الإسلام وقبل الهجرة إلى المدينة . ولم يرد نص صريح يبين كيفية الإدناء، والقدر الذى يستتر من المرأة، فالأقوال فى ذلك غير مقنعة، وهى محض اجتهاد وموازنة بين الآراء .

ثم كان عمر يغار على نساء النبى ﷺ أن يخرجن لقضاء الحاجة، حتى لا يعرفهن الناس، على الرغم من إدناء الجلابيب، فإن بعضهن، وهى سودة، كانت تعرف بطولها وجسامتها . ولكن النبى ﷺ لم يشأ أن يمنعهن، لما فى ذلك من

---

(١) أخرج هذه الحادثة أيضاً الطبرانى فى المعجم الكبير، وابن عساكر فى تاريخ دمشق، وقال : رواه البخارى فى التاريخ مختصرا، وأبو زرعة، وقال : هذا الحديث صحيح .

المشقة، حيث لم تكن الكنف قد اتخذت فى بيوت أزواجه بعد، ولما اتخذت أمرهن بالقرار وعدم الخروج.

ولما كان الرجال يختلطون بالنساء ويتحدثون إليهن، وينظرون إلى وجوههن، حدثت عدة حوادث جعلت عمر يغار على نساء النبى ﷺ بصفة خاصة أن يكن كسائر النساء، وجعلته غيرته يشعر بحرمة بيت النبى ﷺ وكرامته، بحيث لا تكون علاقة الرجال بهن كعلاقتهم ببقية النساء فى النظر إليهن والجلوس معهن.

وتضايق النبى ﷺ من بعض هذه الحوادث، وكان حياؤه يمنعه أن يصرف الناس عنه ويصدهم عن بيته، فنزل الأمر تأديبا للرجال أن يحترموا مقام الرسول وأزواجه. وتحريماً لهم أن يروهن حتى لو كن مستترات، فإذا اضطروا إلى الحديث معهن فى شأن مشروع كان ذلك من وراء حجاب، لا ترى فيه شخوصهن ولو كن متحجبات.

وكن رضوان الله عليهن، يحرصن على عدم تعريض أنفسهن لرؤية الرجال، فآثرن القرار فى البيوت، لأنه أسلم. وإذا خرجن للضرورة كان خروجهن فى هودج يعده لهن النبى ﷺ عند سفرهن معه. ما لم تكن هناك ضرورة أو داع قوى لظهورهن بأشخاصهن، وذلك كالطواف حول البيت مثلا، أو عدم تيسر هذا الساتر، أو مشقة إعداده فى مثل خروجهن لزيارة أقاربهن.

وقد تزوج النبى ﷺ صفية وهو عائد من غزوة خيبر، فقال الناس: لا ندرى أتزوجها أم أتخذها أم ولد، قالوا: إن حجبها فهى امرأته، وإن لم يحجبها فهى أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها، فقعدت على عجز البعير، فعرفوا أنه قد تزوجها «مسلم ج٩ ص ٢٢٤» وسيأتى فى ذلك قول عياض، ورد ابن حجر فى بيان: هل ستر شخوصهن عن الناس فرض أو مجرد تكريم.

أما غير نساء النبى ﷺ فلم يحرم على الرجال رؤية أشخاصهن، بل حرم عليهن كشف الزينة على ما سبق تحقيقه، وجاءت الآيات تأمر عامة النساء

بالستر، وتنهاهن عن إبداء الزينة، وتحدد مواضعها، وتأمرهن بغض الأبصار وحفظ الفروج، كما سبق ذكره في آيتي سورة النور: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾، ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...** ﴾. وجاءت الأحاديث توضح الآيتين وتنظم اختلاط الجنسين، وتمنع منه ما يوقع في الإثم. وكان الاستقرار في البيوت وعدم الخضوع بالقول من أهم ما يسد باب الفتنة بين الرجال والنساء. وقد أمر الله به نساء النبي، وشرعه الرسول لعامة النساء ورغب فيه.

ولا يعلم بالضبط تاريخ أي تنظيم من هذه التنظيمات. وإن كان قد ورد في بعض الكتب بيان للوقت الذي نزلت فيه آية الحجاب المشهورة في حادثة وليمة زواج الرسول بالسيدة زينب. غير أن تحديد هذا الوقت مختلف فيه أيضاً، تبعاً للاختلاف في تعيين عام هذا الزواج، فقد قيل: إنه كان في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، كما في تفسير ابن كثير، وقيل. كان في السنة الرابعة، وقيل: في السنة الثالثة «انظر المواهب اللدنية في ترجمة زينب».

وقال الشوكاني في نيل الأوطار «ج٦ ص ٩٦»: قال في «بهجة المحافل» للمعافري الشافعي في حوادث السنة الخامسة ما لفظه: وفيها نزل الحجاب.

وثبت في الصحيحين أن عائشة خرجت في سفر مع النبي ﷺ لإحدى الغزوات، وكانت في هودج. وذلك بعد تشريع الحجاب. وقد تخلفت عن الركب عند العودة إلى المدينة بسبب البحث عن عقدها الذي فقدته، حتى أدركها صفوان بن المعطَّل، فعرفها، لأنه كان ينظر إليها قبل الحجاب فحملها على راحلته حتى عاد بها، وكانت تهمة الإفك المعروفة.

وقد ثبت أن سعد بن معاذ تنازع مع سعد بن عبادة أمام النبي ﷺ في شأن ما يتصرف به نحو الذين روجوا إشاعة الإفك، ومات سعد بن معاذ عام الخندق وقريظة، وكان ذلك في شوال سنة أربع أو خمس من الهجرة. فالحجاب كان قد شرع قبل هذا الشهر من إحدى هاتين السنتين.

وجاء فى سيرة ابن هشام عند الحديث عن غزوة الخندق قول عائشة: وكان لم يفرض علينا الحجاب. وكانت مع أم سعد فى أُطُمٍ واحد.

وقال مؤرخو السيرة: إن هذه الغزوة التى خرجت فيها عائشة محجبة فى الهودج هى غزوة المريسيع أو بنى المصطلق. وكانت فى شعبان سنة خمس على الصحيح. وقيل: سنة ست أو أربع.

وروى الطبرانى بسند حسن عن الزهرى: أن النبى ﷺ سبى جويرية بنت الحارث المصطلقية يوم المريسيع، فحجبها، أي ضرب عليها الحجاب، لأنه تزوجها، وقسم لها مع زوجاته. وذلك يدل على أن الحجاب المفروض فى زواج زينب كان قبل هذه الغزوة «الزرقانى على المواهب ج٣ ص ٢٥٥».

من هذا العرض للحوادث رأينا صعوبة تحديد الوقت الذى شرع فيه الحجاب بأركانه كلها، وهذا التحديد يفيدنا، كما ذكرت من قبل، فى فهم النصوص الواردة عن بعض الوقائع التى لم يستعمل فيها الحجاب، والتى يعتمد عليها بعض الناقدين لمشروعية الحجاب، ويقولون: إنه غير مفروض، وذلك كرؤية بعض نساء النبى فى غزوة أحد كاشفات بعض ما أمرن بستره بعد.

ومهما يكن من شيء فإن تشريع الحجاب قد تكاملت أركانه بالآيات المتعددة فى سورتى النور والأحزاب، وإن كانت السابقة منهما للأخرى لم تعرف تماما[1]. ووضحت معالمه بالأحاديث النبوية، وكان أشد ما طبق فى بيت النبى ﷺ، وذلك لشرفه وقدوة الناس به.

وكان عمل الصحابة والتابعين والسلف الصالح دليلاً على استمرار تشريعه وتأكيد الحرص عليه. ولم تحدث ثورة عليه تنكره، أو تحاول التقليل من أهميته إلا فى السنوات الأخيرة على ما سيأتى توضيحه.

* * *

---

(١) يقول المودودى: إن سورة النور نزلت بعد سورة الأحزاب بأشهر، وذلك فى النصف الآخر من سنة ست من الهجرة.

الفصل العاشر
الأسباب المباشرة لتشريع الحجاب

قبل أن أذكر النصوص الدالة على الحوادث التي ترتب عليها نزول القرآن بالحجاب، وعلى أى هذه الحوادث كان سبباً مباشراً فى تشريعه.. أبدا ببيان نقطتين هامتين:

● **الأولى:**

لقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع. ذكر ذلك الإمام الزركشى فى كتابه «البرهان». ونقله السيوطى فى كتابه «الإتقان» ج١ ص ٣١.

وأكثر المسانيد على هذا، لا يكون الحادث سبب نزول، بل من قبيل التفسير. ماعدا البخارى وحده، فهو الذى يجعله من المسند الذى يحكى الخبر. ويقول ابن تيمية، معلقا على ذلك، قد أوقعنا اصطلاحه فى اللبس « ج١ ص٣٠، ٦٠ ».

وبهذا يمكن أن نقول: إن الراوى عندما يقول: نزلت فى الحجاب آية كذا لا يتحتم أن يكون هذا الحادث هو السبب فى نزولها، ولكن بجوز أن يكون ذلك من قبيل الاستدلال على الحكم بهذه الآية.

● **الثانية:**

أن آيات السور ليس حتما أن تكون مرتبة فى المصحف حسب ترتيب نزولها، فقد تنزل الآية، ثم توضع قبل آية نزلت من قبلها، كما فى السور المدنية التى فيها آيات مكية. وترتيبها فى المصحف إنما هو للتناسب بينها فى الأحكام. وقد يكون مع ترتيبها فى المصحف ترتيب زمنى فى النزول أيضاً.

على أنه قد يكون الفاصل بين نزول الآيتين زمنا طويلاً يعد بالسنوات وذلك كالسور المكية التى ذكرت فيها آيات مدنية.

وهذا الترتيب بين الآيات على ما هو عليه فى المصحف الآن توقيفى من النبى ﷺ، وهو أمر مجمع عليه، وله نصوص كثير، تثبته. فليرجع إليها فى الاتقان للسيوطى «ج١ ص ٦٠».

● **بعد هذا نقول:**

تكاد الروايات تجمع على أن آية الحجاب هى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ولعل ذلك لورود كلمة الحجاب فيها، وهى تحرم على الرجال النظر إلى أزواج النبى ﷺ والاختلاط بهن. وذلك لنزولها أثر حادث الوليمة عند زواجه من زينب، ومكث بعض المدعـوين عنده طويلا. مع أن هناك آيات نزلت فى الحجاب تعالج نواحيه الأخرى، منها قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. وهى توجب على النساء ستر ما يطمع فيهن الفساق. كما نزل أيضاً قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وهى تنهى عن لين القول والتبرج، وتدعو إلى القرار فى

البيوت. ومما نزل أيضاً آيتا النور فى غض البصر وحفظ الفرج وعدم إبداء الزينة وستر الجيوب بالخمر وعدم الضرب بالأرجل للفت النظر إلى ما يخفى من الزينة.

وقد لاحظت أن بعض روايات الحديث يعبر فيها بلفظ: فنزل الحجاب — وبعضها بلفظ: فنزلت آية الحجاب. ولم يذكر معها قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ....** ﴾.

وبتتبع ما ورد فى الأسباب التى شرع من أجلها الحجاب يمكن تلخيصها فيما يلى:

(١) تعرض الفساق للنساء عند خروجهن ليلاً لقضاء حاجتهن « التبرز » فى الأمكنة الخالية. والنهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بمثل هذه التصرفات. وأمر النساء بالستر حتى يعرفن بالعفة، فلا يؤذيهن الفساق. وكان خروج النساء بالنهار قليلاً.

(٢) غيرة عمر رضى الله عنه على نساء النبى أن يخرجن لقضاء الحاجة، فيراهن الناس كبقية النساء.

(٣) حادثة أكل عمر مع النبى ﷺ وعائشة من إناء واحد، ولمس يده ليدها، وتألم عمر من ذلك، وتمنيه أن يشرع عدم اختلاط أحد بزوجات النبى ﷺ. وحادثة لمس أحد أصحاب النبى ليد عائشة عند الأكل معها. وتألم النبى من ذلك.

(٤) حادثة جلوس رجل مع النبى فى بيته، وإطالة الجلوس وتألم عمر من ذلك. وعرضه على النبى أن يمنع دخول الناس على أهله، فليس كلهم أبراراً، ومقام نسائه فوق مقام غيرهن من النساء.

(٥) طول جلوس بعض المدعوين بعد الانتهاء من تناول طعام الوليمة التى أقامها النبى ﷺ عند بنائه بزينب بنت جحش، وبحيث لم يتمكن النبى ﷺ من جلوسه معها، وكانت تجلس معهم، وتألمه من ذلك، واستحياؤه أن يأمرهم بالانصراف.

هذا هو ما ورد من الحوادث المسببة لتشريع الحجاب، والحادث الأول واضح في أنه كان سببا لنزول قوله تعالى: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾.

ولكن أي الحوادث كان سبباً مباشراً في نزول قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾؟

لا نكاد نجزم بسببية واحد منها لنزولها مباشرة. وإن كانت حادثة الوليمة هي أقربها، لأنها ذكرت في القرآن، ووردت بها السنة الصحيحة في البخاري ومسلم، وكانت الأحداث الأخرى ممهدة ومليئة لصدور قرار الحجاب. وبهذا يمكن أن تكون الحوادث كلها أسبابا، وإن كان بعضها أقرب من بعضها الآخر لنزولها. وإليك تفصيل ما ورد في هذه الأسباب:

(أ) قال المتحدثون في أسباب النزول: إن الفساق كانوا يمشون في طرق المدينة يتتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيسيرون وراء المرأة، فإن سكتت تتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا عنها. ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء، ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الأمة، لأن زي الكل كان واحدا تقريباً. فشكون ذلك إلى أزواجهن، فذكروه للنبي ﷺ، فنزل قوله تعالى، نهيا عن هذا السلوك ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٨]. ثم أمر الله المؤمنات بعمل ما يدفع عنهن الأذى في الجملة، من التستر والحشمة. وهذا الأمر عام لجميع النساء، بما فيهن أزواج الرسول ﷺ. كما تنص عليه الآية ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(ب) عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع، وهو صعيد أفْيَح، فكان عمر يقول للنبي ﷺ احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل. فخرجت سودة بنت زمعة زوج

النبى ﷺ ليلة من الليالى عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة. حرصا على أن ينزل الحجاب. فأنزل الله آية الحجاب. رواه البخارى « ج١ ص ٤٩ » ورواه مسلم « ج١٤ ص ١٥٢ ».

وعن عائشة أيضاً أنها قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها. فرآها عمر بن الخطاب، فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا. فانظرى كيف تخرجين. قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ فى بيتى، وأنه ليتعشى، وفى يده عَرْق[1]. فدخلت فقالت: يا رسول الله إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر: كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العرق فى يده ما وضعه، فقال: «إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» رواه البخارى « ج٦ ص ١٥٠ » ومسلم « ج١٤ ص ١٥٠ ».

والحديث الأول ليس فيه بيان أن خروج سودة كان قبل الحجاب، وإن كان يفهم ذلك من عبارة: حرصا على أن ينزل الحجاب، وعبارة: فأنزل الله آية الحجاب، والحديث الثانى يدل على أنها خرجت بعد الحجاب، وأن عمر كان لا يريد لنساء النبى ﷺ أن يخرجن كبقية النساء. ولو مع إدناء الجلابيب، ويود لهن القرار فى البيوت، تكريماً لهن. ولكن النبى ﷺ رخص لهن فى الخروج للضرورة، وكان ذلك قبل اتخاذ الكنف فى البيوت. ثم شرع لهن القرار بعد ذلك، ولعل عمر رأي سودة مرة قبل الحجاب وهى خارجة، ومرة بعده أيضاً.

(جـ) عن عائشة رضى الله عنها قالت: كنت آكل مع النبى ﷺ فى قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصاب أصبعه أصبعى. فقال: أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين. فنزلت آية الحجاب. رواه الطبرانى بسند صحيح « الزرقانى على المواهب اللدنية ج٣ ص ٢٤٧ ».

روى ابن جرير الطبرى فى تفسيره، عن طريق مجاهد، قال: بينما النبى

---

[1] (١) العرق هو العظم مادام عليه اللحم، فإذا أكل لحمه سمى عراقا.

ﷺ يأكل ومعه أصحابه، وعائشة تأكل معهم، إذ أصابت يد رجل يدها، فكره النبى ﷺ . فنزلت آية الحجاب[1] .

(د) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : دخل رجل على النبى ﷺ فأطال الجلوس، فخرج ﷺ ليخرج، فلم يفعل، فدخل عمر، فرأى الكراهة فى وجهه، فقال عمر : لعلك آذيت النبى ﷺ ، فقال ﷺ : « لقد قمت ثلاث مرات لكى يتبعنى، فلم يفعل » فقال عمر : يا رسول الله لو اتخذت حجاباً، فإن نساءك لسن كسائر النساء!! وذلك لطهر قلوبهن. فنزلت آية الحجاب « الزرقانى على المواهب ج٣ ص ٢٤٧ » .

وأخرج البخارى عن أنس قال : قال عمر : قلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب!! فأنزل الله آية الحجاب « ج٦ ص١٤٨ » وفى ص٢٤ عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث، أو وافقنى ربى فى ثلاث. قلت : يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى!! وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب!! فأنزل الله آية الحجاب، قال : وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن، فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيرا منكن، حتى أتت إحدى نسائه فقالت : يا عمر أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن » .

(هـ) روى مسلم « ج٩ ص ٢٣٠ » وروى البخارى مثله « ج٦ ص ١٤٩ » عن أنس بن مالك قال : أنا أعلم الناس بالحجاب، لقد كان أبى بن كعب يسألنى عنه. قال أنس : أصبح رسول الله ﷺ عروسا بزينب بنت جحش، قال : وكان تزوجها بالمدينة. فدعا الناس للطعام بعد ارتفاع النهار، وفى بعض الروايات حين امتد النهار، أى ارتفع، فجلس رسول الله ﷺ وجلس معه رجال، فى رواية أنهم ثلاثة، وفى أخرى أنهم اثنان. بعدما قام القوم، حتى قام رسول الله ﷺ فمشى

(١) مختصر الزبيدى ج١ ص ١٣٢

فمشيت معه حتى بلغ باب حجرة عائشة . ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه . فإذا هم جلوس مكانهم . فرجع، فرجعت الثانية، حتى بلغ حجرة عائشة . فرجع فرجعت، فإذا هم قد قاموا . فضرب بينى وبينه بالستر . وأنزل الله آية الحجاب .

وفى بعض الروايات « البخارى ج٦ ص ١٤٩ » قوله : حتى إذا وضع رجله فى أُسْكُفَّة الباب – عتبته – داخله، والأخرى خارجه[١]، أرخى الستر بينى وبينه، وأنزلت آية الحجاب . وفى بعض الروايات : وجلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط . وفى بعضها : وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر، ودخل وأنا جالس فى الحجرة، فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج على، وأنزلت هذه الآية . فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ . . .** ﴾ قال أنس : أنا أَحْدَثُ الناس عهدا بهذه الآيات، وحجبن نساء النبى ﷺ .

هذا ما ورد فى أسباب تشريع الحجاب ونزول آيته، إلى جانب ما سيأتى بيانه فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾ من ترتبه على مطالبة زوجات النبى له بفاخر الثياب . ومن نصوص الأحاديث نرى أن الآية الكريمة المذكورة فى حديث أنس وغير نزلت فى نساء النبى ﷺ، وذلك للنص فى أولها على ﴿ **بُيُوتَ النَّبِيِّ** ﴾ وللأسباب المتقدم ذكرها، فيحرم النظر إليهن والاختلاط بهن، والحديث معهن بدون حجاب .

* * *

---

(١) ضبط لفظ : داخله وخارجه . بالنصب على الإضافة لضمير الغائب، على أنهما ظرفان والضمير يعود على الباب . كما ضبطا بالنصب مع التنوين، على أنهما وصفان للرجل على الحالية .

الفصل الحادى عشر
هل فرض الحجاب خاص بنساء النبى؟

فهم بعض العلماء من ورود آيات القرار فى البيوت وعدم التبرج والخضوع بالقول، ومنع الخلوة بنساء النبى ﷺ ووجوب أن يكون كلامهن من وراء حجاب – فهموا أن هذه الأمور خاصة بهن، ويستندون فى ذلك إلى أمور:

(١) سياق الآيات فى الحديث عن زوجات الرسول ﷺ والتوجه إليهن بالخطاب، من أول قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ . .** ﴾ بل إلى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ . .** ﴾.

(٢) التعبير فى بعضها بما يفيد تميزهن على سائر النساء، كقوله تعالى: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾.

(٣) ورود لفظ أهل البيت فى بيان حكة التشريع بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . . .** ﴾.

وقالوا: إن ابن عباس عندما سئل عن هذه الآية قال: إنها فى نساء النبى ﷺ خاصة، وكذلك قال عكرمة: من شاء باهلته، إنها نزلت فى أزواج النبى ﷺ. وروى عنه أنه قال فيها: ليس بالذى تذهبون إليه، إنما هو نساء النبى ﷺ. وقد روى مثله ابن سعد عن عروة «مذكرات العسكرى لكلية الشريعة» ص ٤٧.

وقد فهم هؤلاء أن خصوص الحديث عنهن، والخطاب إليهن يفيد خصوص الحكم بهن، وعدم شموله لغيرهن. ولا شك أن هذا الفهم غير مسلم، لأن النبى ﷺ خوطب فى أول هذه السورة – سورة الأحزاب – بقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ والمسلمون جميعاً مشتركون فى الأمر

بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.. فتوجيه الخطاب لشخص بحكم لا يمنع أن يكون غيره مكلفا به، إما بهذا الخطاب نفسه، وإما بالقياس عليه، وإما بخطاب آخر. وتخصيصه بالمخاطب وحده يحتاج إلى مخصص قوى، وليس فى آيات الحجاب هنا ما يفيده بيقين. والأمور الثلاثة المذكورة فى أول الموضوع، هى لتخصيص الحديث بهن لا لقصر الحكم عليهن. ولا شك أن هذه الآيات نزلت فى شأن نساء النبى ﷺ وتحدثت فى فنون شتى عنهن. فهل الآداب الواردة فيها خاصة بهن، أو تشمل غيرهن من نساء المؤمنين؟

لا يجوز أن يتطرق الشك إلى أن بعض الأحكام الواردة فى هذه الآيات خاص بنساء النبى ﷺ، وذلك كالتخيير ومضاعفة العقاب على إتيانهن الفاحشة، ومضاعفة الثواب لهن على القنوت لله ورسوله وعمل الصالحات. وان بعض الأحكام عام يشمل غيرهن، كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.

أما عدم الخضوع بالقول، والاستقرار فى البيوت وعدم التبرج، وحرمة النظر إليهن أو الخلوة بهن، ومنع كلام الغير لهن بغير حجاب، وهى الأمور المتصلة اتصالا وثيقا بالحجاب – فهى جميعاً أمور مشروعة لنساء النبى وغيرهن.

فعدم الخضوع بالقول إن كان نساء النبى ﷺ مأمورات به، مع ما معهن من إيمان قوى ومراقبة لله واضحة وطهارة وعفة وانتساب للرسول وغير ذلك مما يبعد الشك فيهن – فهو أولى بغيرهن من النساء اللاتى لا يملكن هذه الميزات.

والاستقرار فى البيوت قد رغب فيه الدين بالأحاديث الكثيرة التى تعم نساء النبى وغيرهن، وسيأتى ذلك مفصلا. وإن كانت هذه الآية خاصة بهن فالحكم فى غيرهن أولى، للميزات المذكورة من قبل.

والتبرج إن كان بمعنى الخروج، على ما سبق تفسيره، فحكمه معلوم من الأمر بالاستقرار، وجاء النهى عنه تأكيدا للأمر بالاستقرار. وإن كان بمعنى إبداء ما ينبغى ستره فكل النساء منهيات عنه بعموم قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...**﴾ وقوله: ﴿**يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ...**﴾ وهذه الآية الأخيرة التى

شملت جميع النساء بالنص عليهن بقوله ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ مذكورة في السورة نفسها، وهي سورة الأحزاب، بعد آيات الأمر بالاستقرار بنحو عشرين آية.. وهي أصل في طلب الحجاب ذكرت مع الآيات التي تتصل بها في السورة. وعلل الأمر فيها بدفع الأذى عنهن، والأذى كما يكون بالزنى يكون بغيره.

أما آية النور ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ... ﴾ فهي مفصلة وشارحة لآية ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ذكرت مع الآيات المناسبة لها، وهي التي تتحدث عن الزنى وعقوبته والتشريعات الوقائية ضده، من الاستئذان وغض البصر وستر العورة...

وأما حرمة النظر والخلوة والكلام من غير حجاب فأدلتها سبقت بوضوح، والحكم فيها يتساوى فيه نساء النبي ﷺ وغيرهن. وكما سبق في الأمر بعدم الخضوع بالقول، فإن عامة النساء أولى به من نساء النبي ﷺ.

كما ان حكمة الحجاب، وهي قطع أطماع القلوب المريضة وإذهاب الرجس والتطهير، مطلوب الشرع لكل النساء.

وهذا هو رأي الجمهور في اشتراك عامة النساء في مشروعية الحجاب على هذا النحو. وماروي عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما ليس المراد به خصوصية الأحكام بنساء النبي، ولكن المراد هو تفسير لفظ «أهل البيت» هل هو خاص بنساء النبي أو يشمل الأسرة كلها، بما فيها بناته. فكان ابن عباس ومعه عطاء وعكرمة، يرى أن أهل البيت هم نساء النبي ﷺ خاصة. وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي ﷺ، لقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ لكن الترمذي أخرج حديثا أنها لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وحسنا وحسينا وعليا، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»(١). وجاء في رواية أم سلمة ما يدل على إخراج زوجاته منهن، عندما قالت له: وأنا منهم يا رسول الله؟ فقال: «إنك من أزواج

---

(١) كتاب مفحمات الأقران في مبهمات القرآن. للسيوطي، على هامش حاشية الجمل على الجلالين ج٤ ص ٥٨٦.

النبى »[١]. وروى مسلم والنسائى عن زيد بن أرقم ان أهل البيت هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس. ويرى الزمخشرى والبيضاوى أن أهل البيت هم أهل النبى ﷺ نسبا وسكنا، فيعم نساءه وذريته[٢].

غير أن بعض العلماء أراد أن يجعل لنساء النبى ﷺ خصوصية فى الحجاب، وهى درجة طلبه، فجعلها الفرضية فى حقهن، والندب فى حق بقية النساء. وقد سبق ذلك فى بيان رأى المالكية فى عورة المرأة. وجعل البعض هذه الخصوصية فى حد العورة، فقال: إن الوجه والكفين عورة فى حق نساء النبى ﷺ، وظهورهن ولو مستترات محجبات ممنوع أمام الرجال الأجانب. والنظر إلى شخوصهن فى الأزر حرام. وصرح بذلك القاضى عياض. وأقره النووى فى شرح مسلم، فقال: فرض الحجاب مما اختص به أزواج النبى ﷺ فهو فرض عليهن بلا خلاف فى الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ولا غيرها، ولا يجوز لهن إظهار شخوصهن وإن كن مستترات، إلا ما دعت إليه الضرورة من الخروج لبراز – أى للتبرز – قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ وقد كن إذا قعدن للناس جلسن من وراء الحجاب. وإذا خرجن حجبن وسترت أشخاصهن « مسلم ١٤ ص ١٥١ ». ثم استدل بما فى الموطأ من أن حفصة لما توفى عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها، ولم ينكر عليهن، فكان إجماعا، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها[٣].

---

(١) مشارق الأنوار للعدوى. هامش الصبان ص ٩٩.

(٢) مشارق الأنوار للعدوى. هامش الصبان ص ١٠٠.

(٣) أول من وضعت لها قبة على النعش فاطمة بنت النبى ﷺ. روى أنها قالت لأسماء بنت عميس: إنى قد استقبحت ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها. فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيته بالحبشة؟ وذلك حين كانت مهاجرة مع زوجها جعفر بن أبى طالب. فدعت بجرائد رطبة، فحنتها، ثم طرحت عليها ثوباً. فقالت فاطمة: ما أحسن هذا، تعرف به المرأة من الرجل!! فإذا أنا مت فاغسلينى أنت وعلى، ولا يدخل على أحد... وذلك بمحضر من الصحابة، ومنهم عمر الذى صلى عليها –، ولم ينكر. =

غير أن ابن حجر رد عليه وقال : ليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه . من فرض ذلك عليهن . لجواز أنه فعل ذلك تكرمة لهن . بل ورد عنهن ما يدل على خلافه، فقد كن بعد النبى ﷺ يحججن ويطفن . بل طفن مع النبى ﷺ والناس ينظرون إليهن . والممنوع فقط هو الزحام . وقد قال النبى ﷺ لأم سلمة « إذا أقيمت صلاة الصبح فطوفى على بعيرك والناس يصلون » ففعلت ذلك، ولا شك أن المصلين كانوا يرونها . « رواه البخارى ج٢ ص ١٨٩ » . اللهم إلا إذا كانت تطوف من خلفه، وهل كانوا من القلة بحيث يسعهم المكان المخصص للطواف، ويسمح للطائفين بالإبل أن يطوفوا؟ وقد جاء التصريح بطوافها من وراء الناس فى رواية أخرى « ص ١٩٠ » . حتى أن الطواف من خلف المصلين يتيح لهم فرصة لرؤيتها إذا كانت عن يمينهم أو يسارهم . لأنهم يصلون دائرين حول الكعبة . وفى البخارى قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له من طواف عائشة : أقبل الحجاب أم بعده؟ قال : إن أدركت ذلك إلا بعد الحجاب « ج٢ ص ١٨٧ » .

وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الشخوص . وقد رأى الصحابة صفية، وهى محمولة خلف النبى ﷺ عند عودته من سفر، ولما وقعت أذن النبى ﷺ لبعض الصحابة أن يرفعها على البعير بثوبه « البخارى ج٤ ص ٩٣ » .

قال الزرقانى « شرح المواهب ج٥ ص ٢٨٣ » بعد أن أورد كلام القاضى عياض، الذى أقره النووى : ويمكن الجواب عن عياض بأن ذلك من جملة مادخل فى قوله : إلا ما دعت إليه الضرورة .

هذا، وأرى لفهم الموضوع أن ننظر إلى الآيات المتصلة بتشريع الحجاب والممهدة لها، ونأخذها فى الاعتبار . ولا ينبغى أن تبتر الآيات، ويعزل بعضها عن بعض، فهى متماسكة، أخذ بعضها بحجز بعض، والنظرة الشاملة إليها تعين على

= أخرجه ابن عبد البر « الزرقانى على المواهب ج٣ ص ٢٠٦ » وأخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى . وفى السند كلام . وأخرج الطبرانى ان ابنة رسول الله التى جعل لها أول نعش فى الإسلام هى رقية . وسند الحديث فيه مجهول، وهو خلف بن راشد « الحجاب للألبانى ص ٦٣ » .

فهم المراد منها، كما أن معرفة سبب النزول ودراسة الظروف والبيئة التى نزلت فيها الآيات خير ما يمهد لنا السبيل لإدراك حكمة التشريع.

إن آيات الحجاب متصلة بحادثة التخيير التى ذكرت فى الآيات السابقة عليها، ويبدو لى أنها مترتبة عليها، كما أن التخيير مترتب على غزوة الأحزاب وإجلاء بني النضير من قبل، وعلى الفيء الذى أخذه المسلمون من اليهود ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ... ﴾.

وذلك أن الأحاديث قررت أن نساء النبى ﷺ طلبن منه أن يمتعهن بفاخر الثياب، على أثر ما أفاء الله عليه. وقد تألم النبى ﷺ من موقفهن، فاعتزلهن شهرا. ثم أمره الله بتخييرهن بين المقام معه على حاله الرقيقة التى آثرها، وبين طلاقهن ليكن حرائر في سلوكهن وتمتعهن كما يشأن، دون أن يكون النبى ﷺ مسئولا عنهن كزوجات له، فاخترن البقاء معه. وآثرن ما عند الله. ما عدا الغامدية، على ما هو مذكور فى بحث تعدد الزوجات.

ثم بين الله بعد آية التخيير مقام نساء النبى ﷺ ومقدار صلتهن به، وأن سوء سلوكهن عليه عقوبة مضاعفة، كما أن طاعتهن واستقامة سلوكهن لها أجرها المضاعف. وبين لهن أن سبب ذلك هو صلتهن بالنبى ﷺ. ولو كن زوجات لغيره لكان لهن من الأحكام ما لسائر النساء في المعاملة ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ ثم بين لهن أنهن مادمن على تقوى وطاعة ينبغى أن يقتدين بالنبى ﷺ فى الجد والعفة والقناعة وإيثار ما يبقى على ما يفنى. ليكن قدوة لغيرهن من النساء، ومثلا عليا تحتذى ويتشبه بها، سواء فى أقوالهن أو فى أفعالهن. فإذا جاز لأية امرأة أن تتحدث مع الرجال بأى كلام قد يستهوى بعض القلوب المريضة التى تتأثر لمطلق صوت النساء لرقته الطبيعية، فلا يجوز لنساء النبى ﷺ أن يتحدثن إلا بالجد والعفة والرزانة، وأن يكون قولهن قولا معروفاً، يقره الدين ويمليه الشرف، كما لا يجوز لهن أن يطلبن من الرسول ﷺ إمتاعهن بالملابس الفاخرة، وهى من أموال

المسلمين، فى الوقت الذى لا يجد غيرهن ما يستر به عورته، فيكثر القيل والقال، وتحوم الشبهات حول تصرفات الرسول وبيته، ويغرى ذلك مرضى القلوب أن يطلبن مثل ما يطلبن.

والملابس الفاخرة التى تتباهى بها النساء، ويتبرجن بها فى الطرقات والمجتمعات لا ينبغى لنساء النبى ﷺ أن يحرصن عليها، فذلك من بقايا الجاهلية. واللائق بهن أن يكن فى بيوتهن على وقار وحشمة بملابسهن المتواضعة، لا يتبذلن بالخروج كغيرهن متبرجات.

والرسول ﷺ لا يطلب منهن أن يكن معه فى فاخر الثياب لغرضه الشخصى. فهو المهتم بما هو أجل وأهم من ذلك، وهو الدعوة وسياسة الدولة. والملابس الفاخرة غالباً تكون للمباهاة بها خارج المنازل، وهن فى غير حاجة للخروج حتى يطلبن هذه الثياب ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾[1]. ثم دلهن على ما هو أولى وأحسن من الملابس وزخرف الحياة. وأبقى وأبر عند الله، وهو طاعته بالصلاة فهى قرة عين المؤمن. وبالصدقة التى يتعرف بها المتصدق بؤس الفقير فيشكر الله على ما عنده ولو كان قليلا. وامتثال أمره بوجه عام ففيه الخير والرشد، وفيه حياة الاستقرار فى الأسرة والرضوان فى الآخرة ﴿ **وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ معللا ذلك بأنه يريد لبيت النبى ﷺ أن يكون أنموذجاً كاملاً فى العفة والقناعة والطهر ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾.

وهذا الأسلوب فى التربية، وهو صرف المسلم عن زخرف الحياة واللهو به، إلى ما هو خير وأجدى، وهو الاهتمام بالآخرة والعمل لها. أسلوب سلكه النبى ﷺ مع على وفاطمة، حين جاءت إليه تطلب خادما من السبى، يكفيها الطحن بالرحى التى اشتكت يدها منها. فلم يجبها النبى ﷺ، وأراد أن يطيب خاطرها، فدلها هى وعليا على ذكر الله عند نومهما، حتى يبيتا وقلبهما فارغ من هموم الدنيا. روى البخارى عن على أن فاطمة شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى

---

(١) قرن، قرئت: قرن. بكسر القاف، من الوقار والرزانة.

النبى ﷺ سبى، فانطلقت، فلم تجده. فوجدت عائشة فأخبرتها. فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة. فجاء النبى ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال «على مكانكما». فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى، وقال «ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى؟! إذا أخذتم مضاجعكما تكبران أربعا وثلاثين، وتسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم» ج٥ ص ٢٤.

وهذا الأسلوب أيضاً قد يفهم من سورة الكوثر، التى نزلت تعزى النبى ﷺ عما فقده من أولاد ومن غنى وزينة في الحياة، التي نهاه الله أن يمد عينيه إليها ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

وترد عيب الكافرين له بذلك، بأنه أعطاه أفضل من ذلك بكثير، إن لم يكن عوضا ماديا فى الدنيا فهو عوض أدبى فى الدنيا والآخرة معا، وهو الرسالة الخاتمة والمقام المحمود والشرف الأعلى. لا تهتم بذلك يا محمد. وأطع ربك بالصلاة تقربها عينك. واشكر ربك بالصدقة ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ [الكوثر: ١ – ٣].

ثم ذكر الله بعد أمرهن بذلك ما يحملهن على امتثال هذا الإرشاد، واتباع هذا السلوك، وهو أنهن فى بيت ينزل فيه الوحى، ويخرج منه النور الهادى للأمة، وشرفهن أولاً بهذا البيت المتصل بالسماء ينبغى أن يصرفهن عن الهوى الأرضى، فالباقيات الصالحات خير، وكونه ثانياً مبعث الهداية للناس لا يتناسب معه أن يكون أهله والمتصلون به كبقية العامة، فهم منهم بمنزلة المعلم من المتعلمين ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾.

● **هذا،**

وأرى أن تجربة الحجاب بدأ الله بها أولاً فى أسرة النبى ﷺ، لتكون باعثة لبقية الأسر على الامتثال. ثم جاء بها الأمر عاما بقوله ﴿ **قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ...** ﴾ وقوله: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ ....** ﴾.

الفصل الثانى عشر
حكمة مشروعية الحجاب

تقدم الحديث عن خطر الفتنة بين الجنسين، وأن الحجاب كان تنظيما للاتصال الجنسى وللعلاقة بين الرجال والنساء بوجه عام.

وبعد إيراد الآيات التى تتصل بالحجاب يمكننا أن نلتمس الحكم الكبرى من تشريعه على النحو التالى:

(١) من حكمة مشروعية الحجاب تمييز المسلمة من الكافرة، والعفيفة من الفاجرة، فلا يتعرض لها السفهاء الذين يغريهم المبذول. وهو فى الوقت نفسه يدفع ذوى الغيرة والشهامة والمروءة إلى حماية المرأة المتحجبة والدفاع عنها. إكباراً لها، وتقديرا للبيت الذى أنجبها أو انتسبت إليه. يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾.. وفى هذه الآية تركيز على المرأة وتوجيه الاهتمام إليها.

(٢) عدم تمكين ذوى القلوب المريضة من التفكير فى التعدى على المرأة أو المساس بشرفها، فمن كانت متحجبة عرف الناس أنها تأبى الفجور، والاستسلام للمتعرضين لها. ويشير إليه قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾. وهذه الحكمة، وإن كانت تتلاقى مع الحكمة السابقة إلا أن التركيز هنا على الرجل، للحيلولة دون وقوعه فى الفساد.

(٣) عدم إثارة الغريزة الجنسية وتهييجها بين الرجل والمرأة، فى الوقت الذى لاداعى فيه لإثارتها، وإبعاد الأفكار السيئة عن قلبيهما، فقد ينصرف قلب الرجل عن زوجته عند إعجابه بأخرى، كما قد ينصرف قلبها عن زوجها عند إعجابها بآخر. ومعروف أن المألوف مملول، والنفس طلعة إلى الجديد، ولو لمجرد جدته، حتى لو كان فى وضع أدنى من المألوف، يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾. والتركيز هنا على الطرفين على السواء، لا على طرف واحد. كما يلمح فى النصين السابقين، والكل تجمعه الفتنة.

(٤) إبعاد الشبهة عن الشخصيات العفيفة، والحيلولة دون أن يدنس الرجس الساحات الكريمة والبيوت الأصيلة، وتطهيرها من الشكوك والاتهامات. ذلك أن السفور الذى تعرض به المرأة مفاتنها على الأجانب دون مبالاة أمارة على دخيلة نفسها وميل قلبها إلى غير زوجها، ولو إلى حد ما، إن كانت متزوجة، أو رغبتها الشديدة فى الرجال إن لم تكن متزوجة. وهذا رجس لا يرضاه الله للمرأة، ولا للبيت الذى تعيش فيه. كما أن السفور باعث على اتهامها وإثارة الشكوك حولها، والله يحب للمرأة ولكل من يتصل بها أن يطهروا من هذه الشبهات.

والحجاب أمارة على كرامة ولى أمر المرأة وغيرته ورجولته، وعلى طهارة البيت الذى يحافظ على الآداب الإسلامية، وتنبت فيه هذه النبتة الزكية المصونة، يشير إلى هذا كله قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾. فالتركيز فى هذه الآية على الأسرة كلها رجالاونساء، أزواجا وأولادا وأقارب.

ولعل مما يؤكد ذلك هو التعبير بأهل البيت، والخطاب بصيغة الجمع الشاملة للجنسين. والحديث وإن كان عن بيت الرسول ﷺ إلا أنه يشير إلى المحافظة على سمعة البيوت والأسر عامة، فذلك مطلوب شرعى يحظى فى الدين باهتمام كبير، وسيتضح ذلك عند الحديث عن السفور.

(٥) ومن الحكم الاجتماعية للحجاب إغراء الرجال بتكوين الأسر، ودفعهم إلى حياة الاستقرار عن طريق الزواج، على ما سيأتى بيانه فى الباب الخاص بالسفور إن شاء الله.

هذه هى بعض الحكم التى التمستها من النصوص الواردة فى تشريع الحجاب، وإن كانت هناك حكم أخرى مستنبطة من تطبيقاته ومستوحاة من الإهمال فيه، وتدخل كلها تحت عنوان الحيلولة دون الفتنة الجنسية، والأحاديث والآثار الواردة، والوقائع والأحداث الجارية توضح هذه الحكم بما لا يدع مجالاً للشك فى أن تشريع الله حكيم.

* * *

الباب الثالث

المرأة بين البيت والمجتمع

الرجل والمرأة كلاهما يكمل الآخر، وعمارة الكون تقتضى تعاونهما ليحققا الخلافة فى الأرض، وقد زود الله كلا منهما بطاقات واستعدادات تتناسب مع المهمة التى يقوم بها، والدور الذى يحسن أداءه على مسرح الحياة. وسيأتى توضيح هذه الحقيقة فى الباب الخامس إن شاء الله.

وقد جعل الله لكل منهما ميدانا يمكن لهذه الطاقات أن تؤدى رسالتها فيه، وميدان المرأة، حسب هذه المنطلق، هو البيت ورعايته، والقيام على الجيل الناشىء من اللقاء الزوجى حتى يشب ويستوى، وميدان الرجل هو الكون الواسع بكل تقلباته وجميع مشكلاته. وليس فى هذا التوزيع هضم لحق واحد منهما، فالأمر كله لا يعدو التنظيم والتنسيق، بتوزيع الاختصاص، ووضع الشخص المناسب فى المكان المناسب. وقدر كل امرىء ما يحسنه فى ميدانه الذى يباشر نشاطه فيه، وما ينتجه بطاقاته الممنوحة له.

ومن هنا كان إجماع العقلاء فى كل بيئة وفى كل عصر على أن المكان الطبيعى والمفضل للمرأة هو المنزل. وجاءت الأديان كلها مؤكدة هذه الحقيقة، وموصية بالحفاظ عليها.

وإذا كان لها أن تمارس نوعاً من النشاط فى خارج المنزل فإنما ذلك يعد خروجا على الأصل أو استثناء من القاعدة، لا يكون إلا عند حاجة ملحة أو ضرورة قائمة، اقتضتها ظروف معينة، ولا يكون ذلك بصفة دائمة، بل الأمر مرهون بظروفه. والأولى لها أن تعشق البيت وتهب كل حبها له، وأن تتحاشى، بقدر الإمكان، الظهور للجنس الآخر أو مزاحمته فى الجو الخطير الذى يعج بالحركة والنشاط، ويعاني فيه أهله ما يعانون من متاعب وآلام.

وسيكون حديثنا إن شاء الله فى هذا الباب موزعا على فصول، أولها فى الاستقرار فى البيت، وثانيها فى الدواعى التى تدعو إلى العمل خارج البيت، وثالثها فى بيان شروط الجواز للخروج.

* * *

الفصل الأول

استقرار المرأة فى البيت

أولاً - الترغيب فيه :

إذا كان الإسلام قد شرع الحجاب بين الجنسين ليؤدى كل منهما واجبه فى أمان، وينتجا إنتاجا طيبا سليما من العيوب والآفات، فإن مما يساعد على تنفيذ آداب الحجاب استقرار المرأة فى بيتها .

وقد جاءت النصوص واضحة ترغب المرأة فيه، وتحذر من الاستهانة به، وإليك بعضا منها :

(١) قال الله تعالى : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وقد مر شرح هذه الآية، وهى وإن كانت واردة فى حق نساء النبى ﷺ، فإن ورودها هو فى توجيه الخطاب لا فى تخصيص الحكم بهن، كما سبق بيانه، ولو أن ذلك كان لاختصاص الحكم أيضاً لكان غيرهن أولى به من باب القياس الأولوى . لعدم تمتع غير نساء النبى ﷺ بما يتمتعن به من عوامل التدين وكرامة بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وتنفيذا لهذا الأمر الموجه أولاً إلى نساء الرسول الكريم لم تخرج السيدة سودة بنت زمعة أم المؤمنين من بيتها حتى ماتت، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر ومحمد بن سيرين : نبئت أنه قيل لسودة : لم لا تحجين ولا تعتمرين، كما تفعل أخواتك؟ فقالت : قد حججت واعتمرت، وأمرنى الله أن أقر فى بيتى، فوالله لن أخرج منه حتى أموت .

قال الراوى : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها . جاء ذلك فى تفسير القرطبى« ج١٤ ص ١٨٠ » وروى أحمد عن أبى هريرة أنه

ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع. «هذه ثم ظهور الحصر» قال: فكن كلهن يحججن إلا زينب وسودة، فقالت: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك منه ﷺ «الزرقانى على المواهب ج٣ ص ٢٢٩».

وأخرج ابن أبى حاتم عن أم نائلة قالت: جاء أبو برزة فلم يجد أم ولده فى البيت. وقالوا ذهبت إلى المسجد، فلما جاء صاح بها، فقال: إن الله نهى النساء أن يخرجن، وأمرهن أن يقررن فى بيوتهن. ولا يتبعن جنازة، ولا يأتين مسجدا، ولا يشهدن جمعة.

(٢) يقول النبى ﷺ «المرأة عورة، وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها فى قعر بيتها» رواه الطبرانى فى معجمه الأوسط عن عبدالله بن عمر، ورجاله رجال الصحيح. وروى مثله ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن عبدالله بن مسعود.

ومعنى: استشرفها الشيطان، انتصب ورفع بصره إليها، وفرح بها. لأنها قد تعاطت سببا من أسباب السلطة عليها، وهو خروجها من بيتها، ويجوز أن يراد بالشيطان هنا الشيطان المعروف، كما يمكن أن يراد به المتمرد من الإنس. وكل منهما يميل إلى المرأة لتحقيق أغراضه.

(٣) يقول النبى ﷺ «النساء عورة، وإن المرأة تخرج من بيتها، وما بها بأس فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضا، أو أشهد جنازة، أو أصلى فى مسجد. وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده فى بيتها» رواه الطبرانى عن عبدالله بن مسعود بإسناد حسن.

(٤) رغب النبى ﷺ المرأة أن تصلى فى بيتها، وفى أخفى مكان فيه، بعيداً عن نظر الأجنبى. وزيادة على الحديث المتقدم ورد عن أم حميد، امرأة أبى حميد الساعدى، أنها جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معى، وصلاتك فى بيتك خير

من صلاتك فى حجرتك، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى»[١].

قال الراوى: فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شىء من بيتها وأظلمه. وكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل، رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، وبوب عليه ابن خزيمة «باب اختيار صلاة المرأة فى حجرتها على صلاتها فى دارها، وصلاتها فى مسجد قومها على صلاتها فى مسجد النبى ﷺ وإن كانت صلاة فى مسجد النبى ﷺ تعدل ألف صلاة فى غيره من المساجد ماعدا المسجد الحرام» وفيه دليل على أن قول النبى ﷺ «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد» إنما أريد به صلاة الرجال دون صلاة النساء.. انتهى كلامه[٢].

وإذا كان هذا موقف الإسلام من طاعة تؤدى خارج البيت فكيف يكون ما ليس بطاعة؟ وقد ورد فى هذه النقطة أحاديث أخرى، منها «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن» رواه أبو داود عن ابن عمر[٣]. وحديث «خير مساجد النساء قعر بيوتهن» رواه أحمد والطبرانى فى الكبير عن أم سلمة، وابن خزيمة والحاكم وصححه[٤]، وحديث «صلاة المرأة فى بيتها خير من صلاتها فى حجرتها، وصلاتها فى حجرتها خير من صلاتها فى دارها، وصلاتها فى دارها

---

(١) من هذا الحديث يبدو أن نظام المساكن كان هكذا:
(أ) الدار هى المجموعة السكنية كلها المحاطة بسور يضم الفناء والمساكن.
(ب) الحجرة تساوى القطعة الكبيرة من المسكن بما يشبه الجناح أو الشقة.
(جـ) البيت، وهو جزء من الحجرة، أو غرفة ضمن الشقة.
ويبدو تصوير ذلك فى بيوت الشعر والخيام.
أن يكون هناك ما يشبه الحمى حوله سور. وفى داخله خيام تسمى دارا أو ديارا، والخيمة الكبيرة تسمى حجرة، وفى ركن منها مكان خاص للنوم يسمى البيت.
(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٠٠.
(٣) المصدر السابق ص ١٠١.
(٤) الترغيب والترهيب ج١ ص ١٠٠.

خير من صلاتها في مسجد قومها » رواه الطبراني في الأوسط عن أم سلمة بإسناد جيد[1]. وجاء في رواية أبي داود وابن خزيمة عن عبد الله بن مسعود: أن صلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، والمخدع «بكسر الميم» هو الخزانة تكون في البيت، كما فسره المنذرى. وفسره غيره بأنه البيت الصغير يكون داخل البيت الكبير. وجعله مثلث الميم، أى بالفتح والكسر والضم. وحديث «ما صلت امرأة من صلاة أحب إلى الله من أشد مكان في بيتها ظلمة» رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود، وابن خزيمة في صحيحه[2]. وروى الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به عن أبي عمرو الشيباني أنه رأي عبد الله يخرج النساء من المسجد يوم الجمعة ويقول: اخرجن إلى بيوتكن خير لكن.

وجاء في كتاب «حسن الأسوة» ص ١١١: أخرج الستة أن عائشة استأذنت النبي ﷺ أن تعتكف، فأذن لها، فضربت في المسجد قبة، فسمعت بها حفصة، فضربت قبة، وضربت زينب أخرى. فلما انصرف من الغداة أبصر أربع قباب. فقال «ما هذه»؟ فأخبر بذلك، فقال: «ما حملهن على هذا آلبر؟ أنزعوها فلا أراها» فنزعت. «من كتاب تيسير الوصول – كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». وأخرج البخاري وأبو داود عن عائشة: اعتكفت مع رسول الله ﷺ امرأة من أزواجه مستحاضة، فكانت ترى الدم والصفرة وهي تصلي، وربما وضعت الطست تحتها من الدم[3].

ثانياً – آثار الاستقرار:

للاستقرار في البيت آثار طيبة تعود على المرأة وعلى زوجها وعلى الأولاد، بل على المجتمع كله وإليك بعضها:

---

(١) الترغيب والترهيب ج١ ص ١٠١.

(٢) الترغيب والترهيب ج١ ص ١٠١.

(٣) لا يقال: كيف تدخل الحائض المسجد وتعتكف فيه، لأن هذه الحالة ليست حيضا بل استحاضة، والمستحاضة كالطاهرة في جواز دخولها المسجد واعتكافها فيه، وفي أداء العبادات الأخرى، على تفصيل مذكور في كتب الفقه.

(١) يبعد عن المرأة التهمة، ويمنع عنها الشبهة، والمرأة التى تحب الخروج كثيرا لا تسلم من تعرض الفساق لها، وهم موجودون فى كل مجتمع وفى كل عصر، وأقل ما يمسها منهم كلمة نابية، إن لم يكن هنا تزاحم أو مس أو ما وراء ذلك، بل إن مجرد فكرة الناس عنها بأنها تحب الخروج شيء يمس كرامتها ويشين سمعتها، لأن ذلك مظنة السوء على أى حال. وإذا كانت المرأة التى تحب الجلوس إلى النافذة كالعنقود المتدلى فوق الطريق - كما يقول المثل الايطالى - إن سلم من قطفه أو أخذ حبة منه لم يسلم من النظر العميق المشتهى. فما بالك بالعنقود إذا وقع فى الطريق وكان فى متناول أيدى الآخذين؟ وأكثر ما يكون التعرض للمرأة عند الزحام فى الأماكن التى تهوى الوجود فيها، كالأسواق والحدائق والمواكب ودور اللهو ووسائل المواصلات وما إليها.

(٢) الاستقرار فى البيت يساعدها على أداء واجباتها الزوجية وتدبير المنزل بإتقان وعناية، فالوقت كاف عندها، على عكس المرأة التى تحرص على الخروج، فإنها كثيرا ما تهمل فى واجباتها، وإذا أدتها كان أداء بغير إتقان، لتعجلها الخروج أو ضيق الوقت عن كمال الأداء.

(٣) الاستقرار يهون على الزوج المتاعب، ويبعد عنه القلق وانشغاله بخروجها، وخوفه عليها من الانحراف أو مسها بسوء ممن لا خلاق لهم، وخروجها يوقد فى قلبه نار الغيرة، وإذا عادت إلى البيت، خصوصا بعد طول انتظار، قابلها بوجه متجهم أو كلمة شديدة، إن لم يكن ما هو أشد من ذلك وأخطر كالضرب أو الطرد أو الطلاق.

(٤) الاستقرار يضمن لقلب المرأة. إلى حد كبير، عدم إنصرافه عن زوجها، برؤية غيره ممن يزيدون عليه فيما يسرها ويعجبها من نحو جمال أو غنى... وقد أثبتت الملاحظة أن المغرمة بالخروج تقع عينها على كثير من الرجال، وقد يقع فى قلبها حب أحدهم عند مقارنته بزوجها، وذلك يصرف قلبها عن زوجها، ولو إلى حد ما، يجعلها تتبرم به وبالعيش معه، وربما حاولت

أن تنشيء علاقة مع من أعجبت به، فيكون الوبال عليه وعليها وعلى كثير غيرهما. وقد يتطرق ذلك السلوك إلى تطليقها مشيعة بالسمعة السيئة والقيل والقال.

ومثل هذه المرأة لا تؤمن فى العش الجديد، فقد تهجره إلى عش آخر يعجبها أن تأوى إليه، ظنا منها أنها تستطيع أن تغرد فيه. وسيأتى توضيح ذلك عند الحديث عن السفور.

وقد أوصى عمر رضى الله عنه بعرى النساء ليلزمن الحجال[1] فإن كثرة الملابس تغرى بالخروج ورؤية الرجال، والميل إليهم حتى لو كان زوجها أحسن منهم. وهذه نقطة تتصل بالدراسات النفسية ومعرفة الميول والأغراض، فإن الشيء الغريب تنجذب إليه النفس فى غالب الأحيان، بدافع حب الاستطلاع، وحب التغيير وتجديد النشاط النفسى.

(٥) استقرار المرأة فى بيتها يحول دون إرهاق الميزانية الأسرية، فالخروج الكثير له استعداداته ومطالبه، من ملابس خاصة تناسب كل فصل من فصول السنة، وساعة من ساعات النهار، وكل مناسبة من المناسبات، فرحاً أو عزاء... وما يتبع ذلك من زينة ومكملات أخرى، ولا شك أن هذه الكماليات تبتلع جزءاً كبيراً من ميزانية الأسرة عند من لم تحسن التصرف وتغرم بالقشور والمظاهر. إن المرأة فى تفرسها لأزياء الأخريات اللاتى يملأن الطرقات والأسواق لا ترضى أن تكون أقل منهن، فهى تجتهد فى اقتناء مثل هذه الملابس وما يتبعها، أو أحسن منها. وهذه الأمور تتطلب عبئا مالياً كبيراً يؤثر على ميزانية الأسرة. إنها تحاول أن تقلد هؤلاء النسوة أو تكون أحسن منهن، حتى لو كانت طبيعتها أو وضعها الاجتماعى أو الاقتصادى لا يبرر لها ذلك.

إنها لو كانت قصيرة مثلا تحتال على الطول بأية وسيلة ممكنة، حتى لا تكون

---

(١) إحياء علوم الدين ج٢ ص ٤٣. والحجال جمع حجلة، وهى بيت كالقبة يستر بالثياب، وله أزرار كبار «هامش القرطبى ج١٢ ص ٢٠٢».

النغمة الشاذة إذا سارت مع الطوال . ورد فى الحديث « أن امرأة من بنى إسرائيل كانت قصيرة تمشى مع امرأتين طويلتين، فاتخذت رجلين من خشب – كالقبقاب المعروف فى مصر – وخاتما من ذهب، وحشته مسكا، فمرت به بين المرأتين فلم تعرف » رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى (ج١٥ ص ٨) .

وورد أن المرأة كانت تصلى مع الرجال فى بنى إسرائيل، فاتخذت قوالب « قباقيب » تتطاول بها تنظر إلى صديقها، فالقى الله عليهن الحيض فأخرن . . رواه الطبرانى فى الكبير عن عبد الله . ورجاله رجال الصحيح . وقال البوصيرى : رجاله ثقات . قال عبد الله : فأخروهن من حيث أخرهن الله « المطالب العالية ج١ ص١٠٨ » .

(٦) الاستقرار يصون المجتمع من الفساد الذى يجره الخروج بما يلزمه أو يتبعه من مقابلات وتحرشات وعلاقات وسهرات . . . والمرأة المغرمة بالتقليد لا تقلد فى الملابس وأمثالها فقط، بل تقلد فى السلوك أيضاً، وقوعاً تحت تأثير مركب النقص . ظنا منها أن السافرات والمتبرجات وسيدات المجتمع ينبغى أن يحتذين، لعراقتهن أو درايتهن بأصول الحضارة وفنون المدنية . فهى تحاول أن تتحدث مع الرجال وتجالسهم وتسهر معهم . . . وهذا فتح لباب الشر، وراءه ما وراءه من أخطار، ما كان أغنى المرأة عنها لو استقرت فى بيتها وتفرغت لرعايته .

هذه هى بعض الفوائد التى تعود على المرأة والأسرة من استقرارها فى بيتها، وسيأتى مزيد بيان لذلك عند الحديث عن آثار السفور .

ثالثاً – ما يساعد على الاستقرار :

(١) وقد يكون مما يساعد على استقرار المرأة فى بيتها كثرة أعمال البيت وتعدد المسئولية، والتفنن فى إيجاد وسائل للتسلية، من الوسائل البناءة لقطع الوقت وللإنتاج فى آن واحد .

(٢) كما يلاحظ أن المرأة إذا وجدت كفايتها من كل ما يهمها، ووجدت معاملة طيبة فى البيت، قل أن تفكر فى الخروج، فهى تؤثر أن تقضى أكثر وقتها أو كله فى جنتها التى تنعم فيها مادياً وأدبياً .

(٣) ومن المعلوم أن المرأة إذا كانت ذات دين وأصل كريم، دفعت عن نفسها الريبة والتهمة، وآثرت الاستقرار وعدم الخروج إلا لضرورة، موقنة بأن استقرارها كمال يزيدها كمالا، ويورثها حسن سمعة عند الناس.

(٤) كما أن الرجل إذا كان حازماً يشوب حزمه بالعدل، فإنه يضع حداً لخروج زوجته، فلا يسمح لها إلا بما تقتضيه الضرورة أو تلح به الحاجة، والمشاهد أن الصنف الآخر من الرجال يتركون للمرأة الحبل على الغارب، ولا يهتمون بتغيب المرأة عن المنزل، وفى ذلك استهتار بهم، وزعزعة لثقة المرأة فيهم. ولا تخفى الآثار المترتبة على ذلك.

(٥) وقد دلت التجارب على أن للوسط الذي تعيش فيه المرأة أثرا كبيرا في سلوكها العام، ومنه حب الخروج أو حب الاستقرار، والبلاد مختلفة فى هذا الأمر، والأحياء فى المدينة الواحدة ليست على شاكلة واحدة، ومن الخير للرجل إذا كان لا يحب لزوجته كثرة الخروج أن يختار لها مسكنا فى الوسط الذى يساعد على تحقيق غرضه.

وقد مر أن عمر أوصى بعرى المرأة حتى تقلل من الخروج، فان ملابسها لو كثرت أحبت الخروج، ذلك أن النفس مجبولة على الفخر والتباهى وحب الظهور واستجلاب الإعجاب والثناء، فحب الثناء طبيعة الإنسان، والغوانى بالذات يغرهن الثناء. روى أن النبى ﷺ قال: «استعينوا على النساء بالعرى، فإن المرأة إذا كثرت ثيابها وأحسنت زينتها أعجبها الخروج» رواه ابن عدى عن أنس، وهو ضعيف جدا[١]. وكذلك قول عمر: أعروا النساء يلزمن الحجال، رواه الطبرانى عن مسلمة بن مخلد مرفوعاً إلى النبى ﷺ وهو ضعيف[٢].

هذا، وقد قال الفقهاء: إن المرأة إذا عصت زوجها، فخرجت من المنزل بغير إذنه عدت ناشزا، ويترتب على نشوزها سقوط حقها فى النفقة حتى تطيع بالعودة، وكذلك يسقط حقها فى القسم إن كانت ضرة عند تعدد الزوجات.

---

(١) الجامع الصغير. وذكره الشعرانى فى كشف الغمة ج٢ ص ١٠٧.
(٢) الجامع الصغير. وذكره الشعرانى فى كشف الغمة ح٢ ص ١٠٧.

الفصل الثانى

ما تخرج له المرأة

ليس معنى ا لأمر بقرار المرأة فى بيتها والترغيب فيه منعها من الخروج مطلقًا، أو حرمانها من ممارسة حقوقها المشروعة خارج المنزل، بل المقصود من ذلك هو بيان أن قرارها أفضل من خروجها، وهو القاعدة الأساسية لمزاولة نشاطها، وما كان خارج المنزل من نشاط فهو خارج عن الأصل، أى لا يكون نشاطًا أصيلاً طبيعيًا، بل يكون تابعًا أو فرعًا لنشاطها الأساسى داخل بيتها، الذى هو مملكتها التى بويعت لتتولاها بجدارة، حسب توزيع الاختصاص الذى تفرضه الطبيعة البشرية، وتنبه إليه الشرائع كلها من سماوية ومن أرضية.

وخروج المرأة من بيتها ينبغى ألا يكون إلا لضرورة أو حاجة ملحة، ويتصور ذلك فيما يلى: فالذى تخرج له المرأة إما أن يكون واجبًا، وإما أن يكون مندوبًا، وإما أن يكون مباحًا، ويكون خروجها بالتالى واجبًا للواجب، ومندوبًا للمندوب، ومباحًا للمباح الذى يفضل عليه الاستقرار.

أولاً: فمن الواجب على المرأة تحصيل قوتها وقوت من تلزم نفقته بأية وسيلة من الوسائل المشروعة، كالزراعة والتجارة والصناعة والعمل فى أى ميدان مناسب. ومحل ذلك إذا لم يكن لها زوج يكفيها، أو ولى أمر يوفيها مطالبها، بأن يكون راعيها معسرًا، أو لم يكن لها راع مطلقًا، أو كان وبه علة تعوقه عن الكسب.

فإذا لم تستطع المرأة تحصيل هذه المطالب إلا بخروجها كان لها ذلك، بل وجب عليها، حفظًا للنفس وإبقاء على الحياة الكريمة، وصيانة لها عن اللجوء إلى طريق غير مشروع لتعيش.

وهذا أمر يقره كل عقل سليم، ولا يأباه أى دين من الأديان، وقد جاء فى القرآن نبأ عن الأنبياء السابقين، وفيهم من سمح لبناته بمزاولة النشاط خارج

المنزل للحاجة إلى ذلك، ومن ذلك خروج بنتى الشيخ الكبير لسقى الغنم ومساعدة موسى لهما فى مدين. وكأنه راعه أن يرى نساء وسط الرجال ينتظرن سقى أغنامهن، فإن الأصل أن يكون ذلك العمل من اختصاص الرجال، ولكنهما قالا له: ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فكأنهما تقولان: الضرورة هى التى أخرجتنا، لأن أبانا كبير السن لا يستطيع أن يباشر رعى الغنم الذى هو مورد رزقنا، ومع ذلك فنحن نلتزم الأدب، ولا نزاحم الرجال، بل ننتظر حتى يخلو الجو ولا يمسنا سوء، ولعلمهما أن خروجهما لضرورة، وتمنيهما أن يهيىء الله لهما من يكفيهما هذا العمل، بادرت إحداهما بعرض فكرة على أبيها، هى أن يستأجر موسى ليكفى الأسرة هذا العمل، وعنده المؤهلات التى ترغب فى استئجاره ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وحتى يكون هذا الشيخ الكبير آمنًا على بناته من هذا الأجير، أو آمنًا عليه منهن، أراد أن يجعله عضوًا فى الأسرة ليحقق غرضين، أولهما ضمان إخلاصه فى عمله، وثانيهما رفع الحرج فى مخالطته للأسرة. فيسهل عليه عمله ويكون الأمن والغيرة على الأسرة كلها.

وجاء الإسلام وأقر هذا الحق للمرأة ما دامت عندها الضرورة قائمة أو الحاجة ملحة، لأنه حق طبيعى مكفول، وإذا كان النبى ﷺ قد أذن لنسائه أن يخرجن لقضاء حوائجهن كما رواه البخارى ومسلم، وقد تقدم فى بيان الأسباب المباشرة لتشريع الحجاب، فإن الحوائج أعم من أن تكون إزالة ضرورة، وإذا كان الخروج قاصرًا عليها، فإن غيرها من الحوائج يقاس عليها بجامع الاحتياج.

وكما سيأتى فى جواز خروجها لمباشرة عمل مندوب، فإن خروجها للواجب يكون أولى. والمرأة فى تاريخ الإسلام كانت تخرج لمباشرة الأعمال التى تلزم لها ولأسرتها، مع الحفاظ على الآداب التى أوصى بها الدين، وإن كان تطور الزمن قد أثر على ذلك. ومن ثم جاء الاعتراض على خروجها.

ومن حكايات الأدب العربى ما ذكره المقريزى فى خططه « ج٤ ص١٦٤ » عن واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى، أنه كان يكثر من الجلوس بسوق الغزل، ليعرف النساء المتعففات، فيصرف إليهن الصدقة. فقيل له « الغزال » من أجل ذلك. ولد واصل سنة ٩٠هـ وتوفى ١٣١هـ.

وكذلك من الواجب الذى تخرج له المرأة تلقى العلم الذى يعرفها واجبها نحو ربها ونحو أسرتها ومجتمعها الإسلامى، وذلك إذا لم تستطع أن تحصل هذا العلم وهى فى بيتها على يد زوج أو ولى أمر، إما بنفسه، وإما باحضار من يقوم بذلك. ومعلوم أن طلب العلم فريضة لكى يصحح الإنسان عقيدته ويعرف واجبه.

وكان النساء فى أيام النبى ﷺ يخرجن لسؤاله عما يهمهن من أمور الدين والحياة. وقد خرجت نساء كثيرات من بيوتهن لسؤال النبى ﷺ منهن فاطمة بنت أبى حبيش، وأم حبيبة بنت جحش، وغيرهما « مسلم ج٤ ص١٦ ». كما ذهبت إليه وافدة النساء أسماء بنت يزيد بن السكن فى حديثها المشهور، وبلغ من حرصهن على تلقى العلم أن طلبن منه أن يخصص لهن يومًا لا يشاركهن فيه الرجال، ليكون المجال فسيحًا أمامهن فى سؤاله عن الدقائق التى يستحيا أن تذكر أمام الرجال.

عن أبى سعيد الخدرى أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت له: ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. فخصص لهن يومًا يعلمهن فيه. رواه البخارى ومسلم وكن يسألن عن الدقائق.

جاءته أم سليم تقول: إن الله لا يستحيى من الحق، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت؟ قال: « نعم إذا رأت الماء[1] » رواه مسلم « ج٣ ص٢٢٣ ». ولما قالت لها عائشة: فضحت النساء، تربت يمينك!! قال لها النبى ﷺ: « بل أنت

---

(١) وجوب الغسل عند الجماع مع اشتراط نزول الماء أى المنى منسوخ بحديث « إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل ».

تربت يمينك » . وفى ذلك تشجيع على السؤال وعدم الحياء منه . وروى أبو بكر ابن أبى شيبة سؤال امرأة اسمها « بسرة » عن الاحتلام وقول عائشة لها : فضحت النساء، وقول النبى لعائشة « دعيها تسأل عما بدا لها، ترب جبينك، أو تربت يمينك » « المطالب العالية ج١ ص٥٧ » .

والسيدة عائشة رضى الله عنها بعد أن عرفت موقف الإسلام من تلقى المرأة للعلم وسؤالها عن دقائقه، مدحت النساء لحرصهن على ذلك دون حياء يمنعهن من المعرفة . روى البخارى « ج١ ص٤٤ » وروى مسلم « ج٤ ص١٦ » عن عائشة أن أسماء سألت النبى ﷺ عن غسل المحيض، فقال « تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها[١]، فتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكًا شديدًا حتى تبلغ شئون رأسها[٢]، ثم تصب عليها الماء . ثم تأخذ فرصة[٣] ممسكة، فتطهر بها . فقالت أسماء : وكيف تطهر بها؟ فقال « سبحان الله، تطهرين بها » فقالت عائشة : كأنها تخفى ذلك : تتبعين بها أثر الدم . وسألته عن غسل الجنابة، فقال : « تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها، ثم تفيض عليها الماء » فقالت عائشة : نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين .

يعرف من هذه النصوص حاجة المرأة إلى العلم الذى تصحح به فكرها وتعرف به واجبها على الوجه المقبول، ولهذا نهى الإسلام الأزواج أن يمنعوا زوجاتهم من الذهاب إلى المسجد إذا استأذنهم فى ذلك، فإن التفقه فى الدين لا يجوز أن يحال بين المرأة وبينه . يقول النبى ﷺ «إذا استأذنكم نساؤكم إلى المساجد فأذنوا لهن» رواه مسلم عن ابن عمر « ج٤ ص١٦١ » بل كان الأذن لهن بالليل أيضًا، ففى رواية لمسلم أيضًا : « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » .

---

(١) السدر نبات يقوم مقام الصابون .
(٢) أى أصول الشعر .
(٣) قطعة من قماش أو قطن .

وما كان ذهابهن إلى المسجد لمجرد الصلاة، فإن صلاتهن فى بيوتهن أفضل كما مر، بل كان للتفقه فى الدين وسماع الوحى وتعلم إتقان العبادة عمليًا بصلاتهن خلف النبى ﷺ كما سيجيء بعد.

وقد أمرهن النبى ﷺ بالخروج إلى مصلى العيد، لتكثير سواد المسلمين الذى يشعر بالعزة الدينية يغيظ الله بها الكفار، ولزيادة البهجة والسرور الذى هو طابع يوم العيد. وقد استحث النبى ﷺ النفوس فى هذا اليوم على التبرع من أجل الفقراء، وكان الرجل والمرأة فى هذا الخير سواء.

عن حفصة بنت سيرين الأنصارية قالت: كنا نمنع عواتقنا[1] أن يخرجن فى العيد، فقدمت امرأة فنزلت قصر بنى خلف، فحدثت عن أختها — وكان زوج أختها غزا مع النبى ﷺ اثنتى عشرة غزوة، وكانت أختى معه فى ست — قالت: كنا نداوى الكلمى، ونقوم على المرضى، فسألت أختى النبى ﷺ: أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها جلباب ألا تخرج؟ قال: «لتلْبِسها صاحبتها من جلبابها، ولتشهد الخير ودعوة المسلمين» فلما قدمت أم عطية الأنصارية[2] سألتها: أسمعت النبى ﷺ؟ قالت: بأبى نعم، وكانت لا تذكره إلا قالت: بأبى، سمعته يقول: «تخرج العواتق وذوات الخدور والحيض، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين، ويعتزل الحيَّض المصلى»[3] رواه البخارى فى كتاب الحيض «ج٢ ص٢٧، ١٩٦» وأخرجه مسلم فى العيدين «ج٦» حيث جاء فيه: أن النبى ﷺ

---

(١) العواتق جمع عاتق، وفى تفسيرها آراء، فقيل: هى البكر التى لم تبن عن أهلها، وقيل: هى التى بين التى أدركت وبين التى عنست. وقيل: من أدركت وبلغت، فخدرت فى بيت أهلها ولم تتزوج «لسان العرب». وذوات الخدور أى المصونات فى البيوت أو البالغات اللاتى لا ينبغى رؤيتهن إلا فى الخدور أى الستر.

(٢) أم عطية اسمها نسيبة بنت كعب، ويقال: بنت الحارث — كما ذكره السيوطى فى «إسعاف المتبطأ برجال الموطأ» — ونسيبة «بضم النون». أما نسيبة (بفتح النون) فهى أم عمارة التى دافعت عن الرسول ﷺ فى أحد. «الزرقانى على المواهب ج٢ ص٤١».

(٣) سيأتى فى آخر هذا الفصل حكم دخول الحائض للمسجد، وحكم قراءتها القرآن ومس المصحف وحمله.

حين خطب يوم الفطر بعد الصلاة رأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن، ووعظهن، وحثهن على الصدقة. فتصدقن، كما رواه مسلم عن ابن عباس، وجاء فى رواية عن جابر بن عبد الله أنه أمرهن بالصدقة. لأن أكثرهن حطب جهنم. ولما سألته إحداهن عن سبب ذلك قال: «لأنكن تكثرن الشَّكاة، وتكفرن العشير». وقيل لعطاء الذى روى عن جابر: أحقًا على الإمام الآن أن يأتى النساء حين يفرغ فيذكرهن؟ قال: اى لعمرى، إن ذلك لحق عليهم، ومالهم لا يفعلون ذلك؟

هذا، وقد قال الفقهاء: يجب على الزوج أن يعلم زوجته القدر الضرورى الذى تصحح به عبادتها، وتؤدى به واجبها المنوط بها، وذلك إما بنفسه هو أو بمن يستعين به على ذلك، يحضره لها فى بيتها، فإن لم يفعل أو لم يستطع كان للمرأة أن تخرج لطلب العلم الواجب. ولا يجوز أن يمنعها من ذلك، أما خروجها لتعلم ما زاد على القدر الواجب فلا يجوز إلا بإذنه، وله أن يمنعها منه. يقول الإمام الغزالى: فإن كان الرجل قائمًا بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل، ولكنه ناب عنها فى السؤال، فأخبرها بجواب المفتى فليس لها الخروج. فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك، ويعصى الرجل بمنعها. ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر، ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه «الإحياء ج٢ ص٤٤».

وإذا أمكن أن تتعلم المرأة على يد امرأة أو قريب لها كان أولى من الرجل الأجنبى. على أنه لا بد لجواز خروجها لطلب العلم من مراعاة جميع الشروط الموضوعة لذلك، وستأتى فى الفصل التالى، ومن أهمها ستر العورة والحشمة الكاملة.

ومن هذا يعلم أن بعض الأزياء الحديثة المفروضة على البنات البالغات فى المدارس، وما تلبسه طالبات الجامعات مما يبين عن المحاسن، ويغرى بالفتنة، وما يخشى من زحمة المواصلات والاختلاط المحرم، والعلاقات غير الشريفة مع الزملاء – كل ذلك يخول لولى الأمر أن يمنع زوجته أو ابنته من الخروج للتعلم.

على أنه إذا لم يستطع أن يلزمها الزى الشرعى، وهو ميسر لاحرج منه ولا تعنت، وتحتم تعلمها للقدر الواجب ، وذلك فى المراحل الأولى للتعليم، كان للعقل أن يوازن بين الضررين، فيرتكب أخفهما، جريًا على قاعدة الضرورات تبيح المحظورات. وإن كنت آمل ألا يصل التمسك بالزى الكاشف إلى حد الوقوع فى ارتكاب الحرج، وأن يراعى الحفاظ على الشرف والآداب والتقاليد. فذلك غاية ما يرجى من التعليم المثمر المفيد، وعلى كل حال فإن الأوامر الرسمية التى تصدر بخصوص الزى تتغير من عصر إلى عصر، ومن رئيس إلى رئيس. ومن قانون إلى قانون.

نبذة تاريخية عن تعليم المرأة:

لقد كانت المرأة بعد عصر النبى ﷺ تتلقى العلم فى بيتها على يد أبيها أو زوجها أو أحد محارمها، أو من يحضر إليها فى بيتها، كما علم عيسى بن مسكين «توفى ٢٧٥هـ» بنتيه وبنات أخيه وحفيداته. وكما علم أسد بن الفرات «توفى ٢١٣هـ» بنته أسماء. وكما علم سحنون «توفى ٢٤٠هـ» بنته خديجة.

وكان إحضار معلم للنساء فى البيت لا يستطيعه إلا الموسرون، مع قلة الاهتمام به، فإن تعليم الذكور كان هو الأهم. كما كان هناك تعليم فى الكتاتيب التى لم يغشها إلا القليلات فى القرن الثانى الهجرى، وكن من الجوارى لرفع قيمتهن المادية بالتعليم.

والأزهر الذى تزعم التعليم الدينى والحفاظ على آدابه، منذ إنشائه فى القرن الرابع الهجرى[1]، لم يهتم التاريخ بذكر من تردد من النساء عليه لطلب العلم، وقد عرف حديثًا أن بعض النساء تلقت فيه علوم الدين.

منهن: فاطمة الخلفاوية، وهى من بلدة الكمايشة مركز تلا منوفية، انتسبت مع أخيها الشيخ محمد الخلفاوى إلى معهد طنطا سنة ١٣٠٢هـ

---

(١) افتتح الأزهر سنة ٣٦١هـ (يونية ٧٩٢م).

(حوالى ١٨٨٢م) وقطعت جميع مراحل التعليم، لكنها أخفقت فى امتحان العالمية أمام لجنة فيها الشيخ دسوقي العربى، وفى سنة ١٣٠٤هـ (حوالى ١٨٨٤م) انتسبت إلى معهد طنطا أيضًا فاطمة الغنامية ، من مدينة طنطا، وفاطمة العوضية، من طمبول الكبرى دقهلية (من مجلة كلية اللغة العربية فى أبريل ١٩٥٦ بقلم الشيخ كامل حسن. ومن مجلة الشبان المسلمين فى نوفمبر ١٩٥٧).

ولم تأخذ المرأة حقها فى التعليم الدينى تحت إشراف الأزهر بشكل واسع إلا فى عام ١٩٦١م، بعد قانون تطوير الأزهر رقم ١٠٣، حيث افتتحت معاهد للفتيات وكلية جامعية للبنات، وإن كان وعاظ الأزهر وأئمة المساجد يقومون بتثقيف المرأة فى المساجد والجمعيات والمؤسسات الأخرى، منذ أنشئ للوعظ جهاز خاص سنة ١٩٢٨م. على أن بعض وعاظ الأزهر أنشئوا بجهودهم الخاصة ومعونة ذوى الغيرة الدينية معهدًا لتخريج المرشدات تحت إشرافهم فى « دار التقوى » بحى العباسية.

فكر فيه المرحوم الشيخ محمد أبو المكارم عيسى، والشيخ زكى رضوان من وعاظ الأزهر، مع الأستاذ عبد الله السيد أبو سقاية مأذون الشرع فى العباسية.

أما تلقى المرأة للعلم فى المدارس فكان موجودًا فى بعض نواحى العالم الإسلامى كالهند مثلاً، حيث كانت فيها مدارس خاصة بهن فى القرن الثامن الهجرى، تحدث عنها ابن بطوطة (ولد فى طنجة بالمغرب سنة ٧٠٣هـ ١٣٠٤م) وتوفى ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) وترك طنجة سنة ٧٢٥هـ وغاب عنها (٢٨ سنة) فيقول : فى « هينور » على ساحل الملابار بالهند، وهم شافعية، كل نسائها يحفظن القرآن، ورأى بنفسه فى المدينة ثلاثة عشر مكتبًا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين مكتبًا لتعليم الأولاد. « مهذب رحلة ابن بطوطة جـ٢ ص١٧٧ ». وكان ذلك فى القرن الثامن الهجرى، وحوالى القرن الرابع عشر الميلادى.

أما التعليم العام للبنات فى مصر، كنموذج للبلاد الإسلامية، فقد تحدث عنه أمين سامى باشا فى كتابه «التعليم فى مصر» المطبوع سنة ١٩١٧م، ومما جاء فيه وفى غيره من المصادر[١] نعلم: أن أول مدرسة لتعليم البنات خاصة كانت للولادة وافتتحت سنة ١٨٣٠م أو ١٨٣٢م. وسبب إنشائها صعوبة كشف الأطباء على النساء، ألحق بها «كلوت بك» المسئول عن التعليم ١٢ جارية من الحبشيات كأول دفعة، وكانت الدفعة الثانية ٦ يتيمات، أخذن من الملاجئ، حيث لا يوجد لهن والد ولا والدة ينتظر منهم رفض تعليمهن، ولتشجيع التعليم فيها كانت التلميذة تعطى رتبة «ضابط أفندى» بجانب لقب «مولدة». وكان يعين لكل موظفة من المولدات ساع، ويخصص لها حمار تركبه، يخصم ثمنه على أقساط من مرتبها الذى كان يبلغ فى عهد الخديوى إسماعيل مائة قرش شهريًا. عدا بدل التعيين والكسوة وغذاء الدابة. وكانت الحكومة تتولى تزويج الخريجات من زملائهن الأطباء للتعاون على العمل.

أما بقية بنات الشعب فلم يكن لهن حظ كبير فى التعليم، فكانت «الشيخة» تعلم بنات العائلات القرآن، وكانت الحمامات الشعبية وسيلة لتعليم البنت بين أهلها. ففى الحمامات كان الهدف من التعليم أن تخرج الفتاة وقد عرفت كيف تكون أنثى، إذ تتلقى من عماتها وخالاتها و«البلانة» كل فنون الجمال.

ولكن فى أيام إسماعيل باشا تطورت النظرة إلى تعليم البنات، فأنشئت أول مدرسة ابتدائية للبنات وهى «المدرسة السنية» فى السيوفية فى يناير ١٨٧٣م، وكانت تابعة لدائرة ثالثة حرم إسماعيل باشا[٢] — واسمها جشم آفت

---

(١) مثل: بحث للدكتورة زينب فريد المدرسة بكلية بنات عين شمس المنشور بأهرام ١٨/٩/١٩٦٦م، ومذكرات فتحى رضوان المنشورة بالأهرام ٢٣/٦/١٩٧٢م. مع اختلاف فى تعيين بعض التواريخ. وكذلك كتاب أحمد خاكى عن المرأة فى مختلف العصور.

(٢) كان للخديوى إسماعيل أربع زوجات، الأولى شهرت هانم ولم تنجب، والثانية جنانير هانم ولم تنجب، والثالثة جشم أفت هانم ولم تنجب، وتبنت بنتًا اسمها «فائقة» علمتها الأدب والموسيقى، والرابعة هى والدة الخديوى توفيق، وتزوجها بأمر السلطان «الأهرام ١٧/٨/١٩٧٨».

هانم أفندى[1] – ثم تبعت الأوقاف سنة ١٨٧٩م . وكان عدد طالباتها عند افتتاحها ٢٠٠ طالبة[2]. وكانت الجوارى تتعلم فيها الطهى وأعمال المنزل[3] ونقلت المدرسة من السيوفية إلى منزل حافظ رمضان بشارع المبتديان، وسميت باسم المدرسة السنية. وكانت تسمى مدرسة بنات الأشراف. ثم نقلت إلى محلها الجديد سنة ١٩٠٣م.

وبعد ستة أشهر أنشئت مدرسة ابتدائية للبنات فى « القربية » بجهود على مبارك ناظر المعارف، افتتحت سنة ١٨٧٤م، ثم ألغيت سنة ١٨٧٨م وضمت إلى السنية. ويقال إنها بعد خلع الخديوى إسماعيل تحولت المدرسة سنة ١٨٨٠م إلى ملجأ أيتام، ثم أشرفت عليها نظارة المعارف سنة ١٨٩٠[4] أو ١٨٨٩ (أهرام ٢٣ / ٦ / ١٩٧٢) وسمتها المدرسة السنية. وكانت كل طالبة تقبض إذ ذاك مائتى قرش شهريًا للتشجيع حتى تتخرج بعد أربع سنوات مدرسة. وفى سنة ١٩٠٠ أنشئت مدرسة « معلمات السنية » وكانت ناظرتها هى ناظرة القسم الابتدائى من المدرسة نفسها، وفى سنة ١٨٩٥م أنشئت مدرسة أولية للبنات فى « عباس ».

ورأت البلاد أنها فى حاجة إلى مدرسات فى هذه المدارس فأنشأت قسمًا ملحقًا بالسنية لتخريج المعلمات، كما ذكر[5] ثم أنشئت مدرسة معلمات الكتاتيب فى بولاق فى سبتمبر ١٩٠٣، ومدرسة التدبير المنزلى سنة ١٩١٠م ومدرسة المعلمات الأولية بالاسكندرية فى فبراير ١٩١٦م.

وتقول الدكتورة زينب فريد فى تقريرها : لما جاء الاحتلال الانجليزى لمصر أنشأ مدارس ابتدائية لأولاد القادرين، ومدارس أولية لأولاد الفقراء، وفى فترة

---

(١) وأسندت رياسة المدرسة إلى السيدة روزة المربية المعروفة فى ذلك الوقت، وكان يتعلم فيها القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والأشغال اليدوية والتدبير المنزلى.

(٢) أهرام ٣ / ٥ / ١٩٦٥.

(٣) ملحق أهرام ١٣ / ٢ / ١٩٦٦.

(٤) أهرام ٣ / ٥ / ١٩٦٥.

(٥) التحق به ٤ طالبات.

الاحتلال دخلت البنت الكتاب مع الأولاد لتتعلم القرآن، ثم قامت الحكومة مع الأهالى بإنشاء كتاتيب خاصة للبنات.

ففى سنة ١٩٠١م أنشىء أول كتاب لهن فى دمياط (١٤٠ بنتًا) والثانى فى الفيوم سنة ١٩٠٧م (١٠٠ بنت). أما التعليم الابتدائى للبنات فقاومه الاحتلال، ولكن فى سنة ١٨٨٩م تحولت المدرسة التى بالسيوفية إلى «المدرسة السنية»، وفتحت فى سنة ١٨٩٥ مدرسة أخرى ابتدائية، كما كان هناك فى سنة ١٨٩٥ مدرسة للممرضات لم يزد عدد تلميذاتها على ٩، أما التعليم الثانوى للبنات فكانت أول مدرسة هى التى بالحلمية سنة ١٩٢٠ حيث درس البنات فيها الموسيقى والفنون أكثر من العلوم الحديثة، ثم أنشئت مدرسة شبرا الثانوية للبنات سنة ٢٤أو١٩٢٥م[١] وعدلت مناهجها لتطابق منهج المدرسة السنية[٢].

وتقول الدكتورة زينب فريد أيضًا: بدأت أول بعثة لتربية الأطفال سنة ١٩٠١م وكانت مكونة من تلميذة واحدة.

وبعد دستور ١٩٢٣م الذى نص على أن التعليم الأولى إلزامى ومجانى فى الكتاتيب زاد عدد البنات فى المدارس الابتدائية، وسمح للبنت بالتقدم للشهادة الابتدائية سنة ١٩٢٨م، وكانت قد ألغيت سنة ١٩١٤م.

هذا هو تعليم البنت على المستوى الحكومى، أما على المستوى الأهلى فقد أنشأت «نبوية موسى»[٣] مدارس بنات الأشراف فى الاسكندرية ثم فى القاهرة،

---

(١) تاريخ إنشائها ١٩٢٤ كما تقول سيزا نبراوى «مجلة صباح الخير ٦/٢/١٩٧٥».

(٢) أول مصرية تعين ناظرة للمدرسة هى أنصاف سرى، التى عندما تزوجت منصور فهمى باشا ظلت فى وظيفتها مستثناة من عدم الجمع بين الزواج والوظيفة، وذلك لجدارتها.

وكانت أول ناظرة لمدرسة السنية من المصريات هى «عايدة وفائى سنة ١٩٣٨م» (سنها الآن فى يناير ١٩٧٣ يبلغ ٨٥ سنة «أهرام ٢/١/١٩٧٣») وكريمة السعيد ثالث ناظر مصرية، وزينب فهمى الناظر فى سنة ١٩٦٥ هى الثامنة بين الناظرات المصريات (أهرام ٣/٥/١٩٦٥).

(٣) رائدة من رائدات التعليم النسوى فى مصر، ولدت سنة ١٣٠٧هـ ونشأت فى قرية من قرى القليوبية، حصلت على دبلوم المدرسة السنية ١٩٠٦ وعلى البكالوريا سنة ١٩٠٧ وكانت=

وذلك عقب فصلها من وزارة المعارف بسبب نشاطها السياسى ونقدها لنظم التعليم، ثم انتشر تعليم البنت انتشاراً كبيراً فى الوقت الحاضر.

أما تعليم البنت فى بقية البلاد الإسلامية فسيأتى طرف منه فى الباب الخاص بالنشاط النسوى[1] وكان زى البنات فى المدارس المذكورة أقرب إلى الحشمة، جرياً على المألوف إذ ذاك، حتى كانت دعوة قاسم أمين. ففتح باب تعليم البنات على مصراعيه وتطورت المناهج وتطور الزى إلى الوضع الذى عليه الآن.

كان التعليم فى مصر إلى عهد قريب يفصل بين الجنسين. ثم اختلط فى الجامعات والمدارس فى بعض مراحله. ويوشك أن يعم جميعها مع عدم الحاجة إليه.

على أن هذا الاختلاط إذا كان مع الحشمة والعفة وحسن النية واستقامة السلوك وعدم الخلوة المحرمة وشدة الرقابة على الآداب. فإن الخطر منه قليل، وإلا كان خطراً كبيراً يجب التنبه إليه. وقد جاء فى أهرام ٢٥ / ١٠ / ١٩٦٩ : سيلغى نظام التعليم المشترك من سيلان فى خلال السنوات الثلاث القادمة، ستخصص

= أول فتاة تحصل عليها، ثم دخلت مدرسة الحقوق ومنعت من دخول امتحان «الليسانس» بسبب رفض سلطات الاحتلال (مجلة حواء ٢٦ / ١٢ / ١٩٧٠ بقلم صالح جودت).

كان أول عملها مدرسة بالمدارس الابتدائية، ثم ناظرة ثم مفتشة بالوزارة ثم كبيرة المفتشات وكانت أول من رقى من المصريات لهذا المنصب فى الوزارة، ودعيت لإلقاء المحاضرات فى الجامعة، وفى سنة ١٩١٩ نقلها الإنجليز فى قطار حربى من الاسكندرية إلى القاهرة، وفصلت من الوزارة فصلاً تعسفياً، توفيت سنة ١٣٧٠هـ (٣٠ / ٤ / ١٩٥١م). وكانت مع هدى شعراوى وسيزا نبراوى فى مؤتمر الاتحاد النسائى الدولى.

(١) ويلاحظ أنه بشكل عام لم يعط تعليم البنت العناية الكافية، بل التعليم كله أهمل أخيرا، فمثلا كانت نسبة الأمية بين النساء فى سوريا سنة ١٩٧٠ هى ٧١٪، وفى السعودية سنة ١٩٦٢ هى ١٠٠٪، وفى قطر سنة ١٩٦٠ هى ٨٤٪، وفى اليمن سنة ١٩٦٢ هى ٩٩٪، وفى اليمن الجنوبى سنة ١٩٦٠ هى ٩٥٪، وفى العراق سنة ١٩٦٥ هى ٩٣٪، وفى الأردن سنة ١٩٦١ هى ٨٥٪ وفى الكويت سنة ١٩٧٠ هى ٥٠٪ (من تقرير منظمة غرب أسيا التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع لهيئة الأمم) الصادر فى ١٩٧٤م.

للبنات مدارس مستقلة عن البنين ، بعد أن أوضحت التقارير أن التعليم المشترك أفسد الشباب السيلانى، وقال وزير التعليم : إنه من الغباء إطلاق الحرية لشباب لا يستطيع تقدير قيمتها . ومن الطبيعى أن تشغل التلميذات الجميلات زملاءهن عن العلم والدراسة .

لقد كان التعليم فى زمن الرسول ﷺ ، وفى بدء تكوين المجتمع الإسلامى، وقبل تمام الاجراءات الخاصة بالحجاب، كان مختلطًا فى تعليم العلوم العامة الأساسية التى لا تختص بجنس، ومن صوره حضور النساء فى المساجد مع الرجال، مع مراعاة الآداب، أما فى الأمور الخاصة بهن فكانت المرأة تسأل الرسول فى حدود معينة، فى حضرة الرجال، وإن كن طلبن أن يخصص لهن يوم من أجل هذه المسائل بعيداً عن الرجال . تقول أسماء بنت يزيد بن السكن : إنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال « لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها، فأرمَّ القوم، أى سكنوا فى خوف، فقلت : إى والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون، وإنهن ليفعلن. فقال « فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب « الترغيب ج٣ ص٢٨ » .

وبعد عصر الرسول ﷺ وصحابته والتابعين كانت هناك حالات فردية لحضور بعض النساء مجالس العلم مع الرجال، فكان يحضر مجلس الشافعى بجامع عمرو بن العاص فى مصر، الرجال والنساء مع التستر والحشمة، وممن نبغ من تلميذاته أخت المزنى، التى أخذ عنها العلماء، وأدرج اسمها فى جدول كبار فقهاء الشافعية[١] .

ومع انتشار التعليم المختلط حديثًا نجد كثيراً من رجال التربية لا يحبذونه من الوجهة الخلقية والاجتماعية .

أما من الوجهة التعليمية فإن توحيد المناهج للجنسين، وتوحيد طرق

---

(١) من مقال عبد الوهاب حمودة عن المساجد فى كتاب « دعوة التقريب » ص٤٢٠ .

تلقينهم للدروس لا يستقيم مع اختلاف حاجة كل جنس إلى ما يناسبه، ولا إلى قدرته الذهنية، يقول « جرنفيل ستانلى هول » الأمريكى : إن اتحاد طرق التلقين لا يستقيم مع اختلاف القدرة على تحمل العناء الذهنى، وتوحيد المواد لا يتفق مع تباين درجات قابلية الجنس لشتى الفنون .

جاء فى أهرام ٢٩ / ١٠ / ١٩٥٩ : قامت حملة كبيرة ضد الطالبات فى جامعات لندن واكسفورد وكمبردج لمقاومة أى رغبة تبديها الطالبات لنيل درجة علمية، وبرر مدير جامعة لندن ذلك بأنه لاحظ أن الطالبات يحضرن بأجسادهن لا بعقولهن، فالواجب فسح المجال للعقول التى تريد العلم، وقال مدير جامعة أكسفورد : إن نسبة التحاقهن يجب ألا تزيد على ٢٪ . وقال مدير كمبردج : إن من الخسارة إنفاق الجامعة على الطالبات، فهن يعتبرن العلم وسيلة للزواج .

وجاء فى أهرام ٢٦ / ٧ / ١٩٧٣ (مع المرأة) : يدرس برلمان ألمانيا الغربية إقامة فصول مسائية لتعليم ربات البيوت . وتقول « د . هيلد جارد » التى أثارت هذا الموضوع، وهى نائبة وزير التعليم سابقًا ونائبة رئيس الحزب الديمقراطى الحر : إن الاهتمام بالتعليم ليس قويًا عند المرأة الألمانية، ولا توجد حركة تحررية نسائية فى ألمانيا، فما زالت المرأة هناك متحفظة ولا تميل إلى السياسة .

ثانيًا : ومن المندوب الذى تخرج له المرأة طلب العلم الزائد على القدر الضرورى، على ما سبق بيانه، وكذلك تخرج لمساعدة زوجها فى تحصيل عيشه، فقد روى البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير وماله فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شىء غير فرسه وناضحه - بعيره - فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدق النوى لناضحه، وأعلفه، واستقى الماء، وأخرز غربه - أخيط دلوه - وأعجن . وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلث فرسخ، حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتنى سياسة الفرس . فكأنما أعتقتنى . ولقيت رسول الله ﷺ يومًا، ومعه أصحابه، والنوى على رأسى، فقال ﷺ « أخ أخ » لينيخ ناقته، ويحملنى خلفه،

فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أنى قد استحييت. فجئت الزبير، فحكيت له ما جرى، فقال: والله لحملك النوى على رأسك أشد من ركوبك معه، رواه مسلم ج١٤ ص١٦٤.

ويلاحظ فى هذا الحديث أن عمل المرأة خارج بيتها لهذا الغرض مؤقت بقدر الحاجة، فإن أسماء كانت تقوم بذلك متعبة، حتى جاءتها الجارية فكفتها بعض ما كانت تعانى منه[١]، كما أن الصحابة كانوا يأنفون أن تزاول المرأة عملاً خارجيًا، لأنه إمارة عجز الرجل وشدة حاجته إلى من يساعده. ولذلك كان حمل النوى على رأس أسماء أشد على نفس الزبير من ركوبها خلف النبى ﷺ.

والدليل على مشروعية عملها لحاجة أن النبى ﷺ أقر أسماء على عملها ولم ينكره. ومن المندوب الذى تخرج له المرأة عمل البر كعيادة مريض أو زيارة أقاربها صلة للرحم، فقد أذن النبى ﷺ لعائشة أن تزور بيت أبيها فى حادثة الإفك، وزيارتها، وإن لم تكن من باب صلة الرحم أصلاً، للظروف التى أحاطت بها، بل كانت للاستجمام أو الانتظار هناك حتى يقضى الله فى أمرها — فإن الزيارة المجردة عن أى شىء للوالدين هى نفسها صلة رحم.

وقد خرجت السيدة صفية لزيارة النبى ﷺ فى معتكفه، ووقف معها، وهو يودعها عند عودتها، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد، وسيأتى نص الحديث فى الفصل التالى. كما تقدم زيارة السيدة عائشة للمرضى «ص١٦٦» وإن كانت قبل مشروعية الحجاب.

وورد عن جابر رضى الله عنه أنه قال: طلقت خالتى، فأرادت أن تَجُدَّ نخلها، أى تقطع ثمره، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبى ﷺ، فقال «بلى، فجدى نخلك، فإنك عسى أن تصدقى أو تفعلى معروفًا» رواه مسلم. لكن قد

---

(١) وبنتا شعيب فى سقيهما الغنم كانتا مضطرتين، فلما قيض الله لهما موسى وعرفا صلاحيته للعمل لقوته وأمانته اقترحتا على أبيهما أن يستأجره ليكفيهما هذا العمل الذى اضطرا لمباشرته، فكان ذلك، وهو دليل على أن الضرورة تقدر بقدرها.

يقال : إن استنكار الرجل لخروجها كان لأنها ما زالت فى عدة طلاق، فجوز لها الرسول ﷺ أن تخرج لمباشرة عمل يرجى منه خير. وإذا كان خروج المعتدة لمثل هذا العمل جائزًا، فإن خروجها وهى غير معتدة أولى بالجواز.

ثالثًا : ومن المباح الذى تخرج له عمل فى مصنع أو متجر أو أية مؤسسة، وهى غير محتاجة إلى هذا العمل وليس هو محتاجًا إليها أو متوقفًا عليها، وفى مثل هذه الحالة يكون استقرارها فى بيتها أفضل، صيانة لها عن المكروه، وبخاصة إذا فسد الزمان، على أن إتقانها لواجبها فى البيت فيه خير كثير يرفع من مستوى المعيشة لها وللأسرة التى معها. بل وللوطن كله، فإن رعايتها لأولادها ثقافيًا وصحيًا وخلقيًا، وإعداد الملابس لهم خياطة وتنظيفًا، والصناعة المنزلية للعطور أو الصابون أو المربيات مثلاً، كل ذلك جهود طيبة لا تقل أثرًا عن جهودها خارج المنزل.

وقد بين النبى ﷺ لوافدة النساء «أسماء بنت يزيد بن السكن» عندما سألته عن عمل المرأة فى البيت وقيمته، ولماذا تحرم من أعمال يقوم بها الرجل كالجهاد والجمعة.. فقال لها «أعلمى من خلفك من النساء أن حُسْن تبعُّل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته تعدل ذلك» ذكره الحافظ ابن عبد البر فى «الاستيعاب». وقريب منه فى الترغيب والترهيب ج٣ ص٩. والحديث طويل مذكور فى الجزء الثالث عن حقوق الزوجين.

ومن هنا يمكن أن نفهم قول عائشة : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله.

وقول شاعر النيل حافظ إبراهيم :

فى بيتهن شئونهن كثيرة كشئون رب السيف والمزراق

وسيأتى فى الباب الخامس توضيح لهذه النقطة، وشهادات من الخبراء عن عمل المرأة خارج البيت، كما سيأتى بيان تفصيلى عن أنشطة معينة يسأل عنها كثيرًا، كخروج المرأة للجهاد، وزيارتها للقبور.

ومن المباح الذى تخرج له المرأة التنزه والترويح عن النفس بما أباحه الله من طيبات الحياة. قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقال : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وانطلاقًا من هاتين الآيتين وغيرهما من النصوص الدينية ليس هناك ما يمنع المرأة من استنشاق الهواء الطلق فى المتنزهات والخلوات، ومن الاستمتاع بشواطئ البحار ومناظر الطبيعة الساحرة، ومن الاستحمام فى المياه فى الأحواض المخصصة لذلك. فإن هذه الأمور لها تأثيرها على النفس، حيث تتخلص من الهموم، وتتهيأ لمواجهة الأعباء فى نشاط وثقة وأمل، إلى جانب ما قد يكون فيها من نظرة مفكرة لإبداع صنع الله، ومعرفة بكثير من نواحى الحياة. وقد تتحتم هذه الأمور إذا كانت علاجًا لمرض جسمى أو نفسى.

غير أن شرط ذلك كله أن يكون فى نطاق الاعتدال الذى أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا** ﴾ ويساعد على عدم الاعتداء مراعاة الشروط التى وضعها العلماء لجواز خروج المرأة من بيتها، وستأتى فى الفصل الثانى.

فالإسلام مع سماحته ويسره، ومع تقديسه للحرية ومقتضيات الطبيعة، يأخذ فى الاعتبار عند التشريع ما يحافظ على المقدسات التى هى ركائز الحياة الكريمة، وما يرعى حقوق الآخرين، فلا ضرر ولا ضرار.

وأكثر ما يكون تعدى المرأة لحدود الله فى الاصطياف الجماعى فى هذه الأيام على الشواطئ المهيأة له، حيث يكون التبرج الممقوت والاختلاط الفاضح، وهى مظاهر تعد من مستلزمات الاصطياف، الذى يستبيح به عرف الناس التمتع بأكبر قسط من الحرية والانطلاق الواسع، دون اهتمام بالآداب المرعية، والتقاليد الموروثة، فإنهم يعتبرونها قيمًا نسبية يمكن أن تتغير تبعًا لتغير مفاهيم الناس للحياة.

والاصطياف فى عرفهم لا يعد اصطيافًا بدون هذا التحرر، ولهذا تحشد فى المصايف كل ألوان الترفيه والإغراء ليحس المصطاف بمتعته الكاملة.

ومن أقبح ما يدل على انطلاق المرأة واستهانتها بالأخلاق، وبالتالى على تبلد حس الرجال، تعمد نزولها البحر بلباسه المعروف على مرأى من الرجال، فى غير المكان وفى غير الزمان المخصص للنساء. وكذلك عرض مفاتنها جيئة وذهابًا على الشاطئ أمام الجمهور دون خجل ولا حياء، ثم اختيار ملكة جمال الشواطئ من هؤلاء الفاتنات، إلى غير ذلك من المباذل التى يمجها الذوق السليم وينكرها الشرع الحنيف.

ولا شك أن هذه المظاهر تجعل الاصطياف منكرًا أشد المنكر، لا لذاته، بل لهذه العوارض المخزية. فإذا التزمت حدود الآداب كاملة ما كان على المرأة بأس من تمتعها بنعمة الله فى البحر ومائه، والشاطئ وهوائه.

وبعض الأسر المحافظة تفضل المصايف المنعزلة الهادئة، لكن هؤلاء قلة، وسيجىء يوم يكون فيه هذا المصطاف الهادئ كغيره من المصايف الصاخبة، فأولى أن يكون الاصطياف انفراديًا لا اجماعيًا. أو توضع له نظم جديدة مستوحاة من الدين، على أن تكون الرقابة على تنفيذها شديدة، وبمعرفة قوم أمناء غيورين على الأخلاق والأعراض.

وإذا كان دخول الحمامات المبنية مذمومًا إلا لضرورة أو حاجة، فما بالكم بالحمامات المكشوفة؟ إنها أشد ذمًا وأشد تحريمًا.

تكملة:

قد مر الحديث عن تعلم المرأة ودخولها المساجد، وأمر النبى ﷺ بأن تعتزل الحيض المصلى. وهذا يجرنا إلى بيان **الحكم الشرعى** فى الأمور الآتية: دخول المسجد للحائض، وحكم مسها للمصحف وحمله، وحكم قراءتها للقرآن، وقد كثرت الأسئلة حول هذه النقط، وبخاصة من المدرسين والمدرسات والفتيان والفتيات الذين يضطرون إلى حمل **المصحف أو** أجزاء منه، أو قراءة

شيء من القرآن عند السؤال عن حكم من الأحكام، أو أداء امتحان فيه. واضطربت أقوال المدرسين فيها، وتبلبلت أفكار التلاميذ والتلميذات بسبب الأجوبة المتضاربة التى يسمعونها، كما رمى بعض المدرسين علماء الدين بجمود الفكر وتزمتهم عندما يفتون بالفتاوى التى تحفظ للقرآن قدسيته، ويتهمونهم بالوقوف فى سبيل تشجيع التعليم، ولهذا سيكون الحديث عن هذه النقط بشيء من البسط لعرض أقوال الفقهاء، حتى يكون القارئ على بينة من الحكم، وربما كان فى قول بعض الأئمة ما يدفع حرجًا أو يخلص من مأزق، لمن يريدون أن يحافظوا على دينهم. أما المستهترون فإنهم يضربون بهذه الأحكام عرض الحائط لضعف صلتهم بها، وعدم حاجتهم إليها، فإن أعظم الأركان الإسلامية وهو الصلاة وما يلزمها من طهارة وستر وغيرهما متهاون فيها، فكيف بغيرها من أمور الدين؟

أولاً – دخول المسجد للحائض والجنب:

ذهب الأئمة الثلاثة إلى حرمة مكث الجنب فى المسجد. وذهب أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث. ودليل الأولين قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا** ﴾ [النساء: ٤٣]، وما رواه أبو داود أن وجوه بيوت الصحابة كانت إلى المسجد، فأمرهم بتحويلها عنه، وقال: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإنى لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب». وما رواه ابن ماجه والطبرانى عن أم سلمة أن النبى ﷺ دخل صرحة المسجد – ساحته – ونادى بأعلى صوته «إن المسجد لا يحل لحائض ولا لجنب».

ولم يرخص إلا فى اجتيازه فقط، وذلك للآية المذكورة، فالصحابة كانوا يمرون به لطلب الماء حيث لا طريق من بيوتهم إليه إلا المسجد.

وجاء فى تفسير ابن كثير أن النبى ﷺ قال «سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر» والخوخة هى باب البيت، وكانت أبواب بيوت الصحابة

شارعة إلى المسجد، فأمر بسدها. والحديث رواه البخارى. وإنما قاله النبى ﷺ فى آخر حياته لأنه كان يعلم أن أبا بكر سيلى الأمر من بعده ويحتاج إلى دخول المسجد كثيراً للأمور التى يقتضيها عمله، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضى الله عنه.

ودليل أحمد فى أن الوضوء يجيز لصاحبه المكث فى المسجد، ما رواه هو وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك، وصحة هذا الإسناد على شرط مسلم «تفسير ابن كثير» غير أن الحائض لا يجوز لها ذلك عنده، لأن وضوءها لا يصح كما جاء فى كتاب معجم المغنى لابن قدامة (طبعة أوقاف الكويت ص٨٨٨) ورد الأئمة على ذلك بأن أدلتهم أقوى فهى القرآن والسنة معاً.

لكن يرد على رأى الأئمة الثلاثة ما رواه الجماعة - إلا البخارى - عن عائشة قالت: قال لى رسول الله ﷺ «ناولينى الخُمرة من المسجد»[1] فقلت: إنى حائض، فقال: «إن حيضتك ليست فى يدك» وما رواه أحمد والنسائى عن ميمونة: أن الواحدة منهن - زوجاته - كانت تقوم بخمرته فتضعها فى المسجد وهى حائض. فكيف لا يجوز للحائض دخول المسجد والنبى يقر ذلك؟ والجواب أن المحرم هو المكث الطويل، أما المكث القليل لأخذ شىء أو وضعه فهو كالعبور والاجتياز مرخص فيه. ومعلوم أن وضع الخمرة أو أخذها لا يحتاج إلى مكث طويل.

ومن هذا يعلم أن المرأة لا يصح لها أن تدخل المسجد لسماع دروس العلم ولا لزيارة الأضرحة الموجودة فى المسجد، ما دامت جنباً من جماع ونحوه، أو من حيض أو نفاس. ولم يقل بجواز مكث الحائض فى المسجد إلا زيد بن ثابت إذا أمن تلويثها للمسجد، يقول الشوكانى فى «نيل الأوطار ج١ ص٢٤٩»:

---

(١) الخمرة حصيرة صغيرة من السعف يضع عليها الجبهة كالسجادة للصلاة فى زمننا هذا، فإن زاد حجمها عن ذلك سميت حصيراً «نيل الأوطار ج٢ ص١٣٣».

وحكاه الخطابى عن مالك والشافعى وأحمد وأهل الظاهر، ومنع من دخولها سفيان وأصحاب الرأى وهو المشهور من مذهب مالك .

ثانيًا - مس المصحف وحمله :

إذا كانت المرأة نفساء من ولادة، أو حائضًا، أو جنبًا والولد إذا كان جنبًا، فقد اتفق الأئمة على حرمة مسهم للمصحف أو حمله، ولم يخالف فى ذلك واحد من الصحابة، لكن جوزه داود وابن حزم .

ومما استدل به الأئمة :

١ - قوله تعالى فى اشتراط الطهارة عامة ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ [الواقعة ٧٧ : ٧٩]، بناء على أن المراد بالكتاب هو المصحف . وأن المس هو اللمس الحسى المعروف . وقد نوقش هذا الدليل بأن الكتاب المكنون فسره بعضهم باللوح المحفوظ . ولا يمسه إلا المطهرون مقصود بهم الملائكة . وفسره بعضهم بالكتب السابقة على معنى أن فيها ذكرًا للقرآن ومن ينزل عليه . كما نوقش بأن الكتاب لو أريد به المصحف فإن معنى ﴿ **لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ لا يمسه إلا المطهرون من الشرك، لأن المشركين نجس كما قال الله سبحانه ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ [التوبة : ٢٨] . فالذين يجوز لهم مسه هم المؤمنون لأنهم مطهرون من الشرك، سواء أكانوا على طهارة حسية أم لا، لأن المؤمن لا ينجس كما ورد فى حديث البخارى ومسلم « المؤمن لا ينجس » .

صحح ابن القيم فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » ص١٤١ أن المراد بالكتاب فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ هو الذى بأيدى الملائكة، وأيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [سورة عبس ١٣-١٦] وبقوله تعالى : ﴿ **لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾ فهو بأيديهم يمسونه ولا يمسه غيرهم، ثم قال : ومن المفسرين من قال إن المراد به المصحف، ولا يمسه إلا طاهر، ثم رجح أنه صحف الملائكة، وهم الذين يمسونها . وذلك بوجوه :

١ – أن الآية سيقت لنفى أن الشياطين تنزل به، وأن محله لا يصل إليه المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله أن يصلوا إليه أو يمسوه.

٢ – أن السورة مكة والعناية فى السور المكية بأصول الدين لا بفروعه.

٣ – أن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول الآية ولا فى حياة النبى، وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى، لكن الظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار، يوضحه:

٤ – قوله «مكنون» أى مستور عن الأعين لا تناله أيدى البشر، كما فى قوله تعالى ﴿ **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ** ﴾. قال الكلبى: مكنون من الشياطين، وقال أبو إسحق مصونة فى السماء يوضحه:

٥ – أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فى قوله فى سورة البروج ﴿ **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ يوضحه:

٦ – أن هذا أبلغ رد على المكذبين وأبلغ فى تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

٧ – قوله: «لا يمسه» خبر وليس نهيًا، لأن الفعل مرفوع، ولو كان نهيًا لكان بفتح السين، وليس هنا ما يوجب صرفه من الخبر إلى النهى.

٨ – قوله: «إلا المطهرون» ولم يقل: المتطهرون، كقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ فالمتطهر فاعل التطهر، والمطهر من طهره غيره، فالمتوضىء متطهر والملائكة مطهرون.

٩ – لو أريد بالكتاب المكنون المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الإخبار بكونه مكنونًا فى كتاب فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونًا فى كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونًا فى كتاب وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه.

١٠ – ما رواه سعيد بن منصور فى سننه عن أنس بن مالك فى قوله

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : المطهرون الملائكة، وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع، وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ويجب الرجوع إلى تفسيرهم . اهـ.

٢ - ومن أدلتهم أيضًا حديث عمرو بن حزم فى الكتاب الذى أرسله النبى معه إلى اليمن، حيث جاء فيه « لا يمس القرآن إلا طاهر » رواه النسائى والدارقطنى والأثرم . وقال ابن عبد البر فى هذا الحديث : إنه أشبه بالمتواتر، لتلقى الناس له بالقبول . كما قال يعقوب بن سفيان : لا أعلم كتابًا أصح من هذا الكتاب، فإن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين كانوا يرجعون إليه ويدعون رأيهم . وقال الحاكم : شهد عمر بن عبد العزيز والزهرى لهذا الكتاب بالصحة، وقال بعض العلماء : إن إسناده حسن .

٣ - ومن أدلتهم أيضًا حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » وقال : رجاله موثقون .

٤ - ومن الأدلة قول أخت عمر بن الخطاب له عندما دخل عليها . ودعا بالصحيفة التى كانت تقرؤها : إنك رجس ولا يمسه إلا المطهرون، فقام واغتسل وأسلم . رواه الدارقطنى .

ونوقشت الأدلة الثلاثة الأخيرة بأن حديث عمرو بن حزم ضعفه النووى، لأن فى إسناده راويًا ضعيفًا . وبأن حديث ابن عمر ليس صحيحًا، فقد قال الحافظ : إسناده لا بأس به، لكن فيه راو مختلف فيه . وبأن حديث إسلام عمر فى إسناده مقال، كما قال الحافظ .

ودليل داود وابن حزم على عدم حرمة المس والحمل ما ثبت في الصحيحين أن النبى ﷺ بعث كتابًا إلى هرقل فيه آية ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . . . . ﴾ وهو وغيره ممن أرسلت إليهم الكتب لا

يتطهرون من الجنابة، وأجاب الأئمة بأنها رسالة لا تسمى مصحفًا، ولا بأس بمس ذلك وحمله.

وبهذا نرى أن تحريم مس المصحف وحمله للجنب لم يسلم الاستدلال عليه، كما أن دليل من جوز ذلك لم يسلم أيضًا من المناقشة.

هذا في حالة الجنابة، أما إذا كان هناك حدث أصغر فالحكم كما يلي:

(أ) جمهور العلماء على حرمة مس المصحف وحمله، وهو مروى عن كثير من الصحابة والتابعين. وذهب إليه من أئمة الفقه مالك والشافعي، كما ذهب إليه أبو حنيفة في إحدى الروايتين عنه، وأدلتهم هي الأدلة السابقة بالنسبة للجنب.

(ب) جوز بعض العلماء ذلك، ونقل عن جماعة من السلف، وذهب إليه أبو حنيفة في إحدى الروايتين عنه. كما جوزه داود بن علي.

وقد استثنى بعض المحرمين لمس المصحف وحمله مع الحدث الأصغر، الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، لحاجتهم إلى حفظ القرآن، لأنهم لو كلفوا بالوضوء لشق عليهم، وانصرفوا عن الحفظ. على أن الصبي لو تطهر فطهارته ناقصة لعدم صحة النية منه. ويقاس عليهم الكبار المحتاجون لحفظ القرآن، فيرخص لهم مس الصحف وحمله مع الحدث الأصغر، لأجل تيسير الحفظ، لا لأجل التعبد بالتلاوة.

ثالثًا – قراءة القرآن للجنب:

قراءة القرآن من غير مس للمصحف أو حمله بالنسبة للحائض والجنب فيها رأيان:

(أ) جمهور العلماء على المنع، واستدلوا بأدلة منها:

١ – ما رواه أصحاب السنن عن علي أن رسول الله ﷺ كان لا يحجبه عن القراءة شيء إلا الجنابة. وصحح الترمذي هذا الحديث. وقال ابن حجر: إن بعضهم ضعف بعض رواته، فهو من قبيل الحسن، ويصلح للاحتجاج به.

٢ – ما رواه أحمد وأبو يعلى عن على أيضًا: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ثم قرأ شيئًا من القرآن، ثم قال «هكذا لمن ليس بجنب. فأما الجنب فلا، ولا آية» قال الهيثمى: رجاله موثقون. قال الشوكانى: فإن صح هذا الحديث صلح للاستدلال على التحريم. أما الحديث الأول عن على فليس فيه ما يدل على التحريم، لأن غايته أن النبى ﷺ ترك القراءة حال الجنابة، ومثله لا يصح متمسكًا للكراهة فكيف يستدل به على التحريم؟

٣ – ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر عن النبى ﷺ «لا يقرأ الجنب ولا الحائض شيئًا من القرآن». وقد ضعف هذا الحديث.

(ب) أما غير الجمهور فأجازها. ومنهم داود وابن حزم، لحديث كتاب هرقل المتقدم، وذهب إليه البخارى والطبرى. قال البخارى: لا بأس أن تقرأ الحائض الآية. ولم ير ابن عباس بالقراءة للجنب بأسًا. وكان النبى ﷺ يذكر الله على كل حال.

قال الحافظ ابن حجر تعليقًا على هذا: لم يصح عند المصنف –البخارى– شيء من الأحاديث الواردة فى ذلك، أى فى منع الجنب والحائض من القراءة. وإن كان مجموع ما ورد فى ذلك تقوم به الحجة عند غيره: لكن أكثرها قابل للتأويل.

هذا، وقد ذهب أبو حنيفة إلى قراءة ما دون الآية.

وبعد عرض هذه الآراء نرى أن مس المصحف وحمله لغير المتوضىء لم تتفق آراء العلماء على منعه، وأنا أميل إلى عدم جوازه إلا للضرورة القصوى وفى أضيق الحدود، أخذًا بالأحوط فى قوله تعالى: ﴿ **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾. أما الجنب فالرأى قوى فى منعه من مس المصحف وحمله، لأن حالة الجنابة قليلة، بخلاف الحدث الأصغر فهو كثير.

أما قراءة القرآن للجنب فأدلة المنع منها قوية، ولا أرى جوازها إلا للضرورة القصوى، كالاستدلال من القرآن على رأى فى مجال النقاش مثلا، وكقراءته

لتأدية امتحان يترتب على عدم القراءة فيه ضرر، وبهذا يجوز للفتاة فى حال الحيض والأحوال الأخرى التى توجب الغسل أن تقرأ القرآن لتأدية الامتحان الضرورى، أما النقاش والسؤال فأولى أن نجتنبه، وتخبر معلمها بأن عندها عذراً يمنعها من قراءة القرآن،فإن قبل العذر فبها،وإلا جاز لها أن تقرأ فى أضيق الحدود.

وفى فقه المذاهب «نشر أوقاف مصر» أن المالكية أجازوا للحائض والنفساء قراءة القرآن حال نزول الدم، أما بعد انقطاعه فلا تجوز القراءة قبل الاغتسال، وذلك لتمكنها من التطهر.

رابعًا - قراءة القرآن مع الحدث الأصغر :

قراءة المحدث حدثًا أصغر للقرآن جائزة باتفاق. لكن بدون أن يكون معها مس للمصحف أو حمله. وإن كان الأفضل أن تكون مع الطهارة، وبخاصة إذا كان يقصد بالتلاوة التعبد لا حفظ القرآن، فإن العبادة على طهارة أكمل وهى مرجوة القبول.

* * *

الفصل الثالث

شروط جواز خروج المرأة من البيت

سبق أن بينا أن الأولى للمرأة أن تستقر فى بيتها ولا تخرج منه إلا لداع قوى. وقد شرط العلماء لجواز خروجها شروطًا، الغرض منها ألا يساء استعمال هذا الحق، فإن هذا المبدأ المقرر قد يكون فى ذاته سليمًا، ولكن عند تطبيقه لا تراعى الاحتياطات اللازمة لسلامته. وعند الإهمال يكون نقد الناقدين للمبدأ من واقع الخطأ فى التطبيق.

ولعل مما يشير إلى سوء استعمال الحق قول عائشة رضى الله عنها: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد.

وأهم هذه الشروط والاحتياطات ما يلى:

١ – أن يأذن لها زوجها أو ولى أمرها :

وذلك ليطمئن على خروجها، ويتعرف مكانها إن حدث ما يشكك عند تأخرها مثلاً، أو ما يستدعى الاتصال بها. ودليل ذلك قول النبى ﷺ حين سألته امرأة من خثعم عن حق الزوج على زوجته «ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه. فإن فعلت لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب حتى ترجع» رواه الطبرانى عن ابن عباس. وروى قريب منه عن ابن عمر.

كما روى الخطيب عن أنس مرفوعًا «أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت فى سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها، أو يرضى عنها زوجها» ضعفه الألبانى على الجامع الصغير.

وعن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يسأل عنهم، رجل فارق الجماعة، ورجل عصى إمامه فمات عاصيًا، وامرأة غاب عنها زوجها، وقد كفاها مئونة الدنيا، فتبرجت بعده، فلا يسأل عنها» رواه الطبرانى وصححه عن فضالة بن عبيد[١].

---

(١) الإحياء ج٢ ص١٩٧.

وروى بسند ضعيف أن رجلاً خرج إلى سفر، وعهد إلى امرأته ألا تنزل من العلو إلى السفل[1]، وكان أبوها في السفل، فمرض، فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذنه في النزول إلى أبيها، فقال لها «أطيعى زوجك» فدفن أبوها، فأرسل إليها رسول الله ﷺ يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها. رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس[2].

وكذلك مما يدل على اعتبار الأذن في جواز خروج المرأة حديث «إذا استأذنكم نساؤكم إلى المساجد فأذنوا لهن» رواه مسلم عن ابن عمر[3].

وقد تحدث العلماء عن فائدة استئذانها إلى المسجد ما دام الزوج منهيًا عن منعها فقالوا: إن أذن الزوج لها مترتب على استئذانها، وإذا كانت تستأذنه في الخروج للطاعة فإن استئذانها له في غيرها أولى.

وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل امرأة عمر بن الخطاب[4] أنها كانت تستأذنه في الذهاب إلى المسجد، فيسكت، فتقول: والله لأخرجن إلا أن تمنعنى، فلا يمنعها. ذكره مالك في الموطأ «ج١ ص١٥٦، ١٥٧».

هذا، وقد شرط العلماء لوجوب إذن الزوج لها ألا تكون هناك مفسدة، وإلا كان له منعها. وقد صور النووى هذه المفسدة بقوله: ألا تكون متطيبة ولا متزينة، ولا ذات خلاخل يسمع صوتها، ولا ثياب فاخرة، ولا مختلطة بالرجال، ولا شابة ونحوها ممن يفتتن بها، وألا يكون في الطريق ما يخاف به مفسدة ونحوها. قال: وهذا النهى عن منعهن من الخروج محمول على كراهة التنزيه إذا كانت المرأة ذات زوج أو سيد ووجدت الشروط المذكورة، فإن لم يكن لها زوج ولا سيد حرم المنع إذا وجدت الشروط «شرح مسلم ج٤ ص١٦١، ١٦٢».

---

(١) العلو (بضم العين مع سكون اللام أو ضمها، وبكسر العين مع سكون اللام) وهو ضد السفل (بضم السين وكسرها مع سكون الفاء).

(٢) الإحياء ج٢ ص٥٢.

(٣) ج٤ ص ١٦١.

(٤) تزوجها بعده عبد الله بن الزبير. ونسبت بعض أخبارها مع عمر إليه «عيون الأخبار لابن قتيبة ج٤ ص١١٥».

٢ - أن تكون ساترة لعورتها :

والعورة قد سبق تحديها، وتحديد مواصفات الساتر الشرعى لها . وقد ورد عن عائشة أن نساء المؤمنين كن يصلين الصبح مع النبى ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن - أكسيتهن - لا يعرفهن أحد . رواه البخارى ج١ ص٢١٩ ومسلم ج٥ ص١٤٣ .

وروى أبو داود أن النساء كن يذهبن أولاً إلى المسجد بغير الحجاب الذى أمر الله به، فلما نزل بادرن إليه، وأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات . وسيأتى مزيد لبيان ذلك فى آخر الجزء .

٣ - عدم الخلوة :

يشترط لجواز خروج المرأة من بيتها لمزاولة أى نشاط ألا تكون هناك خلوة محرمة، فلا يجوز مثلاً خلوة المدير بأمينة سره « سكرتيرة » ولا الطبيب بممرضته، ولا المدرس بتلميذته، ولا الزميل بزميلته، إلى غير ذلك من صور الخلوة، وقد سبق بيانها بوضوح .

٤ - التزام الأدب والعفة :

ويكون ذلك بمحافظتها على الآداب الإسلامية والعادات المعقولة فى حديثها وفى حركتها، مشيًا أو جلوسًا، وفى سائر تصرفاتها القولية والفعلية، حتى لا يطمع الذى فى قلبه مرض أن يمسها بسوء، أو تمسه هى بسوء . وتصرفات المرأة الظاهرية دليل على ما تكنه نفسها، وينطوى عليه قلبها من أحاسيس وانفعالات ومفاهيم ورغبات . فلتكن جادة حتى تؤخذ عنها صورة كريمة تحقق لها أحلامها السعيدة، أو على الأقل تدفع عنها الريب والشكوك، وقد مر النهى عن الخضوع بالقول والأمر بقول المعروف . وكما أن القول الخاضع يفتن كذلك الفعل الخاضع والحركة المعينة[١] .

---

(١) تروى كتب الأدب أن بعض النساء العربيات كانت لهن مشية يعرفن فيها وتجذب إليهن انتباه الناس حتى لو كن مستترات، ومن هؤلاء : بَرَّة بنت سعيد بن الأسود، كانت من =

٥ - ألا تكون متعطرة :

النهي عن التعطر، ليس لعدم حب الإسلام للتمتع بزينة الحياة، بل هو سياج للمرأة أن يمتد إليها فضول الفضوليين، فالروائح الطيبة تجذب الانتباه من مسافة بعيدة، وفي الوقت نفسه تغرى بالقرب من مصدرها ومحاولة إشباع النفس منها، وذلك أمر طبيعي لا يشك فيه إنسان . فليكن العطر حيث ينجذب الزوج فقط، لا حيث يستدعى به المتطفلون . في الحديث الشريف « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية، وكل عين زانية » رواه النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، والحاكم وقال : صحيح الإسناد عن أبى موسى الأشعرى، وروى مثله أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح[1] .

وقال ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » رواه مسلم عن زينب الثقفية . وروى مسلم أيضاً عن أبى هريرة « أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة » ج٤ ص١٦٣ . وورد أيضاً « لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع فتغسل » رواه ابن خزيمة فى صحيحه عن أبى هريرة[2] .

ويلاحظ فى هذه الأحاديث أن الحكم على المتعطرة بأنها زانية مرهون بقصد المرأة من جذب انتباه الرجال إليها، فهى متعمدة لذلك، وهذا دليل على أنها سهلة الانزلاق، سريعة التلبية لمن يعجبون بها، والشارع فى الشيء أو الممهد له يعطى حكمه . كما يلاحظ أن النهى جاء فى بعض الأحاديث عاماً عن حضور المسجد لأى صلاة، ثم جاء خاصاً فى أحاديث أخرى بالعشاء الآخرة . ولا تناقض

=أجمل النساء وأحسنهن مشية . حتى قال الزبير بن أبى بكر : كان أهل المدينة يقولون : تغير كل شيء إلا مَلَح أشعب، وخبز أبى الغيث، ومشية برة .

وكان أبو الغيث يعالج الخبز بالمدينة، وكان أشعب بن جبير مولى عبد الله بن الزبير يضرب به المثل فى الطمع « زهر الآداب للحصرى ج١ ص١٦١، ١٦٢ طبعة الحلبى » .

(١، ٢) الترغيب والترهيب ج٣ ص٢٧ .

فى ذلك، فإن النهى عام لكل مسجد ولكل وقت لأن علة النهى قائمة وهى افتتان الرجال بالمتعطرة، ولكن هناك تركيز بالذات على الصلوات التى تؤدى بالليل إذا أظلم تماماً وهو العشاء الآخرة، فى مقابل العشاء الأولى وهى المغرب، فإن الليل بظلامه يزيد الاغراء بالمتعطرة، فقد تكون هنا معاكسة، أو كلمة أو إشارة يسترها إلى حد ما ظلام الليل، وقد يكون ما هو أخطر من ذلك من الانصراف إلى غير بيت زوجها وعدم معرفة شخصيتها، حيث تكون الجريمة أسهل. أو على الأقل حتى لا يشك فيها زوجها، فإن الخروج بالليل مع التعطر يثير الشكوك أكثر من إثارتها نهاراً، حيث يكون الليل أعون على الشر. ولذلك شدد الرسول ﷺ فى الإنكار عليه، وعاقب صاحبته بوجوب المبادرة بإزالة هذا العطر حتى يتقبل الله صلاتها أن آثرت رضاه على رضاء نفسها.

٦ - عدم التزين بما يفتن :

وذلك كالملابس الزاهية أو اللاصقة أو الكاشفة . . . إلخ، فعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تقول : لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المساجد، كما منعت نساء بنى إسرائيل. ويفسر النووى ما أحدثه النساء بالزينة والطيب وحسن الثياب. « مسلم جـ٤ ص١٦٤ ».

ومن أجل هذا جاءت التوصية بخروجهن تفلات، أى غير متطيبات، أو فى ملابسهن القديمة، ففى الحديث « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تفلات » رواه أحمد وأبو داود عن أبى هريرة.

وبهذا يعرف سوء تصرف النساء اللاتى يدخرن أحسن الملابس والحلى للخروج، ويبخلن على أنفسهن وعلى أزواجهن بها إذا كن فى البيت، وهذا انتكاس فى التفكير، أملاه الهوى، وزينه الشيطان.

يقول الشرقاوى فى شرحه لمختصر الزبيدى عند الحديث عن الأذن للنساء بالذهاب إلى المساجد : إن المرأة يجوز لها الخروج لمصالحها، لكن فرق بعض المالكية وغيرهم بين الشابة والعجوز. وأجيب بأنها إذا كانت مستترة غير متزينة ولا متعطرة حصل الأمن عليها، خصوصاً إذا كانت بالليل، وقال أبو حنيفة : أكره للنساء شهود الجمعة، وأرخص للعجوز أن تشهد العشاء والفجر، وأكره للشابة.

وقد أخبر عمر بزوجة خرجت بإذن زوجها، فطلبها فلم يقدر، فخطب وقال: هذه الخارجة وهذا المرسلها، لو قدرت عليهما لسترت بهما، أى ندت بهما، ثم قال: تخرج المرأة إلى أبيها يكيد بنفسه، وإلى أخيها يكيد بنفسه. فإذا خرجت فلتلبس معاوزها، أى البالى من ثيابها «الرقائق ج١ ص٣١٥».

٧ - البعد عن مزاحمة الرجال:

يجب على المرأة أن تبتعد ما أمكنها ذلك عن مزاحمة الرجال فى الطرق والأسواق ووسائل الانتقال وما إليها. يقول النبى ﷺ، وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء «استأخرن، فليس لكن أن تَحْقُقْن الطريق، عليكن بحافات الطرق» فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى أن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقه به. ومعنى تحققن تسرن فى حقه أى وسطه. رواه أبو داود عن أبى أسيد الأنصارى، من رواية شداد بن أبى عمرو بن حماش تفرد عنه أبو اليمان الرحال المدنى، وقد وثقه ابن حبان[١] ورواه أبو هريرة مرفوعًا بلفظ «ليس للنساء باحة الطريق» يعنى وسطه. رواه ابن حبان فى صحيحه من وجه آخر «المطالب العالية لابن حجر ج٢ ص٤٤٠» وقال الألبانى فى تخريج أحاديث الجامع الصغير: إنه حسن. وقد مر عدم مزاحمة بنتى شعيب للرجال على البئر.

ومن أجل كراهة المزاحمة جعل الإسلام مكان النساء فى صلاتهن مع الرجال بالمساجد، وفى اجتماعات الخير فى الأعياد مثلاً، هو الصفوف الخلفية، حتى لا تكون فتنة بهن إذا تقدمن عليهم، أو اختلطن بهم، كما رواه أحمد وأبو داود عن أبى هريرة «خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»[٢]. وقد مر حديث عبدالله بن مسعود فى صلاة نساء بنى إسرائيل مع الرجال واتخاذهن القوالب لرؤية الأصدقاء، وإلقاء الله عليهن الحيض، وتأخيرهن عن صفوف الرجال.

---

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح ج١.

(٢) هذا هو هدى الإسلام فى جعل مكان المرأة خلف أمكنة الرجال منعًا للفتنة، وبه يعلم القصد السيء لما يجرى عليه الناس اليوم من جعل صفوفهن أمام صفوف الرجال، إنهم يعدونه احترامًا وتكريمًا للمرأة كعرف الغرب فى ذلك، ولكنه فتنة كبرى بهن.

جاء فى نيل الأوطار « ج٣ ص١٩١ » : أفتى أبو حنيفة بأنه إذا وقفت المرأة بين الرجال بطلت الصلاة، أى صلاة من على يمينها ومن على يسارها ومن خلفها . قال فى الفتح : وهو عجيب، وفى توجيهه تعسف، حيث قال قائلهم : قال ابن مسعود : « أخروهن من حيث أخرهن الله »(١) والأمر للوجوب . فإذا حاذت الرجل فسدت صلاته، لأنه ترك ما أمر به من تأخيرها . قال : وحكاية هذا تغنى عن جوابه . وذهبت الهادوية إلى فساد صلاتها إذا صفت مع الرجال، وفساد صلاة من خلفها، وفساد صلاة من فى صفها إذا علموا بكونها فى صفهم .

وذكر البخارى معلقًا أن أم سلمة زوج النبى ﷺ ذكرت أن النساء فى عهد رسول الله كن إذا سلمن من المكتوبة قمن، وثبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله قام الرجال « ج١ ص٢١٩ » .

وورد عنها أن النبى ﷺ كان إذا سلم قام النساء حين يقضى تسليمه، ويمكث هو فى مقامه يسيرا قبل أن يقوم . قال الراوى : نرى، والله أعلم، أن ذلك كان لكى ينصرف النساء قبل أن يدركهن أحد من الرجال « ص٢٢٠ » . وتقدم انصراف النساء متلفعات بمروطهن لا يعرفهن أحد .

وجاء فى تفسير القرطبى « ج١٠ ص١٩ » روى النسائى والترمذى عن أبى الجوزاء قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن النساء، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكن فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ [الحجر : ٢٤](٢) .

---

(١) أخرج هذا الأثر الطبرانى وعبد الرزاق، وهو غير مرفوع، بل موقوف على ابن مسعود . وفى الجامع الكبير طبعة مجمع البحوث ج١ ص٢٦٥ برقم ٤٧ / ٨٠٥ أنه مرفوع عن مسعود (لعله ابن مسعود) ولم يبين درجته . وفى حسن الأسوة ص١٦٦ : عن حذيفة، سمعت رسول الله ﷺ يقول « أخروا النساء حيث أخرهن الله » رواه رزين . أى لا تقدموهن ذكرا وحكما ومرتبة .

(٢) كيف يستقيم هذا مع أن سورة الحجر مكية إلا آية واحدة ﴿ **ولا تمدن عينيك** . . . ﴾ ولم يكن المسلمون يصلون فى مسجد واحد يجتمع فيه الرجال والنساء، فلم يكن ذلك إلا بعد الهجرة فى مسجد النبى ﷺ ؟ فهذه الآية لم تنزل بسبب هذا الحادث، وإنما ذكرت للدليل لا لسبب النزول على ما سبق بيانه فى مقدمة الفصل العاشر الخاص بالأسباب المباشرة لتشريع الحجاب .

ومن أجل منع المزاحمة بين الرجال والنساء نهى عمر الرجال عن الدخول من الباب المخصص للنساء، وكان ابن عمر يدخل من أبواب المسجد كلها إلا باباً واحداً، فقيل له في ذلك، فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول عنه مرة «لو تركنا هذا الباب للنساء»!! «كشف الغمة ص١٥٥».

وفي البخاري عن عبد الله بن عمر أن الرجال والنساء كانوا يتوضئون جميعاً من إناء واحد، كما رواه أيضاً ابن ماجه وأبو داود. وقال العلماء: إن ذلك كان قبل نزول الحجاب. أما بعده فلم يكن ذلك إلا مع الزوجات والمحارم. «شرح الزبيدي ج١ ص١٤٥».

وذكر ابن الجوزي في تاريخ عمر «ص١١٣» عن أبي سلامة قال: انتهيت إلى عمر وهو يضرب رجالاً ونساء في الحرم على حوض يتوضئون منه، حتى فرق بينهم، ثم قال: يا فلان. قلت: لبيك. قال: لا لبيك ولا سعديك!! ألم آمرك أن تتخذ حياضاً للرجال وحياضاً للنساء؟

وحكى إبراهيم النخعي أن عمر بن الخطاب نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء، فرأى رجلاً يطوف مع النساء، فضربه بالدرة، وإن كان قد اعتذر بأنه لم يعلم بهذا النظام، فاستعفاه عمر، فعفا عنه «الأحكام السلطانية للماوردي ص٢٤٩».

وفي الحق أن وجود الرجل مع المرأة، ولو في الطريق يهيئ الجو للاتهامات والظنون، وهذا أمر طبيعي دليله المشاهدة، وحسبنا أن النبي ﷺ أدرك هذه الظاهرة النفسية، فعمل لها الإجراء المناسب، وكان ذلك في حادث وقوف صفية معه. روى البخاري «ج٣ ص٦٤» ومسلم «ج١٤ ص١٥٦» عن صفية بنت حيي قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار. فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا. فقال النبي ﷺ «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً. أو قال: شيئاً».

يقلبنى = يردنى إلى منزلى، على رسلكما = على هيئتكما فى المشى أى لاتسرعا.

وقد حذر عمر أن يكلم أحد امرأة فى الطريق حتى لو كانت زوجه. ففى كتاب «الرياض النضرة ج٢ ص٤٦»: قال عبيد بن عمير: بينما عمر يمر فى الطريق فإذا هو برجل يكلم امرأة، فعلاه بالدرة، فقال: يا أمير المؤمنين إنما هى امرأتى. فقال: فلم تقف مع زوجتك فى الطريق تعرضان المسلمين إلى غيبتكما أو عيبكما؟؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الآن قد دخلنا المدينة ونحن نشاور أين ننزل، فرفع إليه الدرة وقال: اقتص منى يا عبد الله. فقال: هى لك يا أمير المؤمنين.

وفى نهاية ابن الأثير «مادة خضع» عن عمر أن رجلاً مر برجل وامرأة يتخاصمان، فشجه وأهدره. وجاء فى الأحكام السلطانية «ص٢٤٩» أن ابن عائشة رأى رجلاً يكلم امرأة فى طريق، فقال له: إن كانت حرمتك إنه لقبيح بك أن تكلمها بين الناس. وإن لم تكن حرمتك فهو أقبح، وبقية القصة طريفة.

هذا، وقد قال الإمام الغزالى ما نصه: فإن خرجت بإذنه خرجت فى هيئة رثة، تطلب المواضع الخالية، دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها، أو يعرفها بشخصها، ولا تتعرف إلى صديق بعلها فى حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه «الإحياء ج٢ ص٥٤».

وبهذا يعلم أن مزاحمة النساء للرجال فى وسائل الانتقال، وتعمد بعضهن أن يجلسن أو يقفن فى المكان المخصص للرجال، وعدم حيائهن من تلاصق أجسامهن معهم، ومشيهن فى الأماكن التى يكثر فيها تجمع الرجال كالمقاهى والأسواق. وتزاحمهن فى الحج عند الطواف واستلام الحجر الأسود، وعند رمى الجمار والسلام على رسول الله ﷺ – كل ذلك لا يرضاه الدين، وتأباه المروءة والغيرة، ما دام يمكن للمرأة أن تتحاشاه، لكنها لا تبالى. وكذلك لا يجوز للرجال أن يزاحموهن فيما خصص لهن، أو يتعمدون الاحتكاك بهن، وقد مر ذلك مفصلاً فى تحريم التلامس.

٨ – الأمن عليها من الفتنة والفساد :

لو عرف أن المرأة لو خرجت من بيتها لم يؤمن عليها من الفساد، كوجودها في مكان موحش لا أمن فيه عليها، أو في وقت يكثر فيه التعرض للحرمات، وكالعمل في وسط فاسد في أوضاعه أو العاملين فيه، لعدم وجود حصانة من دين أو خلق عندها، أو عند من تعمل معهم، وعدم وجود قوة أو ضمانات تحمى من الفساد – فلا يجوز لها الخروج.

وهذا الشرط في غاية الأهمية، لا بد من تقديره عند الكلام على خروجها حتى لأداء العبادات كالصلاة والحج. فإن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، والموازنة لا بد أن تكون دقيقة في هذا المجال. وقد تختلف الأزمان والبيئات في ذلك.

والفساد موجود في كل عصر وإن اختلفت نسبته، والخوف على المرأة من السوء مشاهد في كل بيئة مهما كانت صلتها بالدين، فقد حدث في أيام النبي ﷺ شيء منه.

أخرج أبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال: خرجت امرأة على عهد رسول الله ﷺ تريد الصلاة، فتلقاها رجل، فتجللها، فقضى حاجته منها، فصاحت، فانطلق، فمرت بعصابة من المهاجرين، فقالت: إن ذلك الرجل فعل بي كذا وكذا. فانطلقوا، فأخذوا الرجل الذي ظنت أنه وقع عليها فأتوها به، فقالت: نعم هو هذا. فأتوا به النبي ﷺ.

فلما أمر به أن يرجم قام صاحبها الذي وقع عليها، فقال: يا رسول الله أنا صاحبها، فقال لها: «اذهبي فقد غفر الله لك» وقال للرجل قولاً حسناً. وأمر بالرجل الذي وقع عليها أن يرجم. فرجم. وقال «لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لوسعتهم» وزاد الترمذي: ولم يذكر أنه جعل لها مهراً «حسن الأسوة ص١٣٦».

ومن أجل أن الفساد موجود في كل عصر، كان هناك خلاف في الرأي بعد

موت النبى ﷺ فى الأذن للنساء بالخروج إلى المسجد . فكان بعض الصحابة ينظرون إلى المأثور عن النبى ﷺ فى الأذن لها، فيقفون عند النص . وبعضهم يقدر الظروف، وينظر إلى علة الأذن فيرى منعهن .

وكان من الفريق الأول عمر وابنه عبد الله رضى الله عنهما . ففى البخارى فى كتاب الجمعة « ج٢ ص٧ » عن ابن عمر قال : كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة فى المسجد، فقيل لها : لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت : وما يمنعه أن ينهانى؟ قال : يمنعه قول الرسول ﷺ « لا تمنعوا إماء الله المساجد » .

وقد سبق أن عاتكة زوجته كانت تخرج ولا يمنعها . فلعلها هى المرادة بقول ابن عمر فى الحديث المتقدم . لكن عمر كان يراقب الآداب . ويضع الاجراءات اللازمة لحماية المرأة من الفساد والإفساد، على نحو ما تقدم من تنظيمه الوضوء من الحياض والطواف والدخول من باب النساء .

وكان من الفريق الثانى عائشة وابنا عبد الله بن عمر « واقد وبلال » . وقد تقدم حديث عائشة فى ذلك : لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بنى إسرائيل . وروى مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » فقال ابن له يقال له واقد : إذن يتخذنه دغلاً — أى فساداً وخداعًا وريبة — قال : فضرب فى صدره وقال : أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول : لا؟ . وحدث أيضًا مع ابنه بلال، كما جاء فى رواية أخرى لمسلم « ج٤ ص١٦٢ » .

وعلة موقف ابنى عبد الله بن عمر فى المنع هى الريبة والفساد . يضاف إلى ذلك أن أرض الله كلها مسجد، والصلاة تصح فى البيت والمسجد، والأفضل للمرأة أن تؤديها فى البيت بنص حديث رسول الله ﷺ . وخروجها إلى المسجد يؤدى إلى فساد، فعدم خروجها أولى، بل قد يجب .

على أن خروجها إلى المسجد فى أيام النبى ﷺ كان يقصد به مع

الصلاة التفقه فى الدين وسماع الوحى. تقول أم هشام بنت حارثة بن النعمان: ما أخذت «ق والقرآن المجيد» أى ما حفظت هذه السورة إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب النساء. رواه مسلم وأحمد والنسائى وأبو داود «نيل الأوطار ج٣ ص٢٨٣».

ونص حديث مسلم: عن أخت لعمرة بنت عبد الرحمن: أخذت «ق والقرآن المجيد» من فى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة. وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً «ج٦ ص١٦٠، ١٦١».

والتفقه فى الدين كان إلى جانب ثواب الصلاة خلف النبى ﷺ، ولم يوجد بعد وفاته وحى أو مجلس كمجالسه للتعليم، فلا داعى لخروج النساء إذن إلى المسجد لمجرد الصلاة، مع أن الزمان قد تغير، فيخشى الفساد على المرأة أو على الناس.

وكان عمر، مع إيمانه وثقته بنهى الرسول ﷺ عن منعهن إذا استأذن، يود من عاتكة زوجته ألا تستأذنه ولا تخرج، ولكنها أيضاً كانت تخرج عندما تزوجت بعد عمر بالزبير بن العوام[1] فلجأ إلى حيلة تجعلها هى تعزف عن الخروج، ذلك أنه تنكر لها، وهى ذاهبة إلى المسجد، فلما مرت به جر ذيلها، فكانت لا تخرج بعد. ولما سألها قالت: كنت أخرج والناس ناس، وقد فسد الناس فبيتى أوسع.

قال فى «عيون الأخبار»: إن حادثة التنكر كانت من عمر عندما كانت زوجته. غير أن فساد الزمان يحتمل بعد عهد عمر لا فى زمانه هو، فقد عرفت عنه الشدة فى هذه الناحية بالذات، ومن هنا كان الراجح أن حادثة التنكر كانت وهى زوجة للزبير[2]. وهو ما فى الإصابة لابن حجر فى ترجمتها.

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج٤ ص١١٥، المستطرف للأبشيهى ج٢ ص١٨٦، البداية والنهاية لابن كثير ج٦ ص٣٥٣.

(٢) كشف الغمة ج٢ ص١٠٧، اعتلال القلوب لأبى بكر الخرائطى المتوفى سنة ٣٢٧هـ. وجاء فى عيون الأخبار ج٤ ص١١٤ أن عجيزتها كانت كبيرة فقرصها الزبير فيها متنكراً.

وذكر ابن القيم فى كتابه « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » قصة زواج عاتكة — بنت زيد بن عمرو بن نفيل — من عبد الله، أو عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق[١] وطلاقها منه، ثم مراجعتها وزواجها بعد وفاته من عمر، وكذلك زواجها بعد عمر من الزبير، ثم خطبة على لها بعد موت الزبير، فأبت قائلة : إنى أضن بك عن القتل، وقد أشيع عنها أن من أراد أن يستشهد فليتزوجها فإن من تزوجها استشهد[٢]. وحادثة طلاقها من ابن أبى بكر مذكورة فى بحث الطلاق وخلاصتها : إنها لما شغلته عن السوق أمره أبوه أن يطلقها، ففعل، فهام بها، وترصد أباه فى طريق المصلى باكيًا منشداً :

ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها فى غير جُرم تطلَّق
لها خلق جزل وحلم ومنصب ... وخَلْق سوىٌّ فى الحياة ومَصْدَق

فرق له والده وأذن بمراجعتها، فلما مات رثته بقولها :

وآليت لا تنفك عينى سخينة ... عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
فلله عينا من رأى مثله فتى ... أعف وأمضى فى الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
وآليت لا تنفك عينى قريرة ... عليك ولا ينفك جلدى أصفرا

فتزوجها عمر بن الخطاب، وأولم عليها. فاستأذنه على أن يكلمها. فقال لها : يا عدوة نفسها.

وآليت لا تنفك عينى قريرة ... عليك ولا ينفك جلدى أصفرا

فبكت، فقال عمر : لم هذا؟ كل النساء يفعلن ذلك. ثم تزوجها الزبير. ثم خطبها على فقالت : إنى لأضن عليك بالقتل. روى هذه القصة ابن القيم عن سالم بن عبد الله بن عمر.

---

(١) فى المستطرف أنه عبد الله بن أبى بكر، وكذلك فى أسد الغابة، ترجمة « سعيد بن زيد القرشى ».

(٢) المستطرف ج٢ ص١٨٦، غذاء الألباب ج١ ص٢٣٥.

هذا، وكان عمر وقافًا عند نص حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فكان يأذن لهن بالخروج ليلاً إلى المسجد، لصلاة الصبح والعشاء، أما بالنهار فكان لا يرى ذلك. وروى أنه كان يخرج النساء من المسجد يوم الجمعة، ويقول: هذا ليس لكن. وذلك بعد موت النبى ﷺ، مع أنهن كن يصلينها معه.

٩ - عدم ضياع واجب:

لا تخرج المرأة من بيتها إذا ترتب على خروجها ضياع واجب عليها لربها أو زوجها أو أولادها. فالتفريط فى الواجب حرام. وكل ما يؤدى إلى الحرام فهو حرام. والملاحظ أن كثيراً ممن يخرجن لعمل أو غيره ينسين، على الأقل، واجباتهن الزوجية، ويهملهن تربية أولادهن تربية صحيحة، وذلك فيه ما فيه، على ما سيأتى توضيحه إن شاء الله.

حكم سفر المرأة:

إذا كان الإسلام قد رغب فى استقرار المرأة فى بيتها، ووضع شروطًا لخروجها هى تحفظات لصالحها وصالح المجتمع كله، فإن السفر الذى هو أكثر من مجرد الخروج لا يجيزه الإسلام للمرأة حتى لو كان من أجل فريضة الحج أو طلب العلم، إلا بتحفظات أكبر مما شرط لمثل الصلاة ومزاولة النشاط الخارجى.

ذلك لأن السفر مظنة الأخطار والشبهات القوية، وأدنى إلى الفتنة والوقوع فى الاثم. وذلك لوجود ما يساعد على ذلك، من غيبة الرقيب. وعدم خشيتها ممن يهمه أمرها من زوج أو أهل، وقد يكون الوسط الجديد مغريًا بالخوض فيما لا وجود له فى الوسط الذى كانت فيه، لاختلاف الدين والتقاليد مثلاً.

ومن هنا اشترط الإسلام لجواز سفرها أن يكون معها زوجها أو محرم لها، يحميها من الاعتداء عليها، ويراقب سلوكها بوجه عام، ودليل ذلك قول النبى ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرًا يكون ثلاثة أيام فصاعدا إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها» رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى.

وفى رواية « لا تسافر المرأة يومين. . . » وفى رواية أخرى « مسيرة ليلة » . وفى رواية لأبى داود وابن خزيمة « بريدا » والبريد مسيرة نصف يوم . وفى رواية عن ابن عباس عدم تحديد المسافة « ولا تسافر امرأة إلا مع ذى محرم » . ولما سمع رجل هذا النهى قال : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة، وإنى كنت قد اكتتبت فى غزوة كذا وكذا . قال « انطلق فحج مع امرأتك » رواه مسلم عن ابن عباس « ج٩ ص١٠٩ » .

قال النووى : اختلاف تحديد الأيام باختلاف السائلين واختلاف المواطن . وليس فى النهى عن الثلاثة تصريح بما دونها . ولم يرد عن الرسول ﷺ تحديد أقل ما يسمى سفراً . فالحاصل أن كل ما يسمى سفراً تنهى عنه المرأة بغير زوج أو محرم، لرواية ابن عباس المطلقة دون تحديد[١] .

يؤخذ من هذه الأحاديث أنه لا يجوز سفر المرأة إلا مع ذى محرم . وأجاز بعض العلماء سفرها مع رفقة مأمونة . يقول النووى : اختلفت العلماء فى اشتراط المحرم فى الحج، فاشترطه أبو حنيفة، إلا أن يكون بينها وبين مكة دون ثلاث مراحل . وقال الشافعى فى المشهور عنه : لا يشترط المحرم، بل يشترط الأمن على نفسها . قال أصحابنا : يحصل الأمن بزوج أو محرم أو نسوة ثقات . وقال بعض أصحابنا : يلزمها بوجود امرأة واحدة، وقد يكثر الأمن ولا تحتاج إلى أحد . بل تسير وحدها فى جملة القافلة وتكون آمنة . والمشهور من نصوص الشافعى وجماهير أصحابه هو الأول .

هذا، وكان رسول الله ﷺ يحث النساء بعد حجة الإسلام أن يلزمن قعر بيوتهن، وكان نساء النبى ﷺ كلهن يحججن، إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة، وتقولان : والله لا تحركنا دابة بعد إذ سمعنا رسول الله ﷺ يقول « هذه الحجة وعليكن بالجلوس على ظهور الحصر فى البيوت » رواه أحمد

---

(١) شرح صحيح مسلم ج٩ ص١٠٣ .

عن أبى هريرة[1] . وكان ابن عمر يقول : أذن عمر لأزواج النبى ﷺ فى الحج، وبعث معهن عثمان وابن عوف . فنادى عثمان فى الناس : لا يدنو منهن أحد ، ولا ينظر إليهن أحد إلا مد البصر وهن فى الهودج على الإبل . وأنزلن صدر الشعب، ونزل عثمان وعبد الرحمن بن عوف بذنبه، فلم يصعد إليهن أحد .

هذا هو حكم سفر المرأة للحج وما شرطه العلماء لذلك . وأما سفرها لغرض دنيوى لا معصية فيه كالتجارة والزيارة والتعلم فجعله الجمهور كالسفر للحج فى اشتراط الزوج أو المحرم أو الرفقة المأمونة أو استقرار الأمن فى الطريق وحيث تنزل .

وفى شرح النووى لمسلم « ج٩ ص١٠٣ » أن القاضى عياضاً نقل عن الباجى جواز سفر العجوز فى أى سفر بدون زوج أو محرم . غير أنه لم يوافقه على رأيه، لأن المرأة دائماً مظنة الطمع والشهوة، فلكل ساقطة لاقطة، والأسفار يجتمع فيها من السفهاء من لا يترفع عن الفاحشة . والإمام مالك حرم سفرها مع ابن زوجها، مع أنه محرم، لأن كثيراً من الناس لا ينفرون من زوجة الأب نفرتهم من محارم النسب . وذلك لفساد الكثير بعد العصر الأول . غير أن عموم الحديث يرد عليه .

هذا، واشتراط الرفقة المأمونة هنا آكد فى الأمور غير الواجبة، لأن قصد الحجة فيه انشغال، إلى حد كبير، عن التفكير فى السوء، فكيف بهذه الأسفار التى ليس فيها ما يساعد على العفة؟ بل قد يكون فيها ما يبعث على الشر ويغرى بالفساد، والوقائع فى سفر المرأة وحدها أو مع رفقة غير مأمونة، للرحلات والعلم تؤكد ضرورة الأمن عليها، فالشرف أغلى ما يحرص عليه المسلم الغيور .

* * *

---

(١) كشف الغمة ص٣٧٣ .

الباب الرابع

السفور

جاء في لسان العرب في مادة «سفر» أن أصل المادة هو الكشف، فإذا قيل: سَفَرت الريح الغيم عن وجه السماء سَفْرا فانسفر، فالمعنى فرقته. وسمى المسافر سافراً لكشفه قناع الكنّ عن وجهه، ومنازل الحضر عن مكانه، ومنزل الخفض عن نفسه، وبروزه إلى الأرض الفضاء. ويقال: سفرت أسفر سفوراً خرجت إلى السفر، فأنا سافر. وإذا ألقت المرأة نقابها قيل سفرت فهي سافر بغير هاء. وسفرت المرأة وجهها إذا كشفت النقاب عن وجهها تَسْفر سفوراً. وجاء في موضع آخر: سفرت المرأة نقابها تسفره سفوراً فهي سافرة، جَلَتْه.

فالسفور هو كشف المرأة النقاب عن وجهها، ويقال: هي سافر أو سافرة. وأقصد بالسفور هنا ما هو أعم من كشف المرأة وجهها، فالمراد به كشفها عن عورتها الشرعية وتعريض مفاتنها للغير، وعدم تنفيذ الحجاب بمقوماته المذكورة في موضعها فهو يشمل كشف العورة والاختلاط وما يتبع ذلك من لمس وكلام وغيرهما، وإن كان كشف المفاتن هو الظاهرة الواضحة في السفور.

وقد جاء الإسلام، كما قدمنا، بنظام دقيق للحجاب، وكان لنساء النبي ﷺ مزيد عناية منه، وسار المسلمون على نهج الدين في تنفيذ تعاليمه، وبخاصة في أيامهم الأولى. ثم توالت السنون، وتنوعت نظم الحكم، وتنقلت عاصمة الدول الإسلامية بين المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والآستانة.

وفي تلك العصور كان نساء الحكام في أرفع المنازل من حيث الحجاب. وكان نساء المسلمين بعامة يلتزمنه في الدائرة التي حددها الدين، وإن كان التشدد فيه قد أدى في بعض العصور إلى بعض التقصير في واجب المسلمين نحو المرأة، خصوصاً في عهد الخلافة العثمانية باعتبارها إطاراً للصورة الإسلامية، فقد عرف فيها نظام الحريم، ونفذ بشدة بالغة مع مفارقات عجيبة.

وكان الأمراء والخاصة فى الدول التى تظلها الخلافة يقلدون الخلفاء فى هذا النهج، والناس على دين ملوكهم. وحدث أن اتصل الشرق بالغرب بوسائل مختلفة، ونفذ إلى البلاد الإسلامية بصيص من نور التحرر النسائى الذى لعب دوره فى أوروبا، فابتدأ الشرق يقلده، واندفع بالمرأة إلى الحياة الصاخبة التى نشهد آثارها فى هذه الأيام.

والظروف التى أدت إلى السفور فى البلاد الإسلامية تكاد تكون متشابهة، وإن كانت تتفاوت سبقًا وتحمسًا، ويلاحظ أن السفور قد حدث فى البيئات المثقفة أولاً، أو فى المدن الكبيرة، ثم تعداها إلى البيئات الأخرى، وانتقل إلى المدن الصغرى والقرى، ونفذ إلى هذه الأماكن بشكل فردى أولا، ثم أخذ شكلاً جماعيًا، حتى عد فى بعض المدن تقليداً عاديًا وعرفًا جاريًا، ترمى فيه المتحجبة بالتأخر والرجعية والجمود.

ورأينا من نكسة الفكر أن الساترة لساقيها وذراعيها، مع كشف رأسها، تعد محتشمة بالنسبة إلى الحاسرة عن ركبتها ونحرها وما فوق ذلك. فالحشمة عندهم شىء نسبى، وهى فى نظر الدين بعيدة عن حقيقة الحجاب.

وسيكون حديثنا فى هذا الباب عن أسباب السفور وتاريخ الدعوة إليه، وعن آثاره وكيف نعالجه، وسنرد على الشبه التى وجهها المجددون إلى تشريع الحجاب.

* * *

الفصل الأول

أسباب السفور

السفور ، كما قدمنا ، خروج على ما وضعه الله من تشريع الحجاب، فهو معصية، والمعاصى، فى أغلب أحوالها، بل فى جميعها. تلبية لنداء الغريزة، ووقع تحت تأثير الشهوة. والشرائع تستهدف بنظمها مراقبة الغرائز، وتحديد مساراتها، وتوجيه نشاطها إلى الخير. فإذا كان الإنسان مؤمنًا بالله، مطمئنًا لعدالة التشريع، خائفاً من المعصية استقام أمره، وسيطر تدينه على غرائزه.

وسفور المرأة مظهر لنشاط الغريزة الجنسية وانحرافها، وهو فى أول أمره، شأن كل عصيان، يصحبه شىء من الحذر، لأنه خروج على القيود المفروضة والعرف المألوف. فإذا وجدت المرأة السافر أن غيرها يشاركها معصيتها قل حياؤها وحرجها، وإذا رأت ما يشجع عليه استهانت بالعرف والدين ومضت فى غوايتها حتى يأتى يوم يعد فيه السفور شيئًا عاديًا، بل يتطور الأمر إلى الدفاع عنه وتبريره،وجعله هو القاعدة الأصلية، والحجاب هو الشذوذ الخارج عليها،بمعنى أن يصير المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، بل أن يُدْعَى إلى المنكر وينهى عن المعروف.

وللسفور أسباب تدفع إليه دفعًا، وأسباب تشجعه وتقويه، وكلها نابعة من عصيان الله ومن اتباع الهوى. متفرعة عنه مستمدة وجودها وقوتها منه.

فمن الأسباب الدافعة إليه: سوء فهم الدين أو الجهل بالمفاهيم الصحيحة للدين. وعدم التوفيق فى تنفيذ تعليم الدين عن الحجاب، وما نتج عنهما من الكبت الذى عانت منه المرأة، إلى جانب التقليد لغيرها من السافرات الأجنبيات بالذات.

ومن الأسباب المشجعة عليه، ضعف التدين الذى أنتج ضعف مقاومة الفساد، ووجود دعاة له تبرره وتدافع عنه، ولنتكلم على هذه العوامل بشىء من التفصيل فنقول:

أولاً – سوء الفهم لتعاليم الدين وسوء تطبيقها :

الدين الإسلامى دين سمح، ودين التوسط والاعتدال، يتناسب مع الفطرة فى كونها مزيجًا من روح ومادة، وعقل وغريزة، فهو يعمل على وضع كل منهما فى موضعه الصحيح، وعلى تعاونهما فى إخصاب الحياة بالخير، والتوفيق بين مطالبهما فى حكمة وعدل.

والغريزة الجنسية لها نشاطها المادى المعروف، والعنصر الروحى له مظاهره، والحجاب المشروع ترويض للنشاط المادى ليلتقى مع النشاط الروحى، دون طغيان واحد منهما على الآخر، فإن الحياة الصحيحة المحققة لخلافة الإنسان فى الأرض تحتاج إلى كل منهما ولا تستغنى عن أحدهما، والشرع لا يعدو أن يكون تنظيمًا أو تنسيقًا بينهما فى مجال العمل للخير.

وقد فهم بعض الناس أن تشريع الحجاب وقف لنشاط الغريزة وقضاء عليه، وحرب شعواء على مطالب البدن ليخلو الجو للروح فتنفرد وحدها بالنشاط. وهو فهم خطأ جرهم إلى الانتكاس فى كثير من أفكارهم، وإلى ارتكاب الشطط فى كثير من تصرفاتهم.

إن الاعتقاد بأن المرأة خلقت للمتعة فقط، وإن الغيرة عليها واجبة بكل قوة اعتقاد خطأ، فإن الدين، وإن كان قد جعل منها متعة للرجل، قد جعل لها مهمة أخرى للنهوض بالمجتمع الصغير فى أسرتها، والمجتمع الكبير الذى تعيش فيه. فلا بد لها من التعلم لتفتح عينها على هذا الكون وتعرف وضعها فيه، وتشارك فى حدود اختصاصها فى عمل الخير وإخصاب الحياة بكل ما يشيع فيها النمو والازدهار.

والدين وإن كان يحمد الغيرة على المرأة، ذم التطرف فيها وسوء تطبيقها، والعرض وإن كان يؤخذ فيه بالأحوط، إلا أن التغالى فى ذلك يقلب الشىء إلى ضده. فلابد من مراعاة حكمة التشريع، واعتبار المقاصد العليا لكل ما يخططه الدين.

فى ظل الفهم الخطأ للدين منعت المرأة من إبداء رأيها فى الزواج، بل فى رعاية الأسرة والأولاد، وكان لا يسمح برؤية العروس حتى يوم الزفاف، وفى ظل الفهم الخطأ للغيرة على المرأة تأثر فن المعمار، فكان البيت يحتوى على « سلاملك وحرملك » أى على قسمين، قسم خاص بالمقابلات لرب البيت وقسم خاص بالحريم. وكان نظام المشربيات التى ترى منها المرأة من هو خارج البيت، ولا يراها أحد خارجه، وكان حرص بعض البلاد على أن تكون البيوت من طابق واحد، بل على ألا تكون بها نوافذ، وإن كانت فهى ضيقة وفى أعلى مكان فى الجدار...

وكان من سوء فهم الدين والشطط فى تطبيقه صرامة الخلفاء العثمانيين فى تطبيق الحجاب على المرأة، وابتداع نظام الحريم، الذين أرادوا به التشبه بالنبى ﷺ فى تحريم رؤية نسائه حتى وهن فى كامل الستر والحشمة، واشتطوا فى هذا التشبه ناسين الجوانب الإنسانية والدينية التى كان يعامل بها الرسول زوجاته، ويعامل بها المرأة المسلمة بوجه عام. وإليك كلمة عن هذا الحريم:

إن كلمة الحريم التى ترددها الألسن فى عصرنا الحديث، والتى اشتهر بها الأتراك، كلمة مصدرها عربى، ملاحظ فيه المنع والتحريم مع القداسة والتكريم، كالبيت العتيق الذى يوصف بالحرام والمحرَّم، وقد أطلق هذا اللفظ على البيت المخصص لسكن النساء فى البيوت. واتسع إطلاقه حتى أطلق على النساء أنفسهن.

لم يكن هذا المعنى بتطبيقه المميز له موجوداً فى عصر النبى ﷺ، لكن عندما تولى الحكم معاوية بن أبى سفيان، وبنى قصر الخضراء فى دمشق، خصص جناحًا فيه لسكن النساء، فكان هذا أول حجر وضع فى بناء نظام الحريم. وجاء ابنه يزيد فأكثر من شراء الجوارى وبناء القصور لهن من أجل متعته بهن، وانتهى عهد الفتوح الإسلامية وشغل الولاة بالترف، فكثر اقتناء الجوارى وبنيت لهن المساكن الفاخرة. وكانت كل جارية تسعى لامتلاك قلب الخليفة أو الوالى، فحصل التنافس ثم الغيرة، ثم القتل بالسم أو الخنجر، وأصبح الحكم كله فى يد النساء والموالى.

ولما آلت الخلافة إلى العثمانيين ترفعوا عن الزواج من نساء الشعب، فاستقدموا الشركسيات واليونانيات وغيرهن، وتزوجوهن وتمتعوا بهن. وكانت عادة السلاطين الأول ألا يتزوجوا إلا من أميرات مسلمات أو نصرانيات. وألا يجمعوا في عصمتهم إلا الحلائل الأربع اللاتي أباحهن الشرع. وكان آخر من سار على هذا النهج السلطان محمد الفاتح في القرن الخامس عشر الميلادي.

أما من جاء بعده من السلاطين فقد هجروا عادة الزواج، واكتفوا بالتسري بالإماء، لا يتخذون منهن أكثر من أربع في أول الأمر، ويعاملونهن معاملة الزوجات، على الرغم من عدم وجود عقد زواج بينهم وبينهن، كما يقول نبيه عاقل « مجلة العربي عدد ٦٢ ص١١٦ ».

ويقال: إن السلاطين كانوا لا يتقيدون بشروط الزواج الشرعي، بل يكفي أن يقول أحدهم: إن فلانة زوجتي فتكون زوجته. ويقال: إن بايزيد الأول المتوفى سنة ١٤٠٣هـ هو أول من تزوج على شروط الشريعة، كما يقول حسين مجيب المصري في كتابه « فارسيات وتركيات ».

ويقول أيضاً: لم يكن عندهم ملكة في الدولة التركية، لكن أم الملك هي المعروفة بانتساب الخليفة إليها، لأنها واحدة، أما غيرها فكثير، وتسمى « تاج المستورات ». ولا يصح المثول بين يديها إلا بعد الاستئذان والاطمئنان إلى رضاها، وكان الواقف أمامها يسبل طرفه، ويحني صدره، ويضع يديه عليه. وكان لكل زوجة حريم وحاشية تسهر على خدمتها. وكثيراً ما يغشى السلطان الحريم، فيجلس على كرسي، وتقدم له القهوة جوار فاتنات، يسمى أحسنهن « كوزدة » وتكون هي المحظية.

وللحريم رئيسة تسمى « خازندار أوستا » وهي في المحل الثاني بعد الأم، ولم يكن من السهل إدارة الحريم كما يجب، فرئيسة حريم مراد الثالث كان تحت حراستها أربعون محظية ومائة طفل وخمسمائة جارية، وكان من واجبها أيضاً أن تكون على اتصال بشئون الملك في الخارج، ومراقبة ما يجري في الحريم من الداخل.

ومما يذكر بهذه المناسبة، أن مستر «ليونونس» تحدث فى روايته عن الحريم، المطبوعة فى «بوسطن» سنة ١٨٧٢م عن مدينة «ننغ حرم» أى النساء المبرقعات فى قصبة «بنكوك» جاء فيها: إنه لا يسكن فى تلك المدينة إلا نساء وأولاد. وبها منازل النساء من العائلة الملوكية وزوجات الملك وسراريه وقريباته، مع جوار كثيرة وحشم. ولتلك المدينة أنظمة مخصوصة. ولها قاضيات وحارسات وضابطات وسجانات وسيافات وسمسارات ومعلمات وصانعات من جميع أنواع الصناعة. ولا يدخلها أحد إلا الملك والكهنة الذين يسمح لهم بالدخول كل صباح. ويقام عليهن حارسات منهن. والجوارى يسمح لهن بالخروج من المدينة لزيارة أزواجهن. أو لقضاء أشغال لسيداتهن. ولا يسمح للسيدات أن يخرجن منها إلا من الطرق المستورة المؤدية إلى القصور والهياكل والجنائن. ويقال: إن عدد النساء المحجوبات على هذا المنوال نحو تسعة آلاف امرأة، وهذه المدينة مثال للحريم ليس حريم فى الدنيا يعادله فى اتساع دائرته وصرامة قوانينه وحسن متنزهاته «دائرة معارف البستانى – مادة حريم» جاء فى أهرام ١ / ٦ / ١٩٨١م تحت عنوان: من ٧٥ سنة ما يأتى:

القدس: «الرجاء محمد» زار القدس فى الأسبوع الماضى أحد أمراء الهند «الرجاء محمد» ومعه أربع من نسائه وحاشيته وعددها ٧٥ شخصا. ولما وصل إلى «يافا» أقام على ظهر الباخرة خمسة أيام. ولما أراد النزول للبر أمر بتغطية السلم وتغطية الزوارق وتغطية المكان الذى أنشىء للنزول حتى لا يراه أحد، وهكذا فعل بالعربات والسكة الحديدية. حتى أنه لم يرض أن يكون الحوذية من غير رجاله. والخلاصة أن الرجل دخل القدس وخرج منها دون أن تقع عليه وعلى رجاله أشعتها، ودون أن تقع عين نسائه على أرضها «الأهرام ١ / ٦ / ١٩٠٦».

وكان لأولياء العهد حريم خاص وسط الحريم العام، فكان فى سجن داخل السجن. ولا يجوز لأحد أن يخاطبه إلا بإذن السلطان. وكان بعض أولياء العهد يأبون مبارحة حريمهم إذا فتح لهم الباب لتنسم الحرية، خشية أن يكون فى الأمر دسيسة من السلطان، يحاول بها قتلهم. وكان أغلبهم لا يغادرون حريمهم إلا إذا

جاءوا لهم بجثة السلطان الميت، وهنا يحتل حريمه، ويطرد حريم السلطان الميت إلى سراى قديم.

لقد كان الحريم مرتعًا للكيد والحسد، لأنه لا عمل لمن فيه إلا اجتذاب قلب السلطان. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كان تأثير النساء على السلاطين شديدًا، حتى إن الإيطاليات والصقليات كن يعرضن أنفسهن للبيع اختياراً لإثارة الدسائس فى الحريم. وهذه «يافا» الإيطالية جعلت السلطان يعدل عن حرب البندقية، وكانت على صلة بكاترين دى ميتشى. وهذه أيضًا «روكسلان» الروسية، قتل بسبب كيدها وزراء وأمراء. وسليمان الأول أعجب بفتى يونانى، لأنه يجيد العزف على الكمان، فقربه حتى جعله وزيره الأكبر، وسماه «إبراهيم باشا» فلم تطق «روكسلان» الروسية منافسته لها، فأغرت السلطان بقتله. بل جعلته يقتل ابنه مصطفى، لأنه من امرأة غيرها.

وإذا سخط السلطان على إحداهن وضعت فى كيس، وثقلت بحجر، ورميت فى البحر، واستمر ذلك إلى زمن متأخر. وفى ذلك يقول الشاعر «ولى الدين يكن» من قصيدة فى السلطان عبد الحميد:

لله أجساد ثوت — بين الجنادل والصخور
باتت على خشن الثرى — من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة — لهفى على تلك الزهور

وتقول «طلعت الرفاعى»: والتاريخ العثمانى يحكى قصة اليهودية المسماة «استير كيرا» التى قوى نفوذها فى البلاط العثمانى فى أواسط القرن السادس عشر لمدة نصف قرن.

ففى سنة ١٥٤٩م أصبحت ملتزمة لكافة جمارك الاستانة، حتى امتصت خزائن الدولة. وعملت وسيطة للوظائف مقابل رشوة، ولعبت دوراً كبيراً فى حياة مراد الثالث، مستعينة بيهودية أخرى. وعن طريقها كثرت النقود المزيفة، وشكاها السباعيون فى السنة الخامسة من جلوس السلطان محمد الثالث إلى

شيخ الإسلام (صنع الله أفندى) فهربت، ولكن قبضوا عليها فى دار يهودى، وقطعوها إربًا، وعلقوا لحمها على الأشجار للعبرة.

ويوضح هذا الكلام إسماعيل الشطى « مجلة المجتمع الكويتية فى ٢٠ / ٨ / ١٩٧٤م) فيقول : إن « استير كيرا » اليهودية الفاتنة قوى شأنها فى عهد سليم الثانى بواسطة عشيقته « نوربانو » اليهودية التى سيطرت عليه حتى أغرته بقتل أبناء سليمان القانونى وأحفاده فى مهدهم، بل ساعدت على عتق جميع المماليك الذين هم من أصل فرنسى.

وزاد نفوذ « استير كيرا » فى عهد مراد الثالث بن « نوربانو » بسبب خدمتها لمعشوقته البندقية « يافا » المشهورة فى السراى باسم « صافية سلطان ». وقد وصف « يوسف كوهين » أحد المحررين اليهود إذ ذاك (استير كيرا) بأنها المرأة التى يسجد لها كبراء الدولة، واستخدمتها « يافا » فى التجسس، واستفادت منها كذلك فى زمن السلطان محمد الثالث الذى تولى بعد مراد الثالث، الذى قتل جميع أخوته الذكور وعددهم تسعة عشر، وأغرق النساء الحبالى. وكانت نهايتها إحراقها مقطعة فى ميدان « أيت » كما أحرقوا ابنها الأكبر « إيليا » أما ابنها يوسف فقد أسلم فنجاه إسلامه.

وهكذا ظل الحريم يتصرف فى شئون الدولة، والنساء يحكمن من خلف الستار حتى تولى « الباديشاه عبد الحميد خان » ساكن قصر « يلدز ». وتتابع الأميرة « جويدان » فى مذكراتها عن الحريم فتقول :

إن الجوارى فى حريم مصر لسن إلا خادمات تسيطر عليهن امرأة هى زوجة السيد أو أمه أو رئيسة الجوارى، وكانت صاحبة السلطة تحرم على الجارية أن تبدو جميلة أمام سيدها بدافع الغيرة. وتفعل الأم ذلك حرصًا على ألا يتزوج ابنها من جارية. وتفعل رئيسة الجوارى ذلك أيضًا طمعًا فى أن تصبح هى السيدة.

وكلما علا شأن البيوت زاد عدد الجوارى فيها، لأن التقاليد فى الحريم المصرى تقضى بألا تقوم السيدة بعمل ما، وإن كانت السيدة « هانم أفندى » ترى

فى الخادمات اللاتى يحضرن الحمام والملابس للسيد خطراً، لكثرة احتكاكهن بالبيك أو الباشا، ولكى تأمن شرهن كانت تغدق عليهن الهدايا لكسب مودتهن، أو تنزل بهن سخطها لتجعلهن على حذر منها. ولكن النتيجة فى كلتا الحالتين غير مضمونة. ولهذا كان بعض السيدات يقمن بخدمة أزواجهن بأنفسهن، إما بدافع الحب وإما بدافع الغيرة.

ولا يكاد الحريم فى مصر يختلف عنه فى غيرها، والجهل نساء الحريم كن يؤمن بالخرافات، ويعتقدن فى السحر، وبخاصة فيما يجلب قلب الأسياد، أو يوقع الشر بالمنافسات، ولم يكن مسموحاً للطبيب أن يعود الحريم. فكان مرضى الحريم يداوين بطب التجارب، فإذا اشتد الخطر جاء الطبيب، ولا يسمح له برؤية المريضة شخصياً، والكشف عليها، بل يتولى أحد الأغوات الترجمة بينهما، فيصفون للطبيب أوجاعها وما تحس به.

أما التعليم فكان حظ الصبيان أوفر منه بالنسبة للبنات قعيدات البيوت، ففى الطبقة المتوسطة يرسلون الأولاد إلى المدرسة، وفى الطبقات العليا يرسلونهم إلى أوروبا للدراسة، أو يؤتى لهم بمعلمة أفرنجية لتعلمهم فى البيوت. وتتدخل الأم، على الرغم من جهلها، فى هذه الدراسة، وتضطر المعلمات أحياناً إلى هجر البيت فتأتى غيرها، ويحصل لها مثل ما حصل للأولى، وهنا ييأس رب البيت، فلا يأتى بمعلمات، ويحرم الأولاد من التعليم، وإذا أسند الدرس إلى معلم سعى السعاة إلى سيدهم، وطعنوا فى كفايته وأخلاقه.

هذا هو الحريم الذى أسىء استعماله. ولصرامة التقاليد التى فيه كانت نفوس النساء تغلى وتطلب النور والحياة، فلما وجدت الدعوة إلى السفور كان أول من شجعها نساء السلاطين وكبار الرجال، وكن إذا سافرن لزيارة قطر أجنبى أسرفن فى السفور عند غيبة الرقيب[1].

---

(١) أكثر هذه المعلومات مأخوذ من مذكرات الأميرة « جويدان » زوجة الخديوى عباس حلمى الثانى، ومن كتاب « فارسيات وتركيات » لحسين مجيب المصرى، ومن مقال نبيه العاقل بمجلة العربى عدد ٦٢ ص١١٦، ومن دائرة معارف البستانى.

هذا، وتوجد فى هذه الأيام صور من الحريم تتمثل فى حجز المرأة فى البيت حتى الموت، لا يتصل بها إلا زوجها، بل يحرم على أقاربها المحارم أن يزوروها، ولا تخرج من البيت إلا عند موتها، فإذا اضطرت إلى الخروج كان ذلك ليلاً وفى حراسة مشددة، وهى بالطبع لا تتعلم ولا ترى النور ولا تذهب للتداوى، بل هى ممنوعة من السفر إلى مكان آخر.

والمرأة فى مثل هذا الجو مسجونة فى سجن مظلم، محرومة من كل نور حسى ومعنوى، وما ذلك من الدين فى شىء، وهو ناشئ عن سوء فهم الدين والتطرف فى تطبيقه، ومعروف أن هذه المعاملة القاسية تجعل من اليسير انفجار المرأة واندفاعها للتحرر من كل قيد عندما تسنح الفرصة، وهذا ما حدث فى تشجيع التحرر من مصر، على ما سيأتى ذكره.

إن حجب المرأة بهذه الطريقة ليس تكميلاً للمرأة، بل تنقيصًا لها وحطًا من قدرها، فلا بد من إتاحة الفرصة لها لتتعلم، حتى تكون فى سلوكها على وعى، والوعى يحدد الفضائل ويرسم الطريق إليها، وأما أن تكون هذه الطقوس والاجراءات وسيلة لخلق الفضيلة فى نفس المرأة فذلك ما لا يسلم. يقول الشاعر:

قالوا: الحجاب، فقلت: تلك سخافة … أرأيتمو شمس الضحى تتحجب؟
قولوا: الفضيلة، لا تقولوا غيرها … فسلاحها عند الدفاع مجرب
لا خير فى حجب بغير فضيلة … فى الليل أكثر ما تدب العقرب[1]

إن حرمان المرأة من التعليم، حتى لو كانت فى بيتها، مبعثه الغيرة المتطرفة عليها، مع أن العلماء أجازوا نظر الأجنبى إلى المرأة التى يعلمها، سواء فى ذلك العلم الواجب والمندوب[2].

إن حرمانها من التعليم والمباحات الأخرى كان له أثره فى جهل الأمهات بواجب الأولاد وجهل المرأة بواجبات الزوجية والواجبات الأخرى، وفى شيوع الخرافات وتسلط الأفكار السيئة، وكان ذلك أيضًا من أسباب اتهام الدين بالجمود، وعدم صلاحيته لتطوير الحياة.

---

(١) شاعر رجعى «مجلة الأزهر مجلد ١٨ ص٨٧٦».
(٢) شرح الخطيب على متن أبى شجاع فى فقه الشافعية ج٢ ص١٢١، ١٣٧.

ثانيًا - الكبت :

هذا السبب في الحقيقة. أثر من آثار السبب السابق، فهو نتيجة المعاملة الشاذة عند تطبيق الدين الذى أسيء فهمه. والكبت، كما يقول علماء التربية، يولد الانفجار، ومنع الشيء يغرى به كما يقول الشاعر:

منعت شيئًا فأكثرت الولوع به وحَبٌّ شيء إلى الإنسان ما منعا

وترويض الغرائز، عن طريق إيجاد بعض المنافذ لها، يحول دون انفجارها. وهذا الكبت كان سببًا فى قيام دعوات إصلاحية، ترد على الاتهامات الموجهة إلى الدين من خلال هذه المعاملة القاسية، وتمادت هذه الدعوات فى ردها على هذا النقد، وبيان مرونة الدين، تماديًا أدى إلى الانفلات من القيد والتحرر فى الرأى وفى التطبيق، وتأويل نصوص الدين حتى توافق آراءهم التحررية، وذلك لإرضاء الأطراف المعترضة.

يقول المودودى: لقد استعمر الغرب الشرق والإسلام فانتبه المسلمون للنهوض، ورأوا أن يقلدوا غيرهم فى الفكر والعقيدة والخلق والنظام العام للحياة، وبدءوا يردون على شبهات الغرب على الدين، بتفسيره ليوافق ما عندهم، فطعنوا فى الجهاد وحاول المسلمون التملص منه، وطعنوا فى الرق وقالوا: إن الإسلام يحرمه، وطعنوا فى تعدد الزوجات، فأولنا فى الآيات لتوافقهم، وقالوا بالمساواة بين الجنسين فوافقناهم بأنه أصل دعوتنا، وطعنوا فى قوانين الزواج والطلاق، فقمنا بتعديلها، ولما عابوا على الإسلام بأنه عدو الفنون قلنا: بل الإسلام يشجع الفنون، وفى هذا الجو نشأت مسألة الحجاب، فحاول البعض أن يرتكن على بعض أقوال الفقهاء ليجيز شهودها للحرب وخروجها للأسواق والتعلم، ونادوا بتحرير المرأة.

ثالثًا - التقليد :

وأعنى بالتقليد أمرين، أولهما تقليد المسلمة لغيرها من نساء الكفار، سواء كن يعشن معها فى بيئتها، أم كن أجنبيات عنها، كالغربيات بالنسبة إلى

الشرقيات، وثانيهما تقليد الصغار للكبار، ونحن نعلم أثر التقليد في التربية والسلوك بوجه عام، بل أثره في العقائد والمفاهيم، وتوضيح ذلك في الجزء الرابع إن شاء الله عند البحث عن حقوق الأولاد.

(أ) لقد ظلت المرأة المسلمة محافظة على الحجاب قرونًا طويلة، لم يشذ منهن إلا القليل اللائى كان المجتمع يعدهن شاذات، ويلقين منه إنكارًا شديدًا، رأينا صداه في كتب الفقه والأخلاق التي تنعى على تبرج المرأة وخروجها على تقاليد الحجاب، وكانت السلطات المسئولة تتعاون مع الشعب في إنكار المنكر بوجه عام، وذلك عندما كان الدين مسيطرًا على الحياة في نظامها السياسي والاجتماعي وسائر النظم.

ولم يظهر السفور في المجتمع الإسلامي بشكل واضح إلا بعد احتكاك الغرب بالشرق، عن طريق الحروب والتجارة والسياحة وغيرها، حيث رؤيت الأجنبيات سافرات، أو نقلت أخبارهن إلى المسلمات، وكانت أخبارًا في مبدأ أمرها بالذات، يمجها الذوق الإسلامي بوجه عام.

ومعلوم أن المرأة الغربية سبقت المرأة الشرقية في عدم الاهتمام بالحجاب، وفي ا لتمتع بالحرية الواسعة، في الوقت الذي كانت فيه الشرقية، وبالأخص المرأة المسلمة، تعاني من التخلف والضيق بالمعاملة السيئة على غير الصورة المشروعة عنتًا كبيرًا، الأمر الذي نتج عنه حرمانها من حقوق كفلها الدين كالتعليم مثلاً، وولد فيها كبتًا حاولت التملص منه بأي منفذ من المنافذ، حتى لو كان محرمًا، مع أن المنافذ المشروعة كثيرة لو فهمها القائمون على أمرهن. ووجدت في نفسها ثورة عارمة على هذا الحرمان، وتاقت إلى التمتع بما يتمتع به غيرها من النساء.

ولقد كانت الحملة الفرنسية على مصر والشرق موقدة الشعلة في تمرد المرأة على وضعها الذي تعيشه، وظهرت منها بعض تصرفات شاذة خرجت بها على التقاليد الشرقية، بل وعلى الحدود الدينية، وبعد انسحاب الفرنسيين عادت الأمور إلى ما كانت عليه، وإن كانوا قد تركوا شرخًا في زجاج الأدب الإسلامي

عند المرأة، ثم جاء الاحتلال الانجليزي والاستعمار الغربي بوجه عام، وبدأت المعركة بين القديم والجديد، بين التقاليد الشرقية الإسلامية وبين البدع الغربية الاستعمارية، وكانت معركة المرأة من أهم المعارك التي وجهت إليها عناية كبيرة.

يروى لنا الجبرتي شيئًا عن أثر الاحتلال الفرنسي لمصر، في إفساد النساء والاستهانة بعفافهن والثورة على الحجاب، فيذكر أن نساء مصر كن قبل دخول الفرنسيين محجبات. ويصف أسرة الشرايبي بقوله: لا تخرج من بيتهم امرأة إلا إلى المقبرة، فإذا عملوا عرسًا أولموا الولائم، وأطعموا الفقراء والقراء على نسق اعتادوه، وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنساء الخلص.

ثم يصف الحال بعد وجود الفرنسيين فيقول: لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير، يسوقونها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة. فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن. «مختار الجبرتي ج٤ ص٤٢٣».

وطالما نعى الجبرتي على الفرنسيين شدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنهم أو ضربنهم بتاسومتهن، حذائهن، ويقول: ومما كان يزيد في النكاية أن ضباط الاخطاط كانوا يتزوجون بالمسلمات من بنات الأعيان، فتقبل المسلمات الزواج رغبة في سلطانهم ونوالهم، فيظهر الزوج حالة العقد الإسلام، وينطق بالشهادتين، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصى، بل تعدى إلي الجوارى السود، فإنهم لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجًا، فرادى وأزواجًا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم الجدران... «ج٤ ص٤٢٤ مختار الجبرتي»، وجاء في ص٤٥٤ إفسادهم لبنت الشيخ البكرى، وتبرؤ والدها منها،

والإذن بقتلها، وكذلك «هوى» زوجة إسماعيل الكاشف التى تزوجها نقولا القبطان، وقتلها عندما عثر عليها(1).

وفى مذكرات الأميرة «جويدان» زوج الخديوى عباس الثانى، تحدثنا عن أحسن الملابس التى تجلب من باريس، وكيف كان نساء الأمراء يسافرن إلى أوروبا ويتمتعن بما شاء لهن التمتع به، فإذا رجعن إلى بلادهن ألزمن حدود الحريم وطقوسه القاسية.

ويذكر الرحالة «أسامة بن منقذ» المتوفى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) عن الصليبيين أنهم يبيحون مخالطة المرأة للرجال والتصادق معهم مع علم زوجها، وربما انتحى بها الصديق فيكلمها وزوجها ينتظر، فإذا طال الحديث تركها ومضى هو، وهي مع الصديق.

وكما أثرت المشاهدة على المرأة الشرقية أثرت فيها كتب الغرب والبعثات التى بعثتها الدول إلى أوروبا، وعادت محملة بالآراء والأفكار التحررية، مع الاجتهاد فى الدعوة إلى تطبيقها فى بلادنا، ومن تحمس منهم لنزع الحجاب كان يظهر فى كلامه طابع التقليد عندما يستشهد على رأيه، معرضًا عن الدين ونصوصه وأحكامه، كما أن المستعمرين والأجانب عمومًا كتبوا عن حالة المرأة الشرقية، ناعين إهمال تعليمها، ناقدين شيوع الحجاب وصرامته، ناسبين إليه كل تأخر يصيب المرأة والمجتمع، على ما سيأتى بيانه. ومن هؤلاء الكتاب «إدوارد وليم لين» الذى كتب عن أخلاق المصريين وعاداتهم بين سنتى ١٨٢٥، ١٨٣٥هـ.

(ب) أما تقليد الصغار للكبار فهو واضح فى محاولة التشبه بذوى المنزلة الكبيرة، لحاقًا بهم فى شرفهم، أو احتماء بهم فى سلوكهم، وقد لاحظنا أن السفور نبت أولا فى البيوت الكبيرة وعند الشخصيات المشهورة، من الحكام والأعيان، وغيرهم ممن اختلطوا بالأجانب وشاهدوا أحوال نسائهم أوقرأوا عنهن.

---

(١) اقرأ: عبد الرحمن الجبرتى، لخليل شيبوب.

والناس، كما هو معروف، على دين ملوكهم، وهنا تسارع النسوة إلى تقليد نسائهم بشعور من الاطمئنان إلى عدم النقد، والاعتزاز بالتشبه بالكبار.

ورأينا في أيامنا الحاضرة، أن بعض البلاد ما يزال فيها التقليد القديم، وهو الحجاب، مطبقاً بصرامة، وأن المجددين المتحررين بحثوا فى الوسيلة الفعالة لتطوير المرأة والانتقال بها إلى الحياة الجديدة، فما رأوا أجدى من أن تكون قدوتها فى ذلك زوجة حاكم الإقليم أو كبير المنطقة، فهى إذا سفرت وغشيت المجتمعات قلدها بقية النساء. وكان أولهن زوجات الملتصقين بهذا الحاكم أو الكبير فى العمل، ثم سرت العدوى كالموجة التى يحدثها الحجر حين يرمى فى الماء، وهذا أثر من آثار مركب النقص الذى تنطوى عليه جوانح المرأة بالقياس إلى غيرها ممن ترى فيهن مثلها الأعلى. ويشاهد هذا فى تقليد البنت لأمها، والتلميذة لمدرستها، والطبقات المتوسطة للطبقات العالية، وفى تقليد أهل القرى والمدن الصغيرة للمدن الكبيرة.. وهكذا. فرأينا مثلاً بعض النساء فى القرى أو المدن الصغيرة التى تحافظ على الحجاب، عندما يسافرن إلى العاصمة الكبيرة ينزعن الحجاب ويقلدن عامة النساء حتى لا يكدن يميزن عنهن، فإذا عادت إحداهن إلى بلدها لزمت الحجاب حتى قبل أن تصل، وهى تتمنى إن لم تكن قد عادت لتبقى فى جو المتعة التى تهفو إليها بعيداً عن عيون الناقدين.

ولعل مما يبرز أثر التقليد فى الأخلاق، ما نقل عن «فتيات الجيشا» فى اليابان، وكيف كانت خدمتهن للضيوف ذات تقاليد مرعية، وإن كانت من وجهة نظر الإسلام مرفوضة، إلا أن الاحتلال الأمريكى خرج بهذا التقليد عن آدابه الأولى التى كانت تتلقاها الفتاة لمدة عشر سنوات حتى تصلح لممارسة هذا العمل، فأصبحت بعد الاحتلال تمارسه بعد دراسة لا تتجاوز أسبوعين. وأصبحت المهنة فحشاً ودعارة، وكثرت «الكباريهات» وصارت المطاعم تكتب مع قائمة الطعام قائمة تكاليف الفتيات..[1] التى تصل إلى ٣٠٠ ين للفتاة الواحدة.

---

(١) آخر ساعة ٩/٧/١٩٥٢.

إن التقليد وهو ظاهرة اجتماعية نابعة من دوافع نفسية، سنة من سنن الكون، فليكن تقليداً في المجال الذى يوافق عليه الدين ويدعو إليه الخلق، ولا يجوز أن يكون تقليداً أعمى فى كل شىء، كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. والذين تورطوا من دعاة التجديد فى الدعوة إلى تقليد الغرب تنبهوا إلى سوء فهم الناس للدعوة فتبرءوا من ردود الفعل السيئة لدعوتهم، ونعوا على التقليد الأعمى غير المتبصر، ومن هؤلاء «منصور فهمى» الذى قال: إنى وإن كنت من الذين عملوا على تحرير المرأة، وناديت بذلك مع «قاسم أمين»، ولكن هذه أمانة جيل وتجارب عمر، تؤكد أنه لا يجوز أن نقلد الغربيين فى كل شىء، فى حين أن أوروبا لم تكسب شيئاً من إطلاق قيود المرأة. وكان علينا أن نستفيد من أخطائهم. ولو عاد «قاسم أمين» ورأى هذا التطرف الذى لا مبرر له لنادى بالحجاب. إننا إذا أشركنا المرأة فى أعمال الرجل بلا حدود فقد أضعنا نعمة التخصص بين الجنسين، فلكل جنس اختصاصه،والرجال قوامون على النساء(١).

رابعًا - ضعف التدين والمقاومة:

إن ضعف روح التدين بالنسبة إلى ما كانت عليه فى الأزمان السابقة ظاهرة عامة بين الرجال والنساء، وهى راجعة إلى أسباب عدة لا مجال لذكرها الآن، لأنه موضوع واسع يتصل بكل أنواع المعاصى وما أكثرها!! ولعل من أسباب هذا الضعف الجهل بالواجبات عامة، والدينية بنوع خاص، نتيجة لقلة التعليم وضعف الثقافة الدينية، إلى جانب العوامل الأخرى، كتسلط المادة والتقليد الأعمى، والوقوع تحت سيطرة الاستعمار السياسى والثقافى والاجتماعى ومغريات الفساد التى تاتى بها الأحداث وتتقلب الأيام.

إن ضعف روح التدين أنتج ضعف الاهتمام بمقاومة الفساد والنهى عن المنكر، الذى منه السفور، سواء منها المقاومة الذاتية النابعة من نفس المرأة، والمقاومة الخارجية الموجهة من الآباء وأولى الأمر والمسئولين عامة.

---

(١) مجلة «الحج» ربيع الثانى ١٣٧٧ نقلاً عن «آخر ساعة» عدد ١٧٧١.

ومقاومة الفساد لا تجدى إلا إذا قامت بها كل الجهود لسد جميع المنافذ التى يتسرب منها، فإذا قام بعض بواجبه، وأهمل بعض آخر، أو انتقل من ميدان المقاومة إلى ميدان الهجوم على من يقاومون فلا يرجى من وراء هذا الجهد الضعيف خير.

والمقاومون للفساد ينبغى أن يكون على رأس قائمتهم رجال الفكر والتعليم، فهم الذين يستطيعون أن يبينوا خطر الانحراف، وكذلك الأزواج والآباء الذين يباشرون الرقابة على تصرف الزوجات والبنات، وكذلك أولو الأمر على المستوى الرسمى الذين يضعون القوانين ويراقبون التنفيذ.

عندما كان العلماء والمفكرون والمصلحون يستطيعون تغيير الفكر بأيديهم وبألسنتهم معًا، كانت مقاومة الفساد ميسرة، وكان ذلك واضحًا عندما كانت هناك وظيفة المحتسب، التى يتولاها أرباب العلم، يراقبون بها تنفيذ أوامر الدين والدولة، ولهم سلطة العقاب على المخالفة. فلما سلبت منهم هذه السلطة العملية اقتصرت مقاومتهم على اللسان والتوعية، والتوعية لا تفيد إن لم تصحبها قوة منفذة. على أن اللسان ضيق عليه فى فترات من الزمن، ولم تعط له الحرية الكاملة لتغيير المنكر، بل إن أولى الأمر وعامة الناس لم يستجيبوا له، ومن هنا دخل الوهن على قلوب الكثيرين من الدعاة لعدم جدوى هذه المقاومة الهزيلة. ولتعرض أصحابها للأذى الشديد.

والأزواج والآباء ضعفت مقاومتهم لسفور من تحت أيديهم من الزوجات والبنات، وذلك لضعف شخصيتهم أو لرقة دينهم وتحللهم، أو لتقليدهم لغيرهم، أو لعدم تقديس الرابطة الزوجية والنظام الأسرى، أو لأسباب أخرى، وأصبح الرجل لا يستطيع مقاومة رغبة المرأة فى السفور وغيره، بل صار حاميًا لها ومدافعًا عنها، وقد يكون سلوكها متجاوبًا مع هواه هو أيضًا، ليتمتع كما تتمتع هى بالنظر إلى السافرات والاتصال بهن. هذا إذا لم تتطور حمايته للسفور فيدفع المرأة إلى المنكر الفاحش، ليكون وسيلة لتمتعه هو، أيضًا بمثل ما تتمتع به.

وإذا كان كل من الزوج والأب وولى الأمر المباشر لا يقاوم السفور، فهل يقاومه رجل أجنبى لا صلة له بالمرأة إلا صلة العضوية العامة فى المجتمع؟ إنه يقول: دعني وشأني، ومالي ولغيرى، لأنه لا يرى فائدة لانكاره، بل ولا يهمه ذلك، خصوصًا إذا كانت هناك قوانين تحمى الحريات الشخصية وتوسع مجالها. وتمنع الشخص من التدخل فى هذه الشئون، التى يقولون عنها: إنها شئون خاصة.

وأولو الأمر المسئولون عن نظام الدولة. ضعفت كذلك مقاومتهم للسفور لأمرين واضحين:

(أ) إما لإقرارهم لمبدأ الحرية الشخصية وعدم اعتبار السفور شأنًا عامًا أو منكرًا، وذلك طبقًا للقوانين التى وضعوها، وهى لا تستند كلها إلى الدين.

(ب) وإما لأن القائمين على تنفيذ هذه القوانين، على فرض أنها تحرم السفور، لا يهتمون به كثيرًا إلا إذا مس الأمن العام بسوء، وهم يكلون هذه المهمة إلى رجال الآداب، وقد يكونون غير مخلصين فى المراقبة، أو لعدة نزعات وأغراض أخرى لا يمكن معها مقاومة الفساد. والمقاومة إذا كانت بهذا الضعف فسحت المجال للسفور ولغيره من المنكرات.

خامسًا – حماية السفور وتشجيعه :

قلنا: إن الوازع الدينى إذا كان ضعيفًا، ووجدت عوامل مساعدة على الخروج على الآداب، ثبتت دعائم السفور واستقر أمره، فكيف يكون الحال لو انقلبت مقاومته إلى حمايته وتشجيعه؟

إن العوامل المشجعة للسفور تتلخص فى عاملين رئيسيين، هما قوة الدعاية له، وإيراد الشبه على الحجاب.

فالدعوة إلى السفور شديدة قوية، لها وسائلها المتعددة، وكل منها له

إمكانياته الواسعة[١] واستعداداته الضخمة، وهذه الامكانيات والاستعدادات تطغى بقوتها على المقاومة، حتى تكاد تميتها. فها هى ذى الأفلام السينمائية، وبخاصة منها المستوردة السافرة، والإذاعة المسموعة والمرئية، والصحافة وكتب الأدب المكشوف ، والجمعيات الرياضية والمؤتمرات النسائية، والحفلات المختلطة، وتشجيع السافرات بالمكافآت وتولى الوظائف الهامة وسائر أنواع التشجيع، وفرض زى غير كامل الحشمة لبنات المدارس، ووجود المدارس الأجنبية وتطبيق النظم الغربية على طالباتها فى التحرر والاختلاط، والحملات الشديدة على الحجاب، وتوجيه الاتهامات القاسية إليه، كل هذه الأجهزة بوسائلها المتعددة تدعو إلى السفور وتستنكر الحجاب، وتهزأ بالمحافظين والمحافظات، إلى جانب حماية القوانين للسفور، وعقاب من يجرؤ على التدخل فى الحريات، وتمسك الكبار به وتشجيعهم له، كل ذلك وغيره من العوامل التى تزيد انتشاره، وتحيله إلى أمر مستساغ، كأنه مشروع.

* * *

---

(١) كلمة إمكانيات، تكتب أحيانًا إمكانات، ويراد بها التسهيلات الممنوحة أو الموجودة بالفعل فى شيء من الأشياء، وهى فى أغلب الظن ترجمة للكلمة الأجنبية «بوسيبليتيه» فى اللغة الفرنسية مثلاً. وهى مأخوذة من كلمة ممكن أو إمكان، التى تحمل معنى عدم الاستحالة، ومعنى التيسير.

الفصل الثانى

الدعوة إلى السفور

لقد كان السفور أولاً تقليداً، ثم جاء قوم دعوا إليه وشجعوه، وكان من أسبق الدول الإسلامية التى بررته مصر.

إن البعثات التى أوفدها «محمد على» إلى أوروبا، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، اطلعت على نظمها وعاداتها، وأعجبت بالكثير منها، وكان من ضمن ما نقل وحاز إعجاب البعض تعليم المرأة واشتراكها فى خدمة المجتمع، وتحررها من القيود المفروضة عليها. التى كان يمثلها نظام الحريم التركى. كذلك تأثر بعض المفكرين فى مصر بما قرءوا عن نظام الغرب وعاداته ووضع المرأة فيه، كما ظهرت كتابات تنقد المجتمع المصرى، وتعيب عليه حجاب المرأة، وتنسب تأخره إلى تعاليم الدين. فهب هؤلاء المفكرون ينادون بتحرير المرأة، ويدفعون الشبه عن الحجاب، أو يطالبون بإلغائه.

وممن نادى بذلك رفاعة الطهطاوى المتوفى ١٨٧٣م، وعلى مبارك المتوفى ١٣١١هـ، وجمال الدين الأفغانى المتوفى ١٨٩٧م، ومحمد عبده المتوفى ١٩٠٥م، وقاسم أمين وسعد زغلول، وفارس نمر ومرقص فهمى المحامى، وإبراهيم اللقانى، والمويلحى المتوفى ١٩٣٠م وغيرهم.

غير أن كثيراً من هؤلاء كانو يدعون إلى إصلاح المرأة فى نطاق الدين، مع تصحيح بعض المفاهيم الدينية، لتسير مع دعوتهم الإصلاحية.

وكان أبرز هؤلاء فى نشاطهم وأكثرهم كتابة وأشدهم تحمسًا هو «قاسم أمين» الذى ألف فى ذلك بعض الكتب، فكان بنشاطه أساسًا أو منطلقًا للمناداة بعده بتحرير المرأة، ولاندفاعها الجارف إلى التمتع بحريتها فى غير وعى ولا تبصر. ولهذا سأذكر ترجمة موجزة له تلقى بعض الظلال على الدوافع التى دفعته لمسلكه فى تحرير المرأة.

قاسم أمين :

ولد فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣م فى ضاحية « طرة » جنوبى القاهرة، حيث كان يقيم أبوه الأميرالاى « محمد بك أمين » فى عسكر مرابط هناك . وأبوه من أسرة تركية، تولى بعض أفرادها « السليمانية » من أعمال العراق، وظلت الأسرة تقوم مدة بهذه الولاية حتى ظن أنها كردية .

وولد أبوه فى السليمانية، وسافر إلى الآستانة، ثم جاء إلى مصر. فولد له فيها ابنه قاسم . تعلم قاسم فى مدرسة ابتدائية بالاسكندرية، ثم دخل المدرسة التجهيزية بالقاهرة « الخديوية الآن » ثم مدرسة الحقوق والإدارة، فنال شهادة منها فى ٢٤ من أكتوبر ١٨٨١م . وسافر فى بعثة إلى فرنسا، وأتم دراسته فى كلية الحقوق فى « مونبلييه » وعاد إلى مصر فى ٢٥ من أغسطس ١٨٨٥م فاشتغل مساعدا للنيابة المختلطة فى أول ديسمبر ١٨٨٥م ، ثم دخل قسم قضايا الحكومة فى ٢٢ من سبتمبر ١٨٨٧م . ثم رئيس نيابة بنى سويف فى يونيه ١٨٨٩م، ثم فى طنطا، ثم عين فى ٢٦ من يونيه ١٨٩٢م مع سعد زغلول ويحيى إبراهيم نواب قضاة بمحكمة الاستئناف، وبعد سنين كان مستشاراً بالمحكمة حتى توفى بالسكتة القلبية فى ٢٢ من أبريل سنة ١٩٠٨م[١] .

فى سنة ١٨٩٤م[٢] تولى الرد على الدوق داركور الذى نشر سنة ١٨٩٣م كتابه « مصر والمصريون »، ونقد فيه حال المرأة المسلمة، ناسباً عدم تمتعها بالحرية إلى الدين، وكان رد قاسم رداً منصفاً اتخذ فيه الدين والأخلاق الشرقية سلاحاً له، فنعى على النساء اللاتى يشتغلن فى أوروبا بالدسائس والسياسة، وقال : إن النساء لا يستفدن من الاشتغال بأشغال الرجال، بل يخسرن كثيراً من جمالهن،

---

(١) تزوج سنة ١٨٩٤ وسنه إحدى وثلاثون، وكانت زوجته تسمى « زينب » بنت أمين توفيق أمير البحر التركى، ولم تكن ثقافتها فى مستواه، وولدت له بنتين، الكبرى واسمها « سيدة » تزوجت بعد وفاته بمستشار، والصغرى واسمها « جلسن » تزوجت بضابط بمصلحة السجون « الأهرام ١١ / ٩ / ١٩٧٨ » .

(٢) فى أهرام ٢ / ٣ / ١٩٦٧ تحت عنوان « منذ ٧٥ سنة » فى هذا التاريخ نفسه (٢ / ٣ / ١٨٩٢) أن قاسم أمين ألف كتاباً عن المصريين رد فيه على اتهامات داركور .

ويخسر المجتمع أيضًا. ويستحسن عكوف المرأة على تربية أولادها، ويفضلها على امرأة تلقاه فى الطريق تهرول وتحت إبطها كتاب، وعندما تقابله تضرب على كتفه وتحييه. وينعى على قوانين أوروبا فى عدم أهلية المرأة للتصرف. وذكر أن حكمة الحجاب وقاية من خطر الغريزة الجنسية، وعاب على الفرنجة فجورهم واختلاطهم وحفلاتهم، وذكر أن الاختلاط يهدد الزواج بالانفصال، وأن الزواج عندنا يعد مبدأ التمتع، وعندهم ختامه.

ويمثل هذا الرد رد «مرقص فهمى المحامى» فى روايته «المرأة فى الشرق» سنة ١٨٩٤م. غير أنه دعا إلى الزواج بين المسلمين والأقباط ولم يقبله الرأى العام من المسيحيين والمسلمين على السواء.

وقاسم أمين تحول بعد ذلك إلى داعية لتقليد الغرب فى تحرير المرأة، وكان ذلك بوحى من الأميرة «نازلى فاضل» حفيدة إبراهيم باشا، التى كان يتردد عليها الأدباء والمفكرون، لأنها غضبت منه لدعوته الشرقية الإسلامية وكانت تحب السفور والتملص من أسر الحريم على ما هو معروف. ويقال : إن تغيير موقف قاسم كان بايعاز من الشيخ محمد عبده، وأنه هو الذى ألف كتاب تحرير المرأة ونسبه إلى قاسم خشية ثورة الرأى العام عليه كرجل دين يتولى منصبًا إسلاميًا كبيرًا.

ويقول داود بركات فى ذكرى قاسم أمين «أهرام ٤ / ٥ / ١٩٢٨» أن دعوته إلى السفور والاكتفاء بالحجاب الشرعى كان إرضاء لنازلى، لتضمن قوة الحزب بنفوذ الأميرة فى صراعهم ضد قصر عابدين والخديوى عباس حلمى[١].

ويرجع بعض الكتاب أن كتاب تحرير المرأة (١٦٦ صفحة) الذى نشره

---

(١) جاء فى مجلة «الأمل» لمنيرة ثابت فى عدد مارس وأبريل ١٩٥٨ من المعلومات ما يؤكد أن الاستعمار له دخل فى الثورة على الحجاب، فإن «المندوب السامى» البريطانى كان يسهر مع نازلى حتى مطلع الفجر، بعد انفضاض ندوتها مع الشخصيات البارزة التى كان ينتخب منهم المندوب السامى من يشاء للوظائف الكبرى، وكان لا يجرؤ أحد منهم على عصيان «نازلى».

قاسم أمين سنة نيف وتسعين وثمانمائة وألف (٧ أو ٨ أو ١٨٩٩م) اشترك فيه أنصار المرأة وكتب كل منهم فصلاً[١] . وكانت الدعوة فيه إلى الاكتفاء بالحجاب الشرعى الذى يسمح بكشف الوجه واليدين « ص٥٤، ٥٥، ٦٣ طبعة ١٩٢٨م »، محاولاً أن يثبت أن الحجاب ليس من أصول الدين الهامة فى الإسلام. وعندما هاج عليه الرأى العام ألف كتابًا آخر، هو « المرأة الجديدة » (٢٢٩ صفحة) ونشره سنة ١٩٠٠م . رد فيه على من نقدوه وشرح الحرية باتساع، ضاربًا المثل بالمرأة الأمريكية، وتحمس لخروجها إلى العمل ومساواتها بالرجل[٢] .

وجاء فى ص٢٠٩ من هذا الكتاب قوله : إن الكل متفقون على أن حجاب النساء هو سبب انحطاط الشرق، وأن خلع الحجاب هو سر تقدم الغرب . واقترح إنشاء رابطة للآباء المثقفين لمطالبة الحكومة بتعليم الفتاة .

ويلاحظ أنه مع تحمسه لدعوته لم يرغم زوجته على السفور، لكنه طبقه على بناته من الجيل الجديد[٣] أحدث هذا الكتاب ضجة فرقت عنه أنصاره، ولم يبق معه إلا إبراهيم رمزى المترجم بوزارة الحقانية « العدل » . وظل قاسم متحمسًا لكتابه هذا حتى توفى فجأة وهو يخطب فى حفل أقيم لبعثة من الطالبات الرومانيات . فكانت آخر كلماته : كم أكون سعيدًا فى اليوم الذى نرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا، كما تزين باقات الزهور قاعات الجلوس .

وقد أهدى كتابه إلى سعد زغلول، فكان من المنفذين الفعليين لما فيه، ويبدو تحمسه لآرائه فى موقفه يوم أن أقيم له احتفال بعد عودته من منفاه حيث بدأ خطابه فيه بقوله : سادتى، وأرجو أن أبدأ خطابى فى حفل قريب بقول :

---

(١) يراجع كتاب « تطور النهضة النسائية فى مصر » للدكتورة درية شفيق والدكتور إبراهيم عبده ص٧٤، ٧٥ طبعة ١٩٤٥ .

(٢) وممن رد عليه « محمد طلعت حرب » من عمال الدائرة السنية الذى ألف كتاب « تربية المرأة » وذلك فى ديسمبر ١٨٨٩م « أهرام منذ ٧٥ سنة فى مصر – ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٤ » .

(٣) قاسم أمين لأحمد خاكى ومجلة المعرفة عدد ٢١٤ ويقال : إن شابًا زار بيته فلم يجده، فقال : أريد مقابلة حرمه فأبت فثار وقال : أليس يدعو إلى السفور فلماذا لا يطبقه على بيته؟

سيداتى، فلما كان الاجتماع الثانى حضر بعض النسوة محجبات، فامتدت يده إلى نقاب امرأة قريبة منه فى سرادق النساء، ونزعه عن وجهها، وأبى أن يخطب إلا إذا سفرن جميعًا[١].

وجاء فى أهرام ٢ / ٢ / ١٩٢٤ فى مخاطبته لوفد من الفتيات: إنى مبتهج بزيارتكن، وأعبر لكن بدورى عن سرورى برؤيتكن راغبات فى المعاونة فى العمل الاجتماعى والإدارى المفروض على الجميع، إننى من أنصار حرية المرأة، ومن المقتنعين بها، لأنه بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا[٢].

ويعزو بعض الكتاب تحمس سعد زغلول لتحرير المرأة أو عدم غيرته عليها والأمر بكشف وجهها واندماجها فى الحياة العامة إلى حالة نفسية خاصة به، فإنه لم يتزوج «صفية» كريمة مصطفى باشا فهمى رئيس النظار إلا وهو مستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية، واحتفل بعقد قرانه فى ٢٨ أو ٢٩ نوفمبر ١٨٩٥[٣] وتوفى ولم ينجب منها.

إن حركة قاسم أمين كانت نواة لحركة التحرر النسائية فى العالم الإسلامى، وأكثر كتاب اليوم دعاة للسفور على الرغم من لمسهم لآثاره الخطيرة. وكثير من رجال التعليم والفكر من أكبر الدعاة له إن لم يكن بالقول فبالعمل. وقد كان المؤمل فيهم أن يكونوا فى صف المقاومة، بل أول الصف، حدث خلاف بين كلية الآداب وكلية الحقوق بجامعة القاهرة، بسبب أن طلبة الحقوق كانوا يغشون «بوفيه» كلية الآداب لمعاكسة الفتيات. ولما سحب الحرس «كارنيهات» الطلبة، واحتج عميد الآداب على عميد الحقوق لعدم منع طلبته، رفض الأخير وقال: إن

---

(١) وفى مجلة آخر ساعة «٢٧/٨/١٩٧٥» لما كانت صفية زغلول مع سعد على الباخرة التى نقلته من المنفى إلى الاسكندرية قال لها سعد: ارفعى الحجاب فتدخل على الشمسى وواصف غالى وعارضا ذلك، لكن سعداً قال: إن المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع... ومن حقها أن ترفع حجابها اليوم، ورفعت صفية زغلول الحجاب.

(٢) كتاب تحرير المرأة فى الإسلام لمجد الدين حفنى ناصف طبعة ١٩٢٤م ص٣٧.

(٣) أهرام ٣/١١/١٩٧٠، ٢٩/١١/١٩٧٠ تحت عنوان «من٧٥ سنة فى مصر».

الجامعة لا قيود عليها «أهرام ١٣ / ٤ / ١٩٦٢»، لعل عميد الآداب كان يتكلم بمنطق الآداب، وعميد الحقوق كان يتكلم بمنطق الحقوق التي كفلت الحريات الشخصية وأساء الناس استعمالها، فكلام الأول كان بوحي من نتائج وثمار الشجرة التي غرسها الثاني بقانونه.

على أن بعض العقلاء والذين يريدون إصلاح حال المرأة لم يغفلوا الآداب الدينية والتقاليد الشرقية، ومنهم ملك حفني ناصف التي نهت عن الطفرة في الإصلاح، وسيأتي حديث عنها بعد، وكذلك بعض الجمعيات المهتمة بالشئون النسوية كجمعية السيدات المسلمات[١].

* * *

(١) أنشئت في العقد الرابع من هذا القرن برياسة «زينب الغزالي» وكان الغرض من إنشائها النهوض بالمرأة المسلمة من النواحي الثقافية والخلقية عن طريق المحاضرات والدروس، وقد انفصلت عنها بعض السيدات وكون جمعية أخرى بهذا العنوان، وحلت الجمعية الأولى في عهد الثورة المصرية لأسباب سياسية.

الفصل الثالث

آثار السفور

السفور القائم على عدم اتباع الإرشادات الخاصة بالحجاب كلها، لا بمعناه الخاص وهو كشف المحاسن والمفاتن، له آثار خطيرة على المرأة نفسها أولاً وعلى الرجل وعلى الأسرة وعلى المجتمع كله ثانيًا، وإليك بعض هذه الآثار:

١ - السفور يغرى المرأة بالتمادى فى التحلل من قيود الدين والأخلاق، لأنه تلبية لنداء الغريزة الجنسية التى هى من أقوى الغرائز فى الإنسان. فهو يغرى البنت بالتحرر من رقابة والديها، وفى ذلك ما فيه من الخطورة فى فترة الشباب، ويغرى الزوجة بالتحرر من سلطان زوجها، ويضيع معنى كونها زوجة له ومعنى كونه قوامًا عليها، ولو أفلت الزمام من يده، وترك لها الحبل على الغارب، استمرأت هذا المرعى وكان وراء ذلك من الفساد ما لا يخفى على عاقل.

٢ - التبرج يصرفها عن واجباتها الزوجية والمنزلية، ويغريها بالتمرد على الوظيفة التى هيأها الله لها، ويحبب لها الخروج من البيت لعرض مفاتنها، ولا شك أن إهمال الواجبات المنزلية خطر على مستقبلها ومستقبل زوجها وأولادها ومستقبل الوطن كله. وقد أحسنت بعض الحكومات الحالية صنعًا عندما خيرت المرأة بين الزواج والعمل فى الحكومة، وكان هذا فى ماليزيا، ورأت البيجوم «مريم هاشم الدين أحمد» عضو مجلس الخدمات الأعلى فى باكستان، ونائبة رئيسة الجمعية النسائية فى كراتشى، أن المرأة العاملة تطالب بإجازة طويلة لتتفرغ إلى تربية أولادها، بدل دور الحضانة، فبقاؤها فى البيت من حق أولادها. وشهد شاهد من أهلها[١].

وستأتى شهادات الخبراء بذلك. والمرأة التى أحبت الخروج وتركت بيتها

---

(١) أهرام ٣/ ١٠/ ١٩٦٣.

لعمل أو لغيره تمادت فى غلوها حتى طالبت أن يتعاون الرجل معها فى أعمال المنزل لتقضى أكثر وقتها فى العمل الخارجى، كأنه هو الأساس وعمل المنزل فرع، جاء فى أهرام ٤ / ٢ /١٩٦٣ أن الزوجات العاملات فى باريس يشتغلن ٩٠ ساعة فى الأسبوع، ورفضن تخفيف ساعات العمل، وطلبن أن يكون الحل هو مساعدة الأزواج لزوجاتهن فى أعمال المنزل.

٣ – سفور المرأة يؤثر على الرجل، كما أثر على المرأة، فهو يلهيه عن واجباته ومهامه، ويؤثر تضييع وقته فى الأمور التى تتعلق بالناحية الجنسية، فذلك أمر محبب إلى نفسه، يجد فيه متعته، بعيداً عن أعماله الجادة المرهقة، ناسيًا ما وراءها من كسب مادى وأدبى لا يعوضه بالنساء، فالزوج مثلاً يتبرم بالجلوس فى البيت مع زوجته وأولاده لمراعاة شئونهم، ويؤثر أن يمضى أكثر وقته فى الأماكن التى يشبع فيها غريزته وشهوته، ولو بمجرد النظر إلى النساء. والتاجر والعامل وذو المهن المختلفة يحاولون أن يمتعوا أنفسهم بالانطلاق من قيود العمل إلى حيث تكون الفتنة بألوانها المتعددة وأنواعها الميسرة، وأخطر ما يكون الانصرف عن الواجبات عند الشبان، وبخاصة طلاب العلم، فإن شبابهم له فورته وانطلاقه، وإن مهمتهم الخطيرة تقتضيهم صرف أكثر أوقاتهم فيها، والمتعة الميسورة مع إلحاح الغريزة تصرفه عن عمله الجاد وتغريه باللهو، وفى ذلك من الخطورة على مستقبله ومستقبل الوطن ما فيه، وحادث كلية الآداب وكلية الحقوق المتقدم دليل على ذلك إلى جانب الأدلة الكثيرة الأخرى، التى يلمسها الناس فى بيوتهم مع أولادهم الذين « يزوغون » من المدارس إلى دور اللهو ومعاكسة النساء فى الطرقات.

٤ – السفور يفتح الباب للرجل للتخنث والفتنة بالتجمل الذى يمسخه إلى امرأة أو قريب منها، كما يغريه بالخروج على الآداب وعدم الاكتراث بما يوجبه الحياء، فالألفاظ النابية التى يجذب بها الشاب انتباه فريسته، والكلمات الماجنة والأغانى المبتذلة، والاستهانة بالقيم، ومزاحمة النساء فى الأماكن العامة وتعمد

الاحتكاك بهن بكلام أو بغيره، والإغراق فى التأنق بالعطور والأدهان والسلاسل والزهور والملابس الشفافة والضيقة والمشجرة . . . كل هذه المظاهر لا تتناسب مع الرجولة دعا إليها سفور المرأة.

وإذا كانت حياة الشاب تبدأ بهذه الأخلاق المرذولة فإن سلوكه سيزداد عوجًا، وسيشيب على ما شب عليه. وهنا يكون العفاء على الرجولة التى هى ذخيرة الوطن والمجتمع الإنسانى كله. نعم يكون العفاء على الرجولة التى يتطور الخروج عليها إلى الشذوذ، ذلك الشذوذ الذى انتشر هناك فى الأوساط الغربية، وستنتقل عدواه إلى الأوساط الشرقية.

إن هذا الشذوذ تمكن فى الغرب حتى اضطرت بعض دوله إلى الاعتراف به رسميًا وعدم اعتباره جريمة. وللصهيونية العالمية بمخططها الإجرامى ضلع كبير فى ذلك، ولهذا الشذوذ مظاهر اهتم ببيانها المختصون، منها:

(أ) تعرية بعض الأعضاء الجنسية أمام الجنس الآخر، دون ممارسة الجنس بالطريقة السوية، وما أمر «الستيركنج» وهو الجرى أمام الناس مع العرى التام ببعيد.

(ب) الرغبة الشديدة فى رؤية بعض الملابس الداخلية للمرأة دون ممارسة الجنس مع المرأة.

(جـ) ارتداء الرجال ملابس النساء الداخلية للحصول على اللذة، دون ممارسة الجنس معها.

(د) تحرك الرغبة الجنسية بمجرد مشاهدة عملية جنسية تؤدى أمامه.

(هـ) استعمال العنف فى الاتصال بالمرأة عند عدم رغبتها.

(و) الاتصال بالحيوانات بدلاً من الإنسان .

(ز) الاتصال بين الجنس وجنسه، كالرجال مع الرجال، والنساء مع النساء[1].

---

(١) ملخص من مجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧١ للدكتور فاروق مصطفى.

وإليك بعض الأخبار فى هذا الشذوذ :

(أ) فى أهرام ٢٤ / ٤ / ١٩٦٣ ضبطت مدرسة فى باريس تعلم « الجنس » لمائة مراهق ومراهقة، مكانها قلعة مظلمة شمالى باريس تسمى ناديها « نادى الأرنب الصغير » فيها صور خليعة وخمور ويتعلم الشبان فيها الدروس عمليًا .

(ب) وفى أهرام ١٨ / ٣ / ١٩٦٤ برقية من القدس فى ١٧ منه أنه أدرج فى جدول أعمال برلمان إسرائيل اليوم مشروع قرار بشأن انتشار العلاقات الجنسية الشاذة فى البلاد، وهو يقضى بعدم اعتبارها جريمة فى حال قيامها بين الراشدين بمحض اختيارهم .

(جـ) وفى أهرام ١٢ / ٥ / ١٩٦٥ أن خمسة من الأساقفة وثلاثة من اللوردات طالبوا الحكومة البريطانية بأن تلغى القوانين التى تعاقب على الشذوذ الجنسى، ما دام برضا الطرفين . اهـ.

ومعروف أن كبار القوم فى إنجلترا كانوا يمارسون هذا الشذوذ . وقد ضبط « أيان دوجلاس هارفى » وكيل وزارة الخارجية وهو متلبس بهذه الجريمة مع جندى فى إحدى الحدائق العامة متجرداً من ملابسه، وكان عمر « هارفى » ٤٤ سنة وعمر الشاب ١٩ سنة . وكان الجندى يرتدى الملابس الرسمية، فيما عدا السروال والبنطلون، وهو يعمل حارسًا فى قصر « بكنجهام »[١] . ولعل انتشار هذه الجريمة هو الذى جعلهم يفكرون فى إلغاء عقوبتها .

(د) وفى أهرام ٥ / ٧ / ١٩٦٧ فى برقية بتاريخ ٤ منه أن مجلس العموم البريطانى وافق بأغلبية ٩٩ صوتًا ضد ١٤ على مشروع قانون بإباحة الشذوذ الجنسى بين الذكور البالغين، على شرط أن يكون ذلك فى أماكن خاصة وبعد موافقة الطرفين . وفى الخبر نفسه أن عدد المصابين بالشذوذ بين البريطانيين يتراوح بين نصف مليون ومليون شخص .

---

(١) جريدة الشعب ٢١ / ١١ / ١٩٥٨ .

(هـ) وفى أهرام ٦ / ٧ / ١٩٦٧ : أن شابين من المصابين بالشذوذ الجنسى عقد قرانهما على بعضهما فى كنيسة كاثوليكية فى « روتردام » بهولندا. فكأن الدين نفسه أو أصحابه يقرونه.

(و) وفى أهرام ٣٠ / ١١ / ١٩٦٧، وافق ٩٠ من رجال الدين الأمريكيين فى ندوة عقدوها فى نيويورك على عدم استنكار ممارسة الشذوذ الجنسى إذا كانت قائمة على عاطفة الحب. أفبعد هذا انتكاس للعقلية الأدبية فى القرن العشرين، الذى يعود بالناس إلى الجاهلية الأولى فى إتيان ما لعن الله به قوم لوط، ويكون ذلك بإقرار رجال الدين الذين يتبرأ الله منهم؟ ولنا أن نقول: ليس بعد الكفر ذنب.

(ز) وفى أهرام ١٦ / ٥ / ١٩٦٩، برقيـة من « أوتاوا » فى ١٥ منه: وافق مجلس العموم الكندى على إباحة الشذوذ الجنسى بين البالغين بشرط أن يتم فى أماكن خاصة وبرضا الطرفين.

(ح) وفى أهرام ٢١ / ١٠ / ١٩٦٩، برقية من واشنطن فى ٢٠ منه: دعت لجنة حكومية إلى إلغاء القوانين التى تحرم الشذوذ الجنسى فى الولايات المتحدة، أسوة بإلغائها فى بريطانيا، وقالت اللجنة: إن فى الولايات المتحدة عدداً يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين شخص من البالغين الذين تفرض قيود على تعيينهم بسبب شذوذهم، ولا بد من إلغاء هذه القيود.

هذه شهادات، ويوجد مثلها فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة، تدل على النتيجة المؤسفة لجموح الغريزة الجنسية، التى توفرت دواعى إثارتها أولاً بالنساء ثم انتهت إلى العلاقات الشاذة.

إن هذه الفوضى الجنسية زادها حدة الأخذ بمذهب الوجودية فى صورته غير الكريمة، ومع انتشار هذا المذهب فى فرنسا، فإن مصر لم تعرفه إلا فى سنة ١٩٥٤م، حيث نقلته « م.ب » من باريس، ودعت إليه، على الرغم من جهلها

لفلسفته، فالتف حولها الكثيرون. وكانت لا تتجاوز السنة السادسة عشرة. وهى «بنت ذوات» وأبوها مليونير، يملك أكثر من ٥٠٪ من الفنادق المصرية. تزوجت من فرنسى، ورحلت معه إلى فرنسا. وكان مركز نشاطها فى مصر «الشامبين كلوب» وتزعم الطائفة بعدها «أحمد كمال» وهو ابن إحدى أميرات الأسرة المالكة، ويقيم فى المعادى. وكان قد زار فرنسا وتأثر بالوجودية فيها[١].

د – السفور أساء إلى سمعة الزوج، لأن المرأة المتبرجة المنطلقة إذا كانت معروفة حكم الناس بسلوكها على سلوك زوجها، ورتبوا على ذلك نتائج كثيرة. تسقط هيبته من نفوسهم، ويعاملونه، إذا كان له اتصال بهم فى أى مجال من المجالات، معاملة خاصة تتناسب مع من لا يعرف الغيرة والكرامة.

ويقوى الحكم السيء على زوجها بسلوكها إذا كان يصحبها فى الطريق والمجتمعات، فذلك دليل قوى على رضاه بهذا السلوك وتشجيعها عليه، أو على الأقل دليل على ضعف شخصيته وعجزه عن التحكم فى شططها. بخلاف ما لو لم يصحبها، فقد يؤول سلوكها على أنه بغير رضاه، أو بغير علمه.

٦ – السفور يسيء إلى العلاقة الزوجية، وذلك بفتورها الناشئ عن انصراف الزوج إلى المتعة خارج المنزل، وإلى هجره طويلاً، وعن تحول قلبه عن زوجته لإعجابه بأخرى، ذلك الإعجاب الذى يجعله يندب حظه السيء الذى أوقعه فى الزواج بمن هى فى مؤخرة الركب فى نظره، وينعكس هذا الشعور على معاملته لها، وبخاصة أنها لن تكون فى ساعة من الساعات داخل بيتها فى المظهر الجذاب الذى رأى زوجها عليه المتبرجة، ذلك أن المتبرجة تحاول أن تكون فى أكمل زينتها، بينما تكون الزوجة فى بيتها فى زينتها العادية إن كانت ستتزين، لأنها ملت رؤية زوجها، وتكرر جلوسها معه، فهى لا تبالى كثيراً بإتقان زينتها، والجديد دائماً يجذب الانتباه، وكل إنسان يكيف شعوره وإحساسه ما جد فى حياته. والرجل الطلعة لا يسلم أبداً من تحول قلبه، ولو إلى حد ما، عن زوجته

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٧٧م.

التى يراها كل يوم فى شكل واحد، مع أنه يرى فى الخارج أشكالاً جديدة متنوعة وجذابة، ولا شك أن تحول قلبه عن زوجته ينعكس على معاملته لها وقد ينجم عنه مشاحنات ومنازعات، وهذا بدوره يؤثر على سلوك الأولاد. وقد ينتهى الأمر بالطلاق فتكون المصيبة أكبر على الزوجين، وعلى الأولاد أيضًا.

وقد يحدث أن يتزوج الرجل بمن أعجب بها مع إبقائه على زوجته الأولى، وكلنا يعلم الآثار المترتبة على حياة الضرائر، وبخاصة إذا كان الحامل على الزواج غير شريف، أو لا مبرر له تبريرًا قويًا.

هذا، وقد قال الخبراء: إن السفور يؤثر على الميل القلبى للزوجين فى بدء حياتهما الجديدة، ذلك لأن الزوج قد شبع من مثل هذا اللقاء، حتى فى أدنى صورة. فالعروس ليست شيئًا جديداً عليه، أو ليس ميله لها بالدرجة القوية التى كان ينبغى أن تكون بين اثنين بدءا بناء عش جديد، يرجى له أن يدوم. فإذا كانت العلاقة بينهما فاترة من أول لقاء فكيف يكون الحال فى المستقبل؟ وهى — كطبيعة كل شيء — تقل وتضعف بمرور الزمن.

وقد عبر بعض الكاتبين على ذلك بقوله: إن الزواج فى البيئة الإسلامية المتحجبة هو مبدأ التمتع، أما فى البيئات الأخرى غير المحافظة فهو نهاية التمتع. وشتان بين زوجة ترى زوجها، فى الصبيحة التالية لدخولها، ساكن الحواس جامد العواطف، كأنه راغب عنها، وبين من تراه فى فرح وإقبال ورغبة فيها.

وإذا كان السفور يؤثر على ميل قلب الرجل، فهو يؤثر أيضًا على قلب المرأة، وذلك لكثرة خروجها واطلاعها على رجال هم فى نظرها أحسن من زوجها، ولمعاملتها له على قدم المساواة من غير إحساس بأنها زوجته وأنه القوام عليها، ولكثرة النقاش فى ظل الحرية والمساواة، فى المسائل السياسية والفلسفية، وللمعارضات الفكرية التى قد تباعد بين القلوب.

٧ — والسفور كذلك يرهق ميزانية الأسرة، لأنه يتطلب كماليات من أجل الزينة، قد تؤثرها المرأة على الضروريات، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك عند ذكر فوائد الاستقرار فى البيوت.

ومن طريف الشعر في غرام النساء بالزينة، على الرغم من حاجتهن إلى القوت الضروري، وعلى الرغم من تخطي سن الشباب والأمل، قول الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون صبية ... وقد نحل الجنبان واحدودب الظهر

تدس إلى العطار ميرة أهلها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

تزوجتها قبل المحاق بليلة ... فكان محاقًا كله ذلك الشهر

وما غرني إلا خضاب بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابها الصفر[١]

٨ - السفور يصرف الشبان عن الزواج، وكذلك يصرف البنت عن الرغبة فيه ما دامت المتعة سهلة ميسرة. فالسفور يعطي الفرصة للرجل لينفس عن غريزته الجنسية بأية وسيلة من الوسائل، إن لم تكن بالاتصال الجنسي فبما دونه من نظر أو لمس أو كلام أو نحو ذلك، وهذا، من غير شك، يصرفه عن الزواج أصلاً، أو على الأقل عن التبكير به، وذلك لعاملين أو تحت ضغط فكرتين عنده:

أولاهما الشك فيمن يريد زواجها، فقد تكون على شاكلة غيرها ممن اتصل بهن في عدم الحفاظ على الشرف، والرجل، وإن كان يبيح لنفسه الاتصال بالنساء، لا يرضى لزوجته، غالبًا، أن تدنس شرفها أو عفافها بمثل ما يفعله هو مع النساء، كما يقول القائل:

وأترك حبها من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه

وثانيتهما عدم تقييد نفسه بالارتباط بزوجة واحدة، فالألوان أمامه متعددة مغرية وميسورة، وعدم التزامه بالتبعات والهموم التي يجرها تكوين الأسرة، ما دام لا يلتزم بمثلها في تمتعه الحر الطليق، على ما يظن، وإن كان هذا السلوك الأعوج له أخطار كثيرة لو عقلها لأعرض عنه، وآثر الحلال على الحرام، ولعل هذا الشعور هو الذي شجع الغرب على كثرة اتخاذ الخليلات بجانب الزوجة الواحدة، حيث لا تكون لهن التزامات كالتزامات الزوجة والأسرة.

---

(١) العقد الفريد ج٢ ص٧٩. وسيجيء تكميل لهذا الخبر في الجزء الثالث.

وذلك إلى جانب أن رؤيته للسافرة بأكمل زينتها قد يوقع فى نفسه أنها على مستوى اقتصادى واجتماعى يسهل لها اقتناء هذه الزينات، وأن مستواه هو أقل من مستواها، فكيف يتزوج بها وهو لا يستطيع الوفاء بمطالبها، ومعلوم أن هذه الفكرة عنها خطأ، فقد تكون الفتاة من أسرة فقيرة لكنها تؤثر كماليات الزينة على كل شىء، بل قد تكون هذه الزينة مستعارة تنصبها شبكة لاصطياد الفريسة، أو ترضى غرورها فى إدعاء أنها من وسط راق، أو على الأقل غير هزيل.

والحجاب معروف أنه يساعد على الزواج وتكوين الأسر، فالممنوع يغرى بطلبه، والمعروض بكثرة مهان تمل النفس منه أو لا تحترمه على الأقل، يقول الشاعر:

عرضنا أنفساً عزت علينا ... فهانت واستبد بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ... كذلك كل معروض مهان[1]

ويقول آخر:

منعت شيئا فأكثرت الولوع به ... وحب شىء إلى الإنسان ما منعا

٩ - السفور، كما يرهق ميزانية الأسرة، يرهق الميزانية العامة للدولة، فإن كثيراً من كماليات السفور تستورد، فى كثير من الدول، من خارجها، ويحول جزء من المال «الحر» خارج الدولة، مع حاجة الضرورات المحلية إليه.

١٠- السفور من الأسباب القوية المشجعة لإقامة الحفلات المختلطة لمناسبات كثيرة، وكل إنسان يعلم ما يحدث فى هذ الحفلات من سكر ولهو عابث واتصالات مريبة، وذلك كله ينعكس على الحياة الزوجية وعلى الحياة الاجتماعية بشكل عام.

---

(١) روى هذان البيتان فى بيت واحد:

عرضنا أنفسا عزت فهانت ... كذلك كل معروض مهان

وروى البيتان على النحو التالى:

عرضنا أنفسا عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ... ولكن كل معروض مهان

ومن أخطر هذه الحفلات حفلات اختيار ملكة الجمال، جمال العيون، جمال السيقان، جمال كذا، ملكة التفاح، ملكة العنب، ملكة الشواطئ . . . والحكام في الغالب من الرجال، وبدعة انتخاب ملكات الجمال ابتدعها «موريس دى فاليف» رئيس تحرير جريدة «بارى ميدى» الفرنسية سنة ١٩٢٠م، وانتشرت في أوروبا وانتقلت إلى العالم، كجزء من المخطط الصهيوني لإفساد العالم وتهيئته للاستيلاء عليه في كل مقدراته. «تقويم الهلال ١٩٣٣م ص٤٩».

جاء في أهرام ٤ /٣ /١٩٨٦م أن فكرة ملكة جمال العالم ظهرت سنة ١٩٥١م عندما طلبت الهيئات الرسمية في لندن المشرفة على مهرجان بريطانيا في هذا الوقت من رجل اسمه (إيريك دوجلاس مورلى) أن يقوم بالدعاية للمهرجان، فاقترح فكرة اختيار ملكة جمال العالم ليستقطب الأنظار إلى لندن، وعندما انتهى المهرجان تأسست شركة ملكة جمال العالم في «سموهر» بلندن.

١١- شجع السفور على كثرة بيوت الزينة، والتفنن في اختراع أنواعها، من أدهان ومساحيق وحلى وزينات أخرى في مواضع كثيرة من الجسم، وبأشكال جذابة لافتة مغرية، والمرأة مفتونة بها لا يمكنها أن تصبر حتى تنال منها قسطًا تظهر جمالها أو تكمل به ما نقص منه.

ولليهود أيضًا دخل كبير في هذا المجال، وفي غيره من المجالات التي تستغل فيها فتنة المرأة، كما سبق ذكره في عرض الحجاب قبل الإسلام. أخرج مسلم «ج١٤ ص١٠٩» عن سعيد بن المسيب قال: قدم معاوية المدينة، فخطبنا، وأخرج كبة من شعر، فقال: ما كنت أرى أن أحدًا يفعله إلا اليهود. إن رسول الله ﷺ بلغه، فسماه الزور، وسيأتي في النهى عنه حديث آخر عن معاوية بهذا المعنى. والزور الذى ذكره هو الشعر المستعار والخرق التي يكثر أو يطيل النساء بها شعورهن. كما قال قتادة.

وكذلك شجع السفور على ابتكار نماذج الملابس والتجديد فيها وبخاصة ما يبرز منها فتنة المرأة. وافتتحت من أجل ذلك دور كثيرة للأزياء، وأقيمت حفلات لعرضها على أجساد النساء اللاتى تخصصن فى فن العرض الجذاب. وسيأتى فى الجزء الثالث بيان خطر ذلك.

جاء فى أهرام ٢٨ / ١٠ / ١٩٦٢م: قدمت هيئة تدريس بأكملها فى إحدى مدارس إنجلترا استقالتها، بسبب سوء مظهر الطالبات وسوء تصرفهن. وذلك بعد أن أرسلت هيئة التدريس أكثر من مرة، تهدد أولياء الأمور بفصل بناتهن من المدرسة إن لم يذهبن بالزى المدرسى، وفى مظهر يليق ببنات المدارس، ولم يستجب أولياء الأمور. وظلت الطالبات اللاتى تتراوح أعمارهن بين ١٢، ١٥ سنة يذهبن إلى المدرسة بالكعوب العالية بدلاً من الأحذية «الزحافى» والشرابات النايلون الشفافة، بدلاً من الشرابات «السوكيت» البيضاء، والجيبات الضيقة التى تكشف عن الركبة، والبلوفرات الطويلة الزاهية الألوان، والماكياج الكامل بما فيه الظلال والكحل، وتسريحات الشعر المنقوشة، والسجاير بين أصابعهن.

وعند تقديم الاستقالة أعلنت هيئة التدريس أنها فشلت فى إصلاح هذا الجيل من الفتيات، وأن الآباء لم يتعاونوا مع المدرسة فى القضاء على هذه النزعات الهدامة فى نفوس بناتهن، وبما أن التعليم وحده بدون تربية لن يصلح من أمورهن فلا ضرورة له. ولما علم الآباء بخبر إغلاق المدرسة وباستقالة جميع المدرسين والمدرسات احتجوا وقالوا: لماذا تشكو هيئة التدريس من مثل هذه التصرفات الساذجة، مع أنها لا تعنى شيئًا لو قورنت بتصرفات الطالبات فى أمريكا.

وفى أهرام ٢٠ / ٥ / ١٩٦٩: فى «سيلان»[١] وصل الخلاف فى «المينى جيب» إلى البرلمان، وتحدث بعض الأعضاء عن وجود علاقة بين أخلاق المرأة

---

(١) سميت أخيراً «سيرى لانكا».

والجزء الذى تكشفه من ساقيها، وتكلم الرهبان البوذيون عنه، لمخالفته للتقاليد القديمة. وعقدت اجتماعات على مختلف المستويات لبحثه. ووزعت منشورات ضده، وفى الريف ضربت الفتيات اللاتى ارتدينه. اهـ.

وإذا كان هذا شعور بلد لا يدين بالإسلام، فلماذا لا يكون مثله أو أشد منه فى البلاد الإسلامية؟

١٢- السفور شجع على شيوع المخدرات والعقاقير المقوية لخدمة الناحية الجنسية، ورواج الخمور التى تقوم عليها الحفلات الماجنة. وهذا واضح معروف.

١٣- السفور شجع على شيوع الصور العارية ذات الأوضاع المغرية، وهذه الصور دخلت مصر أيام الاحتلال البريطانى، حيث كانت زوجات الجنود ترسل صورهن إليهم، فى أحط الأوضاع، بغية التلذذ بها. وتسربت الصور إلى الجمهور، وهويها الإقطاعيون والأغنياء، ثم مالوا بعدها إلى الصور الحية الفاتنة. ووجدت بعض الخليعات - الفرصة متاحة فاستحضرت ساقطات صورتهن فى صور خليعة، ونشرتها فأغرى بها الأثرياء، وانهالوا على محال أعمالها ليتمتعوا بأصحاب الصور، ثم طبعت مجلات فى باريس بها أوضاع الغانيات الفاتنات من الممثلات، للإغراء بالحضور لمشاهدتهن على الطبيعة[١].

١٤- وكذلك شجع السفور على رواج الأدب المكشوف بقصصه وأشعاره وأغانيه وتمثيلياته، وإخراج مجلات متفننة فى عرض هذا «الأدب» وتأليف كتب فى نظام المقابلات والتحايا والحديث والقبلات والرقص. حتى غطى هذا على كثير من الأدب الحقيقى الجاد، وانصرف الشبان بالذات إليه، وكرم الكاتبون فى هذا المجال لإبداعهم الأدبى كما يقال، وتقول مجلة البوليس المذكورة: إن الإرشادات المتحللة التى فى هذه الكتب كان من أقدمها كتاب «ابن كمال باشا» المعروف بكتاب «رجوع الشيخ إلى صباه» أو كتاب النفراوى[٢].

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٥٧.

(٢) من كتب الجنس: مفاخرة الجوارى والغلمان للجاحظ، جوامع اللذة لابن نصر، نزهة الأصحاب فى عشرة الأحباب، للسموال المغربى الإسرائيلى،نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب، =

بل افتتحت مدارس فى أوروبا لتعليم ممارسة الجنس، كنادى الأرنب الصغير، المشار إليه، وكمدرسة «فرانكلين» للدراسات المعاصرة التى افتتحت أخيراً فى شمالى لندن، تقدم بين مناهجها الدراسى للبالغين دروساً مسائية عن الجنس، تقدمها الدكتورة «توبى أونيز» وهى أستاذة جامعية فى علم الحيوان، عمرها ٢٩ عاماً، تركت عملها فى المجلس القومى لبحوث البيئة فى لندن، لتؤلف كتباً جنسية، من أشهرها كتاب «يوميات الهوس الجنسى» وتقول «توبى»: إنها سوف تتحدث لتلاميذها عن كل شىء، ابتداء من الفن والأدب الإباحى إلى الدعارة وتبادل الزوجات والأزواج، ويشرف على المدرسة ثلاثة من الأمريكان، ويرأسها رجل أعمال من مدينة «بوسطن» الأمريكية، اسمه «آل توبياس» ويعمل بها ٢٥ مدرساً ومدرسة، يقدمون دروساً فى مائة مادة مختلفة عن الجنس[١].

١٥- كما شجع السفور على ا لزنى، لكثرة الطرق المؤدية إليه وسهولتها، وترتب على شيوعه ما هو معروف من الآثار الخطيرة، كانتشار دور البغاء، ورواج تجارة الرقيق، وكثرة الأولاد غير الشرعيين، وكثرة حالات الإجهاض للتخلص من الحمل المحرم، وكثرة وأد الأطفال الناتجين عن الزنى، والشك فى عفة المرأة وفى نسب الأولاد، وانحلال القوى نتيجة للإفراط فى الشرب والسهر والاتصال الجنسى، وانتشار الأمراض السرية وغيرها. ولليهود دور كبير فى إفساد الأخلاق عن طريق إثارة الغريزة الجنسية، وفى وصايا التلمود الذى وضعوه تنظيماً

= لأحمد بن يوسف التيفاشى، كتاب الباهية والتراكيب السلطانية، لنصير الدين القدسى، رجوع الشيخ إلى صباه، لأحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا، تحفة العروس وروضة النفوس، للتيجانى، الإيضاح فى علم النكاح، الرحمة فى الطب والحكمة، كلاهما للسيوطى، الروض العاطر فى نزهة الخاطر، للشيخ النفراوى، فى القرن السادس عشر، ألفه لباى تونس حتى ينجى نفسه من القتل، أرجوزة ذات ٢٤٠٠ بيت (نزهة النفوس ودفتر العلم وروضة العروس فى أمور النكاح)، نشوة السكران فى صهباء تذكار الغزلان، أسطنبول ١٨٧٨م لمحمد الصادق حسن خان (هذه المعلومات من كتاب «الإسلام والحياة الجنسية» تأليف / عبد الوهاب بوحديبة بتونس) (مجلة الهداية السنة ٣ العدد ٤ فى يونية ١٩٧٦ فى تونس).

(١) مجلة صباح الخير ٢٥/٤/١٩٧٤.

لثورتهم على الأخلاق، يجب خلق جيل لا يخجل من كشف عورته، ووسيلتهم في ذلك شيوع الأفلام الجنسية ونشر البغاء، فأينما وجد البغاء فهو من صنعهم، سواء في حي السوهو في لندن، أو حي بيجال بفرنسا أو حي سان باولو في همبورج. «من كتاب مصطفى محمود – من أسرار القرآن».

وفي جو هذا الانحلال الذي انتشر في أوروبا تتباهى البنت المخطوبة بأنها غير بكر، وبكثرة من اتصلوا بها، كما يقول «بول بيرو» في كتابه، وهو كما يقول المودودي، مملوء بالأمثلة القذرة على التحلل والتحرر من قيود الأخلاق.

لقد كان البغاء موجوداً في عصور قديمة في تاريخ الإسلام، وإن كان بنسبة ضئيلة تختلف من زمن إلى زمن ومن بيئة إلى بيئة، والمقريزي يقول في خططه[1]:

إنه في سنة ٦٦٢هـ في ٩ من جمادى الآخرة، أمر «بيبرس» بإراقة الخمور ومنع الساقطات من مزاولة البغاء، وحطمت الحانات، وحبست البغيات حتى يتزوجن. اهـ.

وفي سنة ١٨٨٥م فرض الاحتلال الانجليزي على مصر أن تنظم منازل للبغاء، وأن تضع للنسوة سجلاً ونظامًا للعمل، كما هو الحال في أوروبا، وانتشر البغاء الرسمي والبغاء السري، وصار تجارة تبناها وأشرف عليها أحد الأغوات في حرم الخديوي إسماعيل، الذي ترك السراي والتحق بخدمة ثرى سوداني توفي وترك له نحو ألف جنيه وثلاثة منازل، أسس بها تجارة البغاء في الشرق، وكان اسمه «المغربي» بلغ عدد خدمه الخصوصيين مائة، وكان شبانه وشاباته أكثر من ثلاثة آلاف، ويمتلك من العقار نصف حي «باب الشعرية» وكان مركز نشاطه في منطقة الجامع الأحمر. عاش راهبًا لأنه «أغا» وكان يعاونه في نشاطه حكمدار القاهرة الانجليزي، والمشرف على بوليس الآداب «سنتي». وامتد نشاطه إلى لبنان وسوريا، وارتدى زي الامبراطور. ووضع على رأسه تاجًا من ذهب وماس. وكان

(١) ج١ ص١٦٩، ١٧٠.

الناس يظنونه من الأولياء ويتبركون به. وكانت متعته، مع أنه لا يشرب الخمر ولا يلعب الميسر، هي رؤية جيشه يمارسون العملية أمامه، متجردين من ملابسهم، وكان عمله مرخصاً به لغير القاصرات. ومات مسموماً(١).

صدر الأمر بإغلاق منازل الدعارة الرسمية سنة ١٩٤٩م، بعد أن كان عدد البيوت سنة ١٩٣٨ حوالى ٩٣٠ منزلاً مرخصاً، تحتوى على ٣٣٨٠ امرأة، منهن ٧٣٤ فى القاهرة وحدها. أما النساء غير المرخصات واللاتى يعشن فى الظلام فعددهن كان فى القاهرة وحدها ستة آلاف(٢).

لقد انتشر البغاء فى الغرب وانتشرت معه الآثار الخطيرة، وأتى به إلينا الاستعمار، وما زالت له آثار فى كثير من البلاد الإسلامية. ولما سأل ساسة أوروبا «أحمد وفيق» العثمانى ناقدين مشروعية الحجاب وعدم الاختلاط، قال: السر فى الحرص على الحجاب أن نساءنا لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن(٣).

وجاء فى مجلة «المختار» عدد نوفمبر ١٩٤٠م: أن نقص عدد الفتيات بالمدارس العليا فى نيويورك يرجع إلى التزام البيت، بمعدل فتاتين كل شهر، نتيجة الحمل بدون زواج، وأن نصف الأطفال غير الشرعيين الذين ولدوا فى العام الماضى وعددهم ثمانون ألفاً، قد ولدوا من فتيات تتراوح أعمارهن بين ١٥، ١٩ سنة، وأن حوادث هتك الأعراض تزداد، والأمراض السرية تزداد وطأتها بين الصغار.

وتشير الإحصاءات الرسمية وتقارير منظمة الصحة الدولية إلى أن الأمراض التناسلية، ومرض السيلان بوجه خاص، تنتشر بنسبة عالية فى مختلف أنحاء العالم، وأنه أصبح من غير الممكن السيطرة على انتشار السيلان. وعلى سبيل المثال فإنه يجرى فى الوقت الراهن علاج طفل أمريكى فى الخامسة من عمره من مرض تناسلى، انتقلت إليه العدوى من طفلة فى التاسعة من عمرها. وقد بلغت ظاهرة انتشار الأمراض التناسلية ذروتها فى الولايات المتحدة(٤).

---

(١) مجلة البوليس عدد ٤٨ فى ٣ مارس ١٩٥٧.
(٢) الأهرام ٢١/١١/١٩٥٩.
(٣) مجلة النذير عدد ٢٢٦.
(٤) الأهرام فى ٢٠/٢/١٩٧١م.

وجاء فى أهرام ١٦ / ١٢ / ١٩٧٠ ما ملخصه :

أذاعت فى يوم الثلاثاء ١٥ / ١٢ / ١٩٧٠ خمس عشرة دولة وإمارة عربية توصياتها للقضاء على ظاهرة البغاء ومكافحته. وكانت قد اشتركت هذه الدول فى ندوة علمية عربية، نظمتها «المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعى» بالاشتراك مع المكتب الدولى العربى لمكافحة الجريمة، والتى بدأت يوم الأحد الماضى فى القاهرة بمقرها فى الجامعة العربية، وهى اثنتا عشرة توصية منها:

١ - تحقيق الإلغاء الشامل للبغاء المنظم فى الوطن العربى.

٢ - إجراء بحوث ميدانية حول البغاء فى الوطن العربى، وأفضل الوسائل للوقاية منه ومكافحته .

٣ - تأهيل مرتكبى البغاء، وعدم الاعتماد على العقوبات وحدها.

٤ - اعتبار الإيداع فى مؤسسات التأهيل تدبيراً مفيداً.

٥ - إنشاء مؤسسات للوقاية أو أى تدابير وقائية أخرى.

٦ - مساهمة أجهزة الإعلام فى تربية النشء العربى، والحد من عرض كل ما يثير الجنس، وإدخال بعض برامج التوعية الدينية والاجتماعية والصحية فى دور التعليم.

٧ - تشديد الرقابة على الكتب والمنشورات والأفلام والمسرحيات وغيرها عن طريق هيئة رسمية للرقابة فى كل دولة تضم عدداً من المختصين ورجال الدين وعلم النفس والاجتماع والطب والفنون .

٨ - تخليص السياحة، على الرغم من أهميتها، من كل ما يساعد على البغاء.

٩ - القيام بعمل إجراءات لملاحقة الخارجين عن حماية الأخلاق.

هذا، ويلاحظ أن هناك اتفاقية دولية بشأن إلغاء الاتجار فى الأشخاص واستغلال دعارة الغير، موقعة فى «ليك سكسس» سنة ١٩٥٠م.

وقد اشترك في هذه الندوة : السودان، العراق، السعودية، سوريا، ليبيا، مصر، اليمن، الكويت،لبنان،المغرب، قطر، إمارات أبو ظبي والبحرين ودبي .اهـ.

وجاء في جريدة الشعب ٢٥ / ٢ / ١٩٥٨م : نشرت مجلة « مكولنر » الأمريكية مقتطفات من تقرير عن الحمل والولادة والإجهاض في أمريكا، وهو أول تقرير يضعه معهد الأبحاث الجنسية بجامعة « انديانا » منذ وفاة مؤسسه الدكتور « الفرو كينسى » صاحب كتابي « السلوك الجنسي لدى الرجل » و« السلوك الجنسي لدى المرأة » . جاء في التقرير : أن واحدة من كل عشر سيدات أمريكيات تحمل قبل الزواج، وأن حالات الحمل هذه، ما لم تؤد إلى الزواج السريع، تنتهى بالإجهاض الصناعى، بنسبة ٨٩٪ وإلى الولادة غير الشرعية بنسبة ٦٪ وإلى الإجهاض الطبيعي بنسبة ٥٪ .

وأضاف التقرير أن من بين جميع النساء الأمريكيات اللائى على قيد الحياة الآن، وتقع أعمارهن في الفترة الصالحة للحمل، من بين هؤلاء جميعًا واحدة في كل سبع تعرضت، أو ستتعرض لإجهاض صناعى قبل الزواج، وأن معظم السيدات غير المتزوجات اللاتى تعرضن للإجهاض يباشرن العلاقات الجنسية بعد ذلك، ولا يتوقف عن ممارستها سوى ٣٪ . وأضاف التقرير : أن ١٩٪ فقط من السيدات اللائى يحملن قبل الزواج يتزوجن أثناء الحمل . ولكن نصف هذه الزيجات يمنى بالفشل .

وأضاف التقرير أيضًا : أنه كلما كانت المرأة متدينة صارت أقل تعرضًا للحمل قبل الزواج « نيويورك . ى . ب — أ . ب » .

وجاء في أهرام ٣٠ / ٧ / ١٩٦١ أنه في سنة ١٩٥٩م ولد ٢٢١ طفلاً غير شرعى في الولايات المتحدة، أى بنسبة ٥٢ طفلاً في كل ألف طفل .

ومن هنا كما جاء في أهرام ١١ / ١ / ١٩٦٨، كانت تجارة الإجهاض ثالث تجارة في أمريكا بعد القمار والمخدرات، كما صرح بذلك دكتور «آلان جوتماشير» رئيس اتحاد تنظيم الأسرة في أمريكا الذى قال : إن مليون عملية إجهاض غير شرعى حدثت في العام الماضى . اهـ.

وجاء أيضًا فى أهرام ١٦ / ١١ / ١٩٦١ من لندن: يزيد عدد الأطفال غير الشرعيين فى أوروبا زيادة مطردة، فقد جاء فى التقرير الطبى السنوى الذى أذيع أمس، أن عدد الأطفال الذين يولدون من أمهات غير متزوجات قد تضاعف فى خلال عشر سنوات فى لندن. وأن من بين كل عشرة مواليد فى العام الماضى هناك مولود واحد غير شرعى. وجاء من «أوترخت» أن متوسط عدد المواليد غير الشرعيين فى هولندة أصبح ثلاثة آلاف فى السنة، وأن عدد الأمهات الصغيرات غير المتزوجات قد تزايد بدرجة مزعجة.

وفى أهرام ٤ / ٣ / ١٩٦٣: أصدرت الحكومة البريطانية تقريرًا رسميًا جاء فيه: أن نسبة المواليد غير الشرعيين قد زادت فى بريطانيا. وأعلن التقرير أن معظم الأمهات غير المتزوجات تتراوح أعمارهن بين ٢٠ سنة، ٢٤ سنة، وأن ٩٪ من مجموع المواليد فى مدينة «بريستول» الصناعية أبناء غير شرعيين، وأن ١٣ من بين كل ٤٠ أما غير متزوجة من طالبات المدارس.

وفى أهرام ٢٩ / ١٢ / ١٩٦٢: ظهر فى تقرير صدر فى لندن أمس أن طفلاً من بين كل ٨ أطفال ولدوا خلال العام الماضى فى لندن غير شرعى.

وجاء فى أهرام ٢١ / ١٢ / ٩٦٤: أنه تم وضع مشروع فى الدانيمارك بعدم جعل الخيانة الزوجية مبررة لطلب الطلاق.

وفى أهرام ١٧ / ١٢ / ١٩٦٩: فى «براكتل» بانجلترا أن رجلاً طعن آخر لأنه اكتشف علاقته بامرأته، فأنبه القاضى ووصفه بأنه عتيق الفكر، يجب أن يعتاد وجود صديقه مع زوجته، لأنه فى عام ١٩٦٩م.

إن الأجانب أنفسهم يشكون من أخطار السفور، يقول الدكتور «جراهام بكين» مدير عيادة علم النفس فى جامعة «هارفارد» الأمريكية: إن الدراسات التى أجراها عن علاقات الطلبة فى «جامعتى هارفارد، رادكليف» أوضحت زيادة خطيرة فى نسبة الطالبات اللاتى فقدن عذريتهن. وقال: إن هذه النسبة كانت سنة ١٩٣٨م نحو ٣٥٪ وأنها أصبحت عام ١٩٥٣ حوالى ٥٠٪. ويقول الخبر:

إن الدكتور لم يذكر كم أصبحت النسبة فى دراسته الأخيرة، التى أسماها : العلاقات الجنسية فى مرحلة انتقال . مكتفيًا بقوله : إنها زادت، وأن الدراسة تدل على أن الاتجاه إلى إقامة علاقات جنسية بين الطلبة قبل الزواج يزداد بشكل واضح، وأنه يعكس تغييرًا اجتماعيًا فى الولايات المتحدة «أهرام ٢ / ١١ / ١٩٦٣» .

وجاء فى المصدر نفسه أن المتاعب نشأت من السماح للسيدات بزيارة عنبر نوم الطلبة، مما كان يعتبر ميزة لطيفة قبل أن يساء استغلالها لتحويل غرف الجامعة إلى أماكن تتم فيها عمليات جنسية .

وفى تقرير خبراء السويد أن السويد تنحدر إلى كارثة اجتماعية، بسبب زيادة العلاقات الجنسية بين المراهقين «أهرام ٣ / ٢ / ١٩٦٤م» .

١٦- شجع السفور على قيام جمعيات وتنظيمات تطالب بمساواة المرأة بالرجل فى الحقوق العامة، بل فيما ليس من اختصاصهن، وسيأتى بيان ذلك وافيًا فى الباب الخاص .

١٧- كما ساعد السفور على تدخل المرأة فى الشئون العامة، ودس أنفها فى كل ركن من أركان الحياة، بل محاولتها مزاحمة الرجل فى ميادينه التى أعده الله لها، واستغلال أنوثتها فى قضاء مآرب كثيرة أثرت على البرنامج الصحيح للسلوك .

وإذا كانت المرأة، وهى فى حشمتها وأدبها، تؤثر على الرجل، كما سبق بيانه فى خطر الفتنة، فكيف بها لو كانت سافرة متبرجة، تتحدث مفاتنها فيلبى الرجل وتخضع كل جوارحه؟

يقولون : إن ابن الزبير كانت له حاجة عند معاوية، فاستشفع له ببعض نسائه فقضيت . فعير بذلك فقال : إذا تعذرت الأمور من أعاليها طلبناها من أسافلها . وقال الفرزدق :

أما البنون فقد ردت شفاعتهم　　وشفعت بنت منظور بن زيانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا　　مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا[1]

وقال ابن بسام فى رجل تقدم أمره بسبب امرأة:

نلت ما نلت يا دنىء بأم　　هى أعطتك رؤية الأمراء
فإذا عُدَّت الصنائع يوما　　كنت فيها صنيعة البَظْراء[2]

يقول الكاتب الانجليزى «دوجلاس» فى المجلة العلمية لجامعة كمبردج، تحت عنوان «الرجعية النسائية فى أمريكا»: إن المرأة الأمريكية، بحكم مساواتها للرجل واختلاطها به، تدير عصابات المجرمين السفاكين، ولا ترهب القانون، وتعمل وتسهر كما تشاء، وتندفع وراء الشهوات والموبقات، وتغرى الشبان إغراء مباشراً على ارتكاب الجرائم فى سبيل حبها، وتنشر الرذائل والفساد فى كل الأوساط. ثم تساءل: أليست هذه رجعية تعود بالمدنية إلى الوراء، بل أليست هى فوضى أخلاقية تستغلها المرأة باسم الحرية؟[3].

وفى مجلة رابطة الإصلاح الاجتماعى، عدد أكتوبر ١٩٤٦، يقول الكاتب الإنجليزى «سير شارلس جارنس»: منذ عهد غير بعيد كان الرجل فى إنجلترا حرًا فى إنفاق مال زوجته كله، وفى عرض زوجته فى الأسواق ليبيعها لمن يشاء، والتنازل عنها لرجل غيره مقابل بضع كؤوس من الخمر. ويقول: لا يصح للمرأة أن تساوى الرجل، فهى خلقت لتكون أنيسه، وهى بطلبها المساواة تتنكر لأصل خلقتها، فمشكلة حق الرجل على المرأة تقررت منذ الأزل فى الجنة قبل هبوط آدم إلى الأرض.

وفى كتاب «مرآة النساء فيما حسن منهن وساء» لمحمد كمال الدين الأدهمى: حديث عن الخيزران زوجة المهدى وأم الهادى والرشيد من خلفاء

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهانى ج١ ص٣٥٢.
(٢) المرجع السابق ص١٤٤.
(٣) مجلة الحج – رمضان ١٣٧٦هـ.

العباسيين، وفيه أنها تدخلت بعد موت زوجها مع الهادى فى شئون الحكم. ثم نهاها عن ذلك لكثرة المتوسلين إليها، وقال لها، كما فى النجوم الزاهرة ج٢ ص٦٤ ونقله عمر كحالة فى أعلام النساء: أمالك مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملى أو ذمى. ثم أراد أن يقتلها بطعام مسموم وهو الأرز، لكنها شكت فيه فأطعمت منه كلبًا فمات. فدبرت هى قتله، فقتله الجوارى.

وفى محاضرات الأدباء « ج٢ ص١٢٩ » إنها كانت وضعت سمًا فى بعض الخزائن وكتبت عليه: من تناول منه وزن دانق أعانه على الجماع. فلما ظفر به تناوله فمات فى مكانه.

وظاهرة غزو المرأة للمجتمع لها خطرها الذى لا ينكره أحد، ولقد حدث قديمًا أن الرومان فى عهد الامبراطورية أباحوا لها غشيان المجتمع، فكان خطرها جسيمًا تقدمت الإشارة إليه. ويقول محمد فريد وجدى فى كتابه عن المرأة المسلمة، وهو يحلل هذه الظاهرة عند الرومان: أنه لما امتد ملكهم وداخلهم الترف الذى لم يتم إلا باختلاط الجنسين وسفور المرأة حتى ملكت زمام السياسة وفسد المجتمع. فماتت همم الرجال، وخارت عزائمهم، تحولت أفكارهم، وفهموا أن المرأة هى سبب ذلك الفساد فعاملوها بما تستحق.

وفى كتاب « مرآة النساء » ص١٣٩: إن رجال جمعية الاتحاد والترقى الذين كانوا قابضين على زمام الحكومة التركية قلدوا « كاترين » زوجة بطرس الأكبر قيصر روسيا المتوفى سنة ١٧٢٥م فى اختلاط الجنسين، فبعثوا من « سلانيك » نساء يسمين « الدونمة » وهن من يهود بلاد الروملى، الذين كان السلطان عبد الحميد قد حرم عليهم الخروج من بلادهم والدخول إلى استامبول إلا بشروط قاسية، فاحتالوا وأظهروا الإسلام ليتمكنوا من الدخول، وسموا أنفسهم « الدونمة » أى المهتدين، وكان لهم نفوذ فى أيام الاتحاديين بعد إعلان الحرية سنة ١٩٠٨م، حتى سبب فسادهم قيام الجمهورية، وبوساطة تدخلهم كثرت،

السرقات والخيانات والفحش والخراب الذى ضجت منه البلاد . وهؤلاء النسوة المجلوبات وجدن قبولاً من السفلة فاتسع نطاق الفجور بسببهن[1] .

١٨- السفور جعل الناس يستغلون المرأة فى مآرب كثيرة، فى الصحف وأفلام السينما ودور التمثيل، والإذاعات المسموعة والمرئية، وفى الإعلان عن البضائع وجذب العملاء للتعامل مع المتاجر والمؤسسات، واستخدامها فى المرافق العامة المتنوعة كبائعات وعاملات فى الفنادق ومضيفات فى الطائرات وصارفات للتذاكر،وجمع التبرعات للأعمال التى تلبس لباساً خيرياً،وغير ذلك من المآرب .

ومن أخطر الميادين التى استخدمت فيها المرأة الميادين السياسية والحربية فى التجسس وتدبير المؤامرات، وقد تقدم نشاط اليهود فى هذا المجال، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة .

١٩- وأخيراً وليس آخراً، يشكل السفور خطراً كبيراً على الأمن، بما يسببه من احتكاك بالنساء وشيوع المخدرات وإطالة السهر والاضطرار إلى السرقات والاختلاسات لتوفية مطالب المتعة، وانحلال الأسرة وكثرة مشاكلها، وسهولة الطلاق والزواج من أخرى، وما يتبع ذلك من هتك للأعراض وحوادث قتل من أجل الشرف والتخلص من العار، إلى غير ذلك من حلقات السلسلة الطويلة المترتبة على عدم صيانة العرض وعدم التزام الحجاب الشرعى الكامل .

وقد قرر الدكتور العباسى الصلة القوية بين الجريمة والعوامل الجنسية، كما وضحه فى العدد ١٨٣٤٩ من جريدة الأهرام فى ١٧ شوال ١٣٥٤هـ . وسيأتى مزيد توضيح لكثرة الفساد بسبب عمل المرأة خارج بيتها، وإهمالها المطالب الرئيسية التى خلقت من أجلها .

---

(١) يتحدث الكثيرون عن السيدة الأولى ذات الشخصية القوية والأثر البعيد فى سياسة «فيتنام الجنوبية» وهى« مدام نودين نو» زوجة أخى رئيس الجمهورية، التى يخافها الشعب، وقد ثاروا ضدها، وسنها ٥٨ سنة، وهى عضو فى ا لمجلس القومى، ورئيسة النشاط النسائى، وتعتبر، بطريق غير رسمى، قائدا أعلى للجيش ورئيسة الوزراء، بل حاكمة على رئيس الجمهورية الذى يخضع لأوامرها غالبا .

ولخطرها الشديد طلبت أمريكا من رئيس الجمهورية عدم تدخلها فى السياسة، وجاء أيضا أن هذه البلاد شهدت قيادات وزعامات نسائية سابقة، ففى القرن الأول بعد الميلاد قادت أخوات «تراانج» الثورة ضد حكام فيتنام الصينية، وأنجبت واحدة منهن طفلاً وهى فى ميدان القتال، ولم تكف عن الحرب ضد الصين . وفى سنة ٢٤٨م قادت فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها جيشا كاملا ضد المستعمرين، وهى على ظهر فيل «الأهرام ١٧ /٨ /١٩٦٣» .

الفصل الرابع

عـــلاج السفـــور

والآن وبعد أن شخصنا الداء وعرفنا آثاره وأعراضه، نريد أن نتعرف على العلاج الذى يناسبه، بحيث نرد المرأة والرجل معًا إلى حظيرة الشرف والعفة والأدب والكمال.

الواقع أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال، والإحساس بالمرض يحمل على التفكير فى علاجه، فإذا شعر الفرد والمجتمع بخطورة السفور أمكن أن يؤخذ بأيديهم إلى العلاج، ولكن المؤلم أن السفور أصبح عند كثير من الناس مظهراً أكيداً من مظاهر التمدن والرقى الذى يسيرون حتمًا فى طريقه، ولا يستطيعون أن يتخلوا عنه، فهم يعدونه ضرورة حتمية، ويرددون أن المجتمع أقوى من فكر الإنسان، بمعنى أن التيار العام الجارف لا يستطيع أحد أن يقاومه، وكما سبق بيانه حاول الناس تبريره، وجرءوا حتى أرادوا أن يطوعوا له الدين حتى يكون مؤيداً لهم، رامين علماء الشريعة بالجمود وعقم الفهم، وإذا صار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا أوشك أن يرميهم الله بفتنة تدع الحليم حيران.

وقد رأينا الأسباب الداعية إلى السفور والمشجعة عليه، والواجب أن يكون العلاج سداً لهذه المنافذ وقطعًا لهذه الأسباب. ولكل منها ما يناسبه ويصلحه، والعلاج فى نظرى يتلخص فى: التوعية الصحيحة، وتقوية جبهة المقاومة للمنكر، أى فى العلم والعمل، أو التشريع والتنفيذ. وبيانه:

١ - أن تكون التوعية قائمة على أساس تفهيم الناس لحدود الحجاب الشرعى كما هو وارد فى النصوص بدون إفراط ولا تفريط. وبالشكل الذى لا يكون فيه تعسف فى التأويل إذا كان هناك مجال للتخفيف، بشرط ألا يتعارض مع المقصود العام من التشريع، وهو منع الفتنة وتطهير المجتمع من الفساد، وصيانة المرأة والرجل من الانزلاق إلى السوء، وارتكاب أخف الضررين، وأولوية درء المفاسد على جلب المصالح.

كما تكون التوعية ببيان خطر السفور ودحض مبرراته، وبالنعى على التقليد الأعمى والجرى وراء كل جديد، وبالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتق الخارجين على حدود الدين، وعلى المساعدين لهم والساكتين عن وقفهم عند حدود الآداب المشروعة.

والدين له أثره الكبير فى تهذيب النفوس وبعدها عن المتع البهيمية وصرفها إلى المتع الروحية وتعلقها بالآخرة أكثر من الأولى، وهذا أمر بدهى يشهد له واقع المجتمع الإسلامى فى الماضى والحاضر.

ذكروا أن خوات بن جبير كان قبل إسلامه مفتونًا بالنساء ومعاكستهن وهو صاحب «خولة» ذات النحيين[1] التى تحايل عليها حتى أمسكت بكلتا يديها وعاءى السمن ثم تعدى عليها وهى عاجزة عن دفعه خشية أن يراق منها السمن، وهى امرأة من بنى تيم الله بن ثعلبة، ينتهى نسبها إلى بكر بن وائل.

وبعد أن أسلم خوات سأله النبى ﷺ عنها، فقال، وقد تبسم، يا رسول الله قد رزق الله خيرًا، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور[2].

ويروى أنه قال له: ما فعل بعيرك الشارد ؟ فقال: قيده الإسلام يا رسول الله، وقيل فى هذا البعير الشارد، أنه مر فى الجاهلية بنسوة فأعجبه حسنهن، فسألهن أن يفتلن له قيدًا لبعير له زعم أنه شارد، وجلس إليهن بهذه العلة. فمر به النبى ﷺ وهو يتحدث إليهن، فأعرض عنه. فلما أسلم سأله عن ذلك البعير الشارد، وهو يبتسم له، فقال خوات: قيده الإسلام يا رسول الله «الروض الأنف» ج٢ ص٩٦. «وأسد الغابة» فى ترجمته، وجاء فيها أن جلوسه مع النسوة كان بعد الإسلام فى مر الظهران، وحكاية «ذات النحيين» فى مجمع الأمثال للميدانى.

---

(١) النحى وعاء يوضع فيه السمن ونحوه، وأكثر ما يكون من الجلد «زق».

(٢) قيل: معناه: من النقصان بعد الزيادة، أو من فساد أمورنا بعد صلاحها، وأصله من نقض العمامة بعد لفها. يقال: حور العمامة إذا نقض ليها. ويروى: أعوذ بالله من الحور بعد الكون، أى الرجوع عما كان على حالة جميلة. وقيل معناه، نعوذ بالله من الرجوع والخروج عن الجماعة بعد الكور أى بعد أن كنا فى الكور أى الجماعة: يقال: حار عمامته إذا نقضها، وكار عمامته على رأسه إذا لفها «لسان العرب».

كما أن الدين يؤنب من أخطأ ويمنعه العود إلى المعصية، وقد تقدمت قصة أبى اليسر وآية ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ فى قبلة اختلسها من أجنبية. كما روى أن ثعلبة بن عبد الرحمن أرسله النبى ﷺ فى حاجة، فلمح امرأة أنصارى تغتسل، فكرر النظر إليها، ثم أحس بذنبه، فغاب عن النبى ﷺ هائمًا فى الوديان، حتى دل جبريل عليه النبى ﷺ فطلبه «أسد الغابة – ترجمته».

والذى يقوم بمهمة التوعية هو كل من يأنس فى نفسه القدرة عليها، ولا يشترط أن يكون من العلماء الرسميين المنوط بهم حفظ الشريعة والدعوة إليها، بل يستطيع ذلك من فقه الحكم فقهًا صحيحًا سليمًا، وأمكنه أن يدعو إليه بحكمة، وبهذا يمكن لكل فرد فى الأمة عنده هذا الاستعداد أن يقوم بواجب التوعية، ولا يعتذر عن القعود عنها، ملقيًا التبعة كلها على أفراد مخصوصين، أو هيئات معينة.

كما ينبغى أن يسد الباب فى وجوه المتطفلين على الدعوة الإصلاحية، المقحمين أنفسهم وسط المختصين أو المجيدين لها، ومن هؤلاء كتاب الصحف والباحثون الاجتماعيون الذين لا يفقهون تعاليم الدين، ويفتون الناس بغير علم، مستوحين أفكارهم من الغرب وأمثالهم من المجددين، فهؤلاء يضلون ويضلون من حيث لا يشعرون أو يشعرون.

وكل إنسان يستطيع أن يكون عنده وعى كامل بهذه الأحكام، والوسائل إلى ذلك كثيرة، منها قراءة الكتب المعتمدة، والمجلات المتخصصة، وسماع المحاضرات والإذاعات وخطب الجمع، ومنها توجيه الوالدين والأصدقاء. وتقليد الصالحين.

ومن المؤكد أن القدوة تفيد فى هذا الموضوع، لأنها توعية صامتة، بل هى فى نظرى توعية ناطقة بأعلى صوت وأقواه تأثيرًا، لا فى الأسماع بل فى العقول والقلوب، فإذا كان المنادى بالتزام أدب الدين فى الحجاب قدوة فى التزامه أسرع الناس إلى الاستجابة إلى توجيهاته وإلى تقليده، مؤمنين بأن ما يدعو إليه حق.

أما إذا كانت دعوة الداعى فى واد وسلوكه فى واد آخر فمن المؤكد أو من الظن الراجح أن دعوته لا يستجاب لها، وذلك لشك الناس فى صدقها، نتيجة لعدم ثقة الداعى فى فائدتها.

٢ – أما تقوية جبهة المعارضة والمقاومة للمنكر، فتكون بقيام كل فرد بواجبه فى هذا المجال، وهو إنكار السفور وتغييره، وذلك ليكتمل جناحا الدعوة، وهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد تحق الشق الأول بالتوعية، التى فيها أيضًا إنكار للمنكر باللسان، فليتحقق الشق الثانى بما هو أقوى من اللسان، أو بغيره من الأسلحة.

وإنكار المنكر يكون بالوسيلة التى بينها الحديث الشريف « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

والذين يستطيعون ذلك هم الذين أمكنهم أن يقوموا بواجب التوعية، كل فى المجال الذى يخصه، وبالقدر الذى يحسنه، فالذى يستطيع الإنكار باليد دون حدوث مضاعفات أخطر هم أولو الأمر، أى المسئولون عن رعاية المجتمع، لأن لهم من القوة والسلطان ما يمكنهم من مباشرة ذلك، وستكون الاستجابة سريعة، وهذا الإنكار يكون بمثل العقوبات البدنية والغرامات المالية على المخالفين، كما يمكنهم الإنكار باللسان بوساطة أجهزتهم المختلفة، وعند هذه الأجهزة استعدادات كبيرة تيسر هذه المهمة بالنسبة إليهم.

والواقع أن قوة السلطان ورهبته لهما أثرهما البالغ فى تقويم الإنسان ففى يده ركنا الدعوة وهما الترغيب والترهيب، أو القول والعمل، إلى جانب المسئولية الضخمة الملقاة على عاتق ولى الأمر. وإلى جانب أمر الله للرعية بوجوب طاعته فى كل خير يحقق السعادة للجميع، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[١].

---

(١) فى أهرام ١٨ / ٩ / ١٩٦٢ : أن القاضى بمحكمة المنيا الجزئية « عبد الحميد حمزة » اقترح تغريم كل سيدة أو فتاة لا تستر ذراعيها وساقيها فى الطريق العام خمسة جنيهات وقدم اقتراحه إلى نائبى رئيس الجمهورية : كمال حسين وحسين الشافعى وإلى أنور السادات، فأين أثره.

لكن حكام اليوم محتاجون إلى قانون يحرم السفور حتى يحق لهم تنفيذه، فقانونهم الوضعي يحميه لأنه من الحريات الشخصية، ومن هنا لا يرجى منهم خير ما داموا لم يحكموا بما أنزل الله. لكن هناك من أولى الأمر من يستطيعون تغيير المنكر دون عقابيل، وهم الأزواج والآباء والأمهات والأخوة ومن لهم ولاية شرعية على غيرهم كالأوصياء، وكذلك رؤساء المصالح والمربون والمشرفون على دور التعليم، فهؤلاء وأمثالهم يستطيعون حمل البنات على الحجاب وإرغام الزوجات والأخوات والعاملات والطالبات عليه، ومباشرة العقاب على من تخالف الآداب، وذلك باليد وباللسان معًا، وهؤلاء أشد تأثيرًا فى الإصلاح من غيرهم، لأنهم المباشرون والمطلعون والمراقبون عن قرب، والحاجة من تحت أيديهم إليهم. فتقويم هؤلاء للبنات والنساء عامة أسرع وآمن وأحفظ للكرامة والشرف.

أما غير هؤلاء من بقية أفراد الشعب فقد يعجزون عن الإنكار باليد إذا خيف منه فتنة أو ضرر، وبخاصة إذا كان القانون فى صف المخالفة للشرع. فلينكروا باللسان إن استطاعوا، وإلا فبقلوبهم التى يجب أن تتأثر لرؤية المنكر، وتمتعض لوجوده، وتعمل على عدم ترويجه بأية وسيلة، ومقاطعته بكل ما يمكن من المقاطعة. وهذه المقاومة السلبية سلاح يفيد كثيرًا إذا أحكم استعماله، وله شاهد من الشرع، فقد أمر النبى ﷺ الصحابة بمقاطعة من تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وشعروا تمامًا بخطئهم وتابوا فتاب الله عليهم.

إن أولى الأمر العامين، كما قلت، مسئوليتهم جسيمة، وأثرهم فى تطهير المجتمع من الفساد كبير. ومن أهم ما يجب عليهم فى هذا المقام هو تحديد القوانين التى تحمى الحريات، وتقييدها بما لا يصادم الشرع، وتحديد الآداب على ضوء الدين، لا على ضوء ما ينقل عن الغرب أو البيئات غير الإسلامية، أو العرف السيىء.

وعليهم أن يطهروا الأجهزة المختلفة من الاتجاهات المنحرفة التى تؤثر على

هذه الناحية، فتمنع الأغانى الخليعة والتمثيليات الهادفة إلى غرض سيء، والصور الفاضحة والبرامج الأخرى التى تدعو إلى فكر لا تتناسب مع الدين والأخلاق. وكذلك الحفلات المختلطة وما إليها.

والواجب أيضًا التنبه إلى الكتب التى تترجم عن الغرب وتتعرض لموضوع المرأة، فكتابها قوم يفلسفون السفور ويلتمسون له مبررات نفسية(١).

وبعد وضع هذه القوانين يجب أن تكون هناك رقابة شديدة على تنفيذها، وأن تكون هناك تشريعات تحمى من الخروج عليه. وأن تكون الرقابة على يد مؤمنين ذوى غيرة على دينهم ووطنهم، معروفين بالعفة والنزاهة، كما كان عليه نظام المحتسب فى العهود السابقة.

وكذلك يجب تمكين جهاز المراقبة من مباشرة عمله وحمايته من الأخطار، وسرعة إنجازه لمهمته، ولعل من المفيد فى ذلك أن تعطى لهم صفة قانونية بتحرير المخالفات وتوقيع العقوبات العاجلة على المخالفين، وكانت هذه المهمة من ضمن ما يقوم به المحتسب. فقد كان مشرعًا ومنفذًا فى وقت واحد، أو على الأصح كان عالمًا بالشرع مطبقًا له، وكان هذا فى الأمور الظاهرة، وقد أراح الدولة من عناء كبير، وعجل بالفصل فى المنازعات، وإليك بعض ما ورد عن نشاط المحتسب:

يقول الماوردى فى كتابه «الأحكام السلطانية» ص٢٤٩، ٢٥٠: إذا رأى وقفة رجل مع امرأة فى طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار، فما يجد الناس بدا من هذا، وإن كانت الوقفة فى طريق خال فخلو المكان ريبة، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها، حذرًا من أن تكون ذات محرم. وليقل: إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب. وإن كانت أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى، وليكن زجره بحسب الأمارات... إلى أن قال: فإذا رأى المحتسب فى هذه الحال ما ينكره تأنى وتفحص وراعى شواهد الأحوال، ولم يعجل بالإنكار قبل الاستخبار.

---

(١) انظر كتابى «الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه» ص ١٢٠ وما بعدها.

وكما قلت لا يكفى التشريع وحده، بل لا بد من التنفيذ والرقابة الدقيقة عليه. فكثيراً ما توضع القوانين ثم تهمل، أو تنفذ بطريقة هزيلة لا تؤدى إلى الغرض المقصود. وقد رأينا كيف كان النبى ﷺ يغير المنكر فى حينه، عندما لوى عنق الفضل بن العباس وهو ينظر إلى المرأة، وكيف كان عمر شديد الرقابة فى هذا المجال. فكان يضرب على تزاحم الرجال مع النساء فى أماكن الوضوء وفى الطواف، وخصص وقتاً لطوافهن، وباباً لدخول المسجد.

وقد مر أن النبى ﷺ كان ينصح النساء عند الخروج من المسجد بعدم اختلاطهن بالرجال، فيقول: «استأخرن فليس لكن أن تحققن الطريق». وروى عن أنس أنه قال: مر النبى ﷺ مرة بالطريق، وأمامه امرأة، فقال لها «تنحى عن الطريق» فقالت: الطريق واسع. فقال: «دعوها فإنها جبارة»[1]، وسيأتى نفى عمر لنصر بن حجاج الذى فتنت به نساء المدينة.

ومر معاوية بن أبى سفيان بالمدينة فرأى نساءها قد اتخذن الخرق فى شعورهن للزينة، بل اتخذن شعراً مستعاراً فخطب فى المسلمين ناعياً على العلماء غفلتهم عن هذا المنكر. محذراً المسلمين من التهاون فيه، فإن هلاك بنى إسرائيل كان بسببه.

أخرج مسلم «ج١٤ ص١٠٨» عن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع معاوية ابن أبى سفيان عام حج وهو على المنبر، وتناول قصة من شعر كانت فى يد حرسى، يقول: يأهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم». يقول النووى: فى حديث معاوية هذا اعتناء الخلفاء وسائر ولاة الأمور بإنكار المنكر وإشاعة إزالته، وتوبيخ من أهمل إنكاره ممن توجه ذلك عليه.

وذكرت «سميحة طاهر» أن المرأة فى أيام الفاطميين والمماليك إذا ظهر شىء من شعرها أو عنقها أو ساقها يغرم زوجها غرامة تتناسب مع القدر المكشوف «أخبار اليوم ٦ / ١٠ / ١٩٧٣».

---

(١) كشف الغمة ص٩٥.

إن الأزواج والآباء، كما قلت، عليهم مسئولية كبيرة، وتغييرهم للمنكر ميسور، وهو ليس مسئولاً فقط عن غذاء زوجته وبناته بل مسئولاً أيضًا عن التربية والتهذيب. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم: ٦]، والذى يقر الفساد فى أهله سماه الرسول ﷺ ديوثًا. فعن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال: « ثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء» رواه النسائى والبزار والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد. والديوث هو الذى يعلم الفاحشة فى أهله ويقرهم عليها «الترغيب ج٣ ص٣٧». وبسط مسئولية الآباء عن الأولاد، والأزواج عن الزوجات موجود فى الجزأين الثالث والرابع من هذه الموسوعة، وسترى هناك حديث عبد الله بن مسعود الذى رواه مسلم « ج١٤ ص١٠٥» لما نهى عن وصل المرأة شعرها، واعترضت عليه أم يعقوب بأن زوجته تصل، وأنكر ذلك، وقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها. معنى ذلك أنه يقوم بواجبه فى تهذيب الأخلاق بصورة عملية ليست قاصرة على مجرد النصح باللسان.

وإذا تهاون الزوج أو الوالد فليكن للزوجة والبنت وازع من ضميرها ودينها، فإن سكوت المسئول عنهما لا يبرر عصيانهما، ومن المؤلم أن بعض الأزواج قد ينتكس فهمهم وينتكس سلوكهم، فيرغمون زوجاتهم على السفور للسير بهن فى ركب التمدن. وفى هذا المسلك طعن فى غيرته ورجولته، كما يحدثنا ابن بطوطة عن نساء «أيوالاتن» فى آخر الكتاب.

والفرد من عامة الشعب لا يجوز له أن يتملص من المسئولية، ويدع السفور ينتشر، بل عليه واجب بقدر ما يستطيع، إن لم يكن باليد فباللسان أو القلب. وينبغى أن يكون إنكاره بالحسنى، بحيث لا يؤدى إلى فتنة، خصوصًا إذا علم أن القانون يحمى السافرة ولا يحميه. وليس له أن يباشر الإنكار باليد من باب أولى فى هذه الحالة. فهو من اختصاص ذوى السلطة الرسمية.

ولا بد من تعاون الأجهزة كلها، ومن اشتراك جميع الهيئات والطوائف فى مقاومة المنكر، فكما يقول الحديث الشريف « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر. ولا يفيد أبدا أن يقوم البعض بواجبه ويسكت البعض الآخر، أو ينقلب إلى داع إلى الفتنة محرض عليها، وهؤلاء خطرهم كبير. فإمكانياتهم واسعة والقوانين الوضعية تسندهم، بل تشجعهم. وفى الوقت نفسه تصادف دعوتهم هوى فى النفوس المريضة.

فإذا لم يغير المسئولون قوانين الحرية، ويضعوا تشريعًا يحمى الآداب كما يحددها الدين، وإذا لم تقف الجهات الأخرى فى ميدان الإعلام عند حدها — ضاعت الجهود التى تقوم بها العناصر الأخرى للمقاومة.

ولنذكر هنا قول الله سبحانه: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقول النبى ﷺ: « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها، إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا نستقى منه، ولا نؤذى من فوقنا!! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا » رواه البخارى عن النعمان بن بشير.

والواجب على كل إنسان أن يحترم من يراها محجبة، ويظهر ذلك بالمحافظة عليها وإكرامها فى الطريق وفى وسائل الانتقال، وفى الأماكن والمجتمعات التى تغشاها لحاجتها، كما يجب عليه أن يعبر للسافرة عن امتعاضه منها، بعدم إكرامه لها فى مثل هذه المواطن، ففى مسلكه هذا تشجيع للأولى على استمرارها فى تحفظها، وإغراء للثانية على التفكير فى العدول عن سلوكها.

ولتمام الفائدة فى معرفة وسائل العلاج يمكن الرجوع إلى البحث الخاص بمنهج الإسلام فى علاج المشكلات الاجتماعية، فى كتابى « توجيهات دينية واجتماعية ».

* * *

الفصل الخامس
رد الشبه الواردة على الحجاب

يحاول دعاة السفور أن يبرروه ليجعلوه تقليداً مستساغًا إن كانت نظرتهم إليه نظرة نابعة من وحي التقاليد والعادات، فهم يريدون أن يخرجوا على المألوف تأثرًا بالغرب أو ضعفًا في التدين أو لغير ذلك من الأسباب التي مرت، كما يحاول البعض أن يلتمسوا له مستنداً من الشرع إن كانت نظرتهم إليه نظرة روعي فيها الدين الغالب والذي يعد الخروج عليه شذوذاً. إنهم يلجئون أحيانًا إلى قواعد نفسية يقيمون عليها شبههم، وإلى سفسطات فكرية لا يقرها دين.

وأكثر من يورد هذه الشبه لا يؤمنون بعدالة التشريع، فلو أنهم كانوا مؤمنين بالله حقًا لقبلوا تشريعات الله في القرآن والسنة، وما أوردوا عليها اعتراضات تبرر خروجهم عليها. ومن هنا يمكن أن نقول لهؤلاء. بصفة إجمالية: إن كنتم مؤمنين بصدق القرآن والسنة وعدالة ما فيهما من تشريع، فإن هذه السفسطات لا تغير من الحكم شيئًا فالحجاب مفروض لا جدال فيه، وسواء اقتنعتم بالتعليلات وشرح حكمة التشريع أم لم تقتنعوا فإن الحكم ثابت، وجهلكم بالحكمة لا يغير من واقع الحكم ولا من واقع الحكمة.

وإن كنتم غير مؤمنين بما في القرآن والسنة، فإن الجدال معكم لا يجدي، فإن العلماء ليسوا هم المشرعين للحجاب، وإنما نصوص الدين هي التي شرعته، وما عليهم إلا البيان والشرح والتبليغ. ونقول لهؤلاء ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[النساء: ٦٥]. فالذي يفصل في النزاع هو حكم الله، ولا بد للمؤمن من قبوله واطمئنان نفسه به اطمئنانًا كاملاً. فهل الذين يوردون هذه الشبه مؤمنون؟ المؤسف أنهم يحملون أسماء إسلامية، ويرددون شبه سادتهم المبشرين والمستشرقين.

ونحن إذ نورد صوراً من شبههم فإنما نعرضها لبيان ضلالهم وتضليلهم، وأن فكرهم غير مستقيم حين وجهوا هذه الشبه.

وقد وردت إلى مجلة منبر الإسلام عدد ذى القعدة ١٣٩١هـ بعض هذه الشبه، ونوردها مع الجواب عليها فيما يلى:

١ – قالوا: إن المرأة ما دامت جادة فى معاملتها ومؤدبة لا تؤذى أحداً، فإن الزى الشرعى ليس ضرورياً. والجواب:

إن هذا القول متناقض مع نفسه، فإن الجدية فى العمل تلزمها الحشمة والانصراف عن الزخرف إلى الجوهر، وكما يجب عليها أن تكون مؤدبة فى كلامها وفى عملها يجب عليها أن تكون مؤدبة فى زيها، فكل ذلك مأمور به من الله. وهذا التكامل فى اتباع الأوامر قولاً وعملاً، سلوكًا وزيًا، يشير إليه قول الله ﴿ **فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فلا يجوز أن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض. وتنفيذ بعض هذه الأوامر لا يعفى من المسئولية عن التقصير فى بعضها الآخر.

على أن ادعاء أنها لا تؤذى أحداً غير مقبول على إطلاقه، فإنها تؤذى شعور الغيورين على الأخلاق، وتزين الفتنة لأرباب الهوى. وهذا التزيين له آثاره الكثيرة على الشخص نفسه وعلى أسرته وعلى المجتمع وعلى العمل الذى يقوم به فى هذا الجو. فالإيذاء موجود لا مفر منه.

٢ – قالوا: إن الظروف الحاضرة من مباشرة العمل والزحام فى المواصلات تجعل الزى الشرعى معوقًا عن العمل وموجبًا للسخرية: والجواب:

إن المرأة تغير من زيها كثيراً فى فترات زمنية متقاربة تجارى به «الموضات» السريعة، ما بين طويل وقصير، وما بين «جيب وبنطلون». وما كان الطويل أبداً مانعًا لها من الذهاب إلى عملها، فهو إن لفت النظر وقتًا قصيراً – لأنه جديد – سيصير مألوفًا غير داع إلى النقد والسخرية. ولو أن لابسات البنطلون أطلن

« الجاكيت » لتوارى مفاتنهن، وسترن أذرعهن ورءوسهن لكان ذلك زيًا شرعيًا، أو قريبًا منه إلى حد كبير، ولا يكون مثارًا للسخرية بحال.

والمرأة إذا كانت بهذا الزى المتكامل فى الشتاء لا يعيبها أحد أبدًا، لأن الظروف الجوية تدعو إلى ذلك، لكنها تتملص منه فى الصيف لا بدافع الحر، ولكن بدافع آخر هى أعلم به.

٣ – قالوا: إن الدين يسر، ومن اليسر أنه لا يلزمها بزى قديم، حتى لا تتعقد نفسها، فيكون الضرر، والضرر يأباه الدين. والجواب:

إن هذا القول سفسطائى، فإن من يسر الدين أن أباح للمرأة أن تعمل وتخرج، ومن يسره أنه حاطها بالرعاية لتتمكن من أداء مهمتها فى أمن وطمأنينة، فمنع عنها أذى الغير، ومن الواجب عليها إزاء ذلك أن تمنع أذاها عن الغير عن طريق الغريزة الجنسية، التى لا ينكر أحد خطرها على السلوك الفردى والجماعى. وقد كرمها الله بهذا الزى الكامل الذى يجب قبوله بمقتضى الإيمان الذى يثق فى تشريع الله.

والمرأة هى التى تسبب لنفسها العقد النفسية التى يحلو للكثير أن يتحدث عنها. وذلك بإيقاع نفسها تحت تأثير كلام الناس الذين لا يريدون إلا مصلحة أنفسهم. وهل نسيت المرأة كلام رسول الله ﷺ فى الموازنة بين رضاء الله فى اتباع أوامره، وبين رضاء الناس فيما يشتهون؟ لقد ورد فى الحديث الشريف « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » رواه الترمذى عن عائشة. وروى ابن حبان فى صحيحه نحوه مرفوعًا[١].

والمرأة إذا تمسكت بتقاليدها، ووقفت عند حدود دينها، غير عابئة بما يقول الناس، امرأة دلت على أن لها شخصية قوية، انتصرت إرادتها على شهواتها. وستحل من نفوس الناس محل التقدير والاحترام. أما المذبذبة التى تجارى كل هوى وكل عصر فهى امرأة فاقدة الشخصية، لا يطمئن إليها العاقلون.

---

(١) الترغيب والترهيب ج٣ ص٧٨.

وهل يجوز للمرأة التى تحب أن تجارى العصر، وتهرب من سخرية الناس لتمسكها بالقديم، هل يجوز لها أن تفرط فى عرضها، وتندس فى وسط المجتمع الصاخب، تفعل كل ما يحلو لها، حتى تروق فى أعين الناس وتبعد عن نفسها الأزمات؟

إن الآداب الموضوعة للسلوك ليست ضرراً، ولا تؤدى إلى ضرر، وإنما هى تنظيم يساعد على الاستقرار والأمن، ولو أطلقت الحرية للناس لفسد المجتمع، ولما كانت هناك حاجة إلى قوانين، ولا إلى رسالات، ولترك الناس يعيشون كالبهائم، تسيرها الغرائز، وتقودها الشهوات.

٤ – قالوا: إن الزى الشرعى يحرم المرأة من التمتع بمباهج الحياة، والجواب:

إن هذا قول باطل، فهل التمتع بمباهج الحياة لا يكون إلا بالعرى وبذل العرض والتسفل إلى درك البهائم، كما يفعله زعماء هذه البدعة فى أوروبا من الوجوديين وغيرهم، الذين تعمر بهم نوادى العراة؟

لقد مرت مئات السنين على النساء المسلمات المحتشمات، وهن يتمتعن بطيبات الحياة وزينتها. فى أدب وكمال. وما كانت هناك رذائل فاشية بالقدر الذى فشت به الآن.

٥ – قالوا: إن بعض الأعمال التى تزاولها المرأة كاستقبال الشخصيات الزائرة، يقتضى زيًا عصريًا لا يتناسب مع الزى الشرعى. والجواب:

إن هذا العمل لا يبرر الخروج على ما شرع الله، فهو الذى وضع الزى المناسب. والذى وضع الزى العصرى هو المجتمع، فيا ترى من الذى نطيعه؟ قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

إن مجالات العمل التى لا تتطلب زيًا كاشفًا واسعة وكثيرة، والقانون الوضعى يحمى العاملة فى حريتها فى اختيار ملابسها، وليس هناك اضطهاد أو فصل بسبب الزى أبدًا، فمن لا تصلح بزيها لهذا العمل تصلح لعمل آخر، والأمر أولاً وأخيرًا هو مجاهدة هذه النفس فى التحمل والمصابرة، ومجاهدة المتحللين الذين يعيبون التمسك بالدين.

وإليك صورًا أخرى مما يردده الذين يزعمون أنهم مجددون مصلحون، وقد يكون فيها بعض التكرار لما سبق، أو ما يغنى عنه، لكن لا نعدم منها فائدة. لأنها صيغت بأساليب مختلفة.

١ - قال قائلهم : إن الحجاب يعوق المرأة عن التطور، وعن إسهامها فى خدمة المجتمع، لأنه لا يمكنها من التعلم ومزاولة العمل فى المجالات الحضارية.

ونقول لهؤلاء: إن الرجل يقوم بكل الخدمات التى تنهض بالمجتمع خارج المنزل، ولا يحتاج إلى جهود المرأة إلا عند عدم وجود من لا يصلح لها غيرها. أو كانت هى محتاجة إلى العمل، ومع ذلك فإن الحجاب لن يعوقها عن ذلك مطلقًا. فكم تعلمت نساء وبرزن وهن فى أدب واحتشام، وسيأتيك عدد كبير منهن فى الباب الخامس إن شاء الله.

وكذلك الأعمال الأخرى لا يمنع منها الحجاب أبدًا، اللهم إلا إذا أردتم بالأعمال الحضارية الرقص والسهر والحفلات والرحلات وما إليها، وهذه أمور لا يوافق عليها الدين أصلاً، فضلاً عن كونها تؤدى بحجاب أو سفور.

إن أصحاب هذه الشبهة يريدون بالأعمال الحضارية ما هو موجود عند الغرب، مع علم بالآثار الخطيرة المترتبة على خروج المرأة إلى هذه الميادين فى تحرر وسفور[١].

---

(١) لقد كان من فساد التنظيمات فى بعض البلاد الإسلامية أن تبجح بعض المنتسبين إليها بأنه كسر التقاليد وعلم بنات مدرسة (.....) الرقص وقدمن عروضًا شيقة أمام أولياء أمورهن، وتزعم هذه الحملة أمين الشباب بالوجه القبلى، الذى كون فرقة شعبية من ٦٥ فتاة وشابًا منهم ٢٠ من طالبات المدارس الثانوية ودار المعلمات « أهرام ٢٢ / ٩ / ١٩٦٧ ».

إن كشف المرأة لوجهها، وهو جائز عند بعض المذاهب كما تقدم قد يكون له مبرر فى خروج المرأة ومزاولتها للنشاط المتنوع المشروع، ولكن كشف الصدر والذراعين وما فوق الركبة ليس له مبرر مشروع أصلاً، بل وليس له مبرر معقول، لقد قالت إحدى هؤلاء : إن الفستان القصير يساعد على خفة الحركة، ونقول : إن المرأة الآن فى سنة ١٩٧٤ لبست البنطلون الطويل وزاولت به عملها وهى مسرورة به. وذهب عن ذهنها ملاءمته للعمل وعدم ملاءمته، وكان سرورها به من أجل أنه هو « المودة » والمرأة مغرمة بكل « مودة » وافقت العرف والعقل والدين أو لم توافق.

٢ - وقالت أخرى : إن كشف بعض أجزاء الجسم يناسب الجو الحار، والمرأة بطبيعة تكوينها تحس بالحرارة أكثر من الرجل، ونقول : هل كل المسلمات يعشن فى الأجواء الحارة، وهل النسوة السابقات المسلمات المحافظات على الملابس الطويلة وعشن فى الأجواء الحارة، استطعن العيش أو ضاقت بهن الحياة؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون تحايلاً على الدين والعرف الإسلامى لا مبرر له أبداً، على أننا نقول أيضاً : إن البنطلون الساتر والجاكيت السابغ الذى أغرمت به المرأة حديثاً يتنافى مع تعللات الداعيات إلى تقصير الملابس.

إن الأمر أخطر من التماس علل معقولة للخروج على الحجاب، الأمر هو الجرى وراء المودات الحديثة وملاحقة المرأة الغربية فى تحررها الذى أودى بكرامتها وضجت منه النساء العاقلات.

لقد مر تبجح بعض المنتسبين إلى التنظيمات التحررية بأنه خرج بالمرأة عن تقاليدها القديمة، وعلم بنات المدارس الرقص، وقدمن عروضاً شيقة أمام أولياء أمورهن. وكسر التقاليد التى حبست المرأة قروناً طويلة. بئس ما فعلوا، وقاتلهم الله وقاتل غباءهم وفجورهم، وصدق رسول الله ﷺ «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخارى عن ابن مسعود.

٣ - قالوا : إن الحجاب طعن فى حق المرأة، لأنه أمارة على الشك فى قدرتها على الحفاظ على الشرف، وأمارة على ضعف شخصيتها وإرادتها أمام المغريات. ونقول :

إن الحجاب، كما شرع للمرأة، شرع للرجل، كل له منه ما يناسبه، فإذا شرع للنساء غض البصر وستر العورة شرع للرجال كذلك أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم. وأمر الإسلام كلا منهما بعدم الاختلاط وتعاطى أسباب الفجور، فالحجاب ليس اتهامًا للمرأة، بل هو أدب خلقى للرجل والمرأة على السواء، فلكل من الجنسين غرائزه وشهواته، فهل يمكن للرجل إذن أن يقول: إن تحريم الإسلام نظرى إلى المرأة أو خلوتى بها طعن فى عفتى وخلقي وعزيمتى؟ إن الحجاب احتياط، وليس كل الرجال وكل النساء على خير دائمًا، فهل وضع القفل على باب المنزل أو المتجر اتهام من صاحبه لكل الناس بأنهم لصوص؟. ووجود الشرطى هل هو دليل على أن كل الناس مجرمون؟ قال تعالى مبينًا أن الرجال ليسوا على درجة واحدة ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ فالمتعرض للفتنة هو من فى قلبه سوء لخلوه من خوف الله وقوة الإرادة. ومما يدل على أن حكمة الحجاب هى مصلحة الطرفين قوله سبحانه: ﴿ **ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾ وذلك تعليل للأمر بعدم كلام نساء النبى إلا من وراء حجاب.

كما قالوا: إن الحجاب أسر وذل للمرأة. ونقول لهم:

إن بعض الناس يستهجن نظم الحكومة، ويريدون العودة بحياتهم إلى الفوضى والهمجية، لأنهم يعدون القوانين أسرًا وذلاً. على أن العقلاء يستهجنون السفور كما يستهجن غيرهم الحجاب، فبأى الاتجاهين نأخذ إن كنا نملك التشريع؟. إن الحجاب ليس ذلاً للمرأة، ولكنه تكريم لها، لأنه يبعد عنها التقلبات التى اصطلت المرأة نارها فى أوروبا، على ما علمت من موقف الرومان منها. فالمرأة المسلمة حفظت مدة ثلاثة عشر قرنًا من كل الانقلابات التى مرت على نساء العالم.

٤ – قالوا: إن الحجاب فيه كبت للعواطف. فالعواطف إن لم تجد منفذًا للظهور، وهى ثائرة، أدت إلى عقد نفسية. فهم يدعون إلى السفور تنفيسًا عن الغريزة، لأن مقاومة الطبيعة تغرى بانتقامها لنفسها بانحرافات تضر نفوس الناشئين وأجسامهم. ونقول لهؤلاء الفرويديين:

إن الإسلام أمر بالحجاب تعديلاً للغريزة وترويضًا لها، وما من شيء حرم إلا جعل الله له بدلاً من الحلال يحقق الإنسان فيه نشاطه، فليست المنافذ كلها أبداً مسدودة على الغرائز، وإلا كان التشريع عبثًا لأنه لا يستطيع مساعدة الإنسان على تحقيق خلافته، فلكل محرم بديل من الحلال، والطريق الطبيعي لنشاط الغريزة الجنسية نشاطًا إيجابيًا منتجًا صحيحًا هو الزواج، وكما قال العلماء: إن الله حين حرم الربا لضررة في الاستغلال جعل له بديلاً من التجارة المشروعة التي تحقق الربح المعقول مع المحافظة على المعاني الإنسانية في المعاملات. وقال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فالإسلام بتشريع الحجاب يقف الغريزة عند حد الاعتدال، ويحافظ على وجود الميل الطبيعي بين الجنسين، لا يريد أن يميته ويقضي عليه تمامًا، ولا يريد أن يقويه بشكل يدعو إلى الخطر. فإذا كانت مداومة الاختلاط تضعف ميول الجنسين بعضهما نحو بعض، كما يقول الفرويديون، فإن الإسلام لا يريد هذا الإضعاف.

على أن ادعاءكم أن الاختلاط يضعف الميول الجنسية مردود، فلماذا لا يكون هو من عوامل قوة الميل وشططه واندفاعه بأخطاره الجسيمة، خصوصًا في فترة الشباب؟ إن الواقع خير دليل على ذلك. ومهما يكن من شيء فإن الإسلام لا يرى الخير في إضعاف الغريزة ولا في تقويتها على الإطلاق، فلكل مجال، إنه يدعو إلى ترويضها وإضعافها عندما لا يتيسر فسح المجال لها بالزواج، فأوصى غير القادرين عليه بالصيام، وهو لا يقف حجر عثرة في سبيل تقويتها بين المتزوجين لتحسين النسل واستمتاعهن بنعمة الله. والحجاب من عوامل إضعاف الميل الجنسي أو تعديله بصفة مؤقتة عند تعرض المرأة لرؤية الرجال.

وفي بعض الأحيان يكون الاختلاط الدائم سببًا في خلق رجال فيهم عنة، وليس ذلك من مصلحة النوع الإنساني. ذكر «كولبين» أن العلاقات الجنسية باردة جداً في قبائل «الهوتنتوت» وذلك لاختلاطهم المتواصل. كما ذكر الدكتور

« ميتشل » أن الزواج لا أهمية له فى قبائل « الجونكين » . فالرجل عندهم يهتم بحصد سنبلة قمح أكثر من اهتمامه باقتناء امرأة .

٥ - قال بعضهم : إن الحجاب يورث توقد الشهوة، لأن كل ممنوع مرغوب فيه . وقد سبق فى بيان حكمة مشروعيته أنه يغرى بالعمل على تكوين الأسر وحياة الاستقرار، والاختلاط يخفف من حدة الشهوة . ونقول : إن تلطيف الحدة بالاختلاط مظنة لأخطار كبيرة، والإسلام جعل لتوقد الشهوة ملطفًا لا يكون وراءه خطر، وهو الصوم كما سبق بيانه، أو الزواج المبكر، أو الانصراف إلى ميادين الجمال المنبعث فى الكون ليشبع الإنسان فيه غريزته بمثل الرسم والشعر وما إليهما، وهو مظهر من مظاهر الاستعفاف الذى يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور : ٣٣] .

٦ - قالوا : إن قيمة العفيف من الجنسين تظهر عند الاختلاط، فمجاهدة النفس حينئذ تكون لها منزلتها فى المثوبة، فليكن هناك اختلاط، وليكن من الرجل الأدب حتى يكون له اختيار فى تعففه، وليكون ممن جاء فيهم « من عشق فعف فمات فهو شهيد » ونقول :

أليس هناك ما يعرف فيه قدر الرجل أو المرأة من العفة إلا هذا الامتحان الخطير، الذى أثبتت التجربة أن ضرره أكبر من نفعه، فالغالب فى الاختلاط هو الفساد، ورحمة الله تقتضى سد هذا الباب، فهو من قبيل سد الذرائع، والحكم هو لغالب الناس لا للقلة منهم، وليس من الحكمة أن نهيئ للإنسان أسباب الشر، ثم نقول له إياك أن تقع فيه، بل الحكمة أن نبعده عنه ونسد عليه بابه .

ذكرت كتب الأدب أن معاوية بن أبى سفيان قال لعمرو بن العاص : أينا أدهى من الآخر؟ فقال عمرو : أنا، فقال معاوية : لماذا؟ قال : لأننى إذا وقعت فى الشر عرفت كيف أتخلص منه . فقال معاوية، بل أنا أدهى منك، لأننى أعرف الشر فلا أقع فيه . نعم إن البعد عن الشر يحقق النجاة منه، أما الوقوع فيه فالنجاة منه مظنونة، والعاقل يسير فى حياته باليقين لا بالظن . وذلك تقدير لقيمة الوقاية، ودرهم من وقاية خير من قنطار من علاج .

على أن القول المذكور الذى يجعل المتعفف فى عشقه شهيداً إذا مات قول غير صحيح النسبة إلى النبى ﷺ. بل هو موضوع، قاله ابن القيم فى كتابه زاد المعاد « ج٣ ص١٥٤ » وبين أنه لا يصح أن يكون من كلام الرسول ﷺ فالشهادة درجة عالية وهى نوعان، عامة وخاصة، فالخاصة هى الشهادة فى سبيل الله، والعامة خمس مذكورة فى الصحيح ليس العشق واحداً منها. وكيف يكون العشق الذى هو شرك فى المحبة وفراغ عن الله وتمليك القلب والروح والحب لغيره تنال به درجة الشهادة؟ هذا من المحال. إلى أن قال: فلو كان إسناد هذا الحديث كالشمس كان غلطًا ووهمًا ولا يحفظ عن رسول الله ﷺ لفظ العشق فى حديث صحيح ألبتة. ثم إن العشق منه حلال ومنه حرام، فكيف يظن بالنبى ﷺ أنه يحكم على كل عاشق يكتم ويعف بأنه شهيد، فترى من يعشق امرأة غيره، أو يعشق المردان والبغايا ينال بعشقه درجة الشهداء. وقد أفاض ابن القيم فى بيان كذب هذا الحديث من جهة الإسناد كما كذبه من جهة المتن. ومن أراد أن يستقصى موضوعه فليرجع إلى كتابه المذكور.

٧ - قالوا: إن الاختلاط يورث توازن الحياة الاجتماعية، وذلك بتعديل طبائع الجنسين، فعن طريقه تسرى بعض الرقة إلى نفس الرجل، وبعض الجد إلى نفس المرأة، وفى ذلك تقريب للشقة. ويرد عليهم: بأن التلطيف المزعوم تصنع مؤقت لا حقيقة له دائمًا، فالغريزة هى الغريزة، والميل إلى الجنس هو الميل، لا تقضى عليه التصنعات، فما بالذات لا يتخلف، وذلك أشبه ما يكون بحال الخطيبين فى فترة الخطبة على النحو المعروف الآن، فكل سلوكهما أو أكثره تصنع لا يخبر عن الحقيقة الكامنة فى النفس. على أنه لو كان هناك تلطيف فإن الأخطار الكثيرة من وراء الاختلاط تبرر خطره ومنعه دون اعتبار لفائدة أو فوائد قليلة يجرها وراءه، فالعبرة فى الحكم على الشىء بما يغلب من آثاره ونتائجه، وإن كان فى كل شىء خير وشر، لكن النسبة بينهما هى التى تحدد الحكم على الشىء.

٨ – قالوا: إن الاختلاط فى العمل بوجه خاص يورث همة فى نفس كل من الجنسين، وقد جربت ذلك «كاترين» قيصرة روسيا، كما تقدمت الإشارة إليه، فقد شكت كسل الناس وتباطؤهم، فأرشدت إلى تجربة اختلاط الجنسين، فتحرك الشبان ونهضوا للعمل وزاد دخل الدولة. وقد حذت تركيا حذوها. ويرد على ذلك:

بأن الهمة المكتسبة بما وراءها من فائدة مادية لا تعدل الخسارة الجسيمة التى تترتب على الاختلاط وتظهر فى ميادين أخرى بشكل واضح. فهل نكسب شيئًا لنخسر أشياء؟ لقد شكا رجال أمريكا من سفور المرأة وارتدائها الملابس القصيرة، ورأت أن انصراف الشبان الذين يعملون معهن زاد إلى الفتيات وأهملوا الواجبات.

٩ – قالوا: إن المرأة المتحجبة يشوه الحجاب جمالها، وإذا مشت فى الطريق تعثرت لحيائها من الرجل فلا بد أن نعطيها الثقة فى نفسها حتى لا تتعرض لمثل هذه المآزق. ونقول:

إن مثل هذه الترهات جديرة بألا يرد عليها، ولكن السكوت عنها قد يعطيها عند السذج صفة الجدية والصدق، وأخطار السفور أكبر من أن تراعى لأجلها أمثال هذه التوافه، إن المرأة المسلمة فى غالب أحوالها مستقرة فى بيتها، أو أن الأصل فى حياتها مباشرة عملها فى البيت لا التجول فى الشوارع حتى يراها الناس، وهل يريد هؤلاء للمرأة أن تمشى كالرجل فى استخفاف أو تحد للناس، كما هو حادث الآن؟ إن الرجل يخشى كل الخشية أن يكون فى أى تصرف من تصرفاته شائبة من الشوائب تعدها المرأة جارحة لكرامتها، فهو يحاول أن ينزوى بعيدًا عن النساء فى الطرقات والاجتماعات، باديًا عليه الحياء والخجل إن كانت عنده بقية من دين، أما المرأة فهى تمشى وتجلس فى غير حياء ولا اكتراث، لا تفسح الطريق لرجل، بل ترغمه على أن يفسح هو لها، ولا تحب الجلوس إلا فى صدر المجالس تحديًا للناس، بل تزحمهم بنفسها فيما يخصص

لهم، وذلك كله أثر من آثار عدم الحياء الذى جاء فيه الحديث المذكور سابقًا «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخارى عن ابن مسعود[1].

١٠- قالوا أيضًا: لماذا لا تساوون المرأة بالرجل فتبيحوا لها كشف أجزاء كبيرة من جسمها مثله؟

وهذا الكلام فى مقابل ما قاله قاسم أمين فى كتابه «تحرير المرأة»: لماذا لا نأمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء خوف الفتنة عليهن؟ ونقول لهؤلاء:

إن السعى والعمل وكشف الجسم فى أكثر مواضعه للرجال. أما النساء فالأصل لهن الاستقرار فى البيوت. فإن خرجن فخروجهن لشىء غير ما هو لهن، أو لضرورة تقضى بذلك. فالأصل للرجل هو الكفاح خارج البيت فى الدنيا العريضة ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ﴾ [الملك: ١٥]. والأصل للمرأة هو ملازمة البيت لإدارته، ومعاونة الرجل على مواصلة كفاحه. ولعل مما يشير إلى أن مهمة الرجل الأولى هى الكدح من أجل المرأة والأولاد قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿ **فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ [طه: ١١٧]. فهما سيخرجان من الجنة حيث لا تعب فيها من أجل العيش، إلى الأرض حيث التعب الذى يقع على كاهل الرجل وحده. فروعى الفرق فى الحجاب بينهما على هذا الأساس.

١١- قالوا: إن المتحجبة لا تميز صفات الرجل، وهى ترضى بإشباع غريزتها مع أى رجل يتقدم إليها، أما التى تختلط وتزداد خبرة بالحياة وبالرجال عن هذا الطريق فإنها لا ترضى بالزواج إلا بعد موازنة بين صفات من يتقدمون إليها، وتختار الأصلح. ونقول لأصحاب هذا القول:

إن الاختيار له قواعده المشروعة فى الخطبة، وهى بنظامها المعروف، كفيلة بتبين وجوه الكمال فى كل من الرجل والمرأة.

---

(١) رياض الصالحين ٦٦٧.

١٢- تمسح أيضًا دعاة السفور بالدين، وأوردوا حادث الفضل بن العباس عندما كان ينظر إلى المرأة فى الحج وهو راكب خلف النبى ﷺ، حيث لم يأمر المرأة بستر وجهها، بل صرف نظر الفضل عنها، وقد تقدم الكلام على هذا الحديث.

١٣- كما قالوا أيضًا: إن الحجاب خاص بنساء النبى ﷺ. وقد تقدم الحديث عن ذلك، فلا داعى لإعادته.

وبعد، فإن دعاة السفور قوم يميلون مع الهوى، ويستجيبون بسخاء لنداء الغريزة الجنسية، وقد تطوروا فى دعوتهم، وتمادوا فى سفسطتهم حتى بلغوا الذروة فى الضلال والتضليل، فمالوا إلى مذهب الوجوديين، وظهروا بمظهر «الهيبى» ودعوا إلى العرى والرجوع بالإنسان إلى طبيعته الأولى، بل إلى حياة الحيوان والبهائم، وإن كانوا لا يصرحون بذلك بل يقولون: إن الغرض هو الرجوع إلى الإحساس بجمال الطبيعة وما يحيط بها، كما يقولون: إن هناك أعباء ومشكلات نفسية ناتجة من «روتين» الحياة، وهى تزول تدريجيًا عند الاستسلام إلى الطبيعة بالأجسام العارية.

إن هؤلاء الناس فى سخافة تفكيرهم ينسون أن الطبيعة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها تستحى من كشف العورة، وقد قص القرآن الكريم علينا خبر آدم وحواء عندما بدت سوآتهما فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فهناك إحساس أولى باستقباح كشف العورة، والله سبحانه منَّ علينا بالملابس التى هيأ لها الأسباب الكثيرة، وقال فى حكمتها ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا** ﴾ [سورة الأعراف: ٢٦].

إن هذا التفكير السخيف لا ينبغى أن يكون فى عصر الرقى العلمى والحضارى، إن هؤلاء الناس لهم غرائب تثير الضحك، وشر المصائب ما يضحك، وليس من معتصم غير الدين الذى يريد الله به الخير للناس جميعًا ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران ١٠١].

يقول الأستاذ على الجندى فى قطوفه:

قـل لحـــســنـاء زهاهـا الــ	حـــسن أن تـلـزم خـــدرا
تـتـــثـنـى مـن دلال	بـانـة تحــمـل بـدرا
زهرة تـعـــبق طـيـبــا	أيـنـمـا ســارت وعـطـرا
لا تـبــالى الحــر إن كـا	ن ولا تَـحْـفَـل قُـرًا
جـسـمـهـا أمـسى نـهـابا	لـعـيـون الـنـاس طرا
شـف عـنـه مـا عـلـيـه	فـبـدا بطـنـا وظهـرا
حَـجِّبي الحسن وصـونيـ	ـه يزده الصـون قـدرا
فـإذا رابـك قـولـى	وحـسـبـت الخـيـر شـرا
فـاسـتـرى سـاقك عـنا	حـسـبنا الصـدر المعـرَّى

القر بضم القاف أى برد اليوم. والقر بالفتح وصف لليوم البارد، فيقال: هذا يوم قر.

والنهاب: بكسر النون جمع نهب بفتحها، والنهب: هو الغنيمة. وتحفل: تبالى والفعل يتعدى بنفسه.

ويقول أمين ناصر الدين:

قل لمن بعـد حجـاب سـفـرت	أبهـذا يأمـر الغـيـدَ الشـرف
أسـفـورا والحـيـا يحظره	وتـقـى الله وآدابَ الـسـلـف
لـيـسـت المـرأة إلا درة	أيكون الدر إلا فى الصدف؟[1]

مذهب العرى:

إن العرى منتشر فى جهات نائية من شمالى ألمانيا على شواطئ البلطيق فى شبه مستعمرات، يعتنق أهلها هذا المذهب، يسيرون عرايا، رجالاً ونساء، كما ولدتهم أمهاتهم، دون خجل. ويقول بعض زعمائهم: إن الله خلق الإنسان

---

(١) مجلة الأزهر أول صفر ١٣٧٤هـ.

عريانًا، ولا يحصل فساد بسبب هذا العرى، كما أن الأولين لم يفسدهم العرى، والتعود عليه يميت الشهوة الجنسية أو يضعفها. وبدل أن يهتم الناس بالزينة والملابس ندعوهم ليهتموا بجمال الجسم وصحته.

ويقولون: إن الملابس ستار خداع يوجد الفوارق والطبقات بين الناس، لكن الأجساد حين تكون عارية فإنها تكون موحدة الطبيعة، فالعرى يحقق المساواة[1].

هكذا يفلسفون العرى ويدعون إليه، وقد تنطلى هذه السفسطة على السذج من الناس وبخاصة الشباب. وجاء فى مجلة آخر ساعة «يولية ١٩٥٠» ما ملخصه:

بلغ عدد العراة فى ألمانيا قبل الحرب سنة ١٩٣٥ نحو خمسة ملايين، لأن هتلر كان يؤيد مذهبهم، وفى إنجلترا حملة قوية لتشجيع مذهب العراة، فهناك جمعية حمامات الشمس البريطانية، تضم نوادى كثيرة للعراة (يقال: إن فى لندن ٣٧ ناديًا، بلغ عدد أعضائها ٥٠ ألفًا). وفى أمريكا ٥٠ جمعية للعراة ونواد كثيرة تتبعها، وفى بلجيكا منظمتان تكافحان للوصول إلى التأييد، هما «دى سبار»، «لايف أند صن» ولا يوجد فى فرنسا غير ١٢ جمعية للعراة، رحب بها كثير من الناس، ولا يوجد فى إيطاليا نواد، وذلك لنفوذ رجال الدين. وفى سويسرا ناد واحد للعراة اسمه «داى نيوزايت» وهو خاص بالأجانب فى البلاد. وفى هولندا مؤسستان، هما «زون أن ليفن»، «نيدر لاندنا توريزا بوند».

والعراة فى روسيا غير معروف حالهم، وأفريقيا نظيفة منها، إلا بعض نواد فى كينيا. وأفراد الشعوب العارية فى مجاهيل إفريقيا. وانتشرت النوادى فى استراليا ونيوزيلندة برغم جهود الحكومة فى قمع الإباحية. وفى الصين ناد واحد فى «هونج كونج». وفى الهند ثلاثة نواد.

---

(١) رحلات محمد ثابت وكتابه: بنات حواء.

وطريقة الاشتراك فى النوادى ليصبح المشترك عضواً عاملاً: تملأ استمارة تذكر فيها الأسباب الدافعة إلى الاشتراك. والخطوة الثانية هى دعوة العضو الجديد إلى زيارة أحد النوادى والترحيب به وإكرامه، وذلك لحمله على اجتذاب عائلته، ويصحب العضو الجديد فى زياراته الأولى التمهيدية مرشد خاص مسئول عن توجيهه. وهناك إجراءات مشددة تتخذ ضد العضو الذى يشتبه فيه، ويظن السوء بالنادى.

وهذه النوادى أكثرها رجال. ولكن أقبل عليها النساء. والعقبة الكؤود لكل فرد يريد الانتماء إلى النادى هى الإجابة على هذا السؤال: كيف أظهر أمام الجميع عارياً؟ والجواب: لا تخف ولا ترتبك. اعتبر مسألة العرى شيئاً عادياً جداً، وإذا انسجم العضو مع الباقين وجب عليه أن يستحم بأشعة الشمس وممارسة الألعاب الرياضية عارياً، على طريقة «هيبيز» التى تحتم أن يكون الكل عراة. وهم يفلسفون طريقتهم هذه ويقولون: إن التجرد من الملابس ليس دليلاً لاتهامنا بالوحشية، لأن للعرى غرضاً واحداً هو الرجوع إلى الإحساس بجمال الطبيعة وما يحيط بها.

وفى أهرام ٢٩ / ٨ / ١٩٥٤ برقية من فيينا فى ٢٨ منه، ملخصها أن المؤتمر الدولى الرابع للعراة الممثل فيه ١٢ دولة «الولايات المتحدة، فرنسا، إنجلترا، ألمانيا، سويسرا، هولندا، إيطاليا، كندا، النمسا، الدانمرك، البرتغال، بلجيكا» مكون من الرجال والنساء والأطفال، وانعقد فى جزيرة «دير» إحدى جزر نهر الدانوب قرب النمسا، وكان جدول الأعمال حافلاً بموضوعات البحث، كتشجيع الاستمتاع بالهواء والشمس وماء البحر. ولكن أسراب البعوض هجمت عليهم فأكرهتهم على ارتداء الملابس، وفروا إلى فيينا للاحتماء بها.

وفى أهرام ٢٣ / ٨ / ١٩٦٥: نزلت فتاتان وشاب إلى الماء على شاطئ خليج سان فرنسيسكو عرايا تماماً. ولما اعتقلهم البوليس قالوا: إنهم أعضاء فى رابطة الحرية الجنسية.

لقد تطورت هذه الفلسفة الشيطانية للعرى ووصلت إلى ما عرف أخيراً باسم « الستريكنج » أى الجرى السريع أو المرور الخاطف كالبرق . وهى ظاهرة بدأت فى أمريكا، قام بها ٤٥ طالبًا فى جامعة كولومبيا، حيث تجمعوا بها على موعد سابق، وخلعوا ملابسهم، وانطلقوا مسرعين فى شوارع نيويورك، دون أن يوقفهم استهجان الناس، حتى وصلوا إلى كلية « برنارد » للبنات، محاولين إقناعهن بالمشاركة فى المسيرة السريعة، فلم يفلحوا . ثم انتقلت العدوى إلى أوروبا .

وقد حار المفكرون فى تعليل هذه الظاهرة، فقيل : إنها تبرم بالمجتمع وقيوده، أو بالثياب وحملها الثقيل، أو لجوء إلى الثورة على عدم استجابة المطالب بالطرق المشروعة وبالثورة المكشوفة . . .

ويقول الكاتبون : إن شباب بريطانيا الذين خلعوا ملابسهم فى حديقة « هايدبارك » ومن فعلوا ذلك فى « جلاسجو » أو « إيرلندا » كان فى ماضيهم صورة اسطورية للجرى فى الشوارع دون ساتر . إذ تحكى دائرة المعارف البريطانية أن « ليدى غوديفا » التى ولدت سنة ١٠٤٠م وتوفيت ١٠٨٠م امتطت جواداً أبيض وطافت شوارع بلدة « كوفنترى » عارية تمامًا، لا يستر جسمها الجميل إلا شعرها الطويل، وكان ذلك احتجاجًا على إرهاق زوجها « إيرل أوف ميرسيا » أهل البلد بالضرائب، ولما لم يستجب لاحتجاجاتهم شاركتهم الثورة عليه، فاشترط هو لقبول احتجاجها أن تطوف على الجواد عارية . فوافقت، لكن بعد أن طلبت من الجميع أن يلزموا مساكنهم ويغلقوا نوافذها . ويقولون : إن الناس قد استجابوا، ما عدا واحداً عصى، فعمى بصره . وما زال الناس يحكون قصتها، ويتذكرونها عندما يمرون يوميًا أمام تمثالها « مدام جوديفا »[1] .

وهذه الأسطورة تذكرنا بضباعة التى طافت بالبيت عريانة، وأخلى المطاف من الرجال لها، وقد تقدمت فى مقدمة البحث .

---

(١) صلاح المقدسى فى مجلة الأسبوع العربى التى تصدر فى بيروت . أول أبريل ١٩٧٤م.

ونشر فى ملحق جريدة القبس الكويتية بتاريخ ٨ / ٤ / ١٩٧٤ صورة « ميشيل توماس » وابنتها الصغرى وصديقتها « كارين كلوزمن » يتجولن عاريات تمامًا فى حرم جامعة هاواى بأمريكا[١] .

وفى جريدة الجمهورية العدد ١٠٧٨٨ بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٨٣م بعنوان : ألمانيا خلعت ملابسها ، الذى نشرته صحيفة (بيلد) الألمانية الغربية : إن حوالى ستة آلاف شخص كانوا يتنزهون أمس فى حديقة « ميونخ » خالعين كل ملابسهم ، وفى الحدائق العامة والشواطئ كذلك عراة يمارسون هواية الجرى . وهذا ضد القانون . ولكن الحكومة لا تستطيع أن تفعل شيئًا لأنها تواجه خرقًا جماعيًا للقانون .

صور همجية فى العصر الحديث :

إلى جانب الصور الهمجية التى ذكرت عن الأسرة فى الجزء الأول أعرض الصور التالية :

جاء فى أهرام ٣١ / ١ / ١٩٥٤ أنه توجد فى غينيا الجديدة قبيلة تنتظم نسوة عاريات يعشن فى الغابات ، ويعاملن الرجال معاملة بالغة العنف . ويبلغ عدد نساء تلك القبيلة آلافًا مؤلفة ، وهن يقمن فى وادى الأدغال المظلم ، ويحتقرن الجنس الخشن ، ويلقين بالرجال فى الكهوف . ويقصدن إلى العمل عاريات تمامًا حتى من الثوب المصنوع من الحشائش الذى ترتديه القبائل الأخرى . وتحكم هذه القبيلة ملكة . وهى تسلم بضرورة الإبقاء على عدد معين من الرجال

---

(١) لا تفسير عندى لهذه الظاهرة الانحلالية إلا إصابة عقول الناس بلوثة من كثرة شرب الخمور والمخدرات ، ومن انحلال الرابطة الأسرية التى لا يعرف فيها الولد طاعة لوالديه ، ولا يهتم الوالدان بتربية الأولاد فإن المحيط أبتلعهم وتاهوا فيه ونسبتهم مشكوك فيها ، وسهولة الحصول على المتعة الجنسية حتى كادت العفة لا تساوى شيئًا ، والحياء من العرى لا ظل له . إلى جانب تفكك الروابط الاجتماعية ، فليست هناك أسر أو جماعات ذات صلات قوية تحمل بعضها البعض على عدم الوقوع فى هذه المخازى . إلى جانب السعار المادى الذى جرف أمامه القيم الأدبية فى الأرض الأمريكية المرقعة من أجناس مختلفة ، والتى لا يربط بينها إلا المادة والتسابق على المتع .

لحفظ النوع، إلا أنها تعاملهم معاملة العبيد . وقد كشف القناع عن هذه القبيلة في مؤتمر عقد بمدينة « بريتوريا » في جنوبي أفريقيا .

وفي أهرام ١٧ / ٧ / ١٩٥٣ عن برقية من نيودلهي في ١٦ منه : أعلنت الصحف الهندية أن الفلاحات في منطقة « بعلبا » التي أصابها الجفاف الشديد في شمال الهند يعملن في الحقول وهن عاريات تمامًا، وذلك لنيل رضاء إله المطر « داراندرا » ، وبينما تقوم الزوجات بهذا العمل من أجل إرضاء إله المطر يقوم الرجال بسكب مياه نهر الجانج المقدسة على تماثيل الإله « شيفا » للغرض نفسه .

يقول محمد ثابت في رحلاته : إن الفتيات في اليابان تخدم النازلين في النزل، فتخلع ملابسهم، وتدلك أجسامهم في الحمام عرايا، وتلزم مسامرة الضيف حتى ينام، وكثيرًا ما يغتسل اليابانيون، نساء ورجالاً أمام بيوتهم في جانب الطريق، ولا ينظر أحد لصاحبه، خصوصًا الطبقات الفقيرة، وكانت الحمامات العمومية خليطًا بين الجنسين، فانتقدها الأجانب، ففصل بينهما، ويستنكر الأجانب رؤية أجسادهن عارية، ولكن يرونه أمرًا طبيعيًا، وهو في نظرهم مهدئ للميول الجنسية .

وعند حديثه عن « الجيشات المسليات » في اليابان يقول : في الحفلات الخاصة يرفع التكليف، ولا يشعر أحد بحرج، ويمتزج الجميع تمامًا، ولا ينظر الرجل إلى سميرة جاره، بل يقتصر على سميرته هو، ولا يخلو منهن مطعم أو مقهى . وهن يكثرن من الطلاء والزينة، وعمرهن ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة . اهـ . وستأتي صور أكثر في الباب الخامس .

وذكر أيضًا في رحلته سنة ١٩٣٦م أن الإباحية مطلقة في جزر المحيط الهادي . وفي استراليا تدمن النساء على التدخين مع إباحية تجعلهن يسرن عرايا إلا من ساتر للعورة، كأن أزواجهن يستعرضن جسومهن أمام النساء، ولا سلطان للآباء على الفتيات، يسرعن إلى الاختلاط والمعاشرة دون تحرج، وليس هناك دور للفجور، فلا داعي لها ما دام الواحد يحصل على ما يريد دون رقيب . ويعزو عدم

الحياء إلى أن سكان استراليا نزلاء جدد من أماكن متفرقة، فلا سلطان لأحد على أحد «جولة في ربوع استراليا ص٧٨».

وتحدث عن جزر «ساموا» بالمحيط الهادى ورقص النساء مع الرجال ونصف جسدهن الأعلى عار تماما «ص١٢٤». وعن «هوليود» وقال: إن النساء يظهرن فيها بزى الرجال، ويصعب تمييزهن عنهم. ومن الرجال من يدهن وجهه، ويحمر شفاهه، ويرخى شعره، ويلمع أظفاره، ويتبختر فى مشيته كالآنسة، وهى محط المجون العالمى «ص١٤٤».

ويقول عنهن أيضا: عند ركوب الباخرة تغازل الآنسات الفتيان، ويكون التقبيل والزغزغة والاحتضان وما فوق ذلك. وهو شىء عادى عندهن. حتى أن الأمهات والآباء يساعدون بناتهم عليه، وكثير من الفتيات كن يسرن عرايا دون حياء، ويسخرن ممن يغض الطرف عنهن «ص١٤٩».

ويتحدث عن نساء نيويورك بمثل ذلك «ص٢٤٤». ويقول عن مدينة «كانو» فى كتابه الذى طبع سنة ١٩٤٦: أن نساءها فيهن مسحة جمال، خصوصا العذارى من الغانيات، وهن يلبسن الأردية التى تغطى الجسم تحت الثديين، والصدر كله عار يلفت النظر، خصوصا إذا طلت وجهها بالبودرة. وأما المتزوجات فأرديتهن تغطى الجسم كله. والغيرة على النساء فاترة جدا عند الرجال. ونسبة العفاف قليلة، خصوصا عند غير المتزوجات، فالفتاة تصادق من تشاء.

وجاء فى أهرام ١١/٥/١٩٦٤ من شاطئ ميامى بأمريكا، زواج سيسى داوسون (١٦ سنة) على «شارلزمورو» (٢٣ سنة) وهى ترتدى غلالة رقيقة تغطى جسمها حتى أصابع قدميها، والعريس عار تماما. وحضر الحفل ٧٢ مدعوا من العراة، ليس فيهم مستور إلا المحامى الذى سجل مراسيم العقد.

هذه عدة صور قدمتها لك من أرجاء العالم كافة، لتلقى بها نظرة على فكرة الناس عن الزينة والملابس وصلة ذلك بالجنس، ترى منها أن الإسلام خير دين وخير نظام وضع لقيادة البشرية إلى الخير.

* * *

الباب الخامس
المرأة والحركات التحررية

سينتظم الحديث فى هذا الباب مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، فالمقدمة فى بيان قوامة الرجل على المرأة، والفصل الأول فى بيان منزلة المرأة قبل الإسلام، والثانى فى بيان منزلتها فى الإسلام، والثالث فى مطالب المرأة الحديثة، والرابع فى نظرة عامة على النشاط النسوى فى العالم الإسلامى، والخاتمة فى صور من حرص الأولين على الحجاب.

المقدمة :

إن الرجل بحكم أسبقيته للمرأة فى الخلق وإرادة الله لإيجاد خليفة فى الأرض، على ما يفيده الترتيب بلفظ « ثم » فى قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [الزمر : ٦]، وبحكم أنها خلقت لأجله هو[١] « ليسكن إليها » — له التقدم والأولوية الأدبية على المرأة. وبحكم أنها منه تكون نسبتها إليه نسبة الجزء إلى الكل على بعض التفاسير فهو أقوى فى مركزه منها وأكمل. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة : ٢٢٨]. كما يؤكد ويبين مبرراته قوله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء : ٣٤].

وسبب نزول هذه الآية — كما ذكره أبو السعود[٢] فى تفسيره — أن سعد ابن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبى زهير، فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ وشكاه، فقال عليه

---

(١) على ما تفيده اللام فى قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [النحل : ٧٢]، وقوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [الروم : ٢١] وعلى ما يفيده قوله تعالى : ﴿ **لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾.

(٢) كان شيخا للإسلام فى الخلافة العثمانية أيام السلطان سليمان القانونى.

الصلاة والسلام: « لتقتص منه » . فنزلت الآية، فقال النبى ﷺ « أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذى أراد الله خير » .

وجاء فى تفسير القرطبى « ج٥ ص١٦٨، ١٦٩ » أنها انصرفت مع أبيها لتقتص من زوجها، فقال النبى ﷺ « ارجعوا، هذا جبريل أتانى » فأنزل الله هذه الآية . فقال النبى ﷺ : أردنا أمراً . . . . .(١) وقيل : إنها نزلت فى جميلة بنت أبى، وفى زوجها ثابت بن قيس بن شماس وقيل : فى عميرة بنت محمد بن مسلمة وفى زوجها سعد بن الربيع، وكانت له زوجتان .

فالرجل قوام على المرأة، وله عليها درجة، وذلك لأمرين، أحدهما ذاتى أو وهبى، والآخر عرضى أو كسبى، فالأول بالتكوين الخلقى، من قوة الجسم والعقل، على ما سيأتى توضيحه، والثانى بما يلتزمه الرجل نحو المرأة من واجبات كالصداق والنفقة والرعاية الشاملة، التى تقاضيه على التقصير فيها حتى لو كانت فى درجة عالية من الثراء .

وهذه القوامة مجمع عليها بين العقلاء، وأقرتها الأديان، ولم يحدث فى التاريخ أن كانت القوامة للمرأة إلا فى حالات نادرة وشاذة، عند بعض القبائل البدائية، وعند ذوى الأفكار الجامحة . وفى بعض الحالات الخاصة المؤقتة . وذلك كله ليس تشريعاً يعطى صفة العموم، كما سبق ذكره عن سكان غينيا الجديدة، وعن جزر « سان بلاس » شمالى بنما، فإن السلطة هناك للمرأة، والنسب إليها لا إلى الرجل . وسيأتى كلام أكثر عن هذه الجزر .

وجاء فى سفر التكوين، إصحاح ٣ : ١٦ ما نصه : وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك .

وعند المصريين القدماء وغيرهم من ذوى المدنيات الأولى نرى أن القوامة

---

(١) هذا الحديث رواه ابن مردويه عن على، ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم مرسلاً، قال السيوطى : وشواهده يقوى بعضها بعضاً « تفسير القاسمى » .

للرجل، ويكفى فى بيان هذا حكاية قول الله فى سورة يوسف﴿ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ**﴾ . وستأتى صور أخرى توضح هذ القوامة . كما سيأتى توضيح معنى « السيد » فى الجزء الثالث إن شاء الله .

وعلى الرغم من تأكد هذه الحقيقة فى الشرائع السماوية والوضعية حاول بعض المجددين أو الدخلاء على الدين الذين يتكلمون من مراكزهم لا من ذكائهم ولا من علمهم، أن يجعلوا قوامة الرجل على المرأة قد تقلص ظلها فى هذه الأيام، بعد أن كافحت المرأة وغشيت المجتمعات، وصار لها دخل تنفق منه على الأسرة، وبلغت حداً كبيراً من العلم، ولا معنى أبداً لأن يستمر الرجل قواماً عليها بعد كل ذلك .

وقالوا – فيما قالوا – إن تفضيل الرجل على المرأة مشروط بأمرين، الأول خلقى وهو قوة الرجل للدفاع عنها، فإن فقد القوة فقد القوامة، والثانى كسبى وهو الإنفاق، فإن فقد الإنفاق كانت لها هى القوامة، والمرأة الآن تدافع عنها الحكومة ككل أفراد الدولة، وأصبحت تكسب بنفسها وتنفق على الأسرة (أهرام ١١ / ٦ / ١٩٦٣م) .

وقد حاول هذا المتكلم أيضًا فى اجتماع من الاجتماعات أن يواجه شعور الناس بعدم جرح كرامة الرجال فى قوامتهم على النساء، فقال : ليس معنى القوامة تفضيل الرجل عليها، بل معناها أنه مسئول عنها، وأن هذه المسئولية مستمرة حتى لو كانت المرأة تعمل وتكسب (أهرام ١٨ / ٣ / ١٩٦٣) . وهذه كلها سفسطة يتزلف بها إلى المرأة، وتطوير يخرج على حدود الطبيعة البشرية والقوانين السماوية . وقد انتقم الله ممن وضعوا بذرة هذا التطوير .

ولشعور الرجل بقوته المادية والأدبية قد يفكر فى احتقار المرأة أو استغلال ضعفها أو الاستغناء عن التعاون على مهام الحياة، وقد تبادله هى أيضًا هذا الشعور، بعامل التعويض أو مركب النقص كما يقولون .

لهذا جعل الله الشهوة الجنسية فيهما قوية، وجعلها فى الرجل أقوى، كما

تقدم بيانه، وذلك ليدوم الاحتياج إليها، حتى يكون النسل الذى يحافظ به على حياته النوعية، وحتى يكون التعاون على تحقيق الخلافة فى الأرض.

كما جعل الله حاجة الإنسان عامة إلى ما يطعمه ويسقيه ويستره ويؤويه قوية أيضًا كى يحافظ على حياته الشخصية. وكانت هاتان الحاجتان غريزتين من أقوى الغرائز فى الإنسان، إن لم تكونا أقواها على الإطلاق، حتى أن بعض الباحثين حاول أن يرجع إليهما كل الغرائز، بل كاد أن يخص بها الغريزة الجنسية وحدها.

ولعل مما يشير إلى ذلك البدء بها فى قائمة الشهوات فى قوله تعالى: **﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾** [آل عمران: ١٤]، فالشهوة همزة الوصل بين الرجال وبينهن، والبنون ثمرة الاتصال، وهم امتداد لحياة النوع، والقناطير المقنطرة وما بعدها تلبية نداء الغريزة الشخصية التى يوجد بها الشخص ويبقى حيًا. وقد تقدم فى ص (٨) القول القائل: إن الله قرن ثلاثة بثلاثة، قرن الشهوة بالزواج، فلولا الشهوة ما تزوج أحد، ولولا الرياسة ما طلب أحد العلم، ولولا الآمال ما عمرت الدنيا «مفيد العلوم للخوارزمى ص٢٠٦».

وكان لا بد لاستقامة الحياة وانتظامها على الأرض، وبخاصة بعد كثرة النسل وتعدد الأشخاص، من قواعد محددة لتنظيم العلاقة بين الجنسين، وهذا ما جاءت به الشرائع، ووضعت له القوانين.

* * *

الفصل الأول

منزلة المرأة قبل الإسلام

لا يوجد فى القوانين والشرائع والأديان مثل ما جاء به الإسلام فى تحديد القواعد وتنظيم العلاقات البشرية، ولا يتضح وضع المرأة بالنسبة إلى الرجل فى الإسلام إلا بعد الإشارة، ولو بإيجاز، إلى وضعها فى العالم قبل مجىء الإسلام، وفى البيئات التى لا تدين به.

ومن الملاحظ عند عقد مقارنة بين شيئين لإظهار فضل أحدهما على الآخر أن تتعقب العثرات ونقط الضعف. وتحصر النقائض والمثالب مع إغفال المزايا والمحامد، لتتضح الصورة المشرقة للطرف الآخر الذى يحاول إخفاء ما عنده من عيوب حتى لا يكون لها أثرها فى الموازنة.

وهذا الإجراء غير سليم فى منهج الدراسة الجادة التى تبحث عن الحق من أجل الحق، ومن هنا ينبغى إظهار ما لكل طرف من مزايا ومحامد، حتى يسهل الحكم بفضل أحدهما على الآخر، فيصيب أو يقارب الإصابة حسب الاجتهاد.

وهذه الملاحظة موجودة فى كثير مما يكتب خاصًا بالإسلام، لإظهار فضله على الأديان والشرائع الأخرى، وتتضح أكثر فى كل قضية يثار حولها الجدل، ويراد بيان موقف الإسلام منها، كقضية المرأة التى هى من أهم القضايا فى مناقشات العصر الحديث.

فإذا نقلنا صورة قاتمة عن المرأة فى غير الإسلام فليس معنى ذلك أنها كانت مهضومة الحقوق كلها، وأن شعبها جردها من كل مزية. وأنها لم تظهر بمزية من المزايا كغيرها من النساء، ولا ننسى أن هذا الإجراء الذى نراه مجحفًا قد يكون له ما يبرره بحسب الظروف والبيئة التى وضع فيها هذا التشريع، فقد يكون الشىء حسنا فى بيئة وظرف ما، ويكون غير ذلك فى بيئة وظرف آخر، والشرائع السماوية فيها تشريعات مختلفة فى فروع الأحكام تتناسب مع كل بيئة وزمن،

قال تعالى: ﴿ لكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، وذلك مع الاتفاق على أصول الدين من التوحيد والنبوات والمعاد.

فالواقع أن هناك بعض التشريعات التى أعطت المرأة مزايا تمتعت بها قديمًا، ولكن المأخوذ عليها هو عدم استكمال هذه المزايا والحقوق، وبخاصة ما كان منها أصلاً تمليه الفطرة الإنسانية، وتوجبه الكرامة الإنسانية. فإن الإجحاف بهذه الحقوق يعد طعنًا فى التفكير البشرى، ونكسة فى السلوك الإنسانى، ولبروزه بقوة يغطى عند الحكم على المزايا الجانبية الأخرى، كأنها لا شىء بجواره.

وكان موقف الإسلام من هذه الأوضاع الشاذة هو تصحيحها، والنعى بشدة على إسقاطها من الحساب عند التشريع، وإبراز هذه الصور المنسية إبرازًا تتضح به عدالة الإسلام فى ضمان الحقوق الكاملة للمرأة.

على أن المقارنة قد تعتمد، فى نظر بعض الباحثين، على كمية الحقوق التى نالتها المرأة فى العصور الأولى بالنسبة إلى ما نالته فى ظل الإسلام. مع أن الحكم على ظلم تشريع بالنسبة إلى المرأة، قد يعتمد على نقص كمية ما أعطيته بالنسبة إلى ما سلبته، وقد يعتمد على الكيفية التى صدر بها تشريع أو سلب، بصرف النظر عن كمية الحقوق، فيكون فيه من البشاعة مثلاً فى سلب حق لها حتى لو كان قليلاً، ما يتنافى مع الفطرة الإنسانية، وهنا يثقل الميزان عند المقارنة معتمداً على الكيف أكثر من الاعتماد على الكم.

فوأد البنات مثلاً فى الجاهلية عمل غير إنسانى، قد تترفع عنه الحيوانات العجماوات. وما ورد فى قوله تعالى: ﴿ لا يَحلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لتَذْهَبُوا ببَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ وحرمانها من ميراث أبيها أو أقاربها فيه ظلم صارخ للمرأة وسلب لحريتها الشخصية وإهدار لكرامتها الإنسانية، وليس معنى هذا أن العرب بعامة كانوا كذلك فى نظرتهم إلى المرأة، فإن كثيرًا من هذه المآخذ كان تطرفًا وتماديًا فى تحقيق مبدأ كريم كالغيرة على المرأة، وصون كرامتها، فهم يرون أن مواراتها عن الوجود أهون من أن تعيش منتهكة العرض قسرًا تحت

سمع ذويها وبصرهم، كالأسيرات مثلاً، والإسلام عاب عليهم تطرفهم وجاء بشريعة الوسط والاعتدال، تحفظ لها حقها فى الحياة وتحوطها بالرعاية ليحفظ عرضها وشرفها، وبالتالى لا يهان شرف الأسرة ولا تهدر كرامتها.

وبالنظر إلى التشريعات العامة بالنسبة للمرأة فى البيئات المختلفة نجد أن المرأة عند عرب الجاهلية كانت تتمتع بحقوق ما كانت تتمتع بها غيرها من النساء. فلئن كان وضعها مهينًا فى الجاهلية بالنسبة إلى وضعها فى الإسلام، فقد كانت إذ ذاك أحسن بكثير من مثيلاتها فى الشرائع الأخرى .

على أن الحكم على وضع شاذ لا يلزم منه أن يكون طابعًا عامًا فى كل القوم، فقد يكون خاصًا بجماعة منهم، لكنه لبشاعته وعدم مقاومته من غيرهم نسب إليهم جميعًا، وقد يكون تكييف الحكم مراعى فيه اختلاف البداوة والحضارة، واختلاف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وغيرها من أنواع الاختلاف.

هذا، ولما كان أقوال الكاتبين فى بيان منزلة المرأة فى الشرائع الأخرى مختلفة الأسلوب والزوايا التى سلطت عليها الأضواء، أحببت أن أوردها منسوبة إلى أصحابها، على الرغم مما قد يكون من تشابه فيما بينها، يشق اختزاله الذى يتخلله الكثير من الرد لقائليها وتضيع به لذة القراءة وتتبع الفكر.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه «نداء إلى الجنس اللطيف»: كانت المرأة تشترى وتباع كالبهيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج والبغاء، وكانت تورث ولا ترث، وتُمْلَك ولا تملك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق فى التصرف فى مالها ومن دون إذنها، وقد اختلف الرجال فى بعض البلاد فى كونها إنسانًا ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا، وفى كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا، وفى كونها تدخل الجنة أو الملكوت فى الآخرة أم لا . فقرر أحد المجامع فى رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن تجب عليها العبادة والخدمة،

وأن يكم فمها كالبعير أو الكلب العقور، لمنعها من الكلام والضحك، لأنها أحبولة الشيطان، ولم يعترف بأنها إنسان إلا فى القرن السادس حين اعترفت فرنسا فى سنة ٥٦٨م بأنها إنسان خلق لخدمة الرجل، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق فى قتل ابنته، بل فى وأدها، أى دفنها حية أيضًا. وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل فى قتل المرأة ولا دية، انتهى بتصرف.

وإذا كانت المرأة تعامل هذه المعاملة فإن ذلك، كما قلت، لا يمنع أن تكون بعض البيئات قد أعطتها شيئًا من التكريم يختلف باختلاف العصور والظروف، ومع ذلك فإننا سنوضح هذا الكلام بشىء من البسط، مقسمين الحديث إلى أقسام، قسم يبين حالها فى الشرائع القديمة غير الدينية، وقسم يبين حالها فى الشرائع الدينية، وقسم يبين حالها فى الشرائع الحديثة التى جاءت بعد الإسلام.

القسم الأول :

١ - البدائيون :

لقد جعلت الجماعات الفطرية المرأة فى صفوف الألغاز، كالرعد والبرق، وذلك لما لها من تأثير على نفس الرجل وأحاسيسه، حتى أن بعضهم عبدها عبادة القوى الخفية، وسموها «المانا». وفى عهود القنص ظلت هى حبيسة البيت فى مركز منحط، لا تخرج مع الرجل لأنها شؤم عليه فى عمله، ولهذا كان يفكر إذا لم يوفق فى الصيد أن زوجته خانته فى المنزل.

وصائد الحوت فى مدغشقر يحبسها وراء الأقفال، ولا يقربها قبل السفر بمدة طويلة، ليضمن الغنيمة فى سفره. ومن هنا كان لها أن تتخذ عدة أزواج، ويكون لها المركز الأهم فى الحياة[١].

---

(١) المرأة فى مختلف العصور لأحمد خاكى.

٢ - مصر :

سما مركز المرأة فى مصر، فعبدها المصريون ومن آلهتهم « إيزيس » التى هى رمز الخصب والنماء. ولهذا كانت البيئات الزراعية، وهى الغالبة فى مصر، تشارك المرأة فيها الرجل فى العمل إلى حد كبير، وذلك لاعتقادهم فى العلاقة بينها وبين الخصب.

ومن مظاهر احترام المصريين لها رسمها بجانب الرجل، وتوليها الملك، مثل حتشبسوت، نيتوكريس. ومع ذلك فهى فى وضع أدنى من الرجل، لأنه سيدها، على ما مر ذكره ﴿ **وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ** ﴾.

يقول القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ فى نوادره : لما أغرق الله فرعون وجنوده بقى النساء بلا رجال، فتزوجن الخدم، فكان الخادم يقول لزوجته « ستى » أى سيدتى، واستمر ذلك إلى زماننا هذا. ولا أدرى مدى صحة هذا الكلام، وإن كان ممكن القبول عقلاً بصرف النظر عن كون هذا اللفظ « ستى » كان فى اللغة المصرية القديمة منذ خمسة آلاف سنة كما فى أهرام ٨ / ٣ / ١٩٨١م وما زال موجوداً بمعناه إلى الآن.

ويقول الكاتبون : إن ألوان الصور المصرية القديمة تدل على أن الرجل كان يعمل خارج البيت، والمرأة مستقرة فيه، وذلك لسمرة الرجل وصفرة المرأة، ولهذا كان لقبها المصرى القديم « نبت بر » أى ربة البيت. وإن كانت تقوم ببعض الأعمال الخارجية مشاركة منها فى سعادة الحياة الزوجية. وقد مر فى الحديث عن الحجاب قول هيرودوت عن نساء مصر : إنهن يخرجن إلى الأسواق، ويمارسن التجارة.

ويقول « خاكى » : كثرت فى آداب المصريين القدماء وصاياهم بالمرأة فى حسن معاشرتها، يقول « بتَاحْ حُتِبْ » سنة ٣٣٥٠ ق.م[١]. إذا أصبحت رجلاً ذا

---

(١) بتاح حوتب أقدم كاتب فى العالم يرجع إلى ٣٢٠٠ ق. م كما فى « عادات الزواج للشنتناوى ص٩٩ ».

مركز فأقم لك بيتًا، أى تزوج، وأحب زوجتك فيه كما يجب أن يكون، أطعمها الطعام، وألبسها اللباس، وأعد لها الزيت، لأن فيه شفاء أعضائها، وأدخل على قلبها السرور ما عاشت، فإنها حقل يدر عليك الخير، ولا تجادلها، فإنها لن تسلك سبل العنف إذا أنت ترفقت بها، وقد جاء فى وصايا « أنى » حكيم الدولة الحديثة : أطع والدتك واحترمها فإن الإله هو الذى أعطاها لك، لقد حملتك فى بطنها حملاً ثقيلاً ناءت بعبئه وحدها دون أن أستطيع لها عونًا . وعندما ولدت قامت على خدمتك أم رقيقة لك ثم أخذت تتعهدك بالإرضاع ثلاث سنوات طوال، وعندما اشتد عودك لم يسمح لها قلبها أن تقول : لماذا أفعل هذا؟ . وكانت ترافقك فى كل يوم إلى المدرسة لتدرس وتتعلم وتتهذب، ثم تغدق على معلمك خبزًا وشرابًا من وفير خيرات بيتها، والآن وقد ترعرعت واتخذت لك زوجة وبيتًا فتذكر أمك التى ولدتك وأنشأتك تنشئة صالحة، لا تدعها تلمك وترفع أكفها إلى الله فيستمع شكواها « تاريخ الحضارة المصرية طبعة وزارة الثقافة والإرشاد ج١ ص١٣٣، ١٣٤ » . ومن مظاهر تكريم المرأة فى مصر الفرعونية أن الرجل إذا تزوجها ظلت فى بيت أهلها ويعيش هو معها، كأنه ضيف، وظل ذلك حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وكان أثاث البيت ملكًا لها ولبناتها، وكانت سيدة البيت الحقيقية ولا تعلو عليها كلمة الزوج فيه، وكانت تمثل فى آثار الدولة القديمة جالسة على المقعد الذى يجلس عليه الزوج، ويدها على كتفه رمزًا للحياة والملك، وكان ينقش فى قبر الزوج صورة زوجته أو زوجاته، ولم يكن يحوى قبر الزوجة نقشًا أو تمثالاً لزوجها . وكان عبء الإنفاق على الوالدين عند الشيخوخة يقع على عاتق البنات وليس على عاتق الذكور . « عادات الزواج للشنتناوى ٩٠-٩٣ » وجاء فى ص٩٦ منه أن عقد الزواج كانت هى الطرف المتعاقد الوحيد وتملى شروطها فيه على الزوج، ومما جاء فيه : إذا تركتك بصفتك زوجًا لى بسبب كراهيتى لك أو لأنى أحببت رجلاً آخر غيرك فإنى سوف أعطيك مثقالين ونصفًا من الفضة، وأرد إليك المعيارين ونصفًا من الفضة التى

أعطيتني إياها كهدية عرس. وكان في استطاعتها أن تطلق زوجها متى شاءت دون إبداء سبب، فهي وحدها التي تملك حق الطلاق دون الرجل، وكان ينص في العقد على ذلك، ففي أحد العقود: إنك وحدك لك الحرية في فسخ الزواج. وجاء في ص١٠٢ أن مركزها سماحتى أصبحت إحداهن حاكمة لإقليم الفيوم، وأخرى كبيرة قواد الإقليم الغربي. ولكن وجد اتجاه إلى الحد من سلطان المرأة وأصبحت في العصور المتأخرة لا يحق لها الطلاق بل أصبح من حق الرجل. ومن الملكات في مصر الفرعونية (مريت نيت) في أواخر الأسرة الأولى. وقد حكمت بعد اضطرابات فأعادت الأمن إلى البلاد، خنتكاوس من الأسرة الرابعة ولقبت بملكة مصر العليا والسفلى، نبت أفرت حكمت ١٣ سنة ساد فيها الرخاء، حتسبسوت، أشهر ملكات مصر ومن أشهر نساء العالم. أنشأت أسطولاً تجاريًا وآخر حربيًا صان استقلال البلاد، ولقبت بابن الشمس وسيد الأرضين، وذلك أنها كانت تلبس ملابس الرجال، وتضع لحية مستعارة في المناسبات الرسمية (من أهرام ٣١ / ١ / ١٩٧٩).

٣ - بابل :

في بابل احترمت المرأة، كما جاء في تشريع حمورابي[١] الذي نهى عن تعدد الزوجات إلا للمرض المزمن والفقر، وجعل الرجل مسئولاً عنها وعن ديونها ومأواها، وجعل ميراثًا لها ولأولادها، وأباح لها القضاء والشهادة والكتابة[٢] وسيأتي مزيد توضيح لذلك في الجزء الثالث إن شاء الله.

٤ - الهند :

يقول أبو الأعلى المودودي: هناك اتجاهان في الهند، أولهما جعل المرأة مملوكة لأبيها، ثم لزوجها، ثم لأولادها، تحرق بعده إذا ماتت، وتحرم الملكية

---

(١) انظر تاريخه في أول هذا الجزء.

(٢) خاكي.

والإرث، وتزوج بغير رضاها، ويعتقد أنها مادة الإثم وسبب الانحطاط. والثانى يتجه إلى تكريمها والمبالغة فيه، حتى تكون عند الرجل أداة متعة وهوى.

وهذه التقاليد الهندوكية من تقديس فرج الذكر والأنثى «لنك، يونى» وعبادة التماثيل العارية، وتكريم خادمات المعبد العاهرات اللاتى يطلق عليهن اسم «العاهرات الدينيات».

واختلاط الجنسين فى ألعاب عيد «هولى» وفى الغسل المطهر فى المياه المقدسة. كلها بقايا حركة «البام ماركيه» التى انتشرت فى الهند عقب ازدهار حضارتها، كما انتشرت فى بابل وفارس والروم واليونان.

ويقول الدكتور على وافى فى كتابه «المساواة فى الإسلام ص٥٢»: تنص الشريعة البرهمية الهندية على أن المرأة تظل طول حياتها تحت سيطرة الرجل، ومنفذة لأوامره، وليس لها الحق فى أى تصرف قانونى، ولا أن تبرم أى أمر وفق مشيئتها. وإلى هذه الأحكام تشير المادتان ١٤٧، ١٤٨ من قوانين «مانو» إذ تقرران: أنه لا يحق للمرأة فى أية مرحلة من مراحل حياتها، أى سواء فى طفولتها وفى شبابها وفى شيخوختها، أن تجرى أى أمر وفق مشيئتها ورغبتها الخاصة، حتى لو كان ذلك من الأمور الداخلية لمنزلها «مادة ١٤٧». ففى مراحل طفولتها تتبع والدها، وفى مرحلة شبابها تكون تابعة لزوجها، فإذا مات زوجها تنتقل الولاية عليها إلى أبنائه، فإن لم يكن له أبناء تنتقل الولاية عليها إلى رجال عشيرته الأقربين. فإن لم يكن له أقرباء انتقلت الولاية عليها إلى عمومتها، فإن لم يكن لها رجال عمومة انتقلت الولاية عليها إلى الحاكم. فليس للمرأة فى أية مرحلة من مراحل حياتها حق الحرية والاستقلال، ولا التصرف وفق ما تشاء «مادة ١٤٨هـ». اهـ.

وجاء فى كتاب تاريخ العالم ص٣٩٤ ترجمة وزارة المعارف المصرية: أنه فى أساطير «مانو» أن مانو عندما خلق النساء فرض عليهن حب الفراش والمقاعد والزينة والشهوات الدنسة والغضب والتجرد من الشرف والسلوك السيء، فالنساء دنسات كالباطل نفسه، وهذه قاعدة ثابتة.

وجاء فى كتاب « حضارة الهند » تأليف : ول ديورانت . ترجمة د . زكى نجيب محمود « ص١٧٩ » : أنه فى تشريع « مانو » أن الزوجة الوفية ينبغى أن تخدم سيدها، أى زوجها، كما لو كان إلهاً، وألا تفعل شيئًا من شأنه أن يؤلمه، حتى لو خلا هو من الفضائل، وكانت المرأة، بناء على ذلك، تخاطب زوجها فى خشوع، قائلة : يا مولاى، وأحيانًا : يا إلهى، وتمشى خلفه بمسافة، وقلما يوجه إليها هو كلمة واحدة، وكانت لا تأكل معه، بل تأكل مما يتبقى منه .

٥ - الصين :

كانت المرأة فى الصين القديمة فى وضع غير كريم . فهم يعدونها فى مؤخرة الجنس البشرى، وكان من أغانيهم : ألا ما أتعس المرأة فى حظها، ليس هناك شىء أقل من قيمتها، إن الذكور من الأولاد يقفون متكئين على الأبواب كأنهم آلهة نزلوا من السماء، أما البنات فإن أحدًا لا يسر بولادتهن، وإذا كبرت البنت اختبأت فى حجرتها، تخشى أن تنظر فى وجه إنسان، ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها . . « من كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة » للبهى الخولى، نقلاً عن كتاب حضارة الصين « تأليف : ول ديورانت ص٢٧٣ – ترجمة محمد بدران » .

٦ - اليونان :

المرأة فى اليونان وضعها مختلف فى « أثينا » عنه فى « أسبرطة » وهما المدينتان القديمتان الكبيرتان اللتان تمثلان حضارة اليونان، فيقول « خاكى » : فى أثينا احتقرت المرأة، لأنها لم تشارك الرجل فى الزراعة، وكانت الدولة وسياستها فى أثينا محور النشاط كله، على المستوى الفردى والحكومى، والفرد فيها لا قيمة له فردية، فعمله كله للحكومة، وعمل المواطنين كله للحرب وخدمة الحكومة، والأعمال اليدوية وكلت إلى الرقيق، والمرأة لم تختلط بالرجال، فقلت ثقافتها، وضعفت شخصيتها . ولهذا كان الرجل يغار عليها ويحجبها، فكانت فى كل وقتها ملازمة للبيت دون عمل، لأن الرقيق يقوم بخدمة المنزل، والرجل له الحياة العامة، ولهذا كانت صلته بالمرأة منقطعة أو ضعيفة . وكانوا لا يورثونها حتى لو لم يكن للميت ذكر، فإنهم كانوا يعطون الميراث لأرشد الذكور من الأقارب .

وعلى الرغم من تقدم الحضارة فى أثينا فإن المرأة فى أزهى العصور بقيت متأخرة، وإن كان بعض المصلحين والفلاسفة جعلوا لها شيئًا من الاحترام فى كتاباتهم، كالكاتب المسرحى « يوربيدس » الذى ندد بمعاملة الرجال للنساء بقسوة، وكأفلاطون الذى قال بفكرة المثل العليا، حيث خدم المرأة عن غير قصد، لأن الناس سموا بمنزلتها. واعتبروا أن أصلها مخلوق من الجمال والنور.

وفى « اسبرطة » كان للمرأة شأن فى الحياة، وكان الأثينيون يعيرون الأسبرطيين بأنهم جماعة رجال تحكمهم نساؤهم. وذلك لأن اسبرطة كانت مهتمة بتربية الأطفال وتقوية الأفراد من أجل الحرب، فكانت مهمة المرأة الإنتاج والتربية والقاسية للأولاد وتخريجهم شجعانًا للميدان، ومن هنا كبتت عندها عواطف الحنان. انتهى خاكى.

ويقول « ول ديورانت » فى حياة اليونان ترجمة محمد بدران ص١١٤– ١١٧:

كانت المرأة معزولة عن المجتمع حتى فى العصر الذهبى. وقال بعض مفكريهم: يجب أن يحبس اسم المرأة فى البيت كما يحبس جسمها. وكان ينظر إلى الزوجة على أنها ولادة أطفال، مثلها فى هذا العمل كخادم البيت، عمله الخدمة، وأما الحب فكان شيئًا غير معتنى به نحو الزوجة. يقول « ديموستين » خطيبهم المشهور: إننا نتخذ العاهرات للذة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأولاد الشرعيين.

ويقول المودودى عن اليونان: لقد اتخذت أساطيرهم امرأة خيالية تسمى « باندورا » ينبوع جميع آلام الإنسانية ومصائبها اهـ. ومن هنا أهملوا تعليمها، كما يقول الدكتور وافى فى كتابه « المساواة ص٥٤ ». ونقل عن أرسطو قوله فى كتابه « السياسة » إن الطبيعة لم تزود النساء بأى استعداد عقلى يعتد به، ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة. وقال: كان هذا الرأى معبرًا عن وجهة نظر الشعب كله.

وكذلك لما جاء أفلاطون، ونقضه فى كتابه «الجمهورية» كان موضع تهكم. وقد ألف «أريستوفان» عميد شعراء الكوميديا إذ ذاك تمثيليتين للسخرية بآرائه، هما: برلمان النساء، بلونوس.

٧ - الرومان:

يقول محمد فريد وجدى فى كتابه «تاريخ الحجاب»: كانت المرأة فى الرومان أمة، وولدها عبد، والرجل يتصرف فيها كما يتصرف فى الدابة، بل إن الأوامر الدينية كانت ضدها، يقول «جوستاف لوبون»: إن الفتاة لم تكن تستطيع أن تتصل برجل واحد، لا ينالها قبل أن تدخل فى حوزة القسيس، بأن تكون له زوجة أو أمة، ويقول أيضًا: إن التعاليم الدينية عند الأمم القديمة كانت تأمر المرأة أن تسلم نفسها لأجنبى قبل الزواج، على أن ذلك له ظل الآن، يقول «جوستاف» نقلاً عن دراسة نشرتها المجلة العلمية: إن السفاح بين الفتيان والفتيات قبل الزواج، وفى أعراسه وفى المراقصات العامة لا يزال عادة مرعية عند أقوام من أهل أوروبا يعيشون فى هذا العصر، فهم يرون أن مما تعاب به الفتاة أن تتخلف عن هذا السفاح، كما يرون أن العفاف شيء مستهجن، حتى ليصعب على الفتاة التى لا تحمل سفاحًا قبل الزواج أن تجد لها رجلاً يتزوجها. اهـ.

ويقول محمد قطب فى كتابه «شبهات حول الإسلام». إن المرأة عند اليونان والرومان إذا جاء عهد كرموها فيه فإن ذلك بصفتهن الشخصية، أو لنساء العاصمة بوصفهن زينة المجالس وأدوات الترف، لا لأجل احترامها كمخلوق إنسانى له كرامة، وظل الوضع كذلك فى عهود الرق والإقطاع فى أوروبا، والمرأة غارقة فى جهالتها، تدلل حينًا للترف، وتهمل حينًا كالحيوانات.

ويقول المودودى: عندما خرج الرومان من دور الهمجية كان الرجل رب الأسرة وصاحب السلطان، حتى كان له أن يقتل زوجته فى بعض الأحيان، ولما تقدموا فى الرقى استوت كفة المعاملة بين الرجل والمرأة.

ويقول « خاكى » : فى العصور الأولى لتاريخ الرومان جعلوا المرأة تابعة للرجل، تأتمر بما يريد، فعند زواجه بها تنتقل تبعيتها له، وتصير ابنة له، وحرمت كل عمل غير الزوجية، فليس لها أن تتوظف ولا أن تشهد، ولا تعقد، ولا ترث إلا من زوجها وأخيها، وأعفتها الحكومة من بعض القوانين مراعاة لضعفها.

ثم يقول: وبعد قرن أو قرنين احتفظت المزوجة بعلاقتها بأبيها، على الرغم من زواجها، فهى تعتبر كعارية عند الزوج، ترد لأبيها عند موته أو طلاقها منه، وكان النضال من أجل علاقة الزوج والأب بها سببًا من أسباب إيجاد كثير من الحرية للمرأة، فكبر مركزها، وظهرت نساء كثيرات فى المجتمع الرومانى، على عكس المجتمع اليونانى، وطغى سيلها حتى شكا بعض المشرعين منها، فنادى بعض أعضاء « التربيون » بفرض قانون يحرم عليها أن تمتلك أكثر من نصف أوقية ذهب، وأن تلبس ثيابًا ملونة، وأن تركب عربات إلى مدى ميل من روما إلا فى الحفلات العامة، ولهذا كونت عصبة منهن للمطالبة بحقوقهن كما تقدم ذلك فى الباب الأول من هذا الكتاب.

٨ – العرب :

لو نظرنا إلى المرأة العربية فى الجاهلية، وقارنا حالها بحالها بعد الإسلام، لوجدنا أنها كانت محرومة من حقوق كثيرة، ولكن هذا لا يمنع أن يكون العرب قد نظروا إليها نظرة احترام فى جوانب أخرى، وكانت البدوية تنتقل مع زوجها فى الوديان، ويحافظ عليها كالمتاع، ويقول الشعر فيها، كما كانت الحضرية التى تعيش فى البيئة التجارية فى مكة والمدينة مثلاً ذات حقوق، كمزاولة مهنة التجارة، بدليل نشاط خديجة، فالمرأة الحضرية لها كيان تحس بوجودها أكثر مما تحس به البدوية التى كانت تابعة كل التبعية لزوجها صاحب المركز الأول.

ولعل مما يعطى صورة عن وضع المرأة واختلافه باختلاف البيئات ما رواه مسلم « ج١٠ ص٨٥ » فى موضع تخيير المرأة بين البقاء مع زوجها وطلاقها، من قول عمر رضى الله عنه: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله

فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم. قال: فبينما أنا فى أمر ائتمره إذ قالت لى امرأتى: لو صنعت كذا وكذا!! فقلت لها: ومالك أنت ولما هنا، وما تكلفك فى أمر أريده؟ ... وقوله فى رواية أخرى «ص٩٠»: كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم.

فكما أن العرب فى الجاهلية بوجه عام هضموا المرأة بعض حقوقها أعطوها حقوقًا أخرى، وإذا كانت فى بيئة مغلوبة على أمرها كانت فى بيئة أخرى لها كيانها واحترامها، ومهما يكن من شىء فإن من مظاهر تكريمهم لها فى الجاهلية ما يأتى:

(أ) المحافظة على عرضها وشرفها والدفاع عن كرامتها بالروح والدم، فحرب داحس والغبراء، والفجار الثانى فى عكاظ وموقعة ذى قار لحماية حُرَّقَة بنت النعمان من أكبر الأدلة على ذلك، وقد تقدم ذكرها فى مقاييس اختيار الزوجين. وكذلك حادث عمرة بنت الحباب التغلبية.

حيث يقول الشيخ عبد الله عفيفى فى كتابه «المرأة العربية».

كان لبيد بن عتبة الغسانى واليا على ربيعة من قبل ملك اليمن، ثم تزوج منهم عمرة بنت الحباب التغلبية، فجلس يومًا يحدثها فقال: ما بال كليب ينصر مضر ويتهدد الملوك؟ فقالت: لا أعلم فى ولد إسماعيل ذا لبدة هو أشد منه، فهاج غضبًا ولطمها، وقال لها: أترين أنك حرة؟ أنت أمتى، فاقبلى ما يأتيك منا معشر الملوك. فقالت: أنا أكرم منك. ثم خرجت مغضبة حتى انتهت إلى كليب وهى تقول:

ما كنت أحسب والحوادث جمة	أنا عبيد الحى من غسان
حتى علتنى من لبيد ضربة	سجرت لها من حرها العينان
إن ترض تغلب وائل بفعالهم	تكن الأذلة عند كل رهان

فلما سمعها كليب خرج حتى هتك على لبيد قبته، وصدع بالسيف

هامته. ثم جمعت اليمن جحافلها، وجمعت مضر وربيعة كذلك جحافلها. وقاد الأولين عمرو بن بابل اللخمى، ورأس الآخرين كليب بن ربيعة التغلبى. واقتتل الفريقان من صبيحة اليوم إلى أصيله فى موقعة ضارية، بذلت فيها المهج، وبيعت الأرواح بيع السماح.

اللبدة بكسر اللام وضمها: الجماعة من الناس، يقيمون وسائرهم يظعنون كأنهم بتجمعهم تلبدوا.

ومما جاء فى ثورتهم لحفظ كرامة المرأة، خبر حرب الفجار الثانى عام ٥٨٠م وسببها ثورة امرأة من بنى عامر بن صعصعة، حيث كانت تسير فى السوق وقد أسدلت نقابها على وجهها، ورآها بعض الشبان فأخذوا يعاكسونها لتكشف القناع فأبت ونهرتهم، فتسلل أحدهم وشد ثوبها من الخلف إلى ظهرها بشوكة وهى لا تدرى، فلما تنبهت سخروا منها وقالوا: منعتنا من الوجه فشاهدنا أكثر منه، فصرخت.... يا للعار فاندلعت الحرب بسببها.

وكذلك قصة ليلى ا لعفيفة درة ربيعة التى سمع ملك الفرس بجمالها فأراد أن يضمها إلى نسائه، فخطفها جنوده ليلاً، وأبت أن تستسلم إلى الملك، وأخذت تبكى فراق أهلها بشعر تذكر فيه حبيبها:

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقى من بلاء وعنا

فانضم العرب إلى قبيلتها ربيعة وحبيبها وابن عمها البراق حتى خلصوها من الغاصبين، هاتان الحادثتان فى أهرام ٣٠ / ٩ / ١٩٧٤ وكذلك حادث عمرو بن هند مع عمرو بن كلثوم، فقد أراد أن يستذل أمه «ليلى بنت مهلهل» فثار ابنها، وقتل الملك فى ثورته، وقال فى ذلك قصيدته المشهورة وخطب بها فى عكاظ، ومطلعها:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقى خمور الأندرينا[1]

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى للحوفى ومجلة الأزهر مجلد ٩ ص٧١٢.

ومن مظاهر تكريمها قول مرة بن محكان السعدى:

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ... ضمى إليك رحال القوم والقربا

(ب) قولهم الشعر الرصين فى المرأة لأغراض متعددة، كالغزل من أجل استجلاب تقديرها لشجاعته مثلاً، كقول عنترة:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أو العطف عليها كقول حطان بن المعلى فى بناته :

لولا بُنيَّات كَزُغْب القطا ... رُدِّدن من بعض إلى بعض(١)

(جـ) احترام رأى المرأة عند الزواج إن لم يكن هناك مطمع فى مالها كالحال الشاذة التى سنذكرها بعد، وقد سبق فى الجزء الأول خبر استشارة والد هند لها عندما خطبها سهيل وأبو سفيان، وكذلك استشارة بهيسة فى زواجها.

(د) أخذ رأيها فى المشاكل العامة واشتراكها فى الأحلاف، ذكروا أن بشر ابن أبى حازم – وكان عبداً – هجا أوس بن حارثة الطائى، وذكر أمه « سعدى » فأغار أوس عليه وأراد التنكيل به، فأشارت عليه أمه بالعفو عنه والإحسان إليه، ففعل. فقالت له: يا بنى، مات أبوك فرجوتك لقومك، فأصبحت أرجوك لنفسك، زعمت أنك ستنكل برجل هجاك، فمن يمحو ما قاله غيره؟ قال: فماذا أصنع؟ قالت: تكسوه حلتك، وتعطيه مائة ناقة، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه، ففعل ما أمرته، فمدحه بشر بقصيدة محابها الهجاء السابق(٢).

ومن اشتراكها فى الأحلاف اشتراك عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف فى حلف الأحابيش، واشتراك أم حكيم أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب فى حلف المطيبين وهو حلف بين بنى عبد مناف ومن انضموا إليهم فى خلافهم

---

(١) بقية الأبيات فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

(٢) الكامل للمبرد وتاريخ ابن الأثير والمرأة فى الشعر الجاهلى للحوفى .

مع بنى عبد الدار بعد وفاة قصى بن كلاب، فقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا، وقيل إن التى أخرجت لهم الجفنة هى أم حكيم أو عاتكة بنت عبد المطلب «أم النبى لبنت الشاطئ».

(هـ) احترام جوارها، فقد حمت ريطة بنت جدل الطعان، دريد بن الصمة، عندما أسره بنو فراس، وكذلك قصة فكيهة بنت قتادة، خالة طرفة بن العبد، فقد أجارت السليك بن السلكة. عندما أسره جماعة من بنى مالك، وأفلت منهم، فدخل عليها، واستجار بها، فجعلته تحت درعها، واخترطت السيف، فلما تكاثروا عليها كشفت خمارها عن شعرها، وصاحت مستغيثة بأخوتها، فدافعوا عنها، حتى نجا السليك وكان كليب سيد بنى تغلب مشهوراً بحماية الصيد، ويقول: صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى، فلا يصاد، وضرب به المثل، فقيل: أعز من كليب وائل. وليس على الأرض بكرى أو تغلبى أجار رجلاً أو بعيرًا إلا بإذنه. وكان إذا حمى حمى لا يقرب. وقصة الناقة «سراب» بينه وبين ابن عمه «جساس» مشهورة، وخلاصتها:

أن كليبًا كان يخرج ويدور فى حماه، فإذا هو بحُمَّرة على بيض لها. فلما نظرت إليه صرصرت وخفقت بجناحيها، فقال: أمن روعك، أنت وبيضك فى ذمتى. ثم قال: يا لك من حمرة فى معمرى خلالك الجو فبيضى واصفرى ونقرى ما شئت أن تنقرى.

ثم خرج بعد ذلك يطوف فإذا هو بأثر بعير لا يعرفه وطىء البيض، فشدخه، فرمى كليب فصيل ناقة سعد الحرمى، الذى نزل بجوار البسوس، وكانت خالة جساس، فشدخ ضرعها لقاء شدخ بيض الحمرة، فقتله، وكان ذلك سببًا فى الحرب بين أولاد العم .

وجاء فى أهرام ٣٠ / ٩ / ١٩٧٤ :

أن الحرب دامت ٤٠ عامًا من ٤٩٤ – ٥٣٤م وسببها أن البسوس خالة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان كانت تسير فى الصحراء فعطشت ناقتها وشاهدت من بعيد إبل كليب بن وائل تلف حول بئر فى واحته فساقت ناقتها لتشرب فشاهدها كليب فثار وقتلها فاستغاثت البسوس بابن أختها، فهب لنجدتها وتعارك مع كليب فصرعه وشبت الحرب بي البكريين والتغلبيين. وذكر ذلك الدميرى فى حياة الحيوان «اليمام».

(و) مما يدل على أنها من أعز ما يملكون، أنهم كانوا يفدون شيئًا عزيزًا بأعز ما عندهم، فيقولون لرجل كبير مثلاً: فداك أبى وأمى، يعنى: يهون فى سبيل إكرامك أكرم شيء أعتز به وهو أبى وأمى. وذلك كثير فى أقوالهم.

(ز) فى بعض الأحيان كانت الزوجة تشترط أن تكون العصمة بيدها، مثل سلمى بنت عمرو إحدى نساء بنى عدى بن النجار، وكانت لا تتزوج الرجال إلا وحَبْلُها على غاربها، إن رأت بمن تتزوجه شيئًا تكرهه تركته وشأنه، ولا يقدح ذلك فى عفتها وكبريائها، واشتهرت التميميات من نساء قريش بالحظوة والتدلل على رجالهن.

(ح) كانت المرأة تشترك فى الحرب، بل تحمل الراية التى لا يحملها إلا الشخصيات الكبيرة، ومنهن عمرة بنت علقمة الحارثية رافعة اللواء يوم أحد. وقد اشتركت هند بنت عتبة بن ربيعة امرأة أبى سفيان فيها، كما سيأتى توضيحه بعد، فى حكم اشتراك المرأة فى الغزو.

(ط) كانت المرأة أحيانًا تحكم قومها حكم الملوك أو قريبًا منه. مثل أم قِرْفة فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التى جرى بها المثل، فقالوا: أمنع من أم قِرفة، لأنه كان يعلق فى بيتها خمسون سيفًا لخمسين رجلاً، كلهم لها مَحْرم، وكان لها اثنا عشر ولداً، وملكة رئيسة لبنى فزارة ببوادى القرى، وهى التى هاجم رجالها تجارة زيد بن حارثة، فأرسله النبى ﷺ إليهم فى رمضان سنة ست من الهجرة، وكان زوجها هو مالك بن حذيفة بن بدر الفزارى(١).

(١) الزرقانى على المواهب ج٢ ص١٦٣، وحياة الحيوان الكبرى – اليمام.

(ى) كان لبعضهن رأى حسن يرجع إليه، كما تقدم فى فقرة (د) ومنهن: دختنوس بنت لقيط بن زرارة، التى كان أبوها يرجع إليها فى الرأى، ويصحبها فى غزواته، وقد تقدم ذكرها فى الجزء الأول فى بحث اختيار الزوجين عند تفسير كلمة « الحنانة » كما سيجىء ذكرها فى الجزء الرابع فى رعاية الأولاد، ومنهن عمرة بنت عامر بن الظَّرِب، التى كان يرجع إليها أبوها فى الرأى أيضًا.

ومن صواحب الرأى الحسن فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية، فقد كانت من أرباب الفصاحة والرأى السديد، وولدت من زياد بن عبدالله العبسى سبعة، فعد العرب من المنجبين منهم ثلاثة، وهم خيارهم، ظفر بها بعض المغيرين على قومها. وقادها بجملها، فقالت له: لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة بى وبك التى أمامنا ووراءنا لا يكون بينك وبين بنى زياد صلح أبدًا، لأن الناس يقولون فى هذه الحال ما شاءوه. وحسبك من شر سماعه. فصارت مثلاً. فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها من البعير، فماتت خوفًا من أن يلحق بنيها عار منها[1].

(ك) كان بعض العرب يمنع زواج بناته خوف العار إن أهانهن الأزواج، وقد تقدم ذكر همام بن مرة وبناته فى الجزء الأول، ومنهم ذو الأصبع العدوانى، كان له أربع بنات منعهن الزواج وهن يردنه « المحاسن والمساوئ للبيهقى » وكثير غير هولاء فيهن دليل على أن المرأة فى الجاهلية كان لها وضع كريم أحيانًا، أو كانت لهاحقوق لم تتمتع بها غيرها. ومن شاعرات الجاهلية وفصحائها: الخنساء، وليلى وجليلة أخت جساس وأم جندب التى حكمت فى شعر امرئ القيس.

(ل) وتوصف فى الجاهلية بالعفة والفصاحة وحسن تربية الأولاد. ولذلك كانوا يدققون فى اختيار الأمهات عند الزواج. ومما يذكر أن كثير عزة لما مات كان أكثر المشيعين له من النساء، فقام محمد الباقر ينحى النساء عن الجنازة قائلاً: تَنحَّين يا صواحبات يوسف. فقالت زينب بنت معيتب له: قد كنا خيراً

---

(١) أعلام النساء لكحالة.

منكم له، نحن دعوناه إلى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع، وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه فى الجب، وبعتموه بثمن بخس، ثم حبستموه فى السجن، فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف؟ « الأغانى للأصفهانى ج٩ ص٣٧ طبعة دار الكتب » نقله سعيد الأفغانى فى كتابه : الإسلام والمرأة ص٥٢ .

ومن مظاهر احتقار العرب للمرأة أو هضمها بعض حقوقها :

جعل الانتساب إلى الآباء دون الأمهات، وإن كان هناك بعض النساء يفخر أولادهن بالانتساب إليهن، مثل « تَحَبُّب بنت ثَوْبان بن سليم بن دها بن مذحج، فهى أمٌّ نسب إليها خلق كثيرون، منهم معاوية بن حديج بن جفنة « أعلام النساء لعمر كحالة » وكان البعض ينتسب إلى أمه لشهرتها مثل : ماء السماء أم عمرو ابن هند، وهى ماوية بنت عوف بن جشم، وجاء فى الإسلام أيضًا من نسب إلى أمه . منهم معاذ ومعوذ ابنا عفراء بنت عبيد . وعبد الله بن أم مكتوم، وشُرَحْبيل ابن حَسَنة، وعبد الله بن اللُّتْبية « الباعث الحثيث ص٢٨٥ » وانظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة عند ذكر من يكون له النسب . وكان الميراث للرجال دون النساء، وكانت هى تورث أحيانًا كالمتاع، وتُعْضَل عن الزواج بمن تشاء، وإن شاء وارثها أن يتزوجها تزوجها بدون صداق، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وكانت البنت توأد حية فى بعض القبائل، أو تمسك على هون إن أبقى والدها على حياتها . وكان يشك فى عفافها ويقذفها بالزنى . ويحتكم إلى الكاهنة فى شأنها، كما مر فى الجزء الأول فى باب اختيار الزوجين، وكانت تُكره أحيانًا على البغاء، وعند السبى فى الحروب كانت تسبى كالمتاع، أى أن الفريق الغالب يستولى على نساء المغلوب كما يستولى على أمواله تمامًا .

وكان الرجل إذا أراد السفر عمد إلى غصنين فى شجرة وعقد بينهما، فإن عاد ورآهما قد حُلاَّ زعم أن زوجته قد خانته، ويسمى هذا الإجراء عندهم « الرقيمة » . جاء فى كتاب « بلوغ الأرب » ج٢ ص٣١٦، عند الحديث عن « الرتم » الذى كان من عادات الجاهلية : أنه إذا سافر الرجل عقد خيطًا فى غصن

شجرة أوساقها، فإن عاد والخيط مربوط كانت زوجته لم تخنه، وإلا ظن بها السوء، ويسمى هذا العقد « الرتم » . وقيل : هو عقد طرف من غصن بطرف غصن آخر . وسيأتى فى بيان منزلة المرأة فى الإسلام توضيح لكثير من هذه الأمور . ومن مظاهر احتقارها أنه لم يعرف فى التاريخ أن رجلاً نازل امرأة أو قتلها، فهن لا يقابلن بالمثل إذا بدأن بالشتم أو الضرب . والمثل المعروف « لو ذات سوار لطمتنى » قاله حاتم الطائى عندما مر ببلاد « عنزة » فى بعض الأشهر الحرم، فناداه أسير لهم : يا أبا سفانة، أكلنى الأسار والقمل . فقال : ويحك ! ! أسأت إذ فوهت باسمى فى غير بلاد قومى . فساوم القوم به ثم قال : اطلقوه واجعلوا يدى فى القيد مكانه . ففعلوا فجاءته امرأة ببعير ليفصده . فقام فنحره، فلطمت وجهه : فقال ذلك المثل .

القسم الثانى :

الأديان السماوية بوجه عام حفظت للمرأة حقها فى حدود اختصاصها، وملاءمة ظروفها وبيئتها، وكرمتها كمخلوق يمثل نصف المجتمع البشرى، وإن كان أتباع الأديان خالفوا التعاليم السماوية، وحوروها لحاجة فى نفوسهم . فرأينا بعض المعاملات القاسية الشاذة تعبر عنها بعض النصوص المحرفة، وأكبر الأديان قبل الإسلام هما اليهودية والنصرانية .

١ - اليهودية :

جعل اليهود المرأة منبع الآلام، ووضعها بالتالى كان أدنى من وضع الرجل فى التشريعات والمعاملات، وإن كان الترقى غير حالها قليلاً، إلا أنها ما تزال فى وضع أدنى من الرجل .

لقد جردها اليهود من معظم حقوقها المدنية، وجعلوها تحت ولاية أبيها وأهلها قبل زواجها، وتحت ولاية زوجها بعد الزواج، وكانت شريعتهم تبيح

---

(١) المساواة للدكتور وافى ص٥٢ .

للوالد المعسر أن يبيع بنته بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته[1] كما تدل عليه الفقرات ٧-١٢ من الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج. وكانت البنت تتلقى عند ولادتها بغير ارتياح، كما جاء فى سفر التكوين اصحاح ٢٩ : ٢٢.

وفى سفر الجامعة، اصحاح ٦ : ٢٥، ٢٦ : دُرْت أنا وقلبى لأعلم وأبحث، ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدت أمرَّ من الموت المرأة، التى هى شباك، وقلبها إشراك، ويداها قيود، الصالح قدام الله ينجو منها، أما الخاطئ فيؤخذ بها. وقال أرميا : المرأة باب الجحيم وطريق الشر وسم العقرب[1].

والمرأة عند اليهود نجسة لا تقرب، ولا تقرب هى شيئًا مدة الحيض والنفاس، كما جاء فى صحيح مسلم «ج٣ ص٢١١». يقول المقريزى فى خططه «ج٤ ص٣٧٣» عن معاملة اليهود للمرأة : يعتزلون الحائض، وكل شيء تمسه ينجس، وإن مست لحم القربان أحرق بالنار، ومن مسها أو شيئًا من ثيابها وجب عليه الغسل، وما عجنته أو خبزته أو غسلته فكله نجس، حرام على الطاهرين، حل للحيض.

وقد ابتذل اليهود المرأة، فسخروها أخيرًا لأحقر الأغرض وأخبثها، على ما مر ذكره عند الحديث عن الحجاب عند اليهود.

٢ - المسيحية :

عندما أطلت المسيحية على العالم، وانتشرت فى أوروبا كانت القوانين الرومانية والفلسفة اليونانية القديمة قد صبغت التعاليم الدينية بصبغتها. فتحور جزء كبير من أصولها، حتى كان دنيويًا محضًا، تابعًا لأهواء كبرائهم، وتأثر تبعًا لذلك مركز المرأة.

فقد كانت فى القرون الأولى للمسيحية محترمة تبعًا لاحترام العذراء مريم، ولكن بمقارنة فكرة احتياج آدم لحواء، وفكرة الرهبنة جعلت هناك اتجاهات

---

(١) مجلة الإسلام - المجلد ٢، العدد ٤٥.

منحرفة نحو المرأة، فاحتقرها بعض الناس لأنها هى التى أغرت آدم فى رأيهم على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عنها، فطردا من الجنة[1]، وكان ما كان من الشقاء بعد النعيم، وصلب المسيح - كما يزعمون - تكفيرًا عن الإنسان للخطيئة التى ارتكبها آدم، وورثها أجياله. ودعا بعضهم إلى البعد عنها، والالتجاء إلى الرهبنة. جاء فى كتاب «محمد رسول الله» تأليف «اتيين دينيه» ص٣٢٥ : كان القس «سان بونا فنتورا» يقول لتلاميذه: إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنًا بشريًا، بل ولا كائنًا وحشيًا، وإنما الذى ترون هو الشيطان، والذى تسمعون هو صفير الثعبان»[2].

ودعا بعض المسيحيين إلى الحب الروحى، وبعد ذلك اعتبروها مصدر رجس عند الحيض والنفاس، فإن ولدت لم يقربها الرجل حتى تكفر بدم الطير عن هذا الدنس، بل هى تدنس كل شيء تقترب منه، لقد عقد الفرنسيون فى سنة ٥٨٦م فى بعض ولاياتهم اجتماعًا ليبحثوا فيه: هل المرأة إنسان أو غير إنسان، ثم قرروا أنها إنسان خلق لخدمة الرجل.

يقول المودودى: عالجت النصرانية فى أوروبا، بتعاليم هذا الدين، الفساد، ولكن كان العلاج فى شدة وتطرف، ذلك لأن:

(أ) المرأة عندهم ينبوع المعاصى، وباب الدخول إلى جهنم، وجمالها هو سلاح إبليس، وعليها أن تقدم كفارات كثيرة، لأنها سبب الشقاء فى الأرض. لقد قال «ترتوليان»[3] أحد أقطاب المسيحية الأولى فى المرأة: إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الله، أى الرجل، كما قال «كراى سوستام»، من كبار الدينيين: هى شر لا بد منه، ووسوسة جميلة، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة، ورداء مطلى مموه.

---

(١) موضوع إغراء حواء لآدم بالأكل من الشجرة جاءت فيه آثار ستذكر فى الجزء الثالث.

(٢) نسب مثل هذا القول إلى القديس أنطونيوس «مجلة الإسلام مجلد ٢ عدد ٤٥».

(٣) ولد سنة ١٥٠م وتوفى سنة ٢٣٠م.

(ب) العلاقة بين الرجل والمرأة تقوم على النجاسة، فهي نجسة في ذاتها، يجب أن تتجنب ولو كان ذلك عن طريق النكاح والعقد الرسمي المشروع، وهذا هو أصل الرهبنة، التي ابتدعتها الأفلوطينية الحديثة، أو الفلسفة الإشراقية. فزادتها المسيحية شدة، وصارت العزبة[1] مقياس الشرف والتقوى. ولهذا قررت مؤتمراتهم الدينية ألا يختلي رجال الكنيسة بزوجاتهم، وألا يتلاقى الرجل مع المرأة، إلا على مرأى من الناس، أو أمام رجلين على الأقل، وكرهوا للناس حياة الزوجية، حتى منعوا الزوجين اللذين يبيتان معًا ليلة العيد من حضور حفلات العيد، ولهذا انقطعت الأواصر بين أفراد الأسرة، وبهذا انحطت منزلة المرأة، وظهر أثر ذلك في القوانين والمعاملات كما يلي:

١ - جعلت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة اقتصاديًا، وتحدد نصيبها في الإرث، وقلت حقوقها الملكية، وكل كسب فهو لزوجها.

٢ - الطلاق لم يكن مباحًا، مهما بلغ البغض والشقاق، وأقصى ما كان يصل إليه هو التفريق الجسدي، الذي يمنع معه زواج كل منهما بالغير. وقد أدى ذلك إما إلى الرهبنة وإما إلى الفجور.

٣ - كان من العار أن يتزوج الرجل أو المرأة بعد وفاة الآخر، فهو من الكبائر، وكانوا يسمون هذا الزواج « الزنى المهذب ». أما رجال الكنيسة فلم يكن النكاح الثاني مباحًا لهم، وإن كان بعض الطوائف يجيز هذا الزواج الثاني قانونًا، إلا أن العرف والرأي على مقته. اهـ. وقد مر في الجزء الأول من هذه الموسوعة، موقف القسس من الزواج وثورتهم على حرمانهم منه، وفي كتاب « الإسلام والمرأة المعاصرة، للبهي الخولي » : زعم بعض المسيحيين أن أجسام النساء من عمل الشيطان، وكانوا يقولون - كما جاء في تاريخ العالم، ترجمة وزارة المعارف - إن الشيطان مولع بالظهور في شكل أنثى، وتفرع على نظرتهم للمرأة قولهم: هل للمرأة أن تعبد الله كما يعبده الرجل، وهل تدخل الجنة وملكوت الآخرة، وهل هي إنسان له روح يسرى عليه الخلود، أو هي نسمة فانية لا خلود لها. اهـ.

---

(١) العزبة أو العزوبة.

وعندهم لا يجوز للمرأة أن تتولى تعليم الناس الدين ولا التبشير به، ويؤيد هذا برقية من شيكاغو في ١٦/٨/١٩٧٤ جاء فيها: تواجه الكنيسة الأسقفية الأمريكية التي يتبعها ثلاثة ملايين أمريكي ثورة خطيرة، بسبب قرار اتخذه مجلس الأساقفة ببطلان إجراءات إحدى عشرة امرأة كقسيسات وقد أصدر المجلس قراره بأغلبية ١٢٨ صوتًا ضد ٩ أصوات وامتناع ١٠ عن التصويت، على أساس أن التكوين الجسماني للمرأة لا يتفق مع المهمة التي تتطلبها واجبات القسيس. «الأهرام ١٧/٨/١٩٧٤».

القسم الثالث:

المرأة في الشرائع الحديثة التي تدين بغير الإسلام يمثل نهضتها أو نشاطها نساء أوروبا وأمريكا، وقبل الحديث عن وضعها في هاتين القارتين أذكر كلمة عن المرأة الشرقية في العصور الحديثة، وأن وضعها الآن هو امتداد لوضعها القديم الذي أشرنا إليه في القسم الأول، وسأكتفي ببعض صور من أقطار متنوعة.

١ - الهند:

ففي الهند يقول محمد ثابت في رحلته سنة ١٩٣٢م: أن زواج البنت في «مدراس» مبكر، فهي تتزوج في سن الثامنة، فإن وصلت إلى سن الثانية عشرة، ولم تتزوج، كان ذلك عارًا، وقد يكون الزوج طفلاً، والنسل هناك ضعيف، والمهم عنده كثرة النسل، وبخاصة الذكور.

وحديث الأم أمام أطفالها دائمًا يدور حول العلاقة الجنسية، ويقصد بالتبكير بالزواج عندهم الوقاية من الأمراض وإنتاج الذكور، ولهذا يضعف الرجل عند سن الثلاثين، فيلجأ إلى الحشيش والأفيون والمخدرات التي يعلن عنها في الصحف بشكل واضح، وكثير من النساء عقيمات بسبب ضعف قوة الرجال وتشويه الرحم من الزواج المبكر، وكثيرًا ما يرسل الرجال زوجاتهم إلى المعابد بالقرابين، ليمن الله عليهن بالحمل، فتظل المرأة أيامًا، ينوب القسيس ليلاً عن الإله فتحمل المرأة.

ولتبكير الزواج كان متوسط الأعمار عندهم ٣٣ سنة، ويموت من الزوجات في كل «حمل» نحو ثلاثة ملايين ونصف، وهو يساوى ٩٠٪، وذلك بسبب التهاب الرحم، ومن العادات الغريبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة، فإن كانت أنثى سلمت لنساء المعبد، وإذا شبت علمت الرقص والغناء. وعند الثامنة تصبح خليلة أحد القسس، فإن ملها أصبحت راقصة المعبد. وفي مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج، فإن ذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلاً صغيراً، وتترك المعبد، ولا يرى أهلها في ذلك معرة، لأنها اكتسبت اسم عاهرة الإله. وهن من مستلزمات المعابد كلها.

ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة، تخضع له خضوعًا كليًا، ولابد من طاعة حماتها، ويا ويلها إن لم تنجب طفلاً، أو أعقبت أنثى، فإنها تستعبدها عندئذ. ولذا كان عدد المنتحرات بين سن الرابعة عشرة والتاسعة عشرة مروعًا، وإذا مات زوجها حكم الدين بإحراق جثتها معه وإلا كانت موضع اللعنات، ولم يبح لها شيء من السرور، ولا تتزوج ثانية، بل تحلق رأسها، وتقصد أحد المعابد، لتظل فيه أيامها الباقية. ويجب ألا تظهر أمام الناس كثيراً، حتى لا يؤثر فيهم نحس طالعها، وفي إحصاء ١٩٢٥م بلغ عدد أرامل الهند ٢٦,٤٨٣,٨٣٨ .

ويقول أيضًا: إن كلمة المرأة نافذة في البيت إن لم تكن لها حماة، ولذلك جرى على لسانهم هذا المثل: الرجل سبع خارج البيت وابن آوى داخله، والمرأة تقوم مبكرة لعمل البيت ولا تتركه للخدم، خشية نجاستهم، لأنهم من الطبقة الدنيا.

وهي ترحب بالضرة، لأنها تؤنسها، فلا غيرة عندها منها، إذ لا بد من الوفاء للزوج مهما بدا منه، فهي لا تغضب لأنه جاء لها بضرة.

ثم يقول: بمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ في غرفة ضيقة مظلمة، ولا يقترب منها أحد قط، لأنها أصبحت نجسة. وفي الحال تأتي «الداية» وهي

من الطبقة النجسة: فترتدى أسمالاً قذرة، وتسد المنافذ، وتحرق الحطب، لأن الدخان والحرارة يساعدان على سرعة الوضع، وإن دخل الحجرة غريب أحرقت بخوراً منتن الرائحة، لمنع أثر العين الخبيثة، وتباشر عملية الولادة بأيديها القذرة، وتخرج المولود بالقوة، فتشبع البطن لكما بالأيدى والرأس، وقد تطرحها وتمشى على بطنها، وتضع فى فرجها كرات من مواد حريفة، وقطعًا من شعر المعز وأذناب العقارب وجلود الأفاعى، وإذا تم الوضع لا تقطع السرة، فذلك مهمة امرأة أخرى أقل درجة منها، ويمنع الطعام عن الأم أربعة أيام أو سبعة. وكثيراً ما تتعسر الولادة بسبب ضيق الرحم، نظرًا للزواج المبكر، فتموت، وإن رجحت المولدة موتها، أى غلب على ظنها أن التى تعانى آلام الوضع ستموت، عجلت بتكحيل عينيها بمسحوق الفلفل، لكى تعمى ا لروح، فلا تستطيع الخروج والمكث فى الدار، وقد تمد ذراعيها وتدق مسماراً يثبتهما فى الأرض، لكيلا تستطيع الروح التجول فى المنزل ومضايقة الأحياء.

ثم يذكر إحراق المرأة فى كلكتا، وأنها خضبت قدميها ويديها ووجهها بالحناء، ودثرت برداء أحمر، وذلك دليل على سعد طالعها، لأنها ماتت قبل زوجها ولم تصبح أرملة بائسة، وكان يحوطها أقاربها وبعض النائحات والمتسولين، ووضعت الجثة على الحطب، وكدس فوقها الخشب، وتقدم أقرب الناس إليها، وكان ابنها، وأمسك شعلة وطاف بها حولها سبعًا، وألقى الشعلة على كومة الحطب، فالتهمت كل شىء إلا عظمة القص التى يلتقطها القسيس ويضعها فى كرة طين، إلى جانب قطعة ذهب يقدمها أهل الفقيدة، ويلقيها القسيس فى النهر فى أسفل المكان.

ويقول عما يحدث فى الدكن: أكثر السلالة هناك من «الدرافيديين» وهم السكان الأول للهند، ويشاطر فى الزوجة أكثر من واحد، خصوصًا الأخوة، حتى من كان منهم فى المهد، وبذلك تنجو طويلاً من الترمل، والمرأة فى هذه القبيلة إذا حملت لا تقرب البقر المقدس، حتى لا ينجس اللبن. وكانوا إلى أمد قريب

يتعقبون أنسابهم عن طريق الأم، ولذلك كان الميراث الرئيسي لابن الأخت أو ابن بنتها. أما الابن فلا يرث، ولا تزال بقية من ذلك بين قبائل التودا. اهـ وسيجيء في الجزء الثالث ما قاله ابن بطوطة عن الهند في رحلته.

يقول محيي الدين الألوائي في بحث بمجلة «ثقافة الهند، يونية ١٩٥٥»: أن عدد سكان مستعمرة تودا حوالي ٤٠٠ نسمة، وهي بأعلى مرتفعات «نيلكرى» بولاية «ميسور». يقال: إنهم من بقايا جيش الاسكندر، وهم يحتقرون المرأة، ولا يجوزون لها أن تخرج من البيت إلا مع مشرف، ولا يسمح للنساء بدخول المعابد والكنائس.

وجاء في مجلة المصور (٦/١٢/١٩٤٦): في «ترافانكور» بالهند، كل ثروة العائلة في يد النساء، والميراث يؤول إليهن، وفي مقابل ذلك تتكفل المرأة بجميع مطالب الورثة.

وجاء في أهرام الجمعة ٥/٦/١٩٥٩: أن منطقة «تلال خاسي» في الهند تعيش فيها قبيلة «خاس» وتتبع نظام الأمومة الذي يقضي بأن الأم هي أساس الأسرة، وأهم من الأب، ولا تعطى للولد شيئًا من الميراث، بل تؤول التركة إلى الابنة الصغرى. وعدد أفراد هذه القبيلة ٣٠٠ ألف يعيشون في ولاية «أسام» شرقي الهند.

٢ - اليابان:

يقول محمد ثابت في رحلته ١٩٣٢ عن اليابان وقوانين الأسرة فيها: إن «ايباسو» مؤسس أسرة «شواجن طوكو جاوا» (١٦٠٠-١٨٦٨م) قد أباح الطلاق بغير مبرر، وأباح اتخاذ الخليلات مع الزوجة، على أن يكون أولاده جميعًا شرعيين، وابن الزوجة هو الوارث، وإن لم يوجد ورثه أخوه أو أقرب الناس إليه. وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها، فإن قتل أحدهما عد مذنبًا.

ويقول عن «الجيشات المسليات»: إنهن سميرات محترفات، ولهن مدارس

خاصة يتعلمن فيها فنون السمر والإيناس والغناء، ولا يخلو منهن مجلس، ويحرص عليهن فى نزه الرجال، وأجورهن غالية فى الحفلات.

ويقول: إن اليابانيين يبيحون للفتيات، ما دمن غير متزوجات، كامل الحرية فى التريض والمصادقة، لأنهم يرون أن العزوبة أمر غير طبيعى، فإن لم يكن للفتاة زوج فليكن لها خليل، ولا يهتمون بالبكارة، ولا يحرصون على العفاف، على أنها إذا تزوجت صارت مثال الوفاء لزوجها، والعجيب أنه لا يصح لها أن تغارعلى زوجها من غيرها، وكثيراً ما تخاطبه عند رجوعه من رحلته قائلة: أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الماضية، فيقص عليها نبأ ما كان من جيشاته ومسلياته وغير ذلك، وأعجب من هذا احترامهم للعاهرة كاحترامهم للزوجة، والأب هو الذى يختار لبنته الزوج.

ويتابع محمد ثابت حديثه عن اليابان فيقول:

للأب أن يدفع بنته للدعارة إن أعوزه المال، فإن عوزه هدم للعائلة يجب تلافيه، وهم يطلقوه على العاهرة اسم «أوجوروسان» أى العاهرة العظيمة، وإن احتاج الرجل إلى المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدعارة، فإن هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى الدعارة، حتى يسد دينه، لأنها ملزمة بذلك قانوناً إذا قبلت أن تحمل الدين عن والدها، ثم يقول:

ومن إكرام الضيف أن يقدم صاحب البيت السميرات إليه، وكانت العادة قبل ذلك أن يبالغ فى إكرامه ، فيقدم إليه زوجته، ولا خطر هناك فى اختلاط الأنساب، فالكل أبناء الإمبراطور «ابن السماء». وهم لم يقلعوا عن ذلك إلا بعد نقد الأجانب لهم بشدة.

ويقول: إن اليابانية تعد نفسها خادمة أولادها، ولا تميل إلى تحديد النسل، وهى فى مركز أقل من الرجل، ومع ذلك ليست محتقرة، بل هى فى دائرة اختصاصها فى المنزل وتربية الأولاد لها سلطة مطلقة واحترام كبير، وهى لا تسير أمام الرجل، ولا تجلس مع إخوانه، بل تقدم إليهم ما يحتاجونه، ثم تنسحب.

ويتحدث عن نظام الأسرة المتين فى اليابان فيقول: إن على الفرد أن يضحى بمصالحه الشخصية لصالح الأسرة، فهى التى تتصرف فى زواجه وتعليمه وتخطط لمستقبله، ومن لم يخضع لنظام الأسرة حرم حق الانتساب إليها، وينبذه جميع الناس، ولا يكاد يوجد الولد العاق لوالديه، والأسرة تخفف عبء الدولة كثيراً، لأنها تفصل فى الشئون العائلية، والعائلة هناك هى التى تختار الزوجة للولد، ولا يسمح له بمخالفتها، وقد يكون هناك عشق بين فتى وفتاة، ولكن ظروف العائلة لا تسمح بالزواج بينهما، فيعمدان إلى الانتحار، (هناك حديث عنهن فى الجزء الرابع الخاص بحقوق الأولاد، وحديث آخر عن الطلاق عند اليابان)، وبهذا كان النظام التضامنى فى الأسرة قوياً جداً، ومن هنا لا توجد ملاجئ ولا شركات تأمين ضد البطالة، وظهر أثر هذا التعاون فى زلزال ١٩٢٣م حيث كثرت المساعدات للمنكوبين.

ويقول أيضاً: بعد الحرب كثرت مشاطرة المرأة للرجل فى الأعمال الخارجية، على مثال المرأة فى أوروبا، وهذا الإجراء يهدد النظام الاجتماعى المتين، ولما كثرت المصانع انحلت الرابطة العائلية، وضعف تعصب الفرد لبيئته وقريته.

ويتحدث فى كتابه «بنات حواء» عن شعوب «الأينو» فى اليابان فيقول: إنهم يضعون المرأة فى مركز ممتاز، اعتقاداً منهم أن النساء مقربات إلى الآلهة، ولذلك يمنعهن الأزواج من الصلاة، خوفاً من دعائهن عليهم. فدعوتهن مستجابة.

هذا، وقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية عن ذى قبل، وقامت محاولات لتحرير المرأة سنة ١٩٢٥، كما تقول «نايلة كامل»[١].

وجاء فى أهرام ١٤ / ٧ / ١٩٦٣: إن اليابانية مثالية فى طاعة الزوج، وقد نالت حقوقها سنة ١٩٤٦م بعد الحرب العالمية الثانية، فتغيرت معاملتها فى المدن إلى حد كبير، واشتركت فى الانتخابات، وهناك ٣٨ منهن فى مجلس النواب،

---

(١) مجلة حواء ٢٧ / ١١ / ١٩٦٥.

١٢ فى مجلس الشورى. وأصبح من حقها طلب الطلاق، بعد أن كان مقصوراً على الرجل.

٣ - الصين :

يتحدث الرحالة «محمد ثابت» عن الصين، فيذكر أن الزواج فيها مبكر، بغية إنجاب أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحيون ذكرى والدهم، ويوفرون لروحه السعادة بتقديم القرابين، ولذلك من لم ينجب منهم يتبنى ولداً ليقوم بهذه المهمة، ومن هنا كثر النسل وتنازع الناس لقمة العيش. ويقول: إن العرض رخيص بسبب الفقر، فقد لاحظ أن الشخص إذا ركب «الركشا» وهى العربة الصغيرة التى يحملون عليها الإنسان، قال له من يجرها: أتريد بعض الغانيات الفاتنات من فتيات «المانشو» ذائعات الصيت فى الجمال؟ وذلك إلى جانب جماهير النساء اللاتى يمسكن بثياب المارة طوال الطريق بشكل مؤلم، ومنهن الصغيرات اللائى لم يبلغن الحلم. والأجانب هم الذين جرءوهم على ذلك.

كما تحدث عن تجميل الأقدام لتكون صغيرة الحجم حتى يرغب الأزواج فيهن، فكان الزوج يحتم أن يرى حذاء خطيبته، فإن ظهر أنه خدع بعد الزواج، بالحذاء الذى أخذه رهينة جاز له طلاقها.

وتتم عملية تصغير القدم، بأن تغسله الأم فى الماء الساخن، وتلف أشرطة الكتان حوله عدة لفات محكمة، وفى كل ليلة تفعل ذلك لمدة ثمانية عشر شهراً، والبنت تتأوه، والأم تسترضيها بزواج قريب. وقد حرمت الحكومة ذلك، لأن نصف النساء كن لا يستطعن الجرى، بسبب صغر أقدامهن.

ويتحدث عن الأسرة فى «هونج كونج» فيقول: إن أساسها الأب، وسلطته فيها لا تعارض، وكان من حقه بيع أولاده وقتلهم، والأم هناك كمية مهملة، لا سلطان لها على الأولاد، خصوصاً الذكور، فإذا شب الولد لا يستمع إلا إلى أبيه، والبنت هناك مضطهدة بائسة، والزواج مبكر جداً، وتكاد العزوبة تنعدم، فهى فى نظرهم جريمة، والأصل هو الزواج من واحدة، ولكن للزوج أن يتخذ من

الخليلات ما يشاء على مقدار ما يملك من ثروة، وكان رئيس الجمهورية سنة ١٩٢٣ عنده عشر نسوة، والزوجة الرسمية يدفع مهرها بنسبة ثروتها.

ويقول: إن العادة أن العائلات الكبيرة ترفض إعطاء بناتها كخليلات، والمخاللة هناك طبيعية، وبعضهم يفضلها على الزواج من أجل الحرية والتجديد وضمان النسل الكثير، وإذا مات الزوج لا تتزوج أرملته. أما الزوج فله أن يتزوج بعد موت زوجته، والميراث للذكور من الأبناء بالتساوى، سواء منهم أولاد الزوجة وأولاد الخليلات. والنساء لا يرثن إلا إذا أوصى الأب، والزوجة خادمة لزوجها ولأمه. والعقيم يجوز طلاقها، وإن لم يطلقها يتبنى الرجل أحد أقربائه، والزوج لا يجلس مع زوجته وأولاده على المائدة، ولا يأكل الأخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة، وإذا أحصى رب الأسرة أفرادها أهمل الإناث. اهـ.

وجاء فى حديثه عن الصين أن نساء الطبقة الراقية محجبات، لا يخرجن إلا محمولات على الكراسى المعلقة، ويظن أن ذلك راجع إلى صغر أقدامهن. والطبقات الفقيرة تتخلص من بناتها بتركها عند برج خارج القرية، فإذا جاء رجل ووجد بنتاً عند البرج ألقاها ليضع بنتًا مكانها.

وتقول نايلة كاملة: إن مظاهرة قامت فى الصين سنة ١٩٢٠م للمطالبة بتحرير المرأة، بزعامة « مدام سونج سينج »[١].

٤ - استراليا والمحيط الهادى:

يقول محمد ثابت : إن الإباحية فى استراليا شديدة، والطلاق منتشر، وذلك بسبب عدم وفاء الزوج والزوجة. ويقول عن جزر « هاواى » : إن مركز المرأة منحط عن الرجل، ولا يباح لها الأكل معه، ولا طبخ طعامها فى إناء مع الرجل، ولا تدخل المعابد، ولا تأكل الموز، ولا النرجيل « جوز الهند » فكل ذلك محرم عليها.

---

(١) مجلة حواء ٢٧/ ١١/ ١٩٦٥.

هذه لمحات خاطفة عن وضع المرأة الشرقية تضاف إلى ما سبق عند الكلام على الحجاب، وما سيأتى فى الحديث عن حقوق الزوجية وحقوق الأولاد، اعتمدنا فيها على النقل عن الرحالة والكتاب، مع التنبيه على أن بعض هذه الأوضاع قد تغير، نتيجة الوعى الفكرى والتقدم الاقتصادى والحضارى، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التى ظهر فيها أثر عامل التقليد الأجنبى.

٥ - طرائف عامة :

فيما يلى بعض الطرائف العامة عن وضع المرأة فى المجتمعات المعاصرة التى لم تر النور ولم تلحق بركب التطور، تبرز أثر الإسلام فى رقى المجتمعات التى شع عليها نوره الوضاء:

يقول محمد ثابت فى كتابه «بنات حواء»، عن غانة الجديدة: إن نسب الأولاد فيها للأم لا للرجل، وهى التى تقوم بتمويل الأسرة بالعمل فى الحقول وغيرها، ومرتبة المرأة هناك مساوية للرجل إن لم تزد عليه، وهن يرثن الألقاب، ويقمن بالسحر، فهو عمل شريف عندهم، ولا تبقى البنت بدون زواج إلا إذا كانت مشوهة.

ويقول : إن قبائل «الايروكواز» من هنود أمريكا الجنوبية تحكمهم جميعًا سيدة، وهى الوارثة الوحيدة لكل الممتلكات، والأب يعيش كأنه غريب على الأولاد، ولو اضطرت الظروف أن تمنح المرأة سلطانها لرجل وقت الحروب مثلاً منحته لأخيها، لا لزوجها، فهو غريب عن أسرتها، والخال يتحكم فى الأولاد أكثر من أبيهم.

وفى قبائل «سيرى» من الهنود الحمر فى كاليفورنيا، للمرأة سيادة على البيت وعلى الرجال، ومثل هذه السيادة عند الملثمين من الطوارق فى شمالى أفريقيا، على الرغم من أنهم مسلمون، والمرأة فيهم ملمة بالقراءة والكتابة والشعر أكثر من الرجل.

ويقول عن قبائل «الياروبا» في جنوبي نيجيريا: إن المرأة يقع عليها عبء البيت والإنتاج ويجوز لزوجها أن يرهنها لقاء دينه، وتضم لزوجات الدائن حتى يستوفي الدين، ونساء صحاري كلاهاري يعتبرن نجسات، فيعزلن الحاملات أياماً عند الوضع، لا يقربهن أحد. اهـ.

وفي محاضرة لكمال فهمي حنا في نوفمبر ١٩٥٨: أن جزيرة هولندية بالبحر الكاريبي اسمها «كيراساو» فيها مدينة لا يسكنها إلا النساء، ويحرم عليهن مغادرتها، ويصرح للزوار الكبار فقط بزيارتها[١].

وجاء في كتاب «الرحالة المسلمون» لزكي محمد حسن، في ترجمة القزويني: نقل عن الطرطوشي أن هناك مدينة للنساء، وهي مدينة كبيرة في إحدى جزر المغرب، يسكنها النساء، ولا حكم للرجال عليهن، يركبن الخيل، ويباشرن الحرب بأنفسهن. وهن ذوات بأس شديد عند اللقاء، ولهن مماليك، يختلف كل مملوك إلى سيدته، ويقوم بالسحر قبل انبلاج الصبح، فإذا وضعت إحداهن ذكراً وأدته في الحال.

وجاء في مجلة «صوت الشرق» عدد ٣٥ في أغسطس ١٩٥٥: اكتشف عالما الأجناس «أرماند، ميكايلادنيس» قبيلة في الكونغو، تعيش على الفطرة، والنساء فيها يحكمن الرجال، ومن تقاليد هذه القبيلة أن يقوم الرجال فيها بكل الأعمال في البيت وخارجه، ويطيعون النساء طاعة عمياء. وفي كل شهر قمري ينتخب أجمل وأقوى رجال القبيلة، ويشوى حيًا، لتأكله النساء، تأكيداً لسيادتهن. وتحاول السلطات البلجيكية (كذا) القضاء على هذه العادة أو على الأقل إبطال شي الرجال.

وجاء في «أخبار اليوم» ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٣: يحكي فرج جبران عن جزيرة «سان بلاسي» في البحر الكاريبي التي يسكنها حوالي ١٥ ألف هندي أحمر،

(١) الأهرام ٣/ ١٢/ ١٩٥٨ (ص ١٠).

وقد زارها، أن السيطرة فيها للنساء، والنسب لهن، والمرأة هى التى تطلق الرجل بأن تحمل له حربته وقاربه الذى يصطاد به، وتلقى بهما على ساحل الجزيرة، فيذهب إلى جزيرة أخرى، وسكان هذه الجزيرة يحبون الإناث وذرية البنات. ويقول: إذا سئم الرجل الحياة مع المرأة جلا بنفسه، دون أن يحمل شيئاً معه. وفى المرحلة السابقة للزواج، المسماة مرحلة الحب والغزل، عليه أن يسلم لها، فهى التى تغزوه أولاً، ثم تجذبه من يده إلى جزيرة والديها.

وفى أهرام ٢ / ٩ / ١٩٧٤ عن شعب «مينابخابو» الذى يسكن غربى جزيرة سومطرة: أن المرأة هى صاحبة السياسة، بينما يعيش الرجل فى ظل قوانين لا تعطيه أية حقوق، مثل البيع والشراء أو امتلاك المحاصيل التى يزرعها، فكل الأمور بيد المرأة، وهى التى تختار زوجها، وعندما يتم الزفاف يعيش العريس فى بيت أمه، ولا يسمح له بزيارة زوجته إلا إذا دخل المساء، ولذا يطلقون على أى زوج اسم «أورانج سوماندو» أى الغريب.

وعندما يولد أحد الذكور ينتقل بعد سن السادسة ليعيش مع الشباب الأعزب فى دار إقامة، لا يغادرها حتى تقع عليه عيون إحدى طالبات الزواج، ومن ثم يعود سعيداً إلى بيت أمه .

٦ - المرأة فى البلاد الغربية :

المرأة فى أوروبا لم تلتزم الدين المسيحى الذى تأثر بالفلسفات والقوانين اليونانية والرومانية، والذى حرم تعدد الزوجات وحد من الطلاق، وحرم التسرى واتخاذ الخليلات.

ففى عهد الإقطاع الذى طغت فيه المادية، لم يمكن النساء من مزاولة النشاط الاقتصادى والاجتماعى، وذلك لتحريم الرجال عليهن العمل، وكانت المرأة فى القرون الوسطى إحدى ثلاث كما يقول «خاكى»:

(أ) سيدة القصر، وهى قعيدة الدار، بعيدة عن التناحر الذى كان طابع

حكام الاقطاعيات أو ملاكها، وكان الزواج سياسيًا حربيًا أكثر منه اجتماعيًا، فابن الأمير يتزوج بنت الأمير الاقطاعى، لتنضم الأرضان بعضهما إلى بعض. وشاع الطلاق لأوهى الأسباب. وكانت النساء فى وضع اجتماعى أدنى، بل كن مملوكات تحركهن الأيدى كقطع الشطرنج، مستضعفة تحميها الفروسية، وعلاقتها بوجه عام مع الرجل علاقة يغلب عليها الطابع المادى.

(ب) فتاة الدير، المنزوية عن الدنيا، تعزى نفسها بالرهبنة.

(جـ) الساحرة، وحياتها مثال القسوة والغدر، فكان الساحرات يحسبن أنهن متصلات بالله، ولكن الناس كانوا يرون أن عملهن شعوذة من الشيطان، فكن يحاكمن أمام محاكم التفتيش، ويوقع عليهن العقاب الأليم، وذلك بالإحراق وتقطيعهن أربًا أربًا، ومضت القرون الوسطى والناس يخافون من السحر. وأحرقت آخر ساحرة فى إنجلترا سنة ١٧١٢م، وفى اسكتلندة سنة ١٧٢٢م، وفى أمريكا سنة ١٦٩٢م. وفى أشبيلية سنة ١٨٧٢م. وفى بيروت سنة ١٨٨٨م.

وفى عصر النهضة حين انتقل الناس من عهد الإقطاع إلى الاستبداد، ومن قوة الفروسية إلى قوة البارود، ومن الحجر على الحرية إلى الكشف والاختراع، ومن جحود المادة إلى تقديسها، انتقلت المرأة إلى حياة كانت هى فيه متاعًا، فوصل أمرها إلى الإباحية الداعرة، وتشجعت الفنون والكتب التى تتحدث عن الجنس، وسادت سياسة الاحتيال والخداع التى روج لها «مكيافيلى» فى القرون الثلاثة الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر وصورعصر النهضة صورة الفكر اليونانى القديم، والفن يزدهرعند حرية المرأة وإباحيتها، والقوة تسير مع الحب للمرأة، وتحلل الخلق السياسى مع تحلل الخلق النسائى. وقام فلاسفة يبررون حق الملك المقدس. فكان هنرى الثامن المطلاق المزواج بانجلترا، وكان بفرنسا هنرى الرابع، الذى ألزم زوجته أن تتخذ عشيقته وصيفة لها، ولويس الرابع عشر وغيرهما الذين اتخذوا الخليلات دون حياء، وكانت قصورهم مسرحًا للأدوار

الغرامية والمجون، الأمر الذى جعل سخط الناس عليهم يبلغ أشده. فكانت حركة إصلاح الكنيسة، وكانت الثورة على الفساد، ورأينا من الثائرين «كلفين» فى سويسرا، و«مارتن لوثر» فى غربى أوروبا، و«سافونا رولا» فى إيطاليا، وهو الذى سخط على الفجور فى أواخر القرن الخامس عشر، وألزم المرأة حدودها، وإن كان البابا اسكندر السادس قد أغرى الناس به، فأحرقوه سنة ١٤٩٨م.

وقامت فى إنجلترا حركة التطهير بين الكاثوليكية والملكية من جانب، وبين البرلمانيين من جانب آخر، انتهت بالديكتاتورية المطلقة التى تزعمها «كرمويل». وكان الغرض منها الرجوع إلى المسيحية فى عفافها وزهدها، فألزموا الناس بطقوس متزمتة، وأغلقوا المسارح، وحدوا من حرية الفن، وبهذا أصبحت المرأة فى مكان أدنى، فألزموها بالاقتصاد فى زينتها، والاستقرار فى بيتها، وحدوا من علومها ومن زينتها لأنها عون الشيطان، ورغبوها فى التقشف والزهد، لتدخل نعمة الله، كما صور ذلك الشاعر الانجليزى «جون ملتن» فى ر سالته عن الطلاق.

على أن حركة «كروموبل» انتهت بانتهائه عندما أعدم فى ٢٨/٧/١٥٤٠م، فجاء «شارل الثانى» سنة ١٦٦٠م، وعاد الفجور والاستهزاء بالقيم التى دعا إليها كروموبل، وأقيمت المشانق لمن انتقدوا البلاط فى تصرفاته، كما عادت فرنسا إلى الكثلكة بإسرافها وترفها، وقبع المتطهرون فى بيوتهم منهزمين، وصارت المرأة واحدة من اثنتين، إما ورعة تقية ليس لها مكان فى العالم، لأنها صاحبة الشيطان فى نظرهم، وإما مسرفة داعرة يلهو بها الرجل كما يشاء، ولم يكن لها من العلم شىء، ولا من السياسة نصيب إلا بمقدار ما عندها من مكر وجمال.

ويستطرد «خاكى» فيقول: إن المرأة فى القرن الثامن عشرخرجت من بلاط لويس الرابع عشر، وهى اللهو والمتعة للمجالس. وهذا القرن انتهى بتقرير حقوق الرجل، لكنها لم تنل حقوقها أبداً، حتى انتصف القرن التاسع عشر، وجاء «جان جاك روسو» بكتابه «أميل» الذى كان يعد إنجيل المفكرين الثائرين، فاعتبر المرأة

معاونة للرجل، يستعين كل منهما بالآخر فى العيش والمتعة، وعليه فيكون تعليمها بمقدار ما يلزم لإمتاع الرجل، بسروه والتزين له، وتربية الأطفال، وطاعة الرجل وعدم معارضته فى آرائه، وكان رأيه فى تربية الفتاة أن تترك للطبيعة، فأوجب على المرأة التعود منذ الصغر على الحشمة، والاجتهاد فى التزامها حتى تتعود العزلة وكبت الهوى، وإذا وجدت البنت من أبيها رادعًا تعودت الخضوع لسلطان الزوج، والعيش فى كنفه. أما إن نشأت ولها إرادة خاصة كان الفساد والبوار للنساء، لأنهن لم يجدن من الرجال من يعاشرونهن على أنهن أنداد لهم. ولم تخل هذه العصور من مفكرات ومنتديات أدبية، لكنها كانت قليلة.

ثم يقول «خاكى»: إن المرأة فى القرن التاسع عشر فى أوروبا طالبت بالتحرر كما تحرر الرجال، وطالبت بالمساواة فى الحقوق السياسية، لتتحرر أكثر من قوامة الرجل، ونظر إليها المتزمتون نظرة ازدراء. حتى الملكة فيكتوريا نفسها كانت تزدرى هذه الحركة. واجتهد كتابهم فى إيجاد الفوارق بين النوعين، ولهذا لم تنل حقوقها إلا فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

يقول المودودى: فى القرن الثامن عشر، وبعد ثورة فرنسا، خففت أوروبا القيود عن المرأة، خصوصًا فى الطلاق، وردوا إليهن بعض الحقوق، ونظروا إليها نظرة أقل شدة من النظرة الأولى، وأباحوا التعليم للنساء، فكان من أثر ذلك تمكين المرأة من أداء واجبها المنزلى والاجتماعى، ولكن كان ذلك فى إفراط، وهو نتيجة الكبت السابق، واشتد فى القرن التاسع عشر، فكان من ذلك: المساواة بين الجنسين، وحرية المرأة فى الناحية الاقتصادية، والاختلاط المطلق بين الجنسين.

فبالمساواة طغت وعملت فى كل ميدان، ونافست الرجل، وظهرت على الناس بتحديد النسل، وبالاستقلال الاقتصادى استغنت المرأة عن الرجل، فلم تعد بينهما صلة إلا المعاشرة الجنسية، بل إن الناحية الجنسية كانت تطلب من غير الرابطة الزوجية، ولم يعد للدين سلطان على الضمير، ولا للمجتمع سلطان عليه لأنه يشجعها وكثر أولاد الزنى.

والاختلاط أدى إلى التبرج وقوة الجاذبية الجنسية، وابتكار التزين والعرى والأدب المكشوف وسمى ذلك بالفن. اهـ.

والمرأة فى أمريكا واستراليا ونيوزيلانده وغيرها من الممالك الحديثة أحسن من زميلاتها فى أوروبا، لأن سكانها مهاجرون، انصرفوا إلى الزراعة، وتفرغت المرأة للتثقف والتحضر، فاستطاعت فى مقاطعة « يومنج » بأمريكا أن تساوى الرجل فى حق التوظف سنة ١٨٦٥م، وفى الحقوق السياسية سنة ١٨٦٩م، مع أن امرأة فرنسا لم تنل ذلك إلا فى أوائل القرن العشرين، ونالت الانجليزية حق الانتخاب سنة ١٩٢٨م بعد جهاد عنيف.

ثم ساءت حال المرأة فى عصر الانقلاب الصناعى، حيث اجتذبتهن المعامل الكبرى، وصرن عبيداً لرب العمل. يقاسين من التعب المضنى فى المناجم وغيرها، مع أجور ضئيلة يأخذها الآباء أو الأزواج قسراً، وذلك لعدم استطاعتهن التملك قبل قانون ١٨٨٢م.

يقول « خاكي » فى بيان حال المرأة التى خرجت للعمل: إن خروجها كان له أثر فعال على مستقبل الأسرة، فكانت المرأة قبل ذلك سكنًا للأسرة تعيش فى بيت كبير، والنسل كثير يشبه الخلية، أما بعد خروجها للعمل فقل النسل وصغر البيت، ومال الناس إلى سكن الغرف بدل القصور الواسعة، ولهذا ضج المصلحون وفكروا فى إصلاح الطفل والمنزل والمرأة، وكان هذا الانفجار فى سلوك المرأة رد فعل للضيق الذى كانت تعيش فيه من قبل، فأقبلت على الاغتراف من التحرر بدون وعى، ولم يتعقل إلا المتعلمة فقد اهتمت أخيراً بالمنزل وعرفت له قيمته على عكس نظرة المرأة الجاهلة إليه.

ويقول محمد قطب فى كتابه « شبهات حول الإسلام »: إن النظام الاقتصادى فى أوروبا فى عهد الرق والاقطاع جعل إعالة الرجل للمرأة هو الأمر الطبيعى، فضلاً عن أنها كانت تعمل فى المنزل. فكانت تدفع ثمن إعالتها للرجل، لكن الثورة الصناعية شغلت النساء والأطفال، فضلاً عن استدراج

العمال من ريفهم إلى المدينة للصناعة، وفقدت الروابط الإنسانية التى كانت فى الريف. وجاء استقلال الفرد بعمله ومتعته الميسرة، وهبطت الرغبة فى الزواج، ومن هنا نكل الرجل عن إعالة المرأة، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها، حتى لو كانت زوجة وأمًا. وشغلتها المصانع بأجر قليل، غير شاعرة بكرامتها، وجاء بعض المصلحين فرحم الأطفال من الشغل القاسى. أما المرأة فلم يدافع عنها أحد، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى، فقتل عشرة ملايين من الشباب، فاضطرت المرأة إلى الكسب، عن طريق العمل فى المصانع بدل المفقودين، وهان عليها خلقها وشرفها لتحصل على العيش من أصحاب المصانع الطامعين فى التمتع بها، واضطرت للانزلاق، لأن الرغبة فى الزواج قلت، وذلك لقلة الرجال من أثر الحرب، ولا بد للمرأة من إشباع رغبتها الجنسية، وهنا سقطت فى الهاوية لأمرين، الأول كسب العيش بعد فقد عائلها، والثانى إشباع رغبتها الجنسية، وأخيرًا ثارت النساء على ظلم المرأة فى عدم مساواتها بالرجل فى الأجر، فطالبت بحق الانتخاب ثم التمثيل فى البرلمان ثم الوظائف الحكومية.

ويعطينا «إدوارد أبوت بارى» صورة عن وضع المرأة قبل تمتعها بحقوقها الجديدة، فيذكر فى كتابه «المرأة والقانون» أن القوانين الرومانية كانت تعطى للرجل حق السيادة الشرعية فى أسرته، وتجاهلت وجود المرأة، وجعلتها إحدى ممتلكات سيدها وهو الرجل، والسكسونيون، على الرغم من احترامهم للمرأة نوعًا ما، كانت المرأة عندهم للمتعة أوكقطعة أثاث فى المنزل، كما يتضح من قوانين: الفرد ، اثيلبرت، وغيرهما من ملوك السكسونيين. فللأب حق بيع بناته فى سوق الزواج، وللزوج أن يسوق زوجته إلى السوق، وقد وضع فى عنقها خطافًا كالدابة، ويبيعها.

ومن الغريب أن يعطى الأب حذاء بنته لمن اشتراها، وعليه أن يضعه فوق رأسها رمزًا لسلطانه عليها، وعند النوم يوضع هذا الحذاء بينهما على الوسادة. وفى قوانين «اثيلبرت»: للرجل حق خطف المرأة المتزوجة أو العذراء، ثم يساوم

وليها على الثمن. وهناك أسواق معروفة لبيع الزوجات، منها سوق « وسمينفيلد في لندن، ونيوكروس في مانشستر». وفي شمال وغرب ريدنج في يوركشير كان العامة في القرن الثامن والتاسع عشر يعتقدون أن بيع الزوجة ينحصر فيما يأتي:

١ – الزوجة لا تباع إلا مرة واحدة على يد الزوج الذى باعها.

٢ – ثمن الزوجة لا يقل عن شلن واحد.

٣ – تسلم الزوجة إلى من اشتراها وفي عنقها رسن، ويستحسن أن يكون جديداً لو أمكن.

وذكر «إدوارد» بيعًا من هذا النوع مسجلاً في «بل أن» في «أدجباستون» بتاريخ ٣١ من أغسطس ١٧٧٣م. باع فيه «صمويل هويت هوس» في السوق العامة زوجته «مارى هويت هوس» إلى «توماس جريفست» من برمنجهام بثمن قدره شلن واحد. وقد قبلها المشترى بكل ما فيها من عيوب. والشاهد على البيع هو «توماس باكلي». ويقول: ولم تزل هذه العادة موجودة إلى اليوم، وإن كانت محصورة في الأركان والخبايا، وعند قوم غير مهذبين[١]. اهـ.

فكر المصلحون في شأن المرأة ليزيلوا عنها هذا الظلم، ولم يكن أمامهم منطلق يبدءون منه الإصلاح إلا القانون الروماني، وقد علمت ما فيه من ثغرات، وكان أول صوت ارتفع مناديًا بحقوق المرأة عندماكتبت «مارى ولستونكرافت» كتابها في تبريرحقوق المرأة سنة ١٧٩٢م، وركزت فيه على حق التعلم والتملك،فسخر منها المحافظون[٢].

---

(١) ملخص من بحث بعنوان «آدم وحواء» في أهرام ١١/٦/١٩٥٤.

(٢) ولدت «مارى» ١٧٥٩ في عهد الملك جورج الثاني في بيئة سيئة، فقد انتشرت فلسفة «انجلز» الألماني المولود في بارمن ١٨٢٠ والمتوفى ١٨٩٥، وكان صديقًا لكارل ماركس (١٨١٨–١٨٨٣) وتقضى هذه الفلسفة. بأن الرجل في الأسرة يملك كل شيء، وعلى المرأة الطاعة لأنه سيدها، كانت المرأة تشتغل من الساعة الرابعة والنصف صباحًا إلى السابعة مساء بأجر زهيد، كما كان الطفل يقسرعلى العمل، وكان والد مارى فقيراً سكيراً عربيداً مغامراً مع الساقطات، ولذلك زلت مارى وحملت سفاحًا وسنها ١٥ سنة وحملت ثانيًا وسنها ٢٠ وماتت بحمى النفاس ١٧٩٣، كان نداء مارى مساواة الجنسين وترتب على ندائها قيام معركة الجنسين في إنجلترا، «مجلة الرائد – الكويت ٢٧/٤/١٩٧٨م».

يقول الدكتور مصطفى الخشاب فى كتابه « دراسات فى الاجتماع العائلى » : أول طلب قدمته نساء إنجلترا للمطالبة بالحقوق السياسية، قدم للبرلمان سنة ١٧٦٦م، فرفض، ثم قدم طلب آخر سنة ١٧٦٧م، ودافع عنه « ستيوارت ميل » ففشل، ثم قدم طلب سنة ١٧٧٢م، ١٧٧٣م وعارضته الأغلبية، ولم يقره مجلس العموم إلا سنة ١٧٩٧م وصادق عليه مجلس اللوردات . اهـ.

كان موقف « ستيوارت ميل » فى الدفاع عن حق المرأة بكتابه « استعباد المرأة سنة ١٨٦٩م » دفاعًا قويًا ساعد على سيادة المذهب الديموقراطى فى المجتمع الانجليزى، فطالب بحقها فى الانتخاب والنيابة، بل ذهب إلى تقديمها على الرجل، متعللا لدعوته برقيها وتعلمها ونشاطها الاجتماعى، وعلى أثر ذلك تألف سنة ١٩٠٣ اتحاد نسائى بزعامة « مسز بنكهرست »[١] وكان من المناضلات فى ميدان المطالبة بحقوق المرأة السياسية : ايتلى ديفز، الدكتورة أندرسن (النهضة – الكويت ٢٨ / ٤ / ١٩٧٥) .

وفى سنة ١٩٠٥ لم تعطها حكومة الأحرار حقها، فكافحت المرأة ولم تيأس، وجاءت ظروف الحرب العالمية الأولى لصالحها، حيث ساعدت النساء الرجال فى الأعمال المدنية ليتفرغوا هم للميدان، فنالت فى فبراير سنة ١٩١٨ حق الانتخاب لمن زادت سنها على ٣٠ عامًا . وفى سنة ١٩٢٨ منحته بدون قيد السن . ونالت حق التملك سنة ١٨٨٣م، وحق التوظف العام حتى وظائف عصبة الأمم سنة ١٩١٩، التى ظهر فيها قانون مساواتها للرجل فى الوظائف العامة . وفى سنة ١٩٤٧ كان مجلس العموم البريطانى فيه ٢٣ عضوة، بعد نيل حق الترشيح سنة ١٩٢٩م .

والمرأة الفرنسية نالت حقوقها كاملة بعد الحرب العالمية الثانية، ففى سنة

---

(١) ولدت ١٨٥٨م وأسمها « أملين بنكهرست » . وتوفيت فى شهر يونيه ١٩٢٨م فى اليوم الذى أقر فيه البرلمان الانجليزى مشروع القانون الجديد لإعطاء المرأة حق الانتخاب « مجلة العربى يناير ١٩٧٥ » .

١٩٤٥م حصلت على حق التصويت، وفى سنة ١٩٦٦م أصبحت هى المتصرفة الوحيدة فى مالها بعد أن كان تصرفها يتوقف على إذن وليها « أهرام ٤/٥/١٩٧٠ ».

من الرائدات فى فرنسا « أوليمبيا جوج » ولدت فى منتوبان ١٧٤٨م فى عهد لويس الخامس عشر، وصفها الطاغية « مارا » بأنها نوع غريب من البشر، تركت الريف إلى باريس لافتتاح أول ناد أدبى للنساء ففوجئت بأنباء قيام الثورة الفرنسية، وكانت قد وضعت قصة « الأمير الفيلسوف » عن الحرية والمساواة وظهرت يوم سقوط سجن الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩، وعلى أثرها تقرر فتح مدرسة للنساء بين كل ألف مواطن ومواطنة، التقت بامرأتين تعملان لتحريرالمرأة هما أوتا بالم، مانون رولان، أو مدام رولان صاحبة العبارة المشهورة: أيتها الحرية كم باسمك ترتكب جرائم، وذلك عندما لمحت تمثالاً للحرية وهى فى طريقها إلى المقصلة.

نجح النسوة الثلاثة فى فتح أول ناد للنساء الداعيات للحرية. وفى مايو ١٧٩٢ نشرت أوليمبيا إعلانها الشهير بحقوق المرأة، وأعدمت هى ومانون وغيرها فأغلقت نوادى النساء، وبعد إعدامها بأسبوعين أعدمت الملكة مارى أنطوانيت « مجلة الرائد - الكويت ٢٧/٤/١٩٧٨ ».

ومن الرائدات فى فرنسا (فلوراتريستان) المتوفاة ١٨٤٤م وتم تشكيل أول تنظيم نسائى فرنسى قبل وفاتها بعام واحد، وكانت صاحبة الفكرة فيه « أهرام ١٥/١٠/١٩٨٦ ».

والمرأة السويسرية لم تنل حق التصويب فى الانتخابات الاتحادية إلا يوم ٢٧/٢/١٩٧١، وبهذا تعتبر سويسرا آخر دولة أوروبية أعطت المرأة هذا الحق، فقد كانت تعتبر أن المرأة خلقت أصلاً لتكون أمًا وربة بيت فقط، ولهذا اشتهرن بالمهارة فى الخدمة وإدارة البيوت « أهرام ٨/٢/١٩٧١ ».

والمرأة الفنلندية حصلت على حقوقها سنة ١٩٠٦ والنرويجية سنة ١٩٠٧ والروسية سنة ١٩١٧ وكان نيلها لحقها بدون مظاهرات كما تقول نايلة كامل « حواء ٢٧/١١/١٩٦٥ ».

أما المرأة الأمريكية فقد سبقت نساء الغرب فى نيل حقوقها، وذلك عندما تقدمت « مرغريت برنت » سنة ١٦٤٧م[١] بطلبها لحق النيابة، وقامت أول حركة نسائية منظمة فى الولايات المتحدة بل فى العالم كله، بزعامة « مدام سوزانا »[٢] (١٨٢٠–١٩٠٦) وكانت مظاهرة استعراضية كسبت بها عطف الرأى العام وكان أول مؤتمرعقد لذلك سنة ١٨٤٨م عقدته السيدات : ستاتون، موت، أنتونى، الأخوات جريمكى . وضم جهود النساء اتحاد عام سنة ١٨٩٠ . وكانت ولاية (وايومنج) أول ولاية أعطتها حقها السياسى سنة ١٨٦٩ . وفى ١٩١٣ كانت هناك ١٢ ولاية منحت المرأة حقها . وفى سنة ١٩٢٠ عدل الدستور لينص على الحقوق السياسية كاملة للمرأة الأمريكية « مجلة النهضة : الكويت ٢٨ / ٤ / ١٩٧٥ » .

واتسعت الحركة وزاد ضغط النساء على المرشحين لانتخاب الرياسة سنة ١٩١٢م . وأخيراً حصلت على حق الانتخاب سنة ١٩١٨م، وإن كانت لم تقف عند حد فى مطالبتها بالمساواة التامة بالرجل والتحرر من سلطانه كما سيجىء ذكره بعد .

---

(١) من نداء مارى فى إنجلترا استوحت مرجريت فكرتها فأعلنت وجوب إسناد خدمة المنزل للرجال الذين يدعون أنهم الجنس الأقوى، وظروف الحركة فى أمريكا غيرها فى إنجلترا، فالمرأة مهضومة جدا وهى قاصرة إن لم تتزوج، والزواج موت لها مدنى، وليس لها الحق فى الوصية أو الحضانة عند الطلاق وكان الأزواج أحرارا فى بيع النساء كما ثبت فى حكم صدر ١٨١٥ قام بموجبه هنرى كوهين بتسليم زوجته إلى مشتريها « جون إيرك » فى مقابل شلن، تعاطف المتعلمات الفقيرات مع حركة تحرير العبيد وأشهر من عرف من الأمريكيات المدافعات عن الزنوج (هاربت بيتشر سنو) « (١٨١١–١٨٩٦) » مؤلفة قصة « كوخ العم توم »، « لوكرينا موط » (١٧٩٣–١٨٨٠) » التى أوفدها سنة ١٨٤٠ المهتمون بتحريرالعبيد مع مارجريت كادى سانتون إلى لندن لمؤتمر لبحث المشكلة، وعادتا أشد حماسا لتحريرالمرأة وبعد طواف بالدعوة ٨ سنوات اجتمع فى ١٥ يونية ١٨٤٨ المؤتمرالنسائى « سينكاف ويلز » حضرته لوكرينا واليزابيث وبقية المكافحات فى معبد « ويسليان » لوضع صيغة إعلان حقوق المرأة الذى ينص على استقلال المرأة الأمريكية « الرائد – الكويت ٢٧ / ٤ / ١٩٧٨ » .

(٢) لها ترجمة فى كتاب « نساء شهيرات » لمبارك إبراهيم، فى سلسلة : اقرأ رقم ١١٩ .

ومن الأسماء البارزة فى حركات التحرر النسائية فى أوروبا «أنا ثوراتى» رائدة الحركة النسائية فى إيطاليا، وكذلك «اليزابيتثام» فى السويد، وأيضًا «مدام ايجينى كوتون» رئيسة الاتحاد النسائى الديموقراطى العالمى[١] «حواء ٢٧ / ١١ / ١٩٦٥».

وجاء فى أهرام ٢٦ / ٨ / ١٩٧٠ أن هناك مجلسًا نسائيًا دوليًا تأسس سنة ١٨٨٨م، ومركزه الرئيسى باريس، وتشترك فيه خمس وأربعون دولة أوروبية وأفريقية وآسيوية وذلك بتنظيماتها الأهلية لا السياسية.

هذا، وقد اتخذ نساء العالم يوم ٨ مارس من كل عام يومًا عالميًا للمرأة، وذلك أنه فى يوم ٨ مارس ١٩١٠م عقد أول مؤتمر نسائى عالمى فى كوبنهاجن، حضرته ١٠٠ عضوة يمثلن ١٦ دولة. وتم الاتفاق على الاحتفال بيوم ٨ مارس على المستوى العالمى[٢]، وهو اليوم الذى ثارت فيه عاملات النسيج والملابس فى الولايات المتحدة عام ١٩٠٨ للمطالبة بتحسين أحوال العمل والاعتراف بحقوقهن الدستورية «الأهرام ٨ / ٣ / ١٩٧٤م» وفى أهرام ١٦ / ١ / ١٩٨٢م أنه يعود إلى ١٨٥٧م[٣].

وجاء فى أهرام ٢٥ / ٧ / ١٩٧٤ تحت عنوان «من ٧٥ سنة فى مصر» أن هناك مجمعًا نسائيًا دوليًا ترأسه منذ خمس سنوات (١٨٩٤) اللادى «أبردين» زوجة الكونت «ابردين» حاكم كندا السابق.

---

(١) هذا الاتحاد أنشئ فى باريس بتاريخ ١ / ١٢ / ١٩٤٥ كما فى جريدة القبس الكويتية ١٧ / ٩ / ١٩٧٤.

(٢) وصاحبة الفكرة هى «كلارا رنيكين» جريدة القبس الكويتية ١٧ / ٩ / ١٩٧٤.

(٣) فى أهرام ١٢ / ٣ / ١٩٨٧م أن فى ٨ مارس ١٩٠٨م شب حريق فى مصنع نسيج بنيويورك مات فيه عاملات كثيرات بالحرق أو بالقفز من النوافذ لأن استحكامات الأمن تقضى بإغلاق أبواب المصنع أثناء العمل، وفى ٨ مارس ١٩١٠ عقد مؤتمر عالمى فى كوبنهاجن حضره مائة عضوة يمثلن ١٦ دولة بعد أن أضرب ٨ ملايين عاملة نسيج فى أمريكا لتحسين أحوال العمل والاعتراف بحقوق المرأة السياسية. وفى جلسة للمؤتمر طالبت (كلارازيتكن) بجعل ٨ مارس يومًا عالميًا للمرأة.

وإليك مقتطفات من مقال عزيزة حسين نشر في أهرام ٥ / ١٢ / ١٩٦٥، مأخوذ من كتاب أعدته لجنة المرأة في الأمم المتحدة عن القيادات النسائية في العالم.

في سنة ١٨٩٣ سبقت المرأة النيوزيلاندية نساء العالم في نيل حقوقها السياسية كاملة بدون قيد ولا شرط، وإن كانت الأمريكية نالتها بشروط، ففي ولاية «نيوجرسي» سنة ١٧٩٠ نالته بشروط ضيقة جداً، ثم سحب هذا الحق سنة ١٨٠٧، ولم يتأكد حقها الانتخابي بصفة خاصة إلا سنة ١٩٢٠.

وفي استراليا سنة ١٨٩٤ نالت المرأة حقوقها في مقاطعة الجنوب، ولما جاء عام ١٩٠٣ كان لكل نساء استراليا حق الانتخاب والترشيح.

وفي كندا بدأت المرأة تنال حقها في الانتخاب سنة ١٩١٦م، وذلك في مقاطعتين، وكان قاصراً على العاملات في الخدمة العسكرية أو زوجات الموظفين في مناصب هامة في الدولة. وفي سنة ١٩١٧ بدأت كل المقاطعات تعطيها حق الانتخاب، حتى جاءت سنة ١٩٤٨ فكان الحق لكل النساء في أمريكا.

وفي سنة ١٩١٩ نالت المرأة حقوقها في كل من بولندة واستيريا وتشيكوسلوفاكيا، وبعد الحرب العالمية الثانية ارتفع عدد البلاد التي أعطتها الحق إلى ٤٠ دولة. ولما نالت المرأة الفرنسية حق الانتخاب سنة ١٩٤٦م، لم تنله الجزائرية إلا بعد سنة. فقد أعطيت حق الانتخاب سنة ١٩٤٧، وتأكد الحق سنة ١٩٦٢م بعد الاستقلال.

وكانت فرنسا ورومانيا ممن أعطت المرأة حقها سنة ١٩٤٦، وفي بلغاريا وبورما والصين نالت حقها سنة ١٩٤٧، وفي كوريا والبرتغال سنة ١٩٤٨، وفي كوستاريكا سنة ١٩٤٦، وفي مصر سنة ١٩٥٦، وفي سنة ١٩٦٤ بلغ عدد الدول التي أعطت المرأة حق الانتخاب والترشيح الكامل ١٠٦، وفي الفلبين ١٩٣٧، واليابان ١٩٤٥ والبرازيل ١٩٣٤ وسلفادور ١٩٣٩م.

هذه نظرة عامة على ما أعطيته المرأة من حقوق في معظم الدول، والعهدة في تحقيق التواريخ على المصادر التي نقلت منها هذه المعلومات.

* * *

الفصل الثانى

منزلة المرأة فى الإسلام

رأينا فيما تقدم كيف حدد الله وضع المرأة بالنسبة للرجل، وكيف جاءت نصوص القرآن دالة على هذا التحديد، ورأينا مقدار الظلم الذى وقع عليها، لسوء نظرة الناس إليها، ومقدار الفساد الذى نتج عن سوء فهمها هى أيضًا لوظيفتها، وسوء استغلال الناس لما فيها من قوى ومواهب، والإفراط والتفريط دائمًا من أهم عوامل الفساد والإفساد.

لقد نظر الإسلام إلى المرأة نظرة عادلة حكيمة، وهى نظرة الأديان جميعًا، غير أن أهلها هم الذين حادوا بهذه الأديان عن وضعها الصحيح. والإسلام فى سائر تشريعاته عادل، وضع المرأة فى موضعها اللائق بها، من حيث علاقتها بالرجل وبالمجتمع البشرى كله. مقدراً نواحى الخير والضعف فيها، ونبه الناس إلى حسن استغلالها، ومقدرا أيضًا نواحى الشر والشدة فيها، وحذر الرجال منها، كما قدر ذلك فى الأولاد، على ما هو موضح فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة.

فمما ورد فى الوصية بالمرأة قوله تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩]، وقول النبى ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً. فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيرًا» رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة. ففى هذا الحديث بيان لسبب الوصية بهن، وهو شىء خلقى طبعت عليه المرأة. والمراد بأعلى الضلع رأس المرأة وعقلها وفكرها.

ومما ورد فى ذلك أيضًا حديث «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا سره آخر» رواه مسلم عن أبى هريرة، ومعنى يفرك يبغض. والفعل الماضى فرك. والحديث يشير إلى أن فى المرأة ناحيتين ، فلينظر الرجل إليها من كلتا الناحيتين،

لا من ناحية واحدة . وهنا يكون الإنصاف فى الحكم والعدل فى المعاملة . إلى غير ذلك من النصوص التى سيصادفك كثير منها فى الجزء الثالث فى بيان حقوق الزوجية .

ومما ورد من التحذير منها قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ [التغابن : ١٤]، وقوله : ﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٢٨] . وقول النبى ﷺ « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » رواه البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد . وقوله فى بيان لون من ألوان فتنتها « يقطع الصلاة المرأة والكلب والحمار » رواه مسلم وأحمد وابن ماجه عن أبى هريرة، وجاء فى رواية عن أبى ذر، فى اتخاذ المصلى ساترًا بين يديه قوله عليه الصلاة والسلام « فإنه يقطع صلاته المرأة والحمار والكلب الأسود » . ولما سأل أبو ذر عن الفرق بين الكلب الأسود والأحمر والأصفر قال « الكلب الأسود شيطان » وجاء فى رواية أحمد عن عائشة، مع ذكر الحمار، والكلب والمرأة، الكافر .

وللعلماء فى تفسير قطع الصلاة بهذه الأشياء مذهبان، مذهب يقول بالبطلان، أى أن هذه الأشياء تبطل الصلاة لو مرت أمام المصلى، وعليه إعادتها، وذهب إلى هذا الرأى جماعة من الصحابة كأبى هريرة وأنس وابن عباس وأبى ذر وابن عمر . وقال به من التابعين الحسن البصرى، ومن الأئمة أحمد بن حنبل، كما حكاه ابن حزم الظاهرى عنه، وحكى الترمذى أنه يخصص بالكلب الأسود، ويتوقف فى الحمار والمرأة .

وذهب أهل الظاهر إلى قطع الصلاة بهذه الثلاثة إذا كان الكلب والحمار بين يديه، سواء فى ذلك الصغير والكبير والحى والميت، والمرور وعدمه . وسواء فى ذلك كون المرأة مارة بين يدى الرجل أم غير مارة، صغيرة أم كبيرة، إلا أن تكون مضطجعة معترضة (وذلك لما ثبت أن النبى ﷺ كان يصلى وعائشة معترضة بين يديه) .

والمذهب الثانى يقول بعدم البطلان، ويريد بقطع الصلاة نقصان ثوابها، وذلك لنقص الخشوع فيها. وذهب إليه مالك والشافعى. وحكى النووى عن جمهور السلف والخلف أنه لا يبطل الصلاة مرور شىء. قال النووى: وتأول هذا الحديث على أن المراد بالقطع نقص الصلاة، لشغل القلب بهذه الأشياء، وليس المراد إبطالها.

قال الدميرى فى كتابه «حياة الحيوان الكبرى»: تأول الجمهور قوله ﷺ «يقطع الصلاة المرأة والحمار» بأن ذلك مبالغة فى الخوف على قطعها وإفسادها من الشغل بهذه المذكورات. وذلك لأن المرأة تفتن، والحمار ينهق، والكلب الأسود يروع ويشوش الفكر. فلما كانت هذه الأمور آيلة إلى القطع جعلها قاطعة.

هذا، ومن العلماء من يدعى نسخ هذا الحديث بالحديث الآخر «لا يقطع الصلاة شىء، وادرءوا ما استطعتم» وهذا غير مرضى، لأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا تعذر الجمع بين الأحاديث وتأويلها وعلمنا التاريخ. وليس هنا تاريخ ولا تعذر الجمع والتأويل. مع أن حديث «لا يقطع صلاة المرء شىء» ضعيف.

وبهذا يعلم أن الأرجح فى قطع الصلاة بمرور المرأة هو نقص ثوابها للانشغال بها، ويمكن التحرز عن الفتنة والانشغال باتخاذ الساتر.

وليس فى هذا غض من شأن المرأة واحتقار لها حين ساواها الحديث بالحمار والكلب، بل هو بيان لما فيها من فتنة ينبغى التحرز منها. وهو داخل تحت النصوص الواردة فى كونها فتنة. وقد تقدمت[١].

والنصوص الواردة فى القرآن والسنة فيما يخص المرأة كثيرة جمعها السيد / محمد صديق حسن خان بهادر ملك باهوبال بالهند فى كتابه «حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله فى النسوة» دعته إلى تأليفه صاحبته وعيبته «تاج الهند نواب شاه جيهان بيكم» صاحبة الولاية فى مملكة باهوبال منذ سنة ١١٣٠هـ[٢].

---

(١) ملخصة من فتوى نشرت فى مجلة منبر الإسلام عدد رمضان ١٣٩١هـ.
(٢) طبع فى القسطنطينية سنة ١٢٠١هـ.

وألفت كتب كثيرة فى هذا الموضوع. ومهما يكن من شىء فإنى أسوق هنا بعضًا من مظاهر تكريم الإسلام للمرأة، دليلاً على أنه سبق التشريعات الحديثة فى رفع الظلم عنها وتقرير حقوقها، وفى التشديد فى رعايتها، وعلى أنه صحح النظرة إليها، ووجهها كما وجه الرجل إلى التعاون على خير المجتمع.

١ - كرامتها الإنسانية:

اعترف الإسلام بأن المرأة مخلوق آدمى له كرامته كما كرم الجنس الآدمى كله، فهى أيضًا خلقت من آدم. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ [الاسراء: ٧٠]، وجعلها شقيقة للرجل فى هذه الإنسانية، وفيما يترتب عليها من حقوق وواجبات، مع مراعاة الاختلاف فى التكوين والاستعداد، ففى الحديث «إنما النساء شقائق الرجال» رواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عائشة. ورواه البزار عن أنس، وهو حديث صحيح. وجعلها الإسلام أحد العمودين الأساسيين للبشر، بعد أن كان بعض الناس يعدها من الشياطين أو من الحيوان الأعجم. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ...** ﴾ [الحجرات: ١٣]. ونهى عن السخرية منها فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ** ﴾ [الحجرات: ١١]. وإذا كان النهى عن احتقار امرأة لامرأة، فإن احتقار الرجل لها يكون أولى بالنهى.

٢ - أهليتها للعبادة:

جعل الله المرأة أهلاً للعبادة وقبول التكليف الدينى وتقربها إلى الله. فقد وجه الخطاب إليها كما وجهه إلى الرجل، ورتب على طاعتها ثوابًا لا تحرم منه كما لا يحرم الرجل ثواب طاعته. بل جعل كلا من النوعين مسئولاً مسئولية تامة عن عمله، وفى ذلك تأكيد لشخصيتها واحترام لوجودها، قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن**

بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

جاء في تفسير ابن كثير: أن أم سلمة قالت: قلت للنبي ﷺ: مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر. قالت: وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: يأيها الناس، إن الله يقول ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ رواه أحمد والنسائي بطرق عن أم سلمة. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ...﴾ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.

وجاء في تفسير القرطبي «ج١٤ ص١٨٥»: روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. أي رواه راو فقط.

وجاء في تفسير النسفي: ولما قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث، وقالت النساء: يكون وزرنا على نصف وزر

الرجال كالميراث نزل ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢]. وجاء فى باب النقول فى أسباب النزول للسيوطى «سورة النساء»:

روى الترمذى والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا... ﴾ وأنزل فيها ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... ﴾ وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: أتت امرأة النبى ﷺ فقالت: يا نبى الله للذكر مثل حظ الأنثيين وشهادة امرأتين برجل، أفنحن فى العمل هكذا إن عملت المرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا... ﴾، ومما يدل على الاعتراف بعقودهن الدينية مبايعتهن للرسول ﷺ التى جاء فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وفى ظل هذه النصوص وغيرها نالت المرأة المسلمة التكريم العظيم، فهى إنسان لا حيوان، وهى طاهرة لا نجسة، وهى أهل للعبادة ولم تخلق فقط للخدمة، وهى ذات شخصية مستقلة تبرم العقود وحدها فى أخطر الأمور الدينية كالمبايعة.

ورأينا فى ظل هذا التكريم الذى سبقت به إرادة الله قبل أن تنزل به النصوص أن أول من آمن بالرسول ﷺ من البشر هى السيدة خديجة رضى الله عنها. كما رأينا أن القرآن عندما جمع فى مصحف وضع عند امرأة هى السيدة حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها. وكثير من مظاهر التكريم عاشت به المرأة المسلمة محترمة تزهى على غيرها من بنات جنسها فى غير ظل الإسلام.

٣ - حق التملك والتصرف:

قرر الإسلام للمرأة حق التملك الصحيح، وحق التصرف الشخصى فيما

تملكه دون الرجوع إلى أحد من زوج أو والد أو من له ولاية غيرهما. فعندما أمر الإسلام بإعطائها الصداق حرم على الزوج وولي أمرها أن يأخذا منه شيئًا بدون رضاها. قال تعالى: ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ [النساء: ٤]، ثم قال بعد أن أعطاها حق التملك ﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١] ففي هاتين الآيتين تأكيد لحق تملكها لما تحت يدها ومراعاة حرمة هذا التملك بالتنفير الشديد من الاعتداء عليه. مع إبراز شخصيتها بقوله: ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ وهو وإن كان ميثاق الله باحترام حقها فقد نسب إليها تكريمًا لها كأنها هي التي أخذته، أو أن العرف يقضي بذلك وهو بمثابة الميثاق.

وهذا الضرب من التصرف لم تظفر به المرأة في أوروبا حتى عصر النهضة، إلا في وقت متأخر، وتنص المادة ٢١٧ من القانون الفرنسي على أن المرأة – حتى لو كان زواجها قائمًا على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها – لا يجوز لها أن تهب، ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض، بدون اشتراك زوجها في العقد، أو موافقته عليه موافقة كتابية.

وبهذه المناسبة أورد ما رآه أحمد بن حنبل في هذه النقطة:

جاء في معجم المغني لابن قدامة «ص٨٧٦» وما بعدها[1] عن تصرف البنت في مالها: أن رواية عن أحمد تقول: إن البنت إذا بلغت الرشد لا يدفع إليها مالها بعد البلوغ حتى تتزوج وتلد، أو يمضي عليها سنة في بيت الزوج. وعلى هذه الرواية: إذا لم تتزوج أصلاً احتمل أن يدوم الحجر عليها. وقيل: إنه يدفع إليها مالها إذا عنست وبرزت للرجال، يعني: كبرت.

(١) طبعة أوقاف الكويت.

وللمرأة الرشيدة التصرف فى مالها كله بالتبرع والمعاوضة، وروى أنه ليس لها أن تتصرف فى مالها بزيادة على الثلث بغير عوض إلا بإذن زوجها. اهـ. أقول لعل القانون الفرنسي استمد فقرته المذكورة من مثل ما رآه أحمد بن حنبل. وهو على كل حال رواية عنه، والمذاهب الأخرى تؤكد استقلال المرأة فى تصرفاتها المالية.

٤ - حقها فى الميراث :

حفظ الإسلام للمرأة حقها فى الميراث، كما قال تعالى ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ [النساء: ٧]، وآية الميراث فى السورة نفسها تبين ما قدر لهن. وفى سبب نزول آية المواريث روى الترمذى وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى عن جابر بن عبد الله أن امرأة سعد بن الربيع قالت: يا رسول الله إن سعداً هلك، وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد. وإنما تنكح النساء على أموالهن. فلم يجبها فى مجلسها ذاك. ثم جاءته فقالت: يا رسول الله، ابنتا سعد. فقال رسول الله ﷺ «ادعى لى أخاه» فجاء. فقال له «ادفع إلى ابنتيه الثلثين، وإلى امرأته الثمن، ولك ما بقى». وفى رواية: فنزلت آية المواريث. قال الترمذى: هذا حديث صحيح. وقيل: نزلت آية المواريث فى بنات عبد الرحمن بن ثابت أخى حسان بن ثابت[1].

وفى الجزء الرابع من هذه الموسوعة توضيح لهذا الحق.

٥ - حرمة ميراثها :

حرم الإسلام أن تورث المرأة كالمتاع والحيوان، ويستولى عليها الوارث. وحرم مضايقتها بذلك لتفتدى نفسها من وارثها بمال تدفعه إليه، كما حرم حرمانها من الزواج بغيره بطرق ملتوية طمعاً فى مالها. وطابع هذا

---

(١) تفسير القرطبى ج٥ ص٥٨.

الحق هو حريتها في زواجها وتمتعها بحق إنسانيتها، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ [النساء: ١٩]، والعضل هو المنع من الزواج.

قال ابن كثير في تفسيره: نزلت هذه الآية في كبيشة بنت معن بن عاصم ابن الأوسي. توفي أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثت زوجي. ولا أنا تركت فأنكح. ذكر هذا الطبري عن عكرمة، وقيل: إن الآية التي نزلت فيها هي قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾ وقد سبق ذلك في بيان أنواع الأنكحة في الجاهلية في الجزء الأول من هذه الموسوعة.

وروى البخاري عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية، أي آية ﴿ **لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا** ﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها.

وقال الزهري وأبو مَجْلز: كان من عادتهم إذا مات الرجل يلقى ابنه من غيرها أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها وأوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق، إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئًا، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثته من الميت، أو تموت فيرثها. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وجاء في كتاب «حسن الأسوة»: عن معقل بن يسار قال: كانت لي أخت - اسمها فاطمة أو جميلة كما في تفسير ابن كثير - تخطب وأمنعها الناس. فأتاني ابن عمي - أبو البداح - فأنكحتها إياه، فاصطحبا ما شاء الله، ثم طلقها طلاقًا له رجعة، ثم تركها، حتى انقضت عدتها. فلما خطبت أتاني يخطبها مع الخطاب، فقلت له: خطبت فمنعتها الناس فآثرتك بها، فزوجتكها، ثم طلقتها

طلاقًا رجعيًا، ثم تركتها حتى أنقضت عدتها. فلما خطبت أتيتني تخطبها مع الخطاب؟ والله لا أنكحتكها أبدًا. قال: ففيَّ نزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. قال: فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه. رواه البخارى وأبو داود والترمذى.

وقيل: كان الوارث إن سبق فألقى عليها ثوبًا فهو أحق بها. وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحق بنفسها، قاله السُّدِّى. وقيل: كان يكون عند الرجل عجوز، ونفسه تتوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز لمالها: فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدى منه بمالها، أو تموت فيرث مالها، فنزلت هذه الآية، وأمر الزوج أن يطلقها إن كره صحبتها، ولا يمسكها كرهًا. فإرث النساء كرهًا على هذا الرأى معناه إرث مالها بعد موتها «تفسير القرطبى جـ٥ ص٩٤». وتقدم فى الجزء الأول فى بحث أنكحة الجاهلية أن هذا النظام أخذ به اليهود، فإذا مات الشخص دون أن ينجب أولادًا تصبح أرملته زوجة تلقائية لشقيق زوجها أو أخيه لأبيه.

يقول الدكتور «وافي»: إن الأرملة تسمى فى شريعة اليهود «ياباماه» وأخو زوجها الشقيق أو لأبيه يسمى «يابام»، ولا يصح لها أن تتزوج من غيره إلا إذا خلصها بطريقة تشبه الطلاق، وتسمى فى الشريعة الموسوية «الحاليصاء». وقد أقرت ذلك المادة ٢٦ من كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين فى مصر[1].

وفى بحث للأستاذ محمود سلام زناتى بمجلة العربى عدد يناير ١٩٧٤م عن وراثة الزوجة المتوفى عنها زوجها: أن نظام رعاية الأرملة قديم، على خلاف فيمن هو أحق برعايتها من أقارب الميت أو أقاربها هى.

---

(١) مجلة منبر الإسلام جمادى الأولى ١٣٧٩هـ.

والمجتمعات القبلية كانت متفقة على عدم إخضاع الأرملة التى جاوزت سن الحمل للخلافة. فلها الحرية فى البقاء فى بيت الزوج أو الإقامة عند ابنها أو غيره، وبعض القبائل لا يعطونها الحرية فى اختيار القريب الذى تعيش عنده.

وفى «التسوانا» بجنوبى أفريقيا تجلس الأرملة فى وسط مجموعة من الناس لحضور وليمة فى بيتها، يحضرها أقارب الزوج، وتناولهم «الجعَّة» من قدر، وكان الأخ التالى للزوج الميت يتقدم للقدر ويرفع الغطاء، ويضعه إلى جانبه، فإن كانت لا تريده أعادت الغطاء على القدر، ثم يتقدم الرجل التالى له، ويفعل كذلك. فإذا حدث أن وافقت على ترك الغطاء فى موضعه والإناء مكشوف سقت الناس من الجعة ورضيته زوجًا.

وقد يحدث أن الميت عند احتضاره يوصى بمن تكون عنده أرملته، وهذه الخلافة عليها لا تعد زواجًا جديدًا، فهى من جهة القانون زوجة المتوفى، ولو عاشرها كان أولادها أولاد زوجها الأول المتوفى.

ويقول أيضًا عن الحيثيين: إذا مات الزوج يتزوج أخوه زوجته، وإذا لم يكن له أخ تزوجها أبوه، وإذا لم يكن له أب تزوجها أحد أبناء أخيه.

ويقول: عند الهندوس أحد أقارب الزوج يعاشر الأرملة لأجل الذرية، لكن فى شريعة «منو» – أشهر فقهاء الهندوس – هناك شروط قاسية لرعاية الأرملة.

ويقول: وعند العرب كان الابن صاحب الحق فى معاشرة أرملة أبيه، ثم الأخ، أو أحد العصبة. وإذا تعدد الأبناء يقدم الأكبر، وكان ذلك بدون صداق.

٦ – مشورتها عند الزواج:

قدس الإسلام رأيها عند الزواج. ففى الحديث «لا تنكح الأيم – الثيب – حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن» قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت» رواه مسلم عن أبى هريرة «ج٩ ص٢٠٢». وتفصيل ذلك مذكور فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

٧ - **حق التعلم :**

لأهمية هذا الحق الذى كان التقصير فيه أحد الأسباب لتأخر المرأة والمجتمع، وداعيًا من دواعى المناداة بتحرير المرأة، ولإفراطها فى التمتع به أخيرًا كرد فعل للكبت القديم والحرمان غير المشروع. سأبسط الحديث عنه بعض البسط.

لا شك أن العلم ضرورى لسعادة الفرد والمجتمع، وهو أساس المسئولية ومناط التكليف، وهو شرف وكمال لكل من ينتسب إليه معلمًا أو متعلمًا، وذلك للرجل والمرأة على السواء، وقد سبق أن قوانين أثينا، وهى أقرب القوانين إلى الديموقراطية، لا تتيح فرصة التعلم للمرأة، بل تسد طريقه أمامها.

وكانت المرأة فى العصور الوسطى مهملة من جهة التعليم، يقول الدكتور أحمد شلبى فى كتابه: تاريخ التربية الإسلامية ص٣١٨ وما بعدها:

خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة محدودة جداً، لأن المذهب الكاثوليكى كان يعد المرأة مخلوقًا فى الدرجة الثانية، وكان الاتجاه هو عدم إعطاء المرأة ما يزيد على نطاق البيت. وبشىء من التفصيل يقال: طبقة النبلاء كان يسمح لهن بتعلم القراءة والكتابة، لإدارة ضياعهن، وأما بنات السادة من رجال البلاط وبنات الأطباء والقضاة فقد تقرر أخيراً أن الأحسن عدم تعليمهن، وبنات التجار والصناع تقرر عدم تعليمهن أى لون من التعليم، كما تدل عليه دائرة معارف التعليم.

ويقول بعض المؤرخين: إن الأميرات نلن طرفًا من التعليم لبضع ساعات، كانت تمضيها مع مؤدب خاص، وهى طفلة أو فى مدرسة خاصة. وأقصى ما يمكن أن تتعلمه هو قراءة كتب القصص والغناء والنشيد.

أما الانجليزية فقبيل نهاية العصور الوسطى لم يهتم بتعليمها القراءة، ولذلك كانت الأوقاف على التعليم هى للصبيان فقط، وأغلب الآباء كان يكتفى لبنته بقسط من التعليم الأولى، ثم يعلمونهن مطالب البيت والزوجية. اهـ.

والعرب في الجاهلية كانوا لا يهتمون بالعلم عامة، فقد غلبت عليهم الأمية، ولكن كان هناك بعض النساء لهن دراية بالعلم إلى حد ما ومنهن: هند بنت الخس بنت حابس الأيادية[1] وأختها جمعة بنت الخس. ومنهن أيضاً صحر وحذام بنت الريان القائلة: لو ترك القطا ليلا لنام[2]، وذلك أنه كان بين أبيها وبين عاطس بن خلاج قتال، فلما قرب من معسكر أبيها ليلا أثار القطا، فمرت بجيش الريان، فخرجت حذام إلى قومها وقالت:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا ... فلو ترك القطا ليلا لناما

فلم يسمعوا كلامها وناموا. فقام ديسم بن طارق وصرخ فيهم:

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

فثاروا وانحازوا إلى واد ونجوا[3].

ومنهن الشفاء[4] بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف القرشية العدوية المتوفاة سنة ٢٠هـ كانت تعلم الفتيات في الجاهلية. وقد أخذت حفصة بنت عمر عنها الكتابة قبل زواجها بالرسول ﷺ. ولما تزوجها دخل عليها والشفاء عندها فقال «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة» رواه أبو داود بسند صحيح عن الشفاء[5] قال ابن القيم بعد ذكر هذا الحديث: فيه دليل على جواز تعليم النساء الكتابة. وذكر هذا الخبر البلاذري في كتابه «فتوح البلدان».

وممن كنَّ يقرأن عند مجيء الإسلام غير الشفاء: حفصة وأم كلثوم بنت

---

(١) سبق شيء عنها في هذا الجزء.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ج١ ص١٦١.

(٣) مجمع الأمثال للميداني.

(٤) الشفاء بنت عوف بن عبد الحرث، بكسر الشين وتخفيف الفاء والقصر، أي بدون همزة، كما صرح به البرهان في المقتضى والحافظ في التبصير. وقال ابن الأثير في الجامع بالتخفيف والمد، أي بالهمز، وقال الدلجي بفتح المعجمة أي الشين وشد الفاء والمد، وجرى عليه البوصيري في الهمزية في قوله «وشفتنا بقولها الشفاء» الزرقاني على المواهب ج١ ص١١٩.

(٥) زاد المعاد ج٣ ص١٢٤.

عقبة، وعائشة بنت سعد، وكريمة بنت المقداد. وابنة الأعشى التى علمها أبوها حتى صارت أديبة ناقدة، وكان يعرض عليها قصائده لنقدها[1].

ورقية النملة (بكسر الميم) المذكورة فى الحديث، هى رقية من قروح تخرج فى الجنبين، وسمت كذلك لأن صاحبها يحس فى مكانها كأن نملة تدب عليه وتعضه. وكانت الشفاء ترقى بها فى الجاهلية، فلما هاجرت، وكانت قد بايعت النبى ﷺ بمكة، عرضت عليه الرقية، فأقرها. لأنه ليس فيها ما ينافى الدين، وهى موجودة فى كتاب زاد المعاد لابن القيم.

أخرج الحاكم صحيحًا على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى، أن رجلاً من الأنصار خرجت به نملة، فدل أن الشفاء بنت عبد الله ترقى منها، فجاءها، فسألها أن ترقيه، فقالت: والله ما رقيت منذ أسلمت. فذهب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذى قالته الشفاء، فقال ﷺ « اعرضى على » فعرضتها. فقال ﷺ « ارقيه وعلميها حفصة كما علمتها الكتابة ». والرقية من النملة كلام كانت نساء العرب تستعمله، وكل من سمعه يعلم أنه لا يضر ولا ينفع، وهى أن يقال: للعروس تحتفل، وتختضب وتكتحل، وكل شىء تفتعل، غير ألا تعصى الرجل. وأراد النبى بهذا المقال تأديب حفصة، والتأديب لها تعريض، لأنها أفشت السر الذى ألقاه إليها النبى. كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...** ﴾ (نيل الأوطار للشوكانى ج٩ ص١٠٥).

وقلة المتعلمات فى الجاهلية لا يمنع أن يكون فيهن شاعرات أديبات، فالشعر والأدب طبيعة غالبة فى العرب قد يجيدهما من لا يقرأ ولا يكتب.

فمن الشاعرات الخنساء التى أدركت الإسلام وخبرها مشهور. وكذلك قتيلة أخت النضر بن الحارث أو بنته، الذى كان يسب الرسول قبل الهجرة، ثم أسر يوم بدر وقتل، ورثته بقصيدة طويلة، يقال: إن النبى ﷺ قال « لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه »[2].

---

(١) تاريخ التربية لشلبى ص٣٢٤ نقلاً عن فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٥٨.

(٢) انظر قصتها وشعرها فى بحث « بر الوالدين وصلة الأرحام ».

ومنهن من كان له بصر بالشعر مثل أم جندب زوجة امرئ القيس التى حكمها فى الشعر بينه وبين علقمة الفحل، فحكمت لعلقمة فطلقها. وقيل: إن علقمة تزوجها، وسمى «الفحل» مع أن اسمه علقة بن عبدة التميمى.

وقد رفع الإسلام شأن العلم وكرم أهله، وحث على طلبه ورغب فى تحصيله، وفتح كل الأبواب إليه ويسرها، ولم يقف أمام رغبة أى إنسان فى طلب ما يريد من أنواع العلوم، فالعقل نفسه يحب المعرفة والغريزة التى يقول عنها علماء النفس «حب الاستطلاع» لا بد أن تثبت وجودها، فهى تلح إلحاحًا على الإنسان بالحصول على أية معارف، والإسلام لا يحارب الغرائز، ولكن يقومها ويوجهها الوجهة الصالحة. ولو أنه حرم العلم أو عوق سبيله لكن مضاداً للفطرة الإنسانية، والنصوص الشاهدة على ذلك فى القرآن والسنة وسيرة السلف كثيرة. وسيأتى ببعض ما يخص المرأة منها.

والمرأة كالرجل فى إتاحة الفرصة لها للتعلم، والواقع أن المرأة المتعلمة التى يحصن علمها دين وخلق قويم تستقيم، فى الغالب بل الأغلب، حياتها الخاصة والعامة، وتستطيع أن تؤدى واجباتها كما ينبغى نحو زوجها، وأن تحسن تدبير بيتها وتنظيمه، وتهيئته ليكون عشًا سعيداً حقًا، كما أنها تربى أولادها تربية صالحة، وتشرف عليهم ثقافيًا وصحيًا وخلقيًا. وتكون عونًا لزوجها فى حل المشكلات التى تصادفه فى حياتها العامة، ويكون التفاهم معها عند النزاع ميسوراً. وذلك كله إذا كانت ثقافتها أصيلة نقية متصلة بنوع خاص بحياتها ومهمتها الأصلية، ويحصنها الدين والخلق والفهم الواعى لرسالتها الأساسية.

أما من لم تكن ثقافتها بهذه المواصفات فهى نكبة على نفسها وعلى زوجها وعلى أولادها، بل على المجتمع كله، وانظر توضيح ذلك فى بحث اختيار الزوجين من الجزء الأول من هذا الكتاب.

ومما ورد من النصوص الصريحة فى حق المرأة فى العلم والحث عليه، إلى جانب النصوص العامة :

(أ) قوله ﷺ «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» رواه البخارى عن أبى بردة عن أبيه، ورواه البخارى أيضاً ومسلم عن أبى موسى الأشعرى. وإذا كان هذا فى تعليم الأمة فكيف بتعليم الحرة؟ ولعل الأجرين المذكورين هما أجر التعليم ثم أجر العتق والتزوج، وقيل إنهما أجر العتق، ثم أجر الزواج منها.

(ب) وقوله «من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان، فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة» رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى، وابن حبان فى صحيحه[1]. والتأديب تعليم وتربية.

(جـ) النصوص التى سبقت تبين خروج النساء زمن النبى ﷺ لطلب العلم وشهود صلاة العيد ووعظ النبى لهن. وقد نبغ منهن كثير على ما سيأتى بيانه.

لكن إلى جانب النصوص المشجعة على تعليم النساء وردت نصوص لا تشجع على ذلك بل قد تنهى عنه، ووجدت تيارات معاكسة لتعليم النساء، إما بناء على نصوص، وإما بناء على مشاهدة الواقع.

فقد روى الحاكم وصححه عن عائشة أن النبى ﷺ قال «لا تسكنوهن الغرف - أى الطوابق العليا - ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن الغزل وسورة النور». لكن نقاد الحديث ردوا عليه، فقال بعضهم إنه ضعيف، والضعيف لا يعارض القوى، بل إن ابن الجوزى ذكره فى الموضوعات[2]. والذين قبلوا هذا الحديث حملوه على من يخشى عليهن الفساد من التعليم.

وممن مال إلى عدم تعليمهن أبو العلاء المعرى «ولد ٣٦٣ وتوفى ٤٤٩ هـ» الذى قال:

ولا تحمد حسانك أن توافت	بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى	بهن من اليراع مقلمات[3]

---

(١) الترغيب والترهيب ج٣ ص١٨.
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ج١.
(٣) مجلة الأزهر مجلد ٨ ص ٤٣٣.

وقد جاء فى هذا المعنى قول السامى، أو البسام، وقيل ابن بسام:

مــا للنســاء وللكتــا .... بة والعمــالة والخطابة
هـذا لنـا ولهـن منــ .... ا أن يبتن على خبــابة[1]

وكان لهذا التيار أثره فى أن المرأة ظلت حقبًا طويلة تجهل كثيرًا من تعاليم دينها وواجباتها الأخرى، حتى بعد أن أنشئت المدارس، وقصدها طلاب العلم.

وإذا كان التاريخ قد حفظ لنا أسماء عدد من الشهيرات فى الدراسات الدينية فإنهن قد بلغن هذه المنزلة بالتعلم فى البيوت. وقليل منهن من كان يرتاد المساجد من أجل ذلك.

وكان الاهتمام بتعليمهن منصرفًا أكثره إلى الجوارى، وبخاصة فى مادة الأدب والغناء والموسيقى، حتى ينفق سوقهن ويغلو ثمنهن. وقد حفلت كتب الأدباء بأخبار الكثيرات منهن. وكان بعضهن يحفظ القرآن الكريم. فقد ذكر الأصبهانى فى الأغانى: أن هشام بن عبد الملك اشترى ثلاثين جارية من كبريات العالمات الأديبات، دسهن إليه خالد بن عبد الله القسرى، فكن يقرأن القرآن أحسن ما يكون، وكن حافظات لشعر الكميت بن زيد «مجلة الأزهر مجلد ٣٥ ص٤٠٣» وسيأتى خبر جوارى زبيدة المائة اللاتى كن يحفظن القرآن. أما الحرائر فكانت الهمة ضعيفة فى تعليمهن، فالحرة لا حاجة لها كبيرة فى ذلك فهى لا تمارس تربية الأولاد ولا إدارة المنزل فذلك موكول إلى الخدم. وسيأتى بعض الأخبار عن النابغات من الجوارى فى الفن، كما أن الحرائر اللائى نبغن تحدثت عنهن الكتب، فقد ذكر ابن سعد فى الطبقات أكثر من سبعمائة امرأة روين الحديث وفيهن حرائر وجوار، وترجم كذلك ابن حجر لحياة ١٥٤٣ منهن، وكذلك النووى وغيره، ومما يدل على دقتهن فى الحديث قول الذهبى: وما علمت من النساء من اتهمت، ولا من تركوها. مع أنه اتهم أربعة آلاف من

---

(١) محاضرات الأدباء للأصفهانى ج١ ص٥٩، وفى ص ١١٤ نسب الشعر إلى ابن باذان.

الرجال[١]. وللسيوطى كتاب «نزهة الجلساء فى أخبار النساء» به ترجمة لسبع وثلاثين شاعرة[٢].

وقد كنت معتزمًا إغفال ذكر النابغات فى العلم هنا محيلاً القارئ على الكتب المشار إليها، ولكنى رأيت أن أضع قائمة مبسطة بنوعيات منهن على سبيل المثال لا الحصر:

١ - عائشة أم المؤمنين. وأخبارها وافية فى ترجمتها فى البحث الخاص بزوجات النبى ﷺ. وقد تعلمت القراءة والكتابة وكانت إجادتها للقراءة أكثر، كما قال الواقدى. وروى بالسند الصحيح أن الكتب كانت تأتى إليها من الأمصار، فتأمر عائشة بنت طلحة بالإجابة عليها وبإجابة أصحابها وإثابتهم.

٢ - أم سلمة أم المؤمنين. وترجمتها موجودة فى بحث تعدد الزوجات كترجمة عائشة، وكانت مثلها تجيد القراءة أكثر من الكتابة، كما قاله الواقدى.

٣ - حفصة أم المؤمنين، وترجمتها حيث توجد ترجمة عائشة وأم سلمة. وقد علمتها الشفاء كما تقدم ذلك.

٤ - أم كلثوم بنت الإمام على، يقال عنها: أنها خطيبة قريش.

٥ - سكينة بنت الحسين، كان لها صالون جامع للطبقات الراقية من رجال الفكر وأساطين اللغة، وكانت بثقافتها وجلالها حكمًا ترضى حكومته فى المفاضلة بين الشعراء، بل كانت تستدعى ابن سريج وعزة الميلاء بوساطة خادمها أشعب ليغنيا لها. وكل ذلك يتم فى ستر وحشمة. يقول محمد بن سلام: اجتمع فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها جرير والفرزدق وكثير ونصيب وجميل، ومكثوا فى ضيافتها أيامًا، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فجلست حيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة قد روت الأشعار والأحاديث فقالت: أيكم الفرزدق؟ وذكر أن الجارية كان تبلغ عن

(١، ٢) تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبى.

سيدتها نقد كل شاعر في بعض ما ترويه، ثم تعطيه من مالها[1] كان مصعب بن الزبير قد جمع بينها وبين عائشة بنت طلحة، فلما قتل بالعراق قالت سكينة:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذى ... يرى الموت إلا بالسيوف حراما
وقبلك ما خاض الحسين منية ... إلى القوم حتى أوردوه حماما[2]

توفيت سنة ١١٧ كما ذكره ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان، أو في سنة ١٢٦هـ كما ذكر غيره.

٦ – عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، بنت أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، التي تقدم ذكرها حيث كانت ترد على خطابات عائشة.

٧ – بنت سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤هـ على بعض الأقوال، وكانت على علم واسع تلقته عن والدها وعلمت زوجها ما شاءت منه كما تقدم في بحث اختيار الزوجين.

٨ – زوجة الفرزدق، كانت أديبة يحتكم إليها الشعراء. وقد حكمها زوجها بينه وبين جرير.

٩ – ليلى الأخيلية بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، التي عشقها «تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر الخفاجي» وكانت أشعر نساء زمانها لا يقدم عليها غير الخنساء. قيل: إنها دخلت على عبد الملك بن مروان، فقال لها: ما رأى منك «توبة» حتى عشقك؟ قالت: ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة «النجوم الزاهرة ج١ ص١٩٣، ١٩٤»[3].

١٠ – رابعة العدوية، التي كانت مع ورعها تقول شعرًا طيبًا في مناجاة الله.

---

(١) نور الأبصار للشبلنجي ص١٧٥.

(٢) زهر الآداب للحصري طبعة الحلبي ج١ ص٦٤.

(٣) قيل: إن الحجاج سألها عن ولدها فقالت: إني والله ما حملته سهوًا، ولا وضعته يَتْنًا، ولا أنمته نئدًا... «أعلام النساء لعمر كحالة» وسيأتي توضيح معاني هذه الألفاظ في الجزء الرابع عن حقوق الأولاد.

١١- زبيدة زوجة هارون الرشيد، نظمت الشعر وناظرت الرجال، وكانت تسمع الشعر من وراء ستار وتصحح أخطاء الشعراء، روى ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل منهن ورد عشر القرآن، رثت ابنها الأمين لما قتله المأمون، كما ذكره المسعودى ج٣ ص٢٧١.

١٢- جارية التقت بعبد الله بن المبارك المتوفى فى ١٠ من رمضان سنة ١٨١هـ،ولطرافة خبرها أقصه بتمامه فقد كانت تجيد حفظ القرآن والاستشهاد به.

خرج عبد الله بن المبارك حاجًا فقال: بينما أنا فى الطريق إذ رأيت امرأة[١]، فقلت: السلام عليك، فقالت «سلام قولاً من رب رحيم». فقلت: ماذا تصنعين فى هذا المكان؟ فقالت «ومن يضلل الله فما له من هاد» فعلمت أنها ضالة عن الطريق. فقلت: أين تريدين؟ فقالت «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» فعلمت أنها قد قضت حجها وتريد الذهاب إلى بيت المقدس. فقلت: أنت مذ كم يوم[٢] فى هذا الموضع؟ فقالت «ثلاث ليال سويًا». فقلت: ما أرى معك طعامًا تأكلين. قالت «والذى هو يطعمنى ويسقين». فقلت: إن معى طعامًا، فهل لك فى الأكل؟ قالت «ثم أتموا الصيام إلى الليل» فقلت: ليس هذا شهر رمضان. فقالت «ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم» فقلت: لم لا تكلمينى مثل ما أكلمك؟ قالت «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» فقلت: ومن أى الناس أنت؟ قالت «ولا تقف ما ليس لك به علم» فقلت: قد أخطأت فى هذا الاستفهام، فاجعلينى فى حل، قالت: «لا تثريب

---

(١) فى كتاب «الحسين وبطلة كربلاء» لمحمد عبد الجواد مغنية ص١٧١ نقلاً عن صاحب البحار (ج١٠ ص٢٦) أن المرأة اسمها «فضة» وأصلها من الهند وكانت تتردد على السيدة فاطمة الزهراء لتساعدها فى عمل المنزل، فصلح حالها وعاشت بعد موت فاطمة عشرين سنة لا تتكلم إلا بالقرآن.

لكن هذه المرأة «فضة» توفيت، على هذا، حوالى سنة ٣٠هـ وابن المبارك توفى سنة ١٨١هـ فصاحبته غير هذه.

(٢) يجوز جر تمييز «كم» الاستفهامية بمن مضمرة إذا جرت «كم» بحرف جر، نحو بكم درهم اشتريت هذا؟ ومذ حرف جر.

عليكم » فقلت : هل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة؟ قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » فلما أنخت ناقتى قالت « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » قال : فغضضت بصرى عنها إلى أن ركبت . فلما ركبت قالت « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » فأخذت بزمام الناقة، وجعلت أسعى وأصيح، فقالت « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » فجعلت أمشى رويداً رويداً، وأترنم بالشعر، فقالت : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » فلما مشيت بها قليلاً قلت لها : ألك زوج؟ قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فسكت ولم أكملها إلى أن أدركت القافلة، فقلت : هل لك أحد فيها؟ قالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فعلمت أن لها أولاداً، فقلت : وما شأنهم فى الحج؟ قالت « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فعلمت أنهم أدلاء الركب فى الحج، فقلت : ومن هم أولادك فى هذا الركب؟ قالت « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » « وكلم الله موسى تكليماً » « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » فناديت أنا عليهم : يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى، فإذا أنا بشباب كالأقمار . فلما استقر بهم الجلوس قالت لهم « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه » فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدى، فقلت لهم : طعامكم على حرام حتى تخبرونى بأمرها . فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن، فقلت « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم » « المستطرف للأبشيهى ج١ ص٤٨ » .

١٣ - نفيسة بنت الحسن الأكبر، وهو الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ ودخلت مصر مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق، حفظت القرآن وتفسيره، وسمع الشافعى عليها الحديث، حجت ثلاثين مرة، وطلبت أن تدخل عليها جنازة الشافعى سنة ٢٠٤هـ لتصلى عليها، واعترضت موكب أحمد بن طولون لرفع ظلامة من الناس إليه . توفيت سنة ٢٠٨هـ ووصل زوجها مصر يوم وفاتها، وحاول أن ينقلها ليدفنها فى البقيع فمنعه المصريون .

١٤- أخت المزنى صاحب الشافعى، أخذت عن الشافعى وأخذ عنها العلماء، وأدرج أسمها فى جدول كبار الشافعية « دعوة التقريب ص٤٢٠ » من مقال : عبد الوهاب حمودة .

١٥- ثومال، أو ثُمل القهرمانة، تابعة شغب أم الخليفة المقتدر بن المعتضد، التى تدخلت فى شئون الحكم، وكانت لها حلقة أدبية للنساء الفاضلات . وكانت تأذن لثومال أن تجلس فى بغداد سنة ٣٠٦هـ للنظر فى المظالم فى الرصافة، وتنظر فى الشكاوى المرفوعة إليها كل جمعة، ثم تصدر التوقيعات وعليها خطها، وسيأتى شىء عنها فى موضوع تولى المرأة للقضاء، توفيت سنة ٣١٧هـ، كما سيأتى كلام عن « شغب » فى موضوع ولاية المرأة للملك[١] .

١٦- عائشة بنت أحمد بن قادم، نشأت فى قرطبة، وكانت أديبة شاعرة، تجيد الخط، ولها خزانة كتب توفيت سنة ٤٠٠هـ ودفنت فى موكب كبير، وقد خطبها بعض الشعراء الذين لم ترضهم، فقالت فيه :

أنا لبــــؤة لكننى لا ارتضى   لنفسى مناخا طول دهرى من أحد
ولو أننى أختــار ذلك لم أجــد   كليبا وكم غلقت سمعى عن أسد[٢]

١٧- مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى، كانت تعلم النساء الأدب، وعمرت طويلاً، ولعلها هى التى ذكرت فى ترجمة راضية الآتية .

١٨- راضية، التى لقبت بالنجمة السعيدة، يقول عنها « جوستاف لوبون » فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس، الذى عربه كامل زعيتر « الفصل الرابع ص١٣٠ » إنها تخرجت على مريم معلمة بنات الأسر الراقية فى أشبيلية، وقد حررها عبد الرحمن الثالث بن مخلد الناصر لدين الله، ووهبها لابنه « الحكم »، نبغت فى الشعر والقصص، وزارت الشرق بعد موت الخليفة، فأعجب بها العلماء، توفيت سنة ٤٢٣هـ وعمرها حوالى ١٠٧ سنة « أعلام النساء » .

---

(١) تاريخ الأمراء للسيوطى ٢٥٣، وأعلام النساء لعمر كحالة .
(٢) أعلام النساء .

١٩ – ولاّدة بنت الخليفة الأموى الأندلسى ٤١٤هـ المستكفى بالله محمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله، من ملوك بنى حمود. كان مجلسها منتدى الأدباء، أحبها الوزير ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٣هـ، وكانت تسمى «سافو قرطبة» و«سافو» امرأة تبحرت فى الفلسفة عند اليونان القدامى، عمرت طويلاً ولم تتزوج، توفيت فى ٢ من صفر سنة ٤٨٠ أو ٤٨٤هـ «المرجع السابق، ومرآة النساء»[١].

٢٠ – بدانية العروضية، جارية أبى المطرف عبد الرحمن بن غليون اللغوى، التى ذكر خبرها المقّرى في «نفح الطيب». أخذت عنه النحو واللغة وفاقته، وبرعت فى العروض حتى سميت «العروضية» وحفظت الكامل للمبرد، والنوادر للقالى، ودرس عليها كثير من العلماء هذين الكتابين، توفيت سنة ٥٤٠هـ «المساواة لعلى وافى ص٤٨».

٢١ – شهدة بنت أبى نصر أحمد بن الفرج بن عمر الأبرى الدينورية البغدادية، كانت تحاضر فى مسجد بغداد، كما يقول السيد أمير على فى كتابه روح الإسلام ص٥٥٢، وكانت فى الأصل جارية، يقول عنها ابن خلكان: كان لا يشق لها غبار فى العلم والأدب والخط الجيد الجميل. وقد أخذ عنها، وسمع عليها خلق كثير «مجلة الأزهر مجلد ٣٥ ص٤٠٢». ومن تلاميذها ابن تيمية الحرانى، توفيت فى بغداد يوم الأحد ١٣ من المحرم سنة ٥٧٤هـ وعمرها أكثر من تسعين سنة.

٢٢ – تقية أم على بنت أبى الفرج غيث بن على الأرمنازى الصورى، ولدت بدمشق سنة ٥٠٥هـ، مدحت الملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين بقصيدة، وصفت فيها الخمر ومجلس الأنس، حتى قال تقى الدين: الشيخة تعرف هذه الأحوال من عهد صباها، فبلغها ذلك، فأنشدت فى الحرب

(١) تولى والدها الخلافة فى قرطبة ٤١٤ هـ لمدة ١٩ شهراً وعاشت نحو ١٠٠ عام وهى فقيرة، وأمها عبدة حبشية، اتصل بها ابن زيدون بعد سنة ٤٢٢هـ وتغزل وشهر بها شعرا ونثرا.

وآلاته قصيدة، وأرسلتها إليه قائلة: علمي بهذا كعلمي بذاك. توفيت في أوائل شوال سنة ٥٧٩هـ بالاسكندرية[١] وقيل توفيت سنة ٥٧٧هـ.

وذكر خبرها السيوطي في «نزهة الجلساء». ونقلها الشيخ محمد سليمان في كتابه «من أخلاق العلماء» ص٣٧.

٢٣- فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي، عالمة وفقيهة ومحدثة، وذات خط جميل، ولها مؤلفات في الفقه والحديث، تزوجها الكاساني، صاحب كتاب «بدائع الصنائع» الذي توفي بعدها سنة ٥٧٨هـ. «أعلام النساء».

٢٤- حفصة بنت الحاج الركونية، كان فيها حسن وظرف وأدب وشعر وحسب، علمت النساء في دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وأولع بها، وتغير بسببها على وزيره أبي جعفر أحمد بن عبد الملك، الذي كان عاشقاً لها يبادلها رسائل الغرام، توفيت في مراكش في أواخر سنة ٥٨٦هـ. ومن شعرها إلى بعض أصحابها:

أزورك أم تزور فإن قلبي ... إلى ما تشتهي أبدا يميل
فثغري مورد عذب زلال ... وفرع ذوائبي ظل ظليل
وقد أملت أن تظمأ وتضحى ... إذا وافى إليك بي المقيل
فعجل بالجواب فما جميل ... إباؤك عن بثينة يا جميل

«المصدر السابق».

٢٥- زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجاني، وتعرف بابنة الشَّعري[٢]، كما يقول ابن خلكان ج١ ص٢٧٨. ولدت في نيسابور سنة ٥٢٤هـ، وأجازها الزمخشري، وأجازت ابن خلكان سنة ٦١٠هـ وهو طفل، كما

---

(١) أعلام النساء لعمر رضا كحالة، نقلاً عن ابن خلكان في الوفيات، وابن العماد في شذرات الذهب والذهبي في الأعلام بوفيات الأعلام.
(٢) وتدعى حرة.

جرت به العادة من إجازة الأطفال للتشجيع، توفيت فى نيسابور سنة ٦١٥هـ «مجلة الأزهر مجلد ٣٥ ص١٠٨٠» . وأعلام النساء.

٢٦- فاطمة بنت جمال الدين سليمان الأنصارى الدمشقى، ولدت سنة ٦٢٠ أو ٦٤٠هـ. وكانت محدثة، ومن تلاميذها الصفدى، توفيت بدمشق فى ربيع الآخر سنة ٧٠٨هـ.

٢٧- أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية، عالمة فقيهة، كانت تعظ النساء وتفقههن فى رباط الشيخة الصالحة «زينب بنت أبى البركات» المعروفة بالبغدادية، وهذا الرباط بنته لها الست الجليلة «تذكار باى خاتون» ابنة الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ، كما يقول المقريزى فى خططه «ج٤ ص٢٩٣» عند حديثه عن الربط التى كان يجتمع فيها النساء الفقيرات أو المطلقات، أو اللاتى هجرهن أزواجهن، ليقوم الرباط بشأنهن، حتى يجعل الله لهن مخرجًا، وكان لهذا الرباط دائمًا شيخة تلقى عليهن الدروس وتعظهن، ويقول المقريزى أيضًا «ص٣٢٨»: إن الحجازية كانت واعظة زمانها، ولها رباط بالقرافة الكبرى، ولها خيرات وقبول، وصيتها كابن الجوهرى، ولها أخلاق كريمة وكياسة. توفيت أم زينب فى ذى الحجة سنة ٧١٤هـ.

٢٨- نضار بنت محمد بن يوسف الأندلسى «أم العز» ولدت فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٢هـ، كانت شاعرة ومحدثة فاضلة، سمعت من شيوخ كثيرين، وكان والدها يثنى عليها ويقول: ليت أخاها «حيان» مثلها. توفيت فى حياة والدها فى جمادى الآخرة سنة ٧٣٠هـ، وأشاد بفضلها الكثيرون، وكتب الشاعر الصفدى إلى والدها قصيدة أولها:

بكينا باللجين على نضار ... فسيل الدمع فى الخدين جار

فيالله جارية تولت ... فنبكيها بأدمعنا الجوارى

٢٩- زينب بنت يحيى بن عز الدين بن عبد السلام، حفيدة الإمام

المشهور عز الدين بن عبد السلام، ولدت سنة ٦٤٨هـ، وتفردت برواية «الجامع الصغير» للطبراني. توفيت سنة ٧٣٥هـ.

٣٠- بنت الكمال زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد، المقدسية، ولدت سنة ٦٤٦هـ وتزاحم عليها طلاب الحديث، وتوفيت في ١٩ من جمادى الأولى سنة ٧٤٠هـ.

٣١- صفية بنت أحمد بن أحمد المقدسية الصالحية، ولدت سنة ٦٦٠هـ وكانت مشهورة في الحديث، وتوفيت في ١٨ من ذي الحجة سنة ٧٤١هـ.

٣٢- جويرية بنت أحمد بن أحمد بن الحسين بن موسك بن موسى الهكاري. ولدت في ٤ من رمضان سنة ٧٠٤هـ، وكانت مشهورة في الحديث، وتوفيت سنة ٧٨٢ أو ٧٨٣هـ.

٣٣- زينب بنت عثمان بن محمد لؤلؤ الدمشقية، كانت مشهورة في الحديث،أخذ عنها ابن حجر العسقلاني،ولها عدة مؤلفات،توفيت سنة ٨٠٠هـ.

٣٤- فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية الصالحية، ولدت سنة ٧١٩هـ، وتوفيت بصالحية دمشق في شعبان سنة ٨٠٣هـ، وهي ممن أخذ الحديث عنهن الحافظ ابن حجر.

٣٥ - عائشة بنت الحافظ الشمسي محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد ابن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسية، وهي أخت فاطمة المذكورة في رقم ٣٤. ولدت في الساعة الرابعة من يوم الجمعة ١٧ من رمضان ٧٢٣هـ، وكانت سيدة المحدثين بدمشق، وآخر من حدث عن ست الفقهاء بنت الواسطي، وزينب بنت الكمال، وزينب بنت يحيى بن عبد السلام، بالإسماع والإجازة، وروى عنها ابن حجر، كما روى عن أختها، وتوفيت في يوم الأربعاء قبيل عصر يوم ٤ من جمادى الأولى، أو ربيع الأول سنة ٨١٦هـ.

٣٦ - عائشة بنت علي بن محمد بن عبد الغني بن المنصور الدمشقية. عالمة في اللغة والحديث، فتحت حلقة للتدريس، وتوفيت في رمضان سنة ٨١٥هـ عن بضع وسبعين سنة.

٣٧- كريمة بنت أحمد المروزى «معجم ياقوت ج١ ص٢٤٧» قرأ عليها الخطيب البغدادى صحيح البخارى.

٣٨- فاطمة بنت إبراهيم بن عبد الله الدمشقية، التى أخذ عنها الحافظ الذهبى.

٣٩- زينت بنت عبد الله العريانى، أخذ عنها الحافظ السخاوى.

٤٠- فاطمة التنوخية، التى أخذ عنها الحافظ ابن حجر.

٤١- مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى، أخذ عنها أبو حيان.

٤٢- زينب بنت عبد المطلب البغدادى، أخذ عنها أيضًا أبو حيان.

٤٣- شامية التميمية، ممن أخذ عنهن أبو حيان.

٤٤- لبنى، كاتبة خليفة الأندلس الحكم بن عبد الرحمن، اشتهرت بعلوم اللغة والشعر والحساب.

٤٥- ست الوزراء، حفيدة وجيه الدين الحنبلى.

٤٦- بنت عمر بن أسعد بن المنجا، محدثة مشهورة.

٤٧- حمدة بنت زياد بن تقى الدين الصوفى المؤدب.

٤٨- زينب بنت زياد، أخت حمْدة، وكانتا شاعرتين فيهما وسامة وجمال، مع مال وعفاف. وكانت حمدة تلقب بخنساء المغرب، وشاعرة الأندلس «نفح الطيب».

هؤلاء بعض شهيرات فى علوم الدين واللغة وغيرهن كثير، وقد عد ابن عساكر فى شيوخه إحدى وثمانين امرأة، والسيوطى يختم كتابه «بغية الوعاة» بمسلسلات قرأ منها على الكاتبة أم هانئ بنت الحسن الهورينى، وعلى هاجر بنت محمد المصرية، وأخبرته الشيختان المسندتان أم هانىء وأم الفضل بنت

محمد المقدسى وقرأ على الأصيلة نشوان بنت عبد الله الكنانى، وأخبرته كمالية بنت محمدبن أبى بكر الجرجانى، وأنبأته أمة الخالق بنت عبد اللطيف العقبى « توفيت سنة ٨٣٣هـ » . وأخبرته أمة العزيز بنت محمد بن يونس الأمانى « أو الأمباسى »، وفاطمة بنت على بن اليسير مشافهة بالفساط، وخديجة بنت أبى الحسن الملقن . . . (ص٣٢٥ من كتاب أخلاق العلماء للشيخ محمد سليمان) .

٤٩ـ عائشة الباعونية، هى بنت القاضى يوسف بن أحمد بن ناصر الدين الباعونى، نسبة إلى « باعون » قرية من قرى « عجلون » فى جبل الدروز، ولدت بدمشق، من بيت علم وأدب، وحفظت القرآن وسنها ثمان سنوات، وتعلمت النحو والعروض والفقه . ولها قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، عنوانها : الفتح المبين فى مدح الأمين . وتسمى البديعية . ونظمت المعجزات والخصائص النبوية للسيوطى، واختصرت رسالة الهروى الصوفى المسماة : منازل السائرين، فى أرجوزة بعنوان : الإشارات الخفية فى المنازل العلية .

تتلمذت فى مصر سنة ٩١٩هـ على أحمد شهاب الدين القسطلانى شارح البخارى المتوفى سنة ٩٢٥هـ، ووصفها المؤرخون بالفضل والتصوف توفيت بدمشق، ودفنت بالصالحية، وقبرها موجود إلى الآن، وعليه تاريخ ٩٣٠ « مرآة النساء » وفى مجلة الأزهر مجلد ٣٥ صفحة ١٠٨٠ أنها توفيت سنة ٩٢٢هـ. وكذلك فى دائرة المعارف (يوافق ١٥١٦م) .

٥٠ـ الملكة خُناثة بنت بكار بن على المغافرى زوجة السلطان إسماعيل سلطان المغرب، كانت عالمة متدينة، وكانت له وزير صدق . سافرت من مكناس فى ١١ من جمادى الآخرة سنة ١١٤٣هـ إلى الحجاز . واشترت هناك داراً بباب العمرة، ووقفتها على طلاب العلم والحديث . لها تعليق على كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر[1] . وتوفيت فى « فاس » فى جمادى الأولى سنة ١١٥٩هـ « تاريخ مكناس لابن زيدان، وأعلام النساء لعمر كحالة » .

---

(١) مجلة صحراء المغرب ١٨/٦/١٩٥٨ .

٥١– عائشة التيمورية، هى السيدة عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا تيمور بن محمد كاشف، وأخت المرحوم أحمد تيمور المتوفى سنة ١٢٤٨هـ كردية الأصل، شاعرة فاضلة، لها ديوان يسمى « حلية الطراز » غلبت عليها ملكة الشعر، فنظمت كثيراً حتى تزوجت فانصرفت لتدبير المنزل، حتى مات زوجها فى سنة ١٢٩٢هـ، وكان أبوها قد مات قبله سنة ١٢٨٩هـ، فاستقلت واشتغلت بالأدب ثانية حتى توفيت فى سنة ١٣٢٠هـ (٢مايو ١٩٠٢م) وعمرها أربع وستون سنة، فقد ولدت سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤١م) بالقاهرة. نظمت الشعر وسنها ١٣ سنة، وتزوجت وسنها ١٤ سنة من محمد بك توفيق الإسلامبولى، وأنجبت بنتها توحيدة وتوفيت وعمرها ١٨ سنة، وهى على وشك الزفاف، فحزنت أمها عليها حتى ماتت بعد ٧ سنوات، وقد أخذت النحو والعروض عن فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية، جمعت ثلاثة دواوين باللغات العربية والتركية والفارسية، وغلب عليها الرثاء بعد وفاة بنتها توحيدة، وظلت كذلك سبع سنوات حتى نصحها الأطباء بالكف عن البكاء. ومن شعرها:

بيد العفاف أصون عز حجابى ... وبهمتى أسمو على أترابى
فجعلت مرآتى جبين دفاترى ... وجعلت من نقش الخضاب مدادى[1]
كم زخرفت وجنات طرسى أنملى ... بعذار خط أو إهاب شباب
ولكم زها شمع الذكا وتضوعت ... بعبير قولى روضة الأحباب
ماساءنى خدرى وعقد عصابتى ... وطراز ثوبى واعتزاز رجالى
ما عاقنى حجلى عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتى ونقابى
عن طى مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتى فى راحتى وتفرسى ... فى حسن ما أسعى لخير مآب[2]

---

(١) كلمة (مدادى) لا تستقيم مع القافية، ولو جعلت الشطرة هكذا: وجعلت من لون المداد خضابى، لاستقام الشعر مع المحافظة على المعنى.

(٢) مرآة النساء، وإعلام النساء، وأهرام ٢٩/٤/١٩٦٣، ٢/١٢/١٩٧٠.

٥٢- السيدة الزهراء جدة محمد بن على السنوسى لأبيه، وعمته السيدة فاطمة، التى تربى على يديها، وكانت متبحرة فى العلم، وانقطعت للتدريس والوعظ، وحضر مجلسها الرجال(١).

وإلى جانب هؤلاء النساء نساء كثيرات فى القديم والحديث، اشتهرن بالعلوم الدينية أو اللغوية الأدبية، كما اشتهر كثير فى فنون أخرى كالطب، وتحسين الخط، والغناء والموسيقى، وإليك طائفة من هذه النوعيات :

أولاً - فى الطب :

ذكر بعضهن الدكتور أحمد شلبى فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » .

١ - أم المؤمنين عائشة، مارست بعض أنواعه الأولية فى غزوة أحد بمداواة الجرحى كما سيأتى خبر ذلك فى حكم اشتغال المرأة بالفنون الحربية .

٢ - أم عطية الأنصارية، ترجمتها ستأتى .

٣ - رفيدة الأسلمية التى نصبت خيمتها فى المسجد النبوى لمداواة الجرحى فى غزوة الخندق، وسيأتى كلام عنها فى حكم خروج المرأة للجهاد .

٤ - الشفاء بنت عبد الله، وقد تقدم أنها كانت تعلم حفصة الكتابة كما علمتها رقية النملة ص ٣٩٦ .

٥ - أمية بنت قيس بن أبى الصلت الغفارية، استأذنت رسول الله ﷺ فى الخروج إلى خيبر مع نسوة من بنى غفار لمداواة الجرحى ومعاونة المسلمين .

٦ - زينب، طبيبة بنى أود، كانت تداوى آلام العين، كما ذكره ابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء » ولها دراية بالجراحة .

٧ - أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى، برعت فى الطب إلى جانب العلوم الأخرى .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى تعليق شكيب أرسلان .

٨ – أخت الحفيد أبى بكر بن زهر، وابنتها عالمتان فى الطب وأمراض النساء، كان لا يداوى نساء المنصور غيرها.

٩ – بنت أبى الصائغ، أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ المصرى، الذى كان رئيسًا للأطباء فى دار الشفاء المنصورية بالقاهرة «قلاوون»، وشيخًا للأطباء فى مصر، فلما توفى سنة ١٠٣٦هـ لم يعقب إلا بنتًا واحدة تولت مكانه مشيخة الطب «مجلة الوعى الإسلامى جمادى الآخرة ١٣٩٢هـ».

١٠ – خرقاء العامرية، حبة، «المصدر السابق».

وإذا قلنا إن هؤلاء اشتغلن بالطب فليس معنى ذلك أنهن على مستوى الأطباء المعروفين، ولكنه نشاط جزئى على المستوى المعروف إذ ذاك، وهو على كل حال يدل على أن المرأة مارست هذا النوع من النشاط دليلاً على أن الإسلام لا يقف فى طريقه، وأن المعرفة بميدانها الواسع من حقوق كل إنسان.

ثانيًا – فى تحسين الخط:

١ – حفصة أم المؤمنين، التى علمتها الشفاء الكتابة، وقد سبق خبر ذلك.

٢ – خديجة بنت محمد.

٣ – فاطمة بنت الحسن بن على الأقرع، المتوفاة سنة ٤٨٠هـ.

٤ – فاطمة البغدادية.

٥ – ست الوزراء بنت محمد.

٦ – فاطمة الشهيرة ببنت قريمزان، وهى فاطمة بنت عبد القادر بن محمد ابن عثمان. ولدت فى ٤ من المحرم سنة ٨٧٨هـ، وتولت مشيخة العادلية والزجاجية معًا، وأخذت العلم عن زوجها كمال الدين محمد بن مير جمال الدين بن قلى درويش الأربيلى الشافعى، نزيل المدرسة الرواحية فى حلب، اشتهرت بجودة الخط، وبالفقه والتدين وتوفيت سنة ٩٦٦هـ.

٧ – جوهر شاد.

٨ – ثناء جارية ابن نيوما.

٩ – تركية اسمها «أسماعبرت» ظهر لها مخطوط منذ ١٧٦ سنة، وكانت تكتب لوحات عن القرآن أثارت الإعجاب، ودر عليها المال[١].

١٠– ومن المجيدات للخط أيضًا: فاطمة السمرقندية المتوفاة سنة ٥٧٨هـ وقد تقدمت ص٤٠٧.

١١– حليمة بنت محمد صادق، وكانت فى الآستانة حوالى سنة ١١٦٩هـ «أعلام النساء».

١٢– خديجة بنت عثمان بن محمد الهورى، يقال لها «ضوء الصباح» كانت محدثة وجيدة الخط والإنشاء، توفيت سنة ٧٣٤هـ «تاريخ ابن الوردى».

١٣– ست العيش القاهرية، عائشة بنت على بن محمد بن على بن عبد الله بن أبى الفتح. ولدت بالقاهرة سنة ٧٦١هـ، عالمة ذات صلاح وإحسان تعلمت الخط الجيد، وحدثت وسمع عليها الأئمة، وكانت مستحضرة السيرة النبوية جيداً، وسريعة الحفظ للشعر، طالعت كتبه الفقه بفهم جيد. توفيت بعد عصر يوم الأربعاء ١٦ من ذى القعدة سنة ٨٤٠هـ.

١٤– حافظة بنت محمد سعيد «نائب الحلة سابقًا» خطاطة مجيدة توفيت ببغداد سنة ١٣٤٦هـ.

ثالثًا – فى الغناء والموسيقى:

وهن كثيرات نورد نماذج منهن، واهتم بتاريخهن، كتاب الأغانى، ونهاية الأرب، ونفح الطيب، وغيرها.

١ – جميلة مولاة بنى سليم، أخذ عنها معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة، وعقيلة العقيقية، والشماسيتان خليدة وربيحة، اعتزت بفنها، وكانت تغنى فى منزلها فقط.

---

(١) أهرام ١/٨/١٩٦٥ ملحق المرأة والبيت.

٢ – دنانير، مولاة يحيى بن خالد البرمكى، صفراء مولدة، شغف بها الرشيد، فوهب لها هبات سنية، فشكته زوجته أم جعفر إلى عمومته، فعاتبوه، ثم لاموه عندما عرفوا حسن غنائها، توفيت سنة ٢١٠هـ. «أعلام النساء».

٣ – عُلَيَّة بنت المهدى أخت هارون الرشيد، ولدت سنة ١٦٠هـ، وكان أخوها إبراهيم بن المهدى يشبهها فى حلاوة الغناء، كانت مغنية ملحنة شاعرة، عابدة زاهدة، وهى التى قالت: ما حرم الله شيئًا إلا وقد جعل منه عوضًا، فبأى شىء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته؟ وكان إيمانها بطهارة تاريخها ينطقها بهذا الاعتزاز والفخر، إذ تقول: لاغفر الله لى فاحشة ارتكبتها قط.

من أخبارها المروية أنها راسلت بالشعر أحد خدم الرشيد، وهو «طل» فنهاها الرشيد أن تذكر اسمه، فامتنعت، حتى إذا كانت تقرأ القرآن فوصلت إلى قوله تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** ﴾ قالت «فإن لم يصبها وابل فالذى نهانا عنه الرشيد» كما فى زهر الآداب للحصرى على هامش العقد الفريد ج١ ص١٢. توفيت سنة ٢١٠هـ (٨٢٥م) ولم تتجاوز الخمسين، وصلى عليها المأمون. ومن لطيف شعرها:

يا عاذلى قد كنت قبلك عاذلا … حتى ابتليت فصرت صبا ذاهلا
الحب أول ما يكون مجانة … فإذا تمكن صار شغلا شاغلا
أرضى فيغضب قاتلى فتعجبوا … يرضى القتيل ولا يُرَضِّى القاتلا[1]

ومن شعرها أيضًا:

بنى الحب على الجور فلو … أنصف المعشوق فيه لَسَمُج
ليس يستحسن فى حكم الهوى … عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيبن من محب زلة … زلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفا خالصا … لك خير من كثير قد مُزِج[2]

(١) زهر الآداب طبعة الحلبى ج١ ص١٠ العقد ج١ ص١٣.
(٢) زهر الآداب طبعة الحلبى ج١ ص١١ وأعلام النساء.

٤ – محبوبة جارية المتوكل، وكانت شاعرة عالمة بصنوف العلم، تضرب على العود جيداً، وكانت قد نشأت بالطائف. «تاريخ الأمراء للسيوطى ص٢٢٣، ٢٣٥».

٥ – متيم الهاشمية، نشأت بالبصرة، وغنت للمعتصم ببغداد، وإبراهيم ابن المهدى.

٦ – خديجة بنت الخليفة المأمون.

٧ – عُنَيْدَة الطنبورية، سميت بذلك لعزفها على الطنبور، وهى جدة أبى الخير التينانى الأقطع، كان يجلس أمامها ٥٠٠ تلميذ من الجنسين «تاريخ التربية لشلبى».

هذا وستأتى بعض أسماء الشهيرات للنساء فى ميادين مختلفة، فى آخر هذا الكتاب إن شاء الله.

وإذا كنا قد وضحنا حق المرأة فى تحصيل العلم، أيًا كان نوعه، فإن الأولى أن تهتم بالنوع الذى يساعدها كمسلمة على أداء واجباتها الدينية، وكزوجة على أداء واجباتها الزوجية، وكأم على أداء واجباتها فى تربية أولادها، ولا ينبغى أن تنصرف كليًا عن هذه الواجبات الزوجية الضرورية لها، إلى ما لا ضرورة له مما هو أليق بالرجل، كما لا ينبغى أن تهتم بهذه الأمور الأخرى أكثر من اهتمامها بما يليق بها.

وقد كانت مناهج التعليم أولاً تساعد البنت على القيام بما هيأتها له الطبيعة، ثم طعم المنهج بكثير من المواد الأخرى، حتى كاد التعليم يكون واحداً لكل من الجنسين، وقد نعى كثير من المختصين على ذلك، كما سيأتى بيانه بعد، وهو، إلى جانب إرهاقه للفتاة نظراً لاستعداداتها الطبيعية، يحرمها من الثقافة الأصيلة التى كان يجب الاهتمام بها.

والمدارس التى فتحت خاصة للثقافة النسوية قليلة، وهى فى طريقها إلى

طغيان التعليم العام عليها ، ونحن فى أمس الحاجة إلى هذا التعليم الخاص الذى يؤهل البنت لحياتها المستقبلة. وهذه التوصية قديمة جداً. ففى كتاب محاضرات الأدباء للأصبهانى « ج٢ ص١٢٦ » : علموهن سورة النور، وجنبوهن سورة يوسف، لأن فى الأولى آداب الحشمة والعفة، وفى الثانية حديث الحب بين امرأة العزيز ويوسف.

والبلاد الأجنبية فيها مدارس ومؤسسات خاصة للثقافة الزوجية، تعرض على الفتاة فى بعضها أن تمضى بها فترة من الزمان، كالمدارس الموجودة فى أسبانيا، ومدة الدراسة فيها لستة أشهر، تدخلها الفتاة إجبارياً عندما تبلغ السادسة عشرة من عمرها، وذلك لمدة ساعتين كل يوم[١] وكمركز تنظيم الأسرة فى اسكتلندة الذى ترأسه « مسز كيللر » زوجة العالم الاسكتلندى « كيللر » رئيس مجلس البحوث العلمية، وهى تقول : إن المركز يستقبل البنات فى أيام الخطبة، لإعطاء دروس فى تركيبهن الجسمانى، ومساعدتهن على تفهم شخصية الخطيب، وفى أيام أخرى يستقبل المركز العرائس اللاتى يحضرن دروساً فى تحليل شخصية الرجل واهتماماته وتصرفاته، حتى تستطيع معاملته معاملة حسنة، وفى نهاية الدراسات تحصل العروس على شهادة تؤهلها لحياة زوجية سعيدة[٢].

والعلم الذى يحتاج إليه فى خدمة الوطن يمكن أن يضطلع به الذكور بكفاية وجدارة، وبجلد وتفرغ وإنتاج مثمر، أما ما يحتاج إليه فى سياسة المنزل فقد صرفت عنه الرغبة، وتمردت عليه المرأة، بل قامت صيحات من بعض المفتونات بوجوب تعليم التلاميذ الأعمال المنزلية ليساعدوا زوجاتهم فى المستقبل، وهذا هروب من ميدانهن الأصلى، وتملص من المسئولية التى تحس بعدم جدارتها بها.

قال الحجاج بن يوسف الثقفى لمعلم أولاده : علمهم السباحة أولاً، قبل أن

---

(١) أهرام ٧ / ١٠ / ١٩٦٣ .
(٢) أهرام ٣١ / ١٠ / ١٩٦٣ .

تعلمهم الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم «الآداب الشرعية لابن مفلح ج١».

هذا، ويجب أن ننتبه إلى خطر تعليم البنت في المدارس الأجنبية، وبخاصة تلك التي لم تحكم الرقابة عليها، فقد كانت - وما تزال على الرغم من فرض الرقابة عليها - أوكاراً للتبشير بالعقائد الغريبة عنها، ومراكز خطرة لشن الغارات على الأخلاق والتقاليد والأفكار، وجذب الميول والعواطف إلى الدول التي تنتمي إليها، وهي إحدى الخطط الاستعمارية التي صرح بها كبراؤهم.

جاء في مقال الكاتب الفرنسي «ايتين لامي» المنشور في مجلة العالمين باللغة الفرنسية في العدد الصادر في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٠١ مايلي:

إن مقاومة الإسلام بالقوة لا تزيده إلا انتشاراً، وإن الواسطة الفعالة لهدمه هي تربية بنيه في المدارس المسيحية، وإلقاء بذور الشك في نفوسهم، فتفسد عقائدهم، ويصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين، وأمثال هؤلاء، يكونون بلا شك أضر على الإسلام ممن اعتنقوا المسيحية وتظاهروا بها، وإن تربية البنات المسلمات تربية مسيحية توجد للإسلام في داخل حصنه المنيع عدواً لدوداً لا يمكن للرجل قهرها، ومتى تغلبت المرأة تغيز نظام الأسرة بالمرة، وأصبح في قبضة يدها، ومن السهل على المرأة، والحالة هذه، أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته، فتبعده عن الإسلام، وتربي أولادها على غير دين أبيهم، ففي اليوم الذي تغذي فيه الأم أبناءها بلبان هذه التربية تكون المرأة قد تغلبت على الإسلام نفسه.

تلك هي أقرب الطرق وأنجح الوسائل لمحاربة الإسلام بأهله دون جلبة ولا ضوضاء، وهي، ولا شك، أدعى لنوال المآرب وبلوغ المرام، فليس لنا إلا اتباعها. أما السعي جهاراً في محاجة المسلم وإقناعه بما هو عليه من الضلال فإنه يوقظ عوامل التعصب الكامنة في نفسه، الساكنة بين جوانحه، فلا يمكن تذليله، وهذا ليس من الحزم في شيء[1].

وقد جاء مثل هذا الكلام في كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»

(١) مجلة النذير عدد ١٦٠.

للدكتورين مصطفى خالدى وعمر فروخ، نقلاً عن كتاب «المبشرون والمرأة» ففيه:

بما أن الأثر الذى تحدثه الأم فى أطفالها ذكوراً وإناثًا، حتى السنة العاشرة من عمرهم، بالغ الأهمية، وبما أن النساء هن العنصر المحافظ فى الدفاع عن العقيدة، فإننا نعتقد أن الهيئات التبشيرية يجب أن تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على أنه وسيلة مهمة فى التعجيل بتنصير البلاد الإسلامية «ص٢٠٣».

٨ - حق التعليم :

كما أعطى الإسلام للمرأة حق التعلم أعطاها أيضًا حق التعليم، وذلك لعموم الأوامر الواردة فى ذلك، والنصوص كثيرة فى القرآن والسنة، ويكفى منها قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ... ﴾ [التوبة: ٧١]، والتعليم أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وهو نصيحة وإرشاد، والدين النصيحة، وهو تواص بالحق، والناس خاسرون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، كما فى سورة العصر، والتطبيق العملى لحق المرأة فى التعليم خير دليل على مشروعيته لها.

فقد كان النبى ﷺ خير من نقل إلى النساء وغير النساء أدق أحواله عليه الصلاة والسلام وأخفاها، وبخاصة فيما يكون الاتباع فيه من أحكام الدين، ومنزلة السيدة عائشة فى ذلك معروفة. فقد كانت تشرح لبعض السيدات ما استعصى فهمه عليهن من النبى ﷺ، فيما كان يؤثر الكناية عنه من العورات والمسائل الحساسة. روى مسلم عن عائشة قصة المرأة التى سألت النبى ﷺ عن كيفية الاغتسال من الحيض، فأرشدها إلى أن تأخذ فرصة من مسك، قطعة قطن أو صوف أو خرقة مطيبة بالمسك، فتتطهر بها. فلم تفهم المرأة معنى التطهر، فكرره النبى قائلاً «سبحان الله» واستتر، فجذبتها عائشة وعرفت ما أراد النبى فشرحته لها، بأن تتبع أثر الدم بهذه الفرصة، بوضعها فى مكان نزول الحيض لتطييب الرائحة «مسلم ج٤ ص١٤».

وكما بينت للناس متى يجب الغسل عند الاتصال الجنسى «مسلم ج٤ ص٤٠»، يقول أبو موسى الأشعرى: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علم. رواه الترمذى وصححه. وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحرام ولا بحلال ولا بشعر ولا بطب ولا بحديث العرب ولا نسب من عائشة. رواه الحاكم والطبرانى وغيرهما بإسناد حسن «الزرقانى على المواهب اللدنية ج٣ ترجمة عائشة».

هذا، وحديث «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء» الذى ذكره ابن الأثير فى كتابه «النهاية» غير معزو، وحديث «خذوا ثلث دينكم من بيت الحميراء»[1] لا يعرف المحدثون له سنداً «الزرقانى على المواهب ج٣ ص٢٣٣». وقال ابن حجر: لا أعرف له إسناداً، ولا رأيته فى شىء من كتب الحديث، إلا فى نهاية ابن الأثير، وإلا فى الفردوس بغير إسناد. وسئل المزى والذهبى فلم يعرفاه. كذا فى المقاصد. اهـ من كتاب «الفوائد المجموعة» للشوكانى ص٣٩٩. أما تلقيب النبى لعائشة بالحميراء فثابت فى حادث رؤيتها للعب الحبشة والنبى يسترها «تخريج العراقى لأحاديث إحياء علوم الدين» ووصفها بالحميراء وصف بلونها لا وصف، كما فهم بعض السذج، بالبلادة كالحمار. فحاشا لله أن يصف النبى عائشة بذلك وهى المعروفة بالذكاء والعلم.

وإقرار النبى ﷺ لعائشة على عملها تشريع بحق المرأة فى التعليم، وقد مر حديث أسماء بنت يزيد بن السكن التى سألت النبى نيابة عن جماعتها عن منزلة عمل المرأة بالنسبة لعمل الرجل، وقوله لها: أخبرى من وراءك بأن حسن قيام المرأة بواجبات زوجها تعدل ما يقوم به الرجل من جهاد وغيره، وهو أمر منه أو على الأقل إذن بالتعليم يدل على أنه مشروع.

ومزاولة المرأة للتعليم خارج بيتها حكمها حكم خروجها لأى عمل آخر،

---

(١) كما رواه النسائى وانظر الزرقانى على المواهب ج٢ ص١٦٧.

وقد سبق تفصيل ذلك بوضوح. هذا، وقد رأت بعض الدول أن تؤثر النساء على الرجال فى تعليم الصغار من الجنسين، لما فى المرأة من المعانى ما يقرب من الأمومة التى لا يستغنى عنها الأطفال، غير أن الأطفال فى سرعة تقليدهم لهن، وهم فى هذه السن أقوى ما يكونون تأثرًا بمن تعلمهم، ينطبع فى أذهانهم سلوكها ومظهرها، قبل أن تنطبع فيهم أقوالها، وفى ذلك من الخطورة ما فيه إن لم تكن المربية «المدرسة» على سلوك مستقيم ومظهر يتفق والأخلاق، وعلى تفهم واع برسالتها وخطورة وضعها فى هذه المرحلة من حياة الأطفال.

ومن المؤسف أن النساء فى الخروج على التقاليد الدينية أسرع بكثير من الرجال، فالخطر شديد فى إسناد مهمة التعليم إليهن، وبخاصة عند عدم إلمامهن بالثقافة الدينية الكافية، وعند عدم إيمان الكثيرات منهن بتعاليم الدين التى تصفها بالرجعية.

٩ - حق إبداء الرأى :

الإسلام أعطى المرأة حقها فى النقد والتوجيه، والاستفهام فى إبداء رأيها فى المشروعات وفى الأحداث، والتوعية بما تراه حقًا ونافعًا، وذلك بأية وسيلة من الوسائل التى لا تهدم مبدأ دينيًا ولا تعارض أدبًا إسلاميًا، فلها أن تشارك برأيها فى الصحافة والإذاعة والتأليف وما إلى ذلك مما يدخل فى نطاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصح والإرشاد والتواصى بالحق.

وقد مرت النصوص الدالة على ذلك كله، ولعل حادثة العجوز مع عمر فى مشروع الحد من المغالاة فى المهور خير دليل. وقد تقدمت فى الجزء الأول عند الكلام على الصداق[١].

---

(١) ومنهن الوافدات على معاوية مثل أروى بنت الحارث بن عبد المطلب - انظر العقد الفريد، وثمرات الأوراق لابن حجة.

١٠ - حق إعطاء الأمان :

مما رفع الإسلام به قدر المرأة وأكد دورها فى الحياة الاجتماعية أنه أعطاها حق إجارة المستجير بها وتوفير الأمن له إذا كان من الأعداء، وهو وإن كان حقًا فرديًا فى أحوال خاصة، لا يكون فى المعاهدات والعلاقات الدولية العامة، كما قال العلماء، فهو على أى حال تكريم للمرأة. ومن حوادث ذلك :

١ - عندما أسر أبو العاصى بن الربيع فى سرية زيد بن حارثة فى جمادى الأولى سنة ست من الهجرة أجارته زوجته زينب بنت النبى ﷺ، ونادت فى الناس حين صلى رسول الله الفجر : إنى قد أجرت أبا العاصى، فقال رسول الله ﷺ « ما علمت بشىء من هذا، وقد أجرنا من أجرت » ذكره الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية ج١ ص١٢١.

٢ - روى مسلم « ج٥ ص٢٣١ » : أن أم هانئ بنت أبى طالب أتت رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان يصلى الضحى. فلما رحب بها قالت : زعم ابن أمى « على بن أبى طالب » أنه قاتلٌ رجلاً أجرته « فلان بن هبيرة ». فقال رسول الله ﷺ « قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ».

وجاء فى التاريخ أنها أجارت رجلين، هما : الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى، عبد الله بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى. وابن هبيرة هو الأول « شرح النووى على صحيح مسلم ج٥ ص٢٣٢ » و« زاد المعاد لابن القيم ج٢ ص١٦١ ».

٣ - فى عام الفتح أهدر رسول الله ﷺ دم جماعة من المشركين، منهم عكرمة بن أبى جهل. ففر من وجهه، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبى ﷺ، فقدم وأسلم وحسن إسلامه « زاد المعاد ج٢ ص١٦٦ ».

أما الإجازة العامة لقوم يريد الإمام أن يغزوهم فهى داخلة ضمن النشاط السياسى، وهو مستوى عال سيأتى الكلام عن حق المرأة فيه.

١١- حق النشاط الاجتماعى العام :

كل نشاط للمرأة تسهم به فى رقى المجتمع الإسلامى والإنسانى حقها مكفول فيه، فإذا باشرته فى منزلها كان ذلك أولى وأليق، ما دام هناك حفاظ على حقوق الله وآدابه. أما إذا باشرته خارج المنزل، فقد مر الحديث عنه فى الفصلين الثانى والثالث فى هذا الجزء.

ولى كلمة توضيحية فى عمل المرأة خارج منزلها، وهى: أن تجربة توليها لبعض الأعمال فى بعض الدول الإسلامية أسفرت عن كثير من الشكاوى بسبب تخلفهن عن العمل، لما يتعرضن له من الحمل وآلامه والوضع وتوابعه، مع سخاء المسئولين بإعطاء الإجازات لهن لهذه الظروف، وفى هذا التخلف وبخاصة فى مجال التعلم، ضياع للتلاميذ، وتشتيت لأفكارهم، وعدم تسلسل فى دراستهم للموضوعات بروح واحدة مألوفة، إذا تناول هذا الموضوع مدرس أو مدرسة أخرى، حتى تحضر المدرسة الأولى من إجازاتها، كما أن فيه ضعفًا للإنتاج العام فى ميادين العمل الأخرى.

وذلك إلى جانب إرهاق الدولة فى تدبير دور حضانة لأولاد العاملات، يقضون فيها وقتًا حتى تتسلمهم أمهاتهم، وما فى تنفيذ ذلك من صعوبات لظروف يعرفها الخبراء. كما أن إرهاقها بالعمل يضعف صحتها، ويعجل شيبها، ويذهب بنضارتها، ويؤثر على أنوثتها بشكل واضح.

وحرمان أولادها من رعايتها الدائمة بما فيها من دفء وحنان لا يعوضه أبدًا ذلك الكسب المادى الذى تحرص عليه المرأة من وراء عملها، ذلك أنها إما أن تتركهم وحدهم فى البيت، وخطر ذلك لا يحتاج إلى دليل، وإما أن تتركهم مع خادم عادية، وهل ينتظر من هذه الخادم ما ينتظر من الأم؟ وإما أن تتركهم مع إحدى الأقارب أو الجارات أو الصديقات، ومن من هؤلاء يكون كالأم، وكل له مشاغله؟ وإما أن تحضر لهم مربية مثقفة تحل محلها، وأين هى المربية التى تشتغل خادمًا بأجر بسيط، مع أن ثقافتها تؤهلها لعمل تراه أشرف وأسخى؟

وهل ما يدفع لها من أجر يعوضه أجر الأم في عملها. ويمكنها أن ترفع مستوى معيشة الأولاد بما يبقى لها بعد أجر الخادم؟ وهل تعوض المربية أو دور الحضانة كما قلت ما يفقده الأولاد من حنان الأم وإخلاصها في رعايتهم؟ ذلك إلى جانب ما قد يخشى من مثل هذه المثقفة التي منيت بالعمل في الخدمة، مما نترك تقديره لأنظار العقلاء.

وفي رأيي، أن الشرط الذي كانت تشترطه المصالح لعمل المرأة، وهو خلوها من الزواج، يضمن تلافي كثير من الأضرار للعمل خاصة، وإن كانت هناك أضرار على حياتها هي، ولها في مثل هذه الحالة أن توازن بين ترهبها من أجل العمل، وبين بيت يلبي لها نداء الطبيعة في احترام، ويكفيها مشقة العمل وهموم الحياة، وقد قررت ماليزيا أخيراً هذا القرار لتتفرغ المرأة إلى عملها.

والتجربة القاسية جعلت البلاد الأجنبية التي نقلدها تتجه الآن إلى دعم كيان الأسرة، عن طريق إعادة المرأة إلى مملكتها الأولى.

هذا. وفي عمل المرأة دون حاجة إليه مزاحمة للرجال الذين يحسنون القيام بالأعمال، لعدم انقطاعهم، على الأقل، بالإجازات كالمرأة، وقد يكون الذي تزحمه رب أسرة ذات تبعات جسام كان أولى أن يشغل هو المكان الذي شغلته وهي في غنى عنه، وأنا أؤكد أن الأولى للمرأة ألا تزاول عملاً خارج بيتها إلا إذا كان محتاجة إلى العمل، أو كان العمل نفسه محتاجاً إليها، وهناك شهادات كثيرة تؤيد هذا الرأي منها:

١ – في أهرام ١٠ مايو سنة ١٩٠١م كتبت «مس أني رود» بجريدة «ايسترن ميل»: لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المصانع، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف والطهارة، وفيها الخادم والرقيق يتنعمان بأرغد عيش، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء، إنه لعار على بلاد الافرنج أن تجعل بناتنا مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال.

٢ – فى جريدة «الجهاد» المصرية بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٣٦م: أن هتلر نصح النساء عندما أردن أن يساعدن فى خدمة البلاد، بالعودة إلى البيوت وإصلاح الأسرة لتنشئة جيل جديد.

٣ – فى أخبار اليوم ٢٨ أبريل ١٩٤٥م: أن عمل المرأة الخارجى سبب كثرة الطلاق فى بلادَ العم سام «الولايات المتحدة الأمريكية» كما يقول الدكتور «كاهات» فى كتابه: تحليل الطلاق فى أمريكا. ويزيد عدد العاطلين من الرجال إن اشتغل النساء فى الأعمال الحكومية. ففى سنة ١٩٣٣ أخرج «سير هربرت أستن» جميع النساء من مصانعه فى إنجلترا ليحل محلهن الرجال. وفى العام نفسه طلب هتلر من الألمانيات التنازل عن وظائفهن للرجال. وحرم على الدكتورة المتزوجة معالجة المرضى، وحرم على من لها والد يعمل أو له معاش أن تشتغل، وأرضاها بهدية قيمتها ١٠٠ مارك.

٤ – نشرت جريدة الجمهورية بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٦٠م: أن مؤتمرًا عقد فى لندن لبحث أسباب الجريمة، أوصى بعدم خروج المرأة إطلاقًا إلى العمل إذا كان هدفها من الوظيفة مجرد الحصول على المال لمساعدة زوجها أو تربية أطفالها. وقال ممثلو خمس وأربعين دولة فى هذا المؤتمر: إن الأم هى ركن الأسرة الإيجابى، وهى التى يتوقف عليها سعادة هذا المجتمع أو شقاؤه، فإذا تغيبت المرأة عن رعاية الجيل الذى يكون هذا المجتمع فإن سحب السعادة لا بد أن تنقشع عن هذا المجتمع، وقال المؤتمر:

إن المبلغ الذى تحصل عليه المرأة من عملها لتربى به أولادها لا يكفى من ناحية لتربية الأولاد، فضلاً عن الفراغ الكبير الذى سيتركه خلو المنزل من الأم ركن الأسرة الإيجابى.

والذى سمح به المؤتمر هو أن تزاول هذا النشاط إذا كان الهدف من خروجها للعمل هو القيام بوظيفة لا يستطيع أن يقوم بها الرجل. (أى لا تخرج للعمل إلا لضرورة ملحة).

ولما سئل الأستاذ عبد العزيز فتح الباب سكرتير عام اتحاد رعاية الأحداث، وأحد ممثلى «الجمهورية العربية المتحدة» - مصر - فى مؤتمر الجريمة عن رأيه فى هذه التوصية أيدها، وضرب مثلاً يوضحها فقال: خرجت أم من المنزل لتعمل غسالة بأربعة جنيهات فى الشهر، وعندها ثلاثة أطفال، تضطر أمام عدم وجودها فى البيت إلى إيداع الثلاثة بأحد الملاجئ، كل طفل يكلف الدولة ستة جنيهات شهريًا، والثلاثة يكلفونها ثمانية عشر جنيهًا، لكن هذا المبلغ لا يصرف كله للمأكل والملبس والرعاية، بل ثلاثة أرباعه فى إيجار المبنى وأثاثه ومرتبات الموظفين. فلو أننا ألغينا فكرة الملاجئ وصرفنا لكل أم أربعة جنيهات، ومنعناها من العمل كغسالة أو بائعة متجولة فإن هذا المبلغ سيكفى دون شك رعاية الثلاثة، بحكم توفر المسكن الذى يقيم فيه أبوهم وكذلك الأثاث. وبالإضافة إلى ذلك لن يعانى الأبناء من الفراغ القاتل، ولن يكونوا ضحية التربية الصناعية فى الملاجئ، وسيكونون دائمًا فى كنف وعطف وحنان الأمومة، ولن ينهار ركن الأسرة الإيجابى، وستجد أشعة السعادة طريقها إلى المجتمع.

٥ - وفى جريدة الجمهورية بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٦١: أنه قد ظهرت فى أوروبا اقتراحات بتحريم تشغيل النساء المتزوجات، وذلك لتوفير دور الحضانة التى تلتزم بها المصانع، وفسح المجال للرجل لينتج إنتاجًا كاملاً، إلى جانب حماية المرأة من الانهيار العصبى. لكن الاقتراحات لم تجد قبولاً. بل صدرت قوانين لتشجيع المرأة على التفرغ للبيت والأولاد، لا لعملهن فى المصانع، ففى فرنسا صدر قانون سنة ١٩٣٨م بمنح إعانة للأمهات المتفرغات، وسميت الإعانة «امرأة البيت»، وفى ألمانيا صدر قانون مشابه سنة ١٩٣٣ لكنه قانون يطبق فكرة النازيين التى تقول: إن المرأة للمطبخ والسرير، وأن خروجها للعمل جريمة، وصدرت قوانين سنة ١٩٣٨م فى إيطاليا وأسبانيا.

وفى المصدر نفسه أن مدير إحدى الشركات الكبرى علل عدم قبوله المتزوجات فى العمل عنده بأن العمل يفقد سريته إذا تزوجت المرأة التى كانت تعمل فى السكرتارية، فلم تعد هناك قيمة لهذه التأشيرة «سرى جداً».

٦ – وفى أهرام ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٢ : أن ٧٠٪ من اليابانيات ساخطات على كل مظاهر المدنية الكاذبة، كما أسفر عنه الاستفتاء الذى أجرته مجلة « ساهى جينو » اليابانية، أكبر مجلات اليابان، بين خمسة آلاف فتاة، ويتمنين أن يعدن إلى التقاليد القديمة، التى تجعل منها زوجة مثالية، وهن نادمات على المملكة الصغيرة التى هجرنها من أجل المساواة.

٧ – وفى مجلة الهلال عدد أبريل سنة ١٩٧١ ص١٤٥ : أراد أحد الكتاب أن يبرهن على أصالة حق العمل للمرأة منذ القدم، فما رأى غير مثال كان أقوى الإشارات على الأثر السيىء الذى يأتى من وراء ذلك فقال : وقد عملت حواء مع آدم منذ القدم، وكان أول عمل لها أن أخرجته من الجنة، وكان ذلك سبب المتاعب الكثيرة التى كانت ثمنًا باهظًا لهذا العمل.

١٢ – كرامة المرأة أما :

أكرم الإسلام المرأة إذا كانت أمًا فأمر ببرها، وجعل حظها منه أكبر من حظ الأب، فقد سأل رجل رسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال « أمك » . قال : ثم من ؟ قال « أمك » قال : ثم من؟ قال « أمك » قال : ثم من؟ قال : « ثم أبوك » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة، وتوضيح هذا الحق فى البحث الخاص ببر الوالدين وصلة الأرحام، أحد بحوث هذا الكتاب الكبير « الأسرة تحت رعاية الإسلام » .

١٣ – كرامتها زوجة :

أكرم الإسلام المرأة أيضًا وهى زوجة، وأجمع كلمة جاءت فى ذلك قوله تعالى ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ١٩] وتفصيل مظاهر هذه المعاشرة فى الجزء الخاص بحقوق الزوجين من هذا الكتاب.

١٤ – كرامتها بنتًا :

وكذلك أكرمها الإسلام وهى بنت مولودة، فحرم وأدها وحرم حرمانها من

حقوقها كإنسانة وحبب فى العطف عليها، ويسرنى هنا أن أورد ما ذكره ابن الأثير فى كتابه «أسد الغابة» فى ترجمة أوس بن ساعدة: أن أوسًا دخل على رسول الله ﷺ فرأى فى وجهه الكراهية، فقال «يابن ساعدة، ما هذه الكراهية التى أراها فى وجهك؟» قال: يا رسول الله إن لى بنات وأنا أدعو عليهن بالموت، فقال «يابن ساعدة، فإن البركة فى البنات، هن المجملات عند النعمة، والنعيات عند المصيبة» أى معلنات الموت. وروى من وجه آخر، وزاد فيه «والممرضات عند الشدة، ثقلهن على الأرض، ورزقهن على الله عز وجل». ولم يبين ابن الأثير درجة هذا الحديث.

وتفصيل كرامتها موجود فى الجزء الخاص بتربية الأولاد من موسوعتنا «الأسرة تحت رعاية الإسلام».

١٥- تخفيف التكاليف:

مراعاة للتكوين الطبيعى للمرأة ولوضعها فى المجتمع أعفاها الإسلام من بعض التكاليف التى كلف بها الرجال، وجعل لها تشريعات خاصة تناسبها، تحقيقًا للعدل وتنظيمًا لحياة الاجتماع، وإليك بعض التخفيفات:

١ – لم يخترها الله لتحمل رسالة السماء إلى الأرض لما يلزمها من طاقات قوية فى الجسم والعقل.

وهذا أمر متفق عليه، وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم** ﴾ [يوسف:١٠٩]، [النحل:٤٣]، وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم** ﴾ [الأنبياء:٧]، والأسلوب فيه حصر الرسالة فى الرجال وإذا كان شرط الذكورة لا بد منه فى الخلافة التى هى دون الرسالة فهى فيها من باب أولى.

أما النبوة، فقال بعض العلماء: لا تجوز قياسًا على الرسالة، ومنهم الأشعرى، كما ذكره ابن كثير فى تفسير آية يوسف السابقة. وقال بعض آخر: تجوز، وعد منهن:

(أ) سارة زوجة سيدنا إبراهيم، لأن الملائكة حدثتها وبشرتها بولادة إسحق ومن وراء إسحق يعقوب كما فى سورة هود ٧١–٧٣ وغيرها من السور.

(ب) أم موسى، لأن الله أوحى إليها بإرضاعه وإلقائه فى اليم وقال لها: لا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، كما فى سورة [القصص ٧] وسورة [طه ٢٨، ٢٩].

(جـ) مريم، لأن الملائكة جاءتها بأوامر من الله بأن تقنت وتركع مع الراكعين، وبشرتها بأن الله اصطفاها وطهرها، وبأنها ستلد المسيح، كما فى سورة [آل عمران ٤٢، ٤٣، ٤٥].

وما دامت الملائكة قد كلمت هؤلاء، فهن نبيات.

وقد يكون هذا الرأى راجحًا، فالنبوة لا تستلزم تبليغ ما جاء به الملائكة إليهن، لأن تبليغه يحتاج إلى استعدادات جسمية ونفسية لا توجد فى النساء. وقد اختاره الكمال بن الهمام فى كتابه « المسايرة ».

كما فهم بعضهم ذلك من كلامه، وقد بسط ابن حجر الكلام على هذه المسألة فى فتح البارى فى كتاب الأنبياء: باب امرأة فرعون.

ومهما يكن من شىء فإن النبوة قد انتهت، وكان سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فليس بعده نبى ولا رسول، وتفصيل ذلك فى غير هذا الموضع « راجع كتابنا: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ».

هذا، وقد قامت بعد وفاة النبى ﷺ امرأة تسمى « سجاح » وكانت فى بنى تغلب، ادعت النبوة، وتزوجها مسليمة الكذاب الذى ادعى النبوة أيضًا فى عصر النبى ﷺ. ولما قتل أسلمت « سجاح » وهاجرت إلى البصرة، وتوفيت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، وصلى عليها « سمرة بن جندب » والى البصرة من قبل معاوية. فسجاح أخطأت فى أمرين، أولهما إدعاء النبوة وقد ختمت برسول الله ﷺ، وثانيهما أنها امرأة والمرأة غير كفء لهذه المرتبة الدينية العظيمة.

٢ – لا يجوز أن تسند إليها ولاية عامة كالخلافة، وتفصيل ذلك سيأتى بعد.

٣ – لا يجوز أن تتولى قيادة الجيش، وسيأتى تفصيله بعد.

٤ – لم يوجب عليها الجهاد المسلح، على ما سيأتى تفصيله.

٥ – لم تكلف بالصلاة والصيام فى فترة الحيض والنفاس، بل يحرم عليها ذلك، وبعد الطهر لم يوجب عليها إعادة الصلاة، وإن كانت تعيد الصيام[1].

٦ – لم يوجب عليها صلاة الجمعة، كما لم يأمرها بالخروج لصلاة الجماعة.

٧ – لا يرغب فى تشييعها للجنازة كما يرغب الرجال. على ما سيأتى توضيحه.

٨ – لا تتحمل الدية فى الجنايات كالعاقلة، ولا تشترك فى القسامة[2].

٩ – لا تقتل عند الردة، بل تحبس حتى تموت كما رأى بعض الفقهاء[3].

وستأتى فروع فى التشريع تختلف فيها المرأة عن الرجل حسب اختلاف النوعين فى التكوين والاستعدادات.

---

(١) لحديث أبى سعيد أن النبى ﷺ قال للنساء فيما قال « أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم »؟ قلن: بلى. قال « فذلكن من نقصان دينها» رواه البخارى، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ آخر. هذا فى عدم صلاتها، أما فى القضاء فدليله قول معاذة: سألت عائشة: ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة. رواه الجماعة. وعلله النووى فى شرح مسلم بكثرة الصلاة وتكررها فيشق القضاء، بخلاف الصوم فإنه يجب فى السنة مرة واحدة، وربما كان الحيض يومًا أو يومين « نيل الأوطار ج١ ص٣٠٣ ».

(٢) وهى حلف خمسين يمينًا للبراءة من تهمة القتل لقتيل لم يعرف قاتله.

(٣) وذلك لنهى النبى عن قتل النساء عندما رأى امرأة مقتولة. وبه قال الحنفية، وخصوا به حديث « من بدل دينه فاقتلوه » المروى عن عكرمة وأخرجه الجماعة إلا مسلمًا، والذى استدلّ الجمهور بعمومه على قتل المرتدة، وبما ورد « وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها، فإن عادت وإلا فاضرب عنقها » عن معاذ وسنده حسن، وقد قتل أبو بكرة امرأة مرتدة ولم ينكر عليه الصحابة. « نيل الأوطار ج٧ ص٢٠٣، ٢٠٤ ».

الفصل الثالث

مطالب المرأة الحديثة

١ – ظهرت فى العالم الإسلامى حركات التحرر والسفور للأسباب التى قدمناها، تريد بها المرأة رفع ما وقع عليها من ظلم، سواء أكان ذلك حقيقة أم شعوراً خاصاً بها، وتسعى لنيل ما حرمت منه من حقوق إما أن يكون الدين قد كفلها لها، وإما أن تكون حقوقاً رأت غيرها من النساء نالتها، أو تسعى لنيلها بصرف النظر عن مشروعيتها، وتبغى بحركتها المساواة مع الرجل، فى كل ما يتمتع به من حقوق أو فى أغلبها، على حسب ما ترى هى، لا ما يراه الدين أو تقضى به الشريعة.

إن الشعار الذى ترفعه المرأة فى حركاتها هو المساواة، ويدفعها إليها تبرمها بالبيت ومحاولة التملص من سجنه وأغلاله، كما تتصور، والإفلات من سلطة الرجل وتحكمه، وقد تغطى أعراضها من هذه الحركات، فتطلق شعارات أو تنادى بأنها تريد أن تزيد من دخل الأسرة بعملها، وأن تسهم بإيجابية فى رقى المجتمع والنهوض به، كما تقول بعض التصريحات الرسمية، التى تشجعها على تحررها، بالعمل على كسر الأغلال التى حبستها عن العمل، والقيود التى حبستها عن خدمة المجتمع، والرجعية التى عاشت فى ظلامها حقباً طوالاً، لتشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة(١).

٢ – ولو وزنا أكثر هذه الحركات بالميزان الدقيق لرأينا أن أكثر ما تهتم به المرأة من مطالبتها بالمساواة هو غرض شخصى يمنحها الترف ويمد لها فى الترفه، ومن أكبر ما يدل على هذه الخبيئة أمران :

---

(١) من الميثاق الوطنى الذى صدر فى عهد جمال عبد الناصر . فى ٢١ من مايو ١٩٦٢ .

(أ) أنها لا تطلب المساواة مع الرجل فيما فيه تكليف ومشقة عليها، فهى لا تعنى بالأمور الدينية، لأنها عازفة عنها أو تحاول التملص من قيودها، بثورة أفقدتها الصواب فوصمت الدين بالرجعية، ووصفت المتمسكين بالمتزمتين المتربصين لحركات النهوض، فالدين فى حكمة تشريعه يحد من حريتها وينظم تحركاتها فى علاقاتها الاجتماعية، وهى لا تريد أبداً أن يحد شىء من هذه الحرية، وما درت أن هذا الحد وهذا التنظيم هو لمصلحتها ولمصلحة الجنس البشرى كله.

(ب) أنها لا تحارب سقوط المرأة وهويها فى المنزلقات الأخلاقية التى أضاعت شرفها، وجعلتها سلعة رخيصة يلعب بها الهواة لأغراض دنيئة. ما سمعنا أنها كونت جمعيات لمحاربة الرقص والسهرات الماجنة التى تستغل فيها أنوثة المرأة وإغراؤها. وكان البغاء العلنى والسرى منتشراً ورسمياً، وماحركت واحدة منهن ساكناً لانتشال المرأة من هذه الوهدة، وهذا يعطينا فكرة عن أن المقصود من أكثر هذه الحركات هو نيل أغراض شخصية، قوامها الانطلاق من القيود، والتمتع بالحرية بأكبر قدر ممكن، بعيداً عن تعاليم الدين وتزمت الرجعيين، لتبدو المرأة فى المجتمع كالرجل لا يفرق بينه وبينها حتى الهيئة الخارجية من ملابس وزينة، فقد التقى البحران، ولم يعد بينهما برزخ فى ظله لا يبغيان، نزل بعض الرجال متسفلين ليكونوا كالأنثى فى المظهر والحركات والتصرفات، وصعد بعض النساء ليكن كالرجل فى ذلك أيضاً، وهذا تمرد من الطرفين على الطبيعة ليس له نتيجة إلا الفوضى.

وقد تقدم فى ص ١١٣ النهى عن تشبه الجنسين بعضهما ببعض فى الملابس وغيرها مما يخص أحدهما، وعن رجل من هذيل قال: رأيت عبدالله بن عمرو بن العباص رضى الله عنهما، ومنزله فى الحل ومسجده فى الحرم، قال: فبينا أنا عنده رأى أم سعيد بنت أبى جهل متقلدة قوساً، وهى تمشى مشية الرجل، فقال عبد الله: من هذه؟ فقلت: هذه أم سعيد بنت أبى جهل، فقال: سمعت

رسـول الله ﷺ يقـول « ليس منا من تـشـبـه بـالرجـال من النسـاء، ولا من تـشـبـه بالنساء من الرجال » رواه أحمد ورواته ثقات . وعند الطبراني أن امرأة مرت على رسول الله ﷺ متقلدة قوسًا، فقال « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء » . وروى بسند فيه مقال : أن النبي ﷺ نفى مخنثًا قد خضب يديه ورجليه بالحناء إلى النقيع، وهو ناحية بالمدينة . وليس هو البقيع[1] .

ألم تر أن مظاهرات قامت في الولايات المتحدة في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠م للاحتجاج على سيادة الرجل، والمطالبة بالمساواة بين الجنسين، وقررت النساء في « سيراكيوز » بولاية نيويورك، التخلص من « مشدات الصدور » و« الكورسيهات » وأدوات لف الشعر وما إلى ذلك من الأدوات النسائية وإلقائها في صناديق قمامة خاصة، كوسيلة للتخلص من الأشياء التي تعدها « جبهة تحرير المرأة » التي نظمت هذه الإضرابات، وسائل وأدوات ديكتاتورية الرجال؟ وقد اختارت الجبهة يوم ٢٦ من هذا الشهر بالذات لأنه يوافق الذكرى الخمسين لإعطاء المرأة الأمريكية حق الانتخاب[2] .

وجاء في أهرام ٢٨ / ٨ / ١٩٧٠ : أن اشتباكات حدثت بين المعارضات لسيادة الرجل والراضيات بها، وأن آلاف السكرتيرات العاملات في مبنى وزارة الدفاع الأمريكية بواشنطن تخلصن من ملابسهن الداخلية، كالكورسيهات، وألقينها في صناديق القمامة باعتبارها أشياء جنسية ترمز إلى الأنثى . ولجوءهن إلى هذا الأسلوب، وهو العرى، دليل على ما يكمن في نفوسهن من التمرد على القوانين والتقاليد الكريمة، والاندفاع إلى التحرر والانطلاق، ليكون تهتكهن مشروعًا . وقد حدث مثل ذلك في كندا، فقد وقف خمس نساء من أعضاء جمعية « أبناء الحرية » عاريات تمامًا أمام « جون ديفنبيكر » رئيس وزراء كندا في

---

(١) الترغيب والترهيب ج٣ ص٣٦، ٣٧ .
(٢) الأهرام ٢٧ / ٨ / ١٩٧٠ .

اجتماع عقد في « تربل » وحضره ١٩٠٠ شخص، احتجاجًا على سيطرة الحكومة عليهن[١].

ثم ألم تر أن ثورة جديدة أخرى بدأت في أمريكا باسم « ثورة تحرير الرجل » عندما رأوا تمادى المرأة في طلباتها وحصولها على أكثر من حقوقها، وتألم الرجل من نتيجة هذا الوضع الذى كادت المرأة فيه تسود على الرجل.

ففى أهرام ٣٠ / ١٠ / ١٩٧٠ : أن الرجال ثاروا في الولايات المتحدة لتحرير الرجل، بعد أن لم تستجب لهم السلطات في مطلبهم الذى تقدموا به منذ شهرين تقريبًا، وهو إلغاء نفقة الزوجة بعد الطلاق، وحصروا شكواهم ومطالبهم في النقاط التالية:

(أ) أن الرجال مثل النساء ضحايا لمجموعة من المفاهيم الخاطئة.

(ب) أن الرجل يريد المساواة التامة مع المرأة، لما سيؤديه ذلك من تحسين العلاقة بينهما.

(جـ) أن تشترك المرأة مع الرجل مناصفة في تحمل المسئوليات الاقتصادية.

(د) أن يكون من حق الرجل إبداء مخاوفه والتعبير عن آلامه بالبكاء والصراخ مثل المرأة تمامًا.

(هـ) أن تشترك المرأة مع الرجل في القيام بالأعمال الشاقة جدًا.

هذه الحركات الجنونية التي تحاول أن تلغى الفوارق بين الجنسين، هي التى تتأثر بها المرأة الشرقية، وتقلد فيها المرأة المسلمة هؤلاء المتحررات، ورأينا مخاوف الرجال من هذه الحركات. وطالبوا باشتراك المرأة في الأعمال الشاقة جدًا، مع الرجل. لا أن تتمتع هي بما لا تتعب فيه، ويشقى الرجل لراحتها.

٣ – فهل هذه المساواة التى تنشدها المرأة طلب مسلم به، أو هو شهوة المعارضة لسيادة الرجل مهما كانت النتائج، وعلى أى أساس تنادى بذلك، وما رأى الدين حيال هذا الموضوع؟

---

(١) الأهرام ٢٨ / ٥ / ١٩٦٢.

لقد تقدم فى ص٣٣٥ بيان وضع المرأة بالنسبة إلى الرجل، وأنها هى المخلوق الثانى الذى جعله الله خاصًا بسكن الرجل ومساعدته على تحقيق خلافته فى الأرض، وذكرنا المبررات التى جعلت القوامة للرجل عليها، ما كان طبيعيًا وما كان كسبيًا، وذكرنا صوراً تبين على مدى التاريخ أن المرأة أدنى من الرجل فى نظر الفلاسفة وفى الشرائع السماوية، وفى أكثر المعاملات الجارية بين المجموعات البشرية. فإذا قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل فإن ذلك فى حقيقته تمرد على الطبيعة، وثورة على الفكر الصحيح، وتحد للأديان السماوية، التى قررت أن التفرقة بين الرجل والمرأة إنما هى عمل اقتضاه نظام الحياة، الذى لا بد فيه من التخصص، وإسناد أعمال لكل جنس تتناسب مع ما عنده من استعدادات وقدرات.

لقد كتب الكاتب الأمريكى «نورمان ميلر» مقالاً من خمسين ألف كلمة فى آخر عدد لمجلة «هاربز» الأمريكية، ندد فيه بحركة تحرير المرأة فى أمريكا، وأعلن أن المرأة يجب أن تظل سجينة بيتها، أى تقتصر مهمتها على الأعمال المنزلية، وشراء الطعام من السوق، ورعاية أطفالها. وطالب بإلغاء أقراص منع الحمل، وقال: إن المسئولية الأولى للمرأة هى أن تبقى أطول وقت ممكن على الأرض، لكى تعثر على أفضل شريك لحياتها، وتنجب أطفالاً يحسنون الجنس البشرى. وراح يلعن العلماء الذين يصرون على إثبات عدم الفوارق بين الجنسين.

وقد ثار عليه نساء أمريكا، وبخاصة «حركة تحرير المرأة» ولكنه أصر على أن يعد كتابًا يواصل فيه هجومه على المرأة[1].

وقد اتهمت «حركة تحرير المرأة» بأن المنتميات إليها مصابات بالشذوذ الجنسى، كما قامت حركات نسائية أخرى تضاد هذه الحركة، منها منظمة نسائية شعارها «الرجال أسيادنا» ومنظمة للرجال شعارها «النساء مبعث

(١) الأهرام ٤ / ٤ / ١٩٧١.

إعجابنا » . ولكن ظهرت فى عام ١٩٧١ حركة تؤيد تحرير المرأة باسم « حركة تحرير الإنسان » وتضم الرجال الذين يؤيدون قضايا النساء ومطالبهن[١] .

وروت الأخبار أن النساء فى الريف الأمريكى لا تهتم بحركة تحرير المرأة التى هزت أمريكا منذ سنتين، وذلك من واقع استفتاء قام بين النساء فى القرى، وكان الرأى السائد بين سيدات الريف : أن المرأة يجب أن تكون امرأة فقط .

هذا هو الحال فى أمريكا بين الرجال والنساء، آراء وتيارات وحركات متضاربة، كل يشكو وكل يصلح من وجهة نظره، والقلق أكثر فى المدن الكبرى، أما فى الريف فالمرأة ما زالت تؤمن بوضعها بالنسبة إلى الرجل، وأن لها رسالة غير ما تنادى به من مزقهن القلق فى المدن وصخبها وإغراءاتها المتنوعة .

وكما ظهر فى أمريكا كتاب ينعون على تحرير المرأة ظهر كتاب فى انجلترا تقاوم حركات التحرر فيها، جاء فى ملحق الأهرام ١١ / ٩ / ١٩٦٤ : أن « جافين ليبول » أحد الكتاب المشهورين فى إنجلترا يرى أن المرأة خشنة الطبع، وأنها، كما يقول أحد الشعراء، تتعلم الأخلاق من القرود، وتأخذ طباعها من الدببة، وهى صفات قديمة راسخة فيها، لم تكتشف إلا حديثًا .

فقد كانت الملكة « اليزابيث الأولى » مجردة من الرقة، فكانت مثلاً تدخل حجرة فيها أكثر من عشرين رجلاً، وتحيى واحداً أواثنين منهم فقط، فيشعر الباقون بالضيق والخجل، وتقول لزوجة رئيس الكنيسة : لا أستطيع أن أناديك بلقب « سيدة »، ولا أحب أن أناديك بلقب « خادمة »، فبماذا تحبين أن أناديك ؟ .

ثم يقول « جافين » : لقد كان العرب يتصفون بأسمى الأخلاق بين الشعوب، لأنهم استطاعوا أن يخفوا النساء عن عيون الرجال . فقد كان هؤلاء العرب يسيرون فى الطرق الصحراوية بمفاتيح كبيرة تتدلى من أحزمتهم، ليبرهنوا لزملائهم أنهم يحفظون زوجاتهم بعيداً عن الشر داخل بيوت مغلقة الأبواب .

(١) الأهرام ٢٨ / ٧ / ١٩٧٢ .

وهو يرجع التغيير الذى طرأ على أخلاق المرأة إلى أيام الملك «آرثر» الذى كان أول من علم رجاله كيف يعاملون النساء بشهامة ورقة وذوق، على أنهن جنس لطيف. ومنذ عصر «آرثر» تعلم الرجل أن يقفز من مقعده ليسمح للمرأة بالجلوس مكانه، أو ليفتح لها الباب عند الدخول أو الخروج، وسبب ذلك أن المرأة كانت تسير محملة بشنطة اليد والأطفال والأسبتة، وكان من الصعب عليها أن تفتح الباب.

ولم يكن «آرثر» يعلم أن التصرفات التى فرضها بحسن نية ستكون السبب فى القضاء على رقة المرأة وأنوثتها تمامًا، فقد اعتقدت منذ ذلك الوقت أن هذه التصرفات واجبة مفروضة على الرجل، وأنه سيكون مجردًا من الذوق إذا لم يفعلها. وبالتالى ستضطر هى إلى معاملته بطريقة جافة لتدفعه إلى تقديم فروض الاحترام، وهنا يدعو الكاتب إلى العودة إلى الشدة فى معاملة المرأة.

بعد أن ذكرنا صورة من العالم الغربى الجديد للنعى على تحرر المرأة، وصورة من العالم الغربى القديم تذمها، وإن كان بعض ذلك قد يكون أثرًا لنزعة خاصة، مأخوذًا من وقائع خاصة، أذكر صورة من الشرق عن بعض الدول المتقدمة تسير فى هذا الاتجاه المعارض لتحرر المرأة بالشكل الذى تنادى به.

فالمرأة فى اليابان، على الرغم من تعلمها ونشاطها واعتلائها مناصب سياسية كبيرة، ما زالت تشعر بأن الرجل سيدها. تقول «كاتوشيدزو» قائدة الحركة النسائية فى اليابان: لا نريد أن ننافس الرجل، بل نريد فقط أن نتعاون معه، ونرفض الحصول علي حقوق أكثر من التى يتمتع بها الرجال[١].

وقد تقدم عدم اهتمام المرأة فى ألمانيا الغربية بالسياسة، ولا توجد هناك حركة تحرير نسائية، فما زالت المرأة هناك متحفظة بالقدر الذى يقضى به العرف عندهم.

---

(١) أهرام ٢١/٦/١٩٦٣.

بعد هذه الآراء والتيارات حول قضية المساواة بين الجنسين أقول: إن حجة المرأة المسلمة في المناداة تحاول أن تصبغها بالصبغة العقلية فلا يطاوعها العقل، وتحاول أن تلتمس لها سنداً من الدين فعبثت بنصوصه، تشرح وتؤول وفق هواها، وهي في الحقيقة مقلدة للغرب لا مؤمنة بأن الإسلام يؤيدها، فإنها إذا استندت إلى الإسلام في ذلك فلماذا لا تستند إليه في كل ما يتصل بها من تشريع، وفي فرض العبادات عليها، وفي المحافظة على شرفها وعرضها، وفي غير ذلك، إنها كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض، ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦].

وفيما يلي إيراد لبعض شبه النساء المنتسبات إلى الإسلام في أن الدين قرر لهن المساواة، مع بيان المراد منها. فمما اعتمدن عليه:

(أ) قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء: ١].

(ب) قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(جـ) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(د) قوله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال» رواه أحمد وأبوداود والترمذي عن عائشة. ورواه البزار عن أنس بسند صحيح. وجاء في إحدى

روايات أبى داود والترمذى: سئل النبى ﷺ عن احتلام الرجل، فقالت أم سلمة :وكذا المرأة إذا احتلمت: أعليها غسل؟ قال: « نعم: النساء شقائق الرجال ».

قالت المرأة، ومن سار فى ركابها من الرجال وأشباه الرجال: إن الآية الأولى تبين أننا جميعًا خلقنا من نفس واحدة، فلا بد أن نتساوى فى جميع الحقوق لأن التفرقة بين المتماثلات مرفوضة، ونرد عليها بأن الخلق من نفس واحدة لا يلزمه التساوى فى جميع الحقوق، ويكفى التساوى فى مطلقها أو فى بعضها، والتفرقة بين المتماثلات ترفض إذا كان التماثل من كل الوجوه، ومن المسلم به أن الجنسين ليسا متماثلين فى كل شىء. وهذه الآية لا تدل إلا على التساوى فى الخلق، أى أننا جميعًا من أصل واحد هو آدم المخلوق من تراب. فالتساوى فى الأمور الأخرى مسكوت عنه فى هذه الآية ومذكور فى نصوص أخرى بما يحدد معالمه ومجالاته.

وكذلك قالت فى الآية الثانية، فإن التعبير بقوله تعالى « بعضكم من بعض » يعطى المساواة التامة، وهو مرفوض لما ذكر من قبل، والتساوى فى هذه الآية هو فى عدم ضياع عمل أى عامل من الجنسين، فلكل تقديره ووزنه. فهى عامة للرجال بعضهم بالنسبة إلى بعضهم الآخر، وكذلك للنساء بعضهن بالنسبة إلى بعضهن الآخر، وللجنسين بمقابلة كل منهما بالآخر، وهى مساواة يظهر أثرها فى المعاملة التى تقتضيها الأخوة الإنسانية، الناتجة عن صلة النسب بالأب الواحد « آدم » والأم الواحدة « حواء » والتى تقتضيها الأخوة الدينية فى عبادة إله واحد.

وقالت المرأة فى الآية الثالثة: إن الله ذكر الجنسين معًا فى نشاطات مختلفة وسوى بينهما فى المغفرة والأجر العظيم، وهو أسلوب يعطى المساواة التامة بين الجنسين، ويرد على هذا. بأن الآية تقرر المساواة فى مطلق الأجر والمغفرة مع اعتبار الأوصاف المذكورة، أو فى مجالات النشاط المسجلة فى الآية، وليس فيها تقرير المساواة باعتبار الأصل التكوينى للإنسان الذى تشير إليه الآية الثانية

﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ . والمساواة في مطلق الأجر لا تقتضي أبدًا المساواة في قدر الأجر لكل جنس، فكل عمل من أي منهما له تقديره الخاص ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢] ، ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣] .

فالآيتان تقرران المساواة الذاتية والعرضية، أي التكوين الطبيعي في الانتماء إلى أصل واحد، والنشاط الكسبي بممارسة الأعمال.

وقالت المرأة: إن الحديث يعطي المساواة الكاملة، والرد عليها واضح من الرد على ما قالت في الآيات الثلاث، وعند التمعن في سبب قول الحديث يعرف أن المساواة في التشريع في جزئية من جزئيات العبادة، وهي الغسل من الاحتلام، وهو لا يعطي المساواة فيما عداها، فله نصوصه الأخرى.

هذا شيء من محاولات المرأة وأنصارها لتبرير طلبها المساواة عن طريق النصوص الدينية.

ويمكن توضيح الرد عليها بجانب ما سبق، بأن هناك مساواة بين الرجل والمرأة في ثلاثة أصول رئيسية، وهي:

(أ) أننا جميعًا مخلوقون لخالق واحد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

(ب) أننا جميعًا منبثقون من أصل واحد، أو من مادة واحدة، كما تدل عليه الآية السابقة، وإن كانت الصور والأشكال مختلفة ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٦] ، ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] .

(جـ) أننا جميعًا متساوون في تهيئة الفرص للكمال المادي والأدبي، يأخذ

منه كل مخلوق بشرى حسب استعداده واستطاعته، وكذلك متساوون فى المسئولية عن كل نشاط نقوم به مما جاءت بخصوصه الإرشادات الإلهية.

فالله سبحانه قد ساوى بين الجنسين فى الخطاب العام بالتكليف، يؤديان منه ما يتناسب مع تكوين كل جنس. وقد مرت الإشارة إلى ذلك فى سبب نزول آية ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** ﴾ فإن كانت هناك فوارق فهى فى توزيع الاختصاص، لضمان حسن سير العمل وأداء المهمة بنجاح، قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [الطور: ٢١]، وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» رواه مسلم عن جابر.

فادعاء أن المساواة فى انبثاق الجنسين من أصل واحد تقتضى المساواة فى الخصائص ادعاء باطل، وكنا فى غنى عن التدليل لذلك، فالواقع خير دليل، لولا تمرد الأنثى ومن يشايعونها، وإصرارهم على ادعاء هذه المساواة، ناسين ما يوجد من فوارق ذاتية أو من عوامل خارجية اضطرت إليها المرأة بحكم الوضع الاجتماعى. والمرأة ليست شقيقة للرجل فى كل شىء فالسبب الذى قيل فيه هذا الحديث يبين المساواة فى الحكم الذى سئل عنه وقد تقدم ذلك.

(هـ) وقد شغل كثير من الباحثين ببيان الفوارق بين الجنسين، فأثبتوا أن هناك اختلافًا «بيولوجيًا» بينهما، فجرثومة الذكر نشيطة متحركة، وجرثومة الأنثى ساكنة هادئة، ومن هنا كان عمله إيجابيًا وعملها سلبيًا، وكان الرجل مبتكرًا فعالاً، وهى مستغلة غير فعالة.

كما قالوا: إن متوسط طول الرجل يزيد على متوسط طول المرأة اثنى عشر سنتيمترًا، ومتوسط ثقل أجسام الرجال سبعة وأربعون كيلو جرامًا، أما فى النساء فاثنان وأربعون ونصف، وقلبها أصغر وأخف بمقدار ستين جرامًا، وجهازه

التنفسي أقوى منها، فهو يحرق في الساعة أحد عشر كيلو جرامًا من الكربون، وهي تحرق ستة وكسرا، ولذلك كانت حرارتها أقل من حرارة الرجل، وحواسها الخمس أضعف من الرجل، فهي لا تستطيع إدراك رائحة على بعد مخصوص إلا إذا كان ضعف ما يدركه الرجل، كما أنها ليست كاملة في تركيب المخ، وكرات الرجل الحمراء أكثر منها، ونسبة قوته لها ٩ :٥ . وقالوا: إن البنت تساير الولد في نموها الجسمي والعقلي لغاية سبع سنوات، ثم تفوقه حتى سن الرابعة عشرة، ثم تنحط، وهي تبلغ قبله بسنتين.

كما قالوا: إن نسبة جمجمة المرأة إلى الرجل ٨٥ :١٠٠ ووزن المخ عندها من ١١٠٠ - ١٢٠٠جم، أما الرجل فمن ١٢٠٠ - ١٤٠٠ جم. ومخها بالنسبة إلى جسمها ١ :٤٤، أما الرجل فالنسبة ١ :٤٠، وتلافيف مخه أقوى وأبرز.

وبناء على هذا الاختلاف البيولوجي كان هناك اختلاف فكري ونفسي، فقد قرر الدكتور الطبيب الفيلسوف «أوتو فينجر» في كتابه «الجنس والأخلاق» الذي نشر بالألمانية في شهر مايو سنة ١٩٠٣م، وأعيد طبعه سبعًا وعشرين مرة، ونقل إلى عشر لغات أوروبية، قرر أن المرأة ضعيفة الذاكرة «ص٩٤-١١٦» حيث قال: إن التذكر هو التغلب على ما مضى من الزمن واستحضاره في الذهن، ولا يمكن للمرأة، لأسباب عضوية ونفسية، السيطرة على هذه الموهبة، لأن حياتها متقطعة، لا تذكر منها إلا اليسير بخلاف الرجل فإنه يمكنه تتبع سلسلة حياته، حلقة فحلقة، ولا يغيب عنه جوهرها في أي وقت من الأوقات.

بل قرر في «ص٧٦-٨٤» ضعف قوتها العاقلة فقال: لا يمكن للمرأة التفرقة بين الشعور والتفكير، أي بين حياتها الوجدانية والعقلية، ولكن الرجل يمكنه فصلهما عن بعضهما تمامًا.

وقال في «ص٨٥-٩٣»: أن النبوغ أحد ميزات الرجل، ولا يمكن أن تصل إليه المرأة مهما بلغت مواهبها «مجلة الأزهر مجلد ١ ص٦٠٤».

كما قال المختصون: إن المرأة أسرع تأثراً وانفعالاً، وأدق شعوراً بالألم والسرور، وقد تزيد على الرجل فى مقتضيات العاطفة، كالهم والموسيقى والغناء، لكن يندر أن تكون فيلسوفة أو مبتكرة، حتى فى الموسيقى، أو متعمقة فى درس النفس البشرية، فالرجل يفوقها فى الرياضيات والفلسفة العميقة، لكن معلوماتها فى ذلك سطحية، وكذلك يكون بين النساء لغويات وطبيبات ومربيات ومحاميات، لكن لا يكون بينهن فلاسفة أو رياضيات أو مهندسات، إلا فى النوادر، إنها سريعة التصميم والتنفيذ والنكوص، تفتر همتها إذا فشلت أولاً، ووثباتها فى الحياة قصيرة، فهى لا تستطيع أن تحدث انقلاباً عاماً أو ثورة عارمة. نعم فيهن ملكات، لكن كن مستبدات لا مصلحات إن كن يحكمن. أما أمثال فيكتوريا فى الإنجليز، وولهلمن ملكة الفلمنك فى هولندا فهن صاحبات مناصب فقط، أما الحكم فهو بالقانون كما يقال: تملك ولا تحكم. إن الرجل يتحمل أكثر من المرأة وينتج أفضل منها، وهو أمهر فى الانتقاد وأقدر على إدراك الأشياء على حقيقتها.

* * *

وبناء على ذلك أيضا هناك اختلاف بين الجنسين فى السلوك. فقد قال المختصون: إن المرأة قلما جاءت بحجة إلا كانت عليها، لا تنهى [1] عن شئ إلا وتفعله، ولا تنهى [2] إلا أتته، ولمركب النقص فيها تعمد إلى التزين بالحلى، لقد منحت المرأة تناسقا فى الأعضاء أكثر من الرجل، ولهذا لا يليق بها الغضب وتقطيب الوجه، وأودعت التأثر بالدموع والسرور والتألم أكثر من الرجل، وجعل صوتها لينا إشارة إلى عدم مغالبتهن للرجال ومكافحة الأهوال. إنهن بالفطرة أقدر وأصبر على أعمال البيت. أما الرجال الذين يقطعون الصخور ساعات فهم لا يتحملون الجلوس بجوار سرير طفل يبكى، أو انتظار قدر حتى ينضج.

وادعاء المرأة أن المساواة فى تهيئة الفرص للكمال المادى والأدبى تقتضى المساواة فى النشاط وأثره ادعاء باطل، فإن المساواة فى ذلك راجعة إلى المساواة فى الاستعداد والأداء، فعند الاستواء فى ذلك يكون نوع التكليف وبالتالى يكون مقدار الأجر، وعند عدمه لا يكون تساو أبدا، حتى بين الرجال أنفسهم، فللقوى حكم وللضعيف حكم ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾؟ [النحل: ٧٥، ٧٦]. والقوى خير وأحب إلى الله من الضعيف، فكيف تكون هناك مساواة كاملة فى العمل والأجر بين الجنسين، مع أنها لا تكون فى الجنس الواحد؟

لقد قال محمد قطب فى كتابه «شبهات حول الإسلام»: إن الاستعداد الطبيعى للمرأة فى رعاية أطفالها أساسه العاطفة المشبوبة التى تلبى نداءه دون

---

(١) بضم التاء. (٢) بفتح التاء.

تفكير، أما الرجل فى عراكه مع الحياة فيحتاج إلى التؤدة والتفكير، لا العاطفة الجياشة التى عند المرأة، ولهذا الاختلاف نرى الرجل يستمر فى عمله طويلا، لكنه فى ناحية العاطفة ضعيف ينتقل بين النساء، ويفكر فى غير زوجته، أما هى فمستقرة العاطفة نحو زوجها، تحبه وتقدسه، وتخطط للاحتفاظ به.

وهى حين تعمل فى التمريض والحضانة قد تستقر بهذه العاطفة، أما عملها فى المتجر مثلا فهو لا يمنعها من التفكير فى الزواج والأسرة والأولاد، فلذلك تترك العمل وتتزوج إن سنحت لها الفرصة.

وجاء فى أهرام ٢١ / ٩ / ١٩٦١ كلام للدكتور حسن الساعاتى أستاذ الاجتماع بجامعة عين شمس، فيه: لو أردنا حل مشكلات المرأة العاملة فلن يكون ذلك إلا عن طريق التخصص ... أن تتخصص المرأة فى الوظائف غير الملائمة لطبيعة الرجال كالتمريض والتدريس للبنات، إننا لا ننكر أن المرأة تستطيع أن تقوم بأعمال الرجل، ولكنها فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تقوم بكل الأعمال التى يقوم بها، كما أنها تقوم بأعمال يعجز عنها الرجال كالحمل والولادة والرضاعة وحضانة الصغار وتربيتهم، وهذه الأعمال أساسية فى حياة المرأة، إن المرأة عندما تعمل تكون موزعة الولاء بين عملها ومنزلها، والنتيجة دائما هى ضعف إنتاجها ... والمكان المناسب للمرأة، فى رأيى، هو البيت.

واستطرد فقال: إذا كانت الوظائف محدودة والمتقدمون لها من الجنسين فالمنطق يقتضى تشغيل الذكور وتفضيلهم على الإناث، فهم الذين ينفقون على الأسر، وإذا كانت الظروف تحتم وجود نوع من البطالة فبطالة الإناث أخف، لأنها بطالة تؤول بالمرأة إلى البقاء فى البيت مكتفية بلقب « ست بيت » أما بطالة الذكور فهى شلل كامل وتسكع وإدمان المخدرات وتفكك الأسرة والنكبة على المجتمع.

كما نشر فى أهرام ١٤ / ١١ / ١٩٦١ بعض أقوال الغربيين عن المرأة، منها ما أثارته دائرة المعارف البريطانية فى وضع تعريف لكلمة « السيدة » خلاصته

تدور حول ثقافتها وحسن إدارتها للمنزل وحسن سلوكها، ولم يرتضوا إطلاق هذا الاسم على « كاترين » ملكة روسيا، لأنها كانت موضع الشبهات . ثم ذكرت الدائرة أقوالا عن المرأة وأثرها فى الرجال، وجاء فى كلام المتزوجين قول شكسبير : إنها غير مخلصة حتى للرذيلة وقال آخر : إنها حيوان بلا عقل . وقال ثالث : إنها لا تساوى أكثر من ثمن ما ترتديه من الملابس .

وقد ثارت جمعية السيدات البريطانيات على هذا التعريف « من كلام إبراهيم عياد المراغى الخبير فى العلاقات العامة ونشر بالأهرام المذكور » .

وقال المختصون أيضا : إن الرجل فى الميدان الاجتماعى هو مركز الدائرة، والمرأة تبع له . فهى تستمد وجودها وحياتها منه، وذلك لضعفها بالنسبة له، ولدفاع الرجل عنها غيرة أو توفيرا لأمنها، ولنشاطه الاقتصادى وعدم مزاحمتها له فى العمل، وعدم استقلالها بثماره، ولإجماع الناس على ضرورة المحافظة على عفافها، والتقليل بقدر الإمكان من فرص اجتماع الجنسين على شكل يمسها بسوء . كل ذلك جعل وضعها الاجتماعى فى المنزلة الثانية بعد الرجل، وعلى هذا فهى لن تساويه أبدا فى كل شئ، ولها ميدانها الخاص، تباشر فيه نشاطها الذى يتناسب مع تكوينها، الذى قد تنتج فيه أفضل مما ينتج الرجل، أو ما لا يستطيع أن ينتجه أصلا .

لقد أوردت هذه الأقوال كمعرض أفكار للرجال عن المرأة وهى، وإن كان بعضها فيه تحامل، تؤكد وجود الفوارق الطبيعية والاجتماعية بين الجنسين، تلك الفوارق التى لا يمكن أن تكون معها مساواة تامة أبدا فيما تنادى به المرأة المتحررة اليوم .

● **فوارق فى التكليف بين الرجل والمرأة :**

وقد جاءت التكاليف الدينية على هذا الأساس، كما يظهر فى الإعفاءات والتخفيفات التى قد مر بعضها فى صفحات سابقة، وإليكم بعض هذه الفوارق فى التكليف المبنية على الفوارق بين الجنسين، مع شرح بعضها شرحا يقتضيه

ما نشاهده اليوم من سلوك بعض النساء فيه، ومع التنبيه على أن بعض هذه الفوارق، وبخاصة فى الفروع الفقهية، ليس متفقا عليه بين الفقهاء، ففيها خلاف يرجع إليه فى كتب الفقه المتخصصة، وجل اهتمامى فى شرح بعضها يرجع إلى الناحية الاجتماعية كما أشرت إليه فى بيان منهجى فى تأليف هذا الكتاب.

١ - تشييع الجنازة:

حث الإسلام على تشييع جنازة الميت [١]، وفاء بحق الأخوة، ومشاركة فى تحمل التبعات عن أهله، وللعبرة والموعظة بالموت وأثره. فقد وردفى الحديث الشريف «حق المسلم على المسلم ست» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له. وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة. وفى الحديث أيضا «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطا» قيل: وما القيراطان؟ قال «مثل الجبلين العظيمين» رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة. وفيه أيضا «عودوا المرضى، واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة» رواه أحمد والبزار وابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى، «الترغيب والترهيب ج٤ ص١٠٩».

وترغيب الرجال فى تشييع الجنازة أمر مجمع عليه، أما النساء فقد اختلفت آراء الفقهاء فى حكم تشييعهن للجنازة، وخلاصة ما قيل فيه. أنه إذا كانت هناك فتنة فى تشييع المرأة للجنازة حرم عليها الخروج من أجل ذلك. والفتنة تكون إما بفعل محرم كالندب والنياحة واللطم وشق الجيب وما فى معناه من كل ما يدل على الجزع، وإما بفتنة الرجال بها، أو فتنتها بهم، لكشف العورة أو لتصرف غير كريم مثلا. أما إذا لم تكن هناك فتنة فى خروجها فالآراء فيه كما يلى:

---

(١) الجنازة بكسر الجيم وفتحها، وقيل الكسر أفصح .. وحكى صاحب المطالع أنه يقال بالفتح للميت وبالكسر للنعش عليه الميت، ويقال عكس ذلك.

(أ) منعه الحنفية أيضا، وقالوا: إن تشييعها للجنازة مكروه كراهة تحريم، سواء خشيت الفتنة أم لا. ولعلهم استندوا فى ذلك إلى حديث على، قال: خرج النبى ﷺ فإذا نسوة جلوس، فقال «ما يجلسكن»؟ قلن: ننتظر الجنازة. قال «هل تغلسن»؟ قلن لا. قال «هل تحملن»؟ قلن: لا. قال «هل تدلين فيمن يدلى»؟ قلن: لا. قال «فارجعن مأزورات غير مأجورات» رواه ابن ماجه والحاكم عن محمد بن الحنفية عن على [1].

كما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن نمشى مع النبى ﷺ إذ بصر بامرأة، لا نظن أنه عرفها. فلما توجهنا إلى الطريق وقف حتى انتهت إليه. فإذا فاطمة رضى الله عنها. فقال «ما أخرجك من بيتك يا فاطمة»؟" فقالت: أتيت أهل هذا البيت فرحمت إليهم ميتهم وعزيتهم. فقال «لعلك بلغت معهم الكدى» أى القبور. قالت: معاذ الله أن أكون قد بلغتها معهم، وقد سمعتك تذكر فى ذلك ما تذكر. قال «لو بلغتها ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك» رواه أحمد والحاكم والنسائى والبيهقى وأبو داود. قال المنذرى: فى إسناده ربيعة بن سيف، وفيه مقال لا يقدح فى حسن الإسناد.

(ب) قال الجمهور: أنه مكروه كراهة تنزيه. ودليلهم فى ذلك حديث أم عطية، حيث قالت: نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا. رواه البخارى «ج٢ ص ٩٩» ورواه مسلم وأحمد وابن ماجه. قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: ولم يعزم علينا أى لم يؤكد علينا فى المنع، كما أكد علينا فى غيره من المنهيات، فكأنها قالت: كره لنا اتباع الجنائز من غير تحريم. وقال القرطبى: ظاهر سياق أم عطية أن النهى نهى تنزيه.

(جـ) قال مالك بالجواز، وهو قول أهل المدينة، وإن كان تجويزهم لذلك فى أضيق الحدود، كفقد عزيز، كابن وزوج. كما جوزه ابن حزم، وطعن فى كل

---

(١) ورواه البيهقى عن على، قال ابن الجوزى: جيد الإسناد – وهو ما رمز إليه السيوطى فى الجامع الصغير بالصحة. وروى عن أنس بسند ضعيف «فيض القدير ج ١ ص ٤٧٣».

الأحاديث الواردة فى المنع، غير حديث أم عطية. ودليلهم حديث أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان فى جنازة فرأى عمر امرأة، فصاح بها، فقال: «دعها يا عمر» رواه ابن أبى شيبة، وأخرجه ابن ماجه والنسائى، ورجال الإسناد ثقات.

هذا، وخروج النساء لتشييع الجنازة على أكثر الأقوال غير محمود، وقد جاء أن «زحلة» مولاة معاوية كانت تقول: لم يكن يتبع الجنازة امرأة إلا أن تكون نفساء أو مبطونة، تخرج معها امرأة من ثقاتها، حتى يضعوها فى المصلى، فتدخل المرأة يدها تنظر: هل خرج شئ؟ فلا يزال القوم جلوسا أو قياما حتى إذا توارت المرأة قالوا للإمام: كبر «كشف الغمة للشعرانى ص ٢٩٠».

ونقلت الأخبار أن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان ذهبت مع جنازته إلى البقيع ليلا، وبيدها السراج. وقد دلته فى قبره هى وأم البنين بنت عتبة «العقد الفريد ج٢ ص ١٨٥». وما تفعله نساء اليوم يحتم منعهن من تشييع الجنازة، إلى جانب أنهن يعطين صورة سيئة عن المجتمع الإسلامى، يتهم من أجلها الإسلام وهو برئ.

٢ – زيارة القبور:

نهى النبى ﷺ أولا عن زيارة القبور، قطعا لما كان عليه أهل الجاهلية، من زيارتها للتفاخر بأصحابها، كما يشير إليه قوله تعالى ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ أى كانوا يتكاثرون بأموالهم وأنسابهم حتى زاروا المقابر ليشيروا إلى من فيها من آباء ذوى أمجاد. ثم رخص لهم فى زيارتها بعد ذلك. وقال شاعر فى هذا المعنى:

أرى أهل القصور إذا أميتوا ... بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخرا ... على الفقراء حتى فى القبور

وقد ورد فى زيارتها حديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد فى الدنيا، وتذكر الآخرة» رواه ابن ماجه عن ابن مسعود

بإسناد صحيح. وروى مسلم وغيره عن أبى هريرة قال: زار النبى ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال «استأذنت ربى فى أن أستغفر لها، فلم يؤذن لى، واستأذنته فى أن أزور قبرها، فأذن لى. فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».

وظاهر هذا الحديث أن إذن النبى ﷺ للناس بزيارة القبور سببه أن الله أذن له فى زيارة قبر أمه، وقد صرح بذلك فى رواية ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة» رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

وحكمة الزيارة نص عليها الحديث، وهى أنها تذكر الآخرة، وتزهد فى الدنيا، وتحمل على الاستعداد للموت.

وقد أجمع المسلمون على استحباب زيارتها، بل أوجبها الظاهرية، غير أنهم قالوا: أن ذلك خاص بالرجال دون النساء. وقالوا: إن الإذن بالزيارة بعد النهى كان عاما للرجال والنساء، لكن لما رأى النبى ﷺ ما فى خروج النساء من مفاسد نهاهن عنها، واستمر الإذن للرجال، وقال آخرون: إن النهى عن زيارتهن كان سابقا للنهى العام عن زيارة القبور، ثم جاء الإذن للرجال، وبقى المنع مستمرا بالنسبة إليهن.

ومهما يكن من شئ فإن فى زيارتهن مذاهب تتلخص فيما يلى:

(أ) التحريم مطلقا، ودليله حديث «لعن الله زوارات القبور». رواه الترمذى عن أبى هريرة، وقال حسن [1]. لكن القرطبى قال: يحتمل أن الحرمة منصبة على الكثرة، أخذا من التعبير بلفظ زوارات، وهو من صيغ المبالغة.

(ب) التحريم عند المفسدة كالفتنة والنياحة، ومن هنا كانت حراما على الشواب، وجائزة للقواعد اللاتى لا يفتتن بهن، إلا إذا صاحبها محرم كالنياحة وما إليها مما نهى عنه النبى ﷺ فى قوله «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب،

---

(١) تفسير القرطبى ج٢ ص ٢٧٠، الترغيب ج ٤ ص ١١٨.

ودعا بدعوى الجاهلية » رواه البخارى عن ابن مسعود « ج ٣ ص ١٠٣ » ورواه مسلم وغيره [١]. والنساء لا يستطعن التخلص من هذه العادات الشنيعة إلا بصعوبة، ويؤكد ذلك حديث أم عطية، قالت: أخذ علينا النبى ﷺ عند البيعة ألا ننوح. فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ. وامرأتان. أو ابنة أبى سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى. رواه البخارى « ج ٣ ص ١٠٦ » وأخرجه مسلم « ج ٦ ص ٢٣٧ ». ولما بكى نساء جعفر بن أبى طالب عليه لما استشهد أمر النبى ﷺ رجلا أن ينهاهن، فلم يطعن الرجل مرتين، فأمره النبى ﷺ أن يحثو فى أفواههن التراب. رواه البخارى ج ٣ ص ١٠٦ ورواه مسلم ج ٦ ص ٢٣٦ .

(جـ) الكراهة، ودليله حديث أم عطية فى النهى عن اتباع الجنائز، المتقدم، وتقاس عليه زيارة القبور.

(د) الإباحة، ودليله حديث عائشة عندما ذهبت إلى البقيع، فوجدت النبى ﷺ هناك، فلم ينكر عليها ذلك، وعلمها ما تقوله عند زيارتها للقبور « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون » أخرجه مسلم « ج٧ ص ٤٤ ». وعن عبد الله بن أبى مليكة أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخى عبد الرحمن. فقلت لها: أليس كان نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها. رواه الحاكم والبيهقى، وقال الذهبى: صحيح. كما أن النبى ﷺ عندما مر على امرأة تبكى عند القبر أمرها بالتقوى والصبر، ونهاها عن البكاء، لأنه سمع منها ما يكره من نوح وغيره، ولم ينهها عن الزيارة كما رواه البخارى ومسلم.

(هـ) الاستحباب، كما تستحب للرجال، ويدل عليه عموم الإذن بالزيارة

---

(١) الترغيب ج ٤ ص ١١٦ .

والأمر بها فى قوله ﷺ «فزوروها» وقد رد البعض ذلك بأن الضمير للذكور، فلا يدخل فيه الإناث على المذهب الصحيح المختار فى الأصول. ولكن هذا الرأى ليس بقوى، لأن الخطاب بهذه الصيغة ورد بتكاليف كثيرة شملت الرجال والنساء، وتخصيص الضمير أو الخطاب بالذكور يحتاج إلى مخصص.

والآراء الثلاثة الأخيرة محلها عند أمن الفتنة والمفسدة، وإلا حرمت زيارتهن.

وإذا جاز للمرأة أن تزور القبور مع الأدب، فلا يجوز لها، كما لا يجوز للرجال المبيت بها، فقد ورد عن ابن عباس أن النبى ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. وإذا كان اتخاذ المساجد والسرج عليها منهيا عنه مع عدم المبيت، لما فيه من تعظيم القبور والفتنة بها ومشابهة غير المسلمين، فإن المبيت غير جائز، لأنه يستلزم السرج غالبا، ويستلزم أمورا أخرى، كالمشى والجلوس على القبر، واللهو عنده وعدم العبرة بالموت وفى بعض الأحيان يتخذ المبيت ذريعة للفساد. وقد ورد أن النبى ﷺ قال «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر» رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة [1]. وفى حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ «لأن أمشى على جمرة أو سيف، أو أخصف نعلى برجلى أحب إلى من أن أمشى على قبر» رواه ابن ماجه بإسناد جيد، وخصف النعل بالرجل أى والنعل فيها حيث تتعرض لوخز الإبرة، أو المعنى أن تخاط النعل مع الرجل.

هذا، واتخاذ النساء مواسم معينة يحرصن على الخروج فيها إلى المقابر،

---

(١) الترغيب ج ٤ ص ١٢٧، لكن اختلف فى المراد بالجلوس. فقال أكثر العلماء هو الجلوس المعروف وقال مالك: هو التغوط عليها، وروى فى الموطأ أن عليا كان يتوسد القبور ويضطجع عليها وأن ابن عمر كان يجلس على القبور، وإن عثمان بن حكيم قال: أخذ خارجة بن زيد بيدى فأجلسنى على قبر وأخبرنى عن عمه يزيد بن ثابت أنه قال: إنما كره ذلك لمن أحدث عليها (صفحة ٨٣ من كتاب تسلية أهل المصائب للمنبجى الحنبلى المتوفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى).

كرجب والعيدين، لا أصل له من الدين. وأولى بالمرأة أن تنفع الميت إن كانت تحبه، بتقديم قربات لا تتوقف على زيارتها، كالدعاء والاستغفار والصدقة وقراءة القرآن على اختلاف فى بعض ذلك مذكور بتوضيح فى بحث بر الوالدين.

تنبيهان :

الأول: فى البكاء على الميت وما يلابسه. البكاء على الميت إذا كان مجردا من النياحة المحرمة جائز، فقد بكى النبى ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» رواه البخارى عن أنس.

ودخل النبى ﷺ على عثمان بن مظعون، وهو ميت، فأكب عليه، وقبله حتى سالت دموعه على وجنتيه. رواه الترمذى. وفى رواية أنه قال عند زيارته لسعد بن عبادة «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا، وأشار إلى لسانه، ويرحم» رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر. وقد بكى على ابن بنته، وهو يجود بنفسه. ولما سئل قال «هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» رواه البخارى ومسلم عن أسامة ابن زيد.

وروى أحمد عن ابن عباس قال: ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، وقال «مهلا يا عمر» ثم قال «إياكن ونعيق الشيطان» ثم قال «إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» والتعبير باليد كناية عن اللطم والشق، والتعبير باللسان كناية عن النياحة.

وعن جابر بن عتيك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غلب، فصاح به فلم يجبه، فاسترجع وقال «غلبنا عليك يا أبا الربيع» فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يسكتهن. فقال رسول الله ﷺ «دعهن، فإذا وجب فلا تبكين باكية» قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال» الموت «رواه

أبو داود والنسائي [1]. ومعنى غلب أى تحكم المرض فيه ولم يعد هناك أمل للشفاء، وقرب من الموت. ومعنى «استرجع» قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء في «أسد الغابة» في ترجمة جعفر بن أبي طالب: أن النبي ﷺ دخل على امرأته أسماء بنت عميس، فعزاها فيه، ودخلت فاطمة وهي تبكي وتقول: واعماه!! فقال رسول الله ﷺ «على مثل جعفر فلتبك البواكي» وقد مر أنه أمر رجلا أن يحثو [2] في أفواه النساء التراب عندما بكين على جعفر. فالإذن بالبكاء يدل على جوازه إذا لم يصاحبه ما كان من عادات الجاهلية، والنهي إنما هو عن هذه الأمور الخارجة عن الدين. جاء في الإصابة لابن حجر وفي سيرة ابن هشام عند الحديث عن «كبشة بنت رافع بن عبيد بن ثعلبة الأنصارية» أنها ندبت سعد بن معاذ لما احتمل نعشه، فقالت:

ويل أم سعد سعدا صرامة وجدا وسؤددا ومجدا وفارسا معدا
وسيد سد به مسدا يقدها ما قدا

فنهاها عمر، فقال النبي ﷺ «دعها يا عمر، كل باكية مكثرة إلا أم سعد ما قالت من خير فلن تكذب» «المواهب اللدنية ج ١ ص ٤١٨». وجاء في المطالب العالية لابن حجر ج ١ ص ٢٢٣ ذكر هذا الحديث. وفيه هذا القول:

ويل أم سعد سعدا براعة ومجدا بعد أياد ياله ومجدا مقدم سد به مسدا

وجاء في التعليق: رواه الطبراني في الكبير بإسنادين في أحدهما مسلم الملائي وهو ضعيف، والآخر عن محمد بن إسحاق. وقال البوصيري رواه إسحاق ابن راهويه بسند صحيح.

---

(١) أورد ذلك ابن الأثير في ترجمة جابر بن عتيك في كتابه «أسد الغابة». وفي ترجمة ثابت بن الربيع أنه كان مريضا فعاده النبي، ولما ناداه لم يجبه، فبكى وبكى النساء، فنهاهن أسامة ابن زيد.

(٢) الفعل حثا، يجئ مضارعه يحثو من باب عدا يعدو عدوا، ويجئ مضارعه أيضا يحثي من باب رمى يرمي رميا. «انظر المواهب اللدنية – خصائص النبي ص ٤١٨ ج ١».

والنياحة، كما تقدم، محرمة. وقد أخذ الرسول ﷺ البيعة من النساء على تركها، غير أنه ورد أنه رخص لأم عطية فيها. فقد روى مسلم « ج ٦ ص ٢٣٨ » عنها قالت: لما نزلت هذه الآية « يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا .... ولا يعصينك فى معروف » قالت: كان منه النياحة، قالت: فقلت يا رسول الله إلا آل فلان، فإنهم كانوا أسعدونى فى الجاهلية فلا بد لى من أن أسعدهم [١] فقال رسول الله ﷺ « إلا آل فلان ».

قال النووى تعليقا على هذا الحديث: هذا محمول على الترخيص لأم عطية فى آل فلان خاصة، كما هو ظاهر. وللشارع أن يخص من العموم ما شاء. فهذا صواب الحكم فى هذا الحديث، واستشكل القاضى عياض وغيره هذا الحديث، وقالوا فيه أقوالا عجيبة، ومقصودى التحذير من الاغترار بها، حتى أن بعض المالكية قال: النياحة ليست بحرام بهذا الحديث وقصة نساء جعفر. قال: وإنما المحرم ما كان معه شئ من أفعال الجاهلية كشق الجيوب وخمش الخدود ودعوى الجاهلية. والصواب ما ذكرناه أولا، وأن النياحة حرام مطلق، وهو مذهب العلماء كافة، وليس فيما قاله هذا القائل دليل صحيح لما ذكروه « المرجع السابق ».

هذا، وقد ورد أن النبى ﷺ – كما رخص فى النياحة لأم عطية – رخص لخولة بنت حكيم، كما فى حديث ابن عباس عند ابن مردويه، ولأم سلمة أسماء بنت زيد الأنصارية، كما عند الترمذى، والعجوز، كما عند أحمد والطبرانى، فإنهن قلن لرسول الله ﷺ عند المبايعة نحوا مما قالته أم عطية، فلا خصوصية فيها لأم عطية كما قاله النووى.

يقول الشرقاوى فى شرح مختصر الزبيدى « ج ٣ ص ٣١٤ »: الظاهر أن النياحة كانت مباحة ثم كرهت كراهة تنزيه، ثم تحريم، فيكون الإذن لمن ذكرن وقع لبيان الجواز مع الكراهة، ثم لما تمت مبايعة النساء وقع التحريم، فورد حينئذ

---

(١) الإسعاد هو المشاركة بالبكاء.

الوعيد الشديد . وفى حديث ابن مالك الأشعرى عنه عند أبى يعلى أن رسول الله ﷺ قال « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة عليها سربال من قطران ودرع من جرب » رواه مسلم ج ٦ ص ٢٣٥ .

التنبيه الثانى : فى زيارة قبر النبى ﷺ .

لقد ثبت النهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، ففى الحديث « قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

ومن هنا قال أكثر العلماء : لا يمكن أن يلعن الرسول ﷺ من فعل ذلك من الأمم ، ثم يحث على زيارة قبره ، لكن بعضهم استند فى جواز زيارته بل فى استحبابها إلى ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى » رواه الدارقطنى والطبرانى فى الكبير والأوسط من طريق حفص بن سليمان القارى عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عمر . وحفص قد وثقه أحمد . وحديثه الآخر « من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى » .

لكن هذه الأحاديث فى درجتها لا تعارض الأحاديث القوية المروية فى النهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد . وقد يقال : إن المنهى عنه هو اتخاذها مساجد يصلى إليها ، أما الزيارة كزيارة أى قبر لأى ميت فلا نهى عنها ، وقد يرد بأن زيارتها مظنة لاتخاذها مساجد .

لكن : هل كان قبر النبى ﷺ معروفا له أو للناس عندما قال هذا الكلام مستحثا لهم على زيارته؟ لقد اختلف الصحابة بعد موته فى المكان الذى يدفن فيه حتى عرفوا أنه قال « يدفن الأنبياء حيث يموتون [1] » ، فدفنوه فى حجرة

---

(١) رواه يحيى عن ابن أبى مليكة بلفظ (ما هلك نبى إلا دفن حيث تقبض روحه) وفاء الوفا ج ١ ص ٣١٩ تحقيق محيى الدين . وفى ص ٣٣ أن أبا بكر حين سألوه أين يدفن النبى قال : فى المكان الذى قبض الله تعالى روحه فيه ، فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب . =

عائشة، فكيف يحثهم على زيارة قبره، وهو حى، مع جهلهم به؟ اللهم إلا إذا كان القصد أنهم سيدفنونه ولا بد أنهم يعلمون مكان قبره فندبهم إلى زيارته وإن كان بعيدا (١).

٣ - الجهاد المسلح :

لا شك أن الجهاد فى سبيل الله لنشر كلمة الحق وتوطيد دعائم الأمن وحماية الحريات وصيانة الحقوق من أفضل القربات عند الله، إن لم يكن أفضلها، وقد فرضه الله ورغب فيه، وأعد للشهداء منزلة لا تدانيها منزلة، وحذر من التهاون فيه تحذيرا شديدا. والنصوص فى ذلك كثيرة فى القرآن والسنة.

وعلى كل من يستطيعه بالبدن أو المال أو اللسان أو غير ذلك أن يكون مستعدا لتلبية ندائه، وأكثر الأئمة على أنه فرض كفاية، بمعنى أنه إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين، فإذا قصروا أثموا جميعا. وقال سعيد بن

= رواه الترمذى فى شمائله، والنسائى فى الكبرى وإسناده صحيح. ورواه أبو يعلى الموصلى ولفظه: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يقبض النبى إلا فى أحب الأمكنة إليه». اهـ كما جاء فى الصفحة نفسها أن عليا هو الذى قال، لما اختلفوا: لا يدفن إلا حيث توفاه الله عز وجل.

(١) عقد الشيخ السمهودى فى كتابه «وفاء الوفا» فصلا خاصا فى باب زيارة النبى ﷺ للأحاديث الواردة فيها وهى ١٧ حديثا. منها حديث الدارقطنى والبيهقى «من زار قبرى وجبت له شفاعتى». وهو مناقش وقال الذهبى: طرق هذا الحديث كلها لينة يقوى بعضها بعضا لأنه ما فى رواتها متهم بالكذب. قال: ومن أجودها إسنادا حديث حاطب «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى» اهـ ومنها حديث الدارقطنى والطبرانى «من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى» وهو معلول أيضا. ومنها حديث «من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى» وهو معلول أيضا اهـ أقول: وقد يحمل على زيارته حيا وكثير من الأحاديث التى ساقها يمكن حملها على زيارته وهو حى.

وزيارة النساء لقبره الشريف متفق عليها، وليس فى جوازها خلاف، كالخلاف فى زيارة القبور العادية، بل قالوا: إنها مستحبة، كما استحبت للرجال» وفاء الوفا ج ٤ ص ١٣٦٢، تحقيق محيى عبد الحميد».

وجاء فى نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج فى فقه الشافعية «ج ٣ ص ٣٦»: ومحل هذه الأقوال فى غير زيارة سيدنا محمد ﷺ،، أما هى فلا تكره، بل تكون من أعظم القربات للذكور والإناث.

المسيب : إنه فرض عين. وعند الشافعية تفصيل فى ذلك، فقالوا : إنه فرض كفاية فى عهد رسول الله ﷺ بعد الهجرة، أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فللكفار حالان، أحدهما أن يكونوا ببلادهم وحدث ما يستوجب قتالهم، فالجهاد حينئذ فرض كفاية على المسلمين. والثانية أن يدخل الكفار بلاد المسلمين، أو ينزلوا قريبا منها، فالجهاد حينئذ يكون فرض عين على أهل تلك البلدة وعلى من كان دون مسافة قصر منها إن كان فى أهلها كفاية، وعلى من كان بمسافة القصر إن احتاجوا إليها بقدر كفايتهم، لإنقاذهم من التهلكة، فهو يلزم الكبار والصغار من أهل ذلك البلد، وكذا النساء، ولهن أن يخرجن بدون إذن من أوليائهن، فالدفاع عن النفس والحرمات واجب لا يتوقف على إذن من أحد.

ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ **انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً وَجَاهدُوا بأَمْوَالكُمْ وَأَنفُسكُمْ في سَبيل اللَّه ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ٤١]، وهى فى غزوة تبوك حين نمى إلى رسول الله ﷺ أن العدو يستعد للهجوم على المسلمين.

ويلاحظ فى تفصيل الشافعية أن البلاد الإسلامية كلها متضامنة فى رد العدوان، وأن الفواصل السياسية فواصل مصطنعة، لا ينبغى أن تكون ذات أثر إلا فى مثل دقة الإشراف والتنظيم فقط، دون أن تمس وحدة الأمة الإسلامية وتعاونها فى جميع المجالات، وبخاصة ما كان منها خطيرا.

وقد أعفى الله من وجوب الجهاد من لا يستطيعه من أمثال من ورد فيهم قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذينَ لا يَجدُونَ مَا يُنفقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا للَّه وَرَسُوله** ﴾ [التوبة : ٩١].

وقوله ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَج حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَريض حَرَجٌ** ﴾ [الفتح : ١٧] والآية الأولى وردت فى سياق الكلام على غزوة تبوك، والثانية فى غزوة خيبر. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قرره الأصوليون.

أما النساء فإن الجهاد لم يفرض عليهن حين يكون فرض كفاية، أما إن كان فرض عين فهن داخلات فى هذا التكليف، والنفر واجب عليهن كالرجال. وقد راعى الإسلام فى عدم فرضه عليهن التخفيف أولا، لأن الجهاد يحتاج إلى قوة الجسم والأعصاب، وهن فى ذلك لسن كالرجال، وثانيا صيانتهن عن التعرض للأخطار بمثل السبى وما يتبعه من تصرفات تهين كرامة المرأة والرجل على السواء، وكذلك بما قد يكون أثناء القتال من الأضرار كانكشاف العورات والتزاحم والنوم فى العراء وما إلى ذلك، وقد قال الحنابلة: يكره دخول النساء الشواب أرض العدو، ولا بأس بالمرأة الكبيرة الطاعنة فى السن إن كان فيها نفع، ويجوز للأمير أن يخرج زوجته معه إلى أرض العدو عند حاجته، ولا يرخص فى ذلك لسائر أفراد الجيش [١]، ولعل مستندهم فى ذلك خوف الفتنة عليهن، وما حدث من الرسول فى اصطحاب بعض زوجاته فى بعض الغزوات، كعائشة فى الغزوة التى ضاع فيها عقدها وكانت حادثة الإفك المشهورة.

والدليل على عدم فرضية الجهاد على النساء: أن السيدة عائشة رضى الله عنها سألت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال «لكن أفضل الجهاد حج مبرور» رواه البخارى. وفى رواية لابن ماجه عنها، قالت: يا رسول الله هل على النساء جهاد؟ قال« نعم، جهاد لا قتال فيه، الحج والعمرة».

وهذا الجهاد هو لتخليص النفس من عدوها، ولتقوية الإيمان وعمارة بيت الله، وهو جهاد يناسب المرأة، وحاجتها إليه أشد، وكما ورد فى حديث وافدة النساء، من فضل قيام المرأة بواجباتها الزوجية.

روى أبو يعلى والبزار عن أنس قال: أتت النساء رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل، بالجهاد فى سبيل الله، فما لنا عمل ندرك به عمل الجهاد فى سبيل الله. فقال «مهنة إحداكن فى بيتها تدرك عمل المجاهدين

---

(١) معجم الفقه الحنبلى «ص ٢٠٩» طبعة أوقاف الكويت.

في سبيل الله » ورواه أبو بكر بن شيبة [١] . في سنده روح بن المسيب ، وثقه بعضهم وضعفه بعضهم الآخر ، وتوضيح ذلك الحديث في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

وخروج المرأة أيام النبي ﷺ وبعده للجهاد لا يدل على فرضيته عليهن في كل الأحوال ، بدليل حديث عائشة . غاية الأمر أن الوقائع التي حدثت في أيامه عليه الصلاة والسلام لها ظروفها الخاصة ، وهي لا تدل على الوجوب المطلق ، بل على الجواز أو الوجوب في حال معينة ، كالهجوم على الوطن الذي يشترك في الدفاع عنه كل المسلمين والمسلمات ، كما حدث في غزوة أحد ، وإذا جاز للمرأة اشتراكها في الحرب فإن عدم اشتراكها أولى .

وكان النبي ﷺ لا يأذن فيه لهن ، خصوصا بعد فرض الحجاب ، إلا في أضيق الحدود ، ومع احتياطات مشددة ، وكان لمزاولة أعمال خفيفة ليس فيها مخاطرة بالحرمات ، وكان خروجهن إذ ذاك استصحابا للأصل ، على عادة نساء العرب في صحبتهن للجيش أحيانا ، للمساعدة والتشجيع بالأناشيد لحمل الرجال على الاستماتة في الدفاع عن الحرمات ، التي لو فرطوا فيها وقعن في الأسر وكان العار الذي لا يقبله العربي .

ذكروا أن حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني « ملك عرب الشام » كانت تخلق قومها بالعطر وتحرضهم على القتال . وإن شابا مر عليها فخلقته بالخلوق فقبلها ، فشكت ذلك إلى أبويها ، فقالا لها : اسكتي فإنه ليس هناك أشجع منه ، فإن قتل في المعركة فبها ، وإلا فأنت زوجته . فأبلى بلاء حسنا ، فزوجوه حليمة . ونسب إليها اليوم الذي قتل فيه « المنذر ابن ماء السماء » ملك العراق ، لأنها حضرت المعركة تحض عسكر أبيها ، وقد طيبتهم بعطر أخرجته لهم . وفي المثل « ما يوم حليمة بسر » وفيه أيضا « أعز من حليمة » [٢] .

---

(١) المطالب العالية لابن حجر ج ٢ ص ٣٩ .
(٢) أعلام النساء لعمر كحالة .

ونظرا لما فى خروجهن من مخاطرة كان بعض كبار العرب لا يشجعون اشتراك المرأة مع الرجل فى الحروب، حدث عام أحد أن المشركين عندما أرادوا أن يخرجوا من مكة لقتال المسلمين فى المدينة أن قال بعض زعمائهم: نخرج معنا نساءنا، فإنه أقمن أن يحفظنكم - أى أجدر أن يثرن حفيظتكم وغضبكم - ويذكرنكم قتلى بدر، ونحن قوم مستميتون لا نرى أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه. وقال البعض معارضا للفكرة: يا معشر قريش ليس هذا برأى أن تعرضوا حرمكم لعدوكم، ولا آمن أن تكون الدبرة عليكم، فتفضحوا فى نسائكم.

غير أن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان صاحت ضده قائلة: إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك، نعم نخرج فنشهد القتال، ولا يردنا أحد كما ردت الفتيات فى سفرهن إلى بدر حين بلغوا الجحفة، فقتلت الأحبة يومئذ إن لم يكن خرج معهم من يحرضهم.

وعلى نحو هذا الاختلاف فى الرأى بخصوص خروج النساء للمعركة، اختلف دريد بن الصمة ومالك زعيما هوازن عند خروجهم لقتال النبى ﷺ يوم حنين. وكانت حجة مالك فى إخراجهن وإخراج الأطفال والبهائم أن يكون خلف كل رجل أهله وماله ليدافع عنهم بحمية، وكانت حجة دريد ما جاء فى قوله لمالك: هل يرد المنهزم شئ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك [1].

وكانت هند فى أحد تتزعم خمس عشرة امرأة، منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام مع زوجها عكرمة بن أبى جهل، وريطة بنت منبه السهمية زوجة عمرو بن العاص، وهى أم عبد الله بن عمرو.

وذكر الزرقانى على المواهب غيرهما «ج٢ ص ٢٦» وهؤلاء كن ينشدن الأشعار الحماسية التى منها:

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٣ ص ٨.

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق   إن تقبلوا نعانق

أو تدبروا نفارق   فراق غير وامق . ومنها :

ويها بنى عبد الدار   ويها حماة الأديار   ضربا بكل بتار (١)

وقد استنتج بعض الكتاب من هذه الأشعار أن المرأة العربية كانت لا تمانع فى بذل عرضها لأى رجل يعجبها فى موقف كبير، كالشجاعة فى الحرب، ولكن هذا الاستنتاج غير قوى، فالنســاء حين ينشدن هذا يعدن أزواجهن ببذل كل ما يسرهم إذا انتصروا، سواء منهم من حضرت مع زوجها، أو انتظرت عودته من المعركة، فالكلام للشأن والجميع، والنساء حين يعانقن المقاتلين الذين انتصروا فإنما يعانقن أزواجهن أو أقاربهن، على أن المعانقة بوجه عام هى عادة قديمة بين الأحبة لا عيب فيها إذ ذاك فى الجاهلية، وكان أكثر الخارجات إلى المعركة يصحبن الأزواج والأقارب .

وعند هزيمة المشركين فى أول المعركة، معركة أحد، ولى النساء الأدبار يدعون بالويل والثبور، روى ابن إسحاق عن الزبرقان قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم – خلاخيل – هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير « الزرقانى على المواهب ج ٢ ص ٤٧ » .

وكلنا يعرف خبر هند التى أغرت وحشيا أن يقتل حمزة، فلما قتله بقرت بطنه ولاكت كبده متشفية . وكذلك خبر سلافة بنت سعد، التى نذرت أن تشرب الخمر فى رأس عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى، أخى عمرو بن عوف « وعاصم هو حَمِيُّ الدَّبْر الذى قتله بنو لحيان من هذيل يوم الرجيع » . وكان عاصم قد قتل بعض ولدها من طلحة بن أبى طلحة أحد بنى عبد الدار يوم أحد، أراد القاتلون أخذ رأسه لبيعها فى مكة، لكن الله حماه بالدبر – النحل – فلم يجدوا إليه سبيلا « زهر الآداب ج ١ ص ٢٠٠ طبعة الحلبى » .

---

(١) النمارق جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة، والوامق هو المحب .

ومما يذكر من أثر النساء فى تشجيع المحاربين، وأن الخوف على الحرمات يدفع إلى الاستماتة فى حمايتها : أن قُزْمان بن الحارث العبسى . ويكنى : أبا الغيداق، وهو من بنى ظفر بطن من الأنصار [1]، كان قد تخلف عن أحد، فعيره نساء بنى ظفر بأنه امرأة، فغضب ولبس عدة الحرب، وكان فى الصف الأول، ورمى بنفسه أول من رمى من المسلمين. وفى آخر النهار آثر الموت على الفرار، بعد أن أصاب من قريش سبعة رجال فى سويعة، غير من قتل منهم فى بدء المعركة . ومر به قتادة بن النعمان، وهو يسلم الروح، فقال له : هنيئا لك الشهادة يا قزمان، فقال : إننى والله ما قاتلت عن دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سقفنا، والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت [2].

وجاء فى زاد المعاد « غزوة أحد » أن عمرة بنت علقمة الحارثية رفعت لواء المشركين لما قتل المسلمون حامله، فالتفوا حوله واستمر قتالهم. وذلك يدل على أثر المرأة فى المعركة .

والمرأة المسلمة خرجت مع المجاهدين فى غزوة أحد، ويعلل خروجها بما يأتى :

(أ) استصحاب الأصل، وهو العادة العربية القديمة قبل الإسلام، كما سبق ذكره .

(ب) أن العدو كان مهاجما لأرض الوطن الإسلامى، والدفاع حينئذ واجب على الجميع كما تقدم .

(جـ) أن الحجاب لم يكن قد فرض إذ ذاك على النساء فكانت المرأة تختلط

---

(١) الزرقانى على المواهب ج ٢ ص ٢٢٦ . وقيل : أنه هو الذى قال فيه الرسول « أن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » كما جاء فى هامش تفسير القرطبى ج ٤ ص ٢٢٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٨ وشرح الزرقانى على المواهب فى غزوة خيبر ج ٢ ص ٢٢٦ وزاد المعاد لابن القيم فى أحكام غزوة أحد « ج٢ ص ٩٧ » .

بالرجل، وتشارك فى كل عمل تستطيعه لبناء المجتمع الجديد، الذى بدأ تكوينه منذ نحو سنتين، أى بعد الهجرة والجهود كلها لا بد أن تتعاون فى هذا المضمار.

(د) أن خروج المرأة كان للمساعدة فقط بالوسائل السلمية التى تستطيعها، كسقى العطاش ونقل المرضى وإسعافهم وإعداد ما يلزم للمقاتلين، ولم تكن تباشر القتال بالسلاح إلا عند الدفاع الضرورى، وكانت غزوة أحد كلها دفاعا، فالعدو هو الذى هاجم الوطن.

وقد شارك فى هذه الغزوة فاطمة بنت النبى ﷺ، وعندما أصيب جاءت بقطعة حصير من سعف النخل وحرقتها، ووضعت ترابها على الجرح «زاد المعاد ج ٢ ص ٩٥».

وكذلك خرجت صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ، وأرادت أن ترى ما حدث لأخيها حمزة، فقال النبى ﷺ لابنها الزبير: دونك أمك فامنعها، لئلا يروعها ما سترى، ولكنها صممت على أن تراه لأنها سمعت أنه مثل به، فأذن لها الرسول ﷺ. ولما رأته استرجعت وقالت للزبير: قل للنبى: ما أرضانا بما كان فى سبيل الله، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

وممن خرجن فى أحد عائشة زوج النبى ﷺ وأم سليم والدة أنس: ففى البخارى «ج ٤ ص ٤٠» عن أنس، فى غزوة أحد وكانت سنة ثلاث من الهجرة، أنه قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم، وأنهما لمشمرتان أرى خدم — خلاخيل — سوقهما، تَنْقُزان — تنقلان — القرب على متونهما — ظهورهما — ثم تفرغانه، أى الماء فى أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم. ورواه مسلم «ج ١٢ ص ١٨٩» وقال النووى معلقا على هذا الحديث: وهذه الرؤية للخدم لم يكن فيها شئ، لأن هذا كان يوم أحد، قبل أمر النساء بالحجاب وتحريم النظر إليهن.

وجاء فى البخارى أيضا «ج ٤ ص ٤٠» أن أم سليط، من نساء الأنصار،

كانت تَزْفِر القرب - تخيطها أو تحملها - يوم أحد . وقد أعطاها عمر قرطا جديدا آثَرها به على زوجته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب .

وفى هذه الغزوة أبلت أم عمارة، نَسيبة[1] بنت كعب المازنية الأنصارية. بلاء حسنا، وهى امرأة زيد بن عاصم، إذ كانت فى أول المعركة تدور بالسقاء على المسلمين ليشربوا، وبعد أن انهزموا استلت السيف وقاتلت، مدافعة عن النبى ﷺ حتى أصابها ابن قمئة بجرح أجوف له غور، فضربته ثلاث ضربات كادت تقضى عليه لولا أنه كان عليه - كما تقول هى - درعان . وقد جرحت أحد عشر مشركا . وروى أنها شهدت حنينا، وكانت تحرض المسلمين على القتال لما رأت انهزامهم وانصرافهم عن النبى ﷺ . وذكر صاحب إمتاع الأسماع « ص٤٠٨ » أنها كانت مسلحة بسيف صارم، وقتلت رجلا من هوازن، وسيأتى خبر اشتراكها فى حروب الردة .

كما جاء فى « إمتاع الأسماع » ص ١٤٧ : أن أم خلاد حضرت أحدا وأصيب أخوها عبد الله وابنها خلاد وزوجها عمرو بن الجموح، وحملتهم على بعير لتدفنهم فى المدينة، وقابلتها عائشة وسألتها، فقالت : أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده هينة .

ويقال : إن البعير استعصى عليها وهو متوجه إلى المدينة، ولما وجهته إلى أحد أسرع، فدفنهم النبى هناك . ثم قال : يا هند، ترافقوا فى الجنة . فقالت : ادع الله أن يجعلنى معهم .

وروى مسلم أيضا أن رسول الله ﷺ كان يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى، « ج ١٢ ص ١٨٨ » .

وكانت رفيدة الأسلمية تقوم فى غزوة الخندق بمداواة الجرحى فى خيمة أشبه ما تكون بالمستشفى العسكرى، نصبت فى المسجد النبوى، وفيها عولج سعد بن معاذ « الزرقانى على المواهب غزوة الخندق » .

---

(١) تقدم ضبط اسمها بفتح النون، أما بضم النون فهى نسيبة أم عطية الأنصارية .

وهذه الصورة تبين لنا أن النسوة المسلمات سبقن بنحو اثنى عشر قرنا من الزمان « فلورنس نيتنجيل » [١] صاحبة فكرة التمريض فى الميدان، التى بدأتها فى حرب القرم سنة ١٨٥٤م التى نشبت بين بريطانيا وفرنسا وتركيا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، حيث أقامت مستشفى فى أحد المبانى العسكرية فى « سكوتارى » بألبانيا، وكان لها بيت صغير افتتحته للتمريض فى لندن [٢].

ولكن مع جواز خروج النساء لهذه المهمة كان عدمه أولى، ولا يكاد يسمح به إلا فى حالات قليلة، وذلك، كما قدمنا، خوفا عليهن. كما أن المسلم يترفع عن الاستعانة بامرأة فى موقف يبين فيه عن شجاعته وبأسه، ويدفعه إلى الثبات فيه قوة الإيمان التى تجعله كفئًا لعشرة أو أكثر من الكفار. أخرج الطبرى من طريق سفيان بن وكيع بسنده عن عائشة قالت: خرجت يوم الخندق، وكانت سنة أربع أو خمس من الهجرة، أقفوا آثار الناس. فقال عمر: إنك لجريئة، ما جاء بك؟ ما يدريك لعله يكون تجوز أو بلاء؛ فوالله ما زال يلومنى حتى وددت أن الأرض تنشق لى فأدخلها.

ولهذا المعنى اعترض المتدينون فى إسرائيل على تجنيد النساء، مبررين اعتراضهم بأن فى خروجهن تعريضا لطهارتهن للخطر « أهرام ٢٠ / ٩ / ١٩٥٢ » غير أنها خرجت للقتال بالسلاح المادى، وبأسلحتها الماضية الأخرى التى هى أشد فتكا من سلاح الرجال. وقد سبق فى ص ٤٦٢ اعتراض دريد بن الصمة على خروج النساء للحرب، وهو معنى جرى فى نفس الرجل مجرى الدم فى العروق على تطاول الأزمان، قال عمر بن أبى ربيعة، وهو المعروف بشعوره نحو المرأة، حين قتل مصعب بن الزبير عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارية سنة ٦٧ هـ، وكان المختار الثقفى قد تزوجها:

---

(١) ولدت فى ٥ من مايو سنة ١٨٢٠م من أبوين من أثرياء لندن، وتوفيت سنة ١٩١٠، بعد فقد بصرها.

(٢) العربى الصغير فبراير ١٩٦٤، ١٩٧١. ومجلة العربى يونيه ١٩٧٢ ص ٧٢، وكتاب نساء شهيرات.

إن من أعجب العجائب عندى | قتل بيضاء حرة عُطْبول [1]
قتلت هكذا على غير جرم | إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا | وعلى الغانيات جر الذيول

والفارعة بنت طريف بن الصلت الشيبانى الخارجى « قيل: اسمها فاطمة » لما قتل أخوها الوليد سنة ١٧٩ هـ فى خلافة هارون الرشيد، جمعت جيشا تقاتل به من قتله، وهو مزيد بن زائدة الشيبانى، فعقر فرسها وقال لها: أغربى غرب الله عينيك، قد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت، واكتفت برثاء الوليد بعدة مرثيات منها ما جاء فى إحدى القصائد:

فيا شجر الخابور مالك مورقا | كأنك لم تحزن على ابن طريف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى | فإن مات لا يرضى الندى بحليف [2]

لقد اشتدت الغيرة على النساء بعد فرض الحجاب، الذى يحد من ظهور المرأة واختلاطها بالرجال، ولم يؤذن فى القتال إلا لقلة منهن على كره، خصوصا أن المسلمين صارت فيهم شوكة لا يحتاج معها إلى النساء فى هذا الميدان، إلا عند اشتداد الأزمة، على أن خروجهن كان مع الاحتياط لصيانتهن، فكن يخرجن مع المحارم أو الرفقة المأمونة، ويباشرن الأعمال السلمية التى كان لبعضهن خبرة بها، كأم عطية التى كانت تغسل الموتى وتخفض النساء، ولها دراية بالتطبيب والخدمات العامة، وقد شاركت فى عدة غزوات [3]. تقول: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم فى رحالهم، فاصنع لهم الطعام، وأداوى الجرحى، وأقوم على المرضى « مسلم ج١٢ ص ١٩٤ ».

وعن الربيع بنت معوذ الأنصارية قالت: كنا نغزو مع النبى ﷺ، فنسقى

---

(١) العطبول هى الجميلة الفتية الممتلئة الطويلة العنق.
(٢) أعلام النساء.
(٣) سبق أن أسمها نسيبة بنت كعب، أو بنت الحارث الأنصارية، ولها فى البخارى خمسة أحاديث. « الزبيدى وشرحه ج ١ ص ١٧٥ ».

القوم ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة «البخارى ج ٤ ص ٤١». وقولها «إلى المدينة» دليل على أن هذه الغزوات كانت لرد الهجوم الواقع على المسلمين فى المدينة وما يقرب منها، والمرأة كانت تشترك فيه كالرجل.

وكان النبى ﷺ يصحب معه بعض نسائه فى الغزوات، لا للقتال، بل للقيام بمصالحه وللخدمة العامة إن احتيج إليها، تقول عائشة: كان النبى إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها النبى، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها، فخرج فيها سهمى، فخرجت مع النبى بعدما أنزل الحجاب «البخارى ج ٤ ص ٤٠».

وذكر الواقدى أن أم سنان الأسلمية قالت: لما أراد النبى ﷺ الخروج إلى خيبر «سنة ٧ هـ» قلت: يا رسول الله أخرج معك أخرز السقاء، وأدواى الجرحى. فقال لها النبى ﷺ «إن لك صواحب قد أذنت لهن، فكونى مع أم سلمة» «نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٥٣».

وفى سيرة ابن هشام «ج ٢ ص ٢٤٣» عن أمية بنت أبى الصلت عن امرأة من بنى غفار، يقال لها «ليلى»، ويقال: إنها امرأة أبى ذر [(١)] قالت: أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من بنى غفار، فقلنا: يا رسول الله قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوى الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال «على بركة الله» قالت: فخرجنا معه، وكنت جارية حدثة، فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله. فإذا دم منى، وكانت أول حيضة حضتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله ما بى ورأى الدم قال «مالك، لعلك نفست»؟ قلت: نعم. قال «فأصلحى من نفسك، ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحا، ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم، ثم عودى إلى مركبك» قالت: فلما فتح خيبر رضخ لى من الفىء. قال: وكانت لا تطهر من

---

(١) فى مقال للدكتور على عبد الواحد وافى بمجلة «الأصالة» الجزائرية ص ١٠٥ من العدد الثانى للسنة الأولى أن اسمها: أمية بنت قيس الغفارية.

حيضة إلا جعلت فى طهورها ملحا، وأوصت به أن يجعل فى غسلها حين ماتت. رواه أبو داود [1].

ويتابع ابن هشام قوله فيقول: فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفئ، وأخذ هذه القلادة التى ترين فى عنقى فأعطانيها، وعلقها بيده فى عنقى. فوالله لا تفارقنى أبدا. قالت: فكانت فى عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها [2].

وكان النبى ﷺ يعطيهن من الغنيمة نصيبا، لكنه لا يساوى نصيب الرجال، ويسمى ذلك رضخا لا إسهاما. فقد سأل نجدة بن عامر الحرورى ابن عباس رضى الله عنهما عما إذا كان الرسول ﷺ يغزو بالنساء، ويضرب لهن سهما. فكتب إليه: أن النبى ﷺ كان يغزو بهن، فيداوين الجرحى، ويحذين، أى يعطين، من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن «مسلم ج ٢ ص ١٩٠» وتقول أم عطية، كنا نغزو مع النبى ﷺ فنداوى الجرحى، ونمرض المرضى، ويرضخ لنا من المغنم «ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٩».

وفى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٣٧ فى قتال بنى قريظة: أن النبى ﷺ أعطى من الغنائم صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، وأم سعد بن معاذ، والسميراء بنت قيس. حضرن ولم يسهم لهن.

ومع خروجهن فى الغزو كن يتسلحن للدفاع عن أنفسهن عند الخطر. روى مسلم وغيره عن أنس قال: اتخذت أم سليم «والدته» خنجرا عام حنين «سنة ٨ هـ»

---

(١) حسن الأسوة.

(٢) إن تقليد النبى ﷺ لهذه المرأة بالقلادة أصل لتقليد القادة والحكام، الأنواط والنياشين والأوسمة وغيرها لمن يريدون تكريمهم لأى معنى من المعانى، وليست هناك شبهة سوء لتقليده إياها، مما قد يظن عند مباشرة الرجال لهذا العمل مع النساء أو النساء مع الرجال. فإن الأدب كان متوافرا، والأغراض الدنيئة كانت مأمونة، كما أن فى إرداف النبى لفتاة خلفه دليل تكريم ومساعدة، وهو إن جاز للنبى ﷺ، لأن الآثار السيئة مأمونة، فلا أراه يجوز لغيره ممن ليس فى عصمته وأدبه وعفته، كما أنه كان فى جمع من الناس وعلى مرأى منهم ولا يظن مع ذلك سوء.

وكان معها فقال أبو طلحة: ما هذا؟ قالت: إن دنا منى بعض المشركين أبعج بطنه. فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم؟ فضحك ﷺ. فقالت: يا رسول الله أقتل الطلقاء، انهزموا عنك، فقال «إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم» صحيح مسلم شرح النووى ج ١٢ ص ١٨٧.

والمرأة ما دامت متعرضة للخطر وجب عليها أن تتسلح للدفاع عن نفسها، والعدو إذا هاجم كان للإنسان أن يتخذ أية وسيلة يقاوم بها الهجوم. ورد أن صفية بنت عبد المطلب كانت فى حصن حسان بن ثابت يوم الخندق، فطلبت منه أن يقتل يهوديا كان يطوف متجسسا حول حصنهم، فأبى، وكان عنده خوف، فأخذت هى عمودا، ونزلت من الحصن، فضربت به اليهودى حتى قتلته «الزرقانى ج ٢ ص ١١٢».

قال فى الروض الأنف - كما نقله الزرقانى - محمل هذا الحديث على أن حسان كان جبانا شديد الجبن. وأنكره بعض العلماء، منهم ابن عبد البر فى «الدرر» لأنه حديث منقطع الإسناد، ولو صح لهجى به حسان، فإنه كان يهاجى الشعراء، كضرار وابن الزهراء، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيره أحد منهم بجبن، ولا وسمه به. فدل ذلك على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فالأولى أنه كان معتلا ذلك اليوم بعلة تمنعه من شهود القتال. اهـ.

يقول الزرقانى عقب ذلك. وإنما كان أولى لأن ابن إسحاق لم ينفرد به، بل جاء بسند حسن متصل كما علم، فاعتضد حديثه. وقد قال ابن السراج: سكوت الشعراء عن تعييره بذلك من أعلام النبوة، لأنه شاعره ﷺ.

ومما يدل على كراهة النبى ﷺ لخروج النساء إلى الغزو وخوفه عليهن من السوء ما رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن أبى عاصم عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزاة خيبر ست نسوة، فبلغ النبى أن معه نساء، فأرسل النبى ﷺ فدعانا، فرأينا فى وجهه الغضب. قال «ما أخرجكن، وبأمر من خرجتن»؟ قلنا: خرجنا نناول السهام، ونسقى السويق،

ومعنا دواء للجرحى، ونغزل الشعر، فنعين به فى سبيل الله. قال «فمرن» فانصرفن [1]. وقد حكم العلماء بضعف هذا الحديث لأن حشرج مجهول. وإن صح فإن إنكار النبى عليهن كان لعدم الاستئذان. وجاء فى كتاب «حسن الأسوة» ص ١٢٦، ١٢٧: أن النبى ﷺ قال لهن «أقمن إذن» فلما فتح الله تعالى خيبر أسهم لنا، كما أسهم للرجل. قال: فقلت: يا جدة ما كان ذلك؟ قالت: تمرا. قال الخطابى إسناده ضعيف لا تقوم به حجة، وقد حمل السهم هنا على الرضخ، جمعا بين الأحاديث، وبه قال الجمهور.

وكان من الخارجات فى الغزو: أم حكيم، وتعرف بأم حكيم بنت الزبير بن عبد المطلب، أخت ضباعة. وأم رمثة، بحينة بنت الحارث، حمنة بنت أبى طالب، حمنة بنت جحش، أم الزبير، ضباعة بنت الزبير، أم طالب، أم حبيب بنت جحش، عاتكة بنت عبد المطلب، كانت مع ابنها عبد الله بن أمية المخزومى فى حصار الطائف سنة ٨ هـ، واستشهدت ضمن ١٢ رجلا من المسلمين «ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٢».

وجاء فى الإصابة لابن حجر «ج ٨ ص ٢٧٠» وطبقات ابن سعد «ج ٨ ص ٣٠٨»: أن أم كبشة القضاعية قالت: يا رسول الله ائذن لى فى أن أخرج فى جيش كذا وكذا، وكان ذلك فى حنين، قال «لا» قالت: يا رسول الله إنى لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوى الجرحى والمرضى، وأسقى الماء. قال «لولا أن تكون سنة، ويقال: فلانة خرجت لأذنت لك، ولكن اجلسى» أخرجه أبو بكر بن أبى شيبة والطبرانى وغيرهما من طريق الأسود بن قيس عن سعد بن عمر القرشى. قال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح «المطالب العالية ج٢ ص ١٦٩».

وقد ذكر القسطلانى فى هذا الحديث فى شرحه للبخارى فى باب خروج

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٢٠٤، ٢٠٥ والإصابة لابن حجر ج ٥ ص ٤٥٤ والفتح الربانى ج ١٤ ص ٥٣ وأبو داود ج ٢ ص ٦٨.

النسـاء فى الغزو « كتـاب الجهـاد » وفى روايـة لابن سـعـد عن ابن أبى شيبـة أنه قال « اجلسى لا يتحدث الناس أن محمدا يغزو بامرأة » وعلق عليه ابن حجر فى « الإصابة » بأن عدم الإذن كان ناسخا للإذن، ولم يرتضه بعض الناس.

وموقف النبى ﷺ، وهو فى حنين سنة ٨ هـ، من أم كبشة (امرأة من عذرة كما فى المطالب العالية ج ٢ ص ١٦٩) هذا الموقف وتعليله لمنعها يدل على عدم رضاه عن خروج المرأة مع المجاهدين، خصوصا بعد أن نصر الله الإسلام على أكبر قوة كانت تناوئه فى الجزيرة العربية، وذلك بفتح مكة مركز تدبير المؤامرات ضد الدعوة، فلم يعد هناك مكان للمرأة فى الميدان المكشوف، وجهادها فى الجبهة الداخلية يعدل جهاد الرجل فى هذا الميدان.

وتأكد عدم رضاه عن خروجهن للغزو فى السنوات الأخيرة التى فرض فيها الحج، وكان سنة تسع على المشهور، بعد فتح مكة، ولم يجب عائشة لطلبها حين سألته عن الجهاد كما سبق. ولذلك رأى بعض المحققين أن الإذن بخروجهن للغزو قد نسخ بحديث عائشة فى الجهاد والحج، وبحديث أم كبشة.

وممن رأى ذلك ابن حجر، حيث قال فى الإصابة تعليقا على حديث أم كبشة، ويمكن الجمع بين هذا وبين ما تقدم فى ترجمة أم سنان الأسلمية بأن هذا ناسخ لذاك. لأن ذلك كان بخيبر، وقد وقع قبله مثله فى أحد، كما فى الصحيح من حديث البراء بن عازب، وهذا كان بعد الفتح فى حنين « ج٤ ص ٤٩٧ ».

ورأى البعض إبقاء خروجهن على الجواز، مع الاشتراطات والاحتياطات المقررة، على أن عدمه أولى، ولا يسمح به إلا فى حالات فردية، أو لحاجة ملحة.

هذا، ولم يعرف بعد ذلك أن النبى ﷺ أذن لامرأة بالخروج مع الغزاة اللهم إلا لأم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام، توفيت ودفنت فى قبرص سنة ٢٧ أو ٢٩ هـ، وهى أخت أم سليم، التى كانت تخرج مع النبى ﷺ، فقد دعا لها — أم حرام — أن يجعلها الله من الغزاة الذين يركبون البحر كالملوك على

الأسرة. فركبت البحر مع زوجها عبادة بن الصامت، فى زمن معاوية، إلى قبرص، ثم وقعت من فوق دابة فماتت «مسلم ج ١٣ ص ٥٧ وما بعدها».

وكان إذن أبى بكر رضى الله عنه للسيدة نسيبة بالاشتراك فى حرب مسيلمة للوفاء بنذرها، ولكبر سنها، فقد ورد أنه قال لها: ما مثلك يحال بينه وبين الخروج، قد عرفناك وعرفنا جراءتك فى الحرب، فاخرجى على اسم الله.

وذلك أن النبى ﷺ كان قد بعث ابنها حبيب بن زيد بن عاصم إلى مسيلمة الكذاب برسالة منه، فأوثقه وقطعه عضوا عضوا حتى مات، دون أن يرجع عن دينه، فنذرت أمه أن تشهد مقتل مسيلمة، ولما سار جيش خليفة الرسول إلى بنى حنيفة خرج معه عبد الله بن زيد بن عاصم، ومعه أمه أم عمارة نسيبة، مخدرة فى هودجها، ومع ذلك أصيبت باثنى عشر جرحا، وقطع ذراعها «ابن هشام ج١ ص ٢٧٥، ٢٨٣».

ولا يعتد بمن خرجن بعد النبى ﷺ للقتال، فعملهن أولا ليس بتشريع، وثانيا كن يلتزمن الحجاب، وثالثا كن يخرجن مع المحارم أو الرفقة المأمونة، ورابعا كان عملهن قاصرا على الخدمات والأمور السلمية، ولم يباشرن القتال بالسلاح إلا عند الضرورة، كدفاع عن النفس أو تخليص أسير، أو ما شاكل ذلك. ومن حوادث خروجهن للقتال ما يأتى:

١ - ذات العقال:

هى زوجة أحد الشهداء فى معركة «مؤتة» التى وقعت فى حياة النبى ﷺ. وقد طلبت من أسامة بن زيد أن تنضم إلى جيشه الذى عقد له الرسول ﷺ لواءه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى. وقالت له: لعل الله أن يكتبنى فى سجل الشهداء، فألحق بزوجى وألقاه، فقال لها أسامة: عودى إلى دارك، والزمى خدرك، بارك الله فيك. فلدينا من الأبطال ما يبلغنا النصر إن شاء الله، ولسنا فى حاجة إلى النساء. فحسرت عن رأسها، وجزت ضفيرتيها الطويلتين، وألقت بهما قائلة: خذ هاتين، اعقل بهما مطيتك، وستعرف غدا أى امرأة أنا. ومن هنا سميت: ذات العقال.

وبعد أن غابت لم تمض ساعة حتى أرسلت ابنها الشاب إلى أسامة، طالبا أن ينضم إلى الجيش ليلحق بأبيه، فأراد أن يرده، ولما عرف أنه ابن ذات العقال قبله. ولما تحرك الجيث بأمر أبى بكر، وسار نحو يوم، لمح القائد على الميمنة فارسا يمتشق حساما، ويركب جوادا أدهم يعدو به حذاء الجيش، ولما عرفها أسامة رغب إليها أن تكون فى مؤخرة الجيش، فأبت إلا أن تكون فى الطليعة، ووافق على جعلها فى الميمنة بعد أن عرف خبرتها الحربية.

وقد استشهد ابنها فى المعركة، وأما هى فقد أبلت بلاء حسنا، واشتبكت مع أحد فرسان العدو ويقال له «طلحة» وأطاحت برأسه، وواصلت القتال إلى نهاية المعركة.

٢ - عائشة يوم الجمل:

خرجت السيدة عائشة بعد مقتل عثمان تشارك فى المعركة التى عرفت بيوم الجمل، ولم يكن خروجها فى الحقيقة جهادا فى سبيل الله، فقد علمت جواب الرسول لها وهى تسأله عن الجهاد، بل كان تدخلا فى سياسة الدولة، ومطالبة بدم عثمان.

وقد جاء فى تفسير القرطبى «ج ١٤ ص ١٨١»: أنها لم تخرج للحرب، بل للصلح، بعد إلحاح الناس عليها، نزولا على قوله تعالى: ﴿**لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [النساء: ١١٤]، وقوله: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [الحجرات: ٩] ومع هذا فقد كانت محجبة.

على أن خروجها كان باجتهاد منها، وكانت مخطئة فيه. ولهذا لم يوافقها على الخروج بعض أزواج النبى ﷺ. فقد ورد أن أم سلمة رضى الله عنها أرسلت إليها كتابا جاء فيه: قد علم رسول الله ﷺ مكانك لو أراد أن يعهد إليك، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع «العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٦». وفى بعض الروايات: جهاد النساء غض الأطراف وضم

الذيول . . وأقسم لو قيل لى : يا أم سلمة ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجابا ضربه على . وكذلك لم يوافقها كثير من الصحابة، كعبد الله بن عمر، وسعيد بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وعمران بن حصين، وأبو الأسود الدؤلى، وجارية بن قدامة الذى قال لها : لقتل عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون، إنه كانت لك من الله حرمة وستر، فهتكت سترك، وأبحت حرمتك، إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك، فإن كنت يا أم المؤمنين خرجت مستكرهة فاستعتبى الله « المصدر السابق » .

يقول الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى : أخرج عمر بن شبة من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن : أن عائشة أرسلت إلى أبى بكرة تدعوه إلى الخروج معها، فقال : إنك لأم، وإن حقك لعظيم، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لن يفلح قوم تملكهم امرأة » ولم يخرج معها أبو بكرة .

وقد كتب إليها على يلومها على خروجها قبل أن يلتقى الجيشان، وروى أنها ندمت وقالت : ليت كان لى من الرسول بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت تبكى عندما يخوض الناس فى حديث الجمل حتى تبل خمارها .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ابن حيان، وسنده على شرط الصحيح : أن قيس بن أبى عاصم قال : لما أقبلت عائشة فنزلت ببعض مياه بنى عامر نبحت عليها الكلاب، فقالت : أى ماء هذا؟ فقالوا : الحوأب . فقالت : ما أظننى إلا راجعة . فقال لها بعض من كان معها : بل تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم . فقالت : إن النبى ﷺ قال لنا ذات يوم « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب »؟ وورد من طريق عصام بن قدامة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لنسائه « أيتكن صاحبة الجمل الأدبب أى ذى الشعر الكثير، تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة، وتنجو بعد ما كادت » رواه البزار وابن أبى شيبة بسند رجاله ثقات « المطالب العالية ج ٤ ص ٢٩٧ » .

وأخرج أحمد والبزار بسند حسن من حديث أبى رافع أن رسول الله ﷺ قال لعلى بن أبى طالب «إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر» قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله. قال «لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها».

وروى الطبرانى بسند صحيح عن أبى يزيد المدينى قال: قال عمار بن ياسر لعائشة، لما فرغوا من الجمل، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليكن!! يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فقالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قالت: والله إنك ما علمت لقوال بالحق، قال: الحمد لله الذى قضى لى على لسانك [1] .. فهى تعترف بخطئها، وتقر عمارا على إنكار صنيعها [2].

٣ - النساء فى صفين:

معركة صفين كانت بين على ومعاوية، أو بين جيش العراق وجيش الشام، أو بين بيتين كانا يتنافسان السيادة فى الجاهلية. وقد خرجت فيها بعض النسوة لتشجيع المقاتلين على المعهود عندهم من قبل، وأكثر من ذكر التاريخ اشتراكهن فى المعركة كن فى صف على. ومنهن أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقية، والزرقاء بنت عدى الهمدانية، وعكرشة بنت الأطرش وغيرهن ممن ذكرتهن كتب الأدب والتاريخ فى الوافدات على معاوية، كأروى بنت الحارث بن عبد المطلب وغيرها «العقد الفريد وثمرات الأوراق لابن حجة».

٤ - نساء فى الفتوح الإسلامية:

لقد شاركت بعض النساء فى الفتوح الإسلامية الأولى. ففى الشام حضرت معركة اليرموك: هند بنت عتبة، زوجة أبى سفيان، ومعها جويرية بنته مع زوجها. وكانتا تثيران الحماس فى نفوس المجاهدين. تقابل معهما أبو عبيدة وحثهما على ما هما فيه.

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره ج ١٤ ص ١٧٩.

(٢) هذه الأحاديث من بيان لجنة الفتوى بالأزهر عن حكم الشريعة الإسلامية فى اشتراك المرأة فى الانتخاب للبرلمان، الصادر فى يونيه ١٩٥٢م.

وكذلك حضرت اليرموك: أم عبد الله بنت يزيد الكلبية مع زوجها حبيب [1]. وأم موسى اللخمية زوج نصير اللخمى ووالدة موسى بن نصير، وقتلت أحد الروم وأخذت سلبه، وكان عبد العزيز بن مروان يستحكيها ذلك، فتقول: كنت في جماعة من النساء، فأبصرت علجا «روميا» يجر رجلا من المسلمين، فأخذت عمود الفسطاط «الخيمة» فشدخت رأسه، وأعاننى الرجل على سلبه. «الإصابة لابن حجر ج ٨ ص ٢٨٥، وأعلام النساء ج ٢ ص ١٥٠٨».

ومنهن أسماء بنت أبى بكر مع زوجها الزبير، وكان معها خنجر من سعيد ابن العاص، فى الفتنة، لتبقر به بطن من يدخل عليها.

وكذلك أم حبيبة بنت العاص القرشية، كانت تحض الرجال على القتال لما شد طرف الروم على عمرو بن العاص، فانكشف هو وأصحابه، فنزلت النساء من التل يضربن وجوه الرجال بالعُمُد [2] ومنهن أسماء بنت يزيد بن السكن، وهى بنت عم معاذ بن جبل، قتلت يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاط، كما فى الإصابة لابن حجر، أخرجه الطبرانى عن مهاجر، وقال الهيثمى (ج ٩ ص ٢٦٠): ورجاله ثقات «حياة الصحابة ج ١ ص ٥٨٢».

ومنهن أم حكيم بنت الحارث مع زوجها خالد بن سعيد، وجاء فى سيرة ابن هشام «ج ٢ ص ٢٧٨»: أنها كانت زوجة لعكرمة بن أبى جهل، فلما استشهد خطبها خالد، فلما أراد البناء بها وجموع الروم قد احتشدت، قالت: لو أمهلت حتى يفض الله جمعهم !! قال: إن نفسى تحدثنى أنى أصاب فى جموعهم، فقالت: دونك. فابتنى بها. فلما أصبح التقت الجموع فقتل، وقاتلت أم حكيم يومئذ وعليها الخلوق، وقتلت سبعة من الروم بعمود من الفسطاط بقنطرة تسمى إلى اليوم بقنطرة أم حكيم، وذلك فى موقعة أجنادين.

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٨٤.

(٢) أعلام النساء لعمر كحالة.

وشاركت خولة بنت الأزور الكندى وجماعة من نساء قريش فى حرب أجنادين أيضا مع خالد بن الوليد، وقد أبلت بلاء حسنا لاستخلاص أخيها ضرار من الأسر، ولم يكن يعرفها أحد لأنها كانت ملثمة، حتى ظن بعضهم، من شدة بأسها، أنها خالد. وقد أسرت بعد ذلك هى وزميلاتها، فثرن على الحراس، وضربنهم بأعمد الخيام حتى نجون وهن ينشدن:

نحن بنات تبع وحمير وضربنا فى القوم ليس ينكر لأننا فى الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الأكبر

وفى فارس حضرت فتوحها جماعة من النساء منهن: خزانة بنت خالد بن جعفر، مع سعد بن أبى وقاص. وتقول أم كثير، امرأة همام بن الحرث [١] «الحارث» النخعى: شهدنا القادسية مع سعد بن أبى وقاص وأزواجنا، فلما أتانا أنه فزع شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوى، ثم أتينا القتلى. فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك، ونصرفهم فيه. وكانت سلمى بنت حصفة زوجة سعد بن أبى وقاص معه فى حروب فارس، وكانت من قبله تحت زوجها المثنى بن حارثة بطل حروب الردة وفارس. وهى التى فكت وثاق أبى محجن الثقفى عندما قيده سعد، وعاد بعد بلاء عظيم فى الحرب توفيت سنة ٦٠ هـ. ومعنى فزع استغاث، يقال فزع إلى ففزعته، أى استغاث فأغثته.

ومنهن أروى بنت الحرث بن كلدة، وذكرت فى بعض الكتب باسم «أزدة». وقد شجعت النساء على الخروج للغزو مع المغيرة بن شعبة ضد أهل «ميسان» وهى كورة واسعة بين البصرة وواسط، خرجت بهن حاملات للرايات التى اتخذنها من خمرهن، وهن يهتفن – على عادة العرب الأولى:

يا ناصر الإسلام صفا بعد صف إن تهزموا أو تدبروا عنا نخف
أو يقلبوكم يغمزوا فينا القلف

---

(١) الحارث أيضا تكتب بدون ألف: الحرث.

أى ينتهكوا أعراضنا. فخاف المشركون من جموعهن وظنوها مددا، فانهزموا.

وقيل: كانت عند عتبة بن غزوان الذى قاتل أهل الفرات لما استعمله عمر، فكانت امرأته «أزدة» تحرض الناس على القتال وتقول: إن يهزموكم يولجوا فينا القلف [1].

تقول الروايات: لقد استعدت القبائل بكل ما تستطيعه فى غزوة القادسية، حتى خرج النساء كلهن، فكان من قبيلة النخع سبعمائة لا أزواج لهن، ومن قبيلة بجيلة مائة أو ألف، تزوجن جميعا فى هذه الحرب، وكانت النخع تسمى أصهار المهاجرين.

ومعروف أن الخنساء شهدت موقعة القادسية، وشجعت أولادها على القتال، فاستشهدوا، فلم تجزع وطلبت من الله أن يلحقها بهم فى مستقر رحمته. وكذلك جاء فى كتب التاريخ أن صالح بن على، والعباس بن محمد كانا فى غزو بلاد الروم سنة ١٣٩ هـ، وكان مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة [2].

ونساء الخوارج معروفات بشدة البأس والخروج مع الرجال فى المعارك، يحكى عن شبيب الخارجى أنه كان يقود فرقة تضم مائة وخمسين امرأة مسلحة بالسيوف والرماح، وإن كان خروجهن للثورة، لا للجهاد والفتوح الإسلامية. ومن الشهيرات منهن أم شبيب الخارجى، التى اتخذت لقب خليفة، وقدمت لها الفرقة الشبيبية الطاعة. ومنهن غزالة التى ولدت فى الموصل بالعراق وعشقت الفروسية وحاربت مع شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى، وتزوجته، ووقفت معه ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على

---

(١) تاريخ الطبرى، وفتوح البلدان للبلاذرى، ومعجم البلدان لياقوت وأعلام النساء والقلف جمع قلفة وهى رأس الذكر.
(٢) تاريخ التربية لأحمد شلبى.

العراق، واستمرت تقاتل معه شهرا كاملا، حتى أن الحجاج فر من وجهها خشية أن تهزمه فيلحقه العار، وذمه عمران بن حطان بقوله:

أسد على وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

وانتهت غزالة على يد خالد بن عتاب الرياحى فى معركة على أبواب الكوفة قبيل غرق زوجها، بعد أن خطبت الناس وصلت صلاة الصبح «ابن خلكان». وكذلك كانت منهن «بلجاء» الشهيرة فى العلم واللاهوت (١).

هذه صور من اشتراك المرأة المسلمة فى القتال، وهذا هو حكم الإسلام فى ذلك، وهو يتلخص فى أن الجهاد المسلح لم يفرض عليها إلا عند الهجوم علينا، وأن خروجها قبل فرض الحجاب كان مأذونا فيه لممارسة الأعمال التى تناسبها، وبعد الحجاب قل الإذن لهن جدا، مع الحفاظ على الحجاب، والخروج مع المحارم أو الرفقة المأمونة، ومع ذلك كان خروجهن غير مرغوب فيه. وبعد أن فتحت مكة، وقويت شوكة الإسلام، وفرض الحج الذى مهد طريقه منع الإذن لهن أو ندر، فلم يعرف إلا فى حالات فردية لها اعتبارات خاصة، وإن ما حدث من خروجهن بعد الرسول ﷺ لا يعد تشريعا.

هذا. وإذا قلنا بعدم وجوب الجهاد بالنفس على المرأة فى غير الضرورة فلا يمنع ذلك أن تشترك فيه بغير النفس كالرأى والمال، فلن يترتب على ذلك ضرر، بل فيه فائدة، وكان النساء فى التبرع بما استطعن يضربن أروع المثل، وقد سبق فى ص ٤٧٤ ما تبرعت به ذات العقال، وجاء فى «صفة الصفوة» لابن الجوزى ج ٤ ص ١٧٠ : أن الروم سبوا نساء مسلمات. فبلغ ذلك هرون الرشيد، وكان بالرقة، فقام منصور بن عمار يحرض الناس على الغزو، على مقربة من هارون، فطرحت إليه صرة مختومة، فيها كتاب يقول: إنى امرأة من أهل بيوتات العرب، بلغنى

---

(١) الوعى الإسلامى عدد مايو ١٩٥٦ بقلم إيلى سالم.

ما تحرض به على حرب الروم، فعمدت إلى أكرم شئ فى بدنى، وهما ذؤابتاى، فقطعتهما وصررتهما فى هذه الخرقة، وأنشدك الله لما جعلتهما قيد فرس غاز فى سبيل الله، فبكى منصور وأبكى الناس، وأمر هارون بالنفر لحرب العدو.

وما دام للمرأة اشتراك ما فى الحرب وقد تلجأ إلى حمل السلاح، فإن تدريب الفتاة على فنون القتال إلى جانب تدريبها على التمريض وما يلزم للمعركة أمر لا بأس به أبدا، وذلك للحاجة إليه، وبخاصة عند الهجوم علينا، والوطن الإسلامى كله معرض للخطر، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧] على أن تكون الفتاة فى حشمة وأدب، مراقبة لله الذى لا ينصر فى المعركة إلا المتقين ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧]. وقد حذر عمر رضى الله عنه فى وصيته لسعد بن أبى وقاص من المعصية عند الجهاد، لأنها أخطر على الجند من عدوهم، ولا يليق بمن هو فى سبيل الله أن يطلب النصر بمعصية الله.

وكان بعض النساء فى العصر الحديث يتطوعن للقيام بأعمال تخدم المعركة، ولكن بدون دراية لفنون القتال، قانعات برتب وملابس عسكرية مغرية، يستعرضن بها جمالهن، فكانت الفتنة بهن شديدة، والذى تطوعن من أجله لم يلق الاهتمام منهن كما اهتممن بالناحية المظهرية. على أنهن فى ذلك الوقت لم تكن الحاجة إليهن ماسة، فالرجال كثيرون، والمدربون فيهم الكفاية، ولكنه التقليد الذى يعمى ويصم، أو الشهوة التى لا تأبه بالآداب والتقاليد.

٤ - ومن التشريعات التى جاءت مبنية على أساس الفوارق بين الرجل والمرأة ما يأتى، وسأغفل الدليل عليها إلا قليلا منها حتى لا يطول الحديث، مع التنبيه على أن بعضها فيه خلاف فقهى يرجع إليه فى مظانه:

١ - لا تؤذن المرأة للرجال ولا تؤمهم فى الصلاة. روى أبو داود والحاكم وابن خزيمة وصححه: أن النبى ﷺ جعل لأم ورقة مؤذنا، وأباح لها أن تؤم أهل

بيتها (١). وهذا خاص بنساء أهل بيتها، وروى ابن ماجه عن جابر أنه سمع النبى ﷺ على المنبر يقول: «لا تؤمن امرأة رجلا، لا فاجرا ولا مؤمنا».

٢ – ليس عليها جمعة ولا جماعة، ولكن يصح أن تصلى الجمعة وتغنى عن الظهر، كما يصح لها أن تصلى جماعة أى مأمومة، أما أن تكون إماما فذلك للنساء خاصة، ومنعه بعض الأئمة مطلقا. وقد كانت نساء الصحابة يصلين خلف الرسول جماعة وذلك معروف.

٣ – لها عورة خاصة غير عورة الرجل، فى الصلاة وفى غيرها، على التفصيل الذى تقدم فى هذا الجزء.

٤ – إذا نابها شئ فى الصلاة تصفق ولا تسبح كما يسبح الرجل، ودليله ما مر فى ص ١٦٣ .

٥ – لها إحرام خاص فى الحج بملابسها، محافظة على عورتها، وقد مر ذلك فى ص ٩٦ وما بعدها.

٦ – لا تبدأ الرجل بالسلام، ولا تشمت عاطسا كما مر فى ص ١٦٥، ١٦٦.

٧ – عليها أن تطيع زوجها، وليس عليه أن يطيعها، تطبيقا لمبدأ قوامته عليها، وإن كانت المعاشرة بالمعروف تقتضى مشاورتها فى بعض ما تقوم عليه سياسة المنزل بنوع خاص، وإطاعتها فى مشورة معقولة تحقق الخير. جاء فى الحديث «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه الترمذى عن أبى هريرة، وقال: حسن صحيح. وروى الحاكم والبزار بإسناد

---

(١) هى أم ورقة بنت عبد الله الحارث. كان رسول الله يزورها ويسميها الشهيدة، لأنها طلبت الخروج معه فى بعض الغزوات لمداواة الجرحى، فقال لها: إن الله مهد لك شهادة، وقد غمها غلام لها وجارية كانت دبرتهما، أى علقت عتقهما على موتها، فقتلاها فى خلافة عمر، وهربا، فأتى بهما عمر فصلبهما، فكانا أول مصلوبين فى المدينة، وقال عمر: صدق رسول الله، كان يقول: انطلقوا بنا نزور الشهيدة.

حسن عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقا على المرأة؟ قال « زوجها » قلت : وأى الناس أعظم حقا على الرجل؟ قال « أمه » . فلو كان عليه أن يطيع زوجته لأرشد إليه، لكنه أرشد إلى طاعة الأم، ولا يقال : إن ذلك حديث عن الأولوية أما أصل الطاعة فمسكوت عنه، لأن قوامة الرجل عليها تفرض طاعتها إياه .

٨ – لا يجوز لها السفر وحدها، على ما مر تفصيله فى ص ٢٥٥ .

٩ – شهادتها على النصف من شهادة الرجل، وعدم قبول شهادتها فى بعض الأمور، كما سيأتى تفصيله .

١٠ – اشتراط الولى عند زواجها، على ما مر بيانه فى موضعه من الجزء الأول .

١١ – الطلاق بيد الرجل لا بيدها، على ما هو مقرر فى بحث الطلاق .

١٢ – النسب للرجل لا لها، على التفصيل المذكور فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

١٣ – تحد هى على زوجها، ولا يحد هو عليها، على توضيح مذكور فى بحث الطلاق . وكذلك أمر العدة .

١٤– عدم خروجها من البيت إلا بإذنه، ولا يشترط لخروجه هو أن يستأذنها . انظر ص ٢٤٣ .

١٥ – لا تتزوج المرأة أكثر من رجل واحد فى وقت واحد، أما الرجل فله التعدد، كما هو مفصل فى موضعه .

١٦ – يباح لها التحلى بالذهب والحرير بخلاف الرجل، على ما مر فى الجزء الأول .

وهناك أمور أخرى ذكرها صديق حسن خان فى كتابه حسن الأسوة، أكثرها مبنى على تفريعات فقهية فيها خلاف بين المذاهب لا داعى لذكرها هنا،

وما ذكرته فهو نماذج كافية فى المقارنة بين الرجل والمرأة فى التشريع الذى جاء على أساس الفوارق بينهما.

٥ - هذا، وإذا كان الباحثون الاجتماعيون يقررون الواقع، وهو الفرق بين الرجل والمرأة فى الاستعدادت والمواهب، وبالتالى فى الآثار المترتبة عليها، فإن هذا الحكم هو للمجموع لا للجميع، أو للأغلب من الجنسين، وهذا لا ينفى أن تكون هناك استثناءات فى كل منهما، فقد تكون هناك امرأة أقوى عقلا ونفسا وجسما من الرجل، كما يقول المتنبى:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

غير أن هذه الاستثناءات، كما يقول الكاتبون، دليل صدق القاعدة العامة، على أن التفوق فيهن إذا بحثت حقيقته يرجع فى الغالب إلى ما تفوقن فيه من مواهب هن جديرات بها. يقول العقاد عن «مدام كورى» مكتشفة الراديوم [١]: إن نبوغها أمر شاذ، وهذا الشذوذ يؤيد القاعدة العامة ولا ينقضها، ومع ذلك فهى مكتشفة لا مخترعة، والاكتشاف حدث كثيرا بمصادفة لا غير. أما الاختراع والابتكار فهو من عمل الرجال فى جميع عصور التاريخ يحتاج إلى قريحة وعارضة قوية وخيال جبار، أما الاكتشاف فهو مشاهدة لحادثة ومراقبة تطورها، فهو عمل الحس لا الفكر الباطنى الاختراعى.

ثم يقول: بل الفرق بين الجنسين حتى فى «الطيبة» التى يظن أنها نسوية، ومن شواهدها عطف الرجل على أبناء زوجته من رجل آخر، دون عطفها على أبنائه من زوجة أخرى، فإن ٩٠٪ من هذه الظاهرة الرجل فيها أطيب من المرأة.

ويقول أيضا فى مجلة «الكاتب يوليه ١٩٥١» فى بيان أن الرجل له المنزلة الأولى على المرأة فى كل العصور، إن استبداده بها دليل على قوة جسمه وعقله،

---

(١) ١٨٦٧ - ١٩٣٤ م.

ودليل عجزها عن حياة المجتمع يوم أن كان محدود المزايا والكفايات، فكيف تستطيع أن تقود المجتمع العصرى المعقد المتشعب، الذى تعذر على الرجال، بله النساء؟.

ويقول أيضا: إنها فى كل عمل تتولاه تقصر عن شأو الرجل فيه. حتى فى الأعمال الخاصة بالنساء كالطبخ والتزيين والغناء لو وكلت هذه الأعمال إليه، كما يقول: إن عدم نبوغها لا ينبغى أن يعزى إلى قسوة الرجال عليهن. فإن الشدة عليهن لم تبلغ مبلغ شدة السادة على العبيد. ومع هذا نبغ منهم فى كل أمة عدد لا بأس به، لم تلحقهم فيه النساء [1].

٦ – إن المساواة التى تطالب بها المرأة قد نعى عليها العقلاء، وذلك من واقع التجارب المريرة التى مرت بالمجتمعات المنكوبة بشيوع روح المساواة بين الجنسين بغير تعقل. تقول الكاتبة «لا ثي ماتن»: إن النساء أعداء أنفسهن بطلبهن المساواة بالرجال. فما بالك بمن تعتقد أنها أفضل من الرجل؟ ولا يستطيع أحد أن يحدث النساء حديثا إلا حولن موضوعه العام إلى موضوع خاص بهن. فإذا قال رجل لامرأة مثلا: إن جسم الذكر أقرب إلى معانى الجمال من جسم المرأة أخذت تصيح قائلة إنى آسفة لأنك لا تحب شكلى وقوامى، فالمرأة لا يمكن أن يتحدث معها فى موضوع دون أن تخرج عنه لما هو عائد عليها. ومن تكون كذلك كيف يمكن أن تصدق فى دعواها المساواة؟.

---

(١) من النابغات فى التاريخ الحديث «هيلين كيلر». ولدت فى ٢٧ يونيه ١٨٨٠م بولاية «ألاباما» الأمريكية، وهى بكماء، وأصيبت فى الشهر التاسع عشر من عمرها بالحمى القرمزية التى فقدت بها حواس السمع والبصر والشم، وتولت رعايتها وتعليمها الآنسة «آن سوليفان» فتعلمت القراءة والكتابة والكلام واستعمال الآلة الكاتبة وهى فى الثامنة من عمرها. والتحقت سنة ١٩٠٠م بكلية «راد كليف» فحصلت على إجازتها العلمية بمرتبة الشرف عام ١٩٠٤م. وتعلمت أكثر من لغة، وحصلت على قدر كبير من الثقافة، ووضعت عدة كتب فى الفلسفة والآداب، وتوفيت فى أول يونية ١٩٦٨م عن ٨٨ عاما «الأهرام ٣/٨/١٩٦٨».

وهذا النبوغ ليس نبوغ جنس، بل هو من أكبر المعجزات أو الأمور الغريبة سواء أكان ذلك من رجل أو امرأة، فالغرابة فى الوصول إلى هذه المرتبة العلمية مع فقدان الحواس.

والمودودى ينقل عن العالم الروسى الطبيعى « أنطون نيميلاف » فى كتابه « المأساة الحيوية للمرأة » أنه قال : ينبغى ألا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة المساواة بين الرجل والمرأة فى الحياة العملية أمر هين ميسور، الحق أنه لم يجتهد أحد فى الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين مثل ما اجتهدنا فى روسيا السوفييتية، ولم يوضع فى العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب فى هذا الباب مثل ما وضع عندنا، ولكن الحق مع ذلك كله أن منزلة المرأة قلما تبدلت فى الأسرة ... إلى أن قال : لا يزال تصور عدم المساواة بين الرجل والمرأة، ذلك التصور العميق، راسخا، لا فى قلوب الطبقات ذات المستوى الذهنى البسيط، بل فى قلوب الطبقات السوفييتية العليا أيضا، بل النساء أنفسهن قد بلغ من تأثير هذا التصور فى نفوسهن أنهن إذا عوملن معاملة المساواة الكاملة مع الرجال يعددن ذلك حطا من مكانة أولئك، ويجدن لهم فيه معانى التخنث . اهـ

يقولون هذا الكلام مع عدم اتباعه، فالإنسان عدو نفسه، متناقض معها، يميل مع هواه، ويطرح حكم العقل والتجارب الحية جانبا، وذلك هو سبب الفوضى والاضطراب .

وقالت العالمة الانجليزية « مس فرنسيس لو » منذ نصف قرن تقريبا فى مجلة القرن التاسع عشر، تندد بالمؤتمر النسائى المطالب بالمساواة، إن مؤتمرا كهذا يؤدى إلى زرع العداوة بين الجنسين المتالف منهما المجموعة الإنسانية، كل وهب مزايا خاصة، وخلق لعمل خاص، فكل سعى لسعادة أحد الجنسين دون النظر إلى سعادة الآخر هو سعى خبيث يؤيده رأى فاشل، فالمؤتمر يدل على ضيق مداركه وخطل آرائه، لخلطه الحابل بالنابل، وتشويش نظام البشرية، وقلب شرائعها الإلهية والمدنية [١] .

وجاء فى أهرام ١٠ / ٧ / ١٩٦٣م من « أوسلو » : واجهت البحرية التجارية

---

(١) أهرام ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٩م فى أهرام ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٩ (منذ ٥٠ سنة) .

فى النرويج مشكلة جديدة بسبب المساواة التامة بين الرجل والمرأة لم تكن موجودة فى الماضى عندما كان العمل فى البحرية يقتصر على الرجال وحدهم. فقد اضطرت البحرية خلال العام الماضى إلى إرسال ٢٢٥ من الفتيات اللاتى يعملن فى السفن، على نفقتها، إلى بلادهن، بعد أن اكتشفت أنهن حوامل، ويطلبن حقهن المشروع فى الحصول على إجازة الوضع.

والمعروف أن أربعة آلاف من الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين ٢٠، ٦٥ سنة يعملن فى السفن النرويجية جنبا إلى جنب مع ٥٥ ألف بحار من الرجال، وأن ٩٠٪ من السفن النرويجية لا تمر إطلاقا بموانئ النرويج.

٧ - مطالب المرأة :

كانت مطالب المرأة أولا اجتماعية، فلما تحقق بعضها تمادت فى مطالبها حتى نادت بحقوق سياسية واسعة، بل زادت فى تماديها حتى طالبت بالحرية المطلقة من كل قيد، وبخاصة فى أحوالها الشخصية.

أولا - المطالب الاجتماعية :

المطالب الاجتماعية للمرأة كثيرة نذكر أهمها فيما يلى:

١ - فتح باب التعليم على مصراعيه، وقد مر الحديث وافيا على هذا المطلب..

٢ - العمل الحكومى والحر، وقد تقدم الحديث عنه، مع ملاحظة أن هناك أعمالا لا يجوز أن تباشرها، وهى المناصب القيادية الكبرى التى فيها ولاية عامة، وكذلك وظيفة القضاء على ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، وسأتحدث عن ذلك فيما بعد، والمرأة حين تطالب بحق العمل تطالب فى الوقت نفسه بالمساواة مع الرجل فى الأجر، وقد سبق الحديث على أن الأجر مرتبط بكمية العمل وكيفيته ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٩] ومعروف أن جهد المرأة بوجه عام ضعيف وإنتاجها قليل، وإجازاتها كثيرة،

وليس من حقها شرعا المطالبة بالمساواة فى ذلك، كما سبق توضيحه فى عدم مشروعية هذه المساواة حتى بين الرجال أنفسهم.

وهناك مفارقات واضحة بين طلبها المساواة فى الأجر، وبين عدم مساواتها له فى العمل بظروفه المختلفة، وكثيرا ما ترفض المرأة عملا بعيدا عن مقر سكنها مع شدة حاجة العمل إليها فى المكان البعيد، والرجل يقبله ولا يرفضه، وترفض كذلك العمل بالليل والرجل يقوم به ويحسنه. وترفض العمل الشاق والرجل يؤدية بحكم قوته وإحساسه بواجبه نحو عمله ووطنه، ومن هنا نعرف شطط المرأة فى طلبها المساواة فى هذا المجال، وهو أمر يخلق التذمر فى نفوس الرجال، وبالتالى يوهن من عزيمتهم، ويغريهم بالكسل والتهاون، وفى ذلك ضرر كبير لا يجهله أحد. وقد مر نهى العقلاء على تهافت المرأة على العمل خارج منزلها، وبيان مقدار الفساد المترتب على ذلك.

٣ – انخراطها فى سلك الجندية، وقد مر الحديث عنه وافيا ص ٤٥٨.

٤ – حرية الاختيار فى الزواج. وقد مر ذلك واضحا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة.

٥ – منع تعدد الزوجات. وله بحثه الخاص فى هذه الموسوعة.

٦ – تقييد الطلاق، وهو أيضا له بحث خاص فى هذه الموسوعة.

٧ – إلغاء بيت الطاعة:

إلغاء بيت الطاعة هو فى حقيقته يرتبط باستقرار المرأة فى بيت الزوجية، وطاعتها لزوجها، فإذا عصته أو خرجت من البيت بدون إذنه سقطت نفقتها شرعا. فهى لا تلزم إلا حيث تكون طائعة لزوجها، إما إساءة المعاشرة للزوجة عند النزاع، وحبسها فى مسكن غير لائق بها، وذلك لإضرارها حتى تفتدى نفسها بكل ما تستطيع، فهو ينافى حسن العشرة التى أمر بها الإسلام فى قوله سبحانه ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩]، والله يقول فى المطلقات ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ

مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٦، ٧].

فالأمر هنا بإسكانها فى مسكن يليق بها وبه حسب الاستطاعة، والنهى عن المضارة نهى صريح، وفيه بيان للغرض منها وهو الغالب على الناس.

وإذا كانت هذه المعاشرة بالمعروف فى المطلقات فكيف فى الزوجات؟ إن العنف وما يلازمه فى معاملة المرأة التى شكت زوجها لا يقره الشرع «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» وهذا الموضوع مفصل فى الجزء الثالث، من هذه الموسوعة، وفى بحث الطلاق أيضا.

٨ - المساواة فى الميراث:

تطالب المرأة بجعل نصيبها فى الميراث كنصيب الرجل، وهذا أمر لا يقره الدين أبدا، فالمواريث مقدرة فى القرآن الكريم بالنص على أن الذكر مثل حظ الأنثيين، فريضة من الله لا يجوز تغييرها، وقد بينها لنا حتى لا نضل فى تقسيم التركة وتوزيع الأنصباء على الذكور والإناث. وقد وضح العلماء حكمة هذا التشريع فقالوا: إن مجرد اشتراك المرأة مع الرجل فى حق الإرث من المتوفى هو عدل وتسوية، بعد أن كانت محرومة تماما فى الشرائع والقوانين غير الإسلامية. وحكمة تمييز الرجل عليها أنه يتحمل تبعات الأسرة بحكم رياسته عليها، حتى لو كانت الزوجة غنية فإن نفقتها على زوجها. على أنه قد توجد صور تتساوى فيها المرأة مع الرجل فى الميراث، بل قد تفوقه، كالبنت مع الأعمام، لها النصف ولجميع الأعمام النصف الآخر.

إن الإسلام فى جعل المرأة على النصف من الرجل فى الميراث سلك طريقا عادلا يتبين من الإشارة إلى وضع المرأة فى الشرائع الأخرى من هذه الجهة، وهو ملخص من مذكرة الشيخ «أبو دقيقة» فى التوحيد لكلية أصول الدين، الجزء الثالث:

كان الميراث عند قدماء اليونان والرومان لمن يصلح للقيام بشئون الأسرة ومباشرة الحروب، وللمورث أن يختار فى حياته من يقوم مقامه فى الحقوق القومية ورياسة الأسرة، سواء أكان من أبنائه أم من أقاربه أم من الأجانب. وقبيل ظهور الإسلام أشركوا المرأة مع الرجل على التساوى.

والأمم الشرقية كان الميراث فيها لأرشد الذكور من الأولاد ثم الإخوة ثم الأعمام، فليس للمرأة نصيب عندهم فى الميراث. وعند قدماء المصريين كانوا يورثونها على التساوى مع الرجل. واليهود كانوا يخصون الولد الذكر بالميراث ويحرمون الأنثى، وإن تعدد الأولاد الذكور ورث أكبرهم وحرم الباقون. وجاء فى سفر التثنية إصحاح ٢١ : ١٥ - ١٨ أن الابن البكر له نصيب اثنين. فإن لم يكن هناك ذكر فالميراث لابن ابنه، ولا شئ لبنته (١).

وعند عرب الجاهلية كان الميراث للذكور لأنهم هم الذين يدافعون عن الأسرة والقبيلة. على ما هو، مفصل فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة، وهو فى بحث حقوق الأولاد.

ورأينا من مفكرى الغرب «بنتام» أحد علماء القانون أنه يسوى بين الذكور والإناث فى الميراث، إذا كانوا أولادا للمتوفى، وحرم منه الأصول أى الآباء والأمهات، لأن السبب فى الميراث عندهم هو الميل والحب والمحافظة على الجيل الجديد.

---

(١) جاء فى سفر العدد أن بنات «صلحفاد بن حافر» طالبن أمام موسى والعازار والكاهن أن يكون لهن نصيب فى ملك أبيهن، فقدم موسى دعواهن أمام الرب، وانتهى الأمر إلى إعطائهن من الميراث. إصحاح ٢٧ : ١-١١ .

والإسلام لم يحرم المرأة من الميراث، سواء أكانت من أصول الميت أم من فروعه أم من حواشيه، وسواء أكانت ترتبط به برابطة الدم أم برابطة المصاهرة أى الزوجية، ولم ينظر إلى كون الوارث يستطيع القيام بمهام رب الأسرة أو لا يستطيع، ففى ذلك ظلم للمرأة وحرمان لها من خير من تتصل بهم، غير أنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، لأنه كما سبق هو الذى يعول الأسرة بما فيها المرأة التى لا يمس نصيبها المفروض لها بسوء، فالتسوية بينهما ليست من العدل، كما أن حرمانها أصلا ليس من العدل، فقد تكون المرأة غير ذات زوج ينفق عليها فتكفى بما ورثته من الميت.

وبهذا كان الإسلام فى تشريعه وسطا وعدلا. وبعض الأديان ترتضى عند التنازع أن تحتكم إليه فى الميراث، والله سبحانه حين شرع ذلك كان أدرى وأعلم بما يصلح الفرد والجماعة، قال تعالى ﴿**آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [النساء: ١١].

ومن المؤسف أن بعض الدول الإسلامية الحاضرة جرت وراء التقليد واستجابت لصيحات النساء المتحررات فقضت بمساواة المرأة مع الرجل فى الميراث [١] وهو خروج على أمر الله ليس له فيما أعلم أية شبهة يمكن الاستناد إليها، وقد مرت قرون طويلة على المسلمين وهم لا يبغون بشرع الله بديلا (يراعى أن المفاضلة عند اتحاد الدرجة، وإلا فقد تساوى الرجل بل قد تفوقه).

ثانيا: المطالب السياسية:

المقصود بمطالب المرأة السياسية أن يكون لها رأى فى توجيه سياسة الدولة عن طريق الأجهزة الحكومية الرسمية، وذلك بنقد الأوضاع الفاسدة، والإرشاد

---

(١) منها تركيا، وتونس، وفى العراق حيث جاء فى تقرير منظمة غرب آسيا التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع لهيئة الأمم المتحدة (ص ١٩) أن العراق عدلت قانون الأحوال الشخصية فجعل الفتاة الوحيدة ترث بالتساوى مع الولد الوحيد.

إلى الأوضاع الصحيحة، ومن صور ذلك الاشتراك فى إبداء الرأى فى اختيار الحاكم وفى تمثيل الأمة فى المجالس التشريعية، والإسهام بطريق رسمى فى وضع القوانين أو تعديلها، وما يماثل ذلك من الأمور الهامة.

ومن مطالبها السياسية، أيضا تولى المناصب والوظائف القيادية العليا، كأن تكون رئيسة دولة، أو وزيرة، أو قائدة جيش أو قاضية على مستوى عال. وغير ذلك مما هو مخول للرجال.

إن العقلاء بوجه عام من الرجال والنساء لا يستحسنون للمرأة أن تزاول هذا النشاط الدقيق، الذى لا بد له من حصافة وروية وقوة أعصاب وتركيز ذهن ومتابعة عمل، والمرأة فى هذا المجال ليست بذاك، وأمثلة التاريخ قديما وحديثا تشهد بذلك، وإن كانت هناك بعض حالات فردية نادرة فهى لا تعطى حكما عاما على استحسان ذلك لها، فقد تكون الضرورة هى التى قضت بذلك، أو قد تكون هناك اعتبارات أخرى، ومع ذلك فإن ندرة توليها لذلك يعطى حكما بأن الأفضل لها أن تنصرف عن هذا المجال، وما حدث فهو ليس تشريعا سماويا يؤخذ به.

وروى التاريخ لنا أخبار بعض ملكات عرفنا منها أنهن لسن جديرات بهذه المناصب، وإلى جانب من سيذكر بعد من الملكات أذكر هذا المثل القديم ليعطينا صورة عن مدى أهليتهن لهذا العمل الكبير.

جاء فى كتاب «معالم تاريخ الإنسانية. تأليف هـ. ج. ويلز ج ٢ ص ٣٥» عن أوليمبيا» زوجة «فيليب» أم الإسكندر الأكبر المقدونى، ابنة ملك غربى مقدونيا أنها ولدت الإسكندر بعد زواجها من فيليب بثلاث سنوات، ثم دب الخلاف بينهما، لغيرتها من فتوحاته، وإيمانها بخرافات حملتها على إقامة حفلات متهتكة، وكرهت ابنه فيه، كما يقول «بلوتارك» فى كتابه «السير». وظهرت عداوتها له لما تزوج سنة ٣٣٧ من كليوباترة المقدونية الأصل، فقتلت أول مولود لها، وهو بين ذراعى أمه، خشية أن يرث الملك بدل ابنها، فكان

الإسكندر يحتقر أباه، ثم دبرت هى قتل فيليب فى حفلة زواج بنته من خالها شقيق أوليمبيا، فطعنه أحد الحراس. ولما تولى ابنها كان لها الرأى فى العزل والتولية، وقتلت سنة ٣٢٣ ق.م بعد موت ابنها الذى قتل جميع أسرته.

إن التدخل فى الأمور السياسية لا يليق بالمرأة، وقد تورط فيه بعض النساء المسلمات الأوليات كاللائى انحزن إلى صف الإمام على فى صفين، وكنساء الخوارج اللائى شاركن بقوة فى المعارضة، ومن هؤلاء:

(أ) الوافدات على معاوية بعد انتصاره على على، كأروى بنت الحرث ابن عبد المطلب وغيرها..

(ب) ومن نساء الخوارج:

١ - أم شبيب الخارجى، وقد تقدم خبرها.

٢ - أم القمة الخارجية ، أتى بها إلى الحجاج، وقيل لها: وافقيه على ما هو عليه، فقد يظهر الشرك بالمكر، فقالت: قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. فقال لها الحجاج: قد خبطت الناس بسيفك يا عدوة الله خبط عشواء، فقالت: لقد خفت الله خوفا صيرك فى عينى أصغر من ذباب.

وكانت منكسة رأسها فقال لها: ارفعى رأسك وانظرى إلى. فقالت: أكره أن أنظرر إلى من لا ينظر الله إليه. فقال: يا أهل الشام ما تقولون فى دم هذه؟ قالوا: حلال. فقالت: لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك، حين استشارهم فى أمر موسى فقالوا: ارجه وأخاه فقتلها [١].

٣ - غزالة زوجة شبيب، كان لها نشاط بارز ضد الحجاج الذى عيروه بقولهم:

أسد على وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صغير الصافر

---

(١) محاضرات الأدباء للأصفهانى. نقل عمر كحالة فى كتابه أعلام النساء.

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

٤ – آمنة بنت الشريد، زوجة عمر بن الحمق الخزاعى. قتل معاوية زوجها وأودعها فى السجن، وجئ إليها برأس زوجها، فسبت معاوية ولعنته جهارا ولم تخش بأسا (١).

ومن قبل هؤلاء، تدخلت السيدة عائشة فى سياسة الدولة فقامت ضد على كما سبق ذكره، ولم يحمد كثير من المسلمين عملها.

نعم للمرأة حق الاشتراك فى توجيه الرأى العام ونقد سياسة الدولة، فى نطاق النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا أن يتخذ ذلك صبغة سياسية بالمعنى المتعارف عليه اليوم، وقد نقدت العجوز عمر فى اتجاهه إلى منع المغالاة فى المهور، ولم توافق أيضا عائشة على سياسة على، لكن عيب عليها أن تقود حملة مضادة وتخرج من بيتها لميدان قتال مكشوف، وجاء فى كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر أن «سمراء بنت نهيك» كانت من ربات الوعظ، أدركت النبى ﷺ، وعمرت طويلا، وكانت تمر بالأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتضرب الناس بسوط كان معها إذا خالفوا تعاليم الدين «أعلام النساء».

وتدخل المرأة بوجه عام فى السياسة محاولة منها لمزاحمة الرجل فى هذه المجالات الخطيرة، وهى مجالات تحتاج إلى رأى حصيف وأعصاب قوية وعمل شاق مرهق، وفيها تعرض إلى خلافات كثيرة لا يليق بالمرأة أن تزج بنفسها فيها، فهذه الخلافات لها أثرها الكبير على حياة الأسرة بالذات، قرأنا فى انتخابات الرياسة الأمريكية أن زوجة قتلت زوجها، لأنها كانت تتحمس لمرشح غير مرشح الحزب الذى ينتمى إليه الزوج (٢).

---

(١) بلاغات النساء لأحمد بن أبى طاهر طيفور، نقل عمر كحالة.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعى ص ١٢٨.

وإني مورد هنا بعض حوادث تدل على أن مجال السياسة لا يليق بالمرأة وأن الرأى العام السليم يمقت ذلك :

١ – روى البخارى ومسلم عن عائشة أن النبى ﷺ لما قال فى مرضه « مروا أبا بكر فليصل بالناس » أرادت عائشة أن تنحى والدها عن هذا المقام، لأن الناس لا يحبون من يقف موقف النبى ﷺ فى إمامة الصلاة، ولكنه عليه الصلاة والسلام أصر على رأيه، وأشار إلى أن المرأة تقودها عواطفها كثيرا، ولا ينبغى أن ينساق الناس مع عواطف المرأة فى هذه المواقف الخطيرة، فاختيار النبى ﷺ لأبى بكر ليؤم الناس تقدير كبير له قد تكون فيه إشارة إلى الناس لاختيارهم له بعد أن يلحق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى، فهو إجراء سياسى كبير، وأولى بالمرأة ألا تقحم نفسها فى هذه المجالات، فقال عليه الصلاة والسلام « إنكن صواحبات يوسف » أى تؤثر فيكن العاطفة فتخطئن فى الأحكام، فقد بهر نساء المدينة جمال يوسف عندما خرج عليهن، فقلن « حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » . ولقد كان لإعجابهن الشديد بجماله أثر واضح فى الحكم عليه بأنه ليس بشرا، وفى تصرفهن أيضا فقطعن أيديهن بالسكاكين غافلات عما كن بصدده من تناول الطعام بها . فانسياقهن مع العاطفة أخذ بفكرهن وسلوكهن عن طريق الجادة .

٢ – لما دخل أبو سفيان على فاطمة بنت النبى ﷺ لتساعده فى التوسط عند أبيها حتى يوافق على مد الهدنة التى وقعت بين المسلمين وقريش فى الحديبية، قالت له : إنما أنا امرأة، وإنما ذلك إلى رسول الله ﷺ ذكره فى البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق .

لكن الذى فى سيرة ابن هشام « ج٢ ص ٢٦٥ » أن أبا سفيان قال لها : يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك الحسن، هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت : والله ما بلغ بنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ . فليس فى هذا الخبر إذن شاهد على الموضوع، والإسلام قد قبل إجارة المرأة بحديث « يجير على المسلمين أدناهم » كما رواه

أبو داود ويدخل فيه المرأة، لكنهم قالوا: لا يجوز للمرأة أن تجير على الإمام قوما يريد الإمام أن يغزوهم ويحاربهم، وهذا هو ما أرادته فاطمة «السهيلى فى الروض الأنف ج ٢ ص ٢٥٧». ومع هذا فإن العلماء قالوا فى هذا الحديث، وفى إجازة جوار أم هانئ: إن قبول الإجارة هو فى الحالات الفردية، أما الإجارة العامة فهى من حق الإمام وحده.

٣ – سبق فى ص ٤٧٥ من قول أم سلمة فى كتابها إلى عائشة عند خروجها لمعركة الجمل: وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع. «نهاية ابن الأثير – مادة: بدح».

٤ – ذكر ابن الجوزى فى سيرة عمر بن الخطاب «ص ٨٥» عن ابن شيبة أن عمر لما عاتب بعض عماله كلمته امرأته فى ذلك، فقال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين. وإذا عد بعض الناس هذا الأسلوب عنيفا فإن عمر كان يقدر الموقف حق قدره.

٥ – لما أراد عبد الملك بن مروان أن يولى مصعب بن عمير نهاه بعض نسائه، فقال: كفى، لا يجتمع فحلان فى شول، ولا قمران فى سماء، ولا سيفان فى غمد «محاضرات الأدباء ج ١ ص ١١٥» والشول جمع شائلة، وهى الناقة التى جف لبنها، وارتفع ضرعها، وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية [1]. والشاهد هنا فى نهى عبد الملك امرأته عن التدخل فى هذا الشأن.

٦ – تقدم فى هذا الجزء: أن الخليفة المهدى العباسى لما توفى تدخلت الخيزران مع ابنه الهادى فى شئون الدولة، فنهاها عن ذلك، وجاء فى كلامه لها:

---

(١) جاء فى كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى، مادة: شول: أن عبد الملك بن مروان تمثل بهذا المثل «لا يجتمع فحلان فى شول» عند قتله عمرو بن سعيد الأشدق، والمعنى يشير إلى قوله تعالى ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾.

فالظاهر أن الذى فى نقل الأصبهانى فى كتابه محاضرات الأدباء هو عمرو بن سعيد لا مصعب بن عمير، لأن مصعبا توفى فى غزوة أحد، انظر ابن هشام ج ٢ ص ١٥٥ وزاد المعاد ج ٢ ص ٩٧.

أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك، وعمل على التخلص منها بدس السم لها فى طعام، لكنها عرفت هذه المؤامرة، فدبرت هى قتله، كما ذكر.

٧ – ذكر المسعودى أن بعض الناس أمروا زبيدة زوجة هارون الرشيد، عقب قتل ابنها الأمين، أن تخرج طلبا للثأر، كما خرجت عائشة تطلب ثأر عثمان، فقالت. أخسأ، لا أم لك، فما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟ (١).

ويروى أنها كانت عاتبت الرشيد على تولية «الأمين» العراق، وتولية «المأمون» شئون الحرب، فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال؟

٨ – وحديثا نصحت العاقلات من النساء بنات جنسها بعدم الاشتغال بالسياسة، ففى أهرام ٨ / ٦ / ١٩٦٠ : أن «ليدى راى ميللور» زوجة عضو مجلس العموم السابق لاحظت أن المشتغلات بالسياسة يفقدن الكثير من الأنوثة والرقة، المفروض توافرهما فى المرأة مهما نزلت إلى ميدان العمل، ومهما كان عملها، وتقول: إنها رأت كلا من المرأة السياسية التى تطبعت بطباع الرجال، والمرأة السياسة التى احتفظت بأنوثتها، وقالت: إن الاثنتين أضحكتاها كثيرا، لأن وضعهما كان شاذا للغاية، فالأولى لا تصلح أن تكون امرأة، والثانية لا تصلح أن تكون سياسية. اهـ.

(أ) حق المرأة فى التصويت:

هذا الحق الذى تطالب به يعنى إعطاء صوتها فى اختيار شخص يمثل قطاعا من الناس، ليكون عضوا فى جهاز التشريع الديموقراطى.

وليس فى إعطائها هذا الحق أو فى ممارسته ما يمنعه شرعا، وبخاصة إذا طلب منها ذلك، فهو لا يعدو أن يكون شهادة بصلاحية شخص أو عدم صلاحيته، وقضية التواصى بالحق والتناصح تؤكد هذا الحق.

لكن العلماء اشترطوا فيمن يختارون الخليفة: العدالة الجامعة لشروطها،

---

(١) مجلة النذير عدد ١٥٤.

والعلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها، والرأى والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو أصلح للإمامة، وبتدبير المصالح أقوم وأعرف .

وإذا كانت هذه الشروط لم تتحقق حتى فى الرجال، حيث إن الانتخاب فى الدساتير المعمول بها فى كثير من البلاد الإسلامية لا تحتم وجودها، فهل يمكن أن تتحقق فى النساء، وإذا أمكن أن تحقق فهل يوجد ذلك فى عالم الواقع؟ ذلك فيه شك كبير. انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ٦ .

أقول هذا، لأن الدساتير الحالية تعطى حق الترشيح لمن أعطى حق التصويت، فلو أن الأمر اقتصر على حق إعطاء صوتها إذا وجدت فيها المواصفات التى ذكرها الماوردى، لما كان فى ذلك اعتراض، لكن الذين ينادون بإعطائها هذا الحق يربطون بينه وبين حق الترشيح لتمثيل الأمة فى المجالس النيابية، وبالتالى إذا اشتركت فى انتخاب الإمام أو الحاكم جاز لها الترشيح لهذا المنصب، فالتصويت سلم للترشيح. والقوانين الوضعية لا تلتزم حدود الدين فى الوقوف عند منح امتياز معين، فلو أن علماء الدين أفتوا بجواز إبداء رأيها بالتصويت لكان ذلك تكأة للوصول إلى ما قرره القانون من ثبوت حقها فى الترشيح أيضا، ومن هنا لا يجوز القول بجواز تصويتها لأنه وسيلة إلى ممنوع، كما قررته لجنة الفتوى بالأزهر، ونشر ذلك فى المجلة فى يونيو ١٩٥٢ . ونصها.

أما الأمر الثانى، وهو اشتراكها فى انتخاب من يكون عضوا فيه — أى البرلمان • فاللجنة ترى أنه باب تريد المرأة أن تنفذ منه إلى تلك الولاية العامة التى حظرتها عليها الشريعة، ذلك أن من يثبت له حق الاشتراك فى الانتخاب فإنه يثبت له حق ترشيح نفسه لعضوية البرلمان متى توافرت فيه الشروط القانونية لهذه العضوية. وبعيد أن ينشأ للمرأة قانون يبيح لها الاشتراك فى التصويت ثم يمنعها — لأنوثتها — من ترشيح نفسها للعضوية، وهى التى لا تقنع بأن الأنوثة تمنعها من شئ، ولا ترضى إلا بأن تكون مساوية للرجل فى كل شئ.

وإذن لا يصح أن يفتح لها باب التصويت، عملا بالمبدأ المقرر فى الشريعة والقانون : إن وسيلة الشئ تأخذ حكمه، فالشئ الممنوع لسبب ما يلازمه أو يترتب عليه من ضرر أو مفسدة، تكون الوسيلة إليه ممنوعة لهذا السبب نفسه، فإنه لا يسوغ فى عقل ولا شرع أن يمنع شئ لما يترتب عليه أو يلازمه من مضار، ويسمح فى الوقت نفسه بالوسائل التى يعلم أنها تتخذ طريقا إليه .. اهـ

وقد ذكرت اللجنة أيضا أن حركة عائشة ضد على لا تعد تشريعا، وقد خالفها فيها كثيرون، كما ذكرت أن احتجاج أنصار المرأة فى حقها فى الانتخاب، بأن النساء بايعن رسول الله ﷺ كما بايعه الرجال مردود بأن البيعة لا تثبت زعامة ولا رياسة ولا حكما للرسول. فذلك من الله له قبل أن يبايعنه. وإنما هى رمز للدخول فى الإسلام والالتزام بتكاليفه، ولا تؤثر شيئا على مركز الرسول عليه الصلاة والسلام، وهى تأكيد من الرسول للنساء بالمحافظة على تعاليم الدين، فهى عهد بين المعلم وتلاميذه أن ينفذوا ما أمروا به، ويطبقوا ما تعلموه.

(ب) ترشيحها للنيابة :

أما ترشيحها فى المجالس النيابية، فإن النيابة فى حقيقتها تمثيل لجماعة يفرض عليهم رأى النائب، أو يكون رأيه ممثلا لآرائهم جميعا، حيث ارتضوه نائبا عنهم. وفيه معنى الولاية العامة.

والنواب الآن يمثلون النقباء عن القبائل فى المبايعات والمعاهدات وغيرها، وفى غزوة حنين طلب الرسول ﷺ الرأى من الناس فى رد سبى هوازن. فلم يعرف بالضبط من وافق منهم ومن لم يوافق، فأمر باختيار نقباء منهم يمثلونهم ويلتزمون برأيهم « زاد المعاد ج ٢ ص ١٨٩ ».

وقد رأت لجنة الفتوى بالأزهر « يونيه ١٩٥٢ » أن عضوية البرلمان. وهى ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها، من الولايات العامة التى قصرتها الشريعة الإسلامية على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة.

وقد جرى التطبيق العملى على هذا من فجر الإسلام إلى الآن، فإنه لم يثبت

أن شيئا من هذه الولايات العامة – التى منها سن القوانين، والفصل فى الخصومات، وتنفيذ الأحكام، والهيمنة على القائمين بذلك – قد أسند إلى المرأة، لا مستقلة ولا مع غيرها من الرجال. وقد كان فى نساء الصدر الأول مثقفات فضليات. وفيهن من تفضل كثيرا من الرجال كأمهات المؤمنين.

ومع أن الدواعى لاشتراك النساء مع الرجال فى الشئون العامة كانت متوافرة لم تطلب المرأة أن تشترك فى شئ من تلك الولايات، ولم يطلب منها الاشتراك. ولو كان لذلك مسوغ من كتاب أو سنة لما أهملت مراعاته من جانب الرجال والنساء باطراد. وهذا الصنيع يعتبر بمثابة الإجماع.

أما الدليل الشرعى الذى استندت إليه لجنة الفتوى فهو ما رواه البخارى. وأخرجه أحمد فى مسنده والنسائى والترمذى عن أبى بكرة قال: لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل، لما بلغ النبى ﷺ أن فارس ملكوا ابنة كسرى قال «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» (١).

قالوا: فالظاهر أن المقصود به النهى عن مجاراة الفرس فى إسناد شئ من الأمور العامة إلى المرأة، وذلك بأسلوب فيه قطع بأن عدم الفلاح ملازم لتولية المرأة أمرا من أمورهم.

وهذا هو ما فهمه أصحاب الرسول ﷺ وجميع أئمة السلف، ولم يستثنوا من ذلك امرأة ولا قوما ولا شأنا من الشئون العامة، فهم جميعا يستدلون بهذا الحديث على حرمة تولى المرأة الإمامة الكبرى والقضاء وقيادة الجيوش وما إليها.

وهذا الحكم معلل باعتبارات ومعان لا يجهلها الواقفون على الفروق

---

(١) اسمها بوران بنت أبرويز بن هرمز، كما فى الروض الأنف للسهيلى على سيرة ابن هشام «ج١ ص ٢٢». وقيل: هى بوران بنت شيرون بن كسرى بن برويز «مجلة الأزهر مجلد ٢١ ص ٦٩٢».

وقد ملكت سنة ثم ماتت، وكان أخوها شيرويه قبلها، وقد ملك ستة أشهر، وأخوه سابور ملك قبله نحو شهرين فى مدة النبى ﷺ.

الطبيعية بين نوعى الإنسان، الذكر والأنثى، فهو حكم لم ينط بشئ وراء الأنوثة، فهى وحدها العلة فيه، وواضح أن الأنوثة ليس من مقتضاها الطبيعى عدم العلم والمعرفة، ولا عدم الذكاء والفطنة، حتى يكون شئ من ذلك هو العلة، لأن الواقع يدل على أن للمرأة علما وذكاء كالرجل، بل قد تفوقه فى ذلك، لكن المرأة بمقتضى تكوينها مطبوعة على غرائز تناسب المهمة التى خلقت من أجلها، وهى الأمومة وتربية النسل، جعلتها ذات تأثير خاص بدواعى العاطفة، وهى مع هذا تعرض لها عوارض طبيعية متكررة، من شأنها إضعاف قوتها المعنوية، وتوهين عزيمتها فى تكوين الرأى والقدرة على الكفاح والمقاومة فى سبيله، وهذا ما لا تنكره المرأة من نفسها، والأمثلة الواقعية تؤيد تغلب العاطفة فى المرأة على مقتضى العقل والحكمة، حتى فى أسمى بيئة نسوية. وقد بنت الشريعة الإسلامية على هذا الفرق الطبيعى بين الرجل والمرأة التفريق بينهما فى كثير من الأحكام التى لا تتعلق بالشئون العامة.

هذا ما قالته لجنة الفتوى، وقررت بناء عليه منع المرأة من الولايات العامة، وفى مقدمتها ولاية سن القوانين التى هى مهمة أعضاء البرلمان وما فى معناه من التنظيمات.

ثم قالت اللجنة :

وبهذا يتبين أن حكم الشريعة فى اشتراك المرأة فى انتخاب عضو البرلمان هو كحكمها فى اختيارها لتكون عضوا فيه، كلاهما ممنوع. وذكرت أن الحكم فى المسألة بشقيها على هذا الوجه لم ينظر فيه إلى شئ آخر وراء طبيعة هذين الأمرين. أما إذا نظرنا إلى ما يلازم عملية الانتخاب المعروفة والترشيح لعضوية البرلمان، من مبدأ التفكير إلى نهايته، فإنا نجد سلسلة من الاجتماعات والاختلاطات والأسفار للدعاية والمقابلات وما إلى ذلك، مما تتعرض فيه المرأة لأنواع من الشر والأذى، ويتعرض لها فيه أرباب القلوب المريضة الذين ترتاح أهواؤهم، وتطمئن نفوسهم لمثل هذا الاختلاط بين الرجال والنساء، فهذه مواقف

لا ينبغى للمرأة أن تزج بنفسها فى معتركها غير المأمون، ويجب عليها أن تنأى بنفسها عنها، حفظا لكرامتها، وصونا لسمعتها، ويجب تقدير الأمور وتقرير الأحكام على أساس هذا الواقع الذى لا ينبغى إغفاله أو التغافل عنه.

يقول أحد الشعراء المعاصرين:

أخت الغـــزالة إننى لك وامق	**وعليك من حَسَك السياسة أحْدب**
روض السياسة شائك وطريقها	**وعر، ومركبها، فديتك، أصعب**
صونى جمالك واحفظيه فإنما	**حق الجمال من السياسة أوجب**
البيت أفضل، لو علمت، رعاية	**وأجل فى مجد الفتاة وأهيب**
فابنى به الأخلاق صرحا شامخا	**تتخرب الدنيا ولا يتخرب**
وارعى بنيك فهم عماد مكارم	**وسداد عادية وغرس طيب**
ما الشعب إلا بالبيوت فإن هوت	**غشى شوارقها المضيئة غيهب [1]**

الغزالة إما هى الظبية وإما هى الشمس، فهى أختها فى الحسن والجمال، الحسك = الشوك، أحدب = أعطف. الغيهب = الظلام.

لقد اعترض جماعة على حديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» بأنه ليس نصا فى منع المرأة من الولايات العامة وما فى معناها، وقرروا أن المرأة من الوجهة النظرية، أو من وجهة المبدأ لها أن ترى ما تشاء من الآراء السياسية، وأن تشترك فى النصح العام، وفى كل ما يحقق معنى الشورى التى قام عليها الحكم الإسلامى.

لكن ذلك يكون للمرأة المؤمنة حقا، المحافظة على آداب الإسلام، والتى تبغى الخير لوجه الله، لا لمصلحة شخصية أو ما شابهها، إنه يكون للمرأة التى على شاكلة النساء الفضليات فى العصور الأولى، فقد كانت إحداهن تدخل

---

(١) مجلة الأزهر مجلد ١٨ ص ٨٧٦ بإمضاء: شاعر رجعى.

المساجد، وتغشى دروس العلم، وتلم بأندية المشاورة والتعاون على الصالح العام الذى ندبت إليه، وليس البرلمان فى صورته الإسلامية إلا أحد هذه الأندية.

لقد قال أحد هؤلاء المتحمسين للمرأة فى تقرير حق اشتراكها فى الأمور السياسية: إن ذلك هو بيان للحكم الشرعى فقط، أما مزاولته والأخذ به فإن المجتمع عندنا لم يتهيأ له بعد، وحين تشيع الثقافة بين الرجال والنساء. ويرتفع مستوى الخلق، ويتطور العرف والوعى، وتوجد المرأة الفاضلة المنشودة فلا حرج أن تباشر ما قرر لها الإسلام من حق (١).

فكأن صاحب هذا الرأى يقول: إن منع المرأة من الانتخاب والنيابة ليس ذاتيا مأخوذا من نص، بل عرضيا لأمور خارجة، وهى الظروف والبيئة والأوضاع التى تلابس مزاولة الحكم وتطبيقه، والمرأة الآن فى هذه البيئة وبتلك الأوضاع المعروفة لا يجوز لها أن تمارس هذا الحق.

ونخلص من هذا إلى أن المرأة فى عصرنا لا يجوز لها الانتخاب والنيابة بإجماع الآراء الصحيحة، حتى فى الأديان الأخرى لا يجوز لها أن تباشر هذا الحق. فقد صرح البابا «كيرلس السادس» بأن المجمع المقدس برياسته قرر بالإجماع منع المرأة من الانتخاب والترشيح لعضوية المجالس الملية، لأن هذا يخالف طقوس الكنيسة وتقاليدها «أهرام ٣٠ / ٦ / ١٩٦١» وإذا كان هذا فى المجالس الملية، وهى خاصة، فكيف بالمجالس العامة؟

(جـ) الولاية العامة أو رياسة الحكومة:

إن الولاية العامة بمسمياتها المختلفة، من ملك وسلطنة ... قاصرة على الرجال دون النساء، وذلك للحيثيات التى ذكرت من قبل فى حق المرأة فى النيابة، وهو أمر تقتضيه طبيعة المرأة واستعداداتها، وما فطر عليه الرجل، من قوى جسمية وفكرية ونفسية، تجعله يختص بهذه المهمة الخطيرة ذات المسئوليات الكبيرة.

---

(١) المرأة بين البيت والمجتمع للبهى الخولى ص ١٥١.

فحين أهبط الله آدم وحواء من الجنة لمباشرة مهمتهما فى خلافة الأرض. جعل الشقاء لآدم وحده، لأنه هو الذى يتحمل العبء الأكبر منه، فقال ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١١٧]، وليس للضعيف أن يكون حاكما على القوى، ولا للمخلوق الثانى التابع أن يكون سيدا على المخلوق الأول المتبوع، فقد خلق منه ومن أجل سكنه وراحته.

وإجماع العقلاء على تقرير هذا الحكم، وهو أن رياسة الدولة تكون للرجال، ولأمر ما جعل الله الرسالة خاصة بالذكور، لأنهم هم الذين يستطيعون الاضطلاع بمهمة التبليغ، وبتنفيذ الأحكام وإصلاح المجتمع من نواحيه المختلفة، وقد تقدم القول فى ذلك.

وقد جرى العرف من قديم الزمان على قصر منصب الرياسة على الرجال، وما حدث أحيانا من تولية المرأة فإنما هو شذوذ لا يعتد به، أو كانت لظروف خاصة، على أنهن أو أكثرهن لم يوفقن فى سياسة بلادهن، إلا بمعاونة الرجل معاونة فعالة بصورة تجعل المرأة رمزا فقط، والعمل هو للرجل.

والمسلمون أجمعوا على منع المرأة من رياسة الدولة. ودليلهم فى ذلك هو الحديث السابق الذى رواه أبو بكرة فى شأن تولية بوران حكم الفرس، قال الشوكانى، بعد إيراد هذا الحديث : فيه دليل على أن المرأة ليست من أهل الولايات، ولا يحل لقوم توليتها، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب.

وقد رد جماعة الاحتجاج بهذا الحديث، فقالوا : إنه ليس نصا فى منع ولايتها، لأن عدم الفلاح المذكور، راجع إلى أمور الدنيا، وكثير من الدول ملكوا أمرهم امرأة فأفلحوا، فالنبى لا يكذب فى خبره، فكلامه إذن منصب على قوم مخصوصين، وهم أهل فارس، بدليل خراب ملكهم بعد، وهو على كل حال إرشاد وتوجيه للأفضل الذى أجمع العلماء على وجوبه.

ورد بأن كلام النبى ﷺ عام، لأن لفظ « قوم » نكرة جاءت بعد نفى، والنكرة فى سياق النفى تعم، كما هى قاعدة الأصوليين. وكلام النبى ﷺ

صادق، لأن من تولت أمرهم امرأة ما أفلحوا بعد قوله هذا الكلام، وسيأتي الحديث عن بعض هؤلاء الملكات.

وما يقال عن ملكات أفلحن حديثا فهو مردود، لأنهن مالكات لا حاكمات، منصبهن رمزى والحكم بيد غيرهن، كما سبق ذكره، وليس فى الإسلام مثل هذا النظام، فالملك حاكم مسئول.

يقول البهى الخولى فى كتابه «المرأة بين البيت والمجتمع» ص ١٤٣ : إن ملك الانجليز أو ملكتهم لا يملك من أمر نفسه شيئا، فضلا عن أن يملك أمر شعبه، إن ملك الانجليز لا يملك أن يتزوج المرأة التى يريدها، ولا يملك أن ينفرد باختيار المكان الذى يعالج فيه، أو يقضى أيام نقاهته. وملكة الانجليز يوضع لها نظام المآدب والزيارات والرحلات قبل موعدها بعام كامل دون أن تستشار أو يكون لها رأى تخالف به رئيس الوزارة، أو تخالف فيه رجل البلاط. هذا الملك أو تلك الملكة لا يجوز أبدا أن يرد لها ذكر فى مقام الاحتجاج على ما نقول. اهـ

وعلى الرغم من مناقشة بعض العلماء لحجية هذا الدليل، وهو الحديث المذكور، فإنهم قالوا: إن المرأة لا تتولى ولاية عامة، ودليل ذلك هو الإجماع. فهم مسلمون بالحكم، معارضون فى الاستدلال بالحديث فقط.

ومن هذا يعرف أن المرأة لا يجوز لها أن تتولى منصب الرياسة مطلقا. وكل ما حدث فهو مخالف للدين، ولا يعد تشريعا. فالنص والإجماع وعمل الصحابة الذين يعد عملهم تشريعا قضى بذلك، وما سواه فهو مخالف.

وقد عاب الخليفة العباسى «المستعصم بالله» على أهل مصر حين ولوا «شجرة الدر» ملكة عليهم، وقال: إن لم يكن عندكم رجل تولونه نرسل إليكم رجلا [١]، وقال أحد الشعراء يعيب ولاية المرأة أو بسط نفوذها على الوالى:

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهانى ج ١ ص ١١٤.

إن ملكا تسوسه أم موسى وفاطمة
لجدير بأن يرى ربة البيت لاطمة [1]

ولعل مما يؤيد هذا الحكم قول النبى ﷺ « وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » رواه الترمذى عن أبى هريرة، وقال: حديث حسن غريب. أى رواه راو فقط حسب اصطلاح رجال الحديث.

وبهذه المناسبة سأسرد هنا أسماء بعض ملكات أو ذوات نفوذ فى التاريخ الإسلامى، مع ترجمة موجزة لهن، وكما قدمت، لا يعد تمليكهن دليلا على جوازه، فذلك بعد عصر التشريع.

نساء شهيرات فى الملك والسياسة فى تاريخ الإسلام:

١ – الخيزران، زوجة المهدى العباسى وأم هرون الرشيد، وقد تقدم شئ عنها.

٢ – زبيدة، زوجة هارون الرشيد، وهى بنت أبى جعفر المنصور، وقد تقدم شئ عنها.

٣ – شغب، أم المقتدر بالله العباسى، كانت تتصرف فى شئون الدولة، تصرف الملك، وذلك لضعف ابنها، وبلغ بها الأمر فى سنة ٣٠٦ هـ أن أمرت قهرمانة لها تعرف باسم « ثومال » أو « ثملى » أن تجلس مجلس القاضى، كما تقدمت الإشارة إليه فيما سبق، واستنكر الناس منها ذلك، فثاروا عليها سنة ٣١٧ هـ، ومات المقتدر مقتولا سنة ٣٢٠ هـ. فحزنت عليه حتى كادت تموت، وقد أهانها القاهر بالله « محمد بن المعتضد » إهانة بالغة، لتظهر الأموال التى كانت تخفيها، وماتت متأثرة بهذا التعذيب فى جمادى الآخرة سنة ٣٢١ هـ. « أعلام النساء ».

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس المجلد الأول ص ٧٣ طبعة الشعب.

٤ – علم، أم فاتك بن منصور، الملكة الحرة، كانت جارية مغنية، فاشتراها منصور بن فاتك سنة ٥١٧ هـ، وكان ملكا على « زبيد » باليمن، وما حولها. فولدت له « فاتكا »، وحظيت عنده، فجعل لها تدبير ملكه، ولما مات تولى ابنها « فاتك » وهو طفل، فاستوزرت عدة رجال، حتى مات ابنها « فاتك » سنة ٥٣١ هـ، فاستمرت تملك ولا تحكم إلى أن توفيت فى زبيد، وهى آخر من ولى ملكا فى اليمن من آل نجاح « أعلام النساء ».

٥ – أسماء بنت شهاب، الملكة الحرة، زوجة الملك على بن محمد الصليحى، عدها من ملكات اليمن إسماعيل قربان حسين الهندى فى رسالة عن الشاعر الخطاب اليمنى، وأشار إليها عمر كحالة فى كتاب « أعلام النساء ».

٦ – سنية، وهى الحرة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى، زوجة الحاكم « أحمد المكرم » ، ولدت سنة ٤٤٠ هـ، وربتها أسماء بنت شهاب والدة المكرم، فتزوجها، وهو ابن على الصليحى سنة ٤٦١ هـ، وولاها الأمر فى حياته بعد وفاة والدته، فقامت بتدبير المملكة وشن الحروب، وانصرف هو إلى ملذاته حتى مات، وتولى بعده ابن عمه « سبأ » فاستمرت هى فى حكمها حتى مات « سبأ » فاستبدت هى بالملك، ثم تولى ابن نجيب، وبقيت فى سياستها حتى توفيت سنة ٥٣٢ هـ . « أعلام النساء ».

وكان المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرى يحكم بين يديها، وهى من وراء الحجاب « خطط المقريزى ج١ ص ٢٨١ مطبعة النيل » وتاريخ اليمن لعمارة اليمنى، ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ ابن خلكان.

٧ – أروى بنت أحمد زوجة الملك المكرم الصليحى، التى تولت تدبير الملك ٦٥ عاما، وكانت تدعى الحرة كغيرها من زوجات الملوك. وقيل: إنها هى « سنية » المذكورة قبل.

٨ – الدار الشمسى بنت السلطان عمر بن على بن رسول. لما توفى أبوها حافظت على الملك حتى حضر أخوها إلى « زبيد » فملكها، ومن آثارها مدرسة الشمسية فى مدينة « تعز » وتوفيت سنة ٦٩٥ هـ « أعلام النساء ».

٩ – فاطمة بنت الحسن بن محمد بن على الزيدية. ملكت صنعاء وظفار وصعدة ونجران، وتزوجت الإمام صلاح الدين بن على بن أبى القاسم، واستقرت بصعدة، وانتهى ملكها سنة ٨٦٠ هـ، وتوفيت بصنعاء «أعلام النساء».

١٠ – غالية الوهابية، من عرب «البقوم». كانت أرملة رجل من أغنياء البقوم من سكان «تربة» على مقربة من الطائف من جهة نجد، قادت حملة ضد الترك سنة ١٨١٢م وأشار إليها الجبرتى فى حوادث صفر ١٢٢٢ هـ. وكذلك فى حوادث جمادى ١٢٢٩ هـ «أعلام النساء».

هؤلاء ملكات ظهرن فى الجزيرة العربية فى اليمن، بعد النساء اللائى ظهرن فى الدولة العباسية، وقد ظهر فى مصر والشام نساء أيضا لهن سلطان عظيم منهن ما يأتى:

١١ – ست الملك، أخت الحاكم بأمر الله الفاطمى، وهى، وإن لم تكن ملكة، كانت المدبرة للدولة، وقد نقم عليها الحاكم تدخلها فى الشئون السياسية، وكان يتهمها بسوء السلوك، فدبرت قتله مستعينة بسيف الدولة «ابن دواس» فقتله فى جبل المقطم، ودفنته فى بيتها سرا. ثم قتلت ابن دواس وكل من علم بتدبيرها لقتله.

ثم ولت بدل الحاكم ابنه «الخليفة الظاهر الفاطمى» حوالى سنة ٥٤٩ هـ. وكان عمره ست سنوات. وكان الوزير طلائع بن زُرِّيك الذى دبرت قتله بالشام بحيلة لما قتل ابن أخيها الخليفة الظاهر. وكثرت الفتن فى أيامها، ثم انتحرت بالسم تخلصا من حكم حاكم القصر «قراقوش». وكانت هى نصرانية، وأمها أيضا نصرانية، وكان لهاتين المرأتين أكبر الأثر فى تمتع المسيحيين بميزات كثيرة فى أيام الحاكم بأمر الله. توفيت سنة ٤١٤ هـ أو ٤١٥ هـ (١٠٢٣م) وسنها ٦٥ سنة «اقرأ، لعلى الجارم، تراجم إسلامية لمحمد عبد الله عنان».

١٢ – صفية بنت الملك العادل بن أبى بكر بن أيوب. ولدت بقلعة حلب سنة ٥٨١ أو ٥٨٢ هـ. وملكت مدينة «حلب» بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتوفيت بحلب ليلة الجمعة ١١ من جمادى الأولى سنة ٦٤٠ هـ ودفنت بقلعة حلب. «أعلام النساء».

١٣- شجرة الدر. جاء فى خطط المقريزى « ج١ ص ٣٨٥ »: أنه لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ هـ قامت بالأمر أم ولده خليل « شجرة الدر » حتى قدم ابنه « توران شاه » فتولى الملك. ولما أساء إلى المماليك قتلوه بعد سبعين يوما سنة ٦٤٨ هـ، وولوا بدله « شجرة الدر » وأخذت لها البيعة فى ١٠ من صفر ٦٤٨ هـ « مايو ١٢٥٠م » فدبرت الملك، ووقعت على الأمور برسم « والدة خليل » ونقش اسمها على السكة « العملة »، ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها، وهددوها. فتزوجت « عز الدين أيبك » مقدم العسكر فى ١٩ من ربيع الثانى ٦٤٨ هـ، ونزلت عن السلطة آخر الشهر. وكانت مدتها ثمانين يوما « من ١٠ صفر إلى آخر ربيع الثانى ».

وتقدم أن خليفة بغداد « المستعصم بالله » عاب على مصر توليتها، واستعد أن يرسل إليهم رجلا يولونه بدلها إن لم يوجد عندهم رجال.

وعلى الرغم من تنازل شجرة الدر عن الملك إلى زوجها « عز الدين أيبك » ظلت هى المسيطرة الحقيقية على الشئون، وأرغمت عز الدين على طلاق زوجته الأولى، ومنعته من زيارتها، واستمر الشقاق بين الطرفين مدة طويلة، فأراد التخلص من شجرة الدر، وخطب بنت صاحب الموصل، فعملت هى على التخلص منه، وأرسلت إلى الملك الناصر صاحب دمشق ليساعدها على قتله وتتزوجه، فأبى فاحتالت عليه ودبرت قتله وهو فى الحمام، فى ١٣ أو ١٤ من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ. ولكنها قتلت فى السنة نفسها بعد ثلاثة أيام أو سبعة عشر يوما على الخلاف فى ذلك، وهذا من أقوى الأمثلة التى تدل على عدم صلاحية المرأة لتولى أمور على هذا المستوى العالى « تراجم إسلامية لمحمد عبد الله عنان ».

وفى غرب الدولة الإسلامية الكبرى، أى فى بلاد المغرب والأندلس، كانت هناك نساء أيضا برزن فى الحقل السياسى كملكات أو ما يشبههن، ومنهن:

١٤ - صبح، أو صبيحة، وهى لم تكن ملكة، لكنها تدخلت فى الحكم

كما تدخلت نساء الدولة العباسية، ظهرت فى بلاط «قرطبة» فى أوائل عهد الحكم المستنصر بالله من ٣٥٠ -٣٦٦ هـ (٩٦١ - ٩٧٦م) وكانت زوجة حرة للحكم، لا محظية كما يقول بعض المؤرخين، وكانت تتمتع بمركز الملكة الشرعية قربت محمد بن عبد الله بن أبى عامر، الكاتب الجميل المنظر، وعشقته على الرغم من كره الحكم له. ولما مات الحكم سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م) كانت وصية على ابنه هشام الوارث الجديد، وسلمت الأمر لابن أبى عامر، وكانت تحبه على الرغم من زواجه من أسماء بنت غالب سنة ٣٦٧ هـ. ولما علمت نيته فى انتزاع الملك له دبرت ضده مؤامرة، لكنه تغلب عليها، ثم ماتت سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) «المرجع السابق».

١٥ - أم بلال، وهى السيدة بنت المنصور بن يوسف الصنهاجى، التى تأدبت بفنون العلم حتى فاقت أخاها نصير الدولة «باديس» فأشركها فى تدبير الملك. وفى خلال عام ٤٠٦ هـ خرج باديس لقمع بعض الثورات فمات بالمسيلة «مدينة بالمغرب تسمى المحمدية، اختطها أبو القاسم محمد بن المهدى سنة ٣١٥ هـ»، فمات بعيدا عن أهله، فتولى الملك بعده ابنه «المعز بن باديس» ولم يبلغ التاسعة من عمره، فكانت عمته «أم بلال» وصية عليه حتى بلغ سن الرشد. توفيت فى رجب ٤١٤ هـ، ودفنت بالمهدية، ثم نقلت إلى مقبرة امراء «صنهاجه» فى بلدة «المنستير» «أعلام النساء».

وهناك نساء مثلهن فى العراق وفارس ووسط آسيا، منهن:

١٦ - قطلع خاتون، ملكة «كرمان» تولت سنة ٦٥٥ هـ فى أيام ضعف الدولة السلجوقية فى فارس.

١٧ - عابش بنت سعد، من ملكات فارس فى الدولة السلجوقية، تولت سنة ٦٨٢ هـ، وثار عليها شريف الدين قاضى قضاة فارس، لأنها امرأة، فادعى المهدية وشرع يذعو ضدها، وقاتل جيشها فى «شيراز» فقتلته، وتوفيت سنة ٦٨٦ هـ. «أعلام النساء».

١٨ - ساقى بيكم بنت محمد خدابندا « ملكة أذربيجان والعراق » اعتلت العرش سنة ٧٣٩هـ، وهى من أصل مغولى، ذكر اسمها فى الخطب، وضربت السكة باسمها، ثم حرض الأمير حسن الصغير أهل تبريز عليها: بحجة عدم موافقة الشرع على تولية النساء مع وجود رجال كثيرين من أصل مغولى، فنادى بخلعها، ثم جلس على الكرسى « السلطان سليمان خان » « المرجع السابق ».

١٩ - تندو بنت حسين بن أويس، تزوجها الظاهر « برقوق » ثم ابن عمها « شاه ولد » فدبرت قتله، وتسلطنت بعده، وخرجت إلى « واسط » وملكت « تستر » واستقلت تماما بالملك، وتوسعت فيه حتى بلغ ملكها الجزيرة وواسط، ودعى لها على المنابر، وضربت السكة باسمها، توفيت سنة ٨٢٢ هـ « المرجع السابق ».

٢٠ - كوردجين بنت « مانجو تيمور » من ملكات فارس ١٣١٦م. « المرجع السابق ».

٢١ - جوهر شاد بيكم أغا، هى التى بنت مسجد « جوهر شاد » جنوبى المشهد الرضوى فى مدينة « مشهد » بخراسان، شرقى بلاد إيران، قتلت فى « هراة » بأمر السلطان أبى سعيد بن محمد بن ميرانشاه بن تيمور لنك « أعلام النساء، نقلا عن أعيان الشيعة للعاملى ».

٢٢ - فاطمة سلطان، تولت إمارة « قاسموف » فى مقاطعة ريازان إلى الجنوب الشرقى من موسكو، وذلك بعد ابنها « برغان » بن السيد « أرسلان » ثالث عشر أمراء قاسموف، ولقبت بقيصرة قاسموف، وبقيت على كرسى الإمارة حتى توفيت سنة ١٦٨١م. « أعلام النساء نقلا عن مجلة المقتطف مجلد ٥٧ ».

وفى الهند والجزر القريبة منها كان نساء ملكن وعلا شأنهن، منهن:

٢٣ - السلطانة رضية، بنت السلطان « التمش » [١] تولت الملك فى ١٨

(١) فى مهذب رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ٣٣: للمش.

من ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ، بعد خلع أخيها « ركن الدين فيروز شاه » خامس ملوك دولة المماليك بالهند، خلعت ملابسها النسائية، ولبست الحلة الملكية، وركبت بالقوس والتركش، كنانة السهام، والقربان، نديمها، نظرت القضاء بنفسها، وكثيرا ما قادت الجيوش، فحسدها أخوها « بهرام شاه سناء » ودبر خلعها بثورة مسلحة فانهزم، ولما قربت إليها عبدها الحبشي : « جمال الدين ياقوت » اتهمها الأمراء بالسوء، لأنها كانت إذا أرادت ركوب الجواد تقدم هو ورفعها من تحت إبطها، فثاروا ضدها سنة ٦٣٧ هـ، وتعاون جيشها مع الثائرين، فحبسوها وزوجوها من بعض أقاربها، وولوا أخاها « بهرام شاه » [١]. وقد استمالت عدوها وهي في السجن، فتزوجته وحاولت استرداد ملكها، فحاربت أخاها هي وزوجها وبعض الأتباع، ففشلت وهربت، واستجدت حراثا لقمة عيش، فقتلها وباع ثيابها المرصعة بالجواهر، وكانت متخفية في زي رجل، فعرفها قومها عن طريق الثياب المبيعة، فأخذوها ودفنوها على شاطئ نهر الجوز « جمنة » على مسافة فرسخ واحد من المدينة في ٢٥ من ربيع الأول سنة ٦٣٧ هـ، بعد أن دام ملكها ثلاث سنوات ونصفا تقريبا، وقبرها يزار ويتبرك به.

٢٤ – ملكة، ذكرها ابن بطوطة [٢] « المهذب ج٢ ص ٢٤٦ » فقد رأى في « مرسى كيلو كرى » بالهند ملكة شجاعة [٣] ووزيرات وجيشا فيه عدة نساء، وهي تقاتل وتنتصر، وجعلت سلطانة لشجاعتها، وخطبت للزواج، فاعتذرت وقالت : من أراد أن يتزوجني فليبارزني، فإن غلبني تزوجني.

٢٥ – خديجة بنت عمر بن صلاح الدين البنجالي، كانت من أبرز النساء أدبا وكمالا، لما توفي والدها خلفه أخوها شهاب الدين، فخلعه الشعب لسوء سلوكه سنة ٧٤٠ هـ وتولت هي العرش، وتولى زوجها « خطيب الدولة جمال

---

(١) في مهذب ابن بطوطة : لقبه ناصر الدين.
(٢) قام برحلته سنة ٧٢٥ هـ، وتوفي سنة ٧٥٤ هـ .
(٣) يقال للمرأة شجاع وشجاعة.

الدين » الوزارة، وكان سلطانها يمتد إلى جزر « ذيبة المهل » وكثر الخير في زمانها، وكان الخطباء يذكرونها بقولهم: اللهم انصر أمتك التي اخترتها على العالمين، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين، ألا وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين، توفيت سنة ٧٧٠ هـ . « أعلام النساء » .

٢٦ - نور جيهان، وهي ملكة هندية نقش اسمها على النقود بجوار اسم زوجها، كان من إصلاحاتها منع الهنود من تقديم الضحايا البشرية، وحرق الزوجات أحياء مع أزواجهن الموتى . قادت الجيوش لاستخلاص زوجها حين أسره « مهابه خان » . ولما توفي زوجها في سنة ١٦٤٦م اعتزلت الحكم، ثم توفيت بعده بقليل « المرجع السابق » .

٢٧ - اسكندر بيكم [١]، حاكمة « باهوبال » بالهند، تولت بعد موت زوجها الأمير « جهان كير محمد خان » سنة ١٨٤٤م، وتوفيت في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٦٨ م، ولما حجت في سنة ١٨٦٣ م أنابت عنها بنتها جهان بيكم « المرجع السابق » .

٢٨ - شاه جيهان بيكم، تولت إمارة باهوبال بعد وفاة أمها اسكندر بيكم، وتوفيت في ١٦ يونيه سنة ١٩٠١م « المرجع السابق » .

٢٩ - جيهان بيكم، أميرة ولدت في ٩ أغسطس ١٨٥٨م، وتزوجت سنة ١٨٧٤م من الأمير أحمد علي خان . وفي ١٦ يونيه ١٩٠١م اعتلت عرش إمارة « باهوبال » . ثم تنازلت سنة ١٩٢٦م لابنها الأمير حميد الدين خان، لتقدم سنها، توفيت في ١٢ مايو (آيار) سنة ١٩٣٠ م . « المرجع السابق » .

ومثل هؤلاء ظهرت ملكات في أندونيسيا، منهن ما يأتي :

٣٠ - صفية الدين تاج العالم، تولت سلطنة «آتشيه» بسومطرة سنة ١٦٤١م، وتوفيت سنة ١٦٧٥م « المرجع السابق » .

---

(١) لفظ بيكم يعني سيدة أو هانم، وقد يكتب : بيجوم.

٣١ – السلطانة تقية الدين نور العالم، تولت بعد وفاة السلطانة صفية الدين تاج العالم، وتوفيت سنة ١٦٧٨م، «مجلة المقتطف سنة ١٩٢٠م».

٣٢ – السلطانة عنايت شاه، تسلطنت على آتشيه وتوفيت سنة ١٦٨٨م «أعلام النساء».

٣٣ – السلطانة كمالات شاه، تولت سلطنة آتشيه بعد وفاة السلطانة عنايت شاه، ثم ثارت الرعية ضدها بحجة أن الشرع يحرم تولية المرأة، فخلعوها سنة ١٦٩٩م، وولوا الملك «الشريف جمال الدين».

هذه نماذج من النساء اللاتى حكمن أو تسلطن فى التاريخ الإسلامى، وكيف كان موقف الرجال منهن، وهناك غيرهن كثير فى بطون الكتب.

ولعل من تكملة الموضوع أن أذكر نماذج منهن فى التاريخ السابق على الإسلام، وفى الأوساط غير الإسلامية ممن برزن فى عالم الملك والسياسة، لنرى كيف كان تصرفهن وما آل إليه أمرهن مما يشهد بصدق الحديث فى عدم فلاح من ولوا أمرهم امرأة.

لقد كان فى مصر القديمة:

١ – حتشبسوت وقد تقدم الحديث عنها.

٢ – نفرتيتى.

٣ – كليوباترا «٦٩ – ٣٠ ق.م» وقد حكى التاريخ تنافس الناس على جمالها، وكيف تخلصت أخيرا من حياتها بالانتحار عن طريق الحية السامة «نساء شهيرات، سلسلة اقرأ رقم ١١٩».

وكان فى اليونان أيضا:

٤ – تيودورا، «٥٠٨ – ٥٤٨م» كانت ممثلة سيئة السلوك، أحبها «جوستنيان» وتزوجها فملكت عليه قلبه، وأتقنت فن المكيدة، وقتلت رجلا كبيرا كان يريد الملك. وهو «فيتاليان» فى حفل فيه خمر، أسرفت فى حكمها

وظلمت الشعب حتى جاع وثار عليها، ففكرت فى إقامة حفل للثائرين، ثم أمرت بقتلهم فيه، وأخيرا مرضت ثم ماتت «نساء شهيرات».

وكان فى فارس :

٥ – بوران، وقد تقدم الحديث عنها.

وفى الجزيرة العربية كان هناك قبل الإسلام:

٦ – بلقيس ملكة سبأ، والقرآن قص علينا بعضا من أخبارها، فى اعتمادها على مجلس الشورى. وفى اتصال سليمان بها ودعوتها لعبادة الله وحده وترك عبادة الشمس، ثم مجيئها إلى سليمان على ما حكاه القرآن، وليس ذكرها فى القرآن دليلا على صلاحيتها لتولى الملك، ولكن لأمور أخرى تكمل قصة سليمان عليه السلام. «اقرأ سورة النمل».

٧ – وهناك ملكة اسمها «زنوبيا» وقد اختلف فى اسمها هذا وفى نسبها، فقيل: إنها من سلالة كليوباترا، وقيل: من سلالة سليمان الحكيم، وكانت بارعة الجمال شديدة البأس، تزوجها «أُذَينه» سيد الشرق الرومانى. ولما قتل تسلمت الملك باسم ابنها «وهب اللات» وكانت حياتها فى أواخر القرن الثالث الميلادى «أعلام النساء».

٨ – ومن ملكات العرب قبل الإسلام أيضا «الزباء بنت عمرو» سميت بذلك لطول شعرها، واسمها مختلف فيه وكذلك نسبها، وقيل: إنها هى زنوبيا. وكانت ملكة على الشام والجزيرة من قبل الروم بعد قتل أبيها «عمرو بن ظرف» الذى قتله «جذيمة» والى «أزدشير» الفارسى [١]. «تاريخ الطبرى، والحيوان للجاحظ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والأغانى للأصبهانى، وغيرها».

ومن شهيرات النساء فى هذا المضمار، فى غير المجتمع الإسلامى ما يأتى:

---

(١) وقصتها طويلة وطريفة لخصها من عدة كتب، الدميرى فى كتابه حياة الحيوان (عقاب).

٩ – مارى ستيوارت، ملكة اسكتلندة «١٥٤٢ – ١٥٨٧م» تزوجت ولها ست سنوات، من «هنرى الثانى» ملك فرنسا، ومات بعد عشر سنوات، فتزوجت فى بريطانيا «درانلى إيريل لنوكس» ولها علاقات حب مع عدد كبير من الشخصيات على الرغم من هذا الزواج، ثم تخلصت من زوجها فى حفل راقص أقامته فى ١٩ من فبراير ١٥٦٧م على يد «إيرل بوثول» الذى تزوجته على الرغم من معارضة النبلاء، ونفست على «اليزابيث» عرش بريطانيا. وبحيلة أعدمت فى ٩ من فبراير ١٥٨٧ م لاتهامها بمحاولة اغتيال «اليزابيث» «نساء شهيرات، سلسلة اقرأ».

١٠ – كريستينا، ملكة السويد «١٦٢٦ – ١٦٨٩م» سعت لإنهاء حرب الثلاثين بإمضاء معاهدة «وستفاليا» سنة ١٦٤٨م، كرهت الخضوع لحياة الزوجية، فتنازلت عن العرش سنة ١٦٥٤م، وولت ابن عمها «شارل كريستيان» لتعيش هى حرة، وتنقلت بين بلاد أوربا فى أوضاع مختلفة وسلوك شاذ، وغيرت من مذهبها الدينى، وعزمت بعد تطوافها على العودة إلى السويد، مطالبة بالعرش. وطالبت بعرش «نابولى» وحاولت أن تقود جيش «بولندة» ضد الروس، فمنعوها، وحاولت قيادة جيش من أتباعها فى الحروب الصليبية ضد الترك، ففشلت، وماتت بروما بعد علاقة حب برجل دين. «نساء شهيرات».

١١ – مدام دى منتنون «١٦٣٥ – ١٧١٩م» تزوجت لويس الرابع عشر فى يناير ١٦٤٨م بعد أن كانت مربية لأطفاله، اشتغلت بالتمثيل، ثم تحولت إلى الدير، ثم كرهها الشعب هى والملك، وذلك لكثرة الحروب وشدة البؤس. ولما مات لويس أقبلت على الخلوة والعبادة، وعند موتها شوهدت وهى تضحك، ولما سئلت عن ذلك قالت: أضحك على الأقدار «المرجع السابق».

١٢ – كاترين الثانية «١٧٢٩ – ١٧٩٦م» تزوجت ولى عهد روسيا، وكان معتوها لم يقدر على الإنجاب منها، فأكرهتها القيصرة «اليزابيث» على الاتصال بمن تشاء من الرجال لتنجب. وكان هذا أمرا مألوفا عندهم، فأحبت أحد الحرس

« جريجور » وأمرته بقلب الملك، وتولت هى زمامه وصارت « قيصرة » فأدخلت الحياة البرلمانية، وألغت الرق على الرغم من معارضة النبلاء، وأوفدت « جريجور » لحرب تركيا سنة ١٧٦٨م، فعشقت فى غيابه رجلا من القصر، ولما علم بذلك جريجور رجع، ولكنها حبسته. ثم تضارب العشاق عليها فى جلسة لعب الكرة، وأحبت أحد اللاعبين « بونمكين » وطمعت فى امبراطورية شرقية، فبعثت « بونمكين » لحرب تركيا فى عام ١٧٨٦م، ونعمت بعده بعاشق آخر اسمه « زبوف الصغير ». ولما عاد بونمكين طلب منها أن تصرف الشبان من حولها، فرفضت، فعاد إلى الحرب وتركها، ولما بلغت سن الخامسة والستين فى عام ١٧٩٤م تذكرت عشاقها الاثنى عشر. والثالث عشر الأخير، وكأنها ندمت على ماضيها المخزى. « المرجع السابق، وكتاب الفاتنات لحبيب جاماتى ».

١٣ – فيكتوريا ملكة بريطانيا « ٢٠ من يونيه سنة ١٨٣٧م » تولت وسنها ١٩ سنة، وأحبت « لورد ملبورن » ثم أرغمها خالها « ليوبولد » ملك بلجيكا على الزواج من ابنه « البرت » وقد سعدت به أخيرا بعد تمنع وكبرياء، ثم مات فقربت إليها من تشاء من الرجال، ومنهم « دزرائيلى »، « جلادستون » وماتت بعد أكثر من ٨٠ عاما.

ومن أخبارها أنها أحبت فيمن أحبت « براون » سائس أحد الاصطبلات وشاع غرامها به نحو ٣٤ سنة، ودفنته فى مقبرة عليها عبارات تقدير وثناء منها، وقيل: إنها تزوجته بعد وفاة زوجها الأمير « ألبرت ». وحذرها ابنها أمير « ويلز » من هذه العلاقة. وكانت قد تعرفت على « براون » عندما كان صبيا فى اصطبل بمزرعة « بالمورال » التى اشتراها الملك لها، وأعجبت بذكاء براون، وذلك سنة ١٨٤٨م فاتخذته سائسا خاصا لحصان الملكة سنة ١٨٥١م. وزاد إعجابها به لما تعثر جوادها فحملها هو على ذراعيه وهى تحيط عنقه بذراعيها حتى انتهى من الطريق الوعر.

وفى سنة ١٨٥٨م أصبح هو المرافق الخاص لها فى جولاتها داخل

اسكتلنده. ولما غار ابنها من هذه العلاقة وعاكسه كانت أمه فى صف براون. وكانت بنتها على نقيض أخيها تميل إلى براون، واسمها «أليس» لكن أمها منعتها من مشاركتها فيه.

ولما فارقت الملكة قصر «بالمورال» إلى قصر «وندسور» فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٥٨م، لم تعد تراه منذ ذلك الحين، ولما مات زوجها فى ديسمبر من العام نفسه حنت إلى «براون».

وفى صباح من ربيع سنة ١٨٦٣م لمحته من قصرها بجوار جوادها. وكانت الأميرة «أليس» قد استدعته من اسكتلنده دون علم أمها بذلك، فهشت له. ومنذ هذه اللحظة ولمدة ٢٠ سنة قويت علاقتها به. حتى توفى فى مارس ١٨٨٢م وعمره ٥٦ سنة، وتوفيت بعده بعشرين سنة [١] أى فى سنة ١٩٠٢م واليزابيث الأولى ملكة بريطانيا (١٥٣٣ - ١٦٠٣م) ماتت ولم تتزوج.

هذه نماذج من الملكات تعطينا صورة حياتهن يقينا بأنهن لا يصلحن للولاية العامة، وما يقال من نجاح بعض النساء اللائى هن الآن على قيد الحياة، فإن ذلك مجاب عليه بما ذكره البهى الخولى فى كتابه الذى أشير إليه من قبل.

(د) تولى المرأة الوزارة:

الوزارة من الولايات العامة، لأنها نيابة عن الحاكم العام، وقد اشترط العلماء فيها الذكورة، كما اشترطوها فى غيرها. وما قيل فى رياسة الدولة يقال هنا.

جاء فى كتاب «الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٧»: ولا يجوز أن تقوم بذلك، أى الوزارة، امرأة، وإن كان خبرها مقبولا، لما تضمنه من معنى الولايات المصروفة عن النساء، لقول النبى ﷺ «ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة» ولأن

---

(١) دافيد دوف - أهرام ٢٢، ٢٣/٨/١٩٦٤م.

فيها من طلب الرأى وثبات العزم ما تضعف عنه النساء، ومن الظهور فى مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور . ا هـ .

وهذا فى وزارة التنفيذ، أما وزارة التفويض التى هى أشبه برياسة الوزارة فالمنع من باب أولى . وبعض الوزارات فيها ما يتطلب مواصفات خاصة فى الرجل لأهميتها وخطورتها، كوزارة الخارجية فى ديبلوماسيتها المعروفة، والتى تتطلب عناية خاصة بأسرار الدولة، لحسن علاقتها بالدول الأخرى، وليس كل رجل يصلح لها ولا لكثير من أجهزتها .

فهل تستطيع المرأة بوجه عام أن تؤدى هذه المهمة، وهى المعروفة بعدم ائتمانها على الأسرار، وعدم دقتها فى الإدلاء بالأحاديث، وعدم يقظتها عند إحاطتها بالأسئلة وتكاثرها ممن يحرصون على معرفة الأسرار . وذلك عند أكثرهن، وإن كانت هناك شواذ فهى لا تنقض الحكم على العموم .

وإلى جانب أن الواقع يؤيد ذلك، ذكر القرآن الكريم خبر إفشاء السر من بعض زوجات النبى ﷺ ﴿ **وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ** ﴾ [التحريم : ٣] وولى عمر بن الخطاب قدامة بن مظعون على الكوفة، وأمره ألا يخبر أحدا بذلك، فأخبر به امرأته، فنشرت الخبر فى المدينة بسرعة، حتى وصل إلى عمر، فسلب منه الولاية قبل أن يسافر ليباشر عمله فيها « محاضرات الأدباء ج١ ص ٧٥ » .

فليس من الحكمة تولية المرأة أمثال هذه المناصب الدقيقة، وإن كان المسلمون لم يحترموا هذا الهدى فخرجوا عليه كما خرجوا على كثير من نظم الدين [١] .

---

(١) فى مصر عينت الدكتورة حكمت أبو زيد وزيرة للشئون الاجتماعية كأول وزيرة فى عهد جمال عبد الناصر . ثم تعاقبت على الوزارة الدكتورة عائشة راتب والدكتورة آمال عثمان .

وفى العراق عينت لأول مرة الدكتورة نزيهة الدليمى وزيرة للبلديات ١٩٥٩م وبعدها عينت الدكتورة سعاد خليل إسماعيل وزيرة التعليم العالى والبحث الاجتماعى، وفى السودان =

(هـ) قيادة الجيوش :

إذا كان الإسلام لم يفرض الجهاد المسلح على المرأة للاعتبارات التى ذكرت فيما قبل، فكيف يسوغ لها أن تطالب بأن تكون قائدة للجيوش، غير مكتفية بأن تجند فى صفوف المقاتلين؟

إن الحكم واضح لا يحتاج إلى أكثر مما سبق أن ذكرناه فى الصفحات السابقة، وحديث منعها من الولاية العامة إن لم يتناولها هنا، فإن أحاديث وضع الجهاد عنها كافية، وإن لم يكف كل ذلك فتكوينها الطبيعى يناديها فى صمت ناطق : اتركى هذا المجال لأربابه، أخشى عليك أن تشغلى بالبكاء على القتلى والجرحى عن تدبير الهجوم والكر وضبط المعركة.

فى بعض الأقوال الحديثة : دموع النساء أسلحة قاطعة، ومع ذلك لا تكلفهن خوض غمار الحروب [1].

(و) القضاء :

جرت مناقشة حول اشتغال المرأة بالقضاء، فى مجلس الخليفة عضد الدولة، قديما، كما جرت حديثا فى الأوساط القانونية والسياسية والشرعية، تطبيقا لمبدأ

= عينت السيدة أم سلمى سعيد نائبة لوزير الشباب والرياضة ١٩٧٧ ثم تولت الدكتورة فاطمة عبد المحمود منصب وزيرة الشئون الاجتماعية، ثم نائبة لوزير الرعاية الرياضية. وفى سوريا عينت الدكتورة نجاح العطار وزيرة للثقافة، وفى الأردن عينت السيدة أنعام المفتى وزيرة للتنمية الاجتماعية وهى المرة الأولى لتوزير امرأة فى الأردن «ملحق القبس ٣١ / ١٢ / ١٩٧٩».

ودخلت المرأة العربية السلك الدبلوماسى حوالى ١٩٥٤م، وكانت أول امرأة هى السيدة / يسرية الخرجة العراقية، التى وصلت إلى منصب قنصل سنة ١٩٦٣، وأول ملحقة دبلوماسية فى السلك السياسى المصرى هى / هدى المراسى، تسلمت عملها فى باريس فى أبريل ١٩٦٣، وهى خريجة كلية آداب عين شمس «القسم الفرنسي» ١٩٦٠م «أهرام ١٤ / ٤ / ١٩٦٣» والدكتورة عائشة راتب عينت سفيرة فوق العادة فى الدانمارك فى أكتوبر ١٩٧٩ ممثلة لجمهورية مصر العربية. تخرجت فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ١٩٤٩ وعينت ثانى وزيرة للشئون الاجتماعية فى توفمبر ١٩٧١ .

(١) الأهرام ٨ / ١١ / ١٩٥٩ «قالوا عن المرأة».

المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات على المعنى الذى يريده المشجعون لهذه المساواة.

وخلاصة الآراء الفقهية فى هذا الموضوع ثلاثة [1]:

الرأى الأول :

وهو رأى الجمهور، وعليه الأئمة مالك والشافعى وأحمد، أنه لا يجوز للمرأة أن تتولى القضاء. واستدلوا على ذلك بالحديث الوارد فى تنصيب المرأة ملكة وربط عدم الفلاح به كما مر ذكره، وإذا كانت ولايتها العامة ممنوعة فهى فى القضاء أولى. وقالوا: إن القضاء فيه مخالطة للخصوم من الرجال، ولا يجوز للمرأة مخالطتهم.

وقد نوقش هذا الدليل من قبل، وبهذا لم يسلم الاستدلال به. واستدلوا أيضا بما استدل به ابن تيمية حيث ذكر الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه «القضاة ثلاثة» والنص فيه على لفظ «رجل ورجل ...» حيث قال: هو دليل على اشتراط كون القاضى رجلا، وذلك أنه يدل بمفهومه على خروج المرأة.

قال ابن حجر فى «فتح البارى»: وقد اتفقوا على اشتراط الذكورة فى القاضى إلا عند الحنفية، واستثنوا الحدود. وأطلق ابن جرير، وقال الماوردى فى الأحكام السلطانية «ص ٦٥» عند الحديث عن اشتراط الذكورة فى ولاية القضاء: وأما المرأة فلنقص النساء عن رتب الولايات وإن تعلق بقولهن أحكام.

الرأى الثانى :

جواز قضائها مطلقا فى كل الأمور، ونسب هذا الرأى - كما فى الأحكام

---

(١) ملخصة من كلام الشيخ محمد فرج السنهورى فى حديث بإذاعة القاهرة صباح الأربعاء ٢١ من ذى الحجة ١٣٧٤ (١٠/٨/١٩٥٥م). ومن بحث الدكتور محمد رأفت عثمان فى مجلة الأزهر عدد صفر ١٣٩٢ هـ. ومن كلام آخرين وكتب متعددة.

السلطانية للماوردى وغيره - إلى ابن جرير الطبرى. وحجته أن الأصل أن كل من يتأتى منه الفصل بين الناس فحكمه جائز، إلا ما خصصه الإجماع من الإمامة الكبرى. والمرأة كالرجل صالحة فى الأصل لتولى الأحكام والفصل بين الناس، وهذا حكم عام لا يخصصه إلا نص، وقد ورد النص فى حديث النهى عن تولى الإمامة الكبرى، وتم الإجماع على العمل بذلك، وما دام النص لم يستثن إلا الإمامة الكبرى وجب بقاء الأصل على حاله من الجواز. ولا مانع شرعا من فصل المرأة فى بعض المنازعات فلا مانع من قضائها.

ورد هذا الرأى بأن شهادتها إذا كانت على النصف من الرجل للمعنى الوارد فى القرآن. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فهى لا تستقل بالحكم الذى هو نتيجة للشهادة، التى لم يكن لها أن تستقل بها إلا فى أحوال خاصة، وهى، وإن كانت عند تحمل الشهادة قد تكون مثبتة، إلا أنها عند الأداء قد تضل.

وعلق الماوردى فى «الأحكام السلطانية ص ٦٥» على هذا الرأى بقوله: ولا اعتبار بقول يرده الإجماع، مع قول الله تعالى ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ يعنى فى العقل والرأى، فلم يجز أن يقمن على الرجال.

هذا، ونص أبو بكر بن العربى على أن نسبة هذا القول إلى ابن جرير كاذبة، كما قال الشيخ محمد الخضر حسين [١].

كما استدل القائلون بهذا الرأى، بأن بعض البلاد الإسلامية ولت المرأة القضاء قديما وحديثا، مثل:

(أ) ثمالة أو ثملى، قهرمانة أم الخليفة المقتدر، التى كلفتها بأن تجلس

---

(١) الأهرام ٢٧/٦/١٩٥٣.

بالرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم، وكان يحضر مجلسها القضاة والفقهاء [1]. وقد تقدم الحديث عنها.

(ب) صابحة، تولت القضاء فى العراق. وهى بنت الشيخ داود وأول امرأة عربية شغلت هذه الوظيفة. توفيت فى نوفمبر ١٩٧٥ [2].

(جـ) أمل الشيمى. تولت القضاء فى تونس [3].

(د) مس روزما أحمد، تولت القضاء فى جاكارتا بأندونيسيا [4].

(هـ) حميدة زكريا خريجة حقوق القاهرة أول قاضية عربية فى القضايا الجنائية والمدنية والأحوال الشخصية فى اليمن الجنوبى «مجلة العربى نوفمبر ١٩٧٥».

ويرد على هذا بأن عمل هؤلاء لا يعد حجة، لأنهم ليسوا من عصر الرسول، ولا من عصر الخلفاء الراشدين الذين وصانا الرسول ﷺ باتباع سنتهم. وبناء هذا الرأى على تطبيق المساواة بين الرجل والمرأة فى الولايات العامة كالمساواة فى الولايات الخاصة، وهو مردود بما سبق بيانه من أن طبيعة المرأة تمنع المساواة مع الرجل فى كل شئ.

الرأى الثالث:

جواز قضائها فيما تصح فيه شهادتها، وذلك فى القضاء التجارى والمدنى، وفى الجنايات التى فيها التعزير، لا فى الجنايات التى فيها حدود مقررة، كالقتل والزنى والسرقة، فإن شهادتها لا تجوز فيها.

وهذا الرأى وسط بين الرأيين، وهو منسوب لأبى حنيفة، روعى فيه رقة عواطف المرأة، وضعف أعصابها فى الأحوال الأخيرة التى تؤثر عليها أشد التأثير.

---

(١) تاريخ أمراء المؤمنين للسيوطى ص ٢٥٣، البداية والنهاية ج١١ ص ١٢٧، ١٢٨.
(٢) الأهرام ٩/٦/١٩٦٤، أخبار اليوم ٢٢/١١/١٩٧٥.
(٣) الأهرام ٢٢/١١/١٩٦٦.
(٤) الأهرام ٨/١١/١٩٥٩.

قال أبو بكر بن العربى : مراد أبى حنيفة ولايتها فى جزئية، لا أنها يصدر لها « مرسوم » بأنا ولينا فلانة فى الإقليم الفلانى لتحكم بين الناس . فمن استدل بذلك فقد استدل بزور على غير حق (١) .

ووضح بعضهم رأى أبى حنيفة هذا فقال : هناك مسألتان، أولاهما تولية المرأة منصب القضاء، وهو غير جائز، بمعنى لا يجوز للحاكم أن يوليها هذا المنصب، وذلك كرأى الجمهور، بدليل الحديث المروى فى الولاية العامة، وثانيتهما نفاذ حكمها لو وليت، فقالوا : إذا أثم الحاكم فى توليتها فحكمت فإن حكمها ينفذ إلا فى الأمور التى لا تصح شهادتها فيها، وهى الحدود والقصاص، يراجع : فتح القدير « للكمال بن الهمام » ج٥ ص ٤٨٦ (٢) .

وأرى : أنه على فرض قبول رأى أبى حنيفة أو الطبرى، فإن الأولى للمرأة ألا تشغل نفسها بهذا العمل، الذى يحتاج إلى فكر دقيق لا تتحمله إلا الأعصاب القوية، ويحتاج إلى وقت طويل للدراسة والإعداد لإصدار الأحكام، وأولى للمرأة أن تنصرف إلى مهمتها الأصلية التى هيأها الله لها، مع عدم وجود ضرورة لتوليها القضاء، فالرجال الأكفاء كثيرون : وهم أقدر منها بلا شك، ذلك أن المرأة تتعرض إلى تغيرات نفسية كثيرة، لما يعتريها شهريا وغير شهرى من تغيرات بيولوجية، وقد أوصى الفقهاء ألا يحكم القاضى وهو متأثر النفس بما يؤثر بالتالى على عدالة الحكم وصواب الرأى، كأن يكون غاضبا أو جائعا أو محتاجا إلى النوم، أو حاقنا أو حاذقا بما يضغط عليه داخليا ويقلقه . . وهكذا .

ومن طريف ما يحكى عن عواطف المرأة وعدم لياقتها للمواقف الجدية العادلة المنصفة :

(أ) أنه لما طلبت الفرنسيات أن يكن قاضيات، استغل أحد المحامين رقة عواطفهن، فأخذ عندمرافعته يبكى ويتباكى، حتى أخذت القاضيات المناديل،

---

(١) محمد الخضر حسين فى أهرام ٢٧ / ٦ / ١٩٥٢ .
(٢) مجلة الأزهر عدد صفر ١٣٩٢ .

ومسحن الدموع، وحكمن عواطفهن قبل أن ينتهى الدفاع، فكن موضع العجب.

(ب) السيدة « ليبرتنبه أماثلا » رئيسة وفد « ناميبيا » فى الملتقى الأول للنساء العربيات والافريقيات، الذى عقد فى الجزائر سنة ١٩٧٤ . عندما ألقت كلمتها لتبين ما يلاقيه شعبها من مآسى الاستعمار، بكت وغادرت المنصة، وكان جميع نساء الوفود الأفريقية يبكين أثناء إلقاء كلمتها، فأسرعت إليها السيدة « ماريكا عمرانى » حرم المحامى « على بومنجل » أول شهيد جزائرى، وقبلتها، وظلت الاثنتان تبكيان بحرقة (١).

وبعد .

فهذه هى المساواة التى تطالب بها المرأة، وهذه هى الحقوق التى نادت بها، وكونت من أجلها جمعيات، وبذلت جهودا كبيرة، أكتفى بالحديث عنها دون ذكر مطالب أخرى، فهى إما واضحة البطلان، وإما مثيرة للضحك، وشر المصائب ما يضحك.

إن نساء روما طالبن البابا بحذف عبارة « أطيعى زوجك » من مراسم الزواج لأنها تجرح شعور المرأة وتخدش كبرياءها يوم زفافها، على أن هذه العبارة ربما كانت مقبولة عندما كانت سعادة الحياة الزوجية قائمة على طاعة الزوجة لزوجها، أما بعد بناء السعادة على التفاهم بين الزوجين فلا بد من تغيير الألفاظ القديمة (٢).

لقد تمادت المرأة الحديثة فى المجتمع الإسلامى فى التنكر لدينها ولغتها وعاداتها، فطالبت بحذف « نون النسوة » من الكلام العربى، لتتم المساواة بين الجنسين. فهل بعد ذلك من هذيان؟.

---

(١) جريدة القبس الكويتية ٢٦ / ٣ / ١٩٧٤ .
(٢) الأهرام ٥ / ١٢ / ١٩٦١ .

أولى لنشاط المرأة، كما قدمت، أن يكون فى انتشال بنات جنسها من وهدة الجهل، ومن التردى فى مهاوى الرذيلة، ومن استغلال الرجال لأنوثتها فى مجالات تذهب بالشرف، أولى لها أن تحارب إدمان المرأة الخمور أو ما يشبهها، وأن تربى فيها احترام القيم والتمسك بأهداب الفضيلة والغيرة على الدين، أولى لها أن تبذل نشاطها فى أمثال هذه الميادين، فهو النشاط المنتج حقا، وأن تبتعد عن مزاحمة الرجال، فكفى ما هم فيه من آلام فى كفاحهم المر من أجل الحياة، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه، وكل ميسر لما خلق له، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون، وصدق رسول الله ﷺ فى قوله الحكيم «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخارى عن أبى مسعود.

إن المسلم ليخجل عندما يرى المرأة فى نشاطها الحاضر لا تدعو إلى فضيلة، بل بالعكس تدعو إلى رذيلة، يصور لها فهمها القاصر أنها فضيلة وضع معيارها تطور العصر، لا صلة لها بالدين، أليس من المؤلم أن يذهب وفد من نساء مصر إلى مؤتمر «نساء غرب أفريقيا» الذى عقد فى غينيا سنة ١٩٦١م، وجاء فى الأخبار أن إحداهن قامت بتعليم سيدات المؤتمر رقصة «الدبكة»، ولم تتخل عن لبس عمامتها البيضاء التقليدية. أهذه هى رسالة المرأة فى هذا المؤتمر؛ تعليم الفساد وتشويه سمعة مصر والإسلام.

يبدو أن الدين أصبحت فكرته مشوهة. وأن الفضائل صارت مسخا من أفكار تقدمية، لا بل أفكار تأخرية، لأنها عود إلى الجاهلية الأولى، والمرأة والرجل فى هذا سواء، ففى المصدر السابق «أهرام ١٦ /٨/ ١٩٦١» أن الرئيس «سيكوتورى» الشيخ تورى - أقام حفلا لنساء هذا المؤتمر فى بيته، وافتتحه برقصة مع رئيسة المؤتمر، فهل يرجى الخير مع وجود هذه الأفكار، أو على يد هؤلاء الأدعياء.

* * *

الفصل الرابع

أضواء على النشاط النسوى فى العالم الإسلامى

المقصود من هذا الفصل هو إلقاء نظرة عامة على بعض النواحى لنشاط المرأة فى العالم الإسلامى، وليس المقصود منه هو الاستيعاب الشامل، ولا التاريخ المتكامل، فهو مجرد أضواء تلمع هنا وهناك فى سماء العالم الإسلامى، تكشف لنا صورا من نشاط المرأة، مع العناية بما كان فيه من ثورة على الأوضاع القديمة، ومجاراة للمرأة الغربية فى سفورها واندماجها فى الحياة العامة، اندماجا مس القيم الدينية والأخلاقية.

وقد استقيت كثيرا من المعلومات فى هذا الفصل، الخاصة بالنشاط الحالى، من مصادر متنوعة ككتب الرحالة، والتحقيقات الصحفية، والأخبار العامة التى تنقلها وسائل الإعلام المختلفة، والعهدة فيها على هذه المصادر، مع التنبيه على أن التغير يطرأ كثيرا على أوضاع أثبتها هنا فى حينها، ثم جاءها تعديل بأى نحو من الأنحاء، وبخاصة فى أسماء القيادات التى ظهرت فى هذا التغير، على أن ذكرى لأسماء بعض القيادات لا يعنى غمط حق الأسماء الأخرى التى قد يكون نشاطها أبرز، ولكنه هو الذى عثرت عليه فى المصادر التى قد يكون فى بعضها تضارب أو عدم توافق. فالمرجو مراعاة ذلك.

وسأبدأ بالحديث عن دول كل من القارتين الكبيرتين اللتين تضمان كثيرا من المسلمين وهما آسيا وأفريقيا، فليكن البدء بتركيا التى كانت زعيمة العالم الإسلامى بخلافتها العثمانية التى أطاح بها أتاتورك، ثم أثنى بمصر التى تأثرت بالاحتلال أو الغزو الفرنسى والإنجليزى فى وقت مبكر، وكان لهذا الغزو أثره فى المرأة على ما سبق بيانه فى أسباب السفور، ثم أذكر ثالثا «فارس» التى كانت بما تضم تحتها من مناطق ظهرت أخيرا فى شكل دول، من أكبر الدول ذات العلاقة بتركيا مركز الخلافة.

١ - تركيا :

لقد سبق الحديث فى الفصل الخاص بأسباب السفور، عن الحريم وصرامته فى تركيا وآثاره السيئة على المرأة والأولاد والمجتمع كله، وبينا أن سبب هذه الشدة فى معاملة المرأة لدى البلاط العثمانى بالذات هو سوء فهم الدين، ومحاولة تشبه السلاطين بالرسول ﷺ فيما خصه الله به من مزايا تكريمية لنسائه بحجب شخوصهن عن الأبصار، حتى لو لم يظهر من أجسامهن شئ، وذكرنا أن قسوة المعاملة جعلت النساء يتطلعن إلى الانفلات من هذه القيود، والخروج من السجن المظلم إلى ساحة الحياة بنورها الوضاء، وكانت الأميرات الأسيرات فى قيود الحريم أول من شجع حركة التمرد والتحرر من السفور فى مصر بالذات.

إن المرأة العادية فى تركيا لم تسفر بشكل عام إلا بعد حركة التحرير التى قام بها « أتاتورك » ليلحق تركيا بأوروبا فى التقاليد، وأسرف هو فى حركته. كما أسرف النساء فى التقليد، وسرت هذه العدوى إلى الدول التى كانت لها صلة بالدولة العثمانية.

يقول الباحثون: يبدو أن شخصية أتاتورك كانت توحى إليه بتحرير المرأة فقد كانت له مغامرات نسوية مشهورة. ذلك أنه منذ أن كان تلميذا كان يعشق النساء، وقد أحب إحداهن وهو مازال طالبا، ثم هجرها. ولما عين ملحقا عسكريا بالسفارة التركية فى « بلغاريا » انغمس فى اللهو، وعشق غانية، ثم هجرها. وأحب بنت الجنرال « كوماتشيف » ولكن غلظة طبعه صرفتها عنه، فأحبت السفير التركى « فتحى »، وكانت له قرينة اسمها« فكرية » تطوعت فى الخدمة العسكرية، وعاشت معه كزوجة تخدمه وتخدم أمه العجوز، ثم مرضت فتخلص منها بإرسالها إلى « ميونيخ » للاستشفاء، وراسلته ولكنه صد عنها، فعاودت المراسلة ولكنه عاد إلى الصد، فانتحرت على سفح تل تقوم عليه داره.

ولما استولى على أزمير وخلصها من اليونان جاءته فتاة مثقفة تسمى « لطيفة » دعته إلى أن يسكن معها فى دارها، فرضى بعد تمنع، وكانت هى واسطة

لمعاهدات بينه وبين فرنسا وإيطاليا، لأنها تجيد اللغة الفرنسية، فتزوجها، غير أن ثقافتها وتعصبها لفكرها، مع عصبيته هو وخشونته، أدت إلى الطلاق. فاشتغلت بالأعمال العامة، وعاد هو إلى النساء كي يبعنه الحب بثمن بخس[1].

وقد انتقد امبراطور ألمانيا «غليوم»[2] حركة السفور فى تركيا، لمنافاتها لمركزها الإسلامى الكبير، فعندما زارها قابله على محطة «الركه جى» تلميذات ناهدات من «سلانيك»، وعندما قصد سوريا لزيارة قبر صلاح الدين تقدمت إليه ثلاث فتيات جميلات بباقة من الزهور، فتقبلها شاكرا بلسانه مع استياء قلبه، وأعلن ذلك لأحد وزراء تركيا وهم على مائدة الطعام، قائلا: إن قوة تركيا لا تقوم على المادة بقدر ما تقوم على صدارتها فى الإسلام، وقال: إن الاختلاط بين الجنسين يكلف مالا كثيرا لا تحتمله تركيا، والمرأة إذا لم تجد المال طلبته بأية وسيلة أخرى. وأظهر أن أوروبا مستاءة من الاختلاط عاجزة عن معالجته، وعجزها راجع إلى قوانينها[3].

أسست السيدة «عفت حليم» رئيسة جمعية المرأة التركية فى مارس ١٩٤٧ م جريدة «كادين جازيتيزى» أى جريدة المرأة، وكان الغرض منها الدفاع عن حقوق المرأة، والخدمة النسائية، ورعاية الأطفال فى الميدانين الثقافى والاجتماعى، والعمل على حماية وتنوير الأتراك المقيمين فى الخارج، والتقريب والاتصال بالمرأة الشرقية، وكان لهذه الجمعية أثرها فى مكافحة الأمية بين النساء.

قام النساء إبان النظام السلطانى بإجادة بعض المهن، كصناعة السجاد، واتسعت حقوق المرأة بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨م. ففتحت لهن المدارس،

---

(١) ومن عشيقاته امرأة تسمى صالحة (زوجة روشان أشرف أناى) وهى جركسية، وزاد مجونه فى قصر (دوله باغه) وغيره بعد استيلائه على الحكم (الرجل الصنم ترجمة عبد الله عبد الرحمن). ولد مصطفى كمال أتاتورك فى ١٣/ ٣/ ١٨٨٠م وتوفى فى ١ من أكتوبر ١٩٣٠م.

(٢) قيل: أنه فلهلم الثانى.

(٣) جريدة الأخبار للفاروقى، ٢٢ شعبان ١٣٤٧ هـ، سوريا.

والتحقن بوظائف الحكومة، وخدمن المجتمع. وعند قيام حركة التحرير فى تركيا آزرن الرجال، فلما قام النظام الجمهورى قامت جمعيات المرأة تطالب بالمساواة بالرجل.

وفى سنة ١٩٢٥ م قابل وفد منهن « كمال أتاتورك » وطلبن منه تغيير القانون لصالح المرأة، ومنع تعدد الزوجات، والمساواة فى الميراث مع الرجل. وقد استجابت الدولة لهن فى المساوة فى الميراث، ثم طالبن بالحقوق السياسية، فنالت المرأة فى سنة ١٩٣٠ م حق الانتخاب، وفى سنة ١٩٣٣م رشحت للبرلمان.

إن « خالدة أديب أيفا » تعتبر فى تركيا مثل « هدى شعراوى » فى مصر. وكانت فى سنة ١٩٥٣م تبلغ سن السبعين، وهى كاتبة سياسية. قابلت فى سنة ١٩٢٠م أتاتورك ، وعملت معه، وعملت أيضا بوزارة المعارف حتى وصلت إلى درجة وزيرة مساعدة. وفى سنة ١٩٢٦ م هربت مع زوجها إلى أمريكا، لاتهامها بالتآمر على « أتاتورك »، ثم عادت إلى تركيا سنة ١٩٣٣، ونشطت فى الأعمال السياسية حتى صارت عضوا بالبرلمان[١]. ويقال إنها كانت سيئة السلوك، وكان زوجها (عدنان أديوار) من أنصارجمعية الاتحاد والترقى، وكانت على صلة غير شرعية بأتاتورك، كما كانت لها ترفيهات فى الجيش، وكانت هى وزوجها من أشد أعداء الإسلام (الرجل الصنم – تأليف ضابط تركى وترجمة عبد الله عبد الرحمن).

يقول الرحالة محمد ثابت فى كتابه « جولة فى ربوع المشرق الأدنى ». طبعة ١٩٣٦م: أن النساء فى جنوب تركيا سافرات كالأجنبيات، وذلك بسبب الانقلاب الاجتماعى. وقال: إن الغازى « كمال » حرم الزواج بغير واحدة، وأباح للشاب انتقاء خطيبته، وحتم تعليم المرأة ومساواتها بالرجل فى العمل، والنساء فى « أنقرة » سافرات يختلطن بالرجال، ولكن فى رزانة وهدوء، ويقول: إن النساء

(١) ايزيس فهمى، فى مجلة المصور. ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٣.

يسرفن فى التزين ويملن إلى الوقار على الرغم من السفور والاختلاط، وهو يمدح المرأة التركية، ويلاحظ أن كثيرا منهن يلبسن « ملاءات » ويضعن فوق الرأس قناعا كالستار، لكنه بدل أن يسدل على الوجه يرفع فوق الرأس... ويقول: فى المقاهى غناء تؤديه نساء يغطين رءوسهن بمنطقة بيضاء.

هذا ما كانت عليه المرأة التركية منذ أربعين سنة تقريبا، فكيف بها الآن؟ إن التطور السريع الذى جرى فى تركيا كفيل بنقل المرأة إلى درجة أعلى فى التمتع بحريتها الواسعة فى الميادين المختلفة، وإذا كان الدين قد طرح جانبا فى مسألة نص عليها القرآن صراحة، وهى عدم مساواة المرأة فى كل حال بالرجل فى الميراث، فكيف بالأمور الأخرى؟ إن الحواجز رفعت من طريقها فلتركض كما تشاء.

من أخبار المرأة هناك تولى السيدة « باهيزبوران » البالغة من العمر ستين سنة، والحاصلة على درجة الدكتوراه فى الاجتماع من أمريكا، رياسة حزب العمال، وهو التجمع اليسارى الوحيد فى تركيا، وكانت عضوا فى مجلس النواب منذ سنة ١٩٦٥ م حتى سنة ١٩٦٩[١].

وفى الوزارة التى تألفت فى مارس ١٩٧١ م عينت أول وزيرة تركية هى الدكتورة الجراحة: « نور كان اكيسول ». فعينت وزيرة للصحة والشئون العامة. وتشغل المرأة التركية وظيفة « عمدة » أيضا مثل « ليلى أتاكا » عمدة أزمير، وقد توفيت أخيرا. « عديلة عايدا » تعمل مستشارة سياسية فى وزارة الخارجية، وكانت تقوم بعمل الوزير فى سفارة تركيا بالفاتيكان فى حال غيابه[٢].

٢ - مصر:

بدأ التفكير فى إصلاح المرأة المصرية على أثر الأفكار التى جاءت بها بعثة

---

(١) الأهرام ٢ / ١١ / ١٩٧٠.

(٢) أمانى فريد فى مجلة الشبان المسلمين مايو ١٩٧١م.

« محمد على » إلى أوروبا، فرأينا أحد أفراد هذه البعثة وهو « رفاعة الطهطاوى » يدعو إلى تعليم الفتاة حتى تحسن إدارة البيت، وتستطيع أن تكسب ما يساعدها ويساعد زوجها، وحتى تشغل الفتاة عن الفراغ وما يلازمه من أقاويل وأوهام وغيرها.

ورأينا « على مبارك » يكتب كتابا فى المطالعة والتهجى طبع سنة ١٢٩١ وطبع ثانيا سنة ١٨٧٤م فيه فصول عن المرأة وحسن معاشرتها، وعن تعليم البنت حاجات المنزل وواجبات الزوجية، وعن تعدد الزوجات وتقييد الطلاق، ومن هذا الكتاب اقتبس « قاسم أمين » أفكاره، وكان يتعلم بالمدارس الابتدائية فى الإسكندرية إذ ذاك وسنه ثمان سنوات، ويقرأ هذا الكتاب الذى كان مقررا سنة ١٨٧٠م.

وكذلك كتب الشيخ « محمد عبده » فى جريدة « الوقائع » سنة ١٨٨١م عن الزواج والتعدد، الذى أجازه عند الضرورة وبشرط العدل، ونعى على التعدد الموجود فى زمانه، وتأثر بذلك قاسم أمين.

وفى عهد اللورد « كرومر » مندوب انجلترا على مصر من سنة ١٨٨٣ — ١٩٠٨ م نشر « دوق داركور » كتابه « مصر والمصريون » الذى تقدم الحديث عنه فيما سبق، وتولى الرد عليه قاسم أمين.

وأول تفكير للاهتمام بالمرأة كان فى تعليمها تعليما يلائمها، وكان ذلك فى عهد « محمد على » ثم عهد إسماعيل، على ما مر ذكره من قبل، وكانت البنت تذهب إلى المدرسة الابتدائية التى أنشأها على مبارك وهى سافرة، حتى إذا بلغت ثنتى عشرة سنة ذهبت بالبرقع. وخريجات هذه المدرسة لم يكن يلتحقن بعمل، فكان التعليم لمجرد التثقيف الذى يساعد المرأة على أداء واجباتها المنزلية.

ثم نشطت حركة التحرر النسوية على أثر كتابات قاسم أمين، كما مر ذكره من قبل فى الفصل الخاص بالدعوة إلى السفور، وكثر الكتاب فى هذا المجال، وكان أمثال « سليم سركيس » يكتب مقالات فى الصحف بأسماء نسائية

مستعارة. ودخلت المرأة معترك الحياة خارج المنزل، ونشطت فى خدماتها الاجتماعية، وكان بدء ذلك بإشراف نساء الأسرة المالكة.

ففى سنة ١٩٠٩ أنشئت «مبرة محمد على الكبير» تحت رعاية «عين الحياة» وأعضاء من الأسرة المالكة، وكانت مهمتها أولا هى العناية بالأطفال، وأنشأت عدة مستشفيات لهذا الغرض، وكان يتولى رياستها أميرات البيت المالك حتى سنة ١٩٤٠ حيث تولتها الأميرة «شويكار». وفى سنة ١٩٤٧م تولتها الأميرة فوزية بنت فؤاد، وهى الآن تحت إشراف الحكومة.

واشتركت المرأة المصرية لأول مرة فى الحركة الوطنية، وحضرت السيدات اجتماع الحزب الوطنى فى دار «اللواء» سنة ١٩٠٧ م[١].

وفى سنة ١٩١٠ م قامت ملك حفنى ناصف تنادى بوجوب النهوض بالمرأة على أن تكون رسالتها الأولى فى البيت، ولكن يجب تعليمها وتهذيبها ليمكن أن تشارك فى الحياة العامة بما لا يتعارض مع الدين ولا مع وضعها الطبيعى، وفى هذه السنة عقد مؤتمر فى «بروكسل» فى شهر سبتمبر حضرته السيدة: «انشراح شوقى» لاطلاع أوروبا على حقيقة الاحتلال وحقيقة الحركة الوطنية فى مصر[٢].

ولما كانت «ملك حفنى ناصف» من رواد النهضة النسوية سأذكر لها ترجمة موجزة فيما يلى:

باحثة البادية ملك حفنى ناصف:

ولدت بالقاهرة يوم الاثنين ٢٥ من ديسمبر ١٨٨٦م، وسماها أبوها «المفتش الأول بوزارة المعارف» بهذا الاسم تيمنا باسم السلطانة «ملك» التى كانت تزف، يوم ولدت، إلى السلطان حسين كامل.

---

(١) بثنية الطويل المحامية. أهرام ٦/ ١٠/ ١٩٦٣م.
(٢) أهرام ١٨/ ٦/ ١٩٥٦.

دخلت المدرسة السنية فى أكتوبر ١٨٩٣م. وسمح للبنات بدخول امتحان الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠م، فكانت أولى الناجحات بها، ثم دخلت قسم المعلمات لمدة ثلاث سنوات، ونالت الدبلوم، واستمرت فى التدريب سنتين «١٩٠٣ - ١٩٠٥م » فعينت مدرسة بالقسم نفسه، ثم تركت المدرسة سنة ١٩٠٧ م للزواج من عبد الستار الباسل رئيس قبيلة الرماح، ولم تهنأ بهذا الزواج، فقد كان متزوجا بإحدى قريباته ولم يعلم « ملك » بذلك، ثم طلقها وتربت بنته منها مع « ملك » ولكنه كان على اتصال بهذه القريبة المطلقة. وساءت معاملته لملك عندما لم ينجب منها، وقد تبين بعد فحوص طبية وعملية جراحية أن العقم منه بعد إنجاب بنته الأولى، كما يقول أخوها مجد الدين فى كتابه: تحرير المرأة فى الإسلام ص ٤٣، واستمرت تعانى ألم هذه المعاملة السيئة حتى اشتدت عليها الحمى، وهى فى زيارة أخيها الذى كان متهما سياسيا، فتوفيت فى أكتوبر سنة ١٩١٧م وسنها ثلاث وثلاثون سنة، وتوفى والدها فى فبراير ١٩١٩م ورثاها حافظ إبراهيم بقوله:

سادت على أهل القصور وسودت أهل الوبر

كما أبنتها النساء فى الجامعة فى حفل برياسة هدى شعراوى.

كانت تجيد اللغتين الأنجليزية والفرنسية، وكانت شاعرة مجيدة، دعت إلى تعليم المرأة، ونشرت مقالات كثيرة حول هذا الموضوع فى « الجريدة ». وبدأت تنشر قصائدها الشعرية ولم تتجاوز الثالثة عشرة سنة، وكان أول ما نشر لها من الشعر فى جريدة « المؤيد » داعية إلى المساواة بين الرجل والمرأة، ومقررة أن الإصلاح لا يكون طفرة، وكان مطلع هذه القصيدة:

بشرى لمصر فقد نالت أمانيها وأنجح الله بالحسنى مساعيها

وقالت فى النهى عن الطفرة:

لا تطفروا، بل أصلحوا فتيانكم وبناتكم وتسابقوا للأليق

ومن قولها فى الطلاق :

اليــوم عــرس باهظ نفــقــاته وغــدا تقــام قــضــيــة لمطلق

ومن قولها فى السفور :

هــل تطلبـون من الفتـــاة ســفـورها ؟ حسن ، ولكن أين بينكم التقى ؟

تخشى الفتـــاة حبـــائلا منصــوبة غــشيـتـموها فى الكلام برونق

لا تتـقى الفتـيـات كـشف وجـوهـهـا لكن فـسـاد الطبع منكم تتـقى

ومن نشاطها الاجتماعى تكوينها : اتحاد النساء التهذيبى . وقيامها بجمع التبرعات لمنكوبى طرابلس فى حرب الطليان، وتعليمها لكثير من النساء فنون التمريض بمناسبة الحرب الكبرى، وقد حضرت المؤتمر المصرى العام الذى عقده رياض باشا الكبير فى مصر الجديدة سنة ١٩١١ م(١).

نعود إلى الحديث عن حركة التحرر النسوى فى مصر فنقول :

فى سنة ١٩١٤ م « ٣٠ من مارس » وضعت الأميرة « فاطمة بنت إسماعيل » الحجر الأساسى للجامعة المصرية الجديدة بالجيزة . والتحق بها النساء مستمعات، ولم يسمح لهن بالانتساب إلا فى سنة ١٩٢٩م، وقد حاضرت فى هذه الجامعة الآنسة نبوية موسى، كما مر فى ترجمتها من قبل(٢).

وفى سنة ١٩١٩ م تكونت هيئة النساء الوفديات، للهتاف بأمانى مصر، وقمن بمظاهرة يوم الأحد ١٦ من مارس ١٩١٩م، كما قال الرافعى فى تاريخ

---

(١) تحرير المرأة فى الإسلام لمجد الدين ناصف، أعلام النساء لعمر كحالة.

(٢) كانت الجامعة أولا مؤسسة أهلية ثم تسلمها فى ١٢ ديسمبر ١٩٢٣ وزير المعارف « زكى أبو السعود باشا » رسميا فصارت حكومية « روز اليوسف ١٠ / ١٢ / ١٩٧٣ ».

وكان عدد الفتيات فى الجامعة ٦ فى سنة ١٩٢٨م، وكانت أول مصرية تخرجت منها فى الحقوق « نعيمة الأيوبى » وفى العلوم « عزيزة رضوان » وفى الآداب « سهير القلماوى ». وكان أول تخرج هو فى سنة ١٩٣٠م كما تقول د. لطفية الزيات فى أهرام ٢ / ١٢ / ١٩٧٠، وفى سنة ١٩٥٨ صار عدد فتيات جامعة القاهرة وحدها ٤٧٤٩ « أهرام ٢٥ / ١٢ / ١٩٥٩ ».

المرأة المصرية[١]، وذلك للاحتجاج على ما أصاب الثائرين من قبل، وكان عددهن حوالى ثلثمائة أمرأة[٢]، وخرجن بمظاهرة أيضا يوم ٢٠ من الشهر نفسه. كما تظاهرن فى الشوارع ضد انتخابات «إسماعيل صدقى» وألقين فى السجون، وشفعت لهن «صفية زغلول».

وهذه الهيئة قل نشاطها أو انتهى بعد وفاة سعد زغلول ١٩٢٧م. وبعد وفاة زوجته صفية. ومن جاء بعد ذلك من رؤساء حزب الوفد لم يهتموا بالهيئة المذكورة كثيرا، وكانت رئيستها سنة ١٩٥١م حرم إسماعيل حب الرمان، ثم جاءت ثورة ١٩٥٢م فغيرت كل الأوضاع القديمة. وكانت «هدى شعراوى» عضوا فى هذه الهيئة عند بدء تكوينها، فانشقت عليها، وكونت «الاتحاد النسائى» الذى سيذكر بعد.

وفى سنة ١٩١٩ م أيضا تكونت جمعية المرأة الجديدة، لتعليم الفتيات الأشغال، والقراءة والكتابة. جاء فى مصور ٢٤ سبتمبر ١٩٥٤: أن شريفة هانم رياض بنت حسن باشا راسم وزوجة محمود بن رياض باشا، هي التى أنشأت جمعية المرأة الجديدة، بالاشتراك مع حرم محمد باشا موسى، وحرم راتب باشا، وحرم خياط باشا، وذلك لتعليم الفتيات الصغيرات، ولكن الجمعية تطورت، وبدأت تدعو إلى اشتراك المرأة فى الثورة، فعقدت اجتماعا نسويا فى الكنيسة

---

(١) أهرام ١٨/ ٦ /١٩٥٦.

(٢) استشهد فى المظاهرة «حميدة خليل» فى يوم ١٤ مارس، كما تقول بثينة الطويل فى أهرام ٦/ ١٠/ ١٩٦٣، وعندما قام العمال بمظاهرة يوم ١٨ مارس استشهدت «سيدة حسن» من حى المناصرة. وفى ١١ من أبريل من العام نفسه شيعت جنازة ١١ قتيلا، منهم السيدة شقيقة محمد من سكان قسم الخليفة، كما يقول الرافعى فى كتابه عن الثورة المصرية، الذى نشرت جريدة الأهرام مقتطفات منه فى ١٨/ ٦/ ١٩٥٦ جاء فيها بعض أسماء المتوفيات فى مظاهرات ١٩١٩م، منهن: أم محمد بنت خالد، يمنى بنت صبيح من مركز منيا القمح. وفى ٢٨ من مارس ١٩١٩ قتلت فى حملة الأنجليز على «دنديط» حنيفة أم عجوة. وماتت ببلدة «تفهنا الأشراف» رقية بنت أحمد متولى وفى كفر الوزير السيدة بنت بدران، وفى مظاهرات ١٥ مارس ١٩١٩ بالفيوم ماتت: نعمات محمد وفاطمة محمود. وفى أسيوط فائقة عبد الله، نجية عبد الله.

المرقسية فى مارس ١٩١٩م لتأليف لجنة السيدات لمساعدة الثورة، وكانت برياستها. وتوفيت فى سبتمبر ١٩٥٤م. أ هـ.

وفى سنة ١٩٢٣ م « ١٦ من مارس » تكون الاتحاد النسائى، أسسته « هدى هانم شعراوى » بعد انفصالها عن هيئة النساء الوفديات، وبعد ذهاب المصريات إلى الاتحاد الدولى بروما سنة ١٩٢٣م(١) وذلك كما تقول « أمانى فريد » سنة ١٩٤٧ فى كتاب المرأة المصرية والبرلمان(٢).

وأهداف الاتحاد، كما ذكرتها هدى شعراوى فى حفل تأبين باحثة البادية ملك حفنى ناصف، هى :

١ – مساواة المرأة بالرجل فى التعليم.

٢ – إصلاح قانون الأحوال الشخصية(٣).

٣ – مساواة الرجل فى الانتخاب والنيابة.

والوسيلة لتحقيق هذه الأهداف هى النشاط فى الدعاية، وإقامة حفلات الاستقبال، وحضور المؤتمرات النسائية الدولية.

وأنشأ الاتحاد لهذا الغرض مجلتين، واحدة بالفرنسية، وأخرى بالعربية سنة ١٩٢٥م. وعقد بمصر المؤتمر النسائى العربى فى ديسمبر ١٩٤٤ لبحث حقوق النساء وقضية فلسطين، وكافح الاتحاد لإدخال الفتاة الجامعة، وأسس مدرسة

---

(١) تاريخ الأحزاب النسائية بمصر – خيرية خيرى، مجلة آخر ساعة ١٧ / ١ / ١٩٥١ م وكان معها فى هذه الرحلة سيزا نبراوى، نبوية موسى، كما يقول مجد الدين ناصف فى كتابه تحرير المرأة فى الإسلام ص ٨٠.

(٢) وكان عدد العضوات المؤسسات ١٢ فى مقدمتهن : شريفة رياض وإحسان القوصى وسيزا النبراوى التى أصدرت باللغة الفرنسية جورنال « الاجيبسيان » لسان حال المرأة المصرية (هدى المهدى – أهرام ٩ / ١٢ / ١٩٩٧٧).

(٣) طالبت بتعديل قانون الأحوال الشخصية سنة ١٩٢٦، وتتلخص المطالب فى : الحد من تعدد الزوجات، الحد من فوضى الطلاق، رفع سن حضانة البنت حتى زواجها، إلغاء بيت الطاعة.

للبنات، وله دار، فيها ناد وقاعة للمحاضرات ومكتبة، وكان عدد أعضائه سنة ١٩٥١ حوالى ١٢٠ سيدة.

وسأذكر ترجمة قصيرة لهدى شعراوى لأنها من كبار الرائدات فى الحركة التحررية للنساء فى مصر، وتأثر بها كثيرات فى الأقطار الأخرى.

هدى شعراوى:

هى هدى بنت محمد سلطان باشا رئيس أول برلمان مصرى وحاكم الصعيد العام، ولدت بالمنيا سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٨٢م). تقول هدى المهدى ولدت فى ٢٣ يونيه ١٨٧٩م وتوفى والدها وسنها خمس سنوات، وكان زواجها بغير علم منها إلا قبيل إعلانه بنصف ساعة وقد كان زوجها على شعراوى وصيا عليها (أهرام ٩/ ١٢/ ١٩٧٧).

وتربت فى القاهرة، تعلمت التركية والفرنسية فى بيت أبيها، ولم تدخل المدارس، تزوجت وسنها ١٣ سنة على شعراوى باشا أحد أعضاء الجمعية التشريعية الذى توفى يوم ١٤ مارس ١٩٢٢م. سافرت إلى عدة بلاد، وساهمت فى جمعية مبرة محمد على، وجمعية المرأة الجديدة، وكانت صديقة لباحثة البادية ملك حفنى ناصف، اشتركت فى ثورة ١٩١٩م. وكان يوم ١٦ مارس من السنة نفسها يوما مشهودا عندما حاصرت القوات البريطانية مظاهرة النساء بقيادتها أكثر من ٣ ساعات وكن نحو ٣٠٠ سيدة.

كانت هدى أول مصرية تنزع الحجاب، وكان ذلك باقتراح سيزا نبراوى[1] وتشجيع زوج بنتها عند العودة فى القطار من الاسكندرية إلى القاهرة بعد حضور مؤتمر روما، ونزعت معها الحجاب زميلاتها ومنهن نبوية موسى.

---

(١) سيزا نبراوى اسمها: زينب محمود مراد - صباح الخير ٦/ ٢/ ١٩٧٥ اشتركت عام ١٩٣١م فى مظاهرة نسائية ضد إلغاء الدستور وعودة دستور ١٩٢٣م، وهى أول من عارضت استخدام القنبلة الذرية فى مؤتمر «انترلاكن» وفى سنة ١٩٥١م أصبحت عضوة فى لجنة أنصار السلام المصرية، كما انتخبت عضوا فى مجلس السلام العالمى «أهرام ١٢/ ٣/ ١٩٨٧م».

ونشرت صورهن في مجلة اللطائف المصورة واعترض عليها الكثير «آخر ساعة ١١/ ١٢/ ١٩٧٤».

وكان ممن أثر في أفكارها قرينة رئيس الوزراء إذ ذاك حسين رشدى. وهى فرنسية كتبت عن مصر كتابين: الحريم المسلمات، المطلقات. وربما كان مما أثر على أفكارها أنها تزوجت صغيرة على الرغم منها، حيث كان على شعراوى يكبرها كثيرا، فانفصلت عنه سبع سنوات، وعادت بعد تهديد أخيها لها أنه لا يتزوج حتى تعود هى إلى زوجها، فعادت إليه، وفكرت في مباشرة النشاط الاجتماعي سنة ١٩٠٩ كما تقول زميلتها سيزا نبراوى في المجلة المذكورة. وأرادت أن تحرر كل النساء من الحجاب، فأنشأت جمعية الاتحاد النسائى العربى سنة ١٩٢٣ م (في ١٦ مارس – ذكرى مظاهرة ١٩١٩م)، وأنشأت المجلتين المشار إليهما، وشاركت في المؤتمرات الدولية سنة ١٩٢٦، ١٩٢٨م. ومن المؤتمرات التى شهدتها: برلين ١٩٢٣، جراتسى ١٩٢٥، باريس ١٩٢٦، أمستردام ١٩٢٧، برلين ١٩٢٩، مرسيليا ١٩٣٣، اسطنبول ١٩٣٥، بروكسل ١٩٩٣٦، بودابست ١٩٣٧، كوبنهاجن ١٩٣٩، انترلاكن ١٩٤٥. جنيف ١٩٤٦ (هدى المهدى – أهرام ٩/ ١٢/ ١٩٧٧) وكذلك في المؤتمر العام للمرأة الشرقية سنة ١٩٣٨ ومؤتمر سنة ١٩٤٦م. توفيت سنة ١٣٦٧ هـ (١٢ من ديسمبر ١٩٤٧م).

ونعود إلى الحديث عن نشاط المرأة فنقول: في ١٩٢٨ تأسست جمعية رعاية الأمهات والأطفال (أهرام ١٩/ ٣/ ١٩٧٥ ص ١٢ – مع المرأة) وفي سنة ١٩٣٦ أنشئت الجمعية النسائية لتحسين الصحة، واهتمت بالأمراض الصدرية ورئيستها «ليلى دوس».

وفي سنة ١٩٣٩ م كونت لجنة من السيدات جمعية الهلال الأحمر، على أثر زلزال تركيا سنة ١٩٣٩، وذلك لجمع التبرعات للضحايا، ورئيسة اللجنة «حرم سرى باشا» من سنة ٣٩ – ١٩٤٩م.

وفى سنة ١٩٤٢ تأسست مبرة الأميرة « فريال » بجهود « سنية هانم عنان »، وذلك لمساعدة الأسر الفقيرة.

وفى سنة ١٩٤٤ م تكون الحزب النسائى الوطنى، برياسة « فاطمة نعمت راشد »، وذلك للمطالبة بحقوق المرأة السياسية، وكانت فى الاتحاد النسائى، ثم انفصلت عنه. وهذا الحزب كان يضم حوالى ٣٠٠ عضو فى سنة ١٩٥١م، وبه جامعيات كثيرات. ووسيلته فى تحقيق أغراضه هى الدعاية، وليس له أثر بارز فى هذا المجال كما تقول « خيرية خيرى »(١).

وفى سنة ١٩٤٩م أنشئ « اتحاد بنت النيل » برياسة « درية شفيق » بنت أحمد شفيق باشا، من زملاء « قاسم أمين »(٢)، وذلك للمطالبة بحقوق المرأة فى الحياة النيابية. ووسيلته كوسيلة الهيئات السابقة فى الاعتماد على الدعاية والحفلات... وكان من آثاره العمل على محو الأمية. وبلغ عدد أعضائه حوالى ٥٠٠ فى سنة ١٩٥١م. وله مدرسة ليلية لمحو الأمية بها حوالى ١٥٠ شخصا إذ ذاك.

ثم قامت أخيرا شابات ثائرات أكثرهن من خريجات الجامعة، يطالبن بحقوق المرأة والنهوض بها ثقافيا واجتماعيا، ومن أبرزهن « أمينة السعيد » التى

---

(١) مجلة آخر ساعة ١٧/ ١/ ١٩٥١.

(٢) بعد حصولها على ليسانس الآداب عملت مدرسة فى كلية البنات بالإسكندرية، ثم مدرسة فى المدرسة السنية، وبعد حصولها على الدكتوراه، رفض عميد كلية الآداب « أحمد أمين » تعيينها بالكلية، فعملت مفتشة بوزارة المعارف. واشتغلت بالصحافة، وأنشأت مجلة « بنت النيل » ١٩٤٥م وطالبت بتعديل قوانين الأحوال الشخصية، ونادت بتقييد تعدد الزوجات وإلغاء بيت الطاعة.

تزوجت من ابن خالتها الدكتور نور الدين رجائى المدرس بكلية الآداب، على صداق قدره ٢٥ قرشا لثورتها على غلاء المهور، وأنجبت منه بنتين (عزيزة، جيهان). وقامت برحلات ثقافية فى أوروبا وأمريكا « مجلة آخر ساعة ٢٤/ ٩/ ١٩٧٥ » طلقت من زوجها وعاشت وحدها فى شقة بالزمالك (٨ شارع صلاح الدين) وتوفيت لسقوطها من الشرفة، حصلت على دكتوراه من السربون برسالة « المرأة فى الإسلام » « أهرام ٢١/ ٩/ ١٩٧٥ ».

تعيب على الجمعيات الأخرى جمودها وخمودها وانحيازها إلى الصالونات . وقد بدأت حياتها الجامعية فى نوفبر ٣٢ وشجعها الأساتذة على الجرأة وكسر التقاليد .

وإلى جانب هذه الجمعيات التى لم تبال فى نشاطها ومطالبها بالدين كثيرا، تكونت « جمعية السيدات المسلمات » فى العقد الرابع من هذا القرن برياسة « زينب الغزالى » وكان الغرض من إنشائها النهوض بالمرأة المسلمة من النواحى الثقافية والأخلاقية عن طريق المحاضرات والدروس، وقد انفصلت عنها بعض السيدات وكون جمعية أخرى بهذا العنوان نفسه . وحلت الجمعية الأولى فى عهد الثورة، لأسباب سياسية .

هذا، وقد ظهرت فى مصر أديبة ذات شهرة كبيرة، تردد على صالونها كثير من الأدباء، وكانت تخصص له يوم الثلاثاء من كل أسبوع، اسمها « مى زيادة » سنة ١٨٨٦ – ١٩٤١م، ولكن نشاطها كان أدبيا محضا، لا صلة له بتطور المرأة ونشاطها الاجتماعى، وكان من رواد صالونها : محمود تيمور، مصطفى الرافعى، طه حسين، العقاد، محمد حسين هيكل، لطفى السيد، وإسماعيل صبرى(١) .

وجاءت الثورة المصرية فى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢م بمبادئ جديدة، فعملت على إعطاء المرأة حقوقها ومساواتها بالرجل، وتخليصها من التخلف الذى عاشت فيه، فقررت فى دستور ١٦ يناير ١٩٥٦ : حق المرأة فى النشاط السياسى، وصدر القانون رقم ٧٣ بجواز تقييد اسمها فى جدول الانتخاب .

وجاء الميثاق الوطنى المعلن فى ٢١ من مايو ١٩٦٢م مؤكدا ذلك فقال : إن المرأة لابد أن تتساوى بالرجل، ولابد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة، حتى تستطيع أن تشارك بعمق وإيجابية فى صنع الحياة .

وبذلك كثر عددهن فى مجلس الأمة، ففازت سيدتان فى انتخابات سنة

---

(١) الأهرام ٢/ ١٢ / ١٩٧٠م.

١٩٥٧، وثمان فى سنة ١٩٦٤ واثنتان سنة ١٩٦٩، وسبع سنة ١٩٧١[١].

ووصلت المرأة إلى منصب الوزير، فكانت الدكتورة «حكمت أبو زيد» أول وزيرة للشئون الاجتماعية ١٩٦٤[٢]. وكانت الثانية هى الدكتورة «عائشة راتب» بالقرار الجمهورى الصادر فى ١١ / ١١ / ١٩٧١. وبعدها الدكتورة آمال عثمان.

وكثرت الجمعيات النسائية فى عهد الثورة، فكان عددها سنة ١٩٥٨ حوالى ١٢٦، منها ٥٤ فى القاهرة : ١١ فى الإسكندرية، ٦١ فى الأقاليم، وكانت أغراضها مختلفة[٣].

وقد قرر المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى فى دورته سنة ١٩٧٠ إنشاء اتحاد نسائى ضمن الاتحاد الاشتراكى، وصدر قرار جمهورى من الرئيس أنور السادات فى ٢٠ مايو ١٩٧١ بتشكيل نظام نسائى فى الاتحاد الاشتراكى «مادة ٨».

ومازال نشاط المرأة يزداد فى كل القطاعات ، وبخاصة فى الشئون الاجتماعية، حتى صار فى الجمهورية حوالى ١٩٠ جمعية، كما صرح بذلك مدير النشاط الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية «كمال حسنى»[٤]. وبرز فى هذا النشاط السيدة «جيهان السادات» حرم رئيس الجمهورية.

٣ – فارس:

كان الحجاب موجودا فى فارس من قبل الإسلام كما تقدم فى ص ٣١. مع التشدد فيه، ويرى بعض الكتاب أن الحجاب عند العرب قد انتقل إليهم من فارس، ولكن كيف لا يكون العكس وبلاد العرب كانت مهد الأديان الحريصة

---

(١) من العضوات البارزات «مفيدة عبد الرحمن» ولدت بالقاهرة سنة ١٩١٤ وتخرجت فى كلية الحقوق سنة ١٩٢٩، وكانت أول محامية أمام النقض، وأول سيدة شغلت منصب عضو مجلس إدارة بنك الجمهورية، (أهرام ٨ / ٦ / ١٩٦٤).

(٢) منبر الإسلام صفر ١٣٨٩ «أبريل ١٩٦٩م».

(٣) جريدة الشعب ٢٧ / ١١ / ١٩٥٨.

(٤) أهرام ٢٦ / ٨ / ١٩٧٠.

على الحجاب، وجاء الإسلام فزاد من حرص الفرس عليه وتمسكهم به، وظلو على ذلك آمادا طويلة، تمسكا بالقديم وتنفيذا لتعاليم الدين، وتشبها بالخلافة العثمانية التى بالغت فيه على النحو المتقدم.

ويحكى لنا الرحالة ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١م) والذى زار مدينة «طبس» بين نيسابور وأصفهان: أن المرأة لا تخاطب إلا زوجها أو قريبها، وإذا ثبت أن رجلا وامرأة لا قرابة بينهما دار بينهما حديث فإن جزاءهما القتل(١).

ويروى التاريخ أنه فى القرن السابع الهجرى جلس على العرش السلجوقى «غياث الدين كيخسرو» وتزوج بأميرة جورجية اسمها «تامار»، وهام بها حبا، وأمر بضرب صورتها على النقود، إلا أن وزيره ذكره بعاقبة ذلك فى نفوس الشعب، فأشار عليه بضرب الشمس رمزا لها، وكان ذلك. وكان العلم الإيرانى إلى الآن عليه الشمس وبجوارها الأسد رمز السلطان. فالعملة والعلم الإيرانيان خلدا هذه القصة، وهى قصة الحب «حسين مجيب فى: فارسيات وتركيات». لكن وجدت بعد ذلك دعوات ضد الحجاب، تحمس لها بعض المفتونين من النساء والرجال، وتطور هذا التحمس حتى أيدته الحكومة، واعترفت بالسفور مظهرا من مظاهر النهضة والتطور.

ومن أكبر دعاته «قرة العين».

وهى أم سلمى بنت الحاج ملا صالح البرغانى، ولدت فى قزوين سنة ١٢٣٠ هـ أو ١٢٣١ هـ من أسرة علمية شيعية، وتزوجت الملا محمد إمام الجمعة، وهو الابن الأرشد لعمها الحاج ملا تقى. وأغراها عمها على الانتماء إلى الطريقة الشيخية. ذهبت إلى كربلاء سنة ١٢٥٩هـ، وبدأت تعلم الرواد، ثم مالت إلى التبتل، وكانت دعوتها إلى السفور فى خطبة لها فى قرية «بدشت»

---

(١) كتاب: الرحالة المسلمون لزكى محمد حسن.

جاء فيها: مزقوا هذا الحجاب الحاجز بينكم وبين نسائكم . . . واصلوهن بعد السلوة، وأخرجوهن من الخلوة إلى الجلوة، فما هن إلا زهرة الحياة الدنيا، وإن الزهرة لابد من قطفها وشمها، لأنها خلقت للضم والشم، ولا ينبغي أن يعد ولا يحد شاموها بالكيف والكم، فالزهرة تجنى وتقطف، وللأحباب تهدى وتتحف .

وكذلك دعت في خطبتها إلى اشتراكية المال وعدم احتكاره . . . إلى أن قالت : ساووا فقيركم بغنيكم، ولا تحجبوا صلاتكم عن أحبابكم، إذ لا ردع الآن ولا حد ولا منع، ولا تكليف ولا حد، فخذوا حظكم من هذه الحياة فلا شئ بعد الممات .

ولما سمع الناس هذا الخطاب علا ضجيجهم، وانصرف عنها الكثيرون، قبضت عليها الحكومة وأمرت بحلق أطراف رأسها، وربطت بقية شعر قمتها بذنب بغل، وأتى بها مسحوبة على هذه الحال إلى المحكمة، وصدر الحكم بإحراقها حية، ولكن الحكومة أمرت بتأخير إحراقها إلى ما بعد موتها، فخنقوها، ثم ألقوها فى النار حتى صارت رمادا، وكان ذلك فى شوال سنة ١٢٦٤ هـ . وكان من رأيها جواز تزوج المرأة بتسعة رجال مرة واحدة[١] .

إن هذه المرأة متشبعة بالمذهب الدينى القديم لما زدك الذى كان ينادى بالشيوعية فى المال والنساء، وانضمت إلى النحلة البهائية التى يحكى لنا المسيو « هيوارت » فى دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية أنها تجوز السفور والاختلاط والكلام مع النساء الذى لا يستحب أن يزيد على ٢٨ كلمة، كما نقله شكيب أرسلان، وكما كانت تدعو بقولها إلى السفور نفذته فعلا، فقد تزينت ووقفت مستعدة للخطبة، وأوحت إلى خادمتين برفع الستار الذى كانت تخطب من خلفه فى مبدأ أمرها، فظهرت كالشمس، ثم قالت، أى بأس فى ذلك، ألست أختكم، ومتى احتجبت أخت عن أخوتها؟

---

(١) أعلام النساء لعمر كحالة .

لقد كان لجمالها أثر كبير فى جذب الناس إلى البهائية، وهددها زوجها بالطلاق لتفانيها فى هذه الدعوة، لكنها لم ترجع، ولما فرت من وجه الاضطهاد إلى بغداد نزلت عند المفتى الألوسى وكان الناس يتهمونها بالسوء، وإن كان الألوسى لم يستطع أن يصدق قول الناس فيها لبراعتها فى التقية التى يقول بها الشيعة(١).

وكذلك كان من دعاة السفور الشاعر الفارسى «عشقى» الذى قتل سنة ١٩٢٣م وهو ابن ثلاثين سنة، كان يقول: الحجاب بلاء يجب التخلص منه، فلا فرق بين امرأة عليها حجابها، وأخرى مدرجة فى كفنها.

ويذكر الأستاذ حسين مجيب فى كتابه «فارسيات وتركيات»(٢): أن «زيبا هانم جميلة» حظية الشاه ناصر الدين، وهبها لرجل من الدولة هو «الحاج حسين» فعاشت معه فى حرية تامة، واستقبلت الزائرات، وقد زارتها «مدام ديولافوا» الكاتبة الفرنسية التى رحلت إلى إيران سنة ١٨٨١ م وصادقتها فباحت لها بأسرار الحياة فى حريم الشاه.

وكانت «زيبا» إحدى ثلاث نساء صحبن الشاة إلى أوروبا، فقصت على الكاتبة أخبار الرحلة، وكل ما خفى على الناس منها، ذكرت أن الشاه لما عزم على الارتحال، وودعه كل الحريم تأثر لمنظرهن الباكى، وعزم على إلغاء الرحلة، ولكن طبيبه الخاص «تولوزان» وبعض الحاشية شجعوه، خوفا من العار عند الأوربيين.

وقالت «زيبا»: إنها لما ذهبت إلى موسكو لم ترها، لعدم مفارقتها للسفينة، والحجرة التى أسدلت عليها الستائر، ولما نزلنا موسكو نزلت قصرا عظيما مع الخصيان الذين قاموا بخدمتنا، وقالت: إن الشاه تبرم بنا فى تجواله

---

(١) مجلة الأزهر محرم ١٣٧٣ هـ.

(٢) هو أستاذ الأدب الفارسى والتركى بجامعة عين شمس (جريدة الاخاء الإيرانية فى أول نوفمبر ١٩٧١م ص ٤٣) وقد زار إيران فى هذا العام بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس الشاهنشاه الإيرانية.

بأوروبا، فأرسلنا إلى فارس. ولما عاد إلى الوطن كان مسرورا، فخلد ذكرى هذه الرحلة بعمل كرة أرضية من الذهب، وعليها البلاد التى زارها معلمة بفصوص من الجواهر.

قويت حركة السفور التى دعت إليها قرة العين وأيدتها النحلة البهائية، وتشيع لها الشاعر عشقى، فانتهت إلى أن أصدر الشاه «بهلوى» قرارا بإلغاء الحجاب فى ١٧ داى سنة ١٣١٤ هـ الموافق ٧ من يناير سنة ١٩٣٥م. وحضر الاحتفال السنوى بدار المعلمين، وكان يضم الملكة وكريمتيه الأميرتين: أشرف وشمس، وهن سافرات. وكان البوليس يمزق الحجاب إذا رأى امرأة تلبسه، وكان الحجاب عبارة عن ملاءة كبيرة تستر كل جسمها، ولم يظهر غير وجهها، ويسمى «الشادور». وقلد النساء الأميرات فى السفور.

ولما احتلت انجلترا جنوبى إيران عاد الحجاب إلى الظهور، رجوعا إلى القديم الذى غيره الشاه بهلوى بالقوة. غير أن النساء المتعلمات قاومن الرجوع إليه، وذلك بمساعدة العصبة الدولية للنساء والمؤتمرات الأخرى، وألفن مجلسا للنساء الإيرانيات يدعو إلى السفور. وألفت فى طهران «جمعية اتحاد النساء الوطنيات». وأصدرت مجلة بهذا الاسم، وأنشأت فروعا فى عدة جهات، كما أصدرت مجلة أخرى فى أصفهان باسم «المرأة الحديثة» ومجلة «بنات إيران» فى شيراز[1].

يقول الرحالة محمد ثابت: فى كرمان شاه اختلاط بين الجنسين، والنساء نصف محجبات، يلبسن إزارا كأهل العراق، لكن النقاب عبارة عن شبكة من قماش أسود مقوى، تقف مائلة أمام الوجه، وجلهن متبذلات بسبب الفقر، والنساء فى طهران نصف سافرات، يلبسن الإزار المهفهف، وعلى الوجه ظلة مخرمة أفقية، وقليل من الزى الأفرنجى، وهن أكثر حرية من العراق اهـ. ولكن كل ذلك تغير فى الأيام الأخيرة.

((١)) المصور ١٨ يناير ١٩٥٢.

ومن أشهر الجمعيات النسائية هناك « جمعية ٧ يناير » أو « كانون بنوان » التى تأسست سنة ١٩٣٥ تخليدا لذكرى نزع الحجاب بقرار الشاه بهلوى، كما تقدم. وفى سنة ١٩٥٩ كانت رئيسة الجمعية هى السيدة « غامار ناصر » زوجة وزير المالية إذ ذاك، والسكرتيرة هى السيدة « كاميلا أبشار »، وقد زارتا القاهرة يوم ٢١/ ١/ ١٩٥٩[١]. والسيدة الرئيسة ترأس تحرير مجلة الجمعية أيضا، وتشترك فى ١٢ جمعية أخرى، منها: جمعية « الأسد والشمس » المماثلة للهلال الأحمر فى رسالتها الطبية، وجمعية « الأميرة ثريا الخيرية »، « اللجنة الخيرية الإيرانية الأمريكية » وجمعية « حماية الأمومة والطفولة » والجمعية النسائية الدولية.

وكانت هذه السيدة ترتدى الحجاب، وخلعته قبل صدور القرار بثلاث سنوات[٢].

ومن الجمعيات النسائية « جمعية الطريق الجديد » أنشئت سنة ١٩٥٤م للمطالبة بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل فى الحقوق السياسية، وهى تهتم بتقييد الطلاق، ومنع تعدد الزوجات ، وجعل حضانة الطفل لأصلح الأبوين، كما تحكم المحكمة. ورئيسة هذه الجمعية هى الدكتورة « مهرا نجيز دولتشاهى » وهى دكتورة فى الفلسفة. تجاهد لتعديل قانون الأحوال الشخصية، وتضم الجمعية ٥٠٠ عضو، ولها عدة فروع، ومعظم الأعضاء من مدرسات الجامعات وناظرات المدارس والأديبات. ومن أهداف الجمعية التأهيل المهنى للمسجونات ورعاية أطفال الأسر الفقيرة.

ومن أعضاء الجمعية مدام « أزام يانهى » التى قالت: إن فى إيران ١٧ هيئة نسائية[٣]، يضمها اتحاد يسمى « زمانية هامكارى زنانية » برياسة الأميرة

(١، ٢) الأهرام ٢٢/ ١/ ١٩٥٩.

(٣) فى القبس ١٠/ ٣/ ١٩٧٥ أن الجمعيات الآن ٣٦ كما قالت: هازندنرد حرم سفير إيران فى الكويت.

«أشرف». ويلاحظ أن هذه السيدة أم لخمس بنات، ولم ترزق بمولود ذكر، وهى تقول: بصفتى أما لخمس بنات من مصلحتى الدفاع عن حقوق المرأة[1]. ويبدو أن هذه الحالة النفسية هى التى دفعتها إلى هذا النشاط، بصرف النظر عن تعاليم الدين، كما سيطرت هذه الحالة أو العقدة على نساء غيرها حاولن أن يثبتن أنهن لسن أقل من الرجال، بناء على توجيه آبائهن لهن إذ حرم من إنجاب الذكور.

هذا، والرأى العام الدينى فى إيران ضد النشاط النسوى فى الحقل السياسى، جاء فى أهرام ٢٤/ ٣/ ١٩٦٣: أن اشتباكا وقع أمس بين مجموعة من النساء ورجال الدين فى «تبريز» شمالى شرقى إيران، عندما قام كثير من النساء بمظاهرة ابتهاجا بحصولهن على حق المساواة بالرجال. ولا شك أن غزو الثقافة الأجنبية وتغلغل الاستعمار فى إيران وغيرها طور المرأة تطويرا كبيرا فى الفكر والسلوك.

وجاء فى محلق خاص بالأهرام عن إيران صدر يوم الأحد ٢٦ من مارس ١٩٧٢: أن المادة العاشرة من قانون الانتخاب القديم كانت قد حرمت المرأة من حق الانتخاب، وصنفتها مع المجانين والقتلة، أو الذين يمتهنون مهنا غير شريفة، وبعد إعلان مبادئ الإصلاح الجديد سنة ١٩٦٣م أعطيت المرأة حق الاقتراع والترشيح.

وخلال الدورة البرلمانية الثانية والعشرين كان لها سبعة مقاعد فى المجلس الوطنى ومقعدان فى مجلس الشيوخ[2]. وفى سنة ١٩٦٩م كان هناك وزيرة واحدة وثمان مديرات عامات، وتسع مديرات صحف ومجلات، وخمس

---

(١) الأهرام ٢٥/ ٢/ ١٩٥٩.

(٢) فى أهرام الثلاثاء ٢٠/ ٢/ ١٩٧٣: مناما شمس الملوك مصاحب، التى عاشت حياتها بدون زواج، درست فى إيران وأمريكا وكندا، وكانت أول إيرانية تحصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة طهران، عملت منذ حوالى ٣٠ عاما فى حقل التعليم، وهى الآن، علاوة على أنها عضو فى مجلس الشيوخ، رئيسة إدارة التعليم فى مؤسسة «بهلوى».

قاضيات، واثنتا عشرة محامية، وثمان فى السلك الديبلوماسى، وتسع عشرة رئيسة بلدية.

وفى العام الدراسى ٦٩ / ١٩٧٠ بلغ عدد طالبات الجامعات والمعاهد العالية ٦٩٤٩ من مجموع ٦٧٣٦٩ طالبا وطالبة، ٤٤١٥١ معلمة من مجموع ١١٥٨٠٧، وهناك ٢٠ عالمة فى الفيزياء والكيمياء، ٤٤٣ مهندسة، ٧٦ عالمة فيزيولوجيا، ١١٢٤٣ طبيبة وعاملة فى الطب، ١١ عالمة إحصاء ورياضيات، ٣٨٢٩٤ قاضية وحقوقية ومعلمة، ٨٥ مؤلفة وصحفية وكاتبة. وهناك مجندات فى الشرطة.

٤ - الهند وباكستان:

كانت باكستان مع الهند دولة واحدة، ثم انفصلت عنها فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩٤٧م، وظروف المرأة المسلمة فى كلتا الدولتين واحدة، من حيث الحقوق التى جاء بها الإسلام، والحركات التى قامت أخيرا فى عالم النساء.

دخل الإسلام أرض الهند فى القرن الأول الهجرى، وقامت هناك دولة إسلامية استمرت قرونا طويلة، وقد زارها ابن بطوطة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى «توفى سنة ٧٥٤ هـ» فوجد هناك مدارس لتعليم البنات. ففى مهذب رحلته «ج ٢ ص ١٧٧»: أنه وجد فى «هينور» على ساحل الملابار، أن الناس كلهم يدينون بالمذهب الشافعى، وأن كل النساء يحفظن القرآن، ورأى فى المدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين مكتبا لتعليم الأولاد، كما مر ذكره فى ص ٢٢٣.

تقول «البيجوم لياقت على خان»[1] زوجة أول رئيس وزراء للباكستان، ومؤسسة الجمعية النسائية الباكستانية، فى خطاب ألقته فى النادى النسائى الهولندى فى أمستردام «١٨ / ٢ / ١٩٥٦»: أن الحركة النسائية تتخذ طابع

---

(١) لفظ بيجوم ويعنى سيدة أو هانم، وقد يلفظ: بيكم.

التطور التدريجى دون الطابع الثورى، فالمرأة لا تحاول معاداة الرجل، وليست المشكلة هى الحصول على حقوق جديدة أو الاعتراف بوضع جديد، لأن الإسلام كفل هذا كله منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة[١].

إن المرأة المسلمة فى الهند وباكستان تمتعت بحقوقها التى كفلها الدين. وتاريخ الهند مملوء بأسماء سيدات بلغن القمة فى الفن والعلم والإدارة. ومنهن السلطانة « رضا » التى كانت أميرة فى عهد أسرة العبيد، التى حكمت البلاد فى القرن الثالث عشر حكما قويا، فقد قادت السلطانة « رضا » جيشها فى عدة معارك، وماتت فى الميدان فى الحروب الأهلية فى باكستان، أى فى المنطقة التى صارت ضمن باكستان أخيرا.

وما كانت المرأة الهندية فى عهدها الطويل تهتم بالحجاب، فإن السلطانة « رضية » كانت تركب سافرة كما كان يركب الرجال، وتقدم الحديث عنها رقم ٢٣ فى النساء الشهيرات فى الملك والسياسة.

ومن النساء الشهيرات فى تاريخ الدولتين البيجوم « جولياداان » مؤلفة كتاب « ذكريات » عن أخيها امبراطور هو مايون وحياته.

ومنهن السلطانة « سليمة » الشاعرة الفارسية المشهورة، والسلطانة « شاند » ملكة « دكن » التى حاربت جنود « أكبر خان » عندما هاجمت مملكتها.

وفى القرن السابع عشر ظهرت « نور جيهان » زوجة « جيهانجير » التى كانت مشهورة بالتجديد فى الفنون، فى السجاد والجواهر والملابس، وما زال نساء باكستان إلى الآن يحذون حذوها، تقدم ذكرها.

ومما يدل على مكانة المرأة فى الهند إلى جانب توليها السلطة، القبر المسمى « تاج محل »:

تاج محل:

قبر بناه فى « أجرا » التى تبعد عن « نيودلهى » حوالى ٢٠٠ ك م، الإمبراطور

---

(١) مجلة رسالة الباكستان ١٤ أغسطس ١٩٥٦.

« شاة جيهان » « ١٦٢٨ – ١٦٥٨م » وهو من أحفاد تيمور لنك المغولى، بناه لزوجته المحبوبة « أرجمند بانو بيكم » التى كانت تلقب بسيدة القصر المختارة أو الممتازة، وكانت ابنة رجل من فارس هو آصف خان شقيق نور جيهان، وكان رئيسا لتشريفات قصر الامبراطور.

لقد سمى هذا القبر أولا « ممتازى محل » بلغة أكرا، ثم حرف إلى ممتاجى محل، وانتهى بعد الاختصار إلى « تاج محل »، وهو يعد من عجائب الدنيا، استغرق بناؤه ستة عشر عاما، وقيل: اثنين وعشرين عاما، واشتغل فيه اثنان وعشرون ألفا من العمال، جمع إلى جمال الهندسة وروعة البناء نفاسة المواد التى بنى بها، وتكلف حوالى مائة وخمسين مليونا من الجنيهات، غير المرمر الذى أهداه له « مهراجا جايبور »، وله أربع منارات بأركان السور، ارتفاع المنارة مائة وتسعون قدما، تميل قليلا الى الخارج حتى لا تقع على القبة إن حدث ما يهدمها من زلزال ونحوه.

توفيت اثناء حملة زوجها شاه جيهان على الدكن، عندما جاءها المخاض فى طفلها الرابع عشر، وكان ذلك حوالى سنة ١٠٤٠ هـ « ١٦٣١م » كما هو مكتوب على قبرها.

ولما كان زوجها مغرما بالبناء، بنى لها هذا القبر، كما بنى منشآت أخرى، حتى أفلس وسجنه ابنه سنة ١٦٥٨م، وتولى الملك بعده، وظل فى السجن ثمان سنوات، فى برج الياسمينية، فى قلعته الشهيرة، التى بناها فى تسع سنوات، وتضم مدينة واسعة بمساجدها وقصورها وحدائقها وكان سجنه فى غرفة بها نافذة يطل منها عبر « نهر الجمنه » على قبر زوجته، حتى مات ودفن بجوارها سنة ١٠٧٦هـ « ١٦٦٦م » كما هو منقوش على قبره(١).

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: أورانجزيب. ومجلة العربى سبتمبر ١٩٧٢، ومجلة الرائد ٨/٨/١٩٧٤ بقلم سليمان مظهر الذى زار القبر. ورحلات محمد ثابت.

وفى القرن التاسع عشر نهضت الحركة النسوية، فقامت «البيجوم محمدى» بإصدار مجلة أسبوعية اسمها «تهذيب النساء» سنة ١٨٨٦م، دافعت فيها عن حقوق المرأة.

وفى سنة ١٩١٢ م دعت «بيجوم يوبال» عددا من نساء العالم إلى أجتماع بمدينة «عليكره» قامت على أثره المؤسسة المعروفة باسم «مؤسسة جميع سيدات الهند». وقد مثلت «البيجوم جاهانارا شاه نوار» نساء الهند فى مؤتمر عقد بلندن سنة ١٩٣٠، ١٩٩٣٢م.

وقد اعترف الدستور سنة ١٩٣٥م بتمثيل المرأة فى جميع الهيئات التشريعية. وفى سنة ١٩٤٩م أسست «بيجوم لياقت على خان» جمعية «نساء مجموع الباكستان»، ولها فروع فى الباكستان الشرقية «حاليا بنجلاديش» والغربية. ولها نشاط كبير فى الميادين الثقافية والإجتماعية(١).

والمرأة الباكتسانية كانت تباشر نشاطها وهى مرتدية «البرقة» وهى ستار يكسوها كلها، مع ثقوب أمام عينيها، وهو زى شائع ترتديه الفتاة منذ الثالثة عشرة، لكن هذا الزى اختفى الآن أو كاد، وكذلك كانت المرأة الهندية تحرص عليه، وحتى سنة ١٩٥٧ كن يذهبن إلى لجان الانتخاب محجبات(٢).

هذا، وكان سيد أمير على متأثرا بحركة التحرير فى مصر وبآراء قاسم أمين، فنقل بعض آرائه إلى باكستان. وكان يسمى الحجاب كفنا.

وجاء فى مجلة «رسالة باكستان» بتاريخ ٤ أغسطس ١٩٥٦: أن المرأة الباكستانية تتمتع بحق الانتخاب ولها مقاعد فى البرلمان، وأن نسبة تعليم المرأة ٧، ١١٪، وفى باكستان الغربية عشرة نواد للأمهات، وفى ١٢ من ديسمبر ١٩٥٥ كان عدد فروع الحزب النسائى فى باكستان الغربية ٢٦، والدور الصناعية التابعة لها ١٤ دارا، وفرع الجمعية فى باكستان الشرقية «بنجلاديش الآن» يتبعه

(١) جورج شفيق — الأهرام ٢٥ مارس ١٩٤٥م.
(٢) صورة منشورة فى مجلة المصور ٢٢ مارس ١٩٥٧م.

١٥ فرعا. وفى «داكا» مؤسسة ابتدائية للبنات، وفصول لمحو الأمية للبالغات، ومكتبة متنقلة، ووضع حجر الأساس لمستشفى «اكرام خاتون» لرعاية الأمومة فى ديسمبر ١٩٥٥م.

٥ - مالديف:

مالديف مجموعة جزر صغيرة فى المحيط الهندى، عدد سكانها فى سنة ١٩٦٩م حوالى ١٣٥ ألفا، وكانت مملكة مستقلة فى القرن الرابع الهجرى كما يقول المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» اعتنق أهلها الإسلام فى القرن السادس الهجرى على يد الشيخ الحافظ «أبو البركات» يوسف البربرى. من بلاد المغرب، الذى وفد إليها مع بعض تجار العرب، وقابل السلطان، ودعاه إلى الإسلام، فترك البوذية وأسلم أخيرا، وأمر أن يكون الإسلام هو الدين الرسمى فى البلد، وذلك فى ٢ من ربيع الآخر سنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣م)، وهم الآن جميعا مسلمون، ولا يسكن بلادهم غير مسلم.

ومن أعظم ملوكهم السلطان «محمد تكرفان الأعظم» الذى حرر البلاد من استعمار البرتغال فى القرن السادس عشر، والسلطان «على رسجفان» الذى استشهد فى معركة ضد البرتغال، «حسن عز الدين» الذى حرر البلاد من الاحتلال الملابارى فى القرن الثامن عشر، «السلطانة خديجة رهندى» التى حكمت ٣٥ سنة فى القرن الرابع عشر الميلادى، وقد تحدث عنها ابن بطوطة فى رحلته، انظر رقم ٢٥ من نساء شهيرات فى الملك والسياسة.

فرضت بريطانيا عليها الحماية سنة ١٨٨٧م، ثم استقلت ذاتيا سنة ١٩٤٨م، وحصلت على استقلالها الكامل فى ٢٦ يوليو ١٩٦٥ بعد ٧٨ عاما من الاحتلال، وانضمت إلى الأمم المتحدة فى العام نفسه، فكانت العضو رقم ١١٧، وأعلن النظام الجمهورى فى ٢٠ شعبان ١٣٨٨ هـ (١١ نوفمبر ١٩٦٨)، وانتخب السيد / إبراهيم نصار رئيسا للجمهورية فى سبتمبر ١٩٦٩م، وكان

رئيسا للوزارة فى النظام السابق الملكى، الذى انتهى بحكم الملك محمد فريد الأول[1].

أمر رئيس الجمهورية بإشراك المرأة فى الحكم، كما أمرها بنزع الحجاب، وفى مجلس الشيوخ إحدى قريباته، وهى متعلمة بمصر، وفى مجلس النواب خمس نساء.

وفى برقية وكالة الأنباء العربية من نيودلهى فى ١٦/ ١/ ١٩٥٣ أنها فى أول يوم من العام الجديد كان أول مظاهر نهضتها إلغاء الحجاب المسمى « البردة » ليتيسر للنساء الاشتراك سافرات فى الاحتفال بمولد الجمهورية العربية المتحدة « مصر »[2].

وقد تحدث عنها ابن بطوطة باسم جزر مالديف، أو ذيبه المهل، وجاء فى مهذب رحلته « ج٢ ص ٢٠٠ » : أن نساءها لا يغطين رءوسهن، ولا سلطانتهم تغطى رأسها، ولا يلبس أكثرهن إلا « فوطة » واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل، وسائر أجسادهن مكشوفة، وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها. وهن يعبن من تغطى رأسها. وذكر ابن بطوطة جهاده فى نهيهن عن ذلك. وجاء فى ص ٢٠٢ من المهذب أيضا أن سلطانة مالديف هى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين البنجالى، وكانوا يدعون لها فى الجمعة على المنابر، كما ذكر فى ص ٢١٠ : أن المطلقة تمكث فى دار مطلقها حتى تتزوج غيره. وغير ذلك ابن بطوطة لما ولى القضاء عليها.

٦ - أندونيسيا :

انتشر الإسلام فى أندونيسيا فى القرن الثالث عشر الميلادى، وكانت الأديان الوثنية منشرة فيها، ثم وقعت تحت النفوذ الأجنبى من برتغاليين وأسبان وانجليز

(١) هذه المعلومات التاريخية من عدة مصادر، منها : مجلة النجم الثاقب التى تصدرها مدينة البعوث الإسلامية.

(٢) جريدة المصرى ٧/ ١/ ١٩٥٣.

وفرنسيين وهولنديين منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى استقلت فى ١٧ من أغسطس سنة ١٩٤٥م.

ومن مزيج العادات والتقاليد القديمة والوافدة من الغرب تأثرت المرأة الأندونيسية، وقد زار ابن بطوطة هذه البلاد فى النصف الأول من القرن الرابع عشر، قبل أن يتمكن الإسلام منها تماما، ورأى مظاهر سفور المرأة واضحة.

وكان من أول زعيمات النهضة النسائية فى أندونيسيا سيدة تدعى « رادن أجينج كارتينى » التى ولدت فى ٢١ من أبريل ١٨٧٩م فى ظل الحكم الألمانى، وكانت العادة أن تظل البنت حبيسة البيت حتى تتزوج، لكن والدها سمح لها بدخول المدرسة الابتدائية، وفى نهاية القرن التاسع عشر كان هناك حوالى ١٢ بنتا أندونيسية فى المدارس الألمانية، وعندما بلغت « رادن » الثانية عشرة تركت المدرسة، ولزمت البيت، ولم تقبل منحة قدمت إليها لتتعلم فى أوروبا.

رأت كثرة تعدد الزوجات والطلاق لأوهى الأسباب. وجهل المرأة وعبوديتها، فافتتحت ، بمساعدة أختها، أول مدرسة للبنات فى أندونيسيا. وشجعت تعليم المرأة لتساعد فى نهضة الوطن.

وفى سنة ١٩٠٣م تزوجت، وافتتحت مدرسة ثانوية، إلا أنها توفيت سنة ١٩٠٤م، وكانت حياتها وأفكارها التى جمعت فى كتاب « من الظلام إلى النور » منهجا لكثير ممن جاء بعدها، وكانت متمسكة بدينها حريصة عليه كل الحرص، فقد حرضتها صديقتها الهولندية على ترك دينها، فأرسلت إليها خطابا جاء فيه: ثقى يا سيدتى أنى باقية على دينى، وأدعو الله أن يشملنى بتوفيقه، فيلهمنى القوة على حمل الآخرين على احترام ديننا الذى من شأنه أن يحبوه[١].

وفى سنة ١٩١٢م فتحت عدة مدارس تحمل اسم « كارتينى ». ومنذ سنة ١٩٢٠م قبلت المرأة فى المدارس العالية، وتخرجت أول دكتورة فى القانون سنة

---

(١) لواء الإسلام يوليه ١٩٤٩م.

١٩٢١م، وفى الطبيعة سنة ١٩٢٢م، ثم شاركت المرأة فى العمل الاجتماعى . واضطهد كثير من النساء فى الحركات السياسية، ونفين إلى جزيرة « إيريان » غينيا الجديدة .

وبعد إعلان الاستقلال تكون « اتحاد نساء اندونيسيا » سنة ١٩٤٦م . وكان للمرأة فى سنة ١٩٤٧م ٢٨ مقعدا فى البرلمان الأقليمى، وفى مقدمتهن السيدة « رسونه سعيد »، التى قالت عند القبض عليها : أيها الرجال إن كنتم تخافون العذاب والسجون فكونوا نساء لنكون نحن رجالاً بدلكم . كما كان للمرأة مركزان فى الوزارة . وكانت السيدة « أرتاتى سوديرجو مرزوقى » ممثلة بلادها فى الأمم المتحدة .

وأول وزيرة مسلمة هى « ماريا أولنا سانتوزر » للشئون الاجتماعية، ثم وزيرة للعمل . إلى جانب رياستها لا تحاد نساء أندونيسيا . وفى نوفمبر سنة ١٩٥٠ تكون اتحاد وطنى لنساء أندونيسيا يضم جميع المنظمات النسائية .

ومن الجمعيات النسائية : الجمعية العائشية أسستها السيدة / عائشة هلال سنة ١٩١٦م، وجمعية المسلمات، التابعة لحزب نهضة العلماء، وجمعية المسلمات الوصيلة، وجمعية المسلمات المحمدية، وتقول زوجة وزير الدفاع الأندونيسى عند زيارتها لمصر سنة ١٩٦١ : إن عدد الجمعيات النسائية فى أندونيسيا أربعون جمعية، لرعاية الطفولة والأمومة، تحت لواء اتحاد واحد يسمى « كونجرس وانيتا »[١] .

وتعد السيدة الحاجة / « رحمة اليونسية »، زعيمة من كبار الزعماء المسلمات فى أندونيسيا، أنشأت مدارس كثيرة للبنات، منها مدرسة لإعداد الواعظات والمدرسات سنة ١٩٢٢م، وكانت أول نائبة برلمانية عن سومطرا، وقد توفيت قبل عام ١٩٧١م .

---

(١) الأهرام ١٣ / ٧ / ١٩٦١ .

وكانت « مس روزما أحمد » أول امرأة تقلدت منصب القضاء بمحكمة جاكارتا، وفى أندونيسيا كلها، وجاء فى أهرام ٨/ ١١/ ١٩٥٩ : أن أول حكم حكمت به كان ضد سائق سيارة بنزين خالف قواعد الحمولة، وعندما توسل إليها المتهم كيلا تحكم عليه بالسجن لأنه يريد الزواج من حبيبته، غيرت العقوبة إلى الغرامة فقط. وهذا يدل على تأثير عواطف المرأة على فكرها.

كما جاء فى أهرام ٧/ ١/ ١٩٦٣ : أن الحكومة أرسلت تعليمات إلى حكام الأقاليم بالسماح للنساء بتولى مناصب رؤساء مجالس القرى، والمناصب الرسمية التى ترقى إلى مستواها.

وفى أندونيسيا كليات خاصة للمعلمات، يلبسن الملابس الطويلة، مع تغطية الرأس وكشف الوجه. والفتاة الآن تتعلم مع الفتيان فى الجامعات سافرة مع لبس آخر « مودة » دون تخرج، وفى كلية الدعوة بجامعة « سورابايا » فتيات يلبسن الملابس الوطنية مع كشف الرأس كالعادة الشائعة[١]. وكان فى مجلس النواب ٢٤ عضوة « الأهرام ١٤/ ٤/ ١٩٨٨م ».

٧ – ماليزيا :

ماليزيا مجموعة تضم بلاد الملايو وأجزاء من جزر أخرى بجوارها وبجوار أندونيسيا، والنظام فيها ملكى يختار فيها الملك بالانتخاب لمدة معينة[٢]، وقد

---

(١) أكثر هذه المعلومات مستقاة من:
كتاب : ما هى الديمقراطية؟ المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٥٥م.
كتاب : هذه أندونيسيا، لأحد طلابها فى مصر، وهو رسالة جامعية.
مجلة: صوت أندونيسيا عدد ١٠ سنة ١٩٥٧.
زيارتى لأندونيسيا فى أكتوبر ١٩٧١.
أهرام ٢٤/ ١٢/ ١٩٥٣، ٨/ ١١/ ١٩٥٩ وأعداد أخرى.
مجلة الشبان المسلمين فبراير ١٩٦٨.
مجلة لواء الإسلام يونيه ١٩٤٩.
ومصادر أخرى...

(٢) الاتحاد الماليزى فيه ١٣ ولاية، تسع منها تنتخب الملك لمدة خمس سنوات، والسلطان الحالى هو: عبد الحليم معظم شاه بن السلطان عبد الحميد « جريدة القبس الكويتية ٢١/ ١٠/ ١٧٤ ».

دخلها الإسلام على يد تجار العرب الذين نشروا الإسلام فى أندونيسيا أيضا، وفى كل البلاد والثغور التى مروا عليها. والجنس المالى كله مسلم، وهناك أجناس أخرى بعضها مسلم والآخر على وثنيته البوذية.

بدأت تظهر حركة النساء المسلمات سنة ١٩٤٦م عندما أنشئت «منظمة الملايو المتحدة» التى كان من بين أعضائها عدد من النساء المسلمات، كان لهن دور كبير فى انتخابات ٥٥، ٥٩، ١٩٦٤م. واشتركت هى فى انتخابات سنة ١٩٥٩ ففازت امرأتان فى البرلمان الفيدرالى، هما: فاطمة هاشم[١]، وحاجة زين، التى تلقب بالأم، لأنها تعتبر أم النهضة النسائية فى ماليزيا، كما نجحت خمس مرشحات فى انتخابات المجالس التشريعية للولايات الماليزية، منهن السيدة/ فاطمة عبد المجيد، وفى انتخابات سنة ١٩٦٩م فازت المرأة المسلمة بمقعدين فى مجلس النواب، ومقعدين فى مجلس الشيوخ وثمانية فى المجلس التشريعى للولايات. وفى سنة ١٩٥٩ عينت أول وزيرة للشئون الاجتماعية هى السيدة فاطمة هاشم «هانم» رئيسة الجناح النسائى للمنظمة الملايوية المتحدة أكبر أحزاب ماليزيا، وقامت عائشة عبد الغنى نائبة السيدة فاطمة هانم، وعضو مجلس الشيوخ بتمثيل ماليزيا فى الأمم المتحدة.

والمرأة المسلمة فى ماليزيا تباشر كل أنواع النشاط الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والسياسى كالرجل تماما، وبخاصة فى المناصب الإدارية والقيادية. وينتمى عدد كبير من المسلمات إلى: جمعية المرشدات، والمعهد النسائى.

وأنشأت المرأة المسلمة عشرات من الجمعيات الخيرية والدينية والثقافية، وهى تحرص على الاحتفال بالمناسبات الدينية كرمضان والمولد النبوى، كما تحرص على حفظ القرآن الكريم وتجويده. وفازت فى مسابقة تلاوة القرآن عدة مرات[٢].

---

(١) أو فاطمة هانم.

(٢) مجلة الشبان المسلمين عدد ١٧٠ فى صفر ١٣٩١ (أبريل ١٩٧١) بقلم أمانى فريد.

وفي أهرام ٥/ ٩/ ١٩٦٥ تقول: تنكو ناجحة، أي الأميرة ناجحة «زوجة سفير ماليزيا في القاهرة»: كانت التقاليد تحتم حبس المرأة عن التعليم والنشاط. والزواج هناك باتفاق الأهل، وحفل الزواج من ثلاثة أيام إلى أسبوع، ويمضي العروسان ثلاثة أيام في منزل أهل العروس، وتستمر الليالي المرحة بالرقص والأكل.

وبعد الاستقلال سنة ١٩٥٧ تطورت المرأة، وأخذت كل حقوقها السياسية، وزاولت كل الأعمال. والمرأة الريفية لها جهد ضخم في العمل ورعاية البيت. وقد يغيب زوجها شهورا وسنين في المناجم، لا يعود إلا في المناسبات، وهي قائمة بكل الأعمال.

وتقول: إن من أغرب الأديان هناك عبادة الثعابين، ولها معبد خاص به ثعابين كثيرة سكرى برائحة البخور، وهم يطعمونها البيض الذي يتقرب به أتباع هذا الدين.

وفي جريدة القبس الكويتية ٢١/ ١٠/ ١٩٧٤: تقول «رحمة أبو بكر» زوجة سفير ماليزيا في الكويت «جمال الدين حاجي أبو بكر»: هناك جمعيات نسائية كثيرة، وتضم جمعية نسائية كبرى ١٨ من الجمعيات النسائية تحت رياسة «تانسري فاطمة هانم»، التي كانت عضوا في البرلمان ووزيرة للشئون الاجتماعية والعمل، والبرلمان فيه أربع في مجلس الشيوخ، وثلاث في مجلس الشعب.

٨ - سنغافورة:

سنغافورة جمهورية منذ سنة ١٩٦٥ وتعدادها ٢,٢٠٠،٠٠٠ نسمة وهي خليط من السكان، نالت المرأة فيها حق الانتخاب سنة ١٩٥٧ وقبلت جامعتها الفتاة لأول مرة سنة ١٩٦٠، وكانت النهضة النسائية بفضل السيدة/ شيرين فوزدر التي درست الفلسفة في بومباي والصحافة في معهد ريجينيت سنة ١٩٢٣،

ولها كتاب عن المرأة خلال العصور، قررت فيه أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى نظم الزواج والطلاق والميراث، وأن اليهودية والمسيحية لم تنص على منع تعدد الزوجات، وأن الكنيسة المسيحية هى التى وضعت المنع، كما وضعت منع الطلاق، وهى لا ترى المساواة التامة بين الجنسين، فهناك مجالات لا تناسب المرأة كالمناجم. وفى سنغافورة جمعية للشابات المسلمات، من أبرز أعضائها السيدة / أسماء السقاف نائبة رئيس المجلس المركزى للجمعيات الملايوية التى تضم ٤٠ جمعية ثقافية واجتماعية ودينية. «آخر ساعة ١٨ / ٦ / ١٩٧٥».

٩ - تايلاند :

هى البلاد التى كانت تسمى «سيام» تقع فى شبه جزيرة الهند الصينية، الدين الرسمى الغالب هو البوذية، والإسلام منتشر فى الولايات الجنوبية على حدود ماليزيا، والدين البوذى لا يمنع أن تتولى المرأة منصب الملك، فقد تولت زوجة الملك الأمر لمدة أربعة أشهر نيابة عن زوجها وهو مترهب فى المعبد، كما تقول «بوم تونخ» حرم سفير تايلاند فى القاهرة سنة ١٩٦١، وذلك منذ أربع سنوات[١].

من أبرز الشخصيات المسلمة فى تايلاند السيدة / فريدة سواتان. عينها الملك قاضية فخرية فى محاكم الأحداث لأول مرة فى تاريخ البلاد، وهى ترأس الاتحاد النسائى للمسلمات، ونائبة لرئيسة «مؤسسة المرأة المسلمة» فى تايلاند لرعاية الأيتام. وعضو فى المجلس القومى للمرأة، ولجنة المؤسسة الإسلامية المركزية[٢].

وكذلك السيدة سانجداو سيام الله، يقال: أنها من سلالة الشيعة السليمانية التى توجد فى بومباى بالهند، ولها نفوذ واتصالات كبيرة بالشخصيات الهامة وقد زارت مصر ونزلت فى ضيافة الأزهر سنة ١٩٦٢م[٣] وفى زيارتى لإندونيسيا

---

(١) أهرام ٣١ / ٧ / ١٩٦١.

(٢) آخر ساعة ٣ / ١ / ١٩٧٣.

(٣) أهرام ١٠ / ٦ / ١٩٦٢.

مع شيخ الأزهر الدكتور محمد الفحام تقابلنا مع سانجداو فى تايلاند يوم الثلاثاء ١٢ من أكتوبر ١٩٧١م.

١٠ - الفيليبين:

جزر بالشرق الأقصى أغلبها لا يدين بالإسلام، والمسلمون هناك يرثى لحالهم، نتيجة لتحكم التبشير والاستعمار، وأخبار النشاط النسائى للمسلمات قليلة، ونعرف منها السيدة طار هاتا الونتو شقيقة «دوموكاو الونتو» زعيم المسلمين فى الفيلبين، وهى أول سيدة أسست جمعية «نساء الفلبين المسلمات» للدفاع عن حقوق المرأة المسلمة(١).

١١ - أفغانستان:

النساء فى أفغانستان بوجه عام محجبات بدرجة شديدة، وذلك راجع إلى قرون عدة حافظن فيها على التقاليد الإسلامية الأولى، وإن كان قد ظهر فى التاريخ ملكات أيام مملكة خوارزم وخراسان.

ذكر المؤرخون أن أحد القواد أراد مهاجمة «بلخ» فأرسلت زوجة حاكمها «داود» ثوبها المرصع بالجواهر إلى القائد، فى مقابل الخراج الذى عجز السكان عن تقديمه فداء للمدينة، فلما حمله الرسول إليه رده، وقال: لا أرضى أن تكون امرأة أكرم منى خلقا، فقالت: لن ألبس بعد كسوة وقعت عليها عيون رجال غير أهل بيتى، وتبرعت به لبناء المسجد الفخم والمدرسة والملجأ ودار الضيافة التى تزين المدينة(٢).

وذكر أبو الفداء فى تاريخه «ج٣ ص ١٤٨»: أنه كانت هناك ملكات، ففى أوائل القرن السابع ظهرت أميرة فى بلاد خوارزم وخراسان، أو ملكة عظيمة «تركان خاتون» والدة السلطان «محمد بن تكش»، وكانت ذات سطوة وسلطان.

---

(١) مجلة الشبان المسلمين نوفمبر ١٩٦٧.

(٢) حبيب جاماتى - المصور ١٩/ ١/ ١٩٥١.

والحفاظ على العرض الآن له حدود قوية، وإن كان لا يمنع الفساد كلية، يقول الرحالة محمد ثابت فى كتابه: جولة فى ربوع الشرق الأدنى، بعد أن وصف شكل الملابس التى ترتديها المرأة، وهى تشبه الكيس قد زر عند الرأس، وأمام العينين قطعة مثقبة للنظر والتنفس، وتحت الإزار سروال أسود سميك يتدلى على الحذاء، ويربط فيه - يقول: كان «أمان الله خان» يريد حملهن على السفور وتقليد الغرب، كما فعل «أتاتورك»، ولكن رجال الدين وقفوا ضده، ولهم هناك السلطة العليا، وهم جماعة «الملا» الذين يحكمون على الزانى بإلقائه علانية من فوق قلعة البلد، على الأحجار المتراكمة من دونها على مسافة لا تقل عن ٢٥ مترا، والغالب أن يموت، أما الزانية فتوضع فى كيس يحوطه الجند، ويؤمر المارة برجمها حتى تموت.

وهذا الحجاب الصارم قد عاق المرأة عن التعليم، كما عاقها عن الإسهام فى النشاط الاجتماعى، فما كانت تتعلم إلا فى البيت، حتى فتحت أول مدرسة للبنات سنة ١٩٣١م ولكن ظروف الحرب الأهلية أغلقتها.

وفى سنة ١٩٤٦ م أسست بعض النساء مؤسسة لمحو الأمية بين النساء وتعليم بعض المهن، وفى سنة ١٩٤٧ فتحت مدارس للبنات، كما فتحت لهن أول كلية، وبلغ عدد البنات فى المدارس سنة ١٩٥٦ حوالى ١١,٧١٢[١].

ولم تشارك المرأة بإيجابية فى الخدمة الوطنية إلا عددا قليلا، مثل «آدى غازى» التى حملت السلاح ضد الاستعمار البريطانى، والسيدة «ملالى» التى يقولون عنها «جان دارك أفغانستان» سنة ١٨٨٠م، حيث حاربت الإنجليز فى معركة «ميوند»[٢].

وقد خلعت المرأة الأفغانية الحجاب، وسفرت لأول مرة فى حفل ديبلوماسى كبير، أقامه السردار «محمد داود خان» رئيس وزراء أفغانستان تكريما للزعيم

(١) مجلة أفغانستان، عدد أغسطس ١٩٥٧.
(٢) السفير محمد موسى شفيق - مجلة الشبان المسلمين أول فبراير ١٩٧٠م.

الهندى « نهرو »، رفعت السيدات اللاتى دعين إلى مأدية العشاء فى قصر « سليستود » المطل على كابل، الحجاب، وظهرن حاسرات الرءوس. وكان ذلك بداية النهاية بالنسبة للحجاب التقليدى، وقال « نهرو » فى خاتمة كلمته : لقد فهمت أن هذه مناسبة غير عادية، ولكن أرجو ألا تظل غير عادية، إن أعباء الدنيا يجب أن يتقاسمها الرجال والنساء على السواء[١].

بدأت المرأة بعد السفور تباشر نشاطها الاجتماعى والسياسى كبقية نساء العالم، وتكون الاتحاد النسائى بأفغانستان، وكانت رئيسته سنة ١٩٦٥ هى « صالحة فاروق اعتمادى » التى زارت القاهرة فى ٨/ ١/ ١٩٦٥م[٢].

وجاء فى مجلة الشبان المسلمين[٣] على لسان سفير أفغانستان فى مصر « محمد موسى شفيق » : أن هناك فى أفغانستان جمعية نسائية تصدر مجلة خاصة بالمرأة تسمى « ميرمن » أى السيدة.

وقد أعطيت المرأة حق الانتخاب والترشيح. وفى مجلس النواب « مارس ١٩٦٩ » أربع سيدات، وفى مجلس الشيوخ اثنتان، وهناك وزيرة صحة.

ومن السيدات ذوات النشاط البارز السيدة/ حميراء السلجوقى. التى اشتركت فى كثير من المؤتمرات الدولية.

ويقول صالح جودت[٤] فى رحلته، عن نساء جماعة البشتو الذين يعيشون فى ممر خيبر، فى أقليم بختونستان على حدود باكستان : أن فيهن جمالا فاتنا، وغيرة الرجال عليهن شديدة جدا، فعلى الرغم من كرم الرجل بنحره الذبائح للضيف، لو رآك تتطلع إلى إحدى حريمه أتم لك واجب الضيافة، وودعك، وكان الوداع الأخير لك من الحياة برصاصة تصيب منك المقتل.

---

(١) الجمهورية ٢٠/٩/١٩٥٩.
(٢) أهرام ٩/١/١٩٦٥.
(٣) مارس ١٩٦٩، فبراير ١٩٧٠.
(٤) المصور ٢٣/ ٥/ ١٩٥٨.

١٢ - العراق :

بدأ تعليم البنت فى العراق بافتتاح أول مدرسة رسمية للبنات فى بداية القرن العشرين[١] وبدأت حركة التحرير النسائى منذ عام ١٩٢٠م ونادى الشاعران الرصافى والزهاوى والشيخ ياسين بتحرير المرأة، وكان أغلب الفضل فى تعليمها لساطع الحصرى الذى فتح مدرسة للمعلمات، واشتدت حركة التحرر حتى تنفست عن صدور أول مجلة نسائية عراقية فى عام ١٩٤٤م وإن كانت الحكومة عطلتها بعد شهرين، وتكونت عدة جمعيات نسائية كان أهمها «الاتحاد النسائى» الذى كانت ترأسه ١٩٥٧م «آسيا وهبى».

ومن الجمعيات : البيت العربى، حماية الأطفال، الهلال الأحمر، الفتاة الرياضية، كما تقول الأستاذة «مليحة رحمة الله» بجامعة بغداد[٢]. ورئيسة اتحاد نساء العراق سنة ١٩٧٢م هى «نورا حلمى»، وفى سنة ١٩٧٩م السيدة «منال يونس»[٣]: وهناك اتحاد نساء كردستان أيضا[٤].

وفى تقرير عن وضع المرأة فى غربى آسيا أن الاتحاد العام لنساء العراق ينتمى إلى حزب البعث الحاكم ((١٩٧٤)[٥] وقام بالاشتراك مع وزارة التربية بافتتاح ٥٢٥ مركزا لمحو الأمية، بها ٤٩٨١ امرأة، وقام بإنشاء قرية زراعية فى ضواحى بغداد يديرها النساء، وللاتحاد مجلة نسائية توزع سبعة آلاف نسخة. وجاء فى التقرير أن جمعية الهلال الأحمر تأسست ١٩٣٣م، وهناك جمعية الفتيات المسلمات، وجمعية «الرابطة» وهى جمعية نسائية تابعة للحزب الشيوعى.

وقد شاركت المرأة العراقية فى كل أنواع النشاط حتى وصلت إلى منصب وزيرة للبلديات سنة ١٩٥٩م الدكتورة «نزيهة الديلمى» فى عهد عبد الكريم

---

(١) تقرير منظمة غرب آسيا التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع لهيئة الأمم.
(٢) أهرام ٢٥ / ٢ / ١٩٦٤.　　　(٣) القبس ١٩ / ٠٣ / ١٩٧٩.
(٤) أمانى فريد - مجلة الشبان المسلمين يونية ١٩٧٢.
(٥) فى آخر ساعة ٢٦ / ٢ / ١٩٧٥ أن الاتحاد العام لنساء العراق أنشئ سنة ١٩٦٨.

قاسم[1] وحصلت فى العام نفسه على حقها السياسى فى الانتخاب والترشيح للمجالس التشريعية، وجاء فى التقرير المشار إليه أن المرأة العراقية حصلت على حق التصويت بموجب قانون الانتخاب رقم ٧ لسنة ١٩٦٧م، ولكنه لم يحصل انتخاب بعد صدور هذا القانون حتى يطبق عمليا.

ومن الوزيرات: الدكتورة سعاد خليل وزيرة التعليم العالى والبحث العلمى سنة ١٩٧٢م، ومثل العراق فى الملتقى الأول للنساء العربيات والإفريقيات بالجزائر سنة ١٩٧٤م : أظمياء تامر، آمال عبد القادر سعيد، نسرين نوبى.

١٣ - الكويت:

الكويت دولة صغيرة لا يصل سكانها حسب آخر إحصاء إلى مليون نسمة، ارتفع شأنها بعد ظهور البترول فيها، وساعد رخاؤها على الأخذ السريع بأسباب المدنية الحديثة، وظهرت فيها حركة للمطالبة بحقوق المرأة، فتكونت جمعية «النهضة الأسرية» أواخر سنة ١٩٦٢ وسجلت فى ١٧ / ١ / ١٩٦٣[2] كما تكونت جمعية الثقافة النسائية، وأشهرت ١٩٦٣م ورئيسة الأولى هى «نورية السدانى» ورئيسة الثانية هى «لولوة القطامى»، وتبذل المساعى ليتكون منهما اتحاد محلى، وقد أشهر هذا الاتحاد فى ١٦ من نوفمبر ١٩٧٤ برياسة «نورية السدانى»[3]، ولكنه حل فى ١٩٧٧[4]. ولم تعط المرأة إلى الآن حق التصويت والترشيح.

وممن برزن فى حقل المحاماة لأول مرة: سعاد عبد الله الجاسم، شيخة على الدعيج، خريجة كلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت سنة ١٩٧٣[5].

(١، ٢) مجلة صباح الخير ٢٥ / ٤ / ١٩٧٤.

(٣) مجلة العربى يناير ١٩٧٥م.

(٤) مجلة الرسالة بالكويت ١ / ٥ / ١٩٧٧.

(٥) جريدة القبس بالكويت ٨ / ٤ / ١٩٧٤.

وبدأ تعليم البنت فى الكويت رسميا بإنشاء أول مدرسة سنة ١٩٣٧[١] وذلك بفضل الشيخ عبد الله الجابر، وكانت بنته أول طالبة فيها، ويسمونه «قاسم أمين الكويت»[٢]، وأول مدرسة كويتية هى «مريم عبد الملك صالح» تلقت دراستها فى المطوعة ١٩٢٣، وحصلت من المنازل على شهادة التربية النسوية ١٩٤٥. وعينت فى أول مدرسة بنات سنة ١٩٣٨.

وفاطمة حسين هى من أوائل المنادين بتحرير المرأة، مزقت البوشية «غطاء الوجه» فى فناء المدرسة ١٩٥٣م، وهى أول كويتية درست الصحافة وعملت بالإذاعة، وتخرجت فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، ودرست الإنجليزية والفن الإذاعى بجامعة نيويورك[٣].

١٤ - البحرين:

البحرين من دول الخليج، ولما ظهر فيها البترول تحسن حالها، وجاء فى كتاب «قضايا التغيير السياسى والاجتماعى فى البحرين» للدكتور محمد الرميحى[٤]: أن المرأة فى البحرين كانت قبل النهضة الاقتصادية قعيدة المنزل، وإذا خرجت فلمساعدة زوجها فى تنظيف السمك وبيعه إن كان صيادا، أو المساعدة فى الزراعة إن كان زوجها فلاحا، وكانت على العموم متحجبة، وحريتها مقيدة بالتقاليد السائدة، وبعض القبائل كانت تقتل المرأة لأدنى شك فى سلوكها، وتغير ذلك بعد انتشار التعليم.

وكانت المرأة الرقيقة تتمكن من الحرية بمجرد تقديم طلب للممثل البريطانى السياسى، وكانت نتيجة ذلك التحرر هى الفقر، فاضطرت إلى احتراف الدعارة، وانتشرت هذه الرذيلة، وكان احترافها ميسرا فى ظل قيم خلقية آخذة فى التلاشى. ولم يقيد البغاء ولم يحد، اللهم إلا إذا شكا جار من محترفة الدعارة

---

(١) تقرير منظمة غرب آسيا.

(٢) مجلة العربى يناير ١٩٧٥.

(٣) الأهرام ٢٦/ ٤/ ١٩٧٦.

(٤) من ص ٤٢٥ - ٤٢٩.

فيجبرها البوليس على أن تلتزم بيتا للدعارة فى المنطقة المخصصة لذلك، ولم يكن هناك اهتمام بالتضييق على هذه المنطقة.

تحررت المرأة بعد التعليم، وسبقت نساء المدن الثريات بالتحرر، أما الفقيرات ونساء القرى فبقين حبيسات المنزل أو القرية، وحتى سنة ١٩٦٠ كان لا يسمح لهن بمغادرة ذلك، لكن نساء المدينة خرجن وزاولن أعمال التدريس اهـ.

وألفت فى البحرين أول جمعية نسائية تسمى «جمعية نهضة فتاة البحرين» سنة ١٩٥٥م وكانت من ١٥ عضوا، والرئيسة هى «عائشة يتيم» والسكرتيرة هى «فائقة المؤيد» ومهمتها ثقافية اجتماعية، ثم تكونت الجمعيات التالية مرتبة حسب تاريخ إنشائها: جمعية «رعاية الطفولة والأمومة» سنة ١٩٦٠م بدأت بإحدى وثلاثين، وبها الآن ١٣٢ والرئيسة هى الشيخة «لؤلؤة الخليفة»، وهذه الجمعية عضو فى الاتحاد النسائى العربى. وجمعية «أوال» سنة ١٩٧٠م، وجمعية «الرقاع» سنة ١٩٧٠ وبها الآن ٥٤ عضوا، ولم تشهر بعد «فبراير ١٩٧٥» ورئيستها «طفلة الخليفة»[(١)] وجمعية «فتاة الريف» ولم يتم إنشاؤها بعد[(٢)]، وإلى سنة ١٩٧٤ لم تنل المرأة حق الانتخاب والترشيح.

أما تعليم البنت فقد كان أولا فى الكتاتيب لحفظ القرآن وبعض المواد البسيطة، فإذا انتهت منه لزمت البيت، وبدأ التعليم الحديث على يد بعثة تبشيرية أمريكية ١٨٩٢م، وافتتحت «مدام زويمر» مدرسة فى المنامة بها قليل من الفتيات، وأغلبهن من أصل إيرانى ومن الفقيرات، ثم زاد عددهن إلى ٣٨٢ طالبة سنة ٧٠/ ١٩٧١. وفى سنة ١٩٢٨ فتحت «لجنة السنة» أول مدرسة عامة للبنات فثار ضدها المحافظون وأئمة المساجد[(٣)] ومرت مدارس البنات بمرحلة كان

---

(١) ملحق القبس ١٧/ ٢/ ١٩٧٥.

(٢) القبس ٤/٢/١٩٧٥، ١٧/٢/١٩٧٥.

(٣) جاء فى أهرام ١٦/٥/١٩٨٩م أنه فى سنة ١٩٥١م افتتحت أول مدرسة ثانوية للبنات وفى سنة ١٩٦٧م أنشئ المعهد العالى للمعلمات، وفى سنة ١٩٧٩م أنشئت كلية البحرين الجامعية للعلوم والآداب والتربية (جامعة البحرين حاليا).

الإشراف فيها للسير « تشارلز بلجريف » مستشار حاكم البحرين، ثم ضمت مدارس الشيعة والسنة. وفى سنة ١٩٤٠ كان هناك ثلاث مدارس ابتدائية للبنات (٤٥٠ طالبة) وفى نهاية الخمسينات كان هناك ١٥ مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية للبنات (٥٤٦٧ طالبة »[١].

ويقول محمد باشا : إن الشيخة « حصة » عقيلة سمو الأمير الشيخ عيسى ابن سليمان آل خليفة تشرف على الحركة النسائية وترعى الأسواق الخيرية والفنية للمرأة، ومن عاداتها حرصها على يوم الاستقبال، تفتح أبواب المنزل بها صباح كل ثلاثاء بلا حراس ولا بروتوكول لزيارة الصديقات والأسر الديبلوماسية، والشيخة « هيا الخليفة » أول بحرينية فى عالم الآثار، تشرف على متحف البحرين، ودخلت المرأة الشرطة منذ نوفمبر ١٩٧٠م وفيها الآن ٢٣ ضابطة وشرطية. والضابطة مؤهلها جامعى، أما الشرطية فمؤهلها ثانوى، و« آمال المؤيد » أول مصممة أزياء بحرينية، حاصلة على شهادة فى ذلك من جامعة مانشستر بانجلترا، والتحقت المرأة بالفنادق بعد تخرجها من مركز الفندقة والبريد، وقرى البحرين ترعاها « فايزة الزيانى » مراقبة التنمية بوزارة العمل والشئون الاجتماعية، ويوجد بالتلفزيون ثلاثة وجوه نسائية للتقديم والإذاعة، واحدة منهن هى « كريمة زيدانى » قارئة نشرة الأخبار[٢].

١٥ - قطر :

لا توجد لدينا معلومات كافية.

١٦ - دولة الإمارات العربية المتحدة :

فى ٢ / ١٢ / ١٩٧١ تكون هذا الاتحاد من إمارات : أبى ظبى ودبى والشارقة وأم القيوين ورأس الخيمة وعجمان والفجيرة، وانضم إلى جامعة الدول العربية بعد أربعة أيام من مولده.

(١) قضايا التغيير للدكتور الرميحى.
(٢) الأهرام ٣ / ٣ / ١٩٧٨.

وبدأت فى « أبو ظبى » أول حركة للنهضة النسوية فى فبراير ١٩٧٣، حيث قامت الشيخة « فاطمة مبارك » قرينة الرئيس زايد بن سلطان آل نهيان بتكوين جمعية « المرأة الظبيانية » وهى تهتم بالناحية الثقافية للمرأة، ورئيستها هى الشيخة فاطمة[١]. كما توجد جمعية نسائية فى أم القيوين برئاسة الشيخة « مريم المعلا » وجمعية « أم المؤمنين النسائية » فى عجمان برئاسة حرم ولى العهد، وجمعية « النهضة النسائية » فى دبى، ومن أعضائها خيرية ربيع سعد، حصة لونا[٢]. وفى إمارة الشارقة بدأ تكوين جمعية للاتحاد النسائى برئاسة الشيخة « نورا القاسمى »[٣]، وتكون أخيرا الاتحاد النسائى العام لدولة الإمارات، يضم الجمعيات الأربعة سنة ١٩٧٥، وحل محل جمعية نهضة المرأة الظبيانية[٤] وفى ديسمبر ١٩٧٦ انتخبت الشيخة فاطمة قرينة سمو الشيخ زايد رئيسة لهذا الاتحاد، والشيخة « نورا القاسمى » نائبة للرئيسة، والشيخة « أم عمار » شيخة عجمان أمينة للصندوق، « وموزة بنت هلال » التى كانت نائبة لرئيسة جمعية نهضة المرأة الظبيانية، أمينة عامة للاتحاد، والشيخة « مريم المعلا » شيخة أم القيويين، مسئولة عن اللجان فى الجمعيات الخمس لأبى ظبى والشارقة وأم القيوين ودبى وعجمان.

والشيخة فاطمة كانت قد أعلنت قيام الاتحاد النسائى للجمعيات بدولة الإمارات سنة ١٩٧٥ بمناسبة عام المرأة وذلك برئاستها، وهى تقول : أن ٤٥٪ من المتعلمين من البنات.

ومن الخريجات « موزة حبروش » ناظرة المدرسة الابتدائية فى أبى ظبى، و« نورة المدفع » ناظرة الزهراء الثانوية فى الشارقة وهى خريجة جامعة قطر[٥] كما

---

(١) الأهرام ٢/١٢/١٩٧٤.
(٢) القبس ٢٤/ ٤/ ١٩٧٥.
(٣) أخبار اليوم ٣١/ ٥/ ١٩٧٥.
(٤) آخر ساعة ٣/١١/١٩٧٧.
(٥) الأهرام ١٥/ ١٢/ ١٩٧٦.

نقلت عنها «عبلة النويس»[1] أن أول مدرسة بنات نظامية افتتحت فى دولة الإمارات ١٩٥٨، وفى إمارة «أبو ظبى» افتتحت أول مدرسة بنات فى أوائل الستينات.

وجاء فى أهرام ١١ / ١٠ / ١٩٨٨ م أن خريجات الجامعة سنة ١٩٨٧م كان ٦٦٩ وفى سنة ١٩٨١م كان ١٩٤، وأول وكيلة لوزارة التربية والتعليم هى د. عائشة السيار، خريجة جامعة عين شمس كلية البنات وأول ممثلة مسرح هى سميرة أحمد.

١٧ - سوريا :

تقول «رجاء أبو شهبة»[2]: ألفت السيدة «نازك العبد» فى سنة ١٩٢٠ جمعية «النجمة الحمراء» للمشاركة فى الأعمال الوطنية. وبخاصة فى معركة «ميسلون» سنة ١٩٢٠م التى مات فيها «يوسف العظمة» وقادت السيدة «ثريا الحافظ» مظاهرات عندما فرض الانتداب على سوريا، وقامت بدور عظيم سنة ١٩٢٢م بمناسبة استفتاء لجنة «كراين» الأمريكية، كما شاركت المرأة فى مظاهرات وإضرابات فى السنوات ٢٨، ٣٢، ٣٦، ١٩٤٥، وتألف الاتحاد النسائى سنة ١٩٤٤م برئاسة «عادلة بيهم الجزائرى»[3]. وظلت المرأة تجاهد حتى تم الجلاء سنة ١٩٤٥م، ونالت حقها السياسى بالتصويت ١٩٤٩م[4] وفى سنة ١٩٦٧ أنشئ الاتحاد العام النسائى السورى.

ومن أعضاء مجلس الشعب «البرلمان» السيدة/ سعاد عبد الله رئيسة الاتحاد النسائى السورى[5] وجاء فى أهرام ٢٨ / ٥ / ١٩٧٣ : أن الانتخابات الأخيرة فى سوريا سيدخلها خمس سيدات فى مجلس الشعب هن: بشرى

---

(١) مجلة آخر ساعة ٢ / ١١ / ١٩٧٧.

(٢) ملحق الجمهورية ٢٣ / ٢ / ١٩٥٨.

(٣) توفيت بدمشق فى أوائل يناير ١٩٧٥ «الأهرام ٩ / ١ / ١٩٧٥».

(٤) تقرير منظمة غرب آسيا.

(٥) أمانى فريد فى مجلة الشبان المسلمين سبتمبر ١٩٧١.

كنفانى رئيسة الاتحاد النسائى، وهناء الحموى، ومنورة مطلق، وهاجر طارق، وسلمى نجيب.

وفى جريدة القبس[١]: أن اللاتى مثلن سوريا فى الملتقى الأول للنساء العربيات والافريقيات بالجزائر سنة ١٩٧٤ منهن: السيدة/ هاجر صادق عضو المكتب التنفيذى للاتحاد العام النسائى وعضو مجلس الشعب، والسيدة/ وصال فرحة، الدكتورة نجاح الساعاتى الأمينة العامة لرابطة النساء السوريات، هذا وقد عينت الدكتورة نجاح العطار وزيرة للثقافة أخيرا.

١٨ - لبنان:

بدأ تعليم البنات رسميا فى لبنان سنة ١٨٣٤م، ثم انتشر حتى بلغ شأوا بعيدا[٢] وفى مجلة «بيروت المساء»[٣]: أن أول مسلمة لبنانية رفعت الحجاب هى «عنبرة سلام الخالدى» فى العشرينات من هذا القرن، وكانت قد كونت ناديا للنساء، جمعت فيه ستة أعضاء بينهن: ابتهاج قدورة، أمينة حمزة، عادلة بيهم، وكان رفعها للحجاب عندما دعيت لإلقاء كلمة تؤبن فيها عبد الله البستانى أستاذ اللغة العربية، وقد درست «عنبرة» الإنجليزية والآداب فى لندن بصحبة والدها «أبو على سلام».

وجاء فى مجلة «الحوادث» اللبنانية[٤] بقلم سهام خلوصى: أن عنبرة أبوها زعيم إسلامى، وهى من المصيطبة، وقد تأثرت بنساء انجلترا ومصر، وشجعها الملك فيصل وهى تزوره فى مستشفى لندن على تقليد الإنجليزيات فى التحرر، كما تقول: إن تكوين نادى النساء كان قبل الحرب العالمية الأولى حيث اجتمعن فى آذار سنة ١٩١٤م وفكرن فى تكوين جمعية «يقظة الفتاة العربية» وكان ممن حضرن الاجتماع: ثريا طبارة، شفيقة غريب، وداد محمصانى. وشجعهن محمد مختار بيهم سنة ١٩١٧ على تأسيس نادى الفتيات المسلمات، وهو أول ناد فى

---

(١) ١٩٧٤/٣/٢٦.
(٢) تقرير منظمة غرب آسيا.
(٣) ١٩٧٤/٢/١٥.
(٤) ٢٤/ ٣/ ١٩٧٨.

البلاد العربية يدعو الرجال إلى إلقاء المحاضرات فيه، وكان رفعها للحجاب مثيرا للمعارضات وداعيا إلى معاكسة المرأة فى الشوارع.

والمرأة اللبنانية بوجه عام نالت حقها السياسى سنة ١٩٥٢م وكان مقصورا على من حصلت على الشهادة الابتدائية، فيحق لها التصويت، وبعد مرور سنة كان هذا الحق لعامة النساء، وشاركت فى كل الأعمال، ومن الأسماء البارزة غير من ذكرت (لورثايت) رئيسة جامعة الهيئات النسائية اللبنانية، (أميلى فارس) رئيسة المجلس النسائى اللبنانى، التى مثلت لبنان فى الملتقى الأول للنساء العربيات والأفريقيات فى الجزائر ١٩٧٤[١].

وكانت «ابتهاج قدورة» عضوا بالمجلس البلدى اللبنانى، ورأست الاتحاد النسائى العربى بدمشق فى سبتمبر ١٩٥٧م وتعتبر خليفة لهدى شعراوى المصرية[٢].

وجاء فى تقرير منظمة غرب آسيا: أن فى لبنان سنة ١٩٤٧م حوالى ٤٠٤ جمعية غير حكومية، كل منها تخدم طائفتها، وينتمى حوالى ١٠٠ منها إلى المجلس النسائى اللبنانى الذى تأسس سنة ١٩٥٠م. ومن أكبر هذه الجمعيات جمعية الشابات المسيحيات، أما جمعية الشابات المسلمات فتأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الحجم، وتقوم بتوفير التعليم المجانى للبنات فى المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، وتنظم فصولا لمحو الأمية، وافتتحت مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز.

هذا، وقد كانت فى لبنان أديبة تسمى «لبيبة هاشم» ولدت سنة ١٨٨٠م وتوفيت سنة ١٩٤٠م وكانت تملك مجلة نسائية تسمى «فتاة الشرق» سنة ١٩٠٦م، وألقت محاضرات فى الجامعة المصرية سنة ١١/ ١٩١٢ جمعتها فى

---

(١) القبس ٢٦/٣/١٩٧٤.
(٢) السياسة بالكويت ٩/١١/١٩٧٩.

كتاب باسم « التربية » ولكن لم يعرف لها نشاط اجتماعى أو سياسى كما يقول دكتور شكرى عياد، رئيس قسم اللغة العربية بآداب القاهرة[١].

١٩ - الأردن :

من أهم نشاط المرأة فى الأردن فى الميدان الاجتماعى تكوين « رابطة اليقظة النسائية » فى القدس سنة ١٩٥١م، التى طالبت بحقوق المرأة السياسية والاجتماعية، وقد حصلت عليها سنة ١٩٥٥م. وكذلك تكوين « الاتحاد النسائى » بالقدس، الذى كانت ترأسه « زليخا الشهابى » سنة ١٩٥٧م، وبدأت فكرة إنشاء « جمعية الشابات المسلمات » بجهود «آمال البيطار» سنة ١٩٦٤[٢]. ومن الأردنيات اللاتى مثلن المرأة فى الملتقى الأول للنساء العربيات والأفريقيات بالجزائر ١٩٧٤م السيدتان « أصيلى نفاع »، « هند فراج »[٣].

٢٠ - فلسطين :

مازال الوضع فى فلسطين غير مستقر منذ سنة ١٩٤٨، بل قبل ذلك، وإن كانت المرأة قد جاهدت مع الرجل جهادا عنيفا فى سبيل قضية الوطن، فى الداخل والخارج .

ففى سنة ١٩٢٩م تشكلت أول لجنة للاتحاد النسائى الفلسطينى فى مدن فلسطين وللحاجة عندليب أحمد العمد المتوفاة فى أكتوبر ١٩٧٩ نشاط بارز فى الحركة الوطنية فى مدينة نابلس وفى الأعمال الخيرية بوجه عام[٤]. وكانت أول رئيسة لمكتب الاتحادات النسائية السيدة/ زليخة الشهابى ذكر اسمها مع الأردن للعلاقات بين البلدين.

ومن مظاهر نشاطها اجتماع مؤتمر الاتحاد النسائى الفلسطينى فى بيروت فى

---

(١) أهرام ٢/١٢/١٩٧٠.
(٢) أهرام ٤/١٠/١٩٦٤.
(٣) القبس ٢٦/٣/١٩٧٤.
(٤) السياسة الكويتية ٩/١١/١٩٧٩.

٢ / ٧ / ١٩٦٣، الذى رأسته «وديعة خرطبيل»[١]، وكذلك تكوين رابطة المرأة الفلسطينية فى مصر سنة ١٩٦٤م بجهد «سميرة أبو غزالة»، «زينات عبد المجيد»، «جهاد سلامى»، وعقد أول مؤتمر نسائى «فلسطينى بالقدس سنة ١٩٦٥م، وإنشاء «اتحاد عام المرأة الفلسطينية، الذى ترأسه السيدة / عصام عبد الهادى.

٢١ - المملكة العربية السعودية:

ما تزال المرأة فى السعودية محافظة أكثر من غيرها، على الرغم من خروجها أخيرا للتعليم ومزاولة النشاط الاجتماعى فى مجال محدود، فهى تمارسه فى تحفظ، ويغلب ألا تذهب إلى دور التعليم إلا بالزى السابغ، وتطور البلد كفيل بتغيير الأوضاع القديمة ولو إلى حد ما، وبخاصة فى مجال النشاط الاجتماعى، وهى إلى الآن (١٩٧٤) لم تعط حق التصويت والترشيح.

أما تعليم الفتاة السعودية، فقد نشر عنه تقرير فى أخبار اليوم[٢] بقلم عثمان العبد، وفى غيرها من الصحف نقتطف منه: أن تعليمها فى المدارس لم يبدأ إلا سنة ١٩٦٠م، وكانت قبل ذلك ربما تتعلم فى المنزل، حيث لا يهتم بذلك إلا قلة من الأغنياء، وعلى يد معلمات، ولما تقرر فتح مدرسة بالقصيم طالب الناس بإغلاقها خوفا على دين البنت وخلقها، فأقنعهم رئيس الوزراء «فيصل» بفوائد هذه المدارس، ولما دخلتها بنات الأمراء تشجع الباقون.

وجاء فى كلام الشيخ ناصر بن حمد الراشد الرئيس العام لتعليم البنات فى السعودية[٣]: أن تعليم البنات بدأ رسميا عندما أذيع البيان الصادر من الديوان الملكى والمنشور بتاريخ ٢٢ / ٤ / ١٣٧٩هـ، حيث جاء فيه الأمر بتشكيل هيئة من كبار العلماء لتنفيذ المشروع تحت إشراف المفتى الأكبر محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ويضم فى هذه المدارس ما سبق فتحه من مدارس للبنات، وعلى أثر ذلك

---

(١) أهرام ٣/٧/١٩٦٣.   (٢) ١٥/٣/١٩٧٥.
(٣) مجلة المجتمع بالكويت فى ١٨ / ٣/١٩٧٥.

تم افتتاح خمس عشرة مدرسة ابتدائية وفصل واحد لإعداد المعلمات في عام ٨٠/١٣٨١ هـ (١٩٦٠م) والتحق به إحدى وعشرون طالبة من الحاصلات على الابتدائية، وكان فى هذه المدارس فى العام الأول ٥٢٢٨ طالبة بجانب ٣٣ مدرسة أهلية عدد طالباتها ٧٤٨٠ وبلغ عدد مدارس البنات الآن ١١٢٥ مدرسة لجميع مراحل التعليم، بالإضافة إلى ١٣١٣ فصلا لمحو الأمية، ويدرس فى هذه المدارس حوالى ٣١٧ ألف طالبة، وهناك كليتان للبنات، واحدة فى الرياض والأخرى فى جدة، وهما نواة للجامعة السعودية للبنات، وافتتحت كلية الرياض فى عام ٩ / ١٣٩١ هـ (٧٠ / ١٩٧١م) وتخرجت منها الدفعة الأولى فى عام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤م) أما كلية بنات جدة فهى مفتتحة حديثا أهـ.

هذا فى قطاع التعليم، أما فى قطاع النشاط الاجتماعى فقد بدأ بتكوين أول جمعية نسائية بفضل الأميرة «موضى» بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود، وسمتها جمعية «أم القرى» واشترك فيها أميرات العائلة المالكة، وبها الآن ١٥٠٠ مشتركة، ومن نشاطها إنشاء دار حضانة للأطفال، فتحت فى آخر مارس ١٩٧٦، وكذلك قسم لمحو الأمية بين ربات البيوت، وشجع على إنشاء هذه الجمعية الملك فيصل، بعد أن لمس في الأميرة «موضى» نشاطها الاجتماعى، والأميرة «موضى» طالبة ليسانس فى الآداب «تاريخ» بجامعة الملك بعد العزيز بجدة (١٩٧٦) ولها ولدان من الأمير محمد بن سعد بن عبد الرحمن[١].

ويقول المستشار الصحفى بسفارة السعودية بالقاهرة السيد / محمد حسن الفقى: إن الحركة النسائية بدأت سنة ١٩٦٤م بالجمعية النسائية الخيرية التى شاركت فى تأسيسها الأميرة (عفت) حرم المغفور له الملك فيصل، وهناك الآن أكثر من ستين جمعية نسائية تقوم بمحو الأمية وغيرها[٢].

وتقول السيدة نجلاء فارس حرم رئيس بلدية جدة المهندس محمد سعيد

---

(١) آخر ساعة ٢٤/ ٣/ ١٩٧٦م.
(٢) آخر ساعة ١٣/ ٨/ ١٩٧٥.

فارسى: منذ عشرين سنة تأسست فى جدة الجمعية الخيرية النسائية ١٣٨٠هـ، وتعتبر أول جمعية نسائية فى السعودية أو الجمعية الأم، وترأسها رئاسة شرفية السيدة فوزية حرم سمو الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، وتقوم نجلاء بعمل الرئيسة الفعلية، وتضم الجمعية الآن ٤٥٠ عضوة، ونشاطها بارز فى رعاية الأطفال اللقطاء، ونجلاء درست الأدب الإنجليزى لمدة عام فى جامعة الإسكندرية، ثم تزوجت من زوجها الذى كان يدرس الهندسة بالجامعة نفسها، ولم تكمل تعليمها، وكان زواجها ١٩٦٤[١] كما تقول: هناك جمعية ثانية فى جدة اسمها: الجمعية الفيصلية وترأسها الأميرة حصة كريمة الملك خالد. وفى المدينة توجد جمعية طبية، وفى جدة جمعية أم القرى وفى الرياض جمعية النهضة[٢].

٢٢ - اليمن:

إلى عهد قريب، لم توجد حركة نسائية فى اليمن تطالب بحقوق المرأة، ولا تباشر نشاطا اجتماعيا ملحوظا. وإن كان تاريخ اليمن يحفظ أسماء نساء لمعن فى الحكم مثل: أسماء بنت شهاب، وأروى الحرة، وأم حمدان، وفاطمة بنت الحسن، وفاطمة بنت الأسد، وغيرهن، وأقدم ملكة يمنية ملكة سبأ «بلقيس».

والمرأة فى ريف اليمن سافرة الوجه تشارك فى الزراعة، وتقوم بالرعى والتردد على الأسواق، وأما فى المدن فهى محجبة، وإن كانت المدنية بدأت تزحف عليها، نتيجة التعليم، وليس هناك اختلاط فى المدارس.

فى مدرسة «بلقيس» بصنعاء ٥٢٩ طالبة، فى الابتدائى والإعدادى، منهن من تخفى وجهها، ومنهن سافرته، مع تغطية القليل من الرأس. وقد تخرج منهن خمس عشرة فتاة سنة ١٩٧٠م، يحملن الإعدادية، وهن نواة مدرسة ثانوية خاصة بهن.

ولا توجد إلى الآن «سنة ١٩٧٠م» طالبات فى المرحلة الثانوية إلا فتاة

(١) القبس - الكويت ١٧/ ١٢/ ١٩٧٩.
(٢) مجلة النهضة بالكويت ١٩/ ١٢/ ١٩٧٩.

واحدة، اسمها «عائشة أحمد شرف الدين» المتخرجة فى مدرسة بلقيس الإعدادية. درست فى منزلها منهج السنة الأولى الثانوية، وتقدمت للامتحان وحدها، وهى متحجبة لا يظهر منها إلا الكفان والعينان.

وهناك مدرسة للتمريض بها ٨٥ فتاة، شيدتها الكويت، وتديرها هيئة الصحة العالمية، وترأسها «عاتكة الشامى»، وهى تغطى جميع رأسها، ولا يبدو منها إلا وجهها وكفاها إلى نصف الذراع، أما الممرضات فسافرات الوجوه والرءوس وأكمامهن قصيرة. وفى هذه المدرسة تتعلم البنت الدروس العامة والحساب والخط، إلى جانب التمريض.

وعملت المرأة فى مصنع الغزل والنسيج، الذى أقامته الصين، وبه ٢٦٢ عاملة، على وجوههن «المغمق» أى الحجاب الملون. كما عملت المرأة فى الإذاعة. وكانت أول مذيعة تسمى «فاتن محمد عبد الله اليوسفى» وهى سافرة الوجه والرأس، وعليه «إيشارب» يغطى جزءا بسيطا منه، والأكمام قصيرة وفى مجلة (النهضة) بالكويت بتاريخ ٣ / ٤ / ١٩٧٦ أنها الآن مذيعة بالتليفزيون من سبتمبر ١٩٧٥ ونالت دبلوم معهد المعلمات والتحقت بالجامعة بكلية العلوم «كيمياء وفيزياء» ولدت بالقاهرة حيث عاش والدها بها ١٤ سنة، وعاد إلى صنعاء وسنها ٤ سنوات.

وفى ملحق «القبس» بالكويت بتاريخ ١٨ / ٤ / ١٩٧٧ أن السيدة سميرة جمال جميل هى أول مهندسة معمارية فى صنعاء، وأول امرأة خلعت الحجاب فى اليمن الشمالى، ولدت فى صنعاء ١٩٤٨ ووالدها يمنى من أصل عراقى، أعدم سنة ١٩٥١ فى ثورة ضد الإمام يحيى، وأمها تركية الأصل اسمها «سميحة إسماعيل إنما» من أنقرة. وسميرة تعمل فى وزارة الأشغال باليمن، تخرجت من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، وتزوجت أستاذها المصرى المهندس عبد الله محمد السعيد، مثلت المرأة اليمنية فى المؤتمرات النسائية. فى جامعة الدول العربية، وكان أول مؤتمر شاركت فيه من ٢٤ من ديسمبر ١٩٧١. وفى ملحق «القبس»

أيضا فى أول مايو ١٩٧٨ أن رءوفة حسن تعتبر رائدة الحركة النسائية فى اليمن، فبعد ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ فى اليمن أخذت الفتاة مكانها فى المعاهد والمصالح والمصانع وغيرها، وفى بداية عام ١٩٧٩ سيعقد فى صنعاء أول مؤتمر تأسيسى لأول اتحاد نسائى فى الجمهورية اليمنية، والآنسة رءوفة متعلمة واجتماعية ومذيعة باليمن وصحفية وفنانة مسرحية وعضو مؤسس فى جمعية المرأة اليمنية، وهى لا تزال طالبة بكلية الإعلام بجامعة القاهرة، ويعتبرونها فى اليمن رائدة الحركة النسائية، لكنها تقول إن الحركة لم تتبلور بعد، وإن كان فى الماضى توجد قيادات نسائية أمثال: أم الشهيد اللقية وحورية المؤيد، وليلى الوداعى، وفاطمة أبو بكر وغيرهن، وأم الشهيد أول صوت نسائى ارتفع فى اليمن، ولها دور كبير فى الحركة الوطنية وقد بدأت رءوفة نشاطها كمسئولة ثقافية فى إحدى الجمعيات النسائية بمدينة تعز، وكان عمرها إذ ذاك ١٢ سنة، وتقول رءوفة: إن الجمعيات النسائية فى اليمن مرت بعدة محاولات بعضها قدر النجاح وبدأت أول جمعية للمرأة اليمنية فى صنعاء تضع أول أقدامها على الطريق منذ ستة أشهر، ويجرى حاليا إنشاء مثلها فى تعز، وهناك تفكير وتحضير لجمعية فى الحديدة، وبهذا يمكن تكوين اتحاد نسائى سيعقد أول مؤتمر له أول العام الجديد.

وهناك جمعية نسائية صدر بها مرسوم جمهورى فى يوليو ١٩٦٩م وفى مجلس إدارتها من تلتزم الحجاب، فلا يبدو غير عينيها، ومنهن سافرات لا يغطى من رأسها إلا القليل بالإيشارب، مع الملابس القصيرة، والرئيسة هى «حورية المؤيد». ومهمة الجمعية محو الأمية بين النساء وتوعيتهن، والعمل على التخلص من سلطان الرجل، الذى يحرم البنت من مواصلة التعليم بعد الابتدائى، ويسرع إلى تزويجها فى سن مبكرة.

تقول رئيسة الجمعية: حاول بعض أعضاء الجمعية خلع «الشرشف» وهو غطاء أسود يستر جميع البدن، وقد تطور من «الستارة» التى كانت من قماش

مزخرف بالألوان. وتركت المرأة السروال الطويل، واستبدلت به الجورب الأزرق، ولما حاولن أن يسرن فى الشارع سافرات قاطعهن الأهالى، ورفضوا السلام عليهن، على الرغم من أن هؤلاء الأهالى من الطبقة المثقفة «الأطباء والأساتذة»[١].

٢٣ - اليمن الجنوبى:

والقسم الجنوبى من اليمن الذى استقل حديثا، وعرف باسم «جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية» ابتداء من ٣٠/ ١١/ ١٩٧٠، كما أعلنه رئيس مجلس الرياسة السيد / سالم ربيع[٢] - تأثر كثيرا بالاحتلال الانجليزى الذى وطئت أقدامه أرض اليمن سنة ١٨٣٩ م، فكانت هناك ظروف اضطرت المرأة إلى الخروج للعمل على رفع مستوى المرأة العدنية، وللاشتراك فى النشاط الوطنى من أجل تحرير البلاد من الاستعمار.

فتكونت أول جمعية للنساء فى عدن سنة ١٩٥٥م. ومن أبرز المجاهدات المتحررات «رضية إحسان» زعيمة نساء عدن، «صافيناز خليفة» التى خرجت سنة ١٩٥٢م إلى الشارع ومعها خمس فتيات بدون «شيدر» أى حجاب، معارضات للرأى العام الذى يلزم المرأة الحجاب.

وفى العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦م خرج نساء عدن لجمع التبرعات دون مبالاة باستنكار الناس لخروجهن من البيوت.

وفى يوليو ١٩٥٩[٣] جاء وفد من نساء عدن من عضوات الجمعية النسائية إلى القاهرة، وقالت رئيسته: إن المرأة العدنية تنقصها خطوة واحدة، هى رفع الحجاب، وخلع الحجاب هناك هو رمز التحدى «أهرام ٢٠/ ١٢/ ١٩٦٣».

وأول قاضية فى اليمن الجنوبى هى «حميدة زكريا محمد» الحاصلة على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة»[٤].

---

(١) انظر استطلاع مجلة العربى عدد سبتمبر ١٩٧٠م.

(٢) الأهرام أول ديسمبر ١٩٧٠. (٣) الشعب ٢٢/ ٧/ ١٩٥٩.

(٤) أهرام ٤/ ٣/ ١٩٧٠.

وتقول «آسيا حسن على» من اليمن الجنوبية: فى المجلس التنفيذى ثلاث عضوات، وفى مجلس الشعب خمس عضوات، منهن: عايدة يافعى، وعايدة علوى، وفوزية محمد جعفر، ورجاء أحمد سعيد(١).

وفى أهرام ١٨ / ٨ / ١٩٦٤ أن وفدا منهن زار القاهرة برئاسة زينب أحمد سالم حميدان.

٢٤ - سلطنة عمان:

بجوار اليمن الجنوبى إلى الشرق توجد سلطنة عمان ومسقط، والمرأة فيها على قديم عاداتها متحفظة وليس لها نشاط اجتماعى أو خارج بيتها يذكر، والتعليم النسائى النظامى دخل حديثا، ويبدو أن وضعها القديم بدأ يتغير بعد أن تولى الحكم السلطان قابوس بن السلطان الراحل سعيد بن تيمور، وذلك فى ٢٣ سبتمبر ١٩٧٠، ووجدنا شرطة نسائية تلبس الملابس الرسمية. (قميص بنصف كم وتنورة وبنطلون طويل وقبعة) كانت مهمتها أولا تفتيش النساء المسافرات ثم تعددت خدماتها، وقد أنشئت لهن مدرسة تخرج منها ١٢ شرطية عام ١٩٧٢، ثم قفز عددهن فى عام ١٩٧٣ إلى نحو ٦٠ ظهر عدد منهن يوم ١٨ يناير فى استعراض العيد الوطنى وفى افتتاح مدينة الإعلام «منطقة القرم» «وليد عوض فى مجلة «الحوادث» اللبنانية عدد ٩٤٣ فى ٦/ ١٢/ ١٩٧٤» وهناك «راجحة عبد الأمير» مديرة عامة بالتربية والتعليم، «صديقة جعفر» مذيعة، «منى المنذرى» مقدمة برامج بالتليفزيون، كما يقول السفير العمانى بالقاهرة «مال الله على حبيب» انظر آخر ساعة ١٣/ ٨/ ١٩٧٥.

وأول مدرسة ابتدائية للبنات افتتحت ١٩٧٠م وأول مدرسة ثانوية ٤/ ٧/ ١٩٧٥، وهناك جمعية نسائية باسم «جمعية المرأة العمانية» وترأسها «سميرة أمين» الموظفة بوزارة التربية وهى تضم جميع طالبات المدرسة الثانوية تقريبا ومعظم الموظفات والخريجات وتقوم بالتوعية، وبها دار حضانة.

---

(١) مجلة الشبان المسلمين مايو ١٩٧٢.

ومشكلة البنت هى زواجها المبكر عن سن ١٢ سنة، فهى تجبر على ترك المدرسة لتتزوج، كما تقول رحيمة حبيب المسافر من عمان، وهى طالبة ثانوية وأول فتاة تقوم بالأدوار التمثيلية فى الإذاعة، وعضو بالنادى الرياضى وهو مختلط وفيه فرق نسائية «مجلة النهضة الكويتية ١٤/ ٢/ ١٩٧٦» ويقول خلفان ناصر الوهيبى وزير الشئون الاجتماعية والعمل بسلطنة عمان: سمح بالاختلاط فى المدارس الابتدائية وبدأ الحجاب فى الانقراض، وهناك فتيات فى الجيش وضابطة اسمها «هند سليمان» مولودة فى تنزانيا مع أسرتها المهاجرة من ظلم العهد البائد، وتعلمت حتى الثانوية وتجيد الهندية والسواحلية والإنجليزية «آخر ساعة ٢٩/ ١٠/ ١٩٧٥».

٢٥ - ليبيا:

كانت ليبيا تحت حكم الأتراك هى ومصر وتونس والجزائر والمغرب. ثم احتلتها إيطاليا، حتى استقلت أخيرا فى ٢٤ من ديسمبر ١٩٥١م.

وظروف المرأة فى ليبيا مثل ظروفها فى سائر دول شمالى أفريقيا تقريبا، فقد كانت هى الأخرى محتلة من قبل فرنسا، ولما كان احتلال إيطاليا لليبيا قبيل الحرب العالمية الأولى فقد تأخر نشاطها النسوى عن مثيلاتها.

وعلى العموم فبعامل التقليد، وبعامل التطور عامة بدأت حركة نسوية فى ليبيا كان من أثرها تكوين الجمعية النسائية، التى ترأسها السيدة / حميدة العنيزى سنة ١٩٧٠م.

وقد اشتركت فى معرض طرابلس فى مارس ١٩٦٩ ست جمعيات نسائية، هى: جمعية النهضة النسائية بطرابلس. وجمعية النهضة النسائية بمصراطة، وجمعية المرأة الليبية، وجمعية درنه النسائية، والمركز الثقافى للمرأة الليبية، ونادى عقيلات موظفى شركات البترول(١). وجاء فى أخبار اليوم

---

(١) الأهرام ٢٠/٣/١٩٦٩.

(١٠/١/١٩٧٦) أن السيدة خدوجة الشلى انتخبت رئيسة للاتحاد فى ليبيا كما جاء فى جريدة السياسة بالكويت أن الرئيسة هى زهرة الفلاح (١١/ ١١/ ١٩٧٩) وقالت إن فى ليبيا جمعية نسائية (مجلة النهضة بالكويت ٢٤/١١/١٩٧٩).

وشغلت المرأة الليبية عدة وظائف، حتى كانت وزيرة مفوضة فى لندن، ودخلت ميدان الصحافة والإذاعة، فكانت السيدة « خديجة الجهمى » أول سيدة تعمل فى الإذاعة، ورئيسة تحرير مجلة المرأة، التى تصدر شهريا.

وكان للمرأة خمس مقاعد فى مجلس الأمة[1] ومع كل هذا فالحجاب هو السائد فى ليبيا، وإن كانت المدنية الزاحفة وتعليم البنات بالذات سيجرف هذا أو يؤثر عليه كثيرا كما أثر على غيرها.

٢٦ - تونس:

لقد احتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨٢م، بعد طرد الأتراك منها، وطبقت سياستها الاستعمارية فيها كما طبقتها فى غيرها من الدول التى احتلتها، وذلك لتذويب الشخصية العربية الإسلامية، وجعل تونس ولاية من ولايات فرنسا، فرمت بكل ثقلها فى فرنستها. وكان ميدان المرأة والتعليم من أوسع الميادين للنشاط الاستعمارى، كما تقدمت الإشارة إليه عند تعليم المرأة.

كان من نتيجة النشاط أن تزعمت حركة التحرر النسوى فى تونس امرأة تسمى « بشيرة بنت مراد » فى ضاحية تونس « حمام ليف ». فقد نادت فى سنة ١٩٣٥م بنهضة المرأة التونسية أسوة بالمرأة الفرنسية، فمنعتها السلطات، بمعاونة رجال الدين والمحافظين، من مزاولة نشاطها، لكنها حصلت على حقها فى النشاط سنة ١٩٥٠م وأعلنت « الحركة النسائية التونسية للمرأة المسلمة »، وأقامت مؤتمرا فى يونيه من العام نفسه، حضره خمسة آلاف امرأة تونسية بدون حجاب،

---

(١) نجاة الزنيرى فى مجلة منبر الإسلام عدد ذى القعدة ١٣٨٩ (يناير ١٩٧٠).

وجلسن مع الرجال. وقد شرحت فيه أهداف الحركة بأنها لرفع مستوى المرأة من الناحية الدينية، ورفع مستواها الاجتماعي بالتعليم، وتعريفها بواجباتها، والمطالبة بالحقوق السياسية، وممن كان لهم الفضل فى بعث الحركة النسائية فى تونس عبد العزيز الثعالبى، طاهر حداد الذى ألف كتاب « امرأتنا فى الشريعة والمجتمع » وقد هوجم وعزل من منصبه كقاض وجرد من شهادته فهو بكتابه كقاسم أمين (آخر ساعة ١٣ / ٨ / ١٩٧٥).

وقد صدر قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٥٨، فحرم على الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، ومنع وقوع الطلاق إلا بعد رفع الأمر إلى القضاء.

ومن نساء تونس فى حركة التحرر: « اللاصفية » أى صفية هانم، بنت شيخ الإسلام وعميد جامعة الزيتونة، طاهر بن عاشور. تعلمت القرآن فى بيت أبيها، وظلت كذلك تسع سنوات، ولها بنتان كانتا تتعلمان فى المدرسة الابتدائية سنة ١٩٥١، وكانتا تخرجان بالحجاب، ووراءهما الخادم على بعد ثلاثة أمتار يحمل الحقائب، ولها أخت متزوجة من أنصار حركة التحرير، وهى سافرة، وكانت صفية تعيش مع أبيها شيخ الإسلام.

ومنهن « توحيدة بنت شيخ » أول طبيبة تعلمت فى فرنسا بعد معارضات قوية من أسرتها، وبعد استصدار فتوى بحرمة سفرها. لكنها سافرت، وأمضت ثمان سنوات، ثم تزوجت من طبيب فرنسى.

ومنهن الأميرة « زكية » كريمة باى تونس، وهى البنت الثانية، تزوجت وزير الصحة « بن سالم »، وأقامت معه فى ضاحية « باردو »، وقد سفرت ونزلت إلى الميدان، ومثلها بنت رئيس الوزراء « محمد شنيك » التى سفرت وكانت تقيم مع زوجها الطبيب حفلات مختلطة[١].

ومنهن « اللانايلة » أى نائلة بنت أحد رؤساء الوزارة « سيدى كعك ».

---

(١) المصور ١٤ مارس ١٩٥٢.

حجت مع والدها. وهى ترى الأخذ عن الغربيين من علومهم، مع المحافظة على التقاليد الشرقية[1].

وفى نشرة مكتب الاستعلامات التركى رقم ٨ فى ٣٠/٦/١٩٥٨م: أن السيدة/ سيدة ساسى، وهى من أقارب الرئيس «بورقيبة» ورئيسة الاتحاد التونسى، زارت تركيا أخيرا، وقدمت معونة لجمعية مكافحة التدرن باسم تونس.

وتقول السيدة حرم سفير تونس فى القاهرة[2]: أن المرأة التونسية تتمتع بجميع حقوقها السياسية، وتمثلها فى مجلس الأمة السيدة/ راضية الحداد، (يوجد ثلاث نائبات كما فى آخر ساعة ١٣/٨/١٩٧٥) رئيسة الاتحاد النسائى، الذى يملك فروعا فى جميع أنحاء تونس، وذلك لرعاية الأرامل والفقراء وأبنائهم، كما توجد جمعية المجلس القومى لتوفير الملابس للأطفال، وتعمل فيها ربات البيوت متطوعات للحياكة، ومن رئيسات الاتحاد النسائى: فتحية مزالى[3] وللسيدة الماجدة وسيلة قرينة الحبيب بورقيبة فضل فى تغذية الحركة النسائية.

٢٧ - الجزائر:

احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م، وبدأت ثورتها التحررية فى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤م. ثم استقلت، وأعلن ذلك فى ٥ من يوليه ١٩٦٢، وحاولت فرنسا أن تفرنس الجزائر كعادتها فى الدول التى تحتلها، وبذلت فى ذلك جهدا كبيرا كان له أثره فى الرجوع الجاد الشاق إلى الخصائص الأصيلة والبذور الأولى للشخصية الجزائرية.

ومع أن الحجاب يسود الجزائر بنسبة ٨٠٪ فمشاركة المرأة الجزائرية فى ثورتها الاستقلالية أرغمتها على الخروج إلى الميدان، وعمل كل ما يمكنها

(١) آخر ساعة ٢١ نوفمبر ١٩٥١.
(٢) أهرام ٢/١١/١٩٦١.
(٣) أخبار اليوم ٦/١٠/١٩٧٣.

لمساعدة ذويها فى كفاحهم ضد الاستعمار، وتدبير ما يلزم من مخلفات هده الثورة، فتألفت الجمعية النسائية بالجزائر، التى مثلها فى المؤتمر النسائى الدولى فى «فيينا» سنة ١٩٥٩م «مامية شانتوف» رئيسة الجمعية، وعضو جبهة التحرير الجزائرية[١].

والجهاد المرأة الجزائرية الملموس رأينا «بن بيلا» أول رئيس للجزائر بعد الاستقلال، يلقى خطابا فى أول مايو سنة ١٩٦٣ يقول فيه: لا تظنوا أن الحجاب هو الذى يحصن المرأة، ولدينا سبعة ملايين امرأة إذا شاركن فى الحياة العامة تضاعف الإنتاج[٢].

وأنشئ عقب الاستقلال «الاتحاد النسائى الجزائرى» لتأدية الخدمات الوطنية سنة ١٩٦٢م، وهذا الاتحاد، إلى جانب نشاطه الوطنى، يطالب بمنع تعدد الزوجات، وبتقييد الطلاق، وتحديد سن زواج البنات، ويراعى أن نساء الجزائر سنة ١٩٦٣ بلغ عددهن حوالى سبعة ملايين، بينما عدد الرجال نحو خمسة ملايين، فكيف يستقيم منع تعدد الزوجات مع كثرة النساء؟

وهذا الاتحاد كان برياسة «خديجة خيضر» النائبة فى البرلمان والمجلس الوطنى التأسيسى، وهى إحدى تسع نائبات فى البرلمان من بين ١٧٥ عضوا، وذلك فى سنة ١٩٦٣[٣]. وأمينة الاتحاد فى سنة ١٩٧٢ هى «زهور ونيسى» صاحبة مجلة الجزائر النسائية «مجلة الشبان المسلمين مايو ١٩٧٢» بقلم أمانى فريد.

وفى سنة ١٩٦٦ اجتمع خمسمائة مناضلة جزائرية، وانتخبن عضوات المجلس التأسيسى للاتحاد النسائى الجزائرى، المكون من ٤٥ قيادة، منهن ٨ للأمانة العامة[٤].

---

(١) الشعب: ٢١/ ١/ ١٩٥٩.
(٢) الأهرام ٢/٥/١٩٦٣.
(٣) الأهرام ٢٧/٣/١٩٦٣.
(٤) الأهرام ٣٠/ ٤/ ١٩٦٧.

ودور «جميلة بو حريد»، «جميلة بو باشا»، «حسيبة بن على» معروف فى حرب الاستقلال. والفتاة الجزائرية زاد إقبالها على التعليم زيادة ملحوظة، فكان عدد الطلاب والطالبات فى المعاهد العليا والجامعات حوالى ٧٠٠ قبل الاستقلال، فصار فى سنة ١٩٦٧م يزيد على ثمانية آلاف(١).

وفى الملتقى الأول للنساء العربيات والأفريقيات الذى عقد فى الجزائر سنة ١٩٧٤م كان المتحدث عن الجزائر: الآنسة/ صفية مهدى، الأمينة العامة للاتحاد النسائى الجزائرى، وهى تقول فى حديثها: إنها كونت هى وبعض رفيقاتها «الاتحاد النسائى» سنة ١٩٦٢م، بعد الاستقلال، وهى من خريجات دار المعلمات بالجزائر سنة ١٩٥٨م، وعملت مدرسة لغة عربية بوزارة التربية، ثم تركت التدريس سنة ١٩٦٦م لتتفرغ لأمانة الاتحاد النسائى(٢).

٢٨ - المغرب:

أطلقت فرنسا يدها فى مراكش بمقتضى معاهدة بينها وبين الإنجليز سنة ١٩٠٤م، وأعلنت حمايتها عليها سنة ١٩١٢م، وأصدرت فى يوم ٢ من مارس سنة ١٩٥٦م تصريحا باعترافها بسيادة مراكش واستقلالها ووحدتها، وكذلك أصدرت أسبانيا فى ١٧ أبريل من العام نفسه تصريحا بذلك.

وأسلوب فرنسا الاستعمارى هو هو فى شمالى أفريقيا وغيرها. ولذلك رأينا هذه الدولة المحافظة على الحجاب كدول شمالى أفريقيا يتمرد بعض نسائها عليه، مقلدات المرأة الغربية فى تحررها. وكانت أميرات البيت المالك دعاة لهذا التحرر، فالأميرة «عائشة» بنت الملك محمد الخامس راعية النهضة النسائية فى بلادها، ومثلت المغرب فى المؤتمر النسائى العربى الذى عقد بدمشق فى سبتمبر ١٩٥٧م. وكانت هى وزميلاتها الست سافرات. كما نشرته مجلة صحراء المغرب

(١) منبر الإسلام ربيع الآخر ١٣٨٨هـ.
(٢) جريدة «القبس» الكويتية فى ٢٧/٣/١٩٧٤.

التى يصدرها بالرباط « علال الفاسى »[١]، وكان الملك محمد الخامس نفسه يشجع الفتاة فى العمل فى ميدان الخدمة الوطنية، فيهنئ الآنسة « ثريا الشاوى » الطيارة المغربية على شجاعتها فى الطيران فى ٥ من مايو ١٩٥١م.

وقد ساوى دستور المغرب سنة ١٩٦٢م المرأة بالرجل فى الحقوق السياسية[٢]. وفى سنة ١٩٦٨م تأسس الاتحاد الوطنى النسوى بالمغرب تحت إشراف الدولة، وترأسه الأميرة « فاطمة الزهراء ». والأميرة عائشة بنت الملك محمد الخامس حملها والدها مهمة فتح الطريق للمرأة، فبدأت نشاطها ١٩٤٧م حيث خرجت المرأة تنادى بالاستقلال[٣]. وعملت سفيرة لبلادها فى إيطاليا سنة ١٩٧١م، وهى رئيسة مؤسسة التعاون الوطنى، التى هى فى مستوى الوزارة، ومن النساء البارزات السيدة « حليمة الورزازى » التى تعمل فى هيئة الأمم المتحدة، وكانت رئيسة لجنة الوصاية بها، والسيدة « مليكة الفاسى » وزيرة الثقافة، ومنهن أيضا الأميرة « « مليكة » شقيقة الملك الحسن الثانى، وهى رئيسة جمعية الهلال الأحمر، والأميرة « علياء » زوجة الأمير عبد الله شقيق الملك، وهى رئيسة مؤسسة محمد الخامس لإنهاض الضرير، و« فاطمة حصار » رئيسة العصبة النسائية لرعاية الطفولة[٤] وفى سنة ١٩٦٧ عينت أول امرأة للعمل بالقضاء المغربى ومرت السنوات التسع وأصبحن ٢٥ ويكثرن فى محاكم الجنح العادية كحوادث السرقة والسيارات. والباب مفتوح للعمل فى الجنايات والاستئناف العليا، والقاضية إما وكيلة النائب ومدعية ومنهن « سنتيس عتيقة » المتخرجة من كلية الحقوق ١٩٧١م وإما جالسة مع القضاة للنطق بالحكم ومنهن « سيف الدين زينب » تخرجت من كلية الحقوق ١٩٧٣ « من تحقيق لصفية الخولى نشر بمجلة مرآة الأمة بالكويت ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٦ ».

---

(١) مجلة صحراء المغرب ١١ من سبتمبر ١٩٥٧.
(٢) أهرام ١٢ / ٣ / ١٩٦٧م.
(٣) المصور ملحق ٣ / ٣ / ١٩٧٨.
(٤) أمانى فريد فى مجلة الشبان المسلمين نوفمبر ١٩٧١.

٢٩ - موريتانيا :

جمهورية موريتانيا الإسلامية كانت تتبع المغرب، ثم استقلت عنها[١] وليس فيها نشاط ظاهر للمرأة في الميدان الخارجي. أي خارج بيتها، فهي مازالت على العهد القديم في تحجبها، وكفاحها مع الرجل في سبيل لقمة العيش نظرا لطبيعة البلاد القاسية، وهي تهتم بالعلم الديني وبخاصة القرآن الكريم، وقد جاء في استطلاع مجلة العربي عدد سبتمبر ١٩٦٨م. أن المرأة هناك متلفعة بالثوب التقليدي الذي يغطي جميع جسمها ماعدا الوجه، وللنساء بعض اجتماعات بسيطة لمدارسة شئونهن، والحياة بوجه عام مبسطة.

وجاء في صحيفة «المغرب» بتاريخ ١٣ / ٣ / ١٩٥٧م: أن المرأة هي التي تحكم داخل الخيمة، لا تقوم بأعمال كبيرة، حتى الطبخ يقوم به الخدم تحت إشرافها، وتقضي نهارها في الزيارات، وهي موضع احترام زوجها، تأكل قبله وهو يخدمها أثناء أكلها، ولا يتناول طعامه إلا بعد انتهائها، ومن المعتاد هناك أن المرأة لا ترضع أولادها، بل يتخذ النساء المراضع، والخدم هم الذين يرعون الأولاد.

وجاء في تحقيق لسلوى حبيب نقلا عن محمد عبد الله الخارشي مستشار السفارة الموريتانية بالقاهرة، عبد الله ولد عريبية السفير الموريتاني، والمنشور في أهرام ٢ / ٤ / ١٩٦٧ : أن المرأة هناك تعيش في حرية طبيعية، غير محرومة من حق، فقد أدلت بصوتها في انتخابات رياسة الجمهورية لأول مرة، وهي تتحمس للسياسة، وتسمع الخطب وتصفق لها، وتمشي في الطرق بدون حجاب، وتكلم الرجال بدون خجل، وهي مثقفة بلا تعليم، تحفظ القرآن وقواعد اللغة العربية وتاريخ القبيلة. وتتزوج وعمرها ١٣ سنة، وأمها تعنى بتغذيتها باللبن أكثر من الولد ليبكر نضجها وتتزوج.

وفرص تعليمها قد تزايدت بعد الاستقلال سنة ١٩٦٠م. ففي إحصاء سنة

---

(١) واستقلت عن فرنسا في ٢٨ / ١١ / ١٩٦٠ وعدد سكانها حوالي مليون، وعاصمتها نواكشوط.

١٩٦٤ : هناك ٤٣٦٥ بنتا فى المدارس الابتدائية، ١١٥ فى أول مدرسة ثانوية، والخريجات يقمن بالتعليم فى المدارس، وبالتمريض والسكرتارية، وحماسها للعمل ضعيف لأنها تفضل البيت. والتطور بدأ يزحف عليها ويغير منها، فقد ذكر سفير موريتانيا بالكويت (محمد عبد الرحمن) أن السيدة عائشة كانت هى وزيرة حماية الأسرة، وفى البرلمان ٤ عضوات « أخبار اليوم ٢٤ / ١ / ١٩٧٦ ».

٣٠ - السودان :

جاء فى كتاب « الإسلام فى السودان » للأستاذ محجوب زيادة[١] : أن مملكة « الفونج » تأسست بجهود « عمارة دنقس » من قبيلة الفونج الأموية، « عبد الله جماع » من قبيلة القواسم العربية الجهنية، وكان ذلك عام ١٥٠٥ م قبيل فتح الاتراك العثمانيين لمصر على يد سليم الأول، واستمرت حتى استسلمت « سنار » للجيوش التركية ١٨٢١م، وهى عاصمة الفونج.

وفى عهد هذه المملكة نشطت عدة مدارس فى التعليم الدينى، الذى كان هو طابع التعليم العام إذ ذاك، ومن أشهرها مدرسة « أولاد جابر ». ومنها تخرجت « فاطمة » بنت جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله الركابى، الذى يتصل نسبه بالحسين، وكانت تضارع أخاها « إبراهيم » الملقب بالبولاد، لتضلعه فى الفقه والأصول. كانت تضارعه فى العلم والصلاح، وعلى يدها تخرج كثير من رجالات « دار الشايقية » ونسائها العالمات.

وكذلك مدرسة « توتى » التى كانت الفقيهة الأستاذة « عائشة » بنت « ولد قدال » تعلم فيها الناس القرآن، وعلى يدها تخرج الشيخ « خوجلى » المشهور بأبى الجاز، صاحب القبة المشهورة بالخرطوم بحرى.

وفى أواخر القرن التاسع عشر أخلى المصريون السودان، وتولى إدارته

---

(١) سلسلة : اقرأ، إبريل ١٩٦٠.

الفعلية الإنجليز، الذين عملوا على فصل الشمال عن الجنوب، وعلى ترك الشعب جاهلا، حتى لا يتطلع إلى نيل حقه المسلوب، وعاشت المرأة فى ظل الاستعمار جاهلة تؤمن بالخرافات، وتعرف واجباتها الدينية مشوهة، حتى ارتفع صوت الشيخ « بابكر بدوى » فى مطلع القرن العشرين بتعليم المرأة وكان جنديا فى جيش الثورة المهدية .

قدم طلب للمسئولين بمشروعه التعليمى فرفض سنة ١٩٠٤، ١٩٠٥م، فاستقال من جيش الثورة، وبنى أول مدرسة أولية للبنات، وبدأ بها فى بيته الصغير فى قرية « رفاعة » بأرض الجزيرة على النيل الأزرق سنة ١٩١١م . وبعد ذلك بثلاث سنوات بنت الحكومة مدارس للبنات، فافتتحت فى سنة ١٩١٤ مدرسة فى بلدة « الكاملين » القريبة من الخرطوم، ثم مدارس أخرى متوسطة، وفى سنة ١٩٤٩م تخرج أول ثلاث فتيات من المدرسة الثانوية للبنات فى أم درمان، والتحقن بجامعة الخرطوم . كان من أولى المعلمات « نفيسة مكاوى » سنة ١٩٠٧ وكذلك « ست أبوها مصطفى » فى مدرسة بنات رفاعة، ثم جاءت معلمات أخريات، منهن زهرة القبانى، زينب الأوسطى سليمان، نفيسة المدنى، عائشة بدرى، . زينب مالك، النسيم عبد الرحمن وكلهن فى مدرسة بنات رفاعة (آخر ساعة ١٣ / ٨ / ١٩٧٥) .

كان أول تشكيل للمرأة هو نقابة الممرضين والممرضات سنة ١٩٤٦م، ثم تكونت رابطة النساء السودانيات فى أم درمان .

وفى سنة ١٩٤٨ م تكون اتحاد خاص بالمدرسات، تحول فى سنة ١٩٤٩م إلى رابطة الفتيات الثقافية، برياسة « فاطمة طالب » .

وفى سنة ١٩٥١م كونت قرينات الموظفين المصريين جمعية للنهوض بالمرأة السودانية، برياسة السيدة / فخرية، حرم يحيى نور بك الخبير الأقتصادى بالسودان، وجعلنها فرعا لمبرة محمد على الكبير فى مصر . فى جنوب الوادى، وكذلك تألفت فى « الأبيض » عاصمة كردفان، جمعية أخرى، برياسة سيدة

مـصـرية هى حـرم حـسين كـرار بك ناظر المدرسـة الوسطى، للنهـوض بالمرأة السودانية[١].

وفى سنة ١٩٥٢م تكون أول اتحاد نسائى سودانى، برياسة «فاطمة أحمد إبراهيم»، ودخل فيه غير المثقفات. وقد ألغى نشاطه فى عهد الحكم العسكرى من سنة ١٩٥٨ – ١٩٦٤م، لكن ظل جهاد المرأة مستمرا على صفحات مجلة «صوت المرأة» التى أصدرتها سنة ١٩٥٥، وكان أول عدد بتاريخ أول يوليو. كما كانت هذه المجلة أول مجلة نسائية تصدر شهريا فى السودان، فلما جاءت ثورة أكتوبر أعادت للاتحاد نشاطه.

تعددت مطالب الاتحاد، وكان منها المساواة مع الرجل فى فرص التعليم والعمل، ثم نادى بالحقوق السياسية، ورفع فى سنة ١٩٥٦م مذكرة يطالب فيها بالانتخاب والترشيح، فحصلت المرأة على حقوقها السياسية. ووصلت إلى منصب وزير، مثل دكتورة فاطمة عبد المحمود وزيرة الدولة للرعاية الاجتماعية «أهرام ٢٥ / ٩ / ١٩٧٥» وعملت المرأة حكما لمباراة كرة القدم مثل منيرة رمضان التى وصلت إلى منصب نائبة الوزير (آخر ساعة ١٣ / ٨ / ١٩٧٥).

وأول سيدة دخلت البرلمان سنة ١٩٦٥م فى أول انتخاب أجرى بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤ هى «فاطمة أحمد إبراهيم» خريجة جامعة الخرطوم، ورئيسة الاتحاد النسائى السودانى، وقد اشتركت قبل فى المؤتمر النسائى العربى بدمشق سنة ١٩٥٧ وقد زار مصر فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٧٧ عضوات فى البرلمان السودانى، الذى يوجد فيه منهن ١٢ منهن: نفيسة الأمين، حياة عمر التيبانى، هانم شوقى، ومحاسن جيلانى، سعدية عبد الله، آمال أحمد مرجان، وفتحية عبد الماجد، ميرى ثابت، الطاهرة محمود عبد الرحمن. ورئيسة الاتحاد النسائى الدكتورة فاطمة عبد الله «آخر ساعة ١٢ / ١١ / ١٩٧٧ والأهرام ١ / ١١ / ١٩٧٧».

---

(١) المصور ١٤ من مارس ١٩٥٢.

وتكونت جمعية حماية الأمومة والطفولة سنة ١٩٦٣م، ومن أعضائها المؤسسات السيدة زينب الفاتح البدوى[١].

وتقول فاطمة أحمد إبراهيم: إن المسئولين حاولوا استغلال الاتحاد النسائى لمصلحتهم، فأبت . فكونوا «اتحاد نساء السودان» سنة ١٩٧١م بدلا منه، وتذكر أنها سجنت، وأن زوجها حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٧١م، ولما ثار الشعب أطلقوا سراحها، بعد أن حبست مع ٥٠ سيدة لمدة سنتين ونصف السنة. ولما دعاها الملتقى الأول للنساء العربيات والأفريقيات فى الجزائر سنة ١٩٧٤م منعت رسميا من إلقاء كلمة عن نساء السودان[٢].

٣١ - تشاد :

استقلت تشاد فى أغسطس ١٩٦٠، ومن بين سكانها البالغ عددهم ستة ملايين ظهرت فاطمة بنت عبد الكريم، وأسست فى أول القرن الحالى سنة ١٩٠٣م حزبا نسائيا سريا، انضمت إليه خمسمائة سيدة فى العاصمة وحدها، بخلاف اللجان المكونة فى القرى، وذلك لمناهضة الاستعمار، ولكن النشاط النسائى مازال ضعيفا، نظرا لقسوة الاستعمار الذى ما كان يهمه إلا استغلال البلاد، وقد حضر من تشاد ثلاث نسوة إلى المؤتمر النسائى الآسيوى الأفريقى[٣].

٣٢ - الصومال :

تكون الاتحاد النسائى فى «مقديشو» ، وله فروع فى مختلف المدن، والرئيسة هى «الحاجة حواء موسى» وينطقون الاسم «هاجيا هاوا موسى» وذلك سنة ١٦٤م[٤]، ومن النساء البارزات فى الصومال الفرنسى «فاطمة فرح» التى يسمونها «جان دارك» الساحل، وذلك لقيادتها مظاهرة إلى بيت الحاكم، فأطلق

---

(١) مجلة الشبان المسلمين عدد يونيه ١٩٧٢.
(٢) ألفت قطامش فى جريدة «القبس» الكويتيه ٣١/٣/١٩٧٤.
(٣) الجمهورية ٢٤/٩/١٩٦٠.
(٤) الأهرام ٢/٩/١٩٦٤.

الفرنسيون عليها الرصاص، ومن الزعيمات فى الصومال الإيطالى « خديجة » التى بدأت نشاطها ١٩٤٨م(١).

والمرأة الصومالية شاركت فى كل نشاط، حتى تكون منهن فرقة للصاعقة، ومنهن ضابطة شرطة. ونالت حق الانتخاب والترشيح بقانون الانتخابات الإدراية سنة ١٩٥٨. وفى سنة ١٩٥٩ كانت السيدة « حليمة جونى » رئيسة المجلس البلدى، أى عمدة مقديشو، كما تقول « حياة جردة حسين » حرم سفير الصومال بالقاهرة « عبد الله آدن أحمد »(٢) وفى جيبوتى عاصمة الصومال الفرنسى تأسست أول جمعية نسائية ١٩٧٥م برياسة السيدة عائشة حسن « مجلة العربى يونيه ١٩٧٥ ».

٣٣ - تانزانيا:

دولة تكونت من تنجانيقا وزنزبار، ومن أقوى سيدات تنجانيقا « تيتى محمد » أو « بيبى تيتى محمد » التى تتزعم الجناح النسائى لحزب الاتحاد الوطنى الأفريقى الحاكم فى تنجانيقا، جاهدت من أجل المرأة، ونجحت فى تقديم مشروع إلى البرلمان لإرغام آباء الأطفال غير الشرعيين على دفع نفقة لهم إلى أن يبلغوا سن السادسة عشرة، ووافق البرلمان على الرغم من معارضة الكثيرين الذين رأوا أنه يشجع كثيرا من ذوات السلوك السيئ على تلطيخ سمعة الرجال الشرفاء(٣).

وشغلت « تيتى محمد » منصب نائبة وزير فى وزارة التنمية الاجتماعية من ٦٤ إلى ١٩٦٥، وهى ذات مقدرة خطابية عظيمة(٤).

وهناك السيدة « عزة » حرم السيد محمد على محسن أحد زعماء زنجبار

---

(١) الشعب ٣٠/١/١٩٥٩.
(٢) منبر الإسلام، عدد ذى الحجة ١٣٩٠هـ.
(٣) الأهرام ١٨/٥/١٩٦٤.
(٤) الأهرام ٢٦/١٠/١٩٦٦.

قبل الاتحاد مع تنجانيقا، وقد نادت باشتراك النساء فى الحزب الوطنى، وكانت تعمل على تحرير المرأة من زيها القديم «الملاية اللف» وتسعى لنيل الحقوق السياسية[١].

٣٤ – هذا وهناك حركات للتحرر النسائى فى بعض دول أفريقيا التى لا يظهر فيها النشاط الإسلامى كثيرا:

(أ) ففى ليبيريا، وصلت المرأة إلى أرقى المناصب بعد الاستقلال فى ٢٦/٧/١٨٤٧م، وأول امرأة احتلت منصب رئيس الجمهورية بالنيابة فى العالم كانت «أنجى بروكسى»، وللمرأة هناك حق التمثيل فى المجلس التشريعى، وعضوية البرلمان، وهى تملك من الأراضى والمبانى أكثر من الرجل، وتشترى بمهرها ملكا تسجله باسمها، وميراثها كله لأبنائها وليس للزوج منه شئ، وبالعكس فى حالة الوفاة للرجل، يكون لها الثلث، وللأولاد الثلث، وللحكومة الثلث[٢].

(ب) فى كينيا حركة نسائية زعيمتها مس «أيبكو» رئيسة الحزب النيروبى[٣]. جاء فى ملحق الأهرام ٧/١١/١٩٨٠ م بقلم شويكار على أن كينيا استقلت سنة ١٩٦٣م وبها الآن ٣١ جمعية نسائية، ورئيسة الاتحاد «جان كيانو» والنائبة «ما ما سعيدة» وهى مسلمة وفى البرلمان ٤ عضوات منتخبات وواحدة بالتعيين.

(جـ) وفى أوغندا تتزعم حركة النساء مسز «كيستو كولو» عضو البرلمان التى بدأت نشاطها عام ١٩٥٢.

هذه هى أهم الحركات للنشاط النسوى فى العالم الإسلامى، وهى صورة تعطينها فكرة ولو مبسطة عن وضع المرأة فى العصر الحاضر، يمكن أن تضم إليها صور أخرى لتكون الفكرة أوضح.

---

(١) الشعب ٢٠/٣/١٩٥٩.
(٢) مساعدة وزير الدفاع – الأهرام ١٠/٨/١٩٦٢.
(٣) الشعب ٣٠/١/١٩٥٩.

(د) وفى أفريقيا الوسطى وعاصمتها « بانجى » يوجد تنظيم نسائى للمرأة المسلمة لم يعترف به رسميا إلا فى ٢٠ / ٣ / ١٩٩١م، وقد أسلمت مسيحيات كثيرات على يد رئيسة هذا التنظيم السيدة الحاجة « عائشة سيلا » وكانت مسيحية وأسلمت (من تقرير السفارة المصرية فى « بانجى » أرسل إلى إدارة العلاقات الثقافية بوزارة الخارجية فى ١ / ٥ / ١٩٩١م وأرسل منها إلى الأزهر فى ٢٧ / ٥ / ١٩٩١م وهو ملحق بأوراق جلسة المجمع فى ٢٨ يناير ١٩٩٣م) .

تنبيـــــه :

أكرر ما ذكرته فى الفصل الرابع من أضواء على النشاط النسوى فى العالم الإسلامى ، من أن ما جاء فيه قد تغير بعد طبع هذا الكتاب سنة ١٩٨٠م على مدى أكثر من عشرين سنة .

* * *

الخاتمــــة

بعد هذا الطواف الطويل فى دنيا الحجاب، ببيان حكم الشرع فيه وحكمته، ونظرة الناس إليه ومدى تطبيقهم له، وما تنفس عنه الإهمال فيه، والحركات التحررية التى قامت بها المرأة فى العصر الحديث بوجه خاص.

أذكر القارئ الكريم بأن السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أسرع الناس استجابة لأوامر الله، وأحرصهم على الأخذ بكل ما يرشد إليه الدين، لأن ذلك مقتضى الإيمان بالله والثقة فى تشريعه الحكيم.

وكان تنظيم الاتصال الجنسى عامة، ووضع الوقاية للحفاظ على العرض بتشريع الحجاب خاصة، نوعا من الجهاد النفسى ضد أقوى الغرائز الإنسانية، وكان الصمد [1] فى هذه المعركة بطولة رائعة تعرف بها قوة إيمان المؤمن.

والسلوك الشخصى والجماعى أمارة من أمارات مستوى نضج المجتمع، لأنه تطبيق للمبادئ والأفكار والعقائد والإرشادات، ومن هنا كان المسلمون الأوائل مثاليين فى سلوكهم، لأنه نابع من العقيدة القوية القائمة على الحب العميق للمبادئ ولمن وضعها، والثقة التامة فى خيريتها وفى إيجابيتها لحفظ التوازن النفسى الذى يستهدف خدمة المجتمع دينا ودنيا، قال تعالى ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) لفظ الصمود سمعناه أخيرا، ويقصد به الثبات والشجاعة والصبر وعدم اليأس، لكنه من جهة اللغة لا أصل له فى الوزن، ومعنى مادته لا يعطى تماما ما يراد منه الآن، لكننا استعملناه هنا جريا على المتعارف المألوف بعد شيوعه وكثرة استعماله.

ففى لسان العرب: صمده يصمده صمدا، وصمد إليه يعنى: قصده، ففى حديث معاذ بن الجموح فى قتل أبى جهل: فصمدت إليه حتى أمكنتنى منه غرة أن وثبت له وقصدته وانتظرت غفلته. وفى حديث على: فصمدا صمداً حتى يتجلى لكم عمود الحق.

فعندما شرع الحجاب أسرع نساء الصحابة إلى الامتثال، كما تحكى السيدة عائشة رضى الله عنها، فتقول: رحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ..** ﴾ أخذ النساء أزرهن، فشققنها من قبل الحواشى، فاختمرن بها، رواه البخارى «القرطبى ج ١٢ ص ٢٣٠»، وقالت عائشة أيضا عن نساء الأنصار: إنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، وأشد تصديقا لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل، لما أنزلت سورة النور ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ...** ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل إليهن فيها، ويتلو الرجل على امرأته وبنته وأخته، وعلى ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطها[١]، فاعتجرت به، أى لفت رأسها، تصديقا وإيمانا بما أنزل الله فى كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات، كأن على رءوسهن الغربان، رواه ابن مردويه وأبو داود وابن أبى حاتم عن صفية بنت شيبة عن عائشة «تفسير ابن كثير».

وكان آل النبى ﷺ المثل الأعلى فى تطبيق الحجاب، وذلك لمكانتهن منه، قال تعالى ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ...** ﴾، ونفذته بدقة بالغة، حتى أن السيدة سودة رضى الله عنها لم تخرج للحج بعد الأمر بالاستقرار فى البيت كما تقدم فى ص ٢٠٨، وكذلك لم توافق السيدة أم سلمة على الاشتراك فى فتنة عثمان، كما تقدم فى ص ٤٧٥، وتقدم أيضا فى ص ٦٥ حياء السيدة فاطمة رضى الله عنها عندما دخل والدها عليها ومعها عبد لها، فأسرعت إلى تغطية نفسها، وكان الثوب قصيرا، إذا غطت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها. رواه أبو داود «تفسير القرطبى ج ١٢ ص٢٣٤».

وورد أن عائشة رضى الله عنها، بعدما دفن عمر فى بيتها بجوار النبى ﷺ وأبيها، كانت تنتقب، ولما سئلت عن ذلك قالت: إنى أشعر بروح غريبة «طبقات ابن سعد».

---

(١) المرط كساء من صوف أوخز كان يؤتزريه، أى يستر به أسفل الجسم.

وحكى التاريخ أن معاوية بن أبى سفيان دخل على زوجته « فاختـه بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس » وقيل « بحدل »، ومعه خصى، فاستترت منه، فقال معاوية : إنه خصى . فقالت : إن مثلتك به لا تحل منا ما حرمه الله « المحاسن للبيهقى ج٢ ص٢٠٩ »، محاضرات الأدباء ج١ ص١٣٦ » للأصبهانى، « الحيوان للجاحظ ص ٨٢ » .

وحكى التاريخ أيضا أن « نائلة » بنت الفرافصة، زوجة عثمان بن عفان، لما رأت الثوار ينزلون من سطح المنزل، نثرت شعرها عسى أن يستحيوا منها، فقال لها عثمان : خذى خمارك، فلعمرى لدخولهم على أعظم من حرمة شعرك « أعلام النساء » . لعل معنى هذه الجملة أن غيرته عليها تستهين بالتعرض للأذى، فهو يتحمل دخولهم عليه لإزعاجه، ولا يتحمل أن يرى أحد شيئا مما أمر النساء بستره .

وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة « ج٤ ص٨٧ » : أن امرأة دخل عليها خصى كان يخدم زوجها، وكانت واضعة خمارها، فحلقت شعرها، وقالت : ما كان ليصحبنى شعر نظر إليه غير ذى رحم محرم .

كما تقدم فى ص ٥٦٢ بيع زوجة حاكم بلخ ثوبها المرصع بالجواهر، ولم ترض أن تلبسه مرة ثانية بعد نظر الرجال إليه .

وقال ابن العربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ : لقد دخلت نيفا على ألف قرية، فما رأيت نساء أصون عيالا، وأعف لسانا من نساء « نابلس » التى رمى بها الخليل فى النار . فإنى أقمت فيها فما رأيت امرأة فى طريقى نهارا، إلا يوم الجمعة، فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، فإذا قضيت الصلاة انقلبن إلى منازلهن، لم تقع عينى على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى[1] .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٨١ . وكون « نابلس » هى التى رمى بها الخليل فى النار فيه مقال، فإن إبراهيم بدأ دعوته فى أرض العراق وبعد محاولة إحراقه ونجاته هاجر منها إلى جهة الغرب حيث بلاد الشام — ونابلس من بلاد الشام لا من العراق .

وسيأتى فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة فى بحث حقوق الزوجين حكاية من ادعت على زوجها مالا، فلما طلب القاضى شهودا ليروها أبى، وأقر بالمال، ثم أبرأته إكراما لغيرته عليها.

ومع حرص النساء على الحجاب والآداب الدينية كان أولو الأمر أشد حرصا على مراقبة التنفيذ، ومنع ما يثير الفتنة. وقد رأيت شدة عمر فى الفصل بين الجنسين فى الطواف والوضوء ودخول المسجد، كما تقدم فى ص ٢٤٩، وكذلك ضربه للرجل الذى كان يكلم امرأة فى الطريق ص ٢٥٠، وقد جاء فى كتاب «الرياض النضرة»: أنه كان يقضى حاجات من غاب أزوجهن، وإذا وردت كتب من الجند تبع بها بنات لهم، وسلم الخطاب للزوجة، وقال: إن كنت تقرئين وإلا قرأت لك، فَادْنِى من الباب لأسمعك، ثم يقول لهن: البريد سيسافر فى يوم كذا، فإن كنت تكتبين، وإلا هذه دواة وقرطاس، فأملى على حتى أسمع لأكتب، ثم يجمع الخطابات، ويسلمها للبريد، كما تقدم فى ص ٢٤٧: غضبه للمرأة التى تتعلل للخروج، وأمره لمن اضطرت لذلك أن تلبس البالى من الثياب، وكذلك نهيه عن بناء الغرف حتى لا يطلع أحد على عورات النساء غفلة. وجاء أيضا أن ابن عمر كان يتحاشى دخول المسجد النبوى من باب النساء. وسيأتى فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة نعى الحسن على مزاحمة النساء للرجال فى الأسواق، وضرب معاذ لامرأته عندما أعطت الخادم بقية من تفاحة كانت تأكلها، وكذلك ضربها لاطلاعها من كوة البيت.

ومما جاء عن غيرة عمر، بالإضافة إلى ما سبق من غيرته على نساء النبى ﷺ وإجراءاته الشديدة فى هذا المجال: أن رجلا من الأنصار خرج للغزو، وكان له جار يهودى، فأتى أمرأة الأنصارى فى غيبته، وأخذ يتبجح بهذا الفعل المنكر. حتى أنه فى ذات ليلة استلقى على ظهره، وأنشأ يقول:

وأشعث غره الإسلام منى خلوت بعرسه ليل التمام
أبيت على ترائبها ويضحى على جرداء لاحقة الحزام

فسمعه جار له، وهو بكر بن شداخ، فاغتاظ، فضربه بالسيف حتى قتله، ولما بلغ الخبر عمر رضى الله عنه قال: أنشد الله رجلا كان عنده من هذا علم إلا قام، فقام الرجل فحدثه، فقال عمر: أحسنت أحسنت. «المحاسن للجاحظ ج٢ ص ٦٨».

وجاء فى أسد الغابة – ترجمة بكر بن شداخ – تغيير فى الشطر الأخير هكذا:

على قود الأعنة والحزام. كما جاء بيت ثالث بعدهما هو:

كأن مجامع الرَّبَلات منها فِئَامٌ ينهضون إلى فئام

المراد بالترائب: الصدر، والجرداء الدابة التى يقاتل عليها، والأعنة هى اللجم، والربلات أصول الأفخاذ، والفئام الجماعة من الناس.

وجاء فى ص ٦٦ من المحاسن، ونور الأبصار للشبلنجى ص ٦٣ وعيون الأخبار لابن قتيبة ح ٤ ص ٢٤، وسيرة عمر لابن الجوزى ص ٦١ عن عبد الله بن بريدة الأسلمى، وغذاء الألباب للسفارينى ج١ ص ١٧٣، والمستطرف للأبشيهى ج ٢ ص ١٣٨، وهامشه ج ٢ ص ٢٤١: قصة نفى عمر لنصر بن حجاج، الذى فتن به النساء، وهو ابن الحجاج بن علاط البهزى من الصحابة، وهى – كما ذكرها ابن الجوزى فى كتابه «تلقيح الفهوم» كما يلى:

مر عمر ليلة بالمدينة، فسمع امرأة – قيل: إن اسمها الفارعة أم الحجاج، وقيل: هى الذلفاء، وقيل الفريعة بنت همام أم الحجاج – وهى تنشد:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج؟

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل سهل المحيا كريم غير ملجاج

تهنيه أعراق صدق حين تنسبه أخا وفيا عن المكروه فراج

تهنيه أعراق صدق حين تنسبه أخا وفيا عن المكروه فراج

ما منية أرب فيها بضائرة والناس من هالك فيها ومن ناج

فقال عمر: لا أرى معى بالمدينة رجلا تهتف به الهواتف فى خدورهن، فاستدعاه فإذا هو أحسن الناس وجها وشعرا، فعزم عليه ليأخذن من شعره، فأخذ، فخرج بوجنتين كشقى قمر، فأمره أن يعتم، فافتتن الناس بعينيه، فأمر بنفيه إلى البصرة.

وخشيت الفارعة التى أنشدت هذه الأبيات أن يطلع عمر منها على شئ، فدست إليه أبياتا هى:

قل للإمام الـذى نخشـى بـوادره مالى وللخمر أو نصر بن حجاج

لا تجعـل الظـن حقـا لا تبينـه إن السبيل سبيل الخائف الراجى

إن الهـوى زم بالتـقـوى فحبسـه حتـى يقـر بإلجام وإسـراج

فبكى عمر، وحمد الله على زم الهوى بالتقوى. وفى سيرة ابن الجوزى بيت آخر هو:

إنى غنيت أبا حفص بغيرهما شرب الحليب وطرف فاترساج

ولما نفى نصر إلى البصرة نزل فيها على مجاشع بن مسعود السلمى، فدخل عليه يوما وعنده امرأته «شميلة» وكان مجاشع أميا، فكتب نصر على الأرض: أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك، أو تحتك لأقلك، فكتبت هى: وأنا والله كذلك، فسكب مجاشع على الكتابة إناء، ثم أدخل كاتبا، فقرأه، فأخرج نصرا من بيته وطلقها.

ولما طالت غربة نصر اعترضت أمه عمر رضى الله عنه بين الأذان والإقامة، وعليه إزار ورداء، ومعه درة، وقالت له: والله لأقفن أنا وأنت بين يدى الله، وليحاسبنك، أيبيتن عندك عبد الله وعاصم إلى جنبك، وبينى وبين ابنى الأودية؟ فقال عمر: إن ابنى لم تهتف بهما الهواتف. ثم أرسل عمر بريدا إلى البصرة، وكان عليها عامله عتبة بن غزوان. فمكث أياما دعا الوالى فيها: من يكتب إلى عمر؟ فكتب نصر بن حجاج:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فيا أمير المؤمنين:

لعمرى لئن سيرتنى أو حرمتنى	**ولم آت إثما، إن ذا لحرام[1]**
فأصبحت منفيا على غير ريبة	**وقد كان لى بالمكتين مقام**
أئن غنت الذلفاء يوما بمنية	**وبعض أمانى النساء غرام[2]**
ظننت بى الظن الذى ليس بعده	**بقاء فما لى فى الندى كلام[3]**
فيمنعنى مما تقول تكرمى	**وأباء صدق سابقون كرام**
ويمنعها مما تقول صلاتها	**وحال لها فى قومها وصيام**
فهاتان حالانا، فهل أنت راجعى	**فقد جب منى كاهل وسنام؟[4]**

فلم يرجعه عمر، بل أقطعه دارا بالبصرة، ودارا بسوقها. فلما مات عمر رجع إلى المدينة. أهـ فهل فى أولى الأمر من ينهج نهج عمر فى شدة الرقابة على الأخلاق وحماية الآداب:

لقد كان هناك تعاون على حفظ الشرف بين الرجال والنساء، وبين الحكومة والشعب، وبذلك قلت الجرائم إلى حد كبير، حتى أن من كانت من النساء تباشر أى نشاط أدبى أو أجتماعى كانت فى حشمة ووقار. فزبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد، كانت ذات فضل وبر، نقلت الماء من واد بعيد إلى عرفات ومنى ومكة، وكانت لها اجتماعات أدبية، وعندها مائة جارية يحفظن القرآن.

لما زارها الرشيد، ومعه ابن جامع، استقبلته بالجوارى، فقال لها: معى

---

(١) وجاء هذا الشطر برواية: وما نلت من عرضى عليك حرام.

(٢) وقبله كما فى بعض الروايات:

وما لى ذنب غير ظن ظننته　　وبعض تصاديق الظنون أثام

(٣) وجاء هذا الشطر برواية: بقاء وما لى جرمة فالام.

إمام الهدى لا تبتلى الفرد مسلما　　له حرمة معروفة وزمام

(٤) جاء بعده بيت آخر فى سيرة ابن الجوزى:

وقيل: إن هذا الشعر مصنوع، كما فى عيون الأخبار.

ابن جامع. فعدلت إلى بعض المقاصير، وجلس ابن جامع فى بعض الأماكن حتى لا يراها. وكانت تسمع الشعر وتنقده وهى خلف الستار، كما ذكره البستانى فى دائرته، وكما فى حكاية الفقهاء الذين جمعهم الرشيد للفتيا فى يمين، فكانت تسمعهم من وراء حجاب «تاريخ التشريع للخضرى».

وكان أبو مسلم الخراسانى غيورا على نسائه، لا يدخل داره غيره، وذكر أنه لما زفت إليه امرأته أمر بذبح الفرس الذى ركبت عليه، وبحرق السرج لئلا يركبه ذكر.

وجاء فى العقد الفريد «ج١ ص ٢٠٣»: أنهم كانوا لا يجيزون للمرأة أن تجتمع مع الرجال على الأكل، يقول بكر بن عبيد الله: أحق الناس بثلاث لطمات من دعى إلى طعام فقال لصاحب المنزل: ادع ربة البيت تأكل معنا.

وتقدم فى الحديث عن الحركة النسوية فى فارس «إيران» حكاية الرحالة ناصر خسرو عن مدينة «طبس»، وفيها أن المرأة إذا ثبت عليها أنها كلمت غير قريبها، أو أن الرجل إذا ثبت عليه أنه كلم غير قريبته فجزاؤهما القتل.

والتاريخ يذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمى حرم على المرأة الخروج مطلقا، بل حرم على صناع الأحذية، وتجارها معاملة النساء، وقد أرادوا السخرية منه، فصنعوا له امرأة من الورق، وألبسوها ملاءة وخفا، ثم أوقفوها فى الطريق، فأمر بالقبض عليها. ولما ظهرت له الحقيقة أمر بإحراق حوانيت تجار الأحذية وصناعها، وأحرق كثيرا من المنازل الحافلة بالنساء، وهذا، وإن كان تصرفا فيه شذوذ، إلا أنه يدل على وجه العموم على أن الرقابة على سلوك المرأة كانت قوية.

وكان السلطان سليم يحرم على المرأة أن تخرج إلا منتقبة، وإلا ضربت كالحيوانات، وربطت من شعرها فى ذيل حمار، ليطاف بها على هذه الحال فى أنحاء القاهرة.

وإذا كان الحفاظ على الحجاب قويا فى العصور الأولى فإنه لا يعنى ألا تكون هناك بعض حالات شاذة، خرجت فيها المرأة على الأصل المألوف، ولا يعد

عملها تشريعا، ولا يعطى حكما عاما على المجتمع فى ذلك العصر، فالحكم للأعم الأغلب، فقد نقلت عن عائشة بنت طلحة ابن عبيد الله بن عثمان التميمية أخبار فى هذا المجال لا يقرها الشرع، على الرغم من شرف نسبها وشرف بيئتها التى تربت وعاشت فيها.

فأمها هى أم كلثوم بنت أبى بكر، أخت عائشة رضى الله عنها، وأخت أسماء أيضا، تزوجت على الرغم منها ابن خالها: عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، ولما مات وهو مول منها، أى حالف على عدم قربانها تزوجها مصعب ابن الزبير أخو عبد الله بن الزبير وواليه على العراق، وكان زواجه بها على زوجته سكينة بنت الحسين وكانت تتمنع على مصعب كثيرا، وتحلف ألا تكلمه، فيوسط الناس بينهما للصلح ومن الوسطاء أشعب. فلما قتل مصعب خطبها بشر مروان فرفضت وتزوجت عمر بن عبيد الله بن معمر التميمى، ومكثت عنده ثمانى سنوات ثم توفى سنة ٨٢ هـ. فندبته قائمة، ولم تندب أحدا من أزواجها إلا جالسة، وعزمت على ألا تتزوج بعده، وبرت فى يمينها. وكانت تقيم سنة بمكة وسنة بالمدينة، وتخرج إلى الطائف حيث تمتلك هناك قصرا وأموالا، وتقدمت بعض أخبارها فى الحج فى ص ٩٥.

كانت من أندر نساء عصرها حسنا وجمالا وعفة وأدبا، لكنها كانت شديدة الخلق كنساء تيم أشرس خلق الله وأحظى عند أزواجهن، وكانت من أشد الناس مغايظة لأزواجها، وتواترت الأخبار بأنها كانت تزهى بجمالها، وتكشف وجهها للناس(١)، وكان زوجها مصعب يلومها على ذلك، فتقول: إن الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس، ويعرفوا فضلى عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما بى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد(٢).

ومع أن عملها لا يعد تشريعا، فقد يطعن فى هذه الرواية، ولئن ثبتت

---

(١) «أقرأ» ص ٨٣ لكمال بسونى.

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١، ٢٠٢، والحصرى على هامشه ج ١ ص ٢٤٠.

فليس لعائشة علة فى كشف محاسنها، لكن طبع المرأة هو هو فى كل زمان ومكان، والمدار فى الأمر على زم الهوى بالتقوى.

ذكروا أنها نازعت زوجها عند أبى هريرة، فسقط حجابها عن وجهها، فقال أبو هريرة: سبحان الله ما أجملك، ما أحسن ما غذاك أهلك!!، والله لكأنك خرجت من الجنة. فلما سمع زوجها ذلك هاج فى نفسه، وقام يطلب إرضاءها، وعاد بها.

وقيل: إن السيدة سكينة بنت الحسين قالت لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك، فقالت عائشة: بل أنا أجمل منك، واختصما إلى عمر بن أبى ربيعة، فقال: لأقضين بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح، وأما أنت يا عائشة فأجمل. فقالت سكينة: قضيت لى والله عليها، اهـ الجميلة هى التى تأخذ ببصرك جملة على البعد، فإذا دنت لم تكن فى فتنتها الأولى، أما المليحة فهى التى تأخذ بقلبك على القرب، أو التى كلما كررت فيها نظرك زادتك حسنا[1].

ومثل هذه الأخبار التى لا يوثق بسندها لا تعطينا حكما صحيحا على السلوك، والإنسان ينزه ذوات البيوت الأصيلة الأولى أن يكن فى هذا المستوى، الذى يتحاكمن فى جمالهن إلى شاعر عرف بمغامراته. لكن الأمر الذى يكاد يكون متفقا عليه أنها كانت ذات جمال كبير.

هذا، وقد روى الحديث عنها جماعة، وقال يحيى بن معين: إنها ثقة حجة. وقال العجلى: مدنية تابعية ثقة. وقال أبو زرعة الدمشقى: حدث عنها الناس لفضلها وأدبها، وذكرها ابن حبان فى الثقات، وكانت على علم بأخبار العرب وأيامها.

ومثل هذه الشهادات فى مجال دقيق لا يقبل فيه إلا العدل المعروف بحسن السيرة والسلوك، تنفى ما يروى من مبالغات فى الزهو بجمالها، وكشفه للناس

(١) دولة النساء للبرقوتى - الشعب ٨/١٢/١٩٥٨.

وتبذلها الذى يشتم من هذه الروايات، وكما قلت من قبل: إن سلوكها القولى والعملى لا يعد تشريعا. توفيت بعد مائة ونيف. وفى مرآة الجنان لليافعى: أنها توفيت سنة ١٠١ هـ.

والبيئات البعيدة عن موطن الوحى الأول، والتى دخلت فى الإسلام متأخرة كانت عندها حالات شاذة من السفور وعدم الغيرة، كما تقدم ذكر بعضها فى «مالديف». وذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣م) عن «أيو الاتن» بالصحراء الكبرى أن الرجال لا غيرة عندهم على نسائهم، فنساؤهم لا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع أنهن يواظبن على الصلاة، وهن يتخذن الأصدقاء من الرجال الأجانب، كما يتخذ رجالهن صديقات أجنبيات.

وقد عجب ابن بطوطة من مصاحبة بعض القضاة للأجنبيات، وترك نسائهم يصادقن الرجال، مع معرفة هؤلاء بأمور الشرع، وتوليهم مناصب كبيرة «مهذب رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٩٩». وممن تحدث عنهم قاضى «أيو الاتن» «أبو محمد بندكان المسوفى» الذى رد على ابن بطوطة بقوله: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة، لا تهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم. يقول ابن بطوطة: فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه.

هذا، وكان العالم الإسلامى فى أيام الخلافة العثمانية متمسكا بالحجاب إلى حد كبير، وقد تطرف فيه السلاطين على النحو الذى تقدم ذكره. واستمر الحجاب محترما فى مصر أيام المماليك وحكم محمد على، وإن كانت له شواذ بسبب وجود العناصر الأجنبية التى دخلت على المجتمع المصرى، وما حدث أيام الحملة الفرنسية.

ففى تاريخ الجبرتى «وقائع شهر رجب سنة ١٢٠١ هـ – إبريل ١٧٨٧م» أنه نودى على النساء أنهن إذا خرجن لحاجة يخرجن فى كمالهن، ولا يلبسن الحبرات الصندل ولا الأفرنجى، ولا يربطن على رءوسهن العمائم المعروفة بالقازوغلية، وذلك من مبتدعات نساء القازوغلية، وذلك أنهن يربطن الشاشات الملونة المعروفة بالمدورات، ويجعلنها شبه الكعك، ويملنها على جباههن،

مقصوصات بطريقة معلومة لهن، وصار لهن نساء يتولين صناعة ذلك بأجرة على قدر مقام صاحبتها. ومنهن من تعطى الصانعة لذلك دينارا أو أكثر. وفعل ذلك جميع النساء حتى الجوارى السود «مختار الجبرتى ص ١٧٥».

وكانت الأوامر كثيرة للنساء بعدم التردد فى الأسواق إلا بقدر الحاجة «حوادث شوال ١٢٠٠ هـ - أغسطس ١٧٨٦م من الجبرتى ص ١٥١» بل منعن منه، بسبب احتكاك العسكريين «حوادث جمادى الأولى ١٢٠١ هـ (إبريل ١٧٨٧) مختار الجبرتى ص ١٧٥». كما أمرن بعدم الخروج للتنزه فى الحقول أيام شم النسيم، وذلك حرصا عليهن من هجوم اللصوص «وقائع رجب ١١٣٥ - إبريل ١٧٢٣م عن مختار الجبرتى ص ٥٣».

وكان النساء يخرجن للنزهة فى حديقة الأزبكية فى عهد محمد على منتقبات. وغير المسلمات كن سافرات، إلا إذا قرب منهن رجال فيحتجبن، كما قال السائح الفرنسى «دى نرفال».

وظل الحال مستمرا على الحفاظ على الحجاب. حتى حدث ما حدث من أسباب دعت إلى السفور، كما تقدم ذكره فى موضعه. وأصبح الرجل المسلم أو المرأة المسلمة تتنصل من الحجاب، وتتمدح بالتحرر منه، وتكونت جمعيات وأنشئت اتحادات وروابط وتشكيلات كثيرة تدعو إلى الحرية، وكان أثر هذه الحركات واضحا فى المدن أولا، ثم انتقل إلى الريف، وكلما كانت المنطقة بعيدة عن الاتصال بالحضارة الحديثة كان التحرر من الحجاب متأخرا وبطيئا.

لقد اتخذ الحجاب الآن لونا جديدا. ومفهوما حديثا، وصار أمرا نسيبا له عند الناس درجات، فكاشفة رأسها فقط مع ستر جميع بدنها يقال لها الآن: محتشمة، بالنسبة إلى كاشفة الذراعين والصدر، وصاحبة الأكمام القصيرة يقال لها: محتشمة، بالنسبة لغير ذات الأكمام، وصاحبة فتحة العنق الضيقة محتشمة بالنسبة إلى من تكشف ما فوقها، وهكذا.

ومع كل ذلك فهذه المظاهر لا يوافق عليها الشرع. كما توجد هناك مفارقات فى استعمال الحجاب، تظن به بعض السيدات أنه يعنى فقط تغطية الرأس، دون اهتمام بكشف الذراعين والساقين، أو وضع المساحيق، أو جعل

الملابس ضيقة محددة، أو وضع شارات على مواضع تلفت النظر. فالحجاب لابد أن يكون تنفيذه كاملا حتى يؤدى الغرض المطلوب من تشريعه، وهو منع الفتنة وصيانة الأعراض.

ومهما يكن من شئ فإن الحجاب فى صورته القريبة من المشروع يكاد يكون طابعا عاما فى بعض الأقطار الإسلامية، كالسعودية مثلا، إذا استثنينا قبائل عسير حيث يكثر السفور فيها، كما تقدم ذكره على لسان « السيد طلعت وفا » مدير بوليس جدة. وكذلك يشيع الحجاب فى بلاد أخرى. حتى أن اليهوديات يلزمن الحجاب أو يحافظن عليه كثيرا فى بغداد كما تحافظ المسلمات، نزولا على حكم البيئة، كما ذكره الرحالة محمد ثابت منذ ثلاثين عاما.

وكذلك يشيع الحجاب فى أفغانستان والجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا قبل أن يحتلها الشيوعيون. فقد كانت المرأة هناك يحافظ عليها بغيرة شديدة، وكانت فى « أوزبكستان » إذا خرجت تحتجب بالبارانشا. وهو كيس أسود محكم الإغلاق مصنوع من شعر الخيل، يغطى الرأس والجسم كله، مثل ثلاجة اللحم (كذا)، وكانت البنت إذا بلغت العاشرة تغطى فمها إذا خرجت، ولما غزت روسيا هذه المنطقة، وشجعت نساء الأوزبك على خلع هذا الرداء ثار الرجال، وقاموا بإحراق من فعلت ذلك حية بالبترول.

ونحن إذا كنا ندعو إلى التزام الحجاب الشرعى، فإننا لا نريد به العودة إلى قسوته الشديدة التى كان عليها فى بعض العصور التى لم تفهم حكمته، فأدى إلى نتائج خطيرة، من جهل الأم وجهل الأولاد وبالتالى شيوع الخرافات والمعتقدات الباطلة وما إليها، كما ذكر عند الحديث عن الحريم، بل نريده حجابا شرعيا يمنع الفتنة، ولا يعوق المرأة عن التمتع بحقوقها المشروعة فى الإطار الذى حدده الدين للعلاقة بين الجنسين.

إننا نهيب بالمسلمين جميعا أن يقفوا أمام هذا التيار الجارف الذى تزحف به المدنية الغربية فى سفورها وتحللها، على الشرق والإسلام، نتيجة للتخطيط القديم الذى وضعه اليهود بناء على تعليمات التلمود، للسيطرة على العالم عن طريق سلخه من معتقداته وأخلاقه، واستعمال كل الأساليب لتحقيق هذا الغرض، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة.

إن الضمير السليم ورجولة الرجال مازالا يجدان مكانهما في المجتمع الإسلامى، والواجب هو الحفاظ عليهما من طغيان الأفكار الملتوية والآراء الشاذة المنحرفة، إن هذا الصوت الداخلى، النابع من أعماق الفطرة ما زال يستنكر خروج المرأة عن حدها، ومازال يعتقد أن الانطلاق الشهوانى هو سبب النكبات التى حلت بأخلاق العالم.

وجدير بالمسلمين، ودينهم دين الغيرة على كرامة الرجل والمرأة معا، ألا يقفوا موقف المتفرج من هذه «الموضات» الزاحفة، أو موقف المستحسن الذى تمادت بسببه المرأة حتى كشفت عن أعز شئ وأقدسه، وبذلته بسخاء إلى الذئاب البشرية.

وإنى لأذكر بالإعجاب هذه اللفتة الإنسانية، على الرغم من وجود مفارقات كثيرة، من هولندا، التى أصدر برلمانها لائحة جديدة خاصة بملابس موظفات البرلمان، تمنع السكرتيرات من ارتداء «الجونلات» القصيرة، وتقضى بارتداء ملابس تغطى الصدر والعنق، ومراعاة اختيار الألوان الوقورة، وذلك لعدم الخروج على هيبة البرلمان(١).

وكذلك ما حدث فى «مالاوى» فقد أذاع المدعى العام فيها يوم ٢/١١/١٩٧٠ بيانا يمنع ارتداء «المينى جوب». استغرقت إذاعته بالإذاعة عشرين دقيقة. وقد أسرعت النساء الأجنبيات المقيمات فى «مالاوى» إلى المتاجر لشراء أزياء طويلة(٢).

فأولى بالمسلمين أن يحافظوا على وقارهم فى كل ميادين النشاط العلمى والاقتصادى والاجتماعى، وأن يلزموا المرأة زيا يقرب، على الأقل، مما وضعه الدين. وأن يكون القادة وكبار الشخصيات مثلا عليا فى مراعاة الآداب الإسلامية، وأن يتعاون الجميع على وقاية المجتمع من الانهيار، ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [المائدة: ٢]، والله هو الموفق والمعين.

* * *

(١) الأهرام ١/٤/١٩٦٧.

(٢) الأهرام ٣/١١/١٩٧٠.

قائمـــــــة

بأسماء بعض الشهيرات من النساء
فى التاريخ الإسلامى
ممن لم يرد ذكرهن فى هذا الجزء
من كتاب « أعلام النساء »

١ – آمنة الرملية، من عابدات القرن الثالث الهجرى. دعت لبشر بن الحرث وهو مريض ، وكذلك دعت لابن حنبل «لواقح الأنوار للشعرانى».

٢ – آمنة بنت عبد الرحمن بن أحمد محمد المقدسية، محدثة عابدة توفيت فى ٦ شوال ٧٤٢ هـ.

٣ – أسماء بنت إبراهيم، عابدة عالمة، علمت النساء القرآن والعلم. توفيت ليلة الجمعة ٩ من جمادى الأولى ٧٠٨ هـ «الدرر الكامنة – هى وسابقتها».

٤ – أسماء بنت موسى الصنهاجى «الصنجاعى» يمانية من زبيد. كانت تقرأ التفسير والحديث وتعظ النساء، توفيت فى زبيد ٩٠٤ هـ «الأعلام للزركلى».

٥ – الأميرة أمينة هانم، أم المحسنين، حرم الخديوى توفيق، أنشأت مدرسة للبنات، سمتها باسمها، توفيت فى ٨ أغسطس (تموز) سنة ١٩٣١ م «جريدة المقطم».

٦ – بيبى حاتم زوجة تيمور لنك، شيدت مسجدا فى سمرقند سنة ١٨٠١هـ، وهو عامر إلى اليوم.

٧ – بيرم بنت أحمد بن محمد الديروطية، قرأت القرآن بالروايات السبع، وقرأت على شيوخ بيت المقدس، ووعظت النساء، وحفظت كتاب العمدة والأربعين النووية والشاطبية... توفيت فى القرن التاسع الهجرى.

٨ – حُجَّاب بنت عبد الله، شيخة رباط بغداد، كانت غاية فى الصلاح، توفيت فى المحرم سنة ٧٢٥ هـ «الدرر الكامنة».

٩ – حفصة بنت سيرين، اشتهرت بالعبادة وقراءة القرآن. مكثت فى مصلاها ٣٠ سنة لا تخرج إلا لحاجة أو مقابلة، توفيت عن ٧٠ أو ٩٢ عاما سنة ١٠١ هـ.

١٠ – حفيظة رستم، محسنة مصرية، مسجدها فى مصر الجديدة، توفيت ١٩٣٨م.

١١ - حميدة بنت واثق. واعظة من القرن الرابع الهجرى ، أقامت فى المدينة وبغداد ، وعقدت مجالس الوعظ.

١٢ - خديجة بنت أحمد بن عزوز الحميدى الفاسية، حفظت القرآن برواياته، وتلقى عليها القرآن عبد الحفيظ الفاسى برواياته الثلاث، توفيت بفاس بعد سنة ١٣٢٣ هـ بقليل.

١٣ - خديجة بنت الحسن بن على بن عبد العزيز، من حافظات القرآن بالتجويد المتقن والمتفقهات فى الدين، توفيت ٦٤٠ هـ.

١٤ - خديجة بنت على بن وهب القشيرى، محدثة، ولدت فى «قوص» وسمعت الحديث سنة ٦٧٩ هـ على العز الحرانى ، وتوفيت بالقاهرة ٧١٧ هـ «الطالع السعيد للأدفوى».

١٥ - واعظة فى بغداد ، ولدت سنة ٣٧٦ هـ، وسمعت أبا الحسين بن سمعون الواعظ، توفيت فى ١٣ محرم ٤٦٠ هـ.

١٦ - خديجة بنت هارون بن عبد الله المغربية الدوكالية، قارئة للقرآن بالروايات السبع، ولدت سنة ٦٤٠هـ، وحفظت الشاطبية، توفيت ليلة الاثنين ٥ محرم ٦٩٥ هـ «التحفة للسخاوى».

١٧ - دهماء بنت يحيى بن المرتضى، أخذت العلم عن أخيها الإمام المهدى، وبرعت فى اللغة والمنطق والشعر، ألفت شرحا للأزهار فى ٤ مجلدات، وشرحا لمنظومة الكوفى فى الفقه والفرائض، توفيت بمدينة «ثلا» من حصون اليمن فى ذى القعدة ٧٣٧ هـ «البدر الطالع لمحمد الشوكانى».

١٨ - رابعة بنت أحمد بن محمد بن قدامة، محدثة صالحة، توفيت فى ١٦ من ذى القعدة ٦٢٠ هـ ودفنت بسفح قاسيون بدمشق.

١٩ - رابعة بنت إسماعيل العدوية، الصوفية المشهورة، توفيت وسنها فوق الثمانين فى بيت المقدس سنة ١٣٥ هـ أو ١٨٠ أو ١٨٥ هـ.

٢٠ – الرباب بنت علقمة بن حفصة الطائى : « أعلام النساء » وذكرت فى موضع آخر باسم الزباء، وقد ذكرت فى باب مقاييس اختبار الزوجين.

٢١ – أسماء بنت أسد بن الفرات الفقيه المالكى المعروف، توفيت ٣٥٠ هـ تقريبا.

٢٢ – أسماء فهمى، من ربات التعليم فى مصر، ولها نشاط نسوى، توفيت فى ١٨ أبريل (نيسان » سنة ١٩٥٦م.

٢٣ – زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسية. تعرف ببنت الكمال، محدثة جليلة، ولدت ٦٤٦ هـ وتوفيت ببيت المقدس فى ذى الحجة ٧٢٢ عن ٧٧ سنة.

٢٤ – زينب بنت إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز، مثل السابقة فى العلم، ولدت فى جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ وتوفيت فى ذى الحجة ٧٢٢.

٢٥ – زينب بنت على بن حسين فواز العاملية، كاتبة شاعرة، ولدت بتنين « قرية تابعة لصيدا » سنة ١٨٦٠ م ، تعلمت فى الإسكندرية وسنها عشر سنوات، لها كتاب : الدر المنثور، فى طبقات ربات الخدور، عدد صفحاته ٥٥٢، طبع بالمطبعة الأميرية المصرية سنة ١٣١٢ هـ، وتوفيت بالقاهرة فى كانون الثانى « يناير ١٩١٤م ».

٢٦ – ست الجميع بنت عطية بن محمد بن محمد بن فهد « وتدعى رحمة أم الهدى ». محدثة ولدت بمكة فى ذى الحجة ٨٣١ هـ وتوفيت فى ذى القعدة ٨٧١ هـ.

٢٧ – ست الخطباء بنت تقى الدين السبكى، محدثة ولدت بالقاهرة، وحدثت بمصر ودمشق، توفيت فى جمادى الآخرة ٧٧٣ هـ.

٢٨ – ست العلماء، واعظة صالحة، تولت مشيخة الرباط فى درب المهرانى، وتوفيت فى رجب ٧١٢ هـ « الدرر الكامنة ».

٢٩ – ست الفقهاء بنت إبراهيم بن على بن أحمد الواسطى الصالحية، محدثة ولدت ٦٣٢ هـ، وتوفيت بدمشق ٧٦٦ هـ.

٣٠ – ست القضاة بنت أبى بكر بن عبد الرحمن بن محمد، محدثة صالحة ولدت فى ربيع الأول ٧٩٧ هـ، وتوفيت فى ربيع الأول ٨٦٤هـ، فى سفح قاسيون بدمشق.

٣١ – ست الوزراء بنت عمر بن أسعد التنوخية الدمشقية، محدثة فاضلة، ولدت ٦٢٤ هـ، وتوفيت فجأة فى شعبان ٧١٦ هـ.

٣٢ – سُتَيْتَة بنت عبد الواحد بن محمد البجلى، محدثة فاضلة، توفيت فى رجب ٤٤٧ هـ فى بغداد.

٣٣ – ستيتة بنت محمد بن الدمياطى ، محدثة ولدت بالقاهرة ٧١٠ هـ، وتوفيت بالقاهرة ٧٨٠ هـ.

٣٤ – صفية بنت عبد الرحمن بن محمد بن على بن يعيش، كاتبة أديبة واعظة، توفيت يوم الجمعة ٤ من ذى الحجة ٦٢٠ هـ.

٣٥ – صفية أم على، محدثة توفيت بدمشق ٦٩٣ هـ.

٣٦ – صفية بنت على بن أحمد بن فضل الواسطى، محدثة توفيت فى ذى الحجة ٦٩٢هـ.

٣٧ – عائشة بنت إبراهيم بن الصديق، زوجة الحافظ المزى، محدثة مجيدة للقرآن، ولدت سنة ٦٦١ هـ، وحدثت ولقنت القرآن كثيرا من النساء، توفيت فى جمادى الأولى ٧٤١ هـ.

٣٨ – عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية. من ربات العلم والوعظ، توفيت سنة ٤٦٠ هـ.

٣٩ – عائشة بنت سعد بن أبى وقاص، من رواة الحديث، توفيت سنة ١١٧هـ وسنها ٨٤ سنة.

٤٠ – عائشة بنت عمران بن سليمان المنوبى «قرية من قرى مدينة تونس» حفظت القرآن وتزهدت ويقال: إنها ختمت القرآن فى حياتها ١٥٢٠ مرة، أخذت التصوف عن أبى الحسن الشاذلى، توفيت يوم الجمعة ٢١ من رجب ٦٦٥ هـ وعمرها ٧٦ سنة.

٤١ – عائشة بنت محمد بن على البغدادى، من ربات الوعظ والصلاح، كانت تعظ النساء، توفيت فى جمادى الأولى ٦٤١ هـ.

٤٢ – عفراء بنت عقال، كان عروة بن حزام يحبها لأنها بنت عمه، لكن أمها زوجتها لغيره لثرائه، فمات كمدا، فعلم به ابن عباس وهو فى عرفة فقال: هذا قتيل الحب.لا عقل ولا قود.

٤٣ – عنان جارية النطفى، اشتراها الرشيد. قالت لأبى نواس: كيف علمك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسن؟ فقال: جيد، فقالت: قطع هذا البيت:

أكلت الخردل الشامى فى صحفة خباز

فلما ذهب يقطع ضحكت من هذا المقطع «أكلت الخر». وبعد هنيهة سألها معرفتها بالعروض، فطلب منها أن تقطع هذا البيت:

حولوا عنا كنيستكم يا بنى حمالة الحطب

فلما ذهبت تقطع ضحك من هذا المقطع «ناكينى» فقالت: قبحك الله، ما برحت حتى أخذت بثأرك.

٤٤ – فائدة الشيخة، من ربات الوعظ والبر، ولدت بعد ٧٩٠ هـ وتولت مشيخة رباط الظاهرية بأسفل مكة، وتعاطت القبالة «التوليد» بمكة، وتوفيت بها فى صفر ٨٧٢ هـ.

٤٥ – فاطمة بنت أحمد بن يحيى، عالمة متفقهة، كانت تستنبط الأحكام الشرعية، وتتباحث مع والدها فى الفقه، وكان زوجها الإمام المطهر يستفتيها فى

كل ما يشكل عليه فى خلال تقريره الدروس، توفيت ٨٤٠ هـ « البدر الطالع للشوكانى » .

٤٦ – فاطمة بنت سليمان بن عبد الكريم الأنصارية الدمشقية، محدثة صالحة، ولدت ٦٢٠ هـ أو ٦٤٠ هـ، وتوفيت بدمشق فى ربيع الآخر ٧٠٨ هـ.

٤٧ – فاطمة بنت عباس البغدادية « أم زينب » . وفى رواية: فاطمة بنت عياش، عالمة فقيهة زاهدة واعظة مؤثرة انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، أثنى عليها ابن تيمية، وتوفيت بمصر فى ذى الحجة ٧١٤ هـ عن نيف وثمانين سنة .

٤٨ – فاطمة بنت عبد الله بن المتوكل على الله المطهر الحسناء، تزوجها الإمام المتوكل على الله يحيى بن شرف الدين، فكانت تعارضه فى جامع الأصول، وتشاركه فى حل المشاكل، توفيت فى صنعاء ٩١٠ هـ.

٤٩ – فاطمة بنت عبد الرحيم الرفاعى، من ربات العلم والصلاح، حجت مع أخيها عز الدين أحمد الصياد ٦٤٣ هـ، وزارت المدينة، وأمام قبر النبى ﷺ قالت :

يارب إن قبلت لديك زيارتى   فاجعل بطيبة قرب طه مدفنى

فتوفيت فى اليوم نفسه، ودفنت قرب الحرم، وكان لها قبة يتبرك بها، فهدمها الوهابيون .

٥٠ – فاطمة بنت عبد الله بن أحمد بن القاسم الجوزدانية الأصبهانية، محدثة فاضلة، ولدت ٤٣٠ هـ، وتوفيت فى أصبهان يوم الأربعاء ٢٤ رجب ٥٢٤ هـ.

٥١ – فاطمة بنت محمد بن شيرين الحنفى، تدعى « ستيتة » أو « ناحية » ولدت بالقاهرة فى ٦ محرم ٨٥٥ هـ وتعلمت الكتابة ونظمت الشعر . وتوفيت بالقاهرة ٩٤١هـ ودفنت بالقرافة .

٥٢ - فاطمة بنت سعد الخير بن محمد بن عبد الكريم الأنصارية، محدثة ولدت بالبحرين أو بأصبهان ٥٢٢ هـ، وتوفيت فى ربيع الأول ٦٠٠ هـ.

٥٣ - لبيبة بنت ناصيف ماضى هاشم، كاتبة باحثة، ولدت فى قرية «كفر شيما» بلبنان وانتقلت مع بعض أسرتها إلى مصر وتزوجت بها، وأصدرت مجلة فتاة الشرق ١٩٠٦م، وحاضرت فى الجامعة المصرية ١١ - ١٩١٢. وسافرت إلى «شيلى» ١٩٢١م وأنشأت هناك مجلة الشرق والغرب فى سنتياجو ١٩٢٣، وعادت فى السنة التالية إلى القاهرة وتابعت إصدار المجلة حتى توفيت.

٥٤ - ميمونة بنت ساقولة، من رباط الوعظ، توفيت ٣٩٣هـ، «النجوم الزاهرة».

٥٥ - هجيمة بنت حيى الأوصابية الدمشقية، أم الدرداء الصغرى، وأوصاب = قبيلة من حمير، وهى العالمة المشهورة، أما أم الدرداء الكبرى فلها صحبة مع النبى ﷺ وهى أم بلال.

كانت هجيمة يتيمة فى حجر أبى الدرداء، تختلف معه فى برنس واحد، وتصلى فى صفوف الرجال، وتجلس فى حلقة القراء، حتى أمرها أبو الدرداء باللحاق بصفوف النساء، ولما توفى أبو الدرداء خطبها معاوية، فأبت وقالت: والله لا أتزوج فى الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله فى الجنة، وكانت معظمة عند بنى أمية، وتقيم ستة أشهر فى بيت المقدس وستة فى دمشق، توفيت سنة ٨١ هـ.

٥٦ - أم الهيثم المنقرية، عادها أبو عبيدة حين مرضت وأسنت. فقال لها: كيف تجدينك؟ فقالت: كنت وحمى بالدكة، فشهدت مأدبة، فأكلت جبجبة من صفيف هلعة، فاعترتنى زلخة. فقلنا: يا أم الهيثم أى شئ تقولين؟ فقالت: أو للناس كلامان؟ والله ما كلمتكم إلا بالعربى الفصيح «الكامل للمبرد».

* * *

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
١٨ طلب إبليس من الله: اجعل لي مصائد، قال: النساء..........	٥٩
١٩ إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم..........	٦٤
٢٠ احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك..........	٦٤
٢١ دخول النبي ﷺ على فاطمة بغلام لها، وستر نفسها منه.....	٦٥
٢٢ حديث المخنث وتحذير النبي ﷺ منه. ونفيه..........	٦٦
٢٣ الشاعر قيس بن الخطيم يعرض عليه النبي ﷺ الإسلام.......	٦٦
٢٤ أخرجوا المخنثين من بيوتكم..........	٦٧
٢٥ لا يحل لامرأة إذا عركت أن تظهر إلا وجهها ويديها..........	٧١، ٧٣، ٧٦
٢٦ شق النبي ﷺ بعض عمامته وقوله لأمة حاضت: اختمري بهذا..	٧٤
٢٧ امرأة أسيد تخدم الحاضرين في وليمة والنبي ﷺ معهم.....	٧٨
٢٨ المرأة عورة..........	٧٩
٢٩ إذن النبي ﷺ لأم عطية، أو أم سلمة أن يحجمها أبو طيبة.....	٨٠
٣٠ كيف يصنع النساء بذيولهن؟ قال: يرخين شبرا..........	٨٠
٣١ يطهره ما بعده..........	٨٠
٣٢ فهذه بهذه..........	٨٠
٣٣ عورة الرجل ما بين سرته إلى ركبته..........	٨٢
٣٤ لا تبرز فخذك... إن الفخذين عورة..........	٨٢
٣٥ كشف النبي ﷺ فخذه، ثم ستره من عثمان..........	٨٣
٣٦ كشفه عن فخذه في بيته..........	٨٣
٣٧ مجيء النبي ﷺ للصحابة بعد صلاة المغرب. وقوله: أبشر.....	٨٤

الحديث　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الحديث		الصفحة

الحديث	الصفحة
٧٤ وارفع إزارك. فإنها من المخيلة	١٠٩
٧٥ ما أسفل من الكعبين من الإزار فى النار	١٠٩
٧٦ ليس منا من تشبه بغيرنا	١٠٩، ١١٠
٧٧ لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر	١١٠
٧٨ لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء	١١٠
٧٩ لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة	١١٠
٨٠ اتخذوا السراويلات. وحصنوا بها نساءكم إذا خرجن	١١١
٨١ نهى النبى ﷺ عن لبس القلانس والنعال	١١٢
٨٢ ليس منا من تشبه بالرجال من النساء	١١٣
٨٣ ثلاثة لا يدخلون الجنة، الديوث	١١٣
٨٤ قوله فى نظر الفجاءة: اصرف بصرك	١١٦
٨٥ يا على، لا تتبع النظرة النظرة	١١٦
٨٦ العينان زناهما النظر	١١٧
٨٧ اطلع رجل فى حجرة النبى ﷺ فقام إليه بمشقص	١١٧
٨٨ من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم	١١٧
٨٩ إنما جعل الله الإذن من أجل البصر	١١٧
٩٠ إياكم والجلوس فى الطرقات	١١٧
٩١ النظرة سهم من سهام إبليس	١١٧
٩٢ ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة	١١٧
٩٣ ثلاثة لا ترى أعينهم النار	١١٨

الحديث		الصفحة
٩٤	اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة	١١٨
٩٥	كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى	١١٨
٩٦	لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم	١١٨
٩٧	لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل	١١٨
٩٨	امرأة من الطائف تكشف عورتها لينصرف عنها الجند	١٢١
٩٩	رؤية النبي ﷺ لعائشة في المنام في سرقة من حرير	١٢٢
١٠٠	النبي ﷺ يصعد النظر فيمن وهبت نفسها له	١٢٢
١٠١	قوله لمن خطب امرأة : فاذهب فانظر إليها	١٢٣
١٠٢	قوله للمغيرة انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما	١٢٣
١٠٣	ذهاب رجل ليرى مخطوبته وكراهة والديها	١٢٣
١٠٤	جابر يختبئ تحت جريد النخل ليرى مخطوبته	١٢٤
١٠٥	إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى منها بعض ما يدعوه	١٢٤
١٠٦	عمر يكشف عن ساق أم كلثوم بنت على وهو يخطبها	١٢٥
١٠٧	رؤية عائشة للعب الحبشة	١٢٩
١٠٨	تعليم النبي ﷺ لرجل من بني عامر صيغة الاستئذان في الدخول	١٣٣
١٠٩	من ذهب الى النبي ﷺ بطعام فدخل ولم يسلم	١٣٣
١١٠	السلام والاستئناس، وهو بالتسبيح أو التنحنح	١٣٤
١١١	رجوع أبي موسى لما استأذن على عمر ثلاثا ولم يؤذن له	١٣٤
١١٢	عدم إذن سعد للنبي ﷺ ليستمتع بالسلام عليه كثيرا	١٣٥
١١٣	قول النبي ﷺ بعد الأكل عند سعد : أكل طعامكم الأبرار	١٣٥

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث | **الصفحة**

الحديث		الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث | الصفحة

الحديث	الصفحة
٢٨٥ إنما النساء شقائق الرجال	٣٨٧، ٤٣٩
٢٨٦ قول أم سلمة للنبى ﷺ : ما لنا لا نذكر فى القرآن	٣٨٨
٢٨٧ أم عمارة تسأل النبى ﷺ مثل ما ذكر، فنزلت الآية	٣٨٨
٢٨٨ قول أم سلمة للنبى ﷺ : يغزو الرجال ولا يغزو النساء	٣٨٩
٢٨٩ امرأة سعد تسأل النبى ﷺ عن حرمان بنتيها من الميراث	٣٩١
٢٩٠ كبيشة يتوفى عنها أبو قيس الأسلت فيجنح عليها ابنه	٣٩٢
٢٩١ معقل يعضل أخته	٣٩٢
٢٩٢ لا تنكح الأيم حتى تستأمر	٣٩٤
٢٩٣ تعليم الشفاء لحفصة رقية النملة بإذن النبى ﷺ	٣٩٦
٢٩٤ عرض رقية النملة على النبى ﷺ وأذنه للشفاء بها	٣٩٧
٢٩٥ قول النبى ﷺ لما سمع قتيله	٣٩٧
٢٩٦ أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها	٣٩٩
٢٩٧ من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات .. فأدبهن	٣٩٩
٢٩٨ لا تسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة	٣٩٩
٢٩٩ من سألت النبى ﷺ عن غسل الحيض وشرح عائشة لها	٤٢٠
٣٠٠ قول الأشعرى يمدح عائشة فى العلم	٤٢١
٣٠١ قول عروة يمدح عائشة	٤٢١
٣٠٢ خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء	٤٢١
٣٠٣ إجارة زينب لزوجها وقول النبى ﷺ	٤٢٣
٣٠٤ أم هانئ تجير رجلا	٤٢٣

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الصفحة

الحديث

الحديث	الصفحة
٣٨٢ كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب	٤٧٦
٣٨٣ قوله لعلى: سيكون بينك وبين عائشة أمر	٤٧٧
٣٨٤ اعتراف عائشة لعمار بأنه قوال بالحق	٤٧٧
٣٨٥ جعل النبى ﷺ لأم ورقة مؤذنا وأباح لها أن تؤم أهل بيتها	٤٨٢
٣٨٦ لا تؤمن امرأة رجلا	٤٨٣
٣٨٧ قوله لأم ورقة: إن الله مهد لك شهادة	٤٨٣
٣٨٨ لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد	٤٨٣
٣٩٠ أى الناس أعظم حقا على المرأة؟ قال زوجها	٤٨٤
٣٩١ مروا أبا بكر فليصل بالناس. إنكن صواحبات يوسف	٤٩٦
٣٩٢ أبو سفيان يوسط فاطمة فى الصلح مع أبيها	٤٩٦
٣٩٣ يجير على المسلمين أدناهم	٤٩٦
٣٩٤ طلب الرسول ﷺ الرأى من الناس فى سبى هوازن	٥٠٠
٣٩٥ وإذا كان أمراؤكم شراركم	٥٠٧
٣٩٦ القضاة ثلاثة	٥٢٢
٣٩٧ عائشة تشيد بالمهاجرات فى المبادرة إلى الحجاب	٥٩٨
٣٩٨ عائشة تشيد بالأنصاريات	٥٩٨
٣٩٩ عائشة تنتقب بعد دفن عمر مع النبى ﷺ وأبيها	٥٩٨

* * *

فهـرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الثانى – ما تخرج له المرأة :

الفصل الثالث – شروط جواز خروج المرأة من البيت :

الموضـــوع الصفحة

الباب الرابع – السفور

الفصل الأول: أسباب السفور:

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الخاتمة

الموضوع	الصفحة

* * *

دار التوفيق النموذجية للطباعة ت : ٥١١٥٣٠٤